

البداية والنهاية

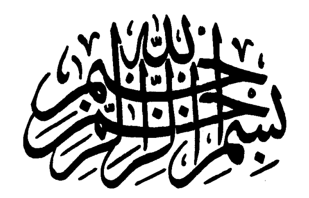
للإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء
إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي
المتوفى سنة ٧٧٤ هـ

أشرف على تحقيقه: فضيلة الشيخ
مصطفى بن العدوي

خرج أحاديث هذا الجزء:
أبو يحيى محمد بن أحمد بن عبده

الجزء التاسع

دار ابن رجب




البداية والنهاية

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م

رقم الإيداع : ٢٠٤٤٩ / ٢٠٠٤
I.S.B.N. : 977 - 390 - 040 - 1

دار ابن رجب طبع . نشر . توزيع

فارسكور : تليفاكس ٠٠٢٠٥٧٤٤١٥٥٠ جوال : ٠١٢٢٣٦٨٠٠٢
المنصورة : شارع جمال الدين الأفغاني هاتف : ٠٠٢٠٥٠٢٣١٢٠٦٨



ثم دخلت سنة ثنتين وستين

يقال: فيها قدم وفد أهل المدينة على يزيد بن معاوية، فأكرمهم وأجازهم بجوائز سنية، ثم عادوا من عنده بالجوائز فخلعوه، وولوا عليهم عبدالله بن حنظلة الغسيل، فبعث إليهم يزيد جندًا في السنة الآتية إلى المدينة، فكانت وقعة الحرة على ما سنبينه في التي بعدها، إن شاء الله تعالى.

وقد كان يزيد عزل عن الحجاز عمرو بن سعيد بن العاص، وولى عليهم الوليد بن عتبة بن أبي سفيان، فلما دخل المدينة احتاط على الأموال والحواصل والأملاك، وأخذ العبيد الذين لعمرو بن سعيد فحبسهم، وكانوا نحوًا من ثلاثمائة عبدٍ، فتجهز عمرو بن سعيد إلى يزيد فركب وبعث إلى عبيده أن يخرجوا من السجن ويلحقوا به، وأعد لهم إبلاً يركبونها، ففعلوا ذلك، فما لحقوه حتى وصل إلى يزيد، فلما دخل عليه أكرمه واحترمه ورحب به يزيد، وأدنى مجلسه، ثم إنه عاتبه في تقصيره في شأن ابن الزبير.

فقال له: يا أمير المؤمنين، الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وإن جلَّ أهل مكة والحجاز مالئوه علينا وأحبُّوه، ولم يكنْ لي جنْدٌ أقوى بهم عليه لو ناهضته، وقد كان يحذرني ويحترس مني، وكنت أرفق به كثيرًا، وأداريه لأستمكن منه فأثب عليه، مع أني قد ضيقت عليه ومنعته من أشياء كثيرةٍ، وجعلت على مكة وطرقها وشعابها رجالاً لا يدعون أحدًا يدخلها حتى يكتبوا إليَّ اسمه واسم أبيه، ومن أيِّ بلاد الله هو وما جاء له، وماذا يريد، فإن كان من أصحابه أو ممن أرى أنه يريده رددته صاغرًا، وإلا خليت سبيله، وقد وليت الوليد، وسيأتيك من عمله وأمره ما لعلك تعرف به فضل مبالغتي في أمرك ومناصحتي لك، إن شاء الله، والله يصنع لك ويكبت عدوك.

فقال له يزيد: أنت أصدق ممن رماك وحملني عليك، وأنت ممن أثق به وأرجو معونته وأدخره لرأب الصدع، وكفاية المهمِّ وكشف نوازل الأمور العظام. في كلام طويل.

وأما الوليد بن عتبة فإنه أقام بالحجاز، وقد هم مرارًا أن يبطش بعبدالله بن الزبير، فلا يجده إلا متحذرًا ممتنعًا، قد أعدَّ للأمور أقرانها، وثار باليمامة رجلٌ آخر يقال له: نجدة بن عامر الحنفيُّ. حين قتل الحسين، وخالف يزيد بن معاوية، ولم يخالف ابن الزبير بل بقيَ على حدةٍ، له أصحابٌ يتبعونه، فإذا كان ليلةُ عرفة دفع الوليد بن عتبة بالجمهور، وتخلف عنه أصحاب ابن الزبير وأصحاب نجدة، ثم يدفع كلُّ فريق وحدهم. ثم كتب نجدةُ إلى يزيد: إنك بعثت إلينا رجلاً أخرق، لا يتجه لأمر رشدٍ ولا يرعوي لعظة الحكيم، فلو بعثت إلينا رجلاً سهل الخلق، لين الكنف، رجوت أن يسهل من

الأمور ما استوعر منها، وأن يجتمع ما تفرق، فانظرْ في ذلك، فإن فيه صلاح خواصنا وعوامنا، إن شاء الله تعالى.

قالوا: فعزل يزيد الوليد، وولى عثمان بن محمد بن أبي سفيان، فسار إلى الحجاز، وإذا هو فتى غرٌّ حدثٌ غمْرٌ لم يمارس الأمور، فطمعوا فيه، ولما دخل المدينة بعث إلى يزيد منها وفدًا، فيهم عبدالله بن حنظلة الغسيل الأنصاريُّ وعبدالله بن أبي عمرو بن حفص بن المغيرة المخزوميُّ، والمنذر ابن الزبير، ورجالٌ كثيرٌ من أشراف أهل المدينة، فقدموا على يزيد، فأكرمهم وأحسن إليهم وأعظم جوائزهم، ثم انصرفوا راجعين إلى المدينة، إلا المنذر بن الزبير، فإنه سار إلى صاحبه عبيدالله بن زياد بالبصرة، وكان يزيد قد أجازه بمائة ألف نظير أصحابه من أولئك الوفد، ولما رجع وفد المدينة إليها أظهروا شتم يزيد وعيبه، وقالوا: قدمنا من عند رجل ليس له دينٌ، يشرب الخمر، وتعزف عنده القينات بالمعازف، وإنا نشهدكم أنا قد خلعناه، فتابعهم الناس على خلعه، وبايعوا عبدالله بن حنظلة الغسيل على الموت، وأنكر عليهم عبدالله بن عمر بن الخطاب، ورجع المنذر بن الزبير من البصرة إلى المدينة، فوافق أولئك على خلع يزيد، وأخبرهم عنه أنه يشرب الخمر ويسكر حتى يترك الصلاة، وعابه أكثر مما عابه أولئك، فلما بلغ ذلك يزيد قال: اللهم إني آثرته وأكرمته ففعل ما قد رأيت، فأدركه وانتقمْ منه. ثم إن يزيد بعث إلى أهل المدينة النعمان بن بشير ينهاهم عما صنعوا، ويحذرهم غب ذلك، ويأمرهم بالرجوع إلى السمع والطاعة ولزوم الجماعة، فسار إليهم ففعل ما أمره يزيد وخوفهم الفتنة، وقال لهم: إن الفتنة وخيمةٌ. وقال: لا طاقة لكم بأهل الشام. فقال له عبدالله بن مطيع العدويُّ: ما يحملك يا نعمان على تفريق جماعتنا وفساد ما أصلح الله من أمرنا؟ فقال له النعمان: أما والله لكأني بك لو قد نزلتْ تلك التي تدعو إليها، وقامت الرجال على الركب تضرب مفارق القوم وجباههم بالسيوف، ودارت رحى الموت بين الفريقين، وكأني بك قد ضربت جنب بغلتك إلى مكة وخلفت هؤلاء المساكين - يعني الأنصار - يقتلون في سككهم ومساجدهم، وعلى أبواب دورهم. فعصاه الناس، فلم يسمعوا منه، فانصرف وكان الأمر والله كما قال سواءً.

قال ابن جرير: وحجَّ بالناس في هذه السنة الوليد بن عتبة. كذا قال، وفيه نظرٌ، فإنه إن كان وفد أهل المدينة - وقد رجعوا من عند يزيد - فإنما وفدهم عثمان بن محمد بن أبي سفيان، وإن كان قد حجَّ بالناس فيها الوليد فما قدم وفد المدينة إلى يزيد إلا في أول سنة ثلاث وستين، وهو أشبه. والله أعلم.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان

بريدة بن الحصيب الأسلميُّ، كان إسلامه حين اجتاز به رسول الله ﷺ وهو مهاجرٌ إلى المدينة عند كراع الغميم، فلما كان هناك تلقاه بريدة في ثمانين نفسًا من أهله، فأسلموا، وصلى بهم صلاة العشاء، وعلمه ليلتئذ صدرًا من سورة «مريم»، ثم قدم على رسول الله ﷺ المدينة بعد أحد، فشهد

بقية المشاهد كلها، وأقام بالمدينة، فلما فتحت البصرة نزلها واختط بها دارًا، ثم خرج إلى غزو خراسان، فمات بمرو في خلافة يزيد بن معاوية. ذكر موته غير واحد في هذه السنة.

الربيع بن خثيم أبو يزيد الثوري الكوفي، أحد أصحاب ابن مسعود: قال له عبدالله بن مسعود: ما رأيتك إلا ذكرت المخبتين، ولو رآك رسول الله ﷺ لأحبَّك. وكان ابن مسعود يجلُّه كثيرًا[1].

وقال الشعبيُّ: كان الربيع من معادن الصدق، وكان أورع أصحاب ابن مسعود. وقال ابن معين: لا يسألُ عن مثله.

وله مناقب كثيرةٌ جدًا، أرخ ابن الجوزيّ وفاته في هذه السنة.

علقمة بن قيس أبو شبل النخعيُّ الكوفيُّ، كان من أكابر أصحاب ابن مسعود وعلمائهم، وكان يشبه بابن مسعود. وقد روىٰ علقمة عن جماعة من الصحابة، وعنه خلقٌ من التابعين.

عقبة بن نافع الفهريُّ، بعثه معاوية إلى إفريقية في عشرة آلاف، فافتتحها، واختط القيروان، وكان موضعها غيضة لا ترام؛ من السباع والحيات والحشرات، فدعا الله تعالى فجعلن يخرجن بأولادهن من الأوكار والجحار، فبناها ولم يزل بها حتى هذه السنة.

غزا أقوامًا من البربر والروم، فقتل شهيدًا، رضي الله عنه.

عمرو بن حزم، صحابيٌّ جليلٌ، استعمله رسول الله ﷺ على نجران وعمره سبع عشرة سنة، وأقام بها مدةً، وأدرك أيام يزيد بن معاوية.

مسلمة بن مخلد الأنصاريُّ الزرقيُّ، ولد عام الهجرة، وسمع من رسول الله ﷺ، وشهد فتح مصر، ووليَ الجندَ بها لمعاوية ويزيد، ومات في ذي القعدة من هذه السنة.

نوفل بن معاوية الديليُّ، صحابيٌّ جليلٌ، شهد بدرًا وأحدًا والخندق مع المشركين، وكانت له في المسلمين نكايةٌ، ثم أسلم وحسن إسلامه، وشهد فتح مكة وحنينًا، وحج مع أبي بكر سنة تسع، وشهد حجة الوداع، وعمر ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام. قاله الواقديُّ. قال: وأدرك أيام يزيد بن معاوية. وقال ابن الجوزيِّ: مات في هذه السنة.

وفيها توفيت الرباب بنت امرئ القيس امرأة الحسين بن عليٍّ التي كانت حاضرةً أهل العراق إذ هم يعدون في السبت أو في الجمعة على زوجها الحسين بن عليٍّ ابن بنت رسول الله ﷺ.

---

(١) **إسناده منقطع**: أخرجه ابن سعد (٦/ ٢١٩) بإسناده عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود به وهذا إسنادٌ منقطع أبو عبيدة لم يسمع من ابن مسعود وانظر عدة فضائل للربيع في المصدر المشار إليه.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين

ففيها كانت وقعة الحرة، وكان سببها أن أهل المدينة لما خلعوا يزيد، وولوا على قريش عبدالله بن مطيع، وعلى الأنصار عبدالله بن حنظلة بن أبي عامر وعلى قبائل المهاجرين معقل بن سنان الأشجعيَّ، فلما كان في أول هذه السنة أظهروا ذلك، واجتمعوا عند المنبر، وجعل الرجل منهم يقول: قد خلعتُ يزيد كما خلعت عمامتي هذه. ويلقيها عن رأسه، ويقول الآخر: قد خلعته كما خلعت نعلي هذه. حتى اجتمع شيء كثيرٌ من العمائم والنعال هنالك، ثم اجتمعوا على إخراج عامل يزيد من بين أظهرهم، وهو عثمان بن محمد بن أبي سفيان ابن عمِّ يزيد، وعلى إجلاء بني أمية من المدينة، فاجتمعت بنو أمية وهم قريبٌ من ألف رجل في دار مروان بن الحكم، وأحاط بهم أهل المدينة يحاصرونهم، واعتزل الناس عليُّ بن الحسين زين العابدين، وكذلك عبدالله بن عمر بن الخطاب لم يخلعْ يزيد، ولا أحدٌ من أهل بيته، وقد قال ابن عمر لأهله: لا يخلعنَّ أحدٌ منكم يزيد فيكون الفيصل - ويروى: الصيلم - بيني وبينه. وسيأتي هذا الحديث بلفظه وإسناده في ترجمة يزيد، وأنكر على أهل المدينة في مبايعتهم لابن مطيع وابن حنظلة على الموت، وقال: إنما كنا نبايع رسول الله ﷺ على أن لا نفرَّ. وكذلك لم يخلعْ يزيد أحدٌ من بني عبدالمطلب، وقد سئل محمد ابن الحنفية في ذلك، فامتنع من ذلك وأبى أشدَّ الإباء، وناظرهم وجادلهم في يزيد ورد عليهم ما اتهموه به من شربه الخمر وتركه بعض الصلوات، كما سيأتي مبسوطًا في ترجمة يزيد قريبًا، إن شاء الله تعالى.

وكتب بنو أمية إلى يزيد بما هم فيه من الحصر والإهانة، والجوع والعطش، وأنه إن لم يبعث إليهم من ينقذهم مما هم فيه وإلا استؤصلوا عن آخرهم، وبعثوا ذلك مع البريد، فلما قدم بذلك على يزيد وجده جالسًا على سريره ورجلاه في ماء يتبرد مما به من النقرس في رجليه، فلما قرأ الكتاب انزعج لذلك، وقال: ويلك! أما فيهم ألف رجل؟ قال: بلى. قال: أفلا قاتلوا ولو ساعةً من نهار؟ ثم بعث إلى عمرو ابن سعيد بن العاص، فقرأ عليه الكتاب، واستشاره فيمن يبعثه إليهم، وعرض عليه ذلك، فأبى وقال: إن أمير المؤمنين عزلني عنها وهي مضبوطةٌ، وأمورها محكمةٌ، فأما الآن فإنما هي دماءُ قريش تراق بالصعيد، فلا أحبُّ أن أتولى ذلك منهم، ليتول ذلك من هو أبعد منهم مني. قال: فبعث البريد إلى مسلم بن عقبة المريِّ وهو شيخٌ كبيرٌ ضعيفٌ، فانتدب لذلك، وأرسل معه يزيد عشرة آلاف فارس وقيل: اثني عشر ألفًا، ونادى منادي يزيد بدمشق أن سيروا على أخذ أعطياتكم كاملاً ومعونة أربعين دينارًا. قال المدائنيُّ: ويقال: في سبعةٍ وعشرين ألفًا؛ اثنا عشر ألف فارس وخمسة عشر ألف راجل، وأعطى كل واحد مائة دينار. وقيل: أربعين دينارًا. ثم استعرضهم يزيد وهو على فرس له.

قال المدائنيُّ: وجعل على أهل دمشق عبدالله بن مسعدة الفزاريَّ، وعلى أهل حمص حصين بن نمير السكونيُّ، وعلى أهل الأردنِّ حبيش بن دلجة القينيُّ، وعلى أهل فلسطين روح بن زنباع الجذاميُّ وشريكٌ الكنانيّ، وعلى أهل قنسرين طريف بن الحسحاس الهلالي، وعليهم جميعًا مسلم بن عقبة

المريُّ، مرة غطفان، فقال النعمان بن بشير: يا أمير المؤمنين، ولني عليهم أكفك - وكان النعمان أخا عبدالله بن حنظلة لأمه عمرة بنت رواحة - فقال يزيد: لا، ليس لهم إلا هذا العشمة، والله لا أقبلهم بعد إحساني إليهم وعفوي عنهم مرةً بعد مرةٍ. فقال النعمان: أنشدك الله يا أمير المؤمنين في عشيرتك وأنصار رسول الله ﷺ. وقال له عبدالله بن جعفر: أرأيت إن رجعوا إلى طاعتك أتقبل ذلك منهم؟

قال: إن فعلوا فلا سبيل عليهم. وقال يزيد لمسلم بن عقبة: إذا قدمت المدينة ولم تصد عنها، وسمعوا وأطاعوا فلا تتعرضْ لأحد منهم، وامض إلى الملحد ابن الزبير، وإن صدوك عن المدينة فادعهم ثلاثًا، فإن رجعوا إلى الطاعة فاقبلْ منهم وكفَّ عنهم، وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، وإذا ظهرْت عليهم فأبحها ثلاثًا، ثم اكفف عن الناس، وقيل: إنه قال لمسلم بن عقبة: إذا ظهرت عليهم فإن كان قتل من بني أمية أحدٌ فجرد السيف، واقتل المقبل والمدبر، وأجهزْ على الجريح وانهبها ثلاثًا، وانظر إلى عليٍّ بن الحسين فاكففْ عنه واستوصِ به خيرًا، وأدْنِ مجلسه؛ فإنه لم يدخل في شيءٍ مما دخلوا فيه. وأمره إذا فرغ من المدينة أن يذهب إلى مكة لحصار ابن الزبير وقال له: إن حدث بك أمرٌ فعلى الناس حصينُ بن نمير السكونيُّ.

وقد كان يزيد كتب إلى عبيد الله بن زياد أن يسير إلى ابن الزبير، فيحاصره بمكة، فأبى عليه وقال: والله لا أجمعهما للفاسق أبدًا، أقتل ابن بنت رسول الله ﷺ، وأغزو البيت الحرام؟! وقد كانت أمه مرجانة قالت له حين قتل الحسين: ويحك! ماذا صنعت؟! وماذا ركبت؟!

قالوا: وقد بلغ يزيد أن ابن الزبير يقول في خطبته: يزيد القرود، شارب الخمر.

فلما جهز مسلم بن عقبة واستعرض الجيش بدمشق، جعل يقول:

أبلغ أبا بكر إذا الجيش سرى ... أشرف الجيش على وادي القرى
أجمع سكران من القوم ترى ... يا عجبًا من ملحدٍ يا عجبا
مخادعٍ للدين يقفو بالفرى

وفي رواية:

أبلغ أبا بكر إذا الأمر انبرى ... ونزل الجيش على وادي القرى
عشرون ألفًا بين كهل وفتى ... أجمع سكران من القوم ترى

قالوا: وسار مسلمٌ بمن معه من الجيوش إلى المدينة، فلما اقترب منها اجتهد أهل المدينة في حصار بني أمية، وقالوا لهم: والله لنقتلنكم عن آخركم أو لتعطونا موثقًا أن لا تدلوا علينا أحدًا من هؤلاء الشاميين، ولا تمالئوهم علينا. فأعطوهم العهود بذلك، فلما وصل الجيش تلقاهم بنو أمية، فجعل مسلمٌ يسألهم عن الأخبار، فلا يخبره أحدٌ، فانحصر لذلك، وجاءه عبدالملك بن مروان فقال له: إن كنت تريد النصر فانزل شرقي المدينة في الحرة، فإذا خرجوا إليك كانت الشمس في أقفيتكم وفي وجوههم، فادعهم إلى الطاعة، فإن أجابوك وإلا فاستعن بالله وقاتلهم، فإن الله ناصرك عليهم؛ إذ

خالفوا الإمام، وخرجوا من الطاعة. فشكره مسلم بن عقبة على ذلك، وامتثل ما أشار عليه به، فنزل شرقيَّ المدينة في الحرة، ودعا أهلها ثلاثة أيام، كلُّ ذلك يأبون إلا المحاربة والمقاتلة، فلما مضت الثلاث قال لهم في اليوم الرابع - وهو يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثلاث وستين - قال لهم: يا أهل المدينة، مضت الثلاث، وإن أمير المؤمنين قال لي: إنكم أصله وعشيرته، وإنه يكره إراقة دمائكم، وإنه أمرني أن أؤجلكم ثلاثًا، فقد مضت فما أنتم صانعون؟ أتسالمون أم تحاربون؟ فقالوا: بل نحارب. فقال: لا تفعلوا، بل سالموا ونجعل جدنا وقوتنا على هذا الملحد. يعني ابن الزبير. فقالوا له: يا عدو الله، لو أردت ذلك لما مكناك منه، أنحن نذركم تذهبون فتلحدون في بيت الله الحرام؟! ثم تهيئوا للقتال، وقد كانوا اتخذوا خندقًا بينهم وبين مسلم بن عقبة، وجعلوا جيشهم أربعة أرباع، على كل ربع أميرٌ، ،وجعلوا أجل الأرباع الربع الذي فيه عبدالله بن حنظلة الغسيل، ثم اقتتلوا قتالاً شديدًا، ثم انهزم أهل المدينة إليها، وقد قتل من الفريقين خلقٌ من السادات والأعيان، منهم؛ عبدالله بن مطيع، وبنون له سبعةٌ بين يديه، وعبدالله بن حنظلة الغسيل، وأخوه لأمه محمد ابن ثابت بن شماس، ومحمد بن عمرو بن حزم، وقد مر به مروان بن الحكم وهو مجدلٌ، فقال: رحمك الله، فكم من سارية قد رأيتك تطيل عندها القيام والسجود.

ثم أباح مسلم بن عقبة الذي يقول فيه السلف: مسرف بن عقبة. قبحه الله، المدينة ثلاثة أيام كما أمره يزيد، لا جزاه الله خيرًا، وقتل خلقًا من أشرافها وقرائها، وانتهب أموالاً كثيرةً منها، ووقع شرٌّ عظيمٌ وفسادٌ عريضٌ، على ما ذكره غير واحد، فكان ممن قتل بين يديه صبرًا معقل بن سنان الأشجعيُّ، وقد كان صديقه قبل ذلك، ولكن أسمعه في يزيد كلامًا غليظًا، فنقم عليه بسببه.

واستدعى بعليِّ بن الحسين، فجاء يمشي بين مروان بن الحكم وابنه عبدالملك، ليأخذ له بهما عنده أمانًا، ولم يشعر أن يزيد قد أوصاه به، فلما جلس بين يديه استدعى مروان بشراب - وقد كان مسلم ابن عقبة قد حمل معه من الشام ثلجًا إلى المدينة، فكان يشاب له بشرابه - فلما جيء بالشراب، شرب مروان قليلاً، ثم أعطى الباقي لعليِّ بن الحسين ليأخذ له بذلك أمانًا، وكان مروان موادًّا لعليِّ بن الحسين، فلما نظر إليه مسلم بن عقبة قد أخذ الإناء في يده قال له: لا تشربْ من شرابنا. ثم قال له: إنما جئت مع هذين لتأمن بهما. فأرعدت يد عليِّ بن الحسين، وجعل لا يضع الإناء من يده ولا يشربه، ثم قال له: لولا أن أمير المؤمنين أوصاني بك لضربت عنقك. ثم قال له: إن شئت أن تشرب فاشربْ، وإن شئت دعونا لك بغيرها. فقال: هذه التي في كفِّي أريدُ. فشرب ثم قال له مسلم بن عقبة: إليَّ ههنا. فأجلسه معه على السرير، وقال له: إن أمير المؤمنين أوصاني بك، وإن هؤلاء شغلوني عنك، ثم قال: لعلَّ أهلك فزعوا. قال: إي والله. فأمر بدابته فأسرجت، ثم حمله عليها حتى رده إلى منزله مكرمًا، ثم استدعى بعمرو بن عثمان بن عفان - ولم يكن خرج مع بني أمية - فقال له: إنك إن ظهر أهل المدينة قلت: أنا كنت معكم. وإن ظهر أهل الشام قلت: أنا ابن أمير المؤمنين.

ثم أمر به، فنتفت لحيته بين يديه.

قال المدائني: وأباح مسلم بن عقبة المدينة ثلاثًا، يقتلون الناس، ويأخذون الأموال. فأرسلت سعدى بنت عوف المرية إلى مسلم بن عقبة تقول: أنا بنت عمك، فمرْ أصحابك أن لا يتعرضوا لإبل لنا بمكان كذا وكذا. فقال لأصحابه: لا تبدءوا إلا بإبلها. وجاءت امرأةٌ فقالت: أنا مولاتك، وابني في الأسارى. فقال: عجلوه لها. فضربت عنقه، وقال: أعطوها رأسه، أما ترضين أن لا تقتلي حتى تتكلمي في ابنك؟ ووقعوا على النساء حتى قيل: إنه حبلت ألف امرأة في تلك الأيام من غير زوج.

قال المدائني، عن أبي قرة قال: قال هشام بن حسان: ولدت ألف امرأةٍ من أهل المدينة بعد الحرَّة من غير زوج.

وقد اختفى جماعةٌ من سادات الصحابة، منهم جابر بن عبدالله، وخرج أبو سعيد الخدريُّ، فلجأ إلى غار في جبل، فلحقه رجلٌ من أهل الشام. قال: فلما رأيته انتضيت سيفي فقصدني، فلما رآني صمم على قتلي، فشمت سيفي، ثم قلت: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٢٩]. فلما رأى ذلك قال: من أنت؟ قلت: أنا أبو سعيد الخدريُّ. قال: صاحب رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم. فمضى وتركني.

قال المدائني: وجيء إلى مسلم بسعيد بن المسيب، فقال له: بايعْ. فقال: أبايع على سيرة أبي بكر وعمر. فأمر بضرب عنقه، فشهد رجلٌ أنه مجنونٌ، فخلَّى سبيله.

وقال المدائني عن عليٍّ بن عبدالله القرشيِّ وأبي إسحاق التميميِّ قالا: لما انهزم أهل المدينة يوم الحرة صاح النساء والصبيان، فقال ابن عمر: بعثمان وربِّ الكعبة.

قال المدائني عن شيخ من أهل المدينة قال: سألت الزهريَّ: كم كان القتلى يوم الحرة؟ قال: سبعمائة من وجوه الناس من المهاجرين والأنصار، ووجوه الموالي، وممن لا يعرف من حرٍّ وعبدٍ وغيرهم عشرة آلاف. قال: وكانت الوقعة لثلاثٍ بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وستين، وانتهبوا المدينة ثلاثة أيام.

قال الواقدي وأبو معشر: كانت وقعة الحرة يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة سنة ثلاثٍ وستين.

قال الواقدي، عن عبدالله بن جعفر، عن ابن عوفٍ، قال: وحجَّ بالناس في هذه السنة عبدالله بن الزبير، وكانوا يسمونه العائذ، ويرون الأمر شورى. وجاء الخبر إلى أهل مكة بما حصل لأهل المدينة ليلة مستهل المحرم، مع سعيد مولى المسور بن مخرمة، فحزنوا حزنًا شديدًا، وتأهبوا لقتال أهل الشام.

قال ابن جرير: وقد رويت قصة الحرة على غير ما رواه أبو مخنفٍ فحدثني أحمد بن زهير، ثنا أبي، سمعت وهب بن جرير، ثنا جويرية بن أسماء قال: سمعت أشياخ أهل المدينة يحدثون أن

معاوية لما حضرته الوفاة دعا ابنه يزيد فقال له: إن لك من أهل المدينة يومًا، فإن فعلوا فارمهم بمسلم ابن عقبة فإنه رجلٌ قد عرفت نصيحته. فلما هلك معاوية وفد إليه وفدٌ من أهل المدينة، وكان ممن وفد عليه عبدالله بن حنظلة بن أبي عامر - وكان شريفًا فاضلاً سيدًا عابدًا - معه ثمانية بنين له، فأعطاه مائة ألف درهم، وأعطى بنيه، كل واحد منهم عشرة آلاف سوى كسوتهم وحملانهم، فلما قدم المدينة عبدالله بن حنظلة أتاه الناس فقالوا: ما وراءك؟ قال: جئتكم من عند رجل والله لو لم أجدْ إلا بنيَّ هؤلاء لجاهدته بهم. قالوا: قد بلغنا أنه أعطاك وأحذاك وأكرمك. قال: قد فعل، وما قبلت منه إلا لأتقوى به. فحضَّ الناس فبايعوه، فبلغ ذلك يزيد، فبعث إليهم مسلم بن عقبة، وقد بعث أهل المدينة إلى كلِّ ماءٍ بينهم وبين الشام فصبُّوا فيه زقًا من قطران وعوروه، فأرسل الله على جيش الشام السماء مدرارًا، فلم يستقوا بدلو حتى وردوا المدينة، فخرج إليهم أهل المدينة بجموع كثيرة وهيئةٍ لم ير مثلها، فلما رآهم أهل الشام هابوهم وكرهوا قتالهم، ومسلمٌ شديد الوجع، فبينما الناس في قتالهم إذ سمعوا التكبير من خلفهم في جوف المدينة، وأقحم عليهم بنو حارثة من أهل الشام، وهم على الجدد، فانهزم الناس، فكان من أصيب في الخندق أكثر ممن قتل من الناس، فدخلوا المدينة، وهزم الناس وعبدالله بن حنظلة مستندٌ إلى الجدار، يغطُّ نومًا، فنبهه ابنه، فلما فتح عينيه، ورأى ما صنع الناس، أمر أكبر بنيه فتقدم حتى قتل، فدخل مسلم بن عقبة المدينة، فدعا الناس للبيعة على أنهم خولٌ ليزيد بن معاوية، يحكمُ في دمائهم وأموالهم وأهليهم ما شاء.

وقد روى ابن عساكر في ترجمة أحمد بن عبدالصمد من «تاريخه» من كتاب المجالسة لأحمد بن مروان المالكيِّ، ثنا الحسين بن الحسن اليشكريُّ، ثنا الزياديُّ، عن الأصمعيِّ (ح) وحدثني محمد بن الحارث، عن المدائنيِّ قال: لما قتل أهل الحرة هتف هاتفٌ بمكة على أبي قبيس مساء تلك الليلة، وابن الزبير، جالسٌ يسمع:

قتل الخيار بنو الخيار ... ذوو المهابة والسماح

والصائمون القائمون ... القانتون أولو الصلاح

المهتدون المتقو ... ن السابقون إلى الفلاح

ماذا بواقم والبقيـ ... ـع من الجحاجحة الصباح

وبقاع يثرب ويحهنَّ ... من النوادب والصياح

فقال ابن الزبير لأصحابه: يا هؤلاء، قتل أصحابكم، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد أخطأ يزيد خطأً فاحشًا في قوله لمسلم بن عقبة أن يبيح المدينة ثلاثة أيام، وهذا خطأٌ كبيرٌ، فإنه وقع في هذه الثلاثة أيام من المفاسد العظيمة في المدينة النبوية ما لا يحدُّ ولا يوصف، مما لا يعلمه إلا الله عز وجل.

وقد أراد بإرسال مسلم بن عقبة توطيد سلطانه وملكه، ودوام أيامه، فعاقبه الله بنقيض قصده،

فقصمه الله قاصم الجبابرة، وأخذه أخذ عزيز مقتدر.

قال البخاري في «صحيحه»: حدثنا الحسين بن حريث، ثنا الفضل بن موسى، ثنا الجعيد، عن عائشة بنت سعد بن أبي وقاص، عن أبيها قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يَكِيدُ أهلَ المدينَةِ أحَدٌ إلا انْمَاعَ كَمَا يَنْمَاعُ الملْحُ في الماءِ»[١].

وقد رواه مسلمٌ من حديث أبي عبدالله القراظ المدنيِّ - واسمه دينارٌ - عن سعد بن أبي وقاص، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يُرِيدُ أحَدٌ أهلَ المدينة بسُوءٍ إلا أذَابَهُ اللهُ في النَّارِ ذَوبَ الرَّصَاصِ» أو: «ذَوبَ الملحِ في الماءِ»[٢].

وفي رواية لمسلم من طريق أبي عبدالله القراظ، عن سعد وأبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «من أراد أهل المدينة بسوء أذابه الله كما يذوب الملح في الماء»[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا أنس بن عياض، ثنا يزيد بن خصيفة، عن عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن ابن أبي صعصعة[٤] عن عطاء بن يسار، عن السائب بن خلاد، أن رسول الله ﷺ قال: «مَن أخَافَ أهْلَ المدينَةِ ظُلْمًا أخَافَهُ اللهُ، وعَلَيه لَعنَةُ الله والملائكَةِ والنَّاسِ أجْمَعين، لا يَقْبَلُ اللهُ منهُ يومَ القِيَامَةِ صَرفًا ولا عَدْلاً»[٥]. ورواه النسائيُّ من غير وجه، عن عليِّ بن حُجْر، عن إسماعيل بن جعفر، عن يزيد بن خصيفة، عن عبدالرحمن بن عبدالله بن عبدالرحمن ابن أبي صعصعة، عن عطاء بن يسار، عن ابن خلاد من بَلْحارث بن الخزرج، أخبره، فذكره. وكذلك رواه الحميديُّ عن عبدالعزيز ابن أبي حازم، عن يزيد بن خصيفة، ورواه النسائيُّ أيضًا، عن يحيئ بن حبيب بن عربيٍّ، عن حماد، عن يحيئ بن سعيد، عن مسلم ابن أبي مريم، عن عطاء بن يسار، عن ابن خلاد، وكان من أصحاب النبيِّ ﷺ، فذكره.

وقال ابن وهب: أخبرني حيوة بن شريح، عن ابن الهاد، عن أبي بكر، عن عطاء بن يسار، عن السائب بن خلاد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَن أخَافَ أهْلَ المدينَةِ أخَافَهُ اللهُ، وعَلَيهِ لَعنَةُ الله والملائكَةِ والنَّاسِ أجْمَعينَ»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري (١٨٧٧) كتاب «فضائل المدينة» باب: إثم من كاد أهل المدينة.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٦٣) كتاب «الحج» باب: فضل المدينة ودعاء النبي ﷺ فيها بالبركة وبيان تحريم صيدها وشجرها.

(٣) أخرجه مسلم (١٣٨٧).

(٤) هذا هو الصواب في تسميته وعند أحمد: عبد الله بن عبد الرحمن وراجع «تهذيب» المزي.

(٥) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٤/ ٥٥) عن أنس بن عياض الليثي أبو ضمرة و(٤/ ٥٦) عن إسماعيل بن جعفر عن يزيد بن خصيفة بهذا الإسناد وهو صحيح رجاله ثقات و(٤/ ٥٦) عن عبد الصمد عن أبيه كلاهما.
وأخرجه أحمد (٤/ ٥٥، ٥٦) عن حماد بن سلمة عن يحيى بن سعيد عن مسلم ابن أبي مريم عن عطاء بن يسار عن السائب بن خلاد به.

(٦) تقدم متنه في الذي قبله.

وقال الدارقطنيُّ: ثنا عليُّ بن أحمد بن الهيثم، ثنا أبي، ثنا سعيد بن عبدالحميد بن جعفر، ثنا أبو زكريا يحيىٰ بن عبدالله بن يزيد بن عبدالله بن أنيس الأنصاريُّ، عن محمد وعبدالرحمن ابني جابر ابن عبدالله قالا: خرجنا مع أبينا يوم الحرة، وقد كف بصره فقال: تعس من أخاف رسول الله ﷺ. فقلنا: يا أبت، وهل أحدٌ يخيف رسول الله ﷺ؟! فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ أَخَافَ هَذَا الحَيَّ مِنَ الأَنْصَارِ فَقَدْ أَخَافَ مَا بَيْنَ هَذَيْنِ**». ووضع كفيه علىٰ جنبيه[1].

قال الدارقطنيُّ: تفرد به سعيد بن عبدالحميد لفظًا وإسنادًا. وقد استدل بهذا الحديث وأمثاله من ذهب إلىٰ الترخيص في لعنة يزيد بن معاوية، وهو روايةٌ عن أحمد بن حنبل اختارها الخلال، وأبو بكر عبدالعزيز، والقاضي أبو يعلىٰ، وابنه القاضي أبو الحسين، وانتصر لذلك الشيخ أبو الفرج بن الجوزيُّ في مصنف مفردٍ وجوز لعنه، ومنع من ذلك آخرون ـ وصنفوا فيه أيضًا ـ لئلا يجعل لعنه وسيلةً إلىٰ أبيه أو أحد من الصحابة، وحملوا ما صدر عنه من سوء التصرفات علىٰ أنه تأول وأخطأ، وقالوا: إنه كان مع ذلك إمامًا فاسقًا، والإمام إذا فسق لا يعزل بمجرد ذلك، علىٰ أصحِّ قولي العلماء، بل ولا يجوز الخروجُ عليه؛ لما في ذلك من إثارة الفتنة، ووقوع الهرج، كما جرىٰ.

وأما ما يذكره بعض الناس من أن يزيد بن معاوية لما بلغه خبر أهل المدينة، وما جرىٰ عليهم عند الحرة من مسلم بن عقبة وجيشه، فرح بذلك فرحًا شديدًا، فإنه كان يرىٰ أنه الإمام، وقد خرجوا عن طاعته، وأمروا عليهم غيره، فله قتالهم حتىٰ يرجعوا إلىٰ الطاعة، ولزوم الجماعة، كما أنذرهم بذلك علىٰ لسان النعمان بن بشير ومسلم بن عقبة ثلاثة أيام كما تقدم، وقد جاء في الحديث الصحيح: «**مَن جَاءَكُم وَأَمْرُكُم جَمِيعٌ يُرِيدُ أَن يُفَرِّقَ بَيْنَكُم فَاقْتُلُوهُ كَائِنًا مَن كَانَ**»[2]. وأما ما يوردونه عنه من الشعر في ذلك، واستشهاده بشعر ابن الزبعرىٰ في وقعة أحد التي يقول فيها:

ليت أشياخي ببدر شهدوا ... جزع الخزرج من وقع الأسلْ
حين حكت بقباء بركها ... واستحرَّ القتل في عبد الأشلْ
قد قتلنا الضعف من أشرافهم ... وعدلنا ميل بدر فاعتدلْ

وقد زاد بعض الروافض فيها فقال:

لعبت هاشم بالملك فلا ... ملك جاء ولا وحيٌ نزلْ

فهذا إن قاله يزيد بن معاوية فلعنة الله عليه ولعنة اللاعنين، وإن لم يكن قاله فلعنة الله علىٰ من

---

(١) يغلب علىٰ الظن أن أبا زكريا يحيىٰ بن عبد الله بن يزيد لم يدرك محمدًا وعبد الرحمن ابني جابر بن عبد الله؛ لأنه من الثامنة وسعيد بن عبد الحميد لم أجد ترجمته وللعلماء الذين استدلوا بهذا الحديث علىٰ لعن يزيد لهم أن يستدلوا أيضًا إلىٰ ما ذهبوا إليه بالحديث الصحيح المتقدم إلا أن هذا الحديث فيه معنىٰ زائد وهو أنهم أخافوا رسول الله ﷺ وهو عند الطبراني في «الأوسط» (١٠٩٣) من طريق يحيىٰ به والله أعلم.

(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٢) وقد تقدم.

وضعه عليه ليشنع عليه به وعلى ملوك المسلمين، وسنذكر ترجمة يزيد بن معاوية قريبًا، وما ذكر عنه، وما قيل فيه، وما كان يعانيه من الأفعال والقبائح والأقوال، في السنة الآتية، فإنه لم يمهلْ بعد وقعة الحرة وقتل الحسين إلا يسيرًا حتى قصمه الله الذي قصم الجبابرة قبله وبعده، إنه كان عليمًا قديرًا.

وقد توفيَ في هذه السنة خلقٌ من المشاهير والأعيان من الصحابة وغيرهم في وقعة الحرة مما يطول ذكرهم؛ فمن مشاهيرهم من الصحابة عبدالله بن حنظلة أمير المدينة، الذي بايعه أهل الحرة، ومعقل ابن سنان، وعبدالله بن زيد بن عاصم، رضي الله عنهم، ومسروق بن الأجدع.

ثم دخلت سنة أربع وستين

ففيها في أول المحرم منها سار مسلم بن عقبة - بعد فراغه من حرب أهل المدينة - إلى مكة قاصدًا قتال ابن الزبير ومن التفَّ عليه من الأعراب على مخالفة يزيد بن معاوية، واستخلف عليها روح بن زنباع، فلما بلغ ثنيَّة هرشى بعث إلى رءوس الأجناد فجمعهم، فقال: إن أمير المؤمنين عهد إليَّ إن حدث بي حدث الموت أن أستخلف عليكم حصين بن نمير السكونيَّ، ووالله لو كان الأمر لي ما فعلتُ. ثم دعا به فقال: انظرْ يا بن بردعة الحمار فاحفظ ما أوصيك به. ثم أمره إذا وصل مكة أن يناجز ابن الزبير قبل ثلاث، ثم قال: اللهم إني لم أعملْ عملاً قطُّ بعد شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله أحبَّ إليَّ من قتلي أهل المدينة، ولا أرجى عندي في الآخرة، وإن دخلتُ النار بعد ذلك إني لشقيٌّ. ثم مات، قبَّحه الله، ودفن بالمشلل. فيما قاله الواقديُّ.

وسار حصين بن نمير بالجيش نحو مكة، فانتهى إليها لأربع بقين من المحرم فيما قاله الواقديُّ. وقيل: لسبع مضين منه. وقد تلاحق بابن الزبير جماعاتٌ ممن بقيَ من أشراف أهل المدينة، وانضاف إليه أيضًا نجدة بن عامر الحنفيُّ من أهل اليمامة في طائفة من أهلها؛ ليمنعوا البيت من أهل الشام، فنزل حصين بن نمير ظاهر مكة، وخرج إليه ابن الزبير في أهل مكة ومن التفَّ معه، فاقتتلوا ذلك اليوم قتالاً شديدًا، وتبارز المنذر بن الزبير ورجلٌ من أهل الشام، فقتل كلُّ واحدٍ منهما صاحبه، وحمل أهل الشام حملةً صادقةً، فانكشف أهل مكة، وعثرت بغلة عبدالله بن الزبير به، فكرَّ عليه المسور بن مخرمة ومصعب بن عبدالرحمن بن عوف وطائفةٌ، فقاتلوا دونه حتى قتلوا جميعًا، وصابرهم ابن الزبير حتى الليل، فانصرفوا عنه، ثم اقتتلوا في بقية شهر المحرَّم وصفرًا بكماله، فلمَّا كان يوم السبت ثالثُ ربيع الأول سنة أربع وستين، نصبوا المجانيق على الكعبة، ورموها حتى بالنار، فاحترق جدار البيت في يوم السبت - هكذا قال الواقديُّ - وهم يقولون:

خطارةٌ مثلُ الفنيق المزبد ... نرمي بها أعواد هذا المسجد

وجعل عمرو بن حوطة السدوسيُّ يقول:

كيف ترى صنيع أمِّ فروةْ ... تأخذهم بين الصفا والمروةْ

وأمُّ فروة اسم المنجنيق، وقيل: إنما احترقت؛ لأن أهل المسجد جعلوا يوقدون النار وهم حول الكعبة، فعلقت النار في بعض أستار الكعبة، فسرت إلى أخشابها وسقوفها فاحترقت. وقيل: إنما احترقت لأن ابن الزبير سمع التكبير على بعض جبال مكة في ليلة ظلماء، فظنَّ أنهم أهل الشام، فرفعت نارٌ على رمح لينظروا من هؤلاء الذين على الجبل، فأطارت الريح شررةً من رأس الرمح إلى ما بين الركن اليماني والأسود من الكعبة، فعلقت في أستارها وأخشابها، فاحترقت واسودَّ الركنُ، وانصدع في ثلاثة أمكنةٍ منه.

واستمرَّ الحصارُ إلى مستهلِّ ربيع الآخرِ، وجاء الناس نعْيُ يزيدَ بن معاوية، وأنه قد مات لأربع عشرة ليلةً خلت من ربيع الأول سنة أربع وستين، وهو ابنُ خمس أو ثمانٍ أو تسعٍ وثلاثين سنةً، فكانت ولايتُه ثلاث سنين وستةَ أو ثمانية أشهر، فحينئذٍ خمدت الحربُ وطفئت نار الفتنة، ويقال: إنهم مكثوا يحاصرون ابن الزبير بعد موت يزيد أربعين ليلةً. ويذكرُ أن ابن الزبيرِ علم بموت يزيد قبل أهل الشام، فنادىٰ فيهم: يا أهل الشام، قد أهلك الله طاغيتكم، فمن أحبَّ منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فليفعل، ومن أحبَّ أن يرجعَ إلى شامه فليرجعْ. فلم يصدق الشاميُّون أهل مكة فيما أخبروهم به، حتى جاء ثابت بن قيس بن المنقع بالخبر اليقين. ويذكرُ أن حصين بن نمير دعاه ابن الزبير ليحدثه بين الصفين، فاجتمعا حتى اختلفت رءوس فرسيهما، وجعلت فرس حصين تنفرُ ويكفُّها، فقال له ابن الزبير: ما لك؟ فقال: إن الحمام تحت رجليْ فرسي تأكلُ من الروث، فأكره أن أطأ حمام الحرم. فقال له: تفعلُ هذا وأنت تقتل المسلمين؟! فقال له حصينٌ: فأذنْ لنا فلنطفْ بالكعبة ثم نرجعْ إلى بلادنا. فأذن لهم فطافوا.

وذكر ابن جرير أن حصينًا وابن الزبير اتعدا ليلة أن يجتمعا، فاجتمعا بظاهر مكة، فقال له حصينٌ: إن كان هذا الرجلُ قد هلك فأنت أحقُّ الناس بهذا الأمر بعده، فهلمَّ فارحلْ معي إلى الشام، فوالله لا يختلفْ عليك اثنان.

فيقال: إن ابن الزبير لم يثقْ منه بذلك، وأغلظ له في المقال، فنفر منه ابن نمير، وقال: أنا أدعوه إلى الخلافة، وهو يغلظُ لي في المقال؟! ثم كرَّ بالجيش راجعًا إلى الشام، وقال: أعده بالملك ويتواعدني بالقتل؟! ثم ندم ابن الزبير على ما كان منه إليه من الغلظة، فبعث إليه يقول له: أما الشام فلست آتيه، ولكن خذْ لي البيعة على من هناك، فإني أؤمِّنكم وأعدلُ فيكم. فبعث إليه يقول له: إن من يبتغيها من أهل هذا البيت بالشام لكثيرٌ. فرجع فاجتاز بالمدينة، فطمع فيه أهلها وأهانوهم إهانةً بالغةً، وأكرمهم عليُّ بن الحسين، وأهدىٰ لحصين بن نمير قتًّا وعلفًا، وارتحلت بنو أمية مع الجيش إلى الشام، فرجعوا إليه وقد استخلف بدمشق معاويةُ بن يزيد بن معاوية عن وصيةٍ من أبيه له بذلك. والله سبحانه أعلم بالصواب.

وهذه ترجمة يزيد بن معاوية

هو يزيد بن معاوية ابن أبي سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس، أمير المؤمنين أبو خالد الأمويُّ، ولد سنة خمس أو ستٍّ أو سبع وعشرين بالماطرون، وقيل: ببيت رأس. وبويع له بالخلافة في حياة أبيه أن يكون وليَّ العهد من بعده، ثم أكد ذلك بعد موت أبيه في النصف من رجب سنة ستين، فاستمرَّ متوليًا إلى أن توفيَ في الرابع عشر من ربيع الأول سنة أربع وستين. وأمُّه ميسون بنت بحدل بن أنيف بن دلجة بن قنافة بن عديٍّ بن زهيرِ بن حارثةَ الكلبيِّ.

روىٰ عن أبيه معاوية أن رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ يُرِدِ اللَّهُ به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّينِ»**[1] وحديثًا آخر في الوضوء. وعنه ابنه خالدٌ وعبدالملك بن مروان، وقد ذكره أبو زرعة الدمشقي في الطبقة التي تلي الصحابة، وهي العليا، وقال: له أحاديث. وكان كثير اللحم، عظيم الجسم، كثير الشعر، جميلاً طويلاً، ضخم الهامة، مخدد الأصابع غليظها، مجدرًا.

وكان أبوه قد طلق أمه وهي حاملٌ به، فرأتْ في المنام أنه خرج من قبلها قمرٌ، فقصَّت رؤياها على أمها فقالتْ: إن صدقت رؤياك لتلدنَّ من يبايع له بالخلافة، وجلست أمه ميسون يومًا تمشطه وهو صبيٌّ صغيرٌ، وأبوه معاويةُ مع زوجته الحظيَّة عنده في المنظرة، وهي فاختةُ بنتُ قرظةَ، فلما فرغت من مشطه نظرت إليه، فأعجبها فقبلتْ بين عينيه، فقال معاويةُ عند ذلك:

إذا مات لم تفلحْ مزينةُ بعده ... فنوطي عليه يا مزينُ التمائما

وانطلق يزيد يمشي وفاختةُ تتبعه بصرها، ثم قالت: لعن الله سواد ساقيْ أمك. فقال معاوية: أما والله إنه لخيرٌ من ابنك عبدالله - وهو ولده منها، وكان أحمق - فقالتْ فاختةُ: لا والله، ولكنك تؤثرُ هذا عليه. فقال: سوف أبيِّنُ لك ذلك حتى تعرفيه قبل أن تقومي من مجلسك هذا. ثم استدعىٰ بابنها عبدالله فقال له: إنه قد بدا لي أن أعطيك كلَّ ما تسألني في هذا المجلس. فقال: حاجتي أن تشتري لي كلبًا فارهًا وحمارًا. فقال: يا بنيَّ، أنت حمارٌ ويشترىٰ لك حمارٌ؟ قُمْ فاخْرُجْ. ثم قال لأمه: كيف رأيت؟ ثم استدعىٰ بيزيد فقال: إني قد بدا لي أن أعطيك كلَّ ما تسألني في مجلسك هذا، فسلْني ما بدا لك. فخرَّ يزيدُ ساجدًا، ثم قال حين رفع رأسه: الحمد لله الذي بلَّغ أميرَ المؤمنين هذه المدة، وأراه فيَّ هذا الرأي، حاجتي أن تعقد لي العهد من بعدك، وتوليني العام صائفة المسلمين، وتأذنَ لي في الحجِّ إذا رجعتُ، وتوليني الموسمَ، وتزيدَ أهل الشام عشرة دنانيرَ لكلِّ رجلٍ وتجعل ذلك بشفاعتي، وتفرض لأيتام بني جمحَ، وأيتام بني سهمٍ، وأيتام بني عديٍّ. فقال: ما لك ولأيتام بني عديٍّ؟ فقال: لأنهم حالفوني وانتقلوا إلى داري. فقال معاويةُ: قد فعلتُ ذلك كلَّه. وقبَّل وجهه. ثم قال لابنة قرظة: كيف رأيت؟ فقالت: يا أمير المؤمنين، أوصه بي فأنت أعلم به

---

(١) هو في «صحيح البخاري» (٧١) ومسلم (١٠٣٧) ولكن ليس من طريق يزيد بن معاوية.

مني . ففعل . وفي رواية أن يزيد لما قال له أبوه : سلْني حاجتك . قال له يزيد : أعتقني من النار أعتق الله رقبتك منها . قال : وكيف؟ قال : لأني وجدت في الأثر أنه من تقلد أمر الأمة ثلاثة أيام حرمه الله على النار ، فاعهدْ إليَّ بالأمرِ من بعدك . ففعل .

وقال العتبيُّ : رأى معاوية ابنه يزيد يضرب غلامًا له ، فقال له : سوأةً لك ، أتضرب من لا يستطيع أن يمتنع عليك؟ ! والله لقد منعتني القدرة من ذوي الإحنِ ، وإن أحقَّ من عفا لمن قدر .

قلت : وقد ثبت في «الصحيح» أن رسول الله ﷺ رأى أبا مسعود يضرب غلامًا له ، فقال له : «**اعْلَمْ أَبَا مَسْعُود للَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْه**»[(١)].

قال العتبيُّ : وقدم زيادٌ بأموال عظيمةٍ وبسفَطٍ مملوء جوهرًا على معاوية ، فسرَّ بذلك معاويةُ ، فقام زيادٌ فصعد المنبرَ ، ثم افتخر بما يفعله بأرض العراق من تمهيد الممالك لمعاوية ، فقام يزيد فقال : إن تفعلْ ذلك يا زياد فنحن نقلناك من ولاء ثقيف إلى قريش ، ومن القلم إلى المنابر ، ومن زياد بن عبيد إلى حرب بن أمية . فقال له معاوية : اجلسْ فداك أبي وأمي .

وعن عطاء بن السائب وغيره قال : غضب معاوية على ابنه يزيد فهجره ، فقال له الأحنف بن قيس : يا أمير المؤمنين ، أولادنا ثمار قلوبنا ، وعماد ظهورنا ، ونحن لهم سماءٌ ظليلةٌ ، وأرضٌ ذليلةٌ ، إن غضبوا فأرضهم ، وإن طلبوا فأعطهم ، ولا تكنْ عليهم ثقلاً فيملُّوا حياتك ويتمنَّوْا موتك . فقال معاوية : لله درُّك يا أبا بحْرٍ ، يا غلامُ ، ائت يزيد فأقرئهُ مني السلام ، وقل له : إن أمير المؤمنين قد أمر لك بمائة ألف درهم ، ومائة ثوب . فقال يزيد : من عند أمير المؤمنين؟ فقال : الأحنف . فقال يزيد : لا جرم ، لأقاسمنَّه . فبعث إلى الأحنف بخمسين ألفًا وخمسين ثوبًا .

وقال الطبرانيُّ : حدثنا محمد بن زكريا الغلابيُّ ، ثنا ابن عائشة ، عن أبيه قال : كان يزيد في حداثته صاحب شراب يأخذ مأخذ الأحداث ، فأحسَّ معاوية بذلك ، فأحبَّ أن يعظه في رفقٍ ، فقال : يا بنيَّ ، ما أقدرك على أن تصير إلى حاجتك من غير تهتُّك يذهب بمروءتك وقدرك . ثم قال : يا بنيَّ ، إني منشدك أبياتًا ، فتأدبْ بها واحفظها . فأنشده :

انصبْ نهارًا في طلاب العلا ... واصبرْ على هجرِ الحبيب القريبْ
حتى إذا الليلُ أتى بالدُّجَى ... واكتحلتْ بالغُمْضِ عينُ الرقيبْ
فباشرِ الليلَ بما تشتهي ... فإنما الليلُ نهارُ الأريبْ
كم فاسقٍ تحسبُه ناسكًا ... قد باشر الليل بأمرٍ عجيبْ
غطَّى عليه الليلُ أستاره ... فبات في أمْنٍ وعيشٍ خصيبْ
ولذةُ الأحمقِ مكشوفةٌ ... يشفَى بها كلُّ عدوٍّ غريبْ[(٢)]

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٥٩) .

(٢) ما برز من إسناده فيه محمد بن زكريا الغلابي فيه ضعف .

قلت: وهذا كما جاء في الحديث: «**مَن ابتُلِيَ بشيءٍ من هَذِه القَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ بِسَتْرِ اللَّه عزَّ وَجَلَّ**»(١).

وروى الواقديُّ والمدائنيُّ أن عبدالله بن عباس وفد إلى معاوية، فأمر معاوية ابنه يزيد أن يأتيه فيعزيه في الحسن بن عليٍّ، فلما دخل على ابن عباس رحب به وأكرمه، وجلس بين يديه، فأراد ابن عباس أن يرفع مجلسه، فأبى وقال: إنما أجلس مجلس المعزِّي لا المهنِّي. ثم ذكر الحسن، فقال: رحم الله أبا محمد أوسع الرحمة وأفسحها، وأعظم الله أجرك وأحسن عزاءك، وعوضك من مصابك ما هو خيرٌ لك ثوابًا وخيرٌ عقبَى. فلما نهض يزيد من عنده قال ابن عباس: إذا ذهب بنو حرب ذهب حلماء الناس. ثم أنشد متمثلاً:

مغاض عن العوراء لا ينطقونها وأهل وراثات الحلوم الأوائل

وقد كان يزيد أول من غزا مدينة قسطنطينية في سنة تسع وأربعين، في قول يعقوب بن سفيان. وقال خليفة بن خياط: سنة خمسين. ثم حجَّ بالناس في هذه السنة بعد مرجعه من أرض الروم.

وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**أوَّلُ جَيش يَغزُو مَدينَة قَيْصَرَ مَغْفُورٌ لَهُم**»(٢). وهو الجيش الثاني الذين رآهم رسول الله ﷺ في منامه عند أم حرام بنت ملحان، مثل الملوك على الأسرة، فقالت: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «**أنتِ منَ الأوَّلين**». يعني من الجيش الأول الذين رآهم رسول الله ﷺ مثل الملوك على الأسرة، يركبون ثبج البحر، فكان أمير الأولى أبوه معاوية. حين غزا قبرس، ففتحها في سنة سبع وعشرين أيام عثمان بن عفان، وكانت معهم أمُّ حرام، فماتتْ هنالك بقبرس، ثم كان أمير الجيش الثاني ابنه يزيد بن معاوية، ولم تدركْ أم حرامٍ جيش يزيد هذا. وذلك من أكبر دلائل النبوة، كما تقدم بيانه.

وقد أورد الحافظ ابن عساكر ههنا الحديث الذي رواه محاضرٌ، عن الأعمش، عن إبراهيم، عن عبيدة، عن عبدالله، أن رسول الله ﷺ قال: «**خَيرُ النَّاسِ قَرني، ثُم الذين يَلُونَهُم، ثُم الذينَ يَلُونَهُم**»(٣). الحديث، وكذلك رواه عبدالله بن شقيقٍ، عن أبي هريرة، عن النبيِّ ﷺ مثله.

ثم أورد من طريق حماد بن سلمة، عن أبي محمد، عن زرارة بن أوفى قال: القرْنُ عشرون ومائةُ سنةٍ، فبعث رسول الله ﷺ في قرْنٍ فكان آخره موتُ يزيد بن معاوية.

قال أبو بكر بن عياش: ثم حجَّ بالناس يزيد بن معاوية في سنة إحدى وخمسين وثنتين وخمسين وثلاثٍ وخمسين.

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا أبو كريب، ثنا رشدين، عن عمرو بن الحارث، عن بكير بن الأشجِّ،

---

(١) أخرجه مالك في «الموطأ» (٨٢٥) بإسناد مرسل.
(٢) صحيح تقدم.
(٣) **صحيح**: من غير هذا الوجه عن عبد الله بن مسعود عند البخاري (٢٦٥٢) ومسلم (٢٥٣٣).

أن معاوية قال ليزيد ابنه : كيف تراك فاعلاً إن وليت؟ قال : يمتع الله بك . قال : لتخبرنّي . قال : كنت والله يا أبهْ عاملاً فيهم عمل عمر بن الخطاب . فقال معاوية : سبحان الله! يا سبحان الله!! والله يا بُنيَّ لقد جهدْتُ على سيرة عثمان بن عفان، فما أطقتها[١] .

وقال الواقدي: حدثني أبو بكر ابن عبدالله ابن أبي سبْرةَ، عن مروان بن أبي سعيد بن المعلى قال: قال معاوية ليزيد وهو يوصيه عند الموت : يا يزيدُ، اتق الله فقد وطأتُ لك هذا الأمر، ووليت من ذلك ما وليت، فإن يك خيراً فأنا أسعدُ به، وإن كان غير ذلك شقيت به، فارفقْ بالناس، وأغمضْ عما بلغك من قول تؤذئ به وتنتقص به، وطأ عليه يهنك عيشك، وتصلحْ لك رعيتك، وإياك والمناقشة وحمل الغضب، فإنك تهلك نفسك ورعيتك، وإياك وجفوة أهل الشرف، واستهانتهم، والتكبر عليهم، لِن لهم ليناً بحيث لا يرون منك ضعفًا ولا خوراً، وأوطئهم فراشك، وقربهم إليك، وأدنهم منك، فإنهم يعلمون لك حقك، ولا تهنهم ولا تستخفَّ بحقهم فيهينوك ويستخفُّوا بحقك ويقعوا فيك، فإذا أردت أمراً فادع أهل السنِّ والتجربة من أهل الخير من المشايخ وأهل التقوىٰ، فشاورهم ولا تخالفهم، وإياك والاستبداد برأيك؛ فإن الرأي ليس في صدر واحدٍ، وصدقْ من أشار عليك إذا حملك على ما تعرف، ثم أطعْه فيما أشار به، واخزنْ ذلك عن نسائك وخدمك، وشمِّرْ إزارك، وتعاهدْ جندك، وأصلحْ نفسك يصلحْ لك الناس، لا تدع لهم فيك مقالاً؛ فإن الناس نزّاعٌ إلى الشرِّ، واحضر الصلاة، فإنك إذا فعلت ما أوصيك به عرف الناس لك حقك، وعظمت مملكتك، وعظمت في أعين الناس، واعرفْ شرف أهل المدينة ومكة؛ فإنهم أصلك وعشيرتك، واحفظْ لأهل الشام شرفهم؛ فإنهم أنصارك وحماتك وجندك الذين بهم تصول، وتنتصرُ على أعدائك، وتصل إلى أهل طاعتك، واكتبْ إلى أهل الأمصار بكتاب تعدهم فيه منك المعروف؛ فإن ذلك ينشط آمالهم، وإن وفد عليك وافدٌ من الكور كلها فأحسنْ إليهم وأكرمهم، فإنهم لمن وراءهم، ولا تسمعنَّ قول قاذف ولا ماحل؛ فإني رأيتهم وزراء سوءٍ[٢] .

ومن وجهٍ آخرَ أن معاوية قال ليزيد: إن لي خليلاً من أهل المدينة فأكرمه . قال: ومن هو؟ قال: عبدالله بن جعفر . فلما وفد بعد موت معاوية على يزيد أضعف جائزته التي كان معاوية يعطيه إياها، وكانت جائزته على معاوية ستمائة ألف، فأعطاه يزيد ألف ألفٍ، فقال له: بأبي أنت وأمي . فأعطاه ألف ألفٍ أخرىٰ . فقال له ابن جعفر : والله لا أجمع أبويَّ لأحد بعدك . ولما خرج ابن جعفر من عند يزيد ـ وقد أعطاه ألفيْ ألفٍ ـ رأىٰ على باب يزيد بخاتيَّ مبركات، قد قدم عليها هديةٌ من خراسان، فرجع عبدالله بن جعفر إلى يزيد، فسأله منها ثلاث بخاتيَّ ليرْكبَ عليها إلى الحجِّ والعمرة، وإذا وفد إلى الشام على يزيد . فقال يزيد للحاجب : ما هذه البخاتيُّ التي على الباب؟ ـ ولم يكنْ شعر بها ـ فقال : يا أمير المؤمنين، هذه أربعمائة بختيَّةٍ جاءتْنا من خراسان تحملُ أنواع الألطاف ـ وكان عليها أنواعٌ من الأموال كلها ـ فقال : اصرفها إلى أبي جعفر بما عليها . فكان عبدالله بن جعفر يقول :

(١) ما برز من إسناده ضعيف لضعف رشدين بن سعد. (٢) خبرٌ تالف لحال الواقدي.

أتلومونني على حسن الرأي في هذا؟! يعني يزيد.

وقد كان يزيد فيه خصالٌ محمودةٌ من الكرم والحلم والفصاحة والشعر والشجاعة وحسن الرأي في الملك، وكان ذا جمال، حسن المعاشرة، وكان فيه أيضًا إقبالٌ على الشهوات وترك بعض الصلوات في بعض الأوقات.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبدالرحمن، ثنا حيوة، حدثني بشيرُ بن أبي عمرو الخولاني، أن الوليد بن قيس حدثه، أنه سمع أبا سعيد الخدريَّ يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يكون خلفٌ من بعد ستين سنةً أضاعوا الصلاة واتَّبعوا الشهوات، فسوف يلقون غيًّا، ثم يكونُ خلفٌ يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ويقرأُ القرآن ثلاثة؛ مؤمنٌ ومنافقٌ وفاجرٌ».

قال بشيرٌ: فقلت للوليد: ما هؤلاء الثلاثة؟ قال: المنافق كافرٌ به، والفاجر يتأكلُ به، والمؤمنُ يؤمنُ به. تفرَّد به أحمد[1].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير بن حرب، ثنا الفضلُ بن دكين، ثنا كاملٌ أبو العلاء، سمعتُ أبا صالح، سمعتُ أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «تعوذوا بالله من سنة سبعين، ومن إمارة الصبيان»[2].

وروى الزبير بن بكار عن عبدالرحمن بن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، أنه قال في يزيد بن معاوية:

لستَ منا وليس خالك منا ... يا مضيع الصلاة للشهوات.

قال: وزعم بعض الناس أن هذا الشعر لموسى بن يسار، ويعرف بموسى شهوات. وروي عن عبدالله بن الزبير، أنه سمع جاريةً له تغنِّي بهذا البيت فضربها، وقال: قولي:

أنت منا وليس خالك منا ... يا مضيع الصلاة للشهوات.

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا الحكم بن موسى، ثنا يحيى بن حمزة، عن هشام بن الغاز، عن مكحول، عن أبي عبيدة، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال هذا الأمر قائمًا بالقسط حتى يثلمه رجلٌ من بني أمية»[3].

وحدثنا الحكم، ثنا الوليد بن مسلم، عن الأوزاعيِّ، عن مكحول، عن أبي عبيدة قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يزال أمر أمتي قائمًا بالقسط حتى يثلمه رجلٌ من بني أمية يقال له: يزيد». وهذا منقطعٌ بين مكحولٍ وأبي عبيدة، بل معضلٌ[4].

---

(١) إسناده ضعيف: الوليد بن قيس هو ابن الأخرم التجيبي المصري لم يوثقه معتبر وقال الحافظ في «التقريب» مقبول [يعني إن توبع وإلا فلين].

(٢) في إسناده من لم أعرفه ولم أقف عليه عند أبي يعلى وهو كامل أبو العلاء وأظنه تصحيف كامل ابن العلاء والله أعلم.

(٣) إسناده منقطع وانظر الآتي.

(٤) إسناده منقطع: كما قال المؤلف رحمه الله وانظر «جامع التحصيل»

وقد رواه ابن عساكر من طريق صدقة بن عبدالله الدمشقيّ، عن هشام ابن الغاز، عن مكحول، عن أبي ثعلبة الخشنيّ، عن أبي عبيدة، عن رسول الله ﷺ قال: «**لا يَزَالُ أَمْرَ هَذه الأمَّة قَائمًا بالقسْط حتى يكُونَ أَوَّلَ مَن يَثلمُه رَجُلٌ من بَني أُمَيَّة يُقَالُ لَهُ: يَزيدُ**». ثم قال: وهو منقطعٌ أيضًا بين مكحول وأبي ثعلبة[1].

وقال أبو يعلى: حدثنا عثمان ابن أبي شيبة، ثنا معاوية بن هشام، عن سفيان، عن عوف، عن خالد ابن أبي المهاجر، عن أبي العالية قال: كنا مع أبي ذرٍّ بالشام، فقال أبو ذر: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «**أولُ مَن يُغَيِّرُ سُنَّتي رَجُلٌ من بَني أُميَّة**»[2].

ورواه ابن خزيمة عن بندارٍ، عن عبدالوهاب بن عبدالمجيد، عن عوفٍ، حدثنا مهاجر بن أبي مخلد، حدثني أبو العالية، حدثني أبو مسلم، عن أبي ذر، فذكر نحوه، وفيه قصةٌ، وهي أن أبا ذرٍّ كان في غزاةٍ، عليهم يزيد ابن أبي سفيان، فاغتصب يزيد من رجل جاريةً، فاستعان الرجل بأبي ذرٍّ على يزيد أن يردها عليه، فأمره أبو ذرٍّ أن يردها عليه، فتلكأ، فذكر أبو ذر له الحديث فردها، وقال يزيد لأبي ذرٍ: نشدتك بالله أهو أنا؟ قال: لا. وكذا رواه البخاريُّ في «التاريخ» وأبو يعلى عن محمد بن المثنى، عن عبدالوهاب. ثم قال البخاريُّ: والحديث معلولٌ، ولا يعرف أن أبا ذر قدم الشام زمن عمر بن الخطاب. قال: وقد مات يزيد بن أبي سفيان زمن عمر، فولى مكانه أخاه معاوية.

وقال عباسٌ الدوريُّ: سألت ابن معين: أسمع أبو العالية من أبي ذرٍّ؟ قال: لا، إنما يروي عن أبي مسلم عنه. قلت: فمن أبو مسلم هذا؟ قال: لا أدري.

وقد أورد ابن عساكر أحاديث في ذم يزيد بن معاوية، كلُّها موضوعةٌ، لا يصح شيءٌ منها، وأجود ما ورد ما ذكرناه؛ على ضعف أسانيده وانقطاع بعضه. والله أعلم.

وقال الحسن بن أبي الحسن: ما أفسد أمر الناس إلا اثنان؛ عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف يوم صفين، فحملت على رءوس الأسنة، فحكم الخوارج، وقالوا: لا حكم إلا لله. فلا يزال هذا التحكيم إلى يوم القيامة، والآخر المغيرة بن شعبة؛ فإنه كان عامل معاوية على الكوفة فكتب إليه معاوية يقول: إذا قرأت كتابي فأقبل معزولاً، فأبطأ على معاوية في القدوم، فلما قدم عليه قال له معاوية: ما أبطأك عني؟ قال: أمرٌ كنت أوطئه وأهيئه. قال: وما هو؟ قال: البيعة

---

(١) **إسناده منقطع:** بين مكحول وأبي ثعلبة الخشني فإنه لم يسمع منه كما قال أبو مسهر الدمشقي وأبو نعيم الحافظ وغيرهما قاله ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ص (٢٨١) ط دار الإيمان.

(٢) في إسناده خالد ابن أبي المهاجر لم أعرفه وسيورد المؤلف عن البخاري جزمه بانه حديث معلول.

ليزيد من بعدك. قال: وقد فعلت ذلك؟ قال: نعم. فقال: ارجعْ إلىٰ عملك. فلما خرج المغيرة من عنده، قال له أصحابه: ما وراءك؟ قال: وضعت رجل معاوية في غرز غيٍّ لا يزال فيه إلىٰ يوم القيامة. قال الحسن: فمن أجل ذلك بايع هؤلاء أبناءهم، ولولا ذلك لكانت شورىٰ بين المسلمين إلىٰ يوم القيامة.

وقيل: إن معاوية قيل له: ننشدك الله فيمن نستخلف علىٰ المسلمين. فقال: لم يبق إلا ابني وأبناؤهم وابني أحقُّ.

قال الحارث بن مسكين، عن مسكين، عن سفيان، عن شبيب بن غرقدة، عن المستظل(١) قال: سمعت عمر بن الخطاب يقول: قد علمت ورب الكعبة متىٰ تهلك العرب؛ إذا ساسهم من لم يدرك الجاهلية ولم يكن له قدمٌ في الإسلام.

قلت: يزيد بن معاوية أكثر ما نقم عليه في عمله شرب الخمر وإتيان بعض الفواحش، فأما قتل الحسين فإنه ـ كما قال جده أبو سفيان يوم أحد ـ لم يأمرْ بذلك، ولم يسؤه. وقد قدمنا أنه قال: لو كنت أنا لم أفعل معه ما فعله ابن مرجانة. يعني عبيد الله بن زياد، وقال للرسل الذين جاءوا برأسه: قد كان يكفيكم من الطاعة دون هذا، ولم يعطهم شيئًا، وأكرم آل بيت الحسين، ورد عليهم جميع ما فقد لهم وأضعافه، وردهم إلىٰ المدينة النبوية في تجمُّل وأبهةٍ عظيمة، وقد ناح أهله في منزله علىٰ الحسين مع آله ـ حين كانوا عندهم ـ ثلاثة أيام.

وقيل: إن يزيد فرح بقتل الحسين أول ما بلغه، ثم ندم علىٰ ذلك. فقال أبو عبيدة معمر بن المثنَّىٰ: إن يونس بن حبيب الجرميَّ حدثه قال: لما قتل ابن زياد الحسين وبني أبيه، بعث برءوسهم إلىٰ يزيد، فسرَّ بقتلهم أولاً، وحسنت بذلك منزلة ابن زياد عنده، ثم لم يلبثْ إلا قليلاً حتىٰ ندم، فكان يقول: وما كان عليَّ لو احتملتُ الأذىٰ وأنزلته في داري وحكمته فيما يريده، وإن كان عليَّ في ذلك وكفٌ ووهنٌ في سلطاني؛ حفظًا لرسول الله ﷺ، ورعايةً لحقِّه وقرابته. ثم يقول: لعن الله ابن مرجانة فإنه أخرجه واضطره، وقد كان سأله أن يخلي سبيله أو يأتيني أو يكون بثغر من ثغور المسلمين حتىٰ يتوفاه الله تعالىٰ فلم يفعل، وأبىٰ عليه وقتله، فبغضني بقتله إلىٰ المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوة، فأبغضني البرُّ والفاجر بما استعظم الناس من قتلي حسينًا، ما لي ولابن مرجانة، لعنه الله، وغضب عليه.

ولما خرج أهل المدينة عن طاعته وخلعوه، وولوا عليهم ابن مطيع وابن حنظلة لم يذكروا عنه ـ وهم أشدُّ الناس عداوةً له ـ إلا ما ذكروه عنه من شربه الخمر وإتيانه بعض القاذورات، لم يتهموه بزندقة

---

(١) في إسناده المستظل بن حصين البارقي لا أعلم فيه جرحًا ولا تعديلاً سوىٰ أن ذكره ابن أبي حاتم في «الجرح» (٨/ ٤٢٩).

كما يقذفه بذلك بعض الروافض، بل قد كان فاسقًا، والفاسق لا يجوز خلعه؛ لما يؤدي ذلك إليه من الفتنة ووقوع الهرج، كما وقع زمن الحرة، فإنه بعث إليهم من يردهم إلى الطاعة، وأنظرهم ثلاثة أيام، فلما لم يرجعوا قاتلهم، وقد كان في هذا كفايةٌ، ولكنّه تجاوز الحدَّ في أمره أمير الحرب أن يبيح المدينة ثلاثة أيام، حتى وقع بسبب ذلك خطأٌ كبيرٌ وفسادٌ عريضٌ.

وقد كان عبدالله بن عمر بن الخطاب وجماعات أهل بيت النبوة ممن لم ينقض العهد، ولا بايع أحدًا بعد بيعته ليزيد؛ كما قال الإمام أحمد: حدثنا إسماعيل ابن علية، حدثني صخر بن جويرية، عن نافع قال: لما خلع الناس يزيد بن معاوية جمع ابن عمر بنيه وأهله، ثم تشهد، ثم قال: أما بعد، فإنا بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الغَادرَ يُنصبُ لَهُ لواءٌ يومَ القيامَة، يُقَالُ: هَذه غَدْرَةُ فُلان». وإن من أعظم الغدر - إلا أن يكون الإشراك بالله - أن يبايع رجلٌ رجلاً على بيع الله ورسوله ثم ينكث بيعته، فلا يخلعنَّ أحدٌ منكم يزيد، ولا يشرفنَّ أحدٌ منكم في هذا الأمر، فيكون الصيلمُ بيني وبينه[1].

وقد رواه مسلمٌ والترمذي، من حديث صخر بن جويرية، وقال الترمذيُّ: حسنٌ صحيح. وقد رواه أبو الحسن عليُّ بن محمد بن عبدالله ابن أبي سيف المدائنيُّ، عن صخر بن جويرية، عن نافع، عن ابن عمر، فذكر مثله. قال: ومشى عبدالله بن مطيع وأصحابه إلى محمد ابن الحنفية، فأرادوه على خلع يزيد، فأبى، فقال ابن مطيع: إن يزيد يشرب الخمر ويترك الصلاة ويتعدى حكم الكتاب. فقال لهم: ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده، فرأيته مواظبًا على الصلاة، متحريًا للخير، يسأل عن الفقه، ملازمًا للسنة. قالوا: فإن ذلك كان منه تصنعًا لك. فقال: وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر إلي الخشوع؟! أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحلُّ لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا. قالوا: إنه عندنا لحقٌّ وإن لم يكن رأيناه. فقال لهم: قد أبى الله ذلك على أهل الشهادة، فقال: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف:٨٦]، ولست من أمركم في شيء. قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك، فنحن نوليك أمرنا. قال: ما أستحلُّ القتال على ما تريدونني عليه تابعًا ولا متبوعًا. قالوا: فقد قاتلت مع أبيك. قال: جيئوني بمثل أبي أقاتلْ على مثل ما قاتل عليه. فقالوا: فمر ابنيك أبا هاشم والقاسم بالقتال معنا. قال: لو أمرتهما قاتلت. قالوا: فقم معنا مقامًا تحضُّ الناس فيه على

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢/٤٨) بهذا الإسناد وهو صحيح رجاله ثقات وأصله في «صحيح مسلم» (١٧٣٥) مختصراً على القدر المرفوع عند مسلم.

القتال. قال: سبحان الله! آمر الناس بما لا أفعله ولا أرضاه؟! إذًا ما نصحت لله في عباده. قالوا إذا نكرهك. قال: إذًا آمر الناس بتقوى الله، وألا يرضوا المخلوق بسخط الخالق. وخرج إلى مكة.

وقال أبو القاسم البغوي: ثنا مصعبٌ الزبيريُّ، ثنا ابن أبي حازم، عن هشام، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر دخل وهو معه على ابن مطيع، فلما دخل عليه قال: مرحبًا بأبي عبدالرحمن، ضعوا له وسادةً. فقال: إنما جئتك لأحدثك حديثًا سمعته من رسول الله ﷺ يقول: «من نزع يدًا من طاعة فإنه يأتي يوم القيامة لا حجَّة له، ومن مات مفارق الجماعة فإنه يموت ميتةً جاهليةً». وهكذا رواه مسلمٌ من حديث هشام بن سعدٍ، عن زيد، عن أبيه، عن ابن عمر به[1] وتابعه إسحاق بن عبدالله ابن أبي طلحة، عن زيد بن أسلم، عن أبيه. وقد رواه الليث عن محمد بن عجلان، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر، فذكره.

وقال أبو جعفر الباقر: لم يخرج أحدٌ من آل أبي طالب ولا من بني عبدالمطلب أيام الحرة، ولما قدم مسلم بن عقبة المدينة أكرم أبي وأدنى مجلسه، وأعطاه كتاب أمان.

وروى المدائنيُّ، أن مسلم بن عقبة بعث روح بن زنباع إلى يزيد ببشارة الحرة، فلما أخبره بما وقع قال: واقوماه. ثم دعا الضحاك بن قيس الفهريَّ فقال له: ترى ما لقي أهل المدينة، فما الرأي الذي يجبرهم؟ قال: الطعام والأعطية. فأمر بحمل الطعام إليهم، وأفاض عليهم أعطيته. وهذا خلاف ما ذكره كذبة الروافض عنه من أنه شمت بهم وشفى بقتلهم، وأنه أنشد - إما ذكرًا وإما أثرًا - شعر ابن الزبعرى المتقدم ذكره.

وقال أبو بكر محمد بن خلف بن المرزبان بن بسام: حدثني محمد بن القاسم، سمعت الأصمعيَّ يقول: سمعت هارون الرشيد ينشد ليزيد بن معاوية:

إنها بين عامر بن لؤيٍّ	حين تنمي وبين عبد مناف
ولها في المطيَّبين جدودٌ	ثم نالتْ مكارمَ الأخلاف
بنتُ عمِّ النبيِّ أكرمُ من يمـ	ـشي بنعل على التراب وحافي
لن تراها على التبذُّل والغلـ	ـظة إلا كدرة الأصداف

وقال الزبير بن بكار: أنشدني عمي مصعبٌ ليزيد بن معاوية ابن أبي سفيان:

آب هذا الهمُّ فاكتنعا	وأمر النوم فامتنعا
راعيًا للنجم أرقبه	فإذا ما كوكبٌ طلعا
حام حتى إنني لأرى	أنه بالغور قد وقعا

(١) هو في «صحيحه» (١٨٥١).

ولها بالمطرون إذا ... أكل النمل الذي جمعا
نزهة حتى إذا بلغت ... نزلت من جلق بيعا
في قباب وسط دسكرة ... حولها الزيتون قد ينعا

ومن شعره أيضًا:

وقائلة لي حين شبهت وجهها ... ببدر الدجى يومًا وقد ضاق منهجي
تشبهني بالبدر هذا تناقص ... بقدري ولكن لست أول من هجي
ألم تر أن البدر عند كماله ... إذا بلغ التشبيه عاد كدملج
فلا فخر إن شبهت بالبدر مبسمي ... وبالسحر أجفاني وبالليل مدعجي

وذكر الزبير بن بكار، عن أبي محمد الجزري قال: كانت بالمدينة جارية مغنية يقال لها: سلامةُ. من أحسن النساء وجهًا، وأتمِّهنَّ عقلاً وأحسنهن حديثًا، قد قرأت القرآن، وروت الشعر وقالته، وكان عبدالرحمن بن حسان والأحوص بن محمد يجلسان إليها، فعلقت الأحوص، وصدت عن عبدالرحمن، فترحل ابن حسان إلى يزيد بن معاوية فامتدحه، ودله على سلامة وجمالها وحسنها وفصاحتها، وقال: لا تصلح إلا لك يا أمير المؤمنين، وأن تكون من سمارك. فأرسل يزيد، فاشتريت له، وحملت إليه، فوقعت منه موقعًا عظيمًا، وفضلها على جميع من عنده، ورجع عبدالرحمن إلى المدينة، فمرَّ بالأحوص، فوجده مهمومًا، فأراد أن يزيده إلى ما به فقال:

يا مبتلى بالحبِّ مفدوحًا ... لاقى من الحبِّ تباريحا
أفحمه الحبُّ فما ينثني ... إلا بكأس الحبِّ مصبوحا
وصار ما يعجبه مغلقًا ... عنه وما يكره مفتوحا
قد حازها من أصبحتْ عنده ... ينال منها الشمَّ والريحا
خليفة الله فسلِّ الهوى ... وعزِّ قلبًا منك مجروحا

قال: فأمسك الأحوص عن جوابه، ثم غلبه وجده عليها، فرحل إلى يزيد، فامتدحه، فلما قدم عليه أكرمه وقربه وحظي عنده، فدست إليه سلامة خادمًا، وأعطته مالاً على أن يدخله عليها، فأخبر الخادم يزيد بذلك، فقال: امض لرسالتها. ففعل وأدخل الأحوص عليها، وجلس يزيد في مكان يراهما ولا يريانه، فلما بصرت الجارية بالأحوص بكت إليه وبكى إليها، وأمرت فألقي له كرسيٌّ،

فقعد عليه، وجعل كلٌّ واحد منهما يشكو إلى صاحبه شدة الشوق، فلم يزالا يتحدثان إلى السحر، ويزيد يسمع كلامهما من غير أن يكون بينهما ريبةٌ، حتى إذا همَّ الأحوص بالخروج قال:

أمسى فؤادي في همٍّ وبلبال　　　من حبٍّ من لم أزلْ منه على بال

فقالت:

صحا المحبون بعد النأي إذ يئسوا　　　وقد يئستُ وما أصحو على حال

فقال:

من كان يسلو بيأس عن أخي ثقة　　　فعنك سلام ما أمسيتُ بالسَّالي

فقالت:

والله والله لا أنساك يا شجني　　　حتى تفارق مني الروح أوصالي

فقال:

والله ما خاب من أمسى وأنت له　　　يا قرة العين في أهل وفي مال

قال: ثم ودعها وخرج، فأخذه يزيد، ودعا بها فقال: أخبراني عما كان في ليلتكما واصدقاني. فأخبراه وأنشداه ما قالا، فلم يخرما حرفًا، ولا غيَّرا شيئًا مما سمعه. فقال لها يزيد: أتحبينه؟ قالت: إيْ والله يا أمير المؤمنين:

حبًا شديدًا جرى كالرُّوح في جسدي　　　فهل يفرق بين الروح والجسد

فقال له: أتحبُّها؟ فقال: إي والله يا أمير المؤمنين:

حبًّا تليدًا غير مطرفٍ　　　بين الجوانح مثل النار يضطرمُ

فقال يزيد: إنكما لتصفان حبًّا شديدًا، خذها يا أحوصُ فهي لك. ووصله صلةً سنيَّة. فرجع بها الأحوص إلى الحجاز وهو قرير العين.

وقد روي أن يزيد كان قد اشتهر بالمعازف وشرب الخمر والغناء والصيد واتخاذ الغلمان والقيان والكلاب والنطاح بين الكباش والدباب والقرود، وما من يوم إلا يصبح فيه مخمورًا، وكان يشدُّ القرد على فرس مسرجة بحبال ويسوقُ به، ويلبس القرد قلانس الذهب، وكذلك الغلمان، وكان يسابق بين الخيل، وكان إذا مات القرد حزن عليه. وقيل: إن سبب موته أنه حمل قِردةً وجعل ينقزها فعضَّته. وذكروا عنه غير ذلك. والله أعلم بصحة ذلك.

وقال عبدالرحمن بن أبي مذعور: حدثني بعض أهل العلم قال: آخر ما تكلم به يزيد بن معاوية: اللهم لا تؤاخذني بما لم أحبه ولم أرده، واحكمْ بيني وبين عبيدالله بن زياد. وكان نقش خاتمه: آمنت بالله العظيم.

مات يزيد بحوارين من قرئ دمشق في رابع عشر ربيع الأول، وقيل: يوم الخميس للنصف منه. سنة أربع وستين، وكانت ولايته بعد موت أبيه في منتصف رجب سنة ستين، وكان مولده في سنة خمس-وقيل: سنة ستٍّ. وقيل: سبع-وعشرين. ومع هذا فقد اختلف في سنِّه ومبلغ أيامه في الإمارة على أقوال كثيرةٍ، وإذا تأملتَ ما ذكرته لك من هذه التحديدات انزاح عنك الإشكال من هذا الخلاف، فإن منهم من قال: جاوز الأربعين حين مات. فالله أعلم. وقد حمل إلى دمشق وصلى عليه ابنه معاوية بن يزيد أمير المؤمنين، ودفن بمقابر الباب الصغير، وفي أيامه وسَّع النهرُ المسمَّى بيزيد، في ذيل جبل قاسيون، وكان جدولاً صغيراً، فوسعه أضعاف ما كان يجري فيه من الماء.

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر: حدثنا أبو الفضل محمد بن محمد بن الفضل بن المظفر العبديُّ قاضي البحرين من لفظه وكتبه لي بخطه قال: رأيت يزيد بن معاوية في النوم فقلت له: أنت قتلت الحسين؟ فقال: لا. فقلت له: هل غفر الله لك؟ قال: نعم، وأدخلني الجنة. قلت: فالحديث الذي يروى أن رسول الله ﷺ رأى معاوية يحمل يزيد فقال: «رَجُلٌ من أهلِ الجنَّة يَحْمِلُ رَجُلاً من أهلِ النَّار»؟ [1] فقال: ليس بصحيح.

قال ابن عساكر: وهو كما قال، فإن يزيد بن معاوية لم يولد في حياة النبيِّ ﷺ. وإنما ولد بعد العشرين من الهجرة.

* * *

(١) كذا هو كما قال ابن عساكر رحمه الله تعالى.

وقال أبو جعفر بن جرير:

ذكر أولاد يزيد بن معاوية وعددهم

فمنهم معاوية بن يزيد بن معاوية يكنى أبا ليلى، وهو الذي يقول فيه الشاعر:

إني أرى فتنةً قد حان أولها ... والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

وخالد بن يزيد، يكنى أبا هاشم، كان يقال: إنه أصاب علم الكيمياء. وأبو سفيان، وأمهم أم هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وقد تزوجها بعد يزيد مروان بن الحكم، وهي التي يقول فيها الشاعر:

انعمي أمَّ خالد ... رُبَّ ساعٍ لقاعد

وعبدالله بن يزيد، ويقال له: الأسوار. وكان من أرمى العرب، وأمه أمُّ كلثوم بنت عبدالله بن عامر، وهو الذي يقول فيه الشاعر:

زعم الناس أن خير قريش ... كلهم حين يذكرُ الأسوار

وعبدالله الأصغر، وأبو بكر، وعتبة، وعبدالرحمن، والربيع، ومحمدٌ، لأمهات أولادٍ شتى.

إمارة معاوية بن يزيد بن معاوية

أبو عبدالرحمن، ويقال: أبو يزيد. ويقال: أبو ليلى القرشيُّ الأمويُّ. وأمه أمُّ هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة، بويع له بعد موت أبيه، وكان وليَّ عهده من بعده في رابع عشر ربيع الأول سنة أربع وستين، وكان رجلاً صالحًا ناسكًا، ولم تطلْ مدته. قيل: إنه مكث في الملك أربعين يومًا. وقيل: عشرين يومًا. وقيل: شهرين. وقيل: شهرًا ونصف شهر. وقيل: ثلاثة أشهر. وقيل: وعشرين يومًا. وقيل: أربعة أشهر. فالله أعلم.

وكان في مدة ولايته مريضًا، لم يخرج إلى الناس، وكان الضحاك بن قيس هو الذي يصلي بالناس، ويسدُّ الأمور. ومات معاوية بن يزيد هذا عن إحدى وعشرين سنة. وقيل: ثلاث وعشرين سنة وثمانية عشر يومًا. وقيل: تسع عشرة سنة. وقيل: عشرين سنة. وقيل: ثلاث وعشرين سنة. وقيل: إنما عاش ثماني عشرة سنة. وقيل: خمس عشرة سنة. فالله أعلم. وصلى عليه أخوه خالدٌ، وقيل: عثمان بن عنبسة. وقيل: الوليد بن عتبة. وهذا هو الصحيح، فإنه أوصى إليه بذلك، وشهد دفنه مروان بن الحكم، وكان الضحاك بن قيس هو الذي يصلي بالناس بعده حتى استقر الأمر لمروان بالشام، ودفن بمقابر باب الصغير بدمشق. ولما حضرته الوفاة قيل له: ألا توصي؟ فقال: لا أتزود مرارتها وأترك حلاوتها لبني أمية. وكان، رحمه الله، أبيض شديد البياض، كثير الشعر، كبير العينين، جعد الشعر، أقنى الأنف، مدور الرأس، جميل الوجه دقيقه، حسن الجسم.

قال أبو زرعة الدمشقيُّ: معاوية وعبدالرحمن وخالدٌ إخوةٌ، وكانوا من صالحي القوم. وقال فيه

بعض الشعراء، وهو عبدالله بن همام السلولي:

تلقاها يزيد عن أبيه فدونكها معاوي عن يزيدا
أديروها بني حرب عليكم ولا ترموا بها الغرض البعيدا

ويروى أن معاوية بن يزيد هذا نادى في الناس: الصلاة جامعةً. ذات يوم، فاجتمع الناس، فقال لهم فيما قال: يا أيها الناس، إني قد وليت أمركم وأنا ضعيفٌ عنه، فإن أحببتم تركتها لرجل قويٍّ، كما تركها الصديق لعمر، وإن شئتم تركتها شورى في ستة منكم كما تركها عمر بن الخطاب، وليس فيكم من هو صالحٌ لذلك، وقد تركت لكم أمركم، فولُّوا عليكم من يصلح لكم. ثم نزل ودخل منزله، فلم يخرج منه حتى مات، رحمه الله تعالى. ويقال: إنه سقِي. ويقال: إنه طعن.

وقد حضر مروان دفنه، فلما فرغ منه قال مروان. أتدرون من دفنتم؟ قالوا: نعم، معاوية بن يزيد. فقال مروان: هو أبو ليلى الذي قال فيه أزنم الفزاري:

إني أرى فتنةً تغلي مراجلها والملك بعد أبي ليلى لمن غلبا

قالوا: كان الأمر كما قال. وذلك أن أبا ليلى توفي عن غير عهد منه إلى أحد، فتغلب على الحجاز عبدالله بن الزبير، وعلى دمشق وأعمالها مروان بن الحكم، وبايع أهل خراسان سلم بن زياد حتى يتولى على الناس خليفةٌ، فسار فيهم سلم سيرة حسنة أحبوه عليها، ثم أخرجوه من بين أظهرهم، وخرج القراء والخوارج بالبصرة، وعليهم نافع بن الأزرق، وطردوا عنهم عبيد الله بن زياد - بعدما كانوا بايعوه عليهم - حتى يصير للناس إمامٌ، فذهب إلى الشام بعد فصول يطول ذكرها، وقد بايعوا بعده عبدالله بن الحارث بن نوفل المعروف ببَبَّة، وأمه هند بنت أبي سفيان، وقد جعل على شرطة البصرة هميان بن عدي السدوسي، فبايعه الناس في مستهل جمادى الآخرة، سنة أربع وستين، وقد قال الفرزدق:

وبايعت أقوامًا وفيت بعهدهم وبَبَّة قد بايعته غير نادم

فأقام فيهم أربعة أشهر، ثم لزم بيته، فكتب أهل البصرة إلى ابن الزبير، فكتب ابن الزبير إلى أنس ابن مالك يأمره أن يصلي بالناس، فصلى بهم شهرين، ثم كان ما سنذكره. وخرج نجدة بن عامر الحنفي باليمامة، وخرج بنو ماحوز في الأهواز وفارس وغير ذلك، على ما سيأتي تفصيله قريبًا، إن شاء الله تعالى.

إمارة عبدالله بن الزبير رضي الله عنه وعند ابن حزم وطائفة أنه أمير المؤمنين آنذاك

قد قدمنا أنه لما مات يزيد أقلع الجيش عن مكة، وهم الذين كانوا يحاصرون ابن الزبير وهو عائذٌ بالبيت، مع أميرهم حصين بن نمير السكوني ورجعوا عن مكة إلى الشام واستفحل أمر عبدالله بن

الزبير بالحجاز وما والاها، وبايعه الناس بعد يزيد بيعة عامةً هناك، واستناب على المدينة أخاه عبيدة ابن الزبير، وأمره بإجلاء بني أمية عن المدينة، فأجلاهم فرحلوا إلى الشام، وفيهم مروان وابنه عبدالملك، ثم بعث أهل البصرة إلى ابن الزبير بعد حروب جرت بينهم وفتن كثيرة يطول استقصاؤها، غير أنهم في أقلَّ من ستة أشهر أقاموا عليهم نحوًا من أربعة أمراء من بينهم، ثم اضطربت أمورهم، ثم بعثوا إلى ابن الزبير، وهو بمكة يجلبونه إلى أنفسهم، فكتب إلى أنس بن مالك ليصلي بهم.

وبعث ابن الزبير إلى أهل الكوفة عبدالله بن يزيد الأنصاري على الصلاة، وإبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله على الخراج، واستوثق له المصران جميعًا، وأرسل إلى أهل مصر فبايعوه. واستناب عليها عبدالرحمن بن جحدم، وأطاعت له الجزيرة. وبعث على البصرة الحارث بن عبدالله ابن أبي ربيعة، وبعث إلى اليمن فبايعوه، وإلى خراسان فبايعوه، وإلى الضحاك بن قيس بالشام فبايع، وقيل: إن أهل دمشق وأعمالها من بلاد الأردن لم يبايعوه؛ لأنهم بايعوا مروان بن الحكم لما رجع الحصين بن نمير من مكة إلى الشام، وكان قد التفَّ على عبدالله بن الزبير جماعةٌ من الخوارج يدافعون عنه؛ منهم نافع بن الأزرق، وعبدالله بن إباض، وجماعةٌ من رءوسهم، فلما استقرَّ أمره في الخلافة قالوا فيما بينهم: إنكم قد أخطأتم؛ لأنكم قاتلتم مع هذا الرجل، ولم تعلموا رأيه في عثمان بن عفان. وكانوا ينتقصون عثمان، فاجتمعوا إليه فسألوه عن عثمان، فأجابهم فيه بما يسوءهم، وذكر لهم ما كان متصفًا به من الإيمان والتصديق، والعدل والإحسان والسيرة الحسنة، والرجوع إلى الحق إذا تبين له، فعند ذلك نفروا عنه، وفارقوه، وقصدوا بلاد العراق وخراسان، فتفرقوا فيها بأبدانهم وأديانهم ومذاهبهم ومسالكهم المختلفة المنتشرة، التي لا تنضبط ولا تنحصر؛ لأنها مفرعةٌ على الجهل وقوة النفوس، والاعتقاد الفاسد، ومع هذا استحوذوا على كثير من البلدان والكور، حتى انتزعت منهم بعد ذلك، على ما سنذكره فيما بعد إن شاء الله.

ذكر بيعة مروان بن الحكم

وكان سبب ذلك أن حصين بن نمير لما رجع من أرض الحجاز، وارتحل عبيدالله بن زياد من البصرة إلى الشام، وانتقلت بنو أمية من المدينة إلى الشام، اجتمعوا إلى مروان بن الحكم بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية، وقد كان عزم على أن يبايع لابن الزبير بدمشق، وقد بايع أهلها الضحاك بن قيس على أن يصلح بينهم ويقيم لهم أمرهم حتى تجتمع أمة محمد ﷺ، والضحاك يريد أن يبايع لابن الزبير، وقد بايع لابن الزبير النعمان بن بشير بحمص، وبايع له زفر بن الحارث الكلابي بقنسرين، وبايع له ناتل بن قيس بفلسطين، وأخرج منها روح بن زنباع الجذامي، فلم يزل عبيدالله بن زياد والحصين بن نمير بمروان بن الحكم، حتى ثنوه عن رأيه، وحذروه من دخول سلطان ابن الزبير

وملكه إلى الشام، وقالوا له: أنت شيخ قريش وسيدها، فأنت أحقُّ بهذا الأمر. والتفَّ عليه هؤلاء كلُّهم مع قومه بني أمية ومع أهل اليمن، فوافقهم، وجعل يقول: ما فات شيءٌ. وكتب حسان بن مالك بن بحدل الكلبيُّ إلى الضحاك بن قيس يثنيه عن المبايعة لابن الزبير، ويعرفه أيادي بني أمية عنده وإحسانهم إليه، ويذكر فضلهم وشرفهم، وقد بايع حسان بن مالك أهل الأردن لبني أمية، وهو يدعو إلى ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية، وبعث إلى الضحاك بذلك، وأمره أن يقرأ كتابه على أهل دمشق يوم الجمعة على المنبر، وبعث بالكتاب مع رجل يقال له: ناغضة بن كريب الطابخيُّ. وقيل: هو من بني كلب. وقال له: إن لم يقرأه هو على الناس فاقرأه أنت. و أعطاه نسخةً به، فسار إلى الضحاك، فأمره بقراءة الكتاب، فلم يقبل، فقام ناغضة فقرأه على الناس، فصدقه جماعة من أمراء الناس وكذبه آخرون، وثارت فتنة عظيمةٌ بين الناس، فقام خالد بن يزيد بن معاوية ـ وهو شابًا حدثٌ ـ على درجتين من المنبر، فسكن الناس، ونزل الضحاك فصلى بالناس الجمعة، وأمر الضحاك ابن قيس بأولئك الذين صدقوا ناغضة أن يسجنوا، فثارت قبائلهم، فأخرجوهم من السجن، واضطرب أهل دمشق في ابن الزبير وبني أمية، وكان اجتماع الناس ووقوفهم بعد صلاة الجمعة بباب الجيرون، فسمي هذا اليوم يوم جيرون.

قال المدائني: وقد أراد الناس الوليد بن عتبة بن أبي سفيان على أن يتولى عليهم فأبى، وهلك في تلك الليالي، ثم إن الضحاك بن قيس صعد منبر المسجد الجامع، فخطبهم به، ونال من يزيد بن معاوية، فقام إليه شابٌّ من بني كلب، فضربه بعصا كانت معه والناس جلوسٌ متقلدي سيوفهم، فقام بعضهم إلى بعض، فاقتتلوا في المسجد قتالاً شديدًا؛ فقيسٌ ومن لفَّ لفيفها يدعون إلى ابن الزبير وينصرون الضحاك بن قيس، وبنو كلب يدعون إلى بني أمية وإلى البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية، ويتعصبون ليزيد وأهل بيته، فنهض الضحاك بن قيس، فدخل دار الإمارة وأغلق الباب، ولم يخرج إلى الناس من يوم السبت لصلاة الفجر، ثم أرسل إلى بني أمية، فجمعهم إليه فدخلوا عليه، وفيهم مروان بن الحكم، وعمرو بن سعيد بن العاص، وخالدٌ وعبدالله ابنا يزيد بن معاوية.

قال المدائني: فاعتذر إليهم مما كان منه، واتفق معهم أن يركب معهم إلى حسان بن مالك الكلبيِّ، فيتفقوا على رجل يرتضونه من بني أمية للإمارة، فركبوا جميعًا إليه، فبينما هم يسيرون إلى الجابية لقصد حسان، إذ جاء ثور بن معن بن الأخنس في قومه قيس، فقال له: إنك دعوتنا إلى بيعة ابن الزبير فأجبناك، وأنت ذاهبٌ إلى هذا الأعرابي ليستخلف ابن أخته خالد بن يزيد بن معاوية، فقال له الضحاك: فما الرأي؟ قال: الرأي أن نظهر ما كنا نسرُّ، وأن ندعو إلى طاعة ابن الزبير ونقاتل عليها. فمال الضحاك بمن معه، فرجع إلى دمشق، فأقام بها بمن معه من الجيش من قيس ومن لفَّ لفيفها، وبعث إلى أمراء الأجناد، وبايع الناس لابن الزبير، وكتب بذلك إلى ابن الزبير يعلمه بذلك، فذكره ابن الزبير لأهل مكة وشكره على صنيعه، وكتب إليه بنيابة الشام، وقيل: بل بايع

الناس لنفسه بالخلافة. فالله أعلم أيُّ ذلك كان.

والذي ذكره المدائنيُّ أنه إنما دعا إلى بيعة ابن الزبير أولاً، ثم حسن له عبيدالله بن زياد أن يدعو إلى نفسه، وذلك مكرٌ منه به، فدعا الضحاك إلى نفسه ثلاثة أيام، فنقم الناس عليه ذلك، وقالوا: دعوتنا إلى البيعة لرجل فبايعناه، ثم خلعته من غير سببٍ ولا عذر، ودعوت إلى نفسك! فرجع إلى البيعة لابن الزبير، فسقط بذلك عند الناس، وذلك الذي أراد عبيدالله بن زياد.

وكان اجتماع عبيدالله بن زياد به بعد اجتماعه بمروان وتحسينه له أن يدعو إلى نفسه، ثم فارقه ليخدع له الضحاك، فنزل عنده بدمشق، وجعل يركب إليه في كل يوم، ثم أشار ابن زياد على الضحاك أن يخرج من دمشق إلى الصحراء ويدعو بالجيوش إليه ليكون أمكن له، فركب الضحاك إلى مرج راهط، فنزل بمن معه من الجنود، وعند ذلك اجتمعت بنو أمية ومن تبعها بالأردنِّ، واجتمع إليهم من هنالك من قوم حسان بن مالك من بني كلبٍ.

ولما رأى مروان بن الحكم ما انتظم من البيعة لابن الزبير، وما استوسق له من الملك، عزم على الرحيل إليه ليبايعه وليأخذ منه أمانًا لبني أمية، فسار حتى بلغ أذرعات، فلقيه عبيدالله بن زياد مقبلاً من العراق، فصدَّه عن ذلك، وهجن رأيه، واجتمع إليه عمرو بن سعيد بن العاص، وحصين بن نمير، وابن زياد، وأهل اليمن وخلقٌ، فقالوا لمروان: أنت كبير قريش ورئيسها، وخالد بن يزيد غلامٌ، وعبدالله بن الزبير كهلٌ، وإنما يقرع الحديد بعضه ببعض، فلا تباره بهذا الغلام، وارم بنحرك في نحره، ونحن نبايعك، ابسط يدك. فبسط يده، فبايعوه بالجابية في يوم الأربعاء لثلاث خلون من ذي القعدة، سنة أربع وستين. قاله الواقديُّ.

فلما تمهد له الأمر سار بمن معه نحو الضحاك بن قيس، فالتقيا بمرج راهط، فغلبه مروان بن الحكم، وقتله وقتل من قيس مقتلةً لم يسمع بمثلها، على ما سيأتي تفصيله في أول سنة خمس وستين. فإن الواقديَّ وغيره قالوا: إنما كانت هذه الوقعة في المحرم من أول سنة خمس وستين.

وفي رواية محمد بن سعد، عن الواقديِّ وغيره قالوا: إنما كانت في أواخر هذه السنة.

وقال الليث بن سعدٍ، والواقديُّ، والمدائنيُّ، وأبو سليمان بن زبر وأبو عبيدٍ وغير واحد: كانت وقعة مرج راهط للنصف من ذي الحجة سنة أربعٍ وستين. والله سبحانه وتعالى أعلم.

وقعة مرج راهط ومقتل الضحاك بن قيس الفهري، رضي الله عنه

قد تقدم أن الضحاك كان نائب دمشق لمعاوية بن أبي سفيان، وكان يصلِّي عنه إذا اشتغل أو غاب، ويقيم الحدود، ويسدُّ الأمور، فلما مات معاوية قام بأعباء بيعة يزيد ابنه، ثم لما مات يزيد بايع الناس لمعاوية بن يزيد، فلما مات معاوية بن يزيد بايعه أهل دمشق حتى يجتمع الناس على إمام، فلما

اتسعت البيعة لابن الزبير عزم على المبايعة له، فخطب الناس يومًا وتكلم في يزيد بن معاوية وذمه، فقامت فتنةٌ في المسجد الجامع، حتى اقتتل الناس فيه بالسيوف، فسكن الناس، ثم دخل دار الإمارة من الخضراء، وأغلق عليه الباب، ثم اتفق مع بني أمية على أن يركبوا إلى حسان بن مالك بن بحدل وهو بالأردنّ، فيجتمعوا عنده على من يراه أهلاً للإمارة على الناس، وكان حسان يريد أن يبايع لابن أخته خالد بن يزيد، ويزيد بن ميسون، وميسون بنت بحدل، فلما ركب الضحاك معهم انخذل بأكثر الجيش، فرجع إلى دمشق، فامتنع بها، وبعث إلى أمراء الأجناد، فبايعهم لابن الزبير، وسار بنو أمية ومعهم مروان بن الحكم، وعمرو بن سعيد، وخالدٌ وعبدالله ابنا يزيد بن معاوية، حتى اجتمعوا بحسان بن مالك بن بحدل بالجابية، وليس لهم قوةٌ طائلةٌ بالنسبة إلى الضحاك بن قيس، فعزم مروان على الرحيل إلى ابن الزبير ليبايعه، ويأخذ أمانًا منه لبني أمية، فإنه كان قد أمر بإجلائهم عن المدينة، فسار حتى وصل إلى أذرعات، فلقيه عبيدالله بن زياد مقبلاً من العراق، فاجتمع به، ومعه حصين بن نمير، وعمرو بن سعيد بن العاص، فحسَّنوا له أن يدعو إلى نفسه؛ فإنه أحقُّ بذلك من ابن الزبير الذي قد فارق الجماعة، وخلع ثلاثةً من الخلفاء، فلم يزالوا بمروان حتى أجابهم إلى ذلك، وقال له عبيدالله بن زياد: وأنا أذهب لك إلى الضحاك إلى دمشق، فأخدعه لك وأخذل أمره. فسار إليه وجعل يركب إليه كل يوم، ويظهر له الود والنصيحة والمحبة، ثم حسن له أن يدعو إلى نفسه، ويخلع ابن الزبير، فإنك أحق بالأمر منه؛ لأنك لم تزل في الطاعة مشهوراً بالأمانة، وابن الزبير خارجٌ عن الناس. فدعا الضحاك الناس إلى نفسه ثلاثة أيام، فلم يصعد معه، فرجع إلى الدعوة لابن الزبير، ولكن انحطَّ بها عند الناس، ثم قال له ابن زياد: إن من يطلب ما تطلب لا ينزل المدن والحصون، وإنما ينزل الصحراء، ويدعو بالجنود. فبرز الضحاك إلى مرج راهط فنزله، وأقام عبيدالله بن زياد بدمشق ومروان وبنو أمية بتدمر، وخالدٌ وعبدالله عند خالهم حسان بالجابية، فكتب ابن زياد إلى مروان يأمره أن يظهر دعوته، فدعا إلى نفسه، وتزوج بأمِّ خالد بن يزيد بن معاوية، وهي أمُّ هاشم بنت أبي هاشم بن عتبة بن ربيعة، فعظم أمره وبايعه الناس، واجتمعوا عليه، وسار إلى مرج راهط نحو الضحاك بن قيس، وركب إليه عبيدالله بن زياد وأخوه عباد بن زياد، حتى اجتمع مع مروان ثلاثة عشر ألفًا، وبدمشق من جهته يزيد بن أبي النمس، وقد أخرج عامل الضحاك منها، وهو يمدُّ مروان بالسلاح والرجال وغير ذلك ـ ويقال: كان نائبه على دمشق يومئذ عبدالرحمن بن أمّ الحكم ـ وجعل مروان على ميمنته عبيدالله بن زياد، وعلى ميسرته عمرو بن سعيد بن العاص، وبعث الضحاك إلى النعمان بن بشير، فأمدَّه النعمان بأهل حمص عليهم شرحبيل بن ذي الكلاع، وركب إليه زفر بن الحارث الكلابيُّ في أهل قنسرين، فكان الضحاك في ثلاثين ألفًا، على ميمنته زياد بن عمر العقيليُّ، وعلى ميسرته زكريا بن شمر الهلاليُّ، فتصافوا، وتقاتلوا بالمرج عشرين يومًا، يلتقون في كل يوم فيقتتلون قتالاً شديدًا، ثم أشار عبيدالله بن زياد على مروان أن يدعوهم إلى الموادعة

خديعة؛ فإن الحرب خدعة، وأنت وأصحابك على الحق، وهم على الباطل ونودي في الناس بذلك ثم غدر أصحاب مروان، فمالوا يقتلونهم قتلاً شديدًا، وصبر أصحاب الضحاك صبرًا بليغًا، فقتل الضحاك بن قيس في المعركة، قتله رجلٌ يقال له: زحمة بن عبدالله. من بني كلبٍ، طعنه بحربةٍ فأنزفه ولم يعرفه. وصبر مروان وأصحابه صبرًا شديدًا حتى فرَّ أولئك بين يديه، فنادى: لا يتبع مدبرٌ. ثم جيء برأس الضحاك، ويقال: إن أول من بشره بقتله روح بن زنباع الجذاميُّ. واستقر ملك الشام بيد مروان بن الحكم. وروي أنه بكى على نفسه يوم مرج راهط، فقال: أبعدما كبرت وضعفت صرت إلى أن أقتل الناس بالسيوف على الملك؟!

قلت: ولم تطل مدته في الملك إلا تسعة أشهر على ما سنذكره.

وقد كان الضحاك بن قيس بن خالد الأكبر بن وهب بن ثعلبة بن وائلة بن عمرو بن شيبان بن محارب بن فهر بن مالك، أبو أنيس الفهريُّ، أحد الصحابة على الصحيح، وقد سمع من النبيِّ ﷺ، وروى عنه أحاديث عدةً، وروى عنه جماعةٌ من التابعين، وهو أخو فاطمة بنت قيس، وكانت أكبر منه بعشر سنين، وكان أبو عبيدة بن الجراح عمه. حكاه ابن أبي حاتم. وزعم بعضهم أنه لا صحبة له، وقال الواقديُّ: أدرك النبي ﷺ وسمع منه قبل البلوغ. وفي رواية عن الواقديِّ أنه قال: ولد الضحاك قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين.

وقد شهد فتح دمشق، وسكنها وله بها دارٌ عند حجر الذهب، مما يلي نهر بردى، وكان على أهل دمشق يوم صفين مع معاوية، ولما أخذ معاوية الكوفة استنابه بها في سنة أربع وخمسين.

وقد روى البخاريُّ في «التاريخ» أن الضحاك قرأ سورة «ص» في الصلاة بالناس بالكوفة، فسجد فيها فلم يتابعه علقمة وأصحاب ابن مسعود في السجود.

ثم استنابه معاوية عنده على دمشق، فلم يزل عنده حتى مات معاوية، وتولى ابنه يزيد، ثم ابن ابنه معاوية بن يزيد، ثم صار أمره إلى ما ذكرنا.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا عفان بن مسلم، ثنا حماد بن سلمة، أنبأنا عليّ بن زيد، عن الحسن، أن الضحاك بن قيس كتب إلى قيس بن الهيثم حين مات يزيد بن معاوية: سلامٌ عليك، أما بعد، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن بين يدي الساعة فتنًا كقطع الليل المظلم، فتنًا كقطع الدخان، يموت فيها قلب الرجل كما يموت بدنه، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع أقوامٌ خلاقهم ودينهم بعرض من الدنيا قليل**». وإن يزيد بن معاوية قد مات، وأنتم إخواننا وأشقاؤنا فلا تسبقونا حتى نختار لأنفسنا[1].

وقد روى الحافظ بن عساكر من طريق ابن قتيبة، عن العباس بن الفرج الرياشي، عن يعقوب بن

---

(١) إسناده ضعيف وهو عند أحمد (٣/ ٤٥٣) بهذا الإسناد وضعفه لضعف عليّ بن زيد بن جدعان.
وأخرجه مسلم (١١٨) من حديث أبي هريرة مرفوعًا «بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا. أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا يبيع دينه بعرض من الدنيا».

إسحاق بن بويه، عن حماد بن زيد قال: دخل الضحاك بن قيس على معاوية فقال معاوية:

طاولت للضحاك حتى رددته إلى حسب في قومه متقاصر

فقال الضحاك: قد علم قومنا أننا أحلاس الخيل. فقال: صدقت، أنتم أحلاسها ونحن فرسانها. يريد: أنتم راضةٌ وساسةٌ، ونحن الفرسان. وأرئ أصله من الحلس، وهو كساءٌ يكون تحت البردعة، أي يلزم ظهورها، كما يلزم الحلس ظهر البعير.

وروئ أيضًا أن مؤذن دمشق قال للضحاك بن قيس: والله أيها الأمير إني لأحبُّك في الله. فقال له الضحاك: ولكني والله أبغضك في الله. قال: ولم؟ أصلحك الله. قال: لأنك تتراءئ في أذانك، وتأخذ أجرًا على تعليمك.

قتل الضحاك، رحمه الله، يوم مرج راهط، وذلك للنصف من ذي الحجة، سنة أربع وستين. قاله الليث بن سعد، وأبو عبيد، والواقديُّ، وابن زبر، والمدائنيُّ.

وفيها قتل النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري، وأمه عمرة بنت رواحة، وكان أول مولود ولد بالمدينة بعد الهجرة للأنصار، في جمادئ الأولى سنة ثنتين من الهجرة، فأتت به أمه تحمله إلى النبي ﷺ فحنَّكه وبشرها بأنه يعيش حميدًا، ويقتل شهيدًا، ويدخل الجنة، فعاش في خير وسعة، وولي نيابة الكوفة لمعاوية تسعة أشهر، ثم سكن الشام، وولي قضاءها بعد فضالة بن عبيد، وفضالة بعد أبي الدرداء. وناب بحمص لمعاوية، وهو الذي رد آل رسول الله ﷺ إلى المدينة بأمر يزيد له في ذلك، وهو الذي أشار على يزيد بالإحسان إليهم وقال: عاملهم بما كان يعاملهم به رسول الله ﷺ لو رآهم على هذه الحالة، فرقَّ لهم يزيد، وأحسن لهم وأكرمهم، وأمر بإكرامهم، ثم لما كانت وقعة مرج راهط وقتل الضحاك بن قيس، وكان النعمان قد أمدَّه بأهل حمص، عدا عليه أهل حمص فقتلوه بقرية يقال لها: بيرين. قتله رجلٌ يقال له: خالد بن خليٍّ الكلاعيُّ. وقيل: خليُّ بن داود. وهو جدُّ خالد بن خليٍّ، وقد رثته ابنته حميدة بنت النعمان فقالت:

ليت ابن مزنة وابنه كانوا لقتلك واقيه

وبني أمية كلهم لم تبق منهم باقيه

جاء البريد بقتله يا للكلاب العاويه

يستفتحون برأسه دارت عليهم ثانيه

فلأبكينَّ مسرةً ولأبكينَّ علانيه

ولأبكينَّك ما حييت مع السباع العاديهْ

وقيل: إن أعشى همدان قدم على النعمان بن بشير وهو على حمص، وهو مريضٌ، فقال له النعمان: ما أقدمك؟ قال: لتصلني وتحفظ قرابتي وتقضي ديني. فقال: والله ما عندي، ولكني سائلهم لك شيئًا. ثم قام فصعد المنبر، ثم قال: يا أهل حمص، إن هذا ابن عمكم من العراق، وهو يسترفدكم شيئًا فما ترون؟ فقالوا: احتكم في أموالنا. فأبى عليهم، فقالوا: قد حكمنا من أموالنا،

كل رجل دينارين - وكانوا في الديوان عشرين ألف رجل - فعجلها له النعمان من بيت المال أربعين ألف دينار، فلما خرجت أعطياتهم أسقط من عطاء كل رجل منهم دينارين.

ومن كلام النعمان، رضي الله عنه، قوله: إن الهلكة كل الهلكة أن تعمل بالسيئات في زمان البلاء[1].

وقال يعقوب بن سفيان: حدثنا أبو اليمان، ثنا إسماعيل بن عياش، عن أبي رواحة يزيد بن أيهم، عن الهيثم بن مالك الطائي، سمعت النعمان بن بشير على المنبر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن للشيطان مصاليَ وفخوخًا، وإن من مصاليه وفخوخه البطر بنعم الله، والفخر بعطاء الله، والكبر على عباد الله، واتباع الهوى في غير ذات الله**»[2].

ومن أحاديثه الصحاح الحسان ما سمعه من رسول الله ﷺ يقول: «**إن الحلال بين، وإن الحرام بينٌ، وبين ذلك أمورٌ مشتبهاتٌ لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا وإن لكل ملك حمى، ألا وإن حمى الله تعالى محارمه، ألا وإن في الجسد مضغةً إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، ألا وهي القلب**». رواه البخاريُّ ومسلم[3].

وقال أبو مسهر: كان النعمان بن بشير على حمص عاملاً لابن الزبير، فلما تمرون أهل حمص خرج النعمان هاربًا، فاتبعه خالد بن خليٍّ الكلاعيُّ فقتله.

قال أبو عبيد وغير واحد: في هذه السنة.

وقد روى محمد بن سعد بأسانيده أن معاوية تزوج امرأةً جميلةً جدًا، فبعث إحدى امرأتيه ميسون أو فاختة؛ لتنظر إليها. فلما رأتها أعجبتها جدًا، ثم رجعت إليه فقال: كيف رأيتيها؟ قالت: بديعة الجمال، غير أني رأيت تحت سرتها خالاً أسود، وإني أحسب أن زوجها يقتل ويلقى رأسه في حجرها.

فطلقها معاوية، وتزوجها النعمان بن بشير، فلما قتل ألقى رأسه في حجر امرأته هذه.

وقال أبو سليمان بن زبر: قتل بسلمية سنة ستٍّ وستين. وقال غيره: سنة خمس وستين. وقيل: سنة ستين. والصحيح ما ذكرناه.

---

(١) يا لها من حكمة بليغة يستفيد منها من تدبرها وعقلها بأن الله يقول ﴿ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون﴾ [الأنعام: ٤٢-٤٤].

(٢) **إسناده ضعيف:** أخرجه الفسوي في «المعرفة» (٢/ ٤٤٦) بهذا الإسناد وضعفه من أجل يزيد بن أيهم قال الحافظ في «التقريب» مقبول.

(٣) أخرجه البخاري (٥٢) ومسلم (١٥٩٩) باب أخذ الحلال وترك الشبهات.

وفيها توفي المسور بن مخرمة بن نوفل، صحابيٌّ صغيرٌ، أصابه حجرُ المنجنيق بمكة، وهو قائمٌ يصلي في الحجر.

وفي هذه السنة - أعني سنة أربع وستين - جرت حروبٌ كثيرةٌ وفتنٌ منتشرةٌ ببلاد المشرق، واستحوذ على بلاد خراسان رجلٌ يقال له: عبدالله بن خازم. وقهر عمالها وأخرجهم منها، وذلك بعد موت يزيد وابنه معاوية، قبل أن يستقر ملك ابن الزبير على تلك النواحي، وجرت بين عبدالله بن خازم هذا وبين عمرو بن مرثد حروبٌ يطول ذكرها وتفصيلها، اكتفينا بذكرها إجمالاً؛ إذ لا يتعلق بتفصيلها كبير فائدة، وهي حروب فتنةٍ وقتال بغاةٍ بعضهم في بعضٍ، وبالله المستعان.

وقال الواقدي: وفي هذه السنة - بعد موت معاوية بن يزيد - بايع أهل خراسان سلم بن زياد بن أبيه، وأحبُّوه حتى إنهم سمَّوا باسمه في تلك السنة أكثر من ألف غلام مولود، ثم نكثوا واختلفوا، فخرج عنهم سلمٌ، وترك عليهم المهلب ابن أبي صفرة.

وفيها اجتمع ملأ الشيعة على سليمان بن صرد بالكوفة، وتواعدوا النخيلة؛ ليأخذوا بثأر الحسين ابن عليٍّ، رضي الله عنه، وما زالوا في ذلك مجدِّين، وعليه عازمين، من بعد مقتل الحسين بكربلاء في العاشر من المحرم سنة إحدى وستين، وقد ندموا على ما كان منهم من بعثهم إليه، فلما حصل ببلادهم خذلوه وتخلوا عنه ولم ينصروه.

فجادت بوصل حين لا ينفع الوصل

فاجتمعوا في دار سليمان بن صرد وهو صحابيٌّ جليلٌ، وكان رءوس القائمين في ذلك خمسةً؛ سليمان بن صرد الصحابيَّ، والمسيب بن نجبة الفزاريَّ أحد كبار أصحاب عليٍّ، وعبدالله بن سعد بن نفيل الأزدي، وعبدالله بن وال التيميَّ، ورفاعة بن شداد البجليَّ وكلهم من أصحاب عليٍّ، رضي الله عنه، فاجتمعوا كلُّهم بعد خطب ومواعظ على تأمير سليمان بن صرد عليهم، فتعاهدوا وتعاقدوا، وتواعدوا النخيلة؛ أن يجتمع من يستجيب لهم إلى ذلك الموضع بها في سنة خمس وستين، ثم جمعوا من أموالهم وأسلحتهم شيئًا كثيرًا وأعدُّوه لذلك.

وكتب سليمان بن صرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان، وهو بالمدائن يدعوه إلى ذلك، فاستجاب له، ودعا إليه سعدٌ من أطاعه من أهل المدائن، فبادروا إليه بالاستجابة والقبول، وتمالئوا عليه وتواعدوا النخيلة في التاريخ المذكور. وكتب سعدٌ إلى سليمان بذلك، ففرح أهل الكوفة من موافقة أهل المدائن لهم على ذلك، وتنشطوا لأمرهم الذي تمالئوا عليه، فلما مات يزيد بن معاوية وابنه معاوية بعده بقليل، طمعوا في الأمر، واعتقدوا أن أهل الشام قد ضعفوا، ولم يبق من يقيم لهم أمرًا، فغدوا إلى سليمان، واستشاروه في الظهور وأن يخرجوا إلى النخيلة قبل الأجل، فمنعهم من ذلك حتى يأتي الأجل الذي واعدوا إخوانهم فيه. ثم هم في الباطن يعدون السلاح والقوة، ولا يشعر بهم جمهور الناس، وحينئذ عمد جمهور أهل الكوفة إلى عمرو بن حريث نائب عبيدالله بن

زياد على الكوفة، فأخرجوه من القصر، واصطلحوا على عامر بن مسعود بن أمية بن خلف الملقب دحروجة، فبايع لعبدالله بن الزبير، فهو يسدُّ الأمور حتى تأتيَ نواب ابن الزبير، فلما كان يوم الجمعة لثمان بقين من رمضان من هذه السنة ـ أعني سنة أربع وستين ـ قدم أميران إلى الكوفة من جهة ابن الزبير؛ أحدهما عبدالله بن يزيد الخطميُّ على الحرب والثغر، والآخر إبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيدالله التيميُّ على الخراج، وقد كان قدم قبلها إلى الكوفة بجمعة واحدة للنصف من هذا الشهر المختار ابن أبي عبيد ـ وهو المختار الثقفيُّ الكذاب ـ فوجد الشيعة قد التفت على سليمان بن صردٍ، وعظموه تعظيمًا زائدًا، وهم معدون للحرب، فلما استقر المختار عندهم، دعا في الباطن إلى إمامة محمد ابن الحنفية، ولقبه المهديَّ، فاتبعه كثيرٌ من الشيعة، وفارقوا سليمان بن صرد، وصارت الشيعة فرقتين؛ الجمهور منهم مع سليمان يريدون الخروج على الناس للأخذ بثأر الحسين، وفرقة أصحاب المختار يريدون الخروج للدعوة إلى إمامة محمد ابن الحنفية، وذلك عن غير أمر ابن الحنفية ورضاه، وإنما يتقولون عليه ليروجوا على الناس به، وليتوصلوا إلى أغراضهم الفاسدة، وجاءت العين الصافية إلى عبدالله بن يزيد الخطميِّ نائب ابن الزبير بما تمالأ عليه فرقتا الشيعة على اختلافهما؛ من الخروج على الناس والدعوة إلى ما يريدون، وأشار من أشار عليه بأن يبادر إليهم، ويحتاط عليهم، ويبعث الشرط والمقاتلة فيقمعهم عما هم مجمعون عليه من إرادة الشرِّ والفتنة، فقام خطيبًا في الناس، وذكر في خطبته ما بلغه عن هؤلاء القوم، وما أجمعوا عليه من الأمر، وأن منهم من يريد الأخذ بثأر الحسين، ولقد علموا أنِّي لست ممن قتله، وإني والله لمن أصيب بقتله، رحمه الله ولعن قاتله، وإني لا أتعرض لأحد قبل أن يبدأني بالشرِّ، وإن كان هؤلاء يريدون الأخذ بثأر الحسين، فليعمدوا إلى عبيدالله بن زياد، فإنه هو الذي قتل الحسين وخيار أهله، فليأخذوا منه بالثأر، ولا يخرجوا بسيوفهم على أهل بلدهم، فيكون فيه حتفهم واستئصالهم، فقام إبراهيم بن محمد بن طلحة الأمير الآخر فقال: أيها الناس، لا يغرنكم من أنفسكم كلام هذا المداهن، إنا والله قد استيقنا أن قومًا يريدون الخروج علينا، ولنأخذنَّ الوالد بالولد والولد بالوالد، والحميم بالحميم، والعريف بما في عرافته، حتى يدينوا بالحق ويذلوا للطاعة. فوثب إليه المسيب بن نجبة الفزاريُّ فقطع عليه كلامه، فقال: يا بن الناكثين أتهددنا بسيفك وغشمك؟! أنت والله أذلُّ من ذلك، إنا لا نلومك على بغضنا وقد قتلنا أباك وجدك، وإنا لنرجو أن نلحقك بهما قبل أن تخرج من هذا القصر. وساعد المسيب بن نجبة بعض أصحابه، وورد عن إبراهيم بن محمد بن طلحة جماعةٌ من العمال، وجرت فتنةٌ وشرٌّ كثيرٌ في المسجد، فنزل عبدالله بن يزيد الخطميُّ عن المنبر، وحاولوا أن يوقعوا بين الأميرين، فلم يتفق لهم ذلك، ثم ظهرت الشيعة أصحاب سليمان بن صرد بالسلاح، وأظهروا ما كان في أنفسهم من الخروج على الناس، وركبوا مع سليمان بن صرد، فقصدوا نحو الجزيرة، فكان من أمرهم ما سنذكره.

وأما المختار بن أبي عبيد الثقفيُّ الكذاب فإنه قد كان بغيضًا إلى الشيعة من يوم طعن الحسن، وهو

ذاهبٌ إلى الشام بأهل العراق، فلجأ إلى المدائن، فأشار المختار على عمِّه، وهو نائب المدائن بأن يقبض على الحسن ويبعثه إلى معاوية، فيتخذ بذلك عنده اليد البيضاء، فامتنع عمُّه من ذلك، فأبغضته الشيعة بسبب ذلك، فلما كان من أمر مسلم بن عقيل ما كان، وقتله ابن زياد، كان المختار يومئذٍ بالكوفة، فبلغ ابن زياد أنه يقول: لأقومنَّ بنصرة مسلم، ولآخذنَّ بثأره.

فأحضره بين يديه، وضرب عينه بقضيب كان بيده فشترها، وأمر بسجنه، فلما بلغ أخته سجنه بكت وجزعت عليه، وكانت تحت عبدالله بن عمر بن الخطاب، فكتب ابن عمر إلى يزيد بن معاوية يشفع عنده في إخراج المختار من السجن، فبعث يزيدُ إلى ابن زياد أنْ ساعة وقوفك على هذا الكتاب تخرج المختار بن أبي عبيد من السجن، فلم يمكن ابن زياد غير ذلك، فأخرجه وقال له: إن وجدتك بالكوفة بعد ثلاثة أيام ضربت عنقك. فخرج المختار إلى الحجاز وهو يقول: والله لأقطعن أنامل عبيدالله بن زياد، ولأقتلنَّ بالحسين بن عليٍّ عدد من قتل على دم يحيى بن زكريا. فلما استفحل أمر عبدالله بن الزبير بمكة بايعه المختار بن أبي عبيد، وكان من كبار الأمراء عنده، ولما حاصره الحصين بن نمير وأهل الشام قاتل المختار دونه أشدَّ القتال، فلما بلغه موت يزيد بن معاوية واضطراب أهل العراق، نقم على ابن الزبير في بعض الأمر، وخرج من الحجاز، فقصد الكوفة، فدخلها في يوم جمعة، والناس يتهيئون للصلاة، فجعل لا يمرُّ بملأ من الناس إلا سلم، وقال: أبشروا بالنصر والظفر بالأعداء. ودخل المسجد فصلى إلى سارية هنالك، حتى أقيمت الصلاة، ثم صلى من بعد الصلاة حتى صليت العصر، ثم انصرف فسلم عليه الناس، وأقبلوا إليه وعليه وعظموه، وجعل يدعو إلى إمامة المهديِّ محمد بن الحنفية، ويظهر الانتصار لأهل البيت، وأنه بصدد أن يقيم شعارهم، ويظهر منارهم، ويستوفيَ ثأرهم، ويقول للناس الذين قد اجتمعوا على سليمان بن صرد من الشيعة، وقد خشيَ أن يبادروا إلى الخروج مع سليمان، فجعل يخذلهم ويستميلهم إليه، ويقول لهم: إني قد جئتكم من قِبَلِ وليِّ الأمر، ومعدن الفضل، ووصيِّ الوصيِّ، والإمام المهدي، بأمر فيه الشفاء، وكشف الغطاء، وقتل الأعداء وتمام النعماء وأن سليمان بن صرد، يرحمنا الله وإياه، إنما هو عشمةٌ من العشم، وشنٌّ بالٍ، ليس بذي تجربة للأمور، ولا له علمٌ بالحروب، إنما يريد أن يخرجكم فيقتل نفسه ويقتلكم، وإني إنما أعمل على مثل قد مثّل لي، وأمر قد بين لي، فيه عزُّ وليكم، وقتل عدوكم، وشفاءُ صدوركم، فاسمعوا مني وأطيعوا أمري، ثم أبشروا وتباشروا، فإني لكم بكل ما تأملون وتحبُّون كفيلٌ. فالتفَّ عليه خلقٌ كثيرٌ من الشيعة، ولكنَّ الجمهور منهم مع سليمان بن صرد، فلما خرجوا مع سليمان إلى النخيلة قال عمر بن سعد بن أبي وقاص وشبث بن ربعيٍّ وغيرهما لعبدالله بن يزيد نائب الكوفة: إن المختار بن أبي عبيدٍ أشدُّ عليكم من سليمان بن صردٍ. فبعث إليه الشرط فأحاطوا بداره، فأخذ فذهب به إلى السجن مقيَّداً. وقيل: بغير قيد. فأقام به مدةً ومرض فيه.

قال أبو مخنف: فحدثني يحيىٰ ابن أبي عيسىٰ أنه قال: دخلت إليه مع حميد بن مسلم الأزدي نعوده ونتعاهده، فسمعته يقول: أما وربِّ البحار، والنخيل والأشجار، والمهامه والقفار، والملائكة الأبرار، والمصطفين الأخيار، لأقتلنَّ كل جبار، بكل لدن خطار، ومهند بتار، وجموع من الأنصار، ليسوا بميل أغمار، ولا بعزل أشرار، حتىٰ إذا أقمت عمود الدين، وجبرت صدع المسلمين، وشفيت غليل صدور المؤمنين، وأدركت ثأر أولاد النبيين، لم أبك علىٰ زوال الدنيا، ولم أحفل بالموت إذا دنا. قال: وكان كلما أتيناه وهو في السجن يردد علينا هذا القول حتىٰ خرج.

ذكر هدم الكعبة وبنائها في أيام ابن الزبير

قال أبو جعفر بن جرير: وفي هذه السنة هدم ابن الزبير الكعبة؛ وذلك لأنه مال جدارها مما رميت به من حجارة المنجنيق، فهدم الجدران حتىٰ وصل إلىٰ أساس إبراهيم، وكان الناس يطوفون ويصلون من وراء ذلك، وجعل الحجر الأسود في تابوت في سرقة من حرير، وادخر ما كان في الكعبة من حليٍّ وثياب وطيب عند الخزان، حتىٰ أعاد ابن الزبير بناءها علىٰ ما كان رسول الله ﷺ يريد أن يبنيها عليه من الشكل.

وقال الواقديُّ: لما أراد ابن الزبير هدم البيت شاور الناس في هدمها، فأشار عليه جابر بن عبدالله وعبيد بن عمير بذلك، وقال ابن عباس: أخشىٰ أن يأتيَ بعدك من يهدمها، فلا تزال تهدم حتىٰ يتهاون الناس بحرمتها، ولكن أرىٰ أن تصلح ما وَهَىٰ منها، وتدع بيتًا أسلم الناس عليه، وأحجاراً بعث رسول الله ﷺ عليها. فقال ابن الزبير: لو احترق بيت أحدكم ما رضي حتىٰ يجدده، فكيف ببيت ربكم؟! ثم إن ابن الزبير استخار الله ثلاثة أيام، ثم غدا في اليوم الرابع، فبدأ ينقض الركن إلىٰ الأساس، فلمَّا وصلوا إلىٰ الأساس وجدوا أصلاً بالحجر مشبكًا كأصابع اليدين، فدعا ابن الزبير خمسين رجلاً وأشهدهم علىٰ ذلك، ثم بنىٰ البيت وأدخل الحجر فيه، وجعل للكعبة بابين موضوعين بالأرض؛ بابٌ يدخل منه وبابٌ يخرج منه، ووضع الحجر الأسود بيده، وشده بفضة؛ لأنه كان قد تصدع، وجعل طول الكعبة سبعةً وعشرين ذراعًا، وكان طولها سبعة عشر ذراعًا فاستقصره، وزاد في وسع الكعبة عشرة أذرع، ولطخ جدرانها بالمسك، وسترها بالديباج، ثم اعتمر من مساجد عائشة، وطاف بالبيت، وصلىٰ وسعىٰ، وأزال ما كان حول البيت وفي المسجد من الحجارة والزبالة، وما كان حولها من الدماء، وكانت الكعبة قد وهتْ من أعلاها إلىٰ أسفلها من حجارة المنجنيق، واسودَّ الركن، وانصدع الحجر الأسود من النار التي كانت حول الكعبة.

وكان سبب تجديد ابن الزبير لها ما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما من المسانيد والسُّنن، من طرق، عن عائشة أم المؤمنين، أن رسول الله ﷺ قال: «**لَوْلا حَدَثَان قَومك بكُفر لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ ولأَدْخَلتُ فيهَا الحِجرَ، فَإنَّ قَومَكَ قَصُرَتْ بِهِمُ النَّفَقَةُ، وَلجَعَلتُ لَهَا بَابًا شَرقيًا وَبَابًا غَربيا، يَدخُلُ النَّاسُ مِن أحَدِهِمَا**

وبَخْرُجُونَ منَ الآخَر، ولألصقتُ بَابَهَا بالأرض، فَإنَّ قَومَك رَفَعُوا بَابَهَا ليُدخلُوا مَن شَاءُوا ويَمنَعُوا مَن شَاءُوا»[1]. فبناها ابن الزبير علىٰ ذلك كما أخبرته به خالته عائشة أم المؤمنين، عن رسول الله ﷺ، فجزاه الله خيرًا. ثم لما غلبه الحجاج بن يوسف في سنة ثلاث وسبعين، كما سيأتي، وقتله وصلبه هدم الحائط الشماليَّ وأخرج الحجرَ كما كان أولاً، وأدخل الحجارة التي هدمها إلىٰ جوف الكعبة فرضها فيها، فارتفع الباب، وسدَّ الغربيَّ، وتلك آثاره إلىٰ الآن، وذلك بأمر عبدالملك بن مروان له في ذلك، ولم يكن بلغه الحديث، فلما بلغه الحديث بعد ذلك قال: وددنا أنا تركناه وما تولىٰ من ذلك.

وقد همَّ المهديُّ بن المنصور العباسيُّ أن يعيدها علىٰ ما بناها ابن الزبير، واستشار الإمام مالك بن أنس في ذلك، فقال: إني أكره أن يتخذها الملوك ملعبةً. يعني يتلاعبون في بنائها بحسب آرائهم، فهذا يرىٰ رأيَ ابن الزبير، وهذا يرىٰ رأي عبدالملك بن مروان. والله سبحانه وتعالىٰ أعلم.

قال ابن جرير: وحج بالناس في هذه السنة عبدالله بن الزبير، وكان عامله علىٰ المدينة أخوه عبيدة، وعلىٰ الكوفة عبدالله بن يزيد الخطميُّ، وعلىٰ قضائها سعيد بن نمران، وامتنع شريحٌ أن يحكمَ في زمان الفتنة، وعلىٰ البصرة عمر بن عبيدالله بن معمر التيميُّ، وعلىٰ قضائها هشام بن هبيرة، وعلىٰ خراسان عبدالله بن خازم. وكان في أواخر هذه السنة وقعة مرج راهط كما قدمنا، وقد استقرَّ ملك الشام لمروان بن الحكم بن أبي العاص، وذلك بعد ظفره بالضحاك بن قيس وقتله له في الوقعة، كما ذكرنا. وقيل: إن فيها دخل مروان مصر وأخذها من نائبها الذي من جهة ابن الزبير، وهو عبدالرحمن بن جحدم. واستقرت يد مروان علىٰ الشام ومصر وأعمالها.

ثم دخلت سنة خمس وستين

ففيها اجتمع إلىٰ سليمان بن صرد نحوٌ من سبعة عشر ألفًا، كلُّهم يطلبون الأخذ بثأر الحسين ممن قتله.

وقد خطبهم سليمان بن صرد حين خرجوا من الكوفة في ربيع الأول من هذه السنة بالنخيلة، فحرضهم علىٰ الجهاد في ذلك، فقال: من كان خرج منكم لطلب الدنيا ذهبها وحريرها فليس معنا من ذلك شيءٌ، وإنما معنا سيوفٌ علىٰ عواتقنا، ورماحٌ في أكفِّنا، وزادٌ يكفينا حتىٰ نلقىٰ عدونا. فأجابوه إلىٰ السمع والطاعة والحالة هذه، ثم أشار عليهم سليمان بن صرد بقصد عبيدالله بن زياد، فأشار بعضهم بمقاتلة من بالكوفة من رءوس القبائل من قتلة الحسين كعمر بن سعد بن أبي وقاص وأضرابه، فامتنع سليمان بن صرد إلا أن يذهبوا إلىٰ عبيدالله بن زياد؛ فإنه هو الذي جهز إليه الجيوش، وألب الناس عليه، وامتنع من قبول ما طلبه منه، وقال: ليس له إلا السيف، وها هو قد

(1) أخرجه البخاري (١٥٨٥) ومسلم (١٣٣٣).

أقبل من الشام قاصدًا العراق. فصمم الناس معه على هذا الرأي.

فلما أزمعوا على ذلك بعث عبدالله بن يزيد وإبراهيم بن محمد أمراء الكوفة من جهة ابن الزبير إلى سليمان بن صرد يقولان له: إنا نحب أن تكون أيدينا واحدة على ابن زياد. وأنهم يريدون أن يبعثوا معهم جيشًا ليقويهم على ما قصدوا له، وبعثوا إليه البريد أن ينتظرهم حتى يقدموا عليه، فتهيأ سليمان ابن صرد لقدومهم عليه في رءوس الأمراء، وجلس في أبهته، والجيوش محدقة به، وأقبل عبدالله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة في أشراف أهل الكوفة من غير قتلة الحسين؛ لئلا يطمعوا فيهم، وكان عمر بن سعد بن أبي وقاص في هذه الأيام كلها لا يبيت إلا في قصر الإمارة عند عبدالله بن يزيد خوفًا على نفسه، فلما اجتمع الأميران عند سليمان بن صرد قالا له وأشارا عليه أن لا يذهبوا حتى تكون أيديهم كلهم واحدةً على قتال عدوهم ابن زياد، ويجهزوا معهم جيشًا آخر؛ فإن أهل الشام جمعٌ كثير وجمٌّ غفير، وهم يحاجفون عن ابن زياد، فامتنع سليمان بن صرد من قبول قولهما وقال: إنا قد خرجنا لأمر لا نرجع عنه، ولا نتأخر فيه. فانصرف الأميران راجعين إلى الكوفة، وانتظر سليمان ابن صرد وأصحابه أصحابهم الذين كانوا قد واعدوهم من أهل البصرة وأهل المدائن أن يقدموا عليهم النخيلة في هذه السنة، فلم يقدموا عليهم ولا أحدٌ منهم، فقام سليمان بن صرد في أصحابه خطيبًا، وحرضهم على الذهاب لما خرجوا له، وقال: لو قد سمع إخوانكم بمسيركم للحقوكم سراعًا. فخرج سليمان وأصحابه من النخيلة يوم الجمعة لخمس مضين من ربيع الأول، سنة خمس وستين، فسار بهم مراحل، ما يتقدمون مرحلةً إلى نحو الشام إلا تخلف عنه طائفةٌ من الناس الذين معه، فلما مروا بقبر الحسين صاحوا صيحة رجل واحد وتباكوا، وباتوا عنده ليلةً، وظلوا يومًا يدعون ويترحمون عليه، ويستغفرون له ويترضون عنه، ويتمنون أن لو كانوا ماتوا معه شهداء.

قلت: لو كان هذا العزم والاجتماع قبل وصول الحسين إلى تلك المنزلة لكان أنفع له وأنصر من اجتماعهم لنصرته بعد أربع سنين.

ولما أرادوا الانصراف جعل لا يسير أحدٌ منهم حتى يأتي القبر فيترحم عليه، ويستغفر له، حتى جعلوا يزدحمون عليه أشد من ازدحامهم عند الحجر الأسود، ثم ساروا قاصدين الشام، فلما اجتازوا بقرقيسيا تحصن منهم زفر بن الحارث، فبعث إليه سليمان بن صرد: إنا لم نأت لقتالكم فأخرج إلينا سوقًا، فإنا إنما نقيم عندكم يومًا أو بعض يوم. فأمر زفر بن الحارث أن يخرج السوق إليهم، وأمر للرسول إليه - وهو المسيب بن نجبة الفزاريُّ - بفرس وألف درهم. فقال: أما المال فلا، وأما الفرس فنعم. وبعث زفر بن الحارث إلى سليمان بن صرد ورءوس الأمراء الذين معه، إلى كلٍّ واحد عشرين جزورًا وطعامًا وعلفًا كثيرًا، ثم خرج زفر بن الحارث فشيعهم، وساير سليمان بن صرد، وقال له: إنه قد بلغني أن أهل الشام قد وجهوا إليكم جيشًا كثيفًا وعددًا كثيرًا مع حصين بن

نمير، وشرحبيل بن ذي الكلاع، وأدهم بن محرز الباهليّ، وربيعة بن المخارق الغنوي، وجبلة بن عبدالله الخثعميّ. فقال سليمان بن صرد: على الله توكلنا، وعليه فليتوكل المتوكلون. ثم عرض عليهم زفر بن الحارث أن يدخلوا مدينته أو يكونوا عند بابها، فإن جاءهم أحدٌ كان معهم عليه، فأبوا أن يقبلوا شيئًا من ذلك، وقالوا: قد عرض علينا أهل بلدنا مثل ذلك فامتنعنا. قال: فإذا أبيتم ذلك فبادروهم إلى عين الوردة، فيكون الماء والمدينة والأسواق خلف ظهوركم، وما بيننا وبينكم فأنتم آمنون منه. ثم أشار عليهم بما يعتمدونه في حال القتال، فأثنى عليه سليمان بن صرد والناس خيرًا، ثم رجع عنهم، وسار سليمان بن صرد فبادر إلى عين الوردة، فنزل غربيها، وأقام هناك خمسًا قبل وصول أعدائه إليه.

وقعة عين وردة

واستراح سليمان وأصحابه واطمأنوا، فلما اقترب قدوم أهل الشام إليهم خطب سليمان أصحابه، فرغبهم في الآخرة، وزهدهم في الدنيا، وحثهم على الجهاد، وقال: إن قتلت فالأمير عليكم المسيب بن نجبة، فإن قتل فعبد الله بن سعد بن نفيل، فإن قتل فعبدالله بن وال، فإن قتل فرفاعة بن شداد. ثم بعث بين يديه المسيب بن نجبة في أربعمائة فارس فأغاروا على جيش شرحبيل بن ذي الكلاع وهم غارون، فقتلوا منهم جماعةً وجرحوا آخرين، واستاقوا نعمًا، وأتى الخبر إلى عبيدالله بن زياد، فأرسل بين يديه الحصين بن نمير، فصبح سليمان بن صرد وجيشه فتواقفوا في يوم الأربعاء لثمان بقين من جمادى الأولى، وحصين بن نمير قائمٌ في اثني عشر ألفًا، وقد تهيأ كلٌّ من الفريقين لصاحبه، فدعا الشاميُّون أصحاب سليمان إلى الدخول في طاعة مروان بن الحكم، ودعا أصحاب سليمان الشاميين إلى أن يسلموا إليهم عبيد الله بن زياد فيقتلوه عن الحسين، وامتنع كلٌّ من الفريقين أن يجيب إلى ما دعا إليه الآخر، فاقتتلوا قتالاً شديدًا عامة يومهم إلى الليل، وكانت الدائرة فيه للعراقيين على الشاميين، فلما أصبحوا أصبح ابن ذي الكلاع، وقد وصل إلى الشاميين في ثمانية آلاف فارس، وقد أنبه وشتمه عبيد الله بن زياد، فاقتتل الناس في هذا اليوم قتالاً لم ير الشيب والمرد مثله قطُّ، لا يحجز بينهم إلا أوقات الصلوات إلى الليل، فلما أصبح الناس من اليوم الثالث وصل إلى الشاميين أدهم بن محرز في عشرة آلاف، وذلك في يوم الجمعة، فاقتتلوا قتالاً شديدًا إلى حين ارتفاع الضحى، ثم استدار أهل الشام بأهل العراق وأحاطوا بهم من كل جانب، فخطب سليمان بن صرد الناس، وحرضهم على الجهاد فاقتتل الناس قتالاً عظيمًا جدًا، ثم ترجل سليمان بن صرد، وكسر جفن سيفه، ونادى: يا عباد الله، من أراد الرواح إلى الجنة، والتوبة من ذنبه، والوفاء بعهده فليأت إليَّ. فترجل معه ناسٌ كثيرون وكسروا جفون سيوفهم، وحملوا حتى صاروا في وسط القوم، وقتلوا من أهل الشام مقتلةً عظيمةً حتى خاضوا في الدماء، وقتل سليمان بن صرد، رماه يزيد بن

الحصين بسهم فوقع، ثم وثب، ثم وقع، ثم وثب، ثم وقع، فأخذ الراية المسيب بن نجبة، فقاتل بها قتالاً شديداً، وهو يقول:

قد علمت ميالة الذوائب ... واضحة اللبات والترائب
أني غداة الروع والتغالب ... أشجع من ذي لبدة مواثب
قطاع أقران مخوف الجانب

ثم قتل، رحمه الله، فقضى في ذلك الموقف نحبه، ولحق صحبه، فأخذ الراية عبدالله بن سعد ابن نفيل، فقاتل قتالاً شديداً أيضاً وهو يقول:

رحم الله أخويَّ، منهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا. وحمل حينئذ ربيعة ابن المخارق على أهل العراق حملةً منكرةً، وتبارز هو وعبدالله بن سعد بن نفيل، ثم اتحدا فحمل ابن أخي ربيعة على عبدالله بن سعد فقتله، ثم احتمل عمه، فأخذ الراية عبدالله بن وال، فحرض الناس على الجهاد، وجعل يقول: الرواح إلى الجنة. وذلك بعد العصر، وحمل بالناس ففرق من كان حوله، ثم قتل، وكان من الفقهاء المفتين، قتله أدهم بن محرز الباهليُّ أمير الحرب ساعتئذٍ من جهة الشاميين، فأخذ الراية رفاعة بن شداد، فانحاز بالناس، وقد دخل الظلام، ورجع الشاميُّون إلى رحالهم، وانشمر رفاعة بمن بقيَ معه راجعاً إلى بلاده، فلما أصبح الشاميُّون إذا العراقيُّون قد كرّوا راجعين إلى بلادهم، فلم يبعثوا وراءهم طالباً ولا أحداً، فقطع رفاعة بمن معه الخابور ومرَّ على قرقيسيا، فبعث إليهم زفر بن الحارث الطعام والعلف والأطباء فأقاموا ثلاثاً حتى استراحوا ثم رحلوا فلما وصلوا إلى هيت إذا سعد بن حذيفة بن اليمان قد أقبل بمن معه من أهل المدائن قاصدين إلى نصرتهم، فلما أخبروه بما كان من أمرهم، وما حل بهم، ونعوا إليه أصحابهم ترحموا عليهم واستغفروا لهم وتباكوا على إخوانهم، وانصرف أهل المدائن إليها، ورجع راجعة أهل الكوفة إليها، وقد قتل منهم خلقٌ كثيرٌ وجمٌّ غفيرٌ، وإذا المختار بن أبي عبيد كما هو في السجن لم يخرج منه بعد، فكتب إلى رفاعة بن شداد يعزيه فيمن قتل منهم، ويترحم عليهم، ويغبطهم بما نالوا من الشهادة، وجزيل الثواب، ويقول: مرحباً بالذين أعظم الله أجورهم، ورضي عنهم، والله ما خطا منهم أحدٌ خطوةً إلا كان ثواب الله له فيها أعظم من الدنيا وما فيها، وإن سليمان قد قضى ما عليه، وتوفاه الله وجعل روحه في أرواح النبيين والشهداء والصالحين، وبعد فأنا الأمير المأمون، قاتل الجبارين والمفسدين إن شاء الله، فأعدوا واستعدوا وأبشروا، وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة رسوله، والطلب بدماء أهل البيت. وذكر كلاماً كثيراً في هذا المعنى، وقد كان قبل قدومهم أخبر الناس بهلاكهم عن رئيه الذي كان يأتي إليه من الشياطين، فإنه قد كان يأتيه شيطانٌ فيوحي إليه قريباً مما كان يوحي شيطان مسيلمة إليه. وكان جيش سليمان بن صرد وأصحابه يسمَّى بجيش التوابين.

وقد كان سليمان بن صرد الخزاعيُّ أبو مطرف الكوفيُّ صحابيّاً جليلاً نبيلاً عابداً زاهداً، روى عن

النبيِّ ﷺ أحاديث في «الصحيحين» وغيرهما، وشهد مع عليٍّ صفين، وكان أحد من كان يجتمع الشيعة في داره لبيعة الحسين، وكتب إلى الحسين فيمن كتب بالقدوم إلى العراق، فلما قدمها تخلوا عنه، وقتل بكربلاء، ورأى هؤلاء أنهم كانوا سببًا في قدومه، وأنهم خذلوه حتى قتل هو وأهل بيته، فندموا على ما فعلوا، ثم اجتمعوا في هذا الجيش، ، وسموا جيشهم جيش التوابين، وسموا سليمان بن صرد أمير التوابين، فقتل سليمان، رضي الله عنه، في هذه الوقعة بعين وردة، سنة خمس وستين. وقيل: سنة سبع وستين. والأول أصحُّ. وكان عمره يوم قتل ثلاثًا وتسعين سنة، رحمه الله.

وأمَّا المسيب بن نجبة بن ربيعة الفزاريُّ، فإنه قدم مع خالد بن الوليد من العراق وشهد فتح دمشق، ثم عاد إلى العراق وشهد مع عليٍّ صفين وغيرها، وكان أحد الكبار الذين خرجوا يطلبون بدم الحسين، رضي الله عنه، وحمل رأسه ورأس سليمان بن صرد إلى مروان بن الحكم بعد الوقعة، وكتب أمراء الشاميين إلى عبدالملك بن مروان بما فتح الله عليهم، وأظفرهم من عدوهم، فخطب الناس، وأعلمهم بما كان من أمر الجنود ومن قتل من أهل العراق، وقد قال: أهلك الله رءوس الضلال؛ سليمان بن صرد وأصحابه. وعلق الرءوس بدمشق. وكان مروان بن الحكم قد عهد بالأمر من بعده إلى ولديه؛ عبدالملك، ثم عبدالعزيز، وأخذ بيعة الأمراء على ذلك في هذه السنة. قاله ابن جرير وغيره.

وفيها دخل مروان بن الحكم وعمرو بن سعيد الأشدق إلى الديار المصرية، فأخذاها من يد نائبها الذي كان لعبدالله بن الزبير، وهو عبدالرحمن بن جحدم، وكان سبب ذلك أن مروان قصدها، فخرج إليه نائبها ابن جحدم، فقابله مروان ليقاتله، فاشتغل به، وخلص عمرو بن سعيد بطائفة من الجيش من وراء عبدالرحمن بن جحدم، فدخل مصر، فملكها، وهرب عبدالرحمن، ودخل مروان إلى مصر، فملكها وجعل عليها ولده عبدالعزيز بن مروان.

وفيها بعث ابن الزبير أخاه مصعبًا ليفتح له الشام، فبعث إليه مروان عمرو بن سعيد، فتلقاه إلى فلسطين، فهرب منه مصعب بن الزبير، وكر راجعًا، ولم يظفر بشيء، واستقر ملك الشام ومصر لمروان.

وفيها جهز مروان جيشين؛ أحدهما مع حبيش بن دلجة القينيِّ ليأخذ له المدينة، وكان من أمره ما سنذكره، والآخر مع عبيد الله بن زياد إلى العراق لينتزعه من نواب ابن الزبير، فلما كانوا ببعض الطريق لقوا جيش التوابين مع سليمان بن صرد، وكان من أمرهم ما ذكرناه عند عين الوردة؛ قتلوا أكثر أصحاب سليمان بن صرد معه واستمروا ذاهبين فلما كانوا بالجزيرة بلغهم موت مروان بن الحكم، وكانت وفاته في شهر رمضان من هذه السنة، وكان سبب موته أنه تزوج بأمِّ خالد امرأة يزيد ابن معاوية، وهي أم هاشم بنت هاشم بن عتبة بن ربيعة وإنما أراد مروان بتزويجه إياها ليصغر ابنها خالدًا في أعين الناس، فإنه قد كان في نفوس كثير من الناس منه أن يملكوه بعد أخيه معاوية، فتزوج

أمه ليصغر أمره، فبينما هو ذات يوم داخلٌ إلىٰ عند مروان، إذ جعل مروان يتكلم فيه عند جلسائه، فلما جلس قال له فيما خاطبه به: يا ابن الرطبة الاست. فذهب خالدٌ إلىٰ أمه، فأخبرها بما قال له، فقالت: اكتم ذلك، ولا تعلمه أنك أعلمتني بذلك. فلما دخل عليها مروان قال لها: هل ذكرني خالدٌ عندك بسوء؟ فقالت له: وما عساه يقول لك وهو يحبُّك ويعظمك. ثم إن مروان رقد عندها، فلما أخذه النوم عمدت إلىٰ وسادة، فوضعتها علىٰ وجهه، وتحاملتْ عليها هي وجواريها حتىٰ مات غمًّا، وكان ذلك في ثالث شهر رمضان سنة خمس وستين بدمشق، وله من العمر ثلاثٌ وستون سنة. وقيل: إحدىٰ وستون وقيل: إحدىٰ وثمانون سنةً. وكانت إمارتُه تسعة أشهر. وقيل: عشرة أشهر إلا ثلاثة أيام.

وهذه ترجمة مروان بن الحكم جد خلفاء بني أمية الذين كانوا بعده

هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشيُّ الأموي، أبو عبدالملك، ويقال: أبو الحكم. ويقال: أبو القاسم. صحابيٌّ عند طائفة كثيرة؛ لأنه ولد في حياة النبي ﷺ، وروىٰ عنه في حديث صلح الحديبية، وفي رواية في «صحيح البخاري»، عن مروان والمسور بن مخرمة، الحديث بطوله. وروىٰ عن عمر، وعثمان، وكان كاتبه، وعليٍّ، وزيد بن ثابت، وبسرة بنت صفوان الأسدية، وكانت حماته. وقال الحاكم أبو أحمد: كانت خالته. ولا منافاة بين كونها حماته وخالته. وروىٰ عنه ابنه عبدالملك، وسهل بن سعد، وسعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير، وعليُّ بن الحسين زين العابدين، ومجاهدٌ وغيرهم.

قال الواقديُّ ومحمد بن سعد: أدرك النبي ﷺ، ولم يحفظ عنه شيئًا، وكان عمره ثماني سنين حين توفي النبيُّ ﷺ. وذكره ابن سعد في الطبقة الأولىٰ من التابعين. وقد كان مروان من سادات قريش وفضلائها.

روىٰ ابن عساكر وغيره أن عمر بن الخطاب خطب امرأة إلىٰ أمها، فقال: إن جريرًا البجليَّ يخطب إليكم أسلم، وهو سيد شباب المشرق، ومروان بن الحكم، وهو سيد شباب قريش، وعبدالله ابن عمر، وهو من قد علمتم، وعمر. فقالت المرأة: أجادٌّ يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قالت: قد زوجناك يا أمير المؤمنين.

وقد كان عثمان بن عفان يكرمه ويعظمه، وكان كاتب الحكم بين يديه، ومن تحت رأسه جرت قضية الدار، وبسببه حصر عثمان فيها، وألح عليه أولئك أن يسلمه إليهم، فامتنع عثمان أشد الامتناع، وقد قاتل مروان يوم الدار قتالاً شديدًا، وقتل بعض أولئك الخوارج، وكان علىٰ الميسرة يوم الجمل، ويقال: إنه رمىٰ طلحة بسهم في ركبته، فقتله. فالله أعلم.

وقال ابن عبدالحكم: سمعت الشافعي يقول: كان عليٌّ يوم الجمل حين انهزم الناس يكثر السؤال عن مروان، فقيل له في ذلك، فقال: إنه تعطفني عليه رحمٌ ماسَّةٌ، وهو سيدٌ من شباب قريش.

وقال ابن المبارك، عن جرير بن حازم، عن عبدالملك بن عمير، عن قبيصة بن جابر، أنه قال لمعاوية: من ترىٰ لهذا الأمر من بعدك؟ فقال: وأما القارئُ لكتاب الله، الفقيه في دين الله، الشديد في حدود الله، فمروان بن الحكم[1]. وقد استنابه علىٰ المدينة غير مرة، يعزله ثم يعيده إليها، وأقام للناس الحج في سنين متعددة.

وقال حنبل عن الإمام أحمد قال: يقال: إنه كان عند مروان قضاءٌ، وكان يتبع قضاء عمر بن الخطاب.

وقال ابن وهب: سمعت مالكًا يقول وذكر مروان يومًا، فقال: قال مروان: قرأت كتاب الله منذ أربعين سنةً، ثم أصبحت فيما أنا فيه من هراقة الدماء وهذا الشأن.

وقال إسماعيل بن عياش، عن صفوان بن عمرو، عن شريح بن عبيدٍ وغيره قال: كان مروان إذا ذكر الإسلام قال:

بنعمة ربِّي لا بما قدمت يدي ... ولا ببراتي إني كنت خاطئا

وقال الليث، عن يزيد ابن أبي حبيب، عن سالم أبي النضر، أنه قال: شهد مروان جنازةً، فلما صلىٰ عليها انصرف، فقال أبو هريرة: أصاب قيراطًا وحرم قيراطًا. فأخبر بذلك مروان، فأقبل يجري قد بدت ركبتاه، فقعد حتىٰ أذن له[2]. وروىٰ المدائنيُّ عن إبراهيم بن محمد، عن جعفر بن محمد، أن مروان كان أسلف عليَّ بن الحسين حين رجع إلىٰ المدينة بعد مقتل أبيه ستة آلاف دينار، فلما حضرته الوفاة أوصىٰ إلىٰ ابنه عبدالملك أن لا يسترجع من عليٍّ بن الحسين شيئًا، فبعث إليه عبدالملك بذلك، فامتنع من قبولها، فألح عليه فقبلها.

وقال الشافعيُّ: أنبأنا حاتم بن إسماعيل، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، أن الحسن والحسين كانا يصليان خلف مروان ولا يعيدانها، ويعتدان بها.

وقد روىٰ عبدالرزاق عن الثوري، عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: أول من قدم الخطبة علىٰ الصلاة يوم العيد مروان، فقال له رجلٌ: خالفت السنَّة. فقال له مروان: إنه قد ترك ما هنالك. فقال أبو سعيد: أما هذا فقد قضىٰ ما عليه، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رَأى مِنْكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِه، فَإنْ لَم يَسْتَطِع فَبِلِسَانِه، فَإنْ لَم يَسْتَطِع فَبِقَلْبِه، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَان»[3].

قالوا: ولما كان نائبًا بالمدينة كان إذا وقعت معضلةٌ جمع من عنده من الصحابة، فاستشارهم فيها،

(١) ما برز من إسناده ثابت. (٢) ما برز من إسناده صحيح إلىٰ سالم.

(٣) حديث صحيح: وهو في «صحيح مسلم» (٤٩) وغيره.

قالوا: وهو الذي جمع الصيعان، فأخذ بأعدلها، فنسب إليه الصاع، فقيل: صاع مروان.

وقال الزبير بن بكار: حدثنا إبراهيم بن حمزة، حدثني عليُّ بن أبي عليٍّ اللهبيُّ، عن إسماعيل ابن أبي سعيد الخدري، عن أبيه قال: خرج أبو هريرة من عند مروان، فلقيه قومٌ قد خرجوا من عنده فقالوا: إنه أشهدنا الآن على مائة رقبة أعتقها الساعة. قال: فغمز أبو هريرة يدي، وقال: يا أبا سعيد، يكٌّ من كسب طيب خيرٌ من مائة رقبة. قال الزبير: اليكُّ: الواحد.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عثمان بن أبي شيبة، ثنا جريرٌ، عن الأعمش، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا بَلَغَ بَنُو أَبِي فُلان ثَلاثِينَ رَجُلاً اتَّخَذُوا مَالَ اللَّه دُولاً، وَدِينَ اللَّه دَخَلاً، وَعِبَادَ اللَّه خَوَلاً»**(١).

ورواه أبو يعلى عن زكريا بن يحيى زحمويه، عن صالح بن عمر، عن مطرف، عن عطية، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا بَلَغَ بَنُو الحَكَم ثَلاثِينَ اتَّخَذُوا دِينَ اللَّه دَخَلاً، وَعِبَادَ اللَّه خَولاً، وَمَالَ اللَّه دُولاً»**. وقد رواه الطبراني، عن أحمد بن عبدالوهاب، عن أبي المغيرة، عن أبي بكر ابن أبي مريم، عن راشد بن سعد، عن أبي ذر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إذا بَلَغَ بَنُو أُمَيَّةَ أَرْبَعِينَ رَجُلا»**. وذكره، وهذا منقطعٌ. ورواه العلاء بن عبدالرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة من قوله: **«إذا بَلَغَ بَنُو أَبِي العَاصِ ثَلاثِينَ رَجُلاً»**. فذكره.

ورواه البيهقيُّ وغيره من حديث ابن لهيعة، عن أبي قبيل، عن ابن موهب، عن معاوية وعبدالله ابن عباس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إذا بَلَغَ بَنُو الحَكَم ثَلاثِينَ اتَّخَذُوا مَالَ اللَّه بَيْنَهُم دُولاً، وَعِبَادَ اللَّه خَولاً، وكِتَابَ اللَّه دَغَلاً، فَإذَا بَلَغُوا ستَّةً وَتِسْعِينَ وَأَرْبَعمَائة كَان هَلاكُهُم أَسْرَعَ مِن لَوك تَمْرة»**.

وأن رسول الله ﷺ ذكر عبدالملك بن مروان فقال: **«أبو الجبابرة الأربعة»**. وهذه الطرق كلها ضعيفةٌ.

وروى أبو يعلى وغيره، من غير وجه عن العلاء، عن أبيه، عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ رأى في المنام أن بني الحكم ينزون على منبره ويرقون، فأصبح كالمتغيظ، وقال: **«رأيتُ بَني الحَكَم يَنْزُونَ عَلَى مِنْبَرِي نَزْو القِرَدَة»**. فما رُئيَ رسول الله ﷺ مستجمعًا ضاحكًا بعد ذلك حتى مات.

ورواه الثوريُّ، عن عليِّ بن زيد، عن سعيد بن المسيب مرسلاً، وفيه: **«فَأُوحَى إليه: إنما هي دُنْيَا أُعْطُوهَا. فَقَرَّت عَيْنُهُ. وهي قوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾** [الإسراء: ٦٠]». يعني بلاءً للناس. وهذا مرسلٌ، وسنده إلى سعيد ضعيف. وقد ورد في هذا المعنى أحاديث كثيرةٌ موضوعةٌ، فلهذا أضربنا صفحًا عن إيرادها لعدم صحتها.

---

(١) سيجيب المؤلف على كل هذه الطرق بالضعف كما سيأتي.

وقد كان أبوه الحكم من أكبر أعداء النبيِّ ﷺ، وإنما أسلم يوم الفتح، وقدم الحكم المدينة، ثم طرده النبيُّ ﷺ إلى الطائف، ومات بها، ومروان كان أكبر الأسباب في حصار عثمان؛ لأنه زور على لسانه كتابًا إلى مصر بقتل أولئك الوفد، ولما كان متوليًا على المدينة لمعاوية كان يسبُّ عليًّا كل جمعة على المنبر، وقال له الحسن بن عليٍّ: لقد لعن الله أباك الحكم وأنت في صلبه على لسان نبيه، فقال: «لعن الله الحكم وما ولد» والله أعلم.

وقد تقدم أن حسان بن مالك بن بحدل لما قدم عليه مروان أرض الجابية، أعجبه إتيانه إليه، فبايعه، وبايع له أهل الأردنِّ على أنه إذا انتظم له الأمر نزل عن الإمرة لخالد بن يزيد، ويكون لمروان إمرة حمص، ولعمرو بن سعيد نيابة دمشق.

وكانت البيعة لمروان يوم الاثنين للنصف من ذي القعدة سنة أربع وستين.

قاله الليث بن سعد وغيره.

قال الليث: وكانت وقعة مرج راهط في ذي الحجة، من هذه السنة بعد عيد النحر بيومين.

قالوا: فغلب الضحاك بن قيس، واستوسق له ملك الشام ومصر، فلما استقر ملكه في هذه البلاد بايع من بعده لولده عبدالملك، ثم من بعده لولده عبدالعزيز - والد عمر بن عبدالعزيز - وترك البيعة لخالد بن يزيد بن معاوية؛ لأنه كان لا يراه أهلاً للخلافة، ووافقه على ذلك حسان بن مالك، وإن كان خالاً لخالد بن يزيد، وهو الذي قام بأعباء بيعة عبدالملك، ثم إن أمَّ خالد دبرت أمر مروان فسمته، ويقال: بل وضعت على وجهه وهو نائمٌ وسادةً، فمات مخنوقًا، ثم إنها أعلنت الصراخ هي وجواريها وصحن: مات أمير المؤمنين فجأةً. فقام من بعده ولده عبدالملك بن مروان في الخلافة، كما سنذكره.

وقال عبدالله بن أبي مذعور: حدثني بعض أهل العلم قال: كان آخر ما تكلم به مروان: وجبت الجنة لمن خاف النار. وكان نقشُ خاتمه: العزة لله.

وقال الأصمعي: حدثنا عديُّ بن أبي عمارة، عن أبيه، عن حرب بن زياد قال: كان نقش خاتم مروان بن الحكم: آمنت بالعزيز الرحيم.

وكانت وفاته بدمشق عن إحدى - وقيل: ثلاث - وستين سنةً.

وقال أبو معشر وغير واحد: كان عمره يوم توفيَ إحدى وثمانين سنةً.

وقال خليفة: حدثني الوليد بن هشام، عن أبيه، عن جده قال: مات مروان بدمشق لثلاث خلون من شهر رمضان سنة خمس وستين، وهو ابن ثلاث وستين، وصلى عليه ابنه عبدالملك، وكانت ولايته تسعة أشهر وثمانية عشر يومًا. وقال غيره: عشرة أشهر.

وقال ابن أبي الدنيا وغيره: كان قصيرًا، أحمر الوجه، أوقص، دقيق العنق، كبير الرأس واللحية، وكان يلقب: خيط باطل.

قال الحافظ ابن عساكر: وذكر سعيد بن كثير بن عفير، أن مروان مات حين انصرف من مصر بالصنبرة، ويقال: بلد. وقد قيل: إنه مات بدمشق، ودفن بين باب الجابية وباب الصغير.

خلافة عبد الملك بن مروان

بويع له بالخلافة في حياة أبيه، فلما مات أبوه في ثالث رمضان من هذه السنة، أعني سنة خمس وستين، جددت له البيعة بدمشق ومصر وأعمالها، فاستقرت يده على ما كانت يد أبيه عليه، وقد كان أبوه قبل وفاته بعث بعثين؛ أحدهما مع عبيد الله بن زياد إلى العراق لينتزعها من نواب ابن الزبير، فلقي في طريقه جيش التوابين مع سليمان بن صرد عند عين الوردة، فكان من أمرهم ما تقدم، من ظفره بهم، وقتله أميرهم وأكثرهم. والبعث الآخر مع حبيش بن دلجة إلى المدينة ليرتجعها من نائب ابن الزبير، فسار نحوها، فلما انتهى إليها هرب نائبها جابر بن الأسود بن عوف، وهو ابن أخي عبدالرحمن بن عوف، فجهز نائب البصرة من قبل ابن الزبير، وهو الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة، جيشًا من البصرة إلى ابن دلجة ليخرجوه من المدينة فلما سمع بذلك حبيش بن دلجة سار إليهم، وبعث ابن الزبير عباس بن سهل بن سعد نائبًا على المدينة، وأمره أن يسير في طلب حبيش، فسار في طلبهم حتى لحقهم بالربذة، فرمى يزيد بن سياه حبيشًا بسهم فقتله، وقتل بعض أصحابه، وهزم الباقون، وتحصن منهم خمسمائة في المدينة، ثم نزلوا على حكم عباس بن سهل، فقتلهم صبرًا، ورجع فلّهم إلى الشام.

قال ابن جرير: ولما دخل يزيد بن سياه الأسواري قاتلُ حبيش بن دلجة إلى المدينة مع عباس بن سهل كان عليه ثياب بياض وهو راكبٌ برذونا أشهب، فما لبث أن اسودت ثيابه ودابته مما يتمسح الناس به ومن كثرة ما صبُّوا عليه من الطيب.

وقال ابن جرير: وفي هذه السنة اشتدت شوكة الخوارج بالبصرة.

وفيها قتل نافع بن الأزرق، وهو رأس الخوارج ورأس أهل البصرة، مسلم بن عبيس فارس أهل البصرة، ثم قتله ربيعة السليطيُّ، وقتل بينهما نحو خمسة أمراء، وقتل في وقعة الخوارج قرَّةُ بن إياس المزنيُّ أبو معاوية، وهو من الصحابة. ولما قتل نافع بن الأزرق رأست الخوارج عليهم عبيد الله بن ماحوز، فسار بهم إلى المدائن، فقتلوا أهلها، ثم غلبوا على الأهواز وغيرها، وجبوا الأموال وأتتهم الأمداد من اليمامة والبحرين، ثم ساروا إلى أصفهان، وعليها عتاب بن ورقاء الرياحيُّ، فالتقاهم فهزمهم، ولما قتل أمير الخوارج ابن ماحوز، كما سنذكر، أقاموا عليهم قطري بن الفجاءة أميرًا.

ثم أورد ابن جرير قصة قتالهم مع أهل البصرة بمكان يقال له: دولاب.

وكانت الدولة للخوارج على أهل البصرة، وخاف أهل البصرة من الخوارج أن يدخلوا البصرة، فبعث ابن الزبير، فعزل نائبها عبدالله بن الحارث، المعروف ببَبَّة، بالحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة

المعروف بالقباع، وأرسل ابن الزبير المهلب بن أبي صفرة الأزديَّ على عمل خراسان، فلما وصل إلى البصرة قالوا له: إن قتال الخوارج لا يصلح إلا لك. فقال: إن أمير المؤمنين قد بعثني على خراسان، ولست أعصي أمره. فاتفق أهل البصرة مع أميرهم الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة على أن كتبوا كتابًا على لسان ابن الزبير إلى المهلب يأمره فيه بالمسير للخوارج ليكفهم عن الدخول إلى البصرة، فلما قرئ عليه الكتاب اشترط على أهل البصرة أن يقوي جيشه من بيت مالهم، وأن يكون له ما غلب عليه من أموال الخوارج، فأجابوه إلى ذلك، ويقال: إنهم كتبوا بذلك إلى ابن الزبير، فأمضى لهم ذلك وسوغه. فسار إليهم المهلب، وكان شجاعًا بطلاً صنديدًا، فلما التقى هو والخوارج أقبلوا إليه يزفُّون في عدة لم ير مثلها من الدروع والزرود والخيول والسلاح، وذلك أن لهم مدةً يأكلون تلك النواحي، وقد صار لهم تحمُّلٌ عظيمٌ مع شجاعة لا تدانى، وإقدام لا يسامى، وقوة لا تبارى، وسبق إلى حومة الوغى لا يجارى، فلما تواقف الناس بمكان يقال له: سلَّى وسلبْرَى. اقتتلوا قتالاً شديداً، وصبر كلٌ من الفريقين صبرًا باهرًا، وكان المهلب في نحو من ثلاثين ألفًا، ثم إن الخوارج حملوا حملةً منكرةً، فانهزم أصحاب المهلب لا يلوي والدٌ على ولد، ولا يلتفتُ أحدٌ إلى أحد، ووصل إلى البصرة فلالهم، وأما المهلب فإنه سبق المنهزمين، فوقف لهم بمكان مرتفع من الأرض، وجعل ينادي: إليَّ عباد الله. فاجتمع إليه من جيشه ثلاثة آلاف من الفرسان الشجعان، فقام فيهم خطيبًا، فقال في خطبته: أما بعدُ، أيها الناس، فإن الله تعالى ربما يكل الجمع الكثير إلى أنفسهم فيهزمون، وينزل النصر على الجمع اليسير فيظهرون، ولعمري ما بكم الآن من قلة، وأنتم فرسان أهل المصر وأهل النصر، وما أحبُّ أن أحدًا ممن انهزم معكم الآن، ولو كانوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً. ثم قال: عزمت على كل رجل منكم إلا أخذ عشرة أحجار معه، ثم امشوا بنا إلى عسكرهم؛ فإنهم الآن آمنون، وقد خرجت خيولهم في طلب إخوانكم، فوالله إني لأرجو أن لا ترجع إليهم خيلهم حتى تستبيحوا عسكرهم، وتقتلوا أميرهم. ففعل الناس ذلك، فزحف بهم المهلب بن أبي صفرة على عسكر الخوارج، فقتل منهم خلقًا كثيرًا نحوًا من سبعة آلاف، وقتل عبيد الله بن الماحوز في جماعةٍ كثيرة من الأزارقة، واحتاز من أموالهم شيئًا كثيرًا، وقد أرصد المهلب خيولاً بينه وبين الذين يرجعون من طلب أهل البصرة، فجعلوا يقتطعون دون قومهم، وانهزم فلهم إلى كرمان وأرض أصبهان، وأقام المهلب بالأهواز حتى قدم مصعب بن الزبير إلى البصرة، وعزل عنها الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة، كما سيأتي قريبًا.

قال ابن جرير: وفي هذه السنة وجه مروان بن الحكم قبل مهلكه ابنه محمدًا إلى الجزيرة، وذلك قبل مسيره إلى مصر. قلت: محمد بن مروان هذا هو والد مروان الحمار، وهو مروان بن محمد بن مروان، وهو آخر خلفاء بني أمية، ومن يده استلب الخلافة العباسيون كما سيأتي.

قال ابن جرير: وفي هذه السنة عزل ابن الزبير أخاه عبيدة عن إمرة المدينة، وولاها أخاه مصعبًا، وذلك أن عبيدة خطب الناس، فقال في خطبته: وقد رأيتم ما صنع الله بقوم صالح في ناقة قيمتها خمسمائة درهم. فلما بلغت أخاه قال: إن هذا لهو التكلف وعزله، فسمي مقوم الناقة.

قال ابن جرير: وفي آخرها عزل ابن الزبير عن الكوفة عبدالله بن يزيد الخطمي، وولى عليها عبدالله بن مطيع الذي كان أمير المهاجرين يوم الحرة، لما خلعوا يزيد.

قال ابن جرير: في هذه السنة كان الطاعون الجارف بالبصرة.

وقال ابن الجوزي في «المنتظم»: كان في سنة أربع وستين، وقد قيل: إنما كان في سنة تسع وستين. وهذا هو المشهور الذي ذكره شيخنا الذهبي وغيره، وكان معظم ذلك بالبصرة، وكان ذلك في ثلاثة أيام، فمات في أول يوم منه من أهل البصرة سبعون ألفًا، وفي اليوم الثاني منه أحد وسبعون ألفًا، وفي اليوم الثالث منه ثلاثة وسبعون ألفًا. وأصبح الناس في اليوم الرابع موتى إلا قليلاً من آحاد الناس، حتى ذكر أن أم الأمير بها ماتت، فلم يوجد لها من يحملها، حتى استأجروا لها أربعة أنفس.

وقال الحافظ أبو نعيم الأصبهاني: حدثنا عبيدالله، ثنا أحمد بن عصام، حدثني معدي، عن رجل يكنى أبا النفيل، وكان قد أدرك زمن الطاعون، قال: كنا نطوف في القبائل وندفن الموتى فلما كثروا لم نقو على الدفن، فكنا ندخل الدار، وقد مات أهلها، فنسد بابها، قال: فدخلنا دارًا ففتشناها، فلم نجد فيها أحدًا حيًا فسددنا بابها، فلما مضت الطواعين كنا نطوف ننزع تلك السدد عن الأبواب، ففتحنا سدة الباب الذي كنا فتشناه، فإذا نحن بغلام في وسط الدار طري دهين، كأنما أخذ ساعتئذ من حجر أمه. قال: ونحن وقوف على الغلام نتعجب منه فدخلت كلبة من شق في الحائط، فجعلت تلوذ بالغلام، والغلام يحبو إليها حتى مص من لبنها. قال معدي: وأنا رأيت ذلك الغلام في مسجد البصرة، وقد قبض على لحيته.

قال ابن جرير: وفي هذه السنة بنى عبدالله بن الزبير الكعبة البيت الحرام - يعني أكمل بناءها - وأدخل فيها الحجر، وجعل لها بابين، يدخل من أحدهما، ويخرج من الآخر.

قال ابن جرير: حدثنا إسحاق بن أبي إسرائيل، حدثني عبدالعزيز بن خالد بن رستم الصنعاني أبو محمد، حدثني زياد بن جيل، أنه كان بمكة يوم كان عليها ابن الزبير، فسمعه يقول: حدثتني أمي أسماء بنت أبي بكر، أن رسول الله ﷺ قال لعائشة: **«لَولا قُرْبُ عَهْدِ قَومِك بالكُفْرِ لَرَدَدْتُ الكَعْبَةَ عَلَى أَسَاسِ إِبْرَاهِيمَ، فَأَزِيدُ فِي الكَعْبَةِ مِنَ الحِجْرِ»**. قال: فأمر ابن الزبير فحفروا فوجدوا قلاعًا أمثال

الإبل، فحركوا منها صخرة، فبرقت برقةٌ فقال: أقرُّوها على أساسها. فبناها ابن الزُّبير، وجعل لها بابين، يدخل من أحدهما، ويخرج من الآخر.

قلت: هذا الحديث له طرقٌ متعددةٌ عن عائشة في «الصحاح» و«الحسان» و«المسانيد»[1] وموضوع سياق طرق ذلك في كتاب «الأحكام» إن شاء الله تعالى.

وذكر ابن جرير في هذه السنة حروبًا جرت بين عبدالله بن خازم بخراسان، وبين الحريش بن هلال القريعيِّ، يطول تفصيلها.

قال: وحج بالناس في هذه السنة عبدالله بن الزبير، وكان على المدينة مصعب بن الزبير، وعلى الكوفة عبدالله بن مطيع وعلى البصرة الحارث بن عبدالله بن أبي ربيعة المخزوميّ.

* * *

(١) تقدم تخريجه قريبًا.



ثم دخلت سنة ست وستين

وفيها وثَب المختارُ بنُ أبي عُبيدٍ الثَّقفي الكذَّابُ بالكوفة؛ ليأخذَ بثأرِ الحُسينِ بنِ عليٍّ -فيما يَزعُمُ- وأخرَج منها عاملَها عبدَ الله بنَ مُطيعٍ؛ وكان سببَ ذلك أنَّه لمَّا رجَع أصحابُ سليمانَ بنِ صُرَدٍ مَغلوبين إلى الكوفة، وجَدوا المختارَ بنَ أبي عُبيدٍ الكذَّابَ مسجونًا، فكتَب إليهم يُعزِّيهم ويعِدُهم ويُمنِّيهم، وما يَعِدُهم الشيطانُ إلا غُرورًا، وقال لهم فيما كتَب إليهم خفيةً: أبشِروا فإنِّي لو قد خرَجتُ إليكم جرَّدتُ فيما بينَ المشرقِ والمغربِ من أعدائكم السيفَ، فجعَلتُهم بإذنِ الله رُكامًا، وقتَلتُهم فَذًّا وتوْأمًا، فرحَّب اللهُ بمَن قارَب منكم واهتدَى، ولا يُبعِدُ اللهُ إلا مَن أبَى وعصَى. فلمَّا وصلَهم الكتابُ قرءُوه سرًّا وردُّوا إليه: إنا كما تُحِبُّ، فمتى أحبَبتَ أخرَجناك من مَحْبِسك. فكرِه أن يُخرِجوه من مكانه على وجهِ القهرِ لنُوَّابِ الكوفة، فتلطَّف فكتَب إلى زوجِ أختِه صفيَّةَ -وكانت امرأةً صالحةً- وهو عبدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطاب، يسألُه أن يَشفَعَ في خروجِه من مَحْبِسه عندَ نائبَي الكوفة؛ عبدِ الله بنِ يزيدَ، وإبراهيمَ بنِ محمدِ بنِ طلحةَ، فكتَب ابنُ عمرَ إليهما يَشْفَعُ عندَهما فيه فلم يُمكنْهما ردُّه، وكان فيما كتَب إليهما ابنُ عمرَ: قد علمتُما ما بيني وبينَكما من الوُدِّ، وما بيني وبينَ المختارِ من القرابةِ والصِّهْرِ، وأنا أُقسِمُ عليكما لمَا خلَّيتُما سبيلَه، والسلامُ. فاستدعيَا به فضمنه جماعةٌ من أصحابِه، واستحلَفه عبدُ الله بنُ يزيدَ إن هو بغَى للمسلمين غائلةً فعليه ألفُ بدنةٍ ينحَرُها تُجاهَ الكعبة، وكلُّ مملوكٍ له -من عبدٍ وأمةٍ- حرٌّ، فالتزَم لهما بذلك، ولزِم منزلَه، وجعَل يقولُ: قاتلَهما اللهُ، أمَّا حَلِفي بالله، فإنِّي لا أحلفُ على يمينٍ فأرَى غيرَها خيرًا منها إلا كفَّرتُ عن يميني، وأتيتُ الذي هو خيرٌ، وأمَّا إهدائي ألفَ بدنةٍ فيسيرٌ، وأمَّا عِتقي مماليكي فوَدِدتُ أنَّه قد استتمَّ لي هذا الأمرُ ولا أملكُ مملوكًا واحدًا.

واجتمَعَت الشيعةُ عليه، وكثُر أصحابُه وبايَعوه في السرِّ. وكان الذي يأخُذُ البيعةَ له ويُحرِّضُ الناسَ عليه خمسةً؛ وهم السائبُ بنُ مالكٍ الأشعريُّ، ويزيدُ بنُ أنسٍ، وأحمرُ بنُ شُمَيطٍ، ورفاعةُ بنُ شدَّادٍ، وعبدُ الله بنُ شدَّادٍ الجُشَميُّ. ولم يزَلْ أمرُه يقوَى ويَشتدُّ ويَستفحِلُ ويرتفعُ، حتى عزَل عبدُ الله بنُ الزبيرِ عن الكوفة عبدَ الله بنَ يزيدَ، وإبراهيمَ بنَ محمدِ بنِ طلحةَ، وبعَث عبدَ الله بنَ مُطيعٍ نائبًا عليها، وبعَث الحارثَ بنَ عبدِ الله بنِ أبي ربيعةَ نائبًا على البصرة.

فلمَّا دخَل عبدُ الله بنُ مُطيعٍ المخزوميُّ إلى الكوفة، في رمضانَ سنةَ خمسٍ وستين، خطَب الناسَ، وقال في خُطبتِه: إنَّ أميرَ المؤمنين عبدَ الله بنَ الزبيرِ أمَرني أن أسيرَ فيكم بسيرةِ عمرَ بنِ الخطابِ، وعثمانَ بنِ عفانَ. فقام إليه السائبُ بنُ مالكٍ الأشعَريُّ فقال: لا نَرْضَى إلا بسيرةِ عليِّ بنِ أبي طالبٍ التي سار بها في بلادِنا، ولا نريدُ سيرةَ عثمانَ -وتكلَّم فيه- ولا سيرةَ عمرَ، وإن كان لا يريدُ

للناسِ إلاَّ خيرًا. وصدَّقه على ما قال بعضُ أمراءِ الشيعةِ، فسكَتَ الأميرُ وقال: إنِّي سأسيرُ فيكم بما تُحبُّون من ذلك.

وجاء صاحبُ الشُّرْطَةِ، وهو إياسُ بنُ مُضَارِبٍ العِجْليُّ إلى ابنِ مُطيعٍ فقال له: إنَّ هذا الذي ردَّ عليك مِن رُءوسِ أصحابِ المختارِ، ولستُ آمَنُ المختارَ، فابعَثْ إليه فارْدُدْه إلى السِّجْنِ؛ فإنَّ عيوني قد أخبَروني أنَّ أمرَه قد استجمَع له، وكأنَّك به وقد وثَب بالمِصْرِ. فبعَث إليه عبدُ الله بنُ مُطيعٍ زائدةَ ابنَ قُدامةَ، وأميرًا آخرَ معه، فدخَلا على المختارِ فقالا له: أجِبِ الأميرَ. فدعا بثيابِه وأمَر بإسراجِ دابَّتِه، وتهيَّأ للذَّهابِ معهما، فقرأ زائدةُ بنُ قُدامةَ: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ الآيةَ [الأنفال: ٣٠]. فألقَى المختارُ نفسَه وأمَر بقطيفةٍ أن تُلْقَى عليه، وأظهَر أنَّه مريضٌ، وقال: أخبِرَا الأميرَ بحالي، فرجَعا إلى ابنِ مُطيعٍ فاعتذَرا عنه، فصدَّقهما ولَهَا عنه.

فلمَّا كان المحرَّمُ من هذه السنةِ عزَم المختارُ على الخروجِ لطلبِ ثأرِ الحُسَينِ، فيما يَزْعُمُ. فلمَّا صمَّم على ذلك اجتمَعَتْ عليه الشيعةُ وثبَّطُوه عن الخروجِ الآنَ إلى وقتٍ آخرَ، ثم أنفَذوا طائفةً منهم إلى محمدِ بنِ الحَنَفيَّةِ يسألونَه عن أمرِ المختارِ وما دعاهم إليه، فلمّا اجتمَعوا به كان مُلَخَّصُ ما قال لهم: إنا لا نكرَهُ أنْ يَنصُرَنا اللهُ بمَن شاء من خلقِه. وقد كان المختارُ بلَغه مخرَجُهم إلى محمدِ بنِ الحَنَفيَّةِ، فكرِه ذلك، وخَشِي أن يُكذِّبَه فيما أخبَر به عنه؛ فإنَّه لم يكُنْ بإذنِ محمدِ بنِ الحنفيَّةِ، وهَمَّ بالخروجِ قبلَ رجوعِ أولئك، وجعَل يَسْجَعُ لهم سَجْعًا من سَجْعِ الكُهَّانِ بذلك، ثم كان الأمرُ على ما سَجَع به. فلمَّا رجَعوا أخبَروه بما قال ابنُ الحنفيَّةِ، فعندَ ذلك قوِي عَزْمُ الشيعةِ على الخروجِ مع المختارِ ابنِ أبي عُبيدٍ.

وقد روَى أبو مِخْنَفٍ أنَّ أمراءَ الشيعةِ قالوا للمختارِ: اعلَمْ أنَّ جميعَ أمراءِ الكوفةِ مع عبدِ الله بنِ مُطيعٍ وهم أَلْبٌ علينا، وإنَّه إنْ بايَعَك إبراهيمُ بنُ الأشترِ النَّخَعيُّ وحدَه أغنانا عن جميعِ مَن سواه. فبعَث إليه المختار جماعةً مِن أصحابِه يدعُونَه إلى الدُّخولِ معهم في الأخذِ بثأرِ الحُسَينِ، وذكَّروه سابقةَ أبيه مع عليٍّ، رَضِي اللهُ عنه، فقال: قد أجبتُكم إلى ما سألتُم، على أن أكونَ أنا وَلِيَّ أمرِكم. فقالوا: إن هذا لا يمكن، لأن المهديَّ قد بعث المختار إلينا وزيرًا لهُ وداعيًا إليه فسكَت عنهم إبراهيمُ بنُ الأشترِ، فرجَعوا إلى المختارِ فأخبَروه، فمكَث ثلاثًا ثم خرَج في جماعةٍ مِن رءوسِ أصحابِه إليه، فدخَل على ابنِ الأشترِ فقام له واحترَمه وأكرَمه وجلَس إليه، فدعاه المختارُ إلى الدخولِ معهم، وأخرَج له كتابًا على لسانِ ابنِ الحنفيَّةِ يدعوه إلى الدُّخولِ مع أصحابِه من الشيعةِ، فيما قاموا فيه من نُصرةِ آلِ بيتِ النبيِّ ﷺ، والأخذِ بثأرِ الحسينِ. فقال إبراهيمُ بنُ الأشترِ: إنَّه قد جاءَتْني كتبُ محمدِ ابنِ الحنفيَّةِ بغيرِ هذا النظامِ. فقال المختارُ: إنَّ هذا زمانٌ وذاك زمانٌ. فقال إبراهيمُ بنُ الأشترِ: فمَن يَشهَدُ أنَّ هذا كتابُه. فتقدَّم جماعةٌ مِن أصحابِ المختارِ فشهِدوا بذلك. فقام ابنُ الأشترِ من مجلسِه

وأجلَس المختارَ فيه وبايَعه، ودعا لهم بفاكهةٍ وشرابٍ من عَسَلٍ[١].

قال الشعبيُّ[٢] ـ وكان حاضرًا ذلك من أمرهم هو وأبوه ـ: فلمَّا انصرفَ المختارُ، قال لي إبراهيمُ بنُ الأشترِ: يا شَعْبيُّ، وماذا ترىٰ فيما شهِدَ به هؤلاء؟ فقلتُ: إنَّهم قرَّاءٌ وأمراءٌ ووجوهُ الناسِ، ولا أراهم يشهدون إلاَّ بما يعلَمون. قال: وكتمتُه ما في نفسي من اتِّهامِهم، ولكنِّي كنتُ أُحبُّ أن يَخرُجوا للأخذِ بثأرِ الحُسَينِ، وكنتُ علىٰ رأيِ القومِ.

ثم جعَل إبراهيمُ يختلفُ إلىٰ المختارِ في منزلِه هو ومَن أطاعه من قومِه، ثم اتَّفق رأيُ الشيعةِ علىٰ أن يكونَ خروجُهم ليلةَ الخميسِ لأربعَ عشْرةَ ليلةً خلَت من ربيعٍ الأولِ من هذه السنةِ؛ سنةِ ستٍّ وستِّينَ.

وقد بلَغ ابنَ مُطيعٍ أمرُ القومِ وما اشتوروا عليه، فبعَث الشُّرَطَ في كلِّ جانبٍ من جوانبِ الكوفةِ، وألزَم كلَّ أميرٍ بحفظِ ناحيتِه من أن يخرُجَ منها أحدٌ، فلمّا كان ليلةُ الثلاثاء خرَج إبراهيمُ بنُ الأشترِ قاصدًا إلىٰ دارِ المختارِ في مائةِ رجلٍ من قومِه، وعليهم الدروعُ تحتَ الأقْبيَةِ فلقيَه إيَاسُ بنُ مُضاربٍ فقال له: أين تريدُ يا ابنَ الأشترِ في هذه الساعةِ؟ إنَّ أمرَك: لَمُريبٌ، فواللهِ لا أدَعُك حتىٰ أُحضِرَك إلىٰ الأميرِ فيرىٰ فيك رأيَه. فتناولَ إبراهيمُ بنُ الأشترِ رُمْحًا من يدِ رجلٍ فطَعَنه به في ثُغْرةِ نَحْرِه، فسقَط، وأمَر رجُلاً فاحتَزَّ رأسَه، وذهَب به إلىٰ المختارِ فألقاه بينَ يدَيْه، فقال له المختارُ: بشَّرَك اللهُ بخيرٍ، فهذا طائرٌ صالحٌ. ثم طلَب إبراهيمُ من المختارِ أن يخرُجَ في هذه الليلةِ، فأمَر المختارُ بالنارِ أن تُرفَعَ، وأن يُنادىٰ بشعارِ أصحابِه: يا منصورُ أمِتْ، يا ثاراتِ الحُسينِ. ثم نَهَض المختارُ فجعَل يَلْبَسُ درعَه وسلاحَه وهو يقول:

قَـدْ عَلِمَتْ بَيْضَاءُ حَسْنَاءُ الطَّلَلْ
وَاضِحَةُ الخَدَّيْنِ عَجْزَاءُ الكَفَلْ
أنِّي غَدَاةَ الرَّوْعِ مِقْدَامٌ بَطَلْ

وخرَج بينَ يدَيه إبراهيمُ بنُ الأشترِ، فجعَل يتقصَّدُ الأمراءَ الموكَّلين بنواحي البلدِ؛ فيطرُدُهم عن أماكنِهم واحدًا واحدًا، ويُنادي بشعارِ المختارِ. وبعَث المختارُ أبا عثمانَ النَّهْديَّ فنادىٰ بشعارِ المختارِ: يا ثاراتِ الحُسينِ. فاجتمَع الناسُ إليه من ههنا وههنا، وجاء شَبَثُ بنُ رِبْعيٍّ فاقتَتل هو والمختارُ عندَ دارِه وحصَره حتىٰ جاء إبراهيمُ بنُ الأشترِ فطرَده عنه.

فرجَع شَبَثٌ إلىٰ ابنِ مُطيعٍ، وأشار عليه بأن يَجمَعَ الأمراءَ إليه، وأن ينهَضَ بنفسِه؛ فإنَّ أمرَ المختارِ قد قَوِي واستفحَل، وجاءتِ الشيعةُ من كلِّ فجٍّ عميقٍ إلىٰ المختارِ، فاجتَمَع إليه في أثناءِ الليلِ

---

(١) نقله أبو مخنف وهو متروك سلفت ترجمته.
(٢) كذا أورده الطبري في «تاريخه» (٣/ ٤٣٧) عن الشعبي معلقًا.

قريبٌ من أربعةِ آلافٍ، فأصبَح وقد عبَّى جيشَه وصلَّى بهم الصبحَ، فقرأ فيها: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾ و﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ في الثانية. قال بعضُ مَن سمعه: فما سمعْتُ إمامًا أفصحَ لهجةً منه. وقد جهَّز ابنُ مُطيعٍ جيشًا ثلاثةَ آلافٍ عليهم شَبَثُ بنُ رِبْعيٍّ، وأربعةَ آلافٍ أخرىٰ مع راشدِ بنِ إياسَ بنِ مُضاربٍ، فوجَّه المختارُ إبراهيمَ بنَ الأشترِ في ستِّمائةِ فارسٍ وستِّمائةِ راجلٍ إلى راشدِ بنِ إياسَ، وبعَث نُعَيمَ بنَ هُبَيرةَ في ثلاثمائةِ فارسٍ وستِّمائةِ راجلٍ إلى شَبَثِ بنِ ربعيٍّ. فأمَّا إبراهيمُ بنُ الأشترِ فإنَّه هزَم قِرنَه راشدَ بنَ إياسَ، وقتَله وأرسَل إلى المختارِ يُبشِّرُه، وأمَّا نعيمُ بنُ هُبَيرةَ فإنه لَقِي شَبَثَ بنَ رِبْعيٍّ فهزمه شَبَثُ بنُ ربعيٍّ وقتَله، وجاء فأحاط بالمختارِ بنِ أبي عبيدٍ وحصرَه، وأقبَل إبراهيمُ بنُ الأشترِ نحوَ المختارِ بنِ أبي عبيدٍ، فاعترَض له حسَّانُ بنُ فائدٍ العَبْسيُّ في نحوٍ من ألفَيْ فارسٍ من جهةِ ابنِ مُطيعٍ، فاقتَتَلوا ساعةً، فهزَمه إبراهيمُ، ثم أقبَل نحوَ المختارِ، فوجَد شَبَثَ بنَ رِبْعيٍّ قد حصَر المختارَ وجيشَه، فمازال حتىٰ طرَدهم عنه وكَرُّوا راجعين. وخلَص إبراهيمُ إلى المختارِ، وارتحَلوا من مكانِهم ذلك إلىٰ غيرِه في ظاهرِ الكوفةِ، فقال له إبراهيمُ بنُ الأشترِ: اعمدْ بنا إلىٰ قصرِ الإمارةِ؛ فليس دونَه أحدٌ يرُدُّ عنه. فوضَعوا ما معهم من الأثقالِ، وأجلَسوا هنالك ضَعَفَةَ المشايخِ والرجالِ.

واستخلَف المختارُ علَىٰ مَن هنالك أبا عثمانَ النَّهْديَّ، وبعَث بينَ يديْه إبراهيمَ بنَ الأشترِ، وعبَّأ المختارُ جيشَه كما كان، وسار نحو القصرِ، فبعَث ابنُ مُطيعٍ عمرَو بنَ الحَجَّاجِ في ألفَيْ رجلٍ، فبعَث إليه المختارُ يزيدَ بنَ أنسٍ، وسار هو وابنُ الأشترِ أمامَه حتىٰ دخَل الكوفةَ من بابِ الكُناسَةِ، وأرسَل ابنُ مُطيعٍ شَمِرَ ابنَ ذي الجَوْشَنِ - الذي قتَل الحُسَينَ - في ألفَيْنِ آخرَيْن، فبعَث إليه المختارُ سعيدَ بنَ مُنْقِذٍ الهَمَذانيَّ، وسار المختارُ حتىٰ انتهىٰ إلىٰ سكَّةِ شَبَثٍ، وإذا نَوْفَلُ بنُ مُسَاحِقِ بنِ عبدِ الله بنِ مَخْرَمَةَ في خمسةِ آلافٍ، وخرَج ابنُ مُطيعٍ من القصرِ في النَّاسِ، واستخلَف عليه شَبَثَ بنَ رِبْعيٍّ، فتقدَّم إبراهيمُ بنُ الأشترِ إلى الجيشِ الذي مع نَوْفَلِ بنِ مُسَاحِقٍ، فهزَمهم، وأخَذ بلجامِ دابَّةِ ابنِ مُساحقٍ فمَتَّ إليه بالقرابةِ، فأطلَقه، فكان لا يَنساها بعدُ لابنِ الأشترِ.

ثم تقدَّم المختارُ بجيشِه إلى الكُنَاسَةِ وحصَروا ابنَ مُطيعٍ بقصرِه ثلاثًا، ومعه أشرافُ الناسِ سوىٰ عمرِو بنِ حُرَيْثٍ، فإنَّه لزِم دارَه، فلمَّا ضاق الحالُ علىٰ ابنِ مُطيعٍ وأصحابِه استشارَهم فأشار عليه شَبَثُ بنُ رِبْعيٍّ أن يأخُذَ له ولهم من المختارِ أمانًا، فقال: ما كنتُ لأفعَلَ هذا وأميرُ المؤمنين مطاعٌ بالحجازِ والبصرةِ. فقال له: فإن رأيتَ أن تذهَب بنفسِك مختَفيًا حتىٰ تلحَقَ بصاحبِك فتُخبرَه بما كان من الأمرِ، وبما كان منّا في نَصرِه وإقامةِ دولتِه. فلمّا كان الليلُ خرَج ابنُ مُطيعٍ مختَفيًا حتىٰ دخَل دارَ أبي موسىٰ الأشعريِّ، فلمّا أصبحَ الناسُ أخَذ الأمراءُ لهم أمانًا من أميرِهم ابنِ الأشترِ فأمَّنهم، فخرَجوا من القصرِ وجاءوا إلى المختارِ فبايَعوه. وجاء المختارُ فدخَل القصرَ فباتَ فيه، وأصبَح أشرافُ الناسِ في المسجدِ وعلىٰ بابِ القصرِ، فخرَج المختارُ إلى المسجدِ فصعِد المنبرَ فخطَب الناسَ

خُطبةً بليغةً، ثم دعا الناسَ إلى البيعة وقال: فوالذي جعَل السماءَ سَقْفًا مكفُوفًا والأرضَ فِجَاجًا سُبُلاً، ما بايعتُم بعدَ بيعةِ عليٍّ أهدَىٰ منها. ثم نزَل فدَخل ودخَل الناسُ يُبايعونَه على كتابِ الله وسنَّةِ رسولِه، والطلبِ بثأرِ الحسينِ وأهلِ البيتِ، وجاء رجُلٌ إلى المختارِ فأخبرَه أنَّ ابنَ مُطيعٍ في دارِ أبي موسى، فأَراه أنَّه لا يَسمَعُ قولَه، حتى كرَّر ذلك ثلاثًا كلُّ ذلك يُريه أنه لا يسمعُ قولَه. فسكَت الرجلُ، فلمَّا كان الليلُ بعَث المختارُ إلى ابنِ مُطيعٍ بمائةِ ألفِ درهمٍ وقال له: اذهَبْ فقد أُخبِرْتُ بمكانك ـ وكان له صديقًا قبلَ ذلك ـ فذهَب ابنُ مُطيعٍ إلى البصرةِ وكرِه أن يرجعَ إلى عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ وهو مغلوبٌ. وشرَع المختارُ يتَحبَّبُ إلى الناسِ بحُسْنِ السِّيرةِ. ووجَد في بيتِ المالِ تسعةَ آلافِ ألفٍ، فأَعْطَى الجيشَ الذين حَضروا معه القتالَ نفقاتٍ كثيرةً. واستعمَل على شُرْطتِه عبدَ اللهِ بنَ كاملٍ الشاكريَّ، وقرَّبَ أشرافَ الناسِ فكانوا جُلساءَه، فشقَّ ذلك على الموالي الذين قاموا بنَصْرِه، وقالوا لأبي عَمْرَةَ كَيْسانَ مولى عُرَيْنَةَ، وكان على حرسه: قدَّم واللهِ أبو إسحاقَ العربَ وترَكَنا. فأنْهَى ذلك أبو عَمْرَةَ إليه، فقال: بل هم منِّي وأنا منهم. ثم قال: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة: ٢٢]. فقال لهم أبو عَمْرَةَ: أبشروا فإنَّه سيَقْتُلُهم ويُقرِّبُكم. فأعجبَهم ذلك وسكَتوا.

ثم إنَّ المختارَ بعَث الأمراءَ إلى النواحي والبُلدانِ والأقاليمِ والرَّساتيقِ، من أرضِ العراقِ وخُراسانَ، وعقَد الألويةَ والراياتِ. وقرَّر الإمارةَ والولاياتِ، وجعَل يجلسُ للناسِ غُدوةً وعَشيَّةً يحكُمُ بينَهم، فلمّا طال ذلك عليه استَقْضَى شُرَيْحًا فتكلَّم في شُرَيحٍ طائفةٌ من الشيعةِ، وقالوا: إنَّه شهِد على حُجْرِ بنِ عديٍّ، وإنَّه لم يُبلِّغْ عن هانئِ بنِ عُرْوةَ ما أرسلَه به، وقد كان عليُّ بنُ أبي طالبٍ عزَلَه عن القضاءِ. فلمَّا بلَغ شُرَيْحًا ذلك تمارَض ولزِم بيتَه، فجعَل المختارُ مكانَه عبدَ اللهِ بنَ عُتْبَةَ ابنِ مسعودٍ، ثم عزَله وجعَل مكانَه عبدَ اللهِ بنَ مالكٍ الطَّائيَّ قاضيًا.

فصل

ثم شرَع المختارُ يتَتبَّعُ قتَلَةَ الحسينِ من شريفٍ ووَضيعٍ فيقتُلُه، وكان سببَ ذلك أنَّ عبيدَ اللهِ بنَ زيادٍ كان قد جهَّزه مَرْوانُ بنُ الحكَمِ من دمشقَ ليدخُلَ الكوفةَ، فإنْ هو ظَفِر بها فلْيُبِحْها ثلاثةَ أيامٍ، وجعَل له ما غلَب عليه من البلادِ، فسار ابنُ زيادٍ قاصدًا الكوفةَ فلقِي جيشَ التوَّابين بعَيْنِ الوَرْدةِ ـ كما ذكَرْنا ـ ثم سار حتى انتهَى إلى الجزيرةِ فوجَد بها قيسَ عَيْلانَ، وهو من أنصارِ ابنِ الزبيرِ، وقد كان مَرْوانُ أصاب منهم قتْلَى كثيرةً يومَ مرجِ راهطٍ، وهم أَلْبٌ عليه، وعلى ابنه عبدِ الملكِ من بعدِه، فتعوَّق عن المسيرِ سنةً وهو محاصِرٌ قيسَ عَيْلانَ بالجزيرةِ، ثم وصَل إلى الموصلِ، فانحازَ نائبُها عنه إلى تَكْريتَ، وكتَب إلى المختارِ يعلمُه بذلك، فندَب المختارُ يزيدَ بنَ أنسٍ في ثلاثةِ آلافٍ اختارَها، وقال له: إنِّي سأُمِدُّك بالرجالِ بعدَ الرجالِ. فقال له: لا تُمِدَّني إلاَّ بالدعاءِ. وخرَج معه المختارُ إلى ظاهرِ الكوفةِ فودَّعه ودعا له، وقال له: لِيكُنْ خبرُك في كلِّ يومٍ عندي، وإذا لَقيتَ عدوَّك فناجِزْهم، ولا تؤخِّرْ

فرصةً .

ولمَّا بلَغ خبرُ مخرجِهم مِن الكوفةِ عبيدَ اللهِ بنَ زيادٍ جهَّز بينَ يدَيْه سَرِيَّتَين؛ إحداهما مع ربيعةَ بنِ مُخارقٍ ثلاثةُ آلافٍ، والأخرى مع عبدِ اللهِ بنِ حَمْلَةَ ثلاثةُ آلافٍ، وقال: أيُّكم سبَق فهو الأميرُ، وإن سبَقتما معًا فالأميرُ على الناسِ أسَنُّكما. فسبَق ربيعةُ بنُ مُخارقٍ إلى يزيدَ بنِ أنسٍ فالتَقيا في طرَفِ أرضِ المَوْصلِ مِمَّا يلِي الكوفةَ، فتواقَفا هنالك، ويزيدُ بنُ أنسٍ مريضٌ مُدْنَفٌ، وهو مع ذلك يُحرِّضُ قومَه على الجهادِ ويدُورُ على الأَرباعِ وهو محمولٌ مضنًى راكبٌ على حمارٍ، وهو يقولُ لقومِه: يا شُرْطَةَ اللهِ، اصبِروا تُؤْجَروا، وقاتِلوا عدوَّكم تَظْفَروا، ثم نزَل فوُضِع له سريرُه بينَ الصفَّين، وقال لقومِه: قاتِلوا عن أميرِكم إن شئتُم أو فِرُّوا عنه. وقال للناسِ: إن هلَكتُ فالأميرُ على الناسِ عبدُ اللهِ ابنُ ضَمْرَةَ العُذْرِيُّ رأسُ الميمنةِ، فإن هلَك فسِعْرُ بنُ أبي سِعْرٍ رأسُ الميسرةِ.

وكان ورْقاءُ بنُ عازبٍ الأسَديُّ على الخيلِ، وهو وهؤلاء الثلاثةُ أمراءُ الأَرباعِ، وكان ذلك في يومِ عرفةَ مِن سنةِ ستٍّ وستِّين عندَ إضاءةِ الصبحِ، فاقتَتَلوا هم والشاميون قتالًا شديدًا، واضطَربت كلٌّ مِن الميمنَتَيْن والميسرَتَيْن، ثم حمَل ورْقاءُ على الخيلِ فهزَمها، وفرَّ الشاميون وقُتِل أميرُهم ربيعةُ بنُ مخارقٍ، واحتازَ جيشُ المختارِ ما في عسكرِهم، ورجَع فُرّارُهم فلَقُوا الأميرَ الآخَرَ عبدَ اللهِ بنَ حَمْلَةَ، فقال: ما خبرُكم؟ فأخْبَروه، فرَجع بهم معه وسار بهم نحوَ يزيدَ بنِ أنسٍ، فانتهَى إليهم عِشاءً، فبات الناسُ مُتَحاجِزين، فلمَّا أصبَحوا تواقَفوا على تعبئَتِهم، وذلك يومَ الأضحى مِن سنةِ ستٍّ وستين، فاقتتَلوا قتالًا شديدًا، فهزَم جيشُ المختارِ جيشَ الشاميين أيضًا، وقتَلوا أميرَهم عبدَ اللهِ بنَ حَمْلَةَ، واحتوَوْا على ما في معسكرِهم، وأسَروا منهم ثلاثَمائةِ أسيرٍ، فجاءوا بهم إلى يزيدَ بنِ أنسٍ وهو على آخرِ رمَقٍ، فأمَر بضَرْبِ أعناقِهم.

ومات يزيدُ بنُ أنسٍ مِن يومِه ذلك، وصلَّى عليه خليفتُه ورقاءُ بنُ عامرٍ ودفَنه، وسُقِط في أيدي أصحابِه وجعَلوا يتسلَّلون راجعين إلى الكوفةِ، فقال لهم ورقاءُ: يا قومُ ماذا تَرَوْن؟ إنَّه قد بلَغني أنَّ ابنَ زيادٍ قد أقبَل في ثمانين ألفًا مِن الشامِ، ولا أرَى لكم بهم طاقةً، وقد هلَك أميرُنا وتفرَّق عنا طائفةٌ مِن الجيشِ مِن أصحابِنا، فلو انصرَفنا راجعين إلى بلادِنا ونُظْهِرُ أنَّا إنَّما انصرَفنا حَزَنًا منَّا على أميرِنا، لكان خيرًا لنا مِن أن نَلْقاهم فيهزِمونا ونرجِعَ مغلوبين. فاتفَق رأيُ الأمراءِ على ذلك، فرَجعوا إلى الكوفةِ.

فلمَّا بلغَ خبرُهم أهلَ الكوفةِ وأنَّهم قد كرُّوا راجعين، وبلَغهم أنَّ يزيدَ بنَ أنسٍ قد هلَك، أرجَف أهلُ الكوفةِ بالمختارِ، وقالوا: قُتِل يزيدُ بنُ أنسٍ في المعركةِ وانهزَم جيشُه، وعمَّا قليلٍ يقدَمُ عليكم عبيدُ اللهِ بنُ زيادٍ فيستَأْصِلُكم ويَشْتَفُّ خَضْراءَكم. ثم تمالَئوا على الخروجِ على المختارِ وقالوا: هو كذابٌ، واتفَقوا على حربِه وقتالِه وإخراجِه مِن بينِ أظهُرِهم، وقالوا: هو كذّابٌ قد قدَّم موالِيَنا على

أشرافنا، وزعَم أنَّ محمدَ بنَ الحنفيَّةِ قد أمَرَه بالأخذِ بثأرِ الحسينِ، وهو لم يأمُرْه بشيءٍ، وإنَّما هو مُتَقَوِّلٌ عليه. وانتظَروا بخروجِهم عليه أن يخرُجَ من الكوفة إبراهيمُ بنُ الأشترِ فإنَّه قد عيَّنه المختارُ أن يخرُجَ في سبعةِ آلافٍ للقاءِ ابنِ زيادٍ، فلمَّا خرَج إبراهيمُ بنُ الأشترِ اجتمَع أشرافُ الناسِ ممَّن كان في جيشِ قتلةِ الحسينِ وغيرِهم في دارِ شَبَثِ بنِ رِبْعِيٍّ، وأجْمَعُوا أمرَهم على قتالِ المختارِ، ثم وثَبوا فركِبَتْ كلُّ قبيلةٍ مع أميرِها في ناحيةٍ من نواحي الكوفة، وقصَدوا قصرَ الإمارةِ، وبعَث المختارُ عمرَو بنَ توبةَ بريدًا إلى إبراهيمَ بنِ الأشترِ ليرجِعَ إليه سريعًا، وبعَث المختارُ إلى أولئك يقولُ لهم: ماذا تنقِمون؟ فإنِّي أُجيبُكم إلى جميعِ ما تطلُبون. وإنَّما يُريدُ أن يثبِّطَهم عن مناهضتِه حتى يقدَمَ إبراهيمُ ابنُ الأشترِ، وقال: إنْ كنتم لا تصدِّقوني في أمرِ محمدِ بنِ الحنفيةِ فابعَثوا من جهتِكم وأبعَثُ من جهتي مَن يسأَلُه عن ذلك. ولم يزَلْ يُطاوِلُهم حتى قدِم إبراهيمُ بنُ الأشترِ بعدَ ثلاثٍ، فانقسَم هو والناسُ فِرْقَتَين، فتكفَّل المختارُ بأهلِ اليمنِ، وتكفَّل إبراهيمُ بنُ الأشترِ بمُضَرَ وعليهم شَبَثُ بنُ رِبْعِيٍّ، وكان ذلك بإشارةِ المختارِ، حتى لا يتولَّى ابنُ الأشترِ النَّخَعِيُّ قتالَ قومِه من أهلِ اليمنِ فيحنُوَ عليهم، وكان المختارُ شديدًا عليهم.

ثم اقتَتَل الناسُ في نواحي الكوفة قتالًا عظيمًا، وكثُرت القتلَى بينَهم من الفريقَين، وجرَت فصولٌ وأحوالٌ حربيةٌ يطولُ استقصاؤُها، وقُتِل جماعةٌ من الأشرافِ؛ منهم عبدُ الرحمنِ بنُ سعيدِ بنِ قيسٍ الكنديُّ، وسبعُمائةٍ وثمانون رجلًا من قومِه، وقُتِل من مُضَرَ بضعةَ عَشَرَ رجلًا، ويُعرَفُ هذا اليومُ بجبَّانةِ السَّبِيعِ. وكان ذلك يومَ الأربعاءِ لستٍّ بقِين من ذي الحجةِ سنةَ ستٍّ وستِّين، ثم كانتِ النُّصرةُ للمختارِ عليهم، وأسَر منهم خمسَمائةِ أسيرٍ، فعُرِضوا على المختارِ فقال: انظُروا مَن كان منهم شهِد مقتَلَ الحسينِ فاقتُلوه. فقُتِل منهم مائتان وأربعون رجلًا، وقتَل أصحابُه منهم مَن كان يُؤذيهم ويُسيءُ إليهم بغيرِ أمرِ المختارِ، ثم أطلَق الباقين، وهرَب عمرُو بنُ الحجّاجِ الزُّبيديُّ، وكان ممَّن شهِد قتلَ الحسينِ فلا يُدرَى أين ذهَب من الأرضِ.

ذكرُ مقتلِ شَمِرِ بنِ ذي الجَوْشَنِ، أميرِ السَّرِيَّةِ التي قتلَتْ حُسينًا

وهَرَب أشرافُ الكوفةِ إلى البصرةِ إلى مصعبِ بنِ الزبيرِ، وكان ممَّن هرَب لقصدِه شَمِرُ بنُ ذي الجَوْشَنِ - قبَّحه اللهُ - فبعَث المختارُ في أَثَرِه غلامًا له يُقالُ له: زَرْبِيٌّ. فلمَّا دنا منه قال شَمِرٌ لأصحابِه: تقدَّموا وذروني وراءَكم بصفةِ أنَّكم قد هرَبْتُم وترَكْتموني حتى يطمَعَ فيَّ هذا العِلْجُ. فساقوا وتأخَّر شَمِرٌ، فأدرَكَه زَرْبِيٌّ فعطَف عليه شَمِرٌ، فدقَّ ظهرَه فقتَلَه، وسار شَمِرٌ وترَكه، وكتَب كتابًا إلى مصعبِ بنِ الزبيرِ وهو بالبصرةِ يُنذِرُه بقُدومِه عليه، ووِفادتِه إليه، وكان كلُّ مَن فرَّ من هذه الوقعةِ يهرُبُ إلى مصعبٍ بالبصرةِ، وبعَث شَمِرٌ الكتابَ مع عِلْجٍ من علوجِ قريةٍ قد نزَل عندَها يُقالُ لها:

الكَلْتانيَّةُ. عند نَهْرٍ إلى جانب تلٍّ هناك، فذهَب ذلك العِلْجُ فلقيَه عِلْجٌ آخَرُ فقال له: إلى أين تذهَبُ؟ قال: إلى مصعبٍ. قال: مِمَّن؟ قال: من شَمِرٍ. فقال: اذهَبْ معي إلى سيِّدي. وإذا سيِّدُه أبو عَمْرَةَ أميرُ حرسِ المختارِ، وهو قد ركِب في طلبِ شَمِرٍ، فدلَّه العِلْجُ على مكانه فقصَده أبو عَمْرَة. وقد أشارَ أصحابُ شَمِرٍ عليه أن يتحوَّلَ مِن مكانه ذلك فقال لهم: هذا كلُّه فَرَقٌ مِن الكذّابِ، واللهِ لا أرتحِلُ مِن ههنا إلى ثلاثة أيامٍ حتى أَمْلأَ قُلوبَهم رُعْبًا، فلمَّا كان الليلُ كابَسهم أبو عَمْرَةَ في الخيلِ، فأعْجَلَهم أن يَرْكَبوا أو يَلْبَسوا أسْلحتَهم، وثار إليهم شَمِرُ بنُ ذي الجَوْشَنِ فطاعَنَهم برُمْحه وهو عُرْيانٌ، ثم دخَلَ خيمتَه، فاستَخرَج منها سيفًا، وهو يقولُ:

نَبَّهْتُمُ لَيْثَ عَرِينٍ باسِلا ... جَهْمًا مُحَيَّاهُ يَدُقُّ الكاهلا
لم يُرَ يومًا عن عَدُوٍّ ناكِلا ... إلا كذا مقاتِلًا أو قاتِلا
يُبْرِحُهُمْ ضربًا ويُرْوي العامِلا

ثم ما زال يُناضِل عن نفسه حتى قُتِل، فلمَّا سَمِع أصحابُه، وهم مُنْهَزِمون، صوتَ التَّكْبيرِ وقولَ أصحابِ المُختارِ: اللهُ أكبرُ، قُتِل الخَبيثُ. عرَفوا أنه قد قُتِل، قَبَّحه اللهُ.

قال أبو مِخْنَفٍ، عن يونسَ بنِ أبي إسحاقَ قال: ولمَّا خرَج المُختارُ مِن جَبَّانةِ السَّبِيعِ، وأقْبَل إلى القَصْرِ - يعني مُنْصَرَفَه مِن القتالِ - ناداه سُراقةُ بنُ مِرْداسٍ بأعْلى صوته، وكان في الأسْرَى:

امْنُنْ عليَّ اليومَ يا خيرَ مَعَدْ ... وخيرَ مَن حَلَّ بشِحْرٍ والجَنَدْ
وخيرَ مَن لَبَّى وصامَ وسَجَدْ

قال: فبعثَه إلى السجنِ، فاعْتَقَله ليلةً، ثم أطْلَقَه مِن الغدِ، فأقْبَل إلى المُختارِ، وهو يقولُ:

ألا أخبِرْ أبا إسحاقَ أنَّا ... نَزَوْنا نَزْوةً كانت علينا
خرَجْنا لا نَرَى الضُّعفاءَ شيئًا ... وكان خُروجُنا بَطَرًا وحَيْنا
نَراهم في مَصافِّهمُ قليلًا ... وهم مثلُ الدَّبا حينَ الْتَقَيْنا
برَزْنا إذ رأيْناهم فلمَّا ... رأيْنا القومَ قد برَزوا إلينا
رأَيْنا منهمُ ضَرْبًا وطَعْنًا ... وطَعْنًا صائبًا حتى انثَنَيْنا
نُصِرْتَ على عدوِّك كلَّ يومٍ ... بكلِّ كَتيبةٍ تَنْعَى حُسَيْنًا
كنَصْرِ محمدٍ في يومِ بدرٍ ... ويومِ الشِّعْبِ إذ لاقَى حُنَيْنا
فأسْجِحْ إذ مَلَكْتَ فلو مَلَكْنا ... لجُرْنا في الحُكومةِ واعْتَدَيْنا
تقَبَّلْ تَوْبةً مني فإنِّي ... سأشْكُرُ إذ جَعَلْتَ النَّقْدَ دَيْنا

وجعَل سُراقةُ بنُ مِرْداسٍ يَحْلفُ أنه رأَىٰ المَلائكةَ تقاتِلُ علىٰ الخُيولِ البُلْقِ بينَ السماءِ والأرضِ، وأنه لم يَأْسِرْه إلا واحدٌ مِن أولئك المَلائكةِ، فأمَره المُختارُ أن يَصْعَدَ المِنْبرَ فيُخْبِر الناسَ بذلك. فصَعِد المنبرَ فأخْبرَ الناسَ بذلك، فلمَّا نزَل خَلا به المُخْتارُ، فقال له: إني قد عرَفْتُ أنك لم ترَ المَلائكةَ، وإنما أرَدْت بقولِك هذا أنِّي لا أَقْتُلُك، ولسْتُ أقْتُلُك فاذْهَبْ حيث شئتَ؛ لا تُفْسِدْ عليَّ أصْحابي. فذَهَب سُراقةُ إلىٰ البَصْرةِ إلىٰ مُصْعَبِ بنِ الزبيرِ، وجعَل يقول:

ألاَ أبلِغْ أبا إسحاقَ أنِّي	رأيتُ البُلْقَ دُهْمًا مُصْمَتاتِ
كَفَرْتُ بوَحْيِكم وجعَلْتُ نَذْرًا	عليَّ قِتالَكم حتى المَماتِ
رأت عَيْنايَ ما لم تُبْصِراه	كِلانا عالِمٌ بالتُّرَّهاتِ
إذا قالوا أقولُ لهم كذَبْتُم	وإن خَرَجوا لَبِسْتُ لهم أداتي

قالوا: ثم خَطَب المُخْتارُ أصحابَه، فحرَّضهم في خُطْبتِه تلك علىٰ تتبُّعِ مَن قتَل الحسينَ مِن أهلِ الكوفةِ المُقيمين بها، فقال: ما دِينُنا ترْكُ قومٍ قَتَلوا حُسينًا يَمْشون في الدنيا أحْياءً آمِنين، بئس ناصرُ آلِ محمدٍ، إني إذًا كَذَّابٌ كما سَمَّيْتُموني أنتم، فإني باللهِ أَسْتَعِينُ عليهم، فالحمدُ للهِ الذي جعَلني سيفًا أَضْرِبُهم، ورُمْحًا أَطْعَنُهم، وطالبَ وَتْرِهم، والقائمَ بحقِّهم، وإنه كان حَقًّا علىٰ اللهِ أن يَقْتُلَ مَن قَتَلهم، وأن يُذِلَّ مَن جَهِل حقَّهم، فسَمُّوهم ثم اتَّبِعوهم حتىٰ تَقْتُلوهم، فإنه لا يَسوغ ليَ الطَّعامُ والشَّرابُ حتىٰ أُطهِّرَ الأرضَ منهم، وأنْفِيَ مَن في المِصْرِ منهم. ثم جعَل يَتَتَبَّعُ مَن في الكوفةِ منهم وكانوا يَأْتون بهم حتىٰ يُوقَفوا بينَ يدَيه فيَأْمُرَ بقَتْلِهم علىٰ أنْواعٍ مِن القِتْلات مما يُناسِبُ ما فعَلوا؛ ومنهم مَن حَرَّقه بالنارِ، ومنهم مَن قَطَّع أطْرافَه وترَكه حتىٰ مات، ومنهم مَن يُرْمَىٰ بالنَّبالِ حتىٰ يَموتَ، فأتَوْه بمالك بنِ بَشيرٍ، فقال له المُخْتارُ: أنت الذي نَزَعْتَ بُرنُسَ الحسينِ عنه؟ فقال: خرَجْنا ونحن كارهون، فامْنُنْ علينا. فقال: اقْطَعوا يدَيه ورجلَيه، ففعَلوا به ذلك، ثم ترَكوه يَضْطَرِبُ حتىٰ مات، وقَتَل عبدَ اللهِ بنَ أَسِيدٍ الجُهَنيَّ وغيرَه شرَّ قِتْلةٍ.

مَقتلُ خَوْليِّ بن يزيدَ الأصْبَحيِّ الذي احتزَّ رأسَ الحسين رَضِي اللهُ عنه

بعَث إليه المُخْتارُ أبا عَمْرةَ صاحبَ حَرَسِه، فكبَس بيتَه، فخرَجَت إليهم امرأتُه، فسأَلوها عنه، فقالت: لا أدْري أين هو. وأشارَتْ بيدِها إلىٰ المكانِ الذي هو مُخْتَفٍ فيه، وكانت تُبْغِضُه مِن ليلةِ قَدِم برأسِ الحسينِ معه إليها، وكانت تَلومُه علىٰ ذلك، واسمُها العَيُوفُ بنت مالكِ بنِ نهارِ بنِ عَقْرَبٍ الحضرميِّ، فدَخَلوا عليه فوجَدوه قد وَضَع علىٰ رأسِه قَوْصَرَّةً، فحمَلوه إلىٰ المُخْتارِ، فأمَر بقتلِه قريبًا مِن دارِه، وأن يُحْرَقَ بعد ذلك.

وبعث المُختارُ إلى حكيم بن فُضَيْلٍ السِّنْبسيِّ - وكان قد سَلَب العباسَ بنَ عليٍّ بنِ أبي طالبٍ يومَ قُتل الحسينُ - فأُخذ، فذَهَب أهلُه إلى عَديِّ بنِ حاتمٍ، فركب ليَشْفَعَ فيه عندَ المُختار، فخشي أولئك الذين أخذوه أن يَسْبِقَهم عَديٌّ إلى المُختارِ فيُشفِّعَه فيه، فقتلوا حكيمًا قبلَ أن يَصِلَ إلى المختار، فدخلَ عديٌّ، فشَفَع فيه فشفَّعه فيه، فلمَّا رجَعوا وقد قَتَلوه شَتَمهم عديٌّ، وقام مُتغضِّبًا عليهم، وقد تَقَلَّد منَّةَ المُختارِ. وبعَث المُختارُ إلى زيدِ بنِ رُقَادٍ، وكان قد قَتَل عبدَ اللهِ بنَ مسلم بن عقيلٍ، فلمَّا أحاط الطَّلَبُ بداره خرج فقاتَلهم فرمَوْه بالنَّبْلِ والحجارةِ حتى سَقَط، ثم حرَّقوه وبه رَمَقُ الحَياة، وطَلَب المُختارُ سنانَ بنَ أنسٍ، الذي كان يدَّعي أنه قَتَل الحسينَ، فوَجَدوه قد هَرَب إلى البَصْرة، فأمَر بداره فهُدمت. فهكذا صنَع بكلِّ مَن هرَب من هؤلاء إلى البصرة أو الجزيرة، فهُدِمَت دارُه. وكان محمدُ ابنُ الأشعَث بنِ قيسٍ ممّن هَرَب إلى مُصْعَبٍ، فأمَر المُختارُ بهَدْم داره، وأن يُبْنَى بها دارُ حُجْرِ بنِ عَديٍّ التي كان زيادٌ هدَمها.

مَقتلُ عمرَ بنِ سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ أميرِ الجيشِ الذين قتلوا الحسينَ

قال الواقديُّ: كان سعدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ، رَضِي اللهُ عنه، جالسًا ذاتَ يومٍ؛ إذ جاء غُلامٌ له، ودَمُه يَسيلُ على عَقِبيْه، فقال له سعدٌ: مَن فعَل بك هذا؟ فقال: ابنُك عمرُ. فقال سعدٌ: اللهم اقْتُلْه وأَسِلْ دمَه. وكان سعدٌ مُستَجابَ الدَّعْوة، فلمَّا ظهَر المُختارُ على الكوفة استَجار عمرُ بنُ سعدٍ بعبد الله بن جَعْدةَ بنِ هُبَيْرةَ، وكان صديقًا للمُختارِ من قَرابته من عليٍّ، فأتى المُختارَ فأخذ منه لعمرَ بن سعدٍ أمانًا؛ مَضْمونُه أنه آمِنٌ على نَفْسه وأهله وماله ما أطاع ولَزِم رَحْلَه ومِصْرَه، ما لم يُحْدِثْ حَدَثًا، وأراد المُختارُ ما لم يَأْتِ الخلاء فيَبولَ أو يَغوطَ. ولمَّا بَلَغ عمرَ بنَ سعدٍ أن المختارَ يُريدُ قَتْلَه خرَج من مَنْزله ليلًا يُريدُ السفرَ نحوَ مُصْعَبٍ أو عُبَيْدِ اللهِ بنِ زيادٍ، فنَمَى للمُختار بعضُ مَواليه ذلك. فقال المُختارُ: وأيُّ حَدَثٍ أعْظَمُ من هذا؟ وقيل: إنَّ مَوْلاه قال له ذلك، وقال له: تَخْرُجُ من منزلك ورَحْلك؟ ارْجِعْ. فرَجَع. ولَمَّا أصبَح بعَث إلى المُختارِ يقولُ له: هل أنت مُقيمٌ على أمانك؟ وقيل: إنه أتَى المُختار يَتعَرَّفُ منه ذلك، فقال له المُختارُ: اجْلِسْ. وقيل: إنه أرْسَل عبدَ الله بنَ جَعْدةَ إلى المختارِ يقولُ له: هل أنت مُقيمٌ على أمانك له؟ فقال له المُختارُ: اجْلِسْ. فلما جلَس قال المختارُ لصاحب حرسه: اذْهَبْ فأْتني برأسه. فذَهَب إليه فقتَله، وأتاه برأسه.

وفي رواية أن المختارَ قال ليلةً: لأَقْتُلَنَّ غدًا رجلًا عَظيمَ القدَمَيْن، غائرَ العَيْنَيْن، مُشْرِفَ الحاجِبَيْن، يسرُّ بقتله المؤمنون والملائكةُ المُقرَّبون. وكان الهَيْثَمُ بنُ الأسْودِ حاضرًا، فوَقَع في نفسه أنه أراد عمرَ بنَ سعدٍ، فبعَث إليه ابنَه العُريانَ، فأنْذَره، فقال: كيفَ يكونُ هذا بعدَما أعْطاني من العُهودِ

والمواثيق؟ وكان المختارُ حينَ قَدِم الكوفة أحْسَنَ السِّيرةَ إلى أهلها أولاً، وكتَب لعمرَ بنِ سعدٍ كتابَ أمانٍ إلاَّ أن يُحْدِثَ حَدَثًا. قال أبو مخْنَف: وكان أبو جعفر الباقرُ يقولُ: إنما أراد المُختارُ إلاَّ أن يَدْخُلَ الكَنيفَ فيُحْدِثَ فيه. ثم إنَّ عمرَ بنَ سعدٍ قَلِق أيضًا، ثم جعَل يَتَنَقَّل من مَحلَّةٍ إلى مَحلَّةٍ، ثم صارَ أمْرُه أنه رَجَع إلى داره، وقد بَلَغ المُختارَ انتقالُه من مَوْضعٍ إلى موضعٍ، فقال: كلاَّ والله إن في عُنُقِه سلْسلةً تَرُدُّه لو جهد أن يَنْطَلِقَ ما استطَاع. ثمَّ أصبح فبعَث إليه أبا عَمْرةَ فدخل عليه، فقال: أجِبِ الأميرَ. فقَام عُمَر، فعثَر في جُبَّتِه، فضرَبه أبو عَمْرةَ بالسيف حتى قتَله، وجاء برأسه في أسفلِ قَبائه حتى وَضَعه بينَ يَدَي المُختارِ، فقال المُختارُ لابنه حفص بنِ عمرَ - وكان جالسًا عندَ المُختار: أتَعْرِفُ هذا الرأسَ؟ فاستَرْجَع وقال: نعم ولا خيرَ في العيش بعدَه. فقال: صَدَقْتَ، ثم أمَر به فضُرِبَت عنقُه، ووُضع رأسُه مع رأسِ أبيه، ثم قال المُختارُ: هذا بالحسين، وهذا بعليِّ بنِ الحسين الأكبر، ولا سَواءَ، والله لو قتَلْتُ به ثلاثةَ أرْباعِ قريشٍ ما وَفَوْا أنْمُلةً من أنامله. ثم بَعَث المختارُ برأسَيْهما إلى محمدِ ابنِ الحَنَفية، وكتَب إليه كتابًا في ذلك:

بسم الله الرحمنِ الرحيم، للمهديِّ محمدِ بنِ عليٍّ من المُختارِ بنِ أبي عُبَيدٍ، سَلامٌ عليك أيُّها المَهْديُّ، فإني أَحْمَدُ إليك اللهَ الذي لا إلهَ إلا هو، أمّا بعدُ: فإن اللهَ بَعَثني نقمةً على أعدائكم، فهم بينَ قَتيلٍ وأسيرٍ وطَريدٍ وشَريدٍ، فالحمدُ لله الذي قتَل قاتِلَكم، ونصَر مُؤازِرَكم، وقد بَعَثْتُ إليك برأسِ عمرَ بنِ سعدٍ وابنه، وقد قتَلْنا مَن شرِك في دم الحسينِ وأهلِ بيته كلَّ مَن قَدَرْنا عليه، ولن يُعجِزَ اللهَ مَن بَقِي، ولستُ بمُنْحَجِمٍ عنهم حتى لا يَبْلُغَني أنَّ على أديمِ الأرضِ منهم إرَميًّا فاكْتُبْ إليَّ أيُّها المَهْديُّ برأيك أتَّبِعه وأكنْ عليه، والسلامُ عليك أيُّها المَهْديُّ ورَحمةُ الله وبركاتُه[1].

ولم يَذْكرِ ابنُ جَريرٍ أن محمدَ بنَ الحَنَفية ردَّ جَوابَه، مع أن ابنَ جَريرٍ قد تَقَصَّى هذا الفصلَ وأطال شَرْحَه، ويَظْهَرُ من غُبون كلامه ونظامه قوةُ وَجْده به وغَرامه، ولهذا تَوَسَّع في إيراده بروايات أبي مخْنَف لُوط بن يَحْيَى، وهو مُتَّهَمٌ فيما يَرْويه، ولا سيما في باب التَّشَيُّع، وهذا المَقامُ للشِّيعةِ فيه غَرامٌ وأيُّ غَرامٍ؛ إذ فيه الأخْذُ بثأرِ الحسينِ وأهله من قَتَلَتهم، والانتقامُ منهم.

ولا شكَّ أن قَتْلَ قَتَلَتِه كان مُتَحتِّمًا، والمُبادَرةُ إليه كان مَغْنَمًا، ولكن إنَّما قَدَّره اللهُ على يدِ المُختارِ الكَذَّابِ الذي صار بدَعْواه إتيانَ الوَحْيِ إليه كافرًا، وقد قال رسولُ الله ﷺ: **«إنَّ اللهَ لَيُؤيِّدُ هذا الدينَ بالرَّجلِ الفاجرِ»**[2].

وقال تعالى في كتابِه الذي هو أفضلُ ما يَكْتُبُه الكاتبون: **﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا**

---

(١) ذكره الطبري في «تاريخه» (٣/ ٤٦٥) بغير إسناد.

(٢) **صحيح**: أخرجه البخاري (٣٠٦٢) ومسلم (١٧٩) من حديث أبي هريرة.

كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٩]. وقال بعضُ الشُّعراء:

وما من يدٍ إلا يدُ الله فوقَها ... ولا ظالمٍ إلا سيُبلَى بظالمِ

وسيأتي في تَرْجَمةِ المُخْتارِ ما يَدُلُّ على كَذِبه وافترائه، وادِّعائه نُصْرةَ أهلِ البيت، وهو في نفسِ الأمرِ مُتَستِّرٌ بذلك ليَجْمَعَ عليه رَعاعًا من الشِّيعةِ الذين بالكوفة؛ ليُقيمَ لهم دَوْلةً ويَصولَ بهم ويَجُولَ على مُخالفيه صَوْلةً.

ثم إنَّ اللهَ تعالى سلَّط عليه مَن انْتَقَم منه، وهذا هو الكَذَّابُ الذي قال فيه الرسولُ ﷺ في حديثِ أسماءَ بنتِ الصدِّيق: «إنه سيَكُونُ في ثَقيفٍ كَذَّابٌ ومُبِيرٌ»[1]. فهذا هو الكَذابُ، وهو يُظْهِرُ التشيُّعَ، وأمَّا المُبِيرُ فهو الحَجَّاجُ بنُ يوسفَ الثَّقَفيُّ، وقد وُلِّي الكُوفةَ مِن جهةِ عبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ، كما سيأتي. وكان الحَجَّاجُ عكسَ هذا؛ كان ناصبيًّا جَلْدًا ظالمًا غاشمًا، ولكن لم يَكُنْ في طبقةِ هذا، يُتَّهَمُ على دينِ الإسْلامِ ودَعْوى النُّبوةِ، وأنه يأْتيه الوَحْيُ مِن العليِّ العَلَّامِ.

قال ابنُ جَرير: وفي هذه السنة بَعَثَ المُخْتارُ المُثَنَّى بنَ مُخَرِّبةَ العَبْديَّ إلى البَصْرةِ يَدْعو إليه مَن استطاع مِن أهلِها، فدَخَلها وابْتَنَى بها مسجدًا يَجْتَمِعُ إليه فيه قومُه، فجعَل يَدْعو إلى المُخْتارِ، ثم أتى مدينةَ الرِّزْقِ، فعَسْكَر عندَها، فبعَث إليه الحارثُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ أبي رَبيعةَ القُباعُ - وهو أميرُ البَصْرةِ قبلَ أن يُعزَلَ بمُصْعَبٍ - جيشًا مع عَبَّادِ بنِ الحُصَينِ أميرِ الشُّرْطةِ، وقيسِ بنِ الهَيْثمِ. فقاتَلوه وأخَذوا منه المَدينةَ، وانهزَم أصحابُه، وكان قد قام بنُصْرتهم بنو عبدِ القيسِ، فبعَث إليهم الجيشَ، فبعَثوا إليه، فأرسَل الأحْنَفَ بنَ قيسٍ وعمرَو بنَ عبدِ الرحمنِ المَخْزوميَّ ليُصْلِحا بينَ الناسِ، وساعَدهما مالكُ بنُ مِسْمَعٍ، فانحَجَز الناسُ بعضُهم عن بعضٍ، ورجَع إلى المُخْتارِ في نَفَرٍ يَسيرٍ مِن أصحابِه مَغْلولًا مَغْلوبًا مَسْلوبًا، وأخبَر المُخْتارَ بما وقَع مِن الصُّلحِ على يدَيِ الأحْنَفِ وغيرِه مِن أولئك الأمراءِ، وطمِع المُخْتارُ فيهم، وكاتَبَهم في أن يَدْخُلوا معه فيما هو فيه مِن الأمْرِ، وكان كتابه إلى الأحنفِ بنِ قيسٍ: من المختارِ إلى الأحنفِ بنِ قيسٍ ومَنْ قِبَلَهُ، فَسلْمٌ أنتم، أما بعد، فويلُ أمِّ ربيعةَ من مضرَ، وإنَّ الأحنفَ يُورِدُ قومَهُ سَقَرَ، حيث لا يستطيعُ لهم الصَّدَرَ، وإنِّي لا أملك لكم ما قد خُطَّ في القدرِ، وقد بلغني أنكم تسموني كذابًا، وقد كُذِّبَ الأنبياءُ مِن قبلي ولست بخيرٍ منْهُمْ.

قال ابنُ جَرير: حَدَّثني أبو السائبِ سَلْمُ بنُ جُنادةَ، ثنا الحسنُ بنُ حَمَّادٍ، عن حِبَّانَ بنِ عليٍّ، عن مُجالدٍ، عن الشعبيِّ قال: دَخَلْتُ البَصْرةَ، فقَعَدْتُ إلى حَلْقةٍ، فيها الأحْنَفُ بنُ قيسٍ، فقال بعضُ القومِ: مَن أنت؟ فقلتُ: رجلٌ مِن أهلِ الكوفة. فقال: أنتم مَوالٍ لنا. قلتُ: وكيف؟ قال: قد أنْقَذْناكم مِن أيدي عَبيدِكم مِن أصحابِ المُخْتارِ. قلتُ: تَدْري ما قال شيخٌ مِن هَمْدانَ فينا وفيكم؟ فقال الأحْنَفُ: وما قال؟ قلتُ: قال:

(١) صحيح: سيأتي التعليق عليه في الخامس بعد هذا.

أفَخَرتُم أنْ قَتَلتُم أعبُدًا	وهزَمتُم مَرةً آلَ عَزَلْ
فإذا فاخَرتُمونا فاذكُروا	ما فعَلنا بكمُ يومَ الجَمَلْ
بينَ شيخٍ خاضبٍ عُثنُونَه	وفتًى أبيضَ وضّاحٍ رِفَل
جاءنا يَهدجُ في سابغةٍ	فذبَحناه ضُحًى ذَبحَ الحَمَل
وعَفَونا فنَسيتُمْ عَفوَنا	وكفَرتُم نعمةَ اللهِ الأجَل
وقَتَلتُمْ بحُسَينٍ منهمُ	بدلاً من قومكم شرَّ بَدَلْ

قال: فغَضِب الأحْنَفُ، وقال: يا غلامُ، هاتِ الصَّحيفةَ. فأُتي بصَحيفةٍ فيها: بسم الله الرحمنِ الرحيم، مِن المُختارِ بنِ أبي عُبَيدٍ إلى الأحْنَفِ بنِ قيسٍ، أمّا بعدُ فوَيْلٌ أمِّ رَبيعةَ من مُضَرَ، فإن الأحْنَفَ يُورِدُ قومَه سَقَرَ، حيث لا يَقْدِرون على الصَّدَرِ، وقد بلَغَني أنكم تُكَذِّبوني، فإن كُذِبْتُ فقد كُذِّبَ رُسُلٌ مِن قَبْلي، ولسْتُ بخيرٍ منهم. ثم قال الأحْنَفُ: هذا منَّا أو منكم[1].

فصلٌ

ولمّا علِم المختارُ أنَّ ابنَ الزبيرِ لا ينامُ عنهم، وأنَّ جيشَ الشامِ مِن قِبَلِ عبد الملك بنِ مروانَ يقصدونه مع عبيدِ الله بن زيادٍ في جمعٍ كثيرٍ لا يُرامُ، شرَعَ يُصانعُ ابنَ الزبيرِ، يريدُ خداعَه والمكرَ به، فكتَب إليه، إنِّي كُنتُ بايعتُك على السمعِ والطاعةِ والنصحِ لك، فلمّا رأيتُك قد أعرضْتَ عني تباعدْتُ عنك، فإن كنْتَ على ما أعهَدُ منك فأنا على السمعِ والطاعةِ لك. والمختارُ يُخفي هذا كلَّ الإخفاءِ عن الشيعة، فإذا ذكَر له أحدٌ شيئًا مِن ذلك أظهَر لهم أنه أبعدُ الناسِ مِن ذلك.

فلمَّا وصَل كتابُه إلى ابنِ الزبيرِ أراد أنْ يعلَمَ أصادقٌ هو أم كاذبٌ؟ فدعا عمرَ بنَ عبدِ الرحمنِ بنِ الحارثِ بنِ هشامٍ المَخْزُوميَّ، فقال له: تجهَّزْ إلى الكوفةِ فقد ولَّيْتُكها. فقال: وكيف وبها المُختارُ؟ فقال: إنَّه يزعُمُ أنَّه سامعٌ لنا مُطيعٌ. وأعطاه قريبًا مِن أربعين ألفًا يتجهَّزُ بها، فسار فلمّا كان ببعضِ الطريقِ لَقِيه زائدةُ بنُ قُدامةَ مِن جهةِ المختارِ في خَمسمائةِ فارسٍ مُلبِسةٍ، ومعه سبعون ألفًا مِن المالِ، وقد تقدَّمَ إليه المُختارُ فقال له: أعطِه المالَ، فإنْ هو انصرفَ وإلاّ فأَرِه الرجالَ فقاتِلْه حتى ينصرفَ. فلمَّا رأَى عمرُ بنُ عبدِ الرحمنِ الجِدَّ قبَض المالَ وسار إلى البصرةِ فاجتمَع هو وابنُ مُطيعٍ بها عند أميرِها الحارثِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ أبي ربيعةَ، وذلك قبلَ وُثوبِ المُثنَّى بنِ مُخَرِّبةَ - كما تقدَّم - وقبلَ وصولِ مُصعبِ بنِ الزبيرِ إليها.

وبعَث عبدُ الملكِ بنُ مَرْوانَ ابنَ عمِّه عبدَ الملكِ بنَ الحارثِ بنِ الحَكَمِ في جيشٍ إلى وادي القُرى؛ ليأخُذوا المدينةَ مِن نوّابِ ابنِ الزبيرِ. وكتَب المختارُ إلى ابنِ الزبيرِ: إنْ أحبَبْتَ أنْ أمُدَّك بمدَدٍ. وإنَّما

---

(١) **إسناده ضعيف:** لضعف مجالد بن سعيد.

يُريدُ المختارُ خديعتَه ومُكايدتَه، فكتَب إليه ابنُ الزُّبير: إنْ كنْتَ على طاعتي فلَستُ أكرهُ ذلك، فابعَثْ بجُندٍ إلى وادي القُرَىٰ؛ ليكونوا مددًا لنا على قتال الشاميِّين. فجهَّزَ المختارُ ثلاثةَ آلافٍ عليهم شُرَحْبيلُ بنُ وَرْسٍ الهَمْدانيُّ، ليس فيهم من العربِ إلاَّ سبعُمائةٍ، وقال له: سِرْ حتى تدخُلَ المدينةَ، فإذا دخَلْتَها فاكتُبْ إليَّ حتى يأتيَك أمري. وإنَّما يُريدُ أخذَ المدينةِ من ابن الزبيرِ، ثم يركَبُ بعدَ ذلك إلى مكة ليحاصر ابن الزبير بها، وخشي ابن الزبير أن يكون المختار بعث ذلك الجيش مكرًا، فبَعَث العبَّاسَ بنَ سَهْلِ بنِ سعدٍ السّاعديَّ في ألفيْنِ، وأمَره أنْ يستعين بالأعراب، وقال لهم: إنْ رأيتُموهم في طاعتي وإلا فكايدوهم حتى تُهلِكَهم.

فأقبَل العبَّاسُ بنُ سهلٍ حتى لَقِي ابنَ وَرْسٍ بالرَّقيم، وقد تَعَبَّى ابنُ وَرْسٍ في جيشه، فاجتَمعا على ماءٍ هنالك، فقال له العبَّاسُ: ألستُم في طاعة ابنِ الزبيرِ؟ فقال: بلىٰ. قال: فإنَّه قد أمَرني أنْ نذهَبَ إلى وادي القُرَىٰ فنقاتِلَ مَن به من الشاميِّين. فقال له ابنُ وَرْسٍ: فإنِّي لم أُومرْ بطاعتك، وإنَّما أُمِرتُ أنْ أدخُلَ المدينةَ، ثم أكتُبَ إلى صاحبي فيأمُرَني بأمره. ففهِم عبَّاسٌ مَغْزاه، ولم يُظهِرْ له أنه فطِن لذلك، فقال له: رأيُك أفضَلُ، فاعْمَلْ ما بَدا لك. ثم نهَض العبَّاسُ من عنده، وبعَث إليهم الجُزُرَ والغنَمَ والدَّقيقَ، وقد كان عندَهم حاجةٌ أكيدةٌ إلى ذلك، وجوعٌ كثيرٌ، فجعَلوا يذبَحون ويطبُخون ويختَبِزون ويأكُلون على ذلك الماء، فلمّا كان الليلُ بيَّتَهم عبَّاسُ بنُ سهلٍ فقتَل أميرَهم وطائفةً منهم نحوًا من سبعين، وأسَر منهم خَلْقًا كثيرًا، فقتَل أكثَرَهم، ورجَع القليلُ منهم إلى المختارِ، وإلى بلادهم خائبين.

قال أبو مخنَف: فحدَّثني أبو يوسُفَ أنَّ عبَّاسَ بنَ سهلٍ انتهى إليهم وهو يقولُ:

أنا ابنُ سهلٍ فارسٌ غيرُ وَكَلْ	أرْوَعُ مِقْدامٌ إذا الكَبْشُ نَكَلْ
وأعْتَلي رأسَ الطِّرِمّاحِ البَطَلْ	بالسَّيفِ يومَ الرَّوْعِ حتَّى يُنْخَزَلْ

فلمَّا بلَغ خبرُهم المختارَ قام في أصحابِه خَطيبًا فقال: إنَّ الفُجّارَ الأشرارَ قتَلوا الأبرارَ الأخيارَ، ألاَ إنَّه كان أمرًا مأتيًّا، وقضاءً مقضيًّا. ثم كتَب إلى محمدِ بنِ الحنفيَّةِ مع صالحِ بنِ مسعودٍ الخَثْعَميِّ كتابًا يذكُرُ فيه أنَّه بعَث إلى المدينة جيشًا لنُصرته فغدَر بهم جيشُ ابنُ الزبيرِ، فإنْ رأيتَ أنْ أبعَثَ جيشًا آخرَ إلى المدينة وتبعثَ من قِبَلك رُسلاً إليهم فافعَلْ. فكتَب إليه ابنُ الحنفيَّة: أمَّا بعدُ فإنَّ أحبَّ الأمور كلِّها إليَّ ما أُطيعَ اللهُ فيه، فأطعِ اللهَ فيما أعلنتَ وأسررتَ، واعلَمْ أنِّي لو أردْتُ القتالَ لوجدْتُ الناسَ إليَّ سراعًا، والأعوانَ لي كثيرة، ولكنِّي أعتزِلُهم وأصبِرُ حتى يحكُمَ اللهُ لي وهو خيرُ الحاكمين. وقال لصالحِ بنِ مسعودٍ: قلْ للمختارِ فَلْيَتَّقِ اللهَ وليكفُفْ عن الدماء. فلمّا انتهَى إليه كتابُ محمدِ بنِ الحنفيَّةِ قال: إنِّي قد أُمِرتُ بجمعِ البرِّ واليُسْرِ، وبطرحِ الكفرِ والغدرِ.

وذكَر ابنُ جريرٍ، من طريقِ المدائنيِّ وأبي مِخْنَفٍ أنَّ عبدَالله بنَ الزبيرِ عمَد إلى ابنِ الحنفية وسبعةَ

عشرَ رجلاً من أشراف أهلِ الكوفة فحبَسهم حتى يُبايعوه، فكرِهوا أنْ يُبايعوا إلاَّ مَن اجتَمعتْ عليه الأُمَّةُ، فتـهدَّدَهم وتوعَّدَهم واعـتقَلهم بزمـزمَ، فكتَبوا إلى المختـارِ بنِ أبي عبـيدٍ يستصـرِخونه ويستنصِرونه، ويقولون له: إن ابنَ الزبيرِ قد توعَّدنا بالقتلِ والحريقِ، فلا تخذُلونا كما خذَلْتُم الحسينَ وأهلَ بيته. فجمَع المختارُ الشيعةَ وقرأَ عليهم الكتابَ وقال: هذا كتابُ المهديِّ وصريخُ أهلِ البيتِ، قد أصبحوا محصورين ينتظِرون القتلَ والحريقَ، وقال: لستُ أبا إسحاقَ إن لم أنصُرْهم نصرًا مُؤَزَّرًا، وإن لم أسرِّبْ إليهم الخيلَ كالسيلِ يتلوه السيلُ، حتى يَحلَّ بابنِ الكاهليَّةِ الويلُ. ثم وجَّه أبا عبدِ الله الجَدَليَّ في سبعين راكبًا من أهلِ القوةِ، وظَبْيانَ بنَ عُمارةَ التميميَّ في أربعمائة، وأبا المعتمرِ في مائةٍ، وهانئَ بنَ قيسٍ في مائةٍ، وعُمَيرَ بنَ طارقٍ في أربعين، ويونسَ بنَ عمرانَ في أربعين، وكتَب إلى محمد بنِ الحنفيةِ مع الطُّفيلِ بنِ عامرٍ بتوجيهِ الجنودِ إليه، فنزَلَ أبو عبدِ الله الجَدَليُّ بذاتِ عِرقٍ حتى تلاحقَ به نحوٌ من مائةٍ وخمسين فارسًا، ثم سارَ بهم حتى دخَل المسجدَ الحرامَ نهارًا جهارًا، وهم يقولون: يا ثاراتِ الحسينِ. وقد أعدَّ ابنُ الزبيرِ الحطبَ لابنِ الحنفيَّةِ وأصحابِه ليحرقَهم به إن لم يبايعوا، وقد بَقِيَ من الأجلِ يومان، فعمدوا - يعني أصحابَ المختارِ - إلى محمدِ بنِ الحنفيةِ فأطلقوه من سجنِ ابنِ الزبيرِ، وقالوا: إن أذنتَ لنا قاتلْنا ابنَ الزبيرِ. فقال: إنِّي لا أرَى القتالَ في المسجدِ الحرامِ. فقال لهم ابنُ الزبيرِ: ليس يبرحُ وتبرَحون حتى يُبايعَ وتُبايعوا معه. فامتَنعوا عليه ثم لحِقَهم بقيةُ أصحابِهم، فجعَلوا يقولون وهم داخلون الحرمَ: يا ثاراتِ الحسينِ. فلمَّا رأَى ابنُ الزبيرِ ذلك منهم خافهم وكفَّ عنهم، ثم أخَذوا محمدَ بنَ الحنفيةِ، وأخَذوا من الحجيجِ مالاً كثيرًا فسار بهم حتى دخَل شِعبَ عليٍّ، واجتمَع معه أربعةُ آلافِ رجلٍ، فقسَم بينَهم ذلك المالَ.

هكذا أورَد ذلك ابنُ جريرٍ، وفي صحتها نظرٌ. واللهُ أعلمُ.

قال ابنُ جريرٍ: وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ وكان نائبُه بالمدينةِ أخاه مصعبَ بنَ الزبيرِ، ونائبُه على البصرةِ الحارثَ بنَ عبدِ الله بنِ أبي ربيعةَ، وقد استحوذ المختارُ على الكوفةِ، وعبدُ اللهِ بنُ خازمٍ على بلادِ خراسان. وذكَر حروبًا جرَت فيها لعبدِ اللهِ بنِ خازمٍ يطولُ ذكرُها.

فصلٌ

قال ابنُ جريرٍ: وفي هذه السنةِ شخَص إبراهيمُ بنُ الأشترِ إلى عبيدِ اللهِ بنِ زيادٍ، وذلك لثمانٍ بقِين من ذي الحجةِ. وقال أبو مِخْنَفٍ عن مشايخِه: ما هو إلاَّ أن فرَغ المختارُ من جَبّانةِ السَّبيعِ وأهلِ الكُناسةِ، فما نزَل إبراهيمُ بنُ الأشترِ إلاَّ يومين حتى أشْخَصه إلى الوجهِ الذي كان وجَّهه له لقتالِ أهلِ الشامِ؛ فخرَج يومَ السبتِ لثمانٍ بقِين من ذي الحجةِ سنةَ ستٍّ وستين، وخرَج معه المختارُ يودِّعُه في وجوهِ أصحابِه، وخرج معهم خاصةُ المختارِ، ومعهم كرسيُّ المختارِ على بغلٍ أشْهَبَ ليستَنصِروا به على الأعداءِ، وهم حافّون به يدْعون ويستصرِخون ويستنصِرون ويتضرَّعون، فرجَع المختارُ بعدَ أن

وصّاه بثلاث؛ قال: ياابنَ الأشترِ، اتقِ اللهَ في سرِّك وعلانيتك، وأسْرِع السَّيْرَ، وعاجِلْ عدوَّك بالقتال. واستمرَّ أصحابُ الكرسيِّ سائرين مع ابنِ الأشترِ، فجعَل ابنُ الأشترِ يقولُ: اللهمَّ لا تؤاخذْنا بما فعَل السفهاءُ منَّا، سُنَّةُ بني إسرائيلَ، والذي نفسي بيدِه، إذ عكَفوا على عجلِهم. فلمَّا جاوَزَ القنطرةَ إبراهيمُ وأصحابُه انصرَف أصحابُ الكرسيِّ.

قال ابنُ جرير: وكان سببُ اتخاذِ هذا الكرسيِّ ما حدَّثني به عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ بنِ شَبُّوَيْه، حدَّثني أبي، ثنا سليمانُ، ثنا عبدُ اللهِ بنُ المبارك، عن إسحاقَ بنِ يحيى بنِ طلحةَ، حدَّثني مَعْبَدُ بنُ خالدٍ، حدَّثني طُفَيْلُ بنُ جَعْدَةَ بنِ هُبَيرةَ قال: أَعْدَمْتُ مَرَّةً من الورِقِ فإنِّي لكذلك إذ مررتُ ببابِ جارٍ لي له كرسيٌّ قد ركِبه وَسَخٌ شديدٌ، فخطَر على بالي أنْ لو قلتُ في هذا، فرجَعتُ فأرسَلتُ إليه أن أرْسِلْ إليَّ بالكرسيِّ. فأرسَلَ به، فأتيتُ المختارَ فقلتُ له: إنِّي كنتُ أكتُمُك شيئًا وقد بدا لي أنْ أذكُرَه لك. قال: وما هو؟ قال: قلتُ: كرسيٌّ كان جَعْدةُ بنُ هبيرةَ يجلِسُ عليه كأنَّه يرَىٰ أنَّ فيه أثَرَةً من علمٍ. قال: سبحانَ اللهِ! فأخَّرتَ هذا إلى اليوم؟ ابعَثْ إليه. قال: فجِئْتُ به وقد غُسِل فخرَج عُودًا نُضارًا وقد تشرَّب الزيتَ، فأمَر لي باثنَيْ عشَر ألفًا، ثم نودي في الناسِ: الصلاةَ جامعةً. قال: فخطَب المختارُ الناسَ فقال: إنَّه لم يكُنْ في الأممِ الخاليةِ أمرٌ إلَّا وهو كائنٌ في هذه الأمةِ مثلُه، وإنَّه قد كان في بني إسرائيلَ التابوتُ يُنْصَرون به، وإنَّ هذا مثلُه. ثم أمَر فكُشِف عنه أثوابُه، وقامت السبئيَّةُ فرفَعوا أيديَهم وكبَّروا ثلاثًا، فقام شَبَثُ بنُ رِبْعِيٍّ فأنكَر على الناسِ وكاد أن يُكفِّرَ مَن يصنَعُ بهذا التابوتِ هذا التعظيمَ، وأشار بأنْ يُكسَرَ ويُخرَجَ من المسجدِ ويُرْمَىٰ به في الحُشِّ. فشكَرها الناسُ لشَبَثِ بنِ ربعيٍّ، فلمَّا قيل: هذا عبيدُ اللهِ بنُ زيادٍ قد أقبَلَ. وبعَث المختارُ إبراهيمَ بنَ الأشترِ، بعَث معه بالكرسيِّ يُحْمَلُ على بغلٍ أشْهَبَ قد غُشِّي بأثوابِ الحريرِ، عن يمينِه سبعةٌ وعن يسارِه سبعةٌ. فلمَّا تواجَهوا مع الشاميِّين -كما سيأتي- وغلَبوا الشاميِّين وقتَلوا ابنَ زيادٍ، ازداد تعظيمُهم لهذا الكرسيِّ حتى بلَغوا به الكفرَ، قال الطُّفيلُ بنُ جَعْدَةَ: فقلتُ: إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون. وندمتُ على ما صنَعتُ. وتكلَّم الناسُ في هذا الكرسيِّ، وكثُر عيبُ الناسِ له، فغُيِّبَ حتى لا يُرَىٰ بعدَ ذلك[1].

وذكَر ابنُ الكلبيِّ أنَّ المختارَ طلَب من آلِ جَعْدةَ بنِ هُبَيْرةَ الكرسيَّ الذي كان عليٌّ يجلِسُ عليه، فقالوا: ما عندَنا شيءٌ ممَّا يقولُ الأميرُ. فألحَّ عليهم حتى علِموا أنَّهم لو جاءوا بأيِّ كرسيٍّ كان لقَبِلَهُ منهم، فحمَلوا إليه كرسيًّا من بعضِ الدُّورِ، فقالوا: هذا هو. فخرَجتْ شِبامٌ وشاكرٌ وسائرُ رءوسِ المختارِ به وقد عصَّبوه بالحريرِ والدِّيباجِ.

وحكَى أبو مِخْنَفٍ أنَّ أولَ مَن سَدَنَ هذا الكرسيَّ موسى بنُ أبي موسى الأشعريُّ، ثم إنَّه عُتِب عليه في ذلك، فدفَعه إلى حَوْشَبٍ البُرْسُميِّ، فكان صاحبَه حتى هلَك المختارُ، قبَحه اللهُ.

(١) في إسناده الطفيل بن جعدة لم أقف له على ترجمة.

ويروىٰ أنَّ المختارَ كان يُظْهِر أنَّه لا يعلَمُ بما يعظِّمُ أصحابُه هذا الكرسيَّ.

وقد قال في هذا الكرسيِّ أعْشَىٰ هَمْدانَ:

شَهِدت عليكم أنكم سَبَئيَّةٌ ... وإنِّي بكُمْ يا شُرْطَةَ الشِّرْكِ عارِفُ
وأُقسِمُ ما كرسيُّكم بسَكينَة ... وإن كان قد لُفَّتْ عليه اللفائفُ
وأنْ ليس كالتابوت فينا وإن سعتْ ... شِبامٌ حَوالَيه ونَهدٌ وخارِفُ
وإنِّي امرُؤٌ أحببتُ آلَ محمد ... وتابَعتُ وحيًا ضُمِّنَتْهُ المصاحفُ
وتابَعْتُ عبدَ الله لَمَّا تتابَعَتْ ... عليه قُرَيشٌ شُمطُها والغطارِفُ

وقال المتوكِّلُ اللَّيثيُّ:

أَبْلِغْ أبا إسحاقَ إن جئتَه ... إنِّي بكرسيِّكمُ كافرُ
تَنزُوا شِبامٌ حولَ أعواده ... وتحملُ الوحْيَ لهُ شاكرُ
مُخَمَرةً أعينُهم حولَه ... كأنَّهُنَّ الحِمَّصُ الحادرُ

قلتُ: وهذا وأمثالُه ممَّا يدلُّ علىٰ قلةِ عقلِ المختارِ وأتباعِه، وضعفِه وقلةِ علمِه وكثرةِ جهلِه، ورداءةِ فهمِه، وترويجِه الباطلَ علىٰ أتباعِه، وتشبيهِه الباطلَ بالحقِّ ليُضِلَّ به الطَّغامَ، ويجْمَعَ عليه جُهّالَ العوامِّ.

قال الواقديُّ: وفي هذه السنةِ وقَع في مصرَ طاعونٌ هلَك فيه خلقٌ كثيرٌ مِن أهلِها. وفيها ضرَب الدنانيرَ عبدُ العزيزِ بنُ مَرْوانَ بمصرَ، وهو أولُ مَن ضرَبها بها.

قال صاحبُ مرآة الزمان: وفيها ابتدأ عبدُ الملكِ بنُ مَرْوانَ ببناءِ القبةِ علىٰ صخرةِ بيتِ المقدسِ، وعمارةِ الجامعِ الأقصَىٰ، وكمَلتْ عمارتُه في سنة ثلاثٍ وسبعين، وكان السبب في ذلك أنَّ عبدَ الله ابنَ الزبيرِ كان قد استولَىٰ علىٰ مكةَ، وكان يخطُبُ في أيامِ منًىٰ وعرفةَ، ومُقامَ الناسِ بمكةَ، وينالُ من عبدِ الملكِ ويَذْكُرُ مساوئَ بني مَرْوانَ، ويقولُ: إنَّ النبيَّ ﷺ لعَن الحَكَمَ وما نسَل، وأنه طريدُ رسولِ الله ﷺ ولعينُه. وكان يدعو إلىٰ نفسه، وكان فصيحًا، فمال معظمُ أهلِ الشامِ إليه، وبلَغ ذلك عبدَ الملكِ فمنَع الناسَ مِن الحجِّ فضجّوا، فبنَىٰ لهم القبةَ علىٰ الصخرةِ والجامعَ الأقصَىٰ؛ ليشغَلَهم بذلك عن الحجِّ ويستعطفَ قلوبَهم، وكانوا يقفون عندَ الصخرةِ ويطُوفون حولَها كما يطُوفون حولَ الكعبة، ويَنْحَرُون يومَ العيدِ ويحلقُون رءُوسَهم. ففَتَح بذلك علىٰ نفسه بابَ تشنيعِ ابنِ الزبيرِ عليه، فكان يُشَنِّعُ عليه بمكةَ ويقولُ: ضاهَىٰ بها فعَلَ الأكاسرةِ في إيوانِ كسرَىٰ، والخضراءِ كما فعَل معاويةُ، ونقَل الطوافَ مِن بيتِ الله إلىٰ قبلةِ بني إسرائيلَ. ونحوَ ذلك.

ولَمّا أراد عبدُ الملكِ بناءَها سار مِن دمشقَ إلىٰ بيتِ المقدسِ ومعه الأموالُ والعمالُ، ووكَّل بالعملِ

رجاءَ بنَ حَيْوةَ، ويزيدَ بنَ سلام مولاه، وجمَع الصُّناعَ والمهندسين فأمرَهم فصوَّرا له القبةَ في صحنِ المسجد فأعجبَه، وبنى للمال بيتًا شَرقيَّ القبة، وشحَنه بالمال، وأمَر رجاءَ بنَ حيوةَ، ويزيدَ أنْ يُفرِغا المالَ إفراغًا ولا يتوقَّفا فيه، فبثُّوا النفقاتِ وأكثروا، فبنَوُا القبةَ التي هي اليومَ قائمةٌ، وبنَوْا من ناحيةِ القبلةِ سبعَ قِبابٍ، والقُبَّةُ التي باقيةٌ اليومَ على المحرابِ هي أوسطُها، ولما تمَّ بناءُ القبَّة عمِل لها جلالين؛ أحدَهما من لُبُودٍ أحمرَ للشتاء، والآخرَ من أُدُمٍ للصيف، وحفَّ الصخرةَ بدرابزين من الساجِ المُطعَّمِ باليَشْمِ، وخلفَ الدرابزين ستورٌ من الديباجِ مرخاةٌ بينَ العُمُد، وكانت السدنةُ كلَّ خميسٍ واثنين يذوِّبون المسكَ والعنبرَ والماوردَ والزعفران، ويعملون منه غاليةً ويُخمِّرونَها من الليل، ثم يدخلُ الخدمُ الحمَّامَ من الليلِ فيغتسلونَ ويَتطيَّبونَ، ويلبَسُون ثيابَ الوشْي، ويشدُّون أوساطَهم بالمناطقِ المُحلاَّةِ بالذَّهب، ويُخلِّقونَ الصَّخرةَ ثم يضَعُون البَخُورَ في مجامرِ الذَّهبِ والفضَّة، وفيها العودُ القماريُّ المغليُّ بالمسك ويرخي السَّدنةُ الستورَ فتخرُجُ تلك الرائحةُ فتملأُ المدينةَ كلَّها، ثم ينادي منادٍ: ألاَ إنَّ الصَّخرةَ قد فُتحتْ فمن أراد الزيارةَ فليأت، فيقبِلُ الناسُ مبادرين، فيصلُّون ويخرُجون، فمَن وُجدتْ منه رائحةُ البَخورِ قال الناسُ: هذا كان اليومَ في الصخرة.

وأبوابُ الصَّخرةِ أربعةٌ؛ على كلِّ بابٍ عشَرةٌ من الحَجَبَة، البابُ الشَّماليُّ يُسمَّى بابَ الجنَّة، والشَّرقيُّ بابَ إسرائيلَ، والغربيُّ بابَ جبريلَ، والقبليُّ بابَ الأقصَى. وكانوا يشعلونها بدُهْنِ البانِ، ولا يدخُلُها أحدٌ غيرَ أيام الزيارةِ سوى الخدَم، وكان للحرم عشرون بابًا، وكان فيه ألفُ عمودٍ من الرُّخامِ وفي السُّقُوفِ ستون ألفَ خشبةٍ من السَّاجِ المنقوشِ، ومن القناديلِ خمسةُ آلاف قنديلٍ، وكان فيه أربعُمائة سلسلةٍ، كلُّ سلسلةٍ ألفُ رطلٍ شاميٍّ، طولُ السلاسلِ ثلاثون ألفَ ذراعٍ، وكان يُوقَدُ في الصَّخرةِ كلَّ ليلةٍ مائةُ شمعةٍ، وكذا في الأقصى، وكان يُوقَدُ في القناديلِ كلَّ ليلةٍ من الزَّيتِ المفتولِ قنطارٌ، وكان في الحرم خمسون قُبَّةً، ومن ألواحِ الرَّصاصِ سبعون ألفَ لوحٍ، وكان في الحرمِ ثلاثُمائة خادم ابتاعوا من بيت المال من الخُمْسِ، كُلَّما مات واحدٌ قام ولدُه بعدَه مقامَه، ويقبِضُون أرزاقَهم من بيتِ المال شهرًا بشهرٍ، وكان في الحرم مائة صِهْريجٍ، وكانت صفائحُ القُبَّة، وسقفُ الأقصى من صفائحِ الذَّهب عوضَ الرَّصاصِ، وكذلك أبوابُ القُبَّة صفائحُها، وذلك أنه لما كمَل البناءُ فَضَلَ من المال ثلاثُمائة ألفِ دينارٍ، وقيل: ستُّمائة ألفٍ. وكتَب رجاءُ بنُ حَيْوةَ ويزيدُ إلى عبدِ الملك يُعرِّفانه بذلك، فكتَب إليهما: قد جعلتُه لكُما عوضًا عن تعبكما. فكتبَا إليه: إنَّما قُمْنا بهذا البيت لله تعالى، فلا نَقْبَلُ على ذلك عرَضَ الدُّنيا ولوَدِدْنا أنْ نزيدَ فيه من حَلْيِ نسائنا. فكتَب إليهم: إذا أبيتُم ذلك فأفرِغاه على القبَّة والأبواب. فماكان أحدٌ يستطيعُ أنْ يتأمَّلَ القبةَ مما عليها من الذَّهب.

فلمَّا كان في خلافة أبي جعفرٍ المنصور قدم القدسَ سنةَ أربعين ومائة فوجَد الأقصى وقبابُه تشكو إليه الخرابَ، فأمَر بقَلْعِ الصفائحِ التي على القُبَّة والأبواب، وأنْ يُعمَّرَ بها ما تشعَّثَ في الحرم. ففعلوا ذلك. وكان المسجدُ طويلاً، فأمَر أنْ يؤخَذَ من طوله ويُزادَ في عرضه، ولما كمَل البناءُ كتبوا على القُبَّة

ممَّا يلي البابَ القبليَّ من جهة الأقصى بالنصِّ بعد البسملة: بَنَى هذه القُبَّةَ عبدُ الله عبدُ الملك أمير المؤمنين سنةَ اثْنَتيْن وسبعينَ من الهجرة النبوية. وكان طولُ المسجد من القبلة إلى الشمال سبعمائة وخمسةً وستين ذراعًا، وعرضُه أربعمائة وستينَ ذراعًا. وكان فتحُ القدس سنة ستَّ عشْرة والله سبحانه وتعالى أعلمُ.

ثم دخلت سنة سبع وستين

ففيها كان مقتلُ عبيد الله بن زياد على يدَيْ إبراهيمَ بن الأشتر النَّخَعيِّ؛ وذلك أنَّ إبراهيمَ بنَ الأشتر خرجَ من الكوفة يومَ السبت لثمانٍ بقين من ذي الحجَّة في السنة الماضية، ثم استهلَّتْ هذه السنةُ وهو سائرٌ لقصد ابن زياد في أرض الموصل، فكان اجتماعُهما بمكانٍ يقالُ له: الخازرُ. بينَه وبينَ الموصل خمسةُ فراسخَ، فبات ابنُ الأشتر تلك الليلةَ ساهرًا لا يغتمضُ بنوم، فلمَّا كان قريبَ الصبح نهَض فعَبَّأ جيشَه وكتَّب كتائبَه، وصلَّى بأصحابه الفجرَ في أول وقت، ثم ركب فناهَض جيشَ ابن زياد، وزحَف بجيشه رويدًا وهو ماشٍ في الرَّجَّالة حتى أشرفَ من فوق تلٍّ على جيش ابن زياد، فإذا هم لم يتحرَّكْ منهم أحدٌ، فلمَّا رأَوْهم نهَضوا إلى خيلهم وسلاحهم مَدهوشين، فركب ابنُ الأشتر فرسَه وجعَل يقفُ على رايات القبائل فيحرِّضُهم على قتال ابن زياد ويقول: هذا قاتلُ ابن بنت رسـول الله ﷺ، قد جاءكم اللهُ به وأمكنكم اللهُ منه اليوم، فعليكم به؛ فإنه قد فعَل في ابن بنت رسول الله ﷺ ما لم يفعَلْه فرعونُ في بني إسرائيلَ! هذا ابنُ زياد قاتلُ الحسين الذي حالَ بينَه وبينَ الفُرات أن يشرَبَ منه هو وأولادُه ونساؤُه، ومنَعه أن ينصرفَ إلى بلده، أو يأتيَ يزيدَ بنَ معاويةَ حتى قتَلَه! ويحكم، اشفُوا صدوركم منه، وارْوُوا رماحكم وسيوفكم من دمه، هذا الذي فعَل في آل نبيِّكم ما فعَل، قد جاءكم اللهُ به. ثم أكثرَ من هذا القول وأمثاله، ثم نزَل تحتَ رايته.

وأقبَلَ ابنُ زياد في جيش كثيف قد جعَل على ميمنته حُصَينَ بنَ نُمَير، وعلى الميسرة عُمَيرَ بنَ الحُباب السُّلَميَّ - وكان قد اجتَمع بابن الأشتر ووعَده أنه معه وأنه سينهزمُ بالناس غدًا - وعلى خيل ابن زياد شُرَحْبيلُ بنُ ذي الكَلاع، وابنُ زياد في الرَّجَّالة يمشي معهم، فما كان إلاَّ أن تواقَفَ الفريقان حتى حمَل حصينُ بنُ نمير بالميمنة على ميسرة أهل الكوفة فهزَمها، وقُتل أميرُها عليُّ بنُ مالك الجُشَميُّ، فأخَذ رايتَه من بعده ولدُه قُرَّةُ بنُ عليٍّ فقُتل أيضًا، واستَمرَّت الميسرةُ ذاهبةً، فجعلَ ابنُ الأشتر يُناديهم: إليَّ يا شرطةَ الله، أنا ابنُ الأشتر. وقد كشَف عن رأسه ليعرفوه، فالْتاثُوا به وانعطَفوا عليه، واجتمَعوا إليه، ثم حمَلَتْ ميمنةُ أهل الكوفة على ميسرة أهل الشام. وقيل: بل انهزَمتْ ميسرةُ أهل الشام وانحازَتْ إلى ابن الأشتر. ثم حمَل ابنُ الأشتر بمَن معه وجعَل يقولُ لصاحب رايته: ادخُلْ برايتك فيهم. وقاتَلَ ابنُ الأشتر يومَئذ قتالاً عظيمًا، وكان لا يضربُ بسيفه رجلاً إلا صرَعه، وكثُرت القتلى بينَهم، وقيل: إن ميسرةَ أهل الشام ثبَتوا وقاتَلوا قتالاً شديدًا بالرماح ثم بالسيوف. ثم أردَفَ

الحَمْلَةَ ابنُ الأشترِ، فانهزَم جيشُ الشامِ بينَ يدَيه، فجعَل يقتُلُهم كما تُقتَلُ الحُمْلانُ، وأتبَعهم بنفسه ومَن معه من الشجعانِ، وثبَت عبيدُ اللهِ بنُ زيادٍ في موقفِه حتى اجتازَ به ابنُ الأشترِ فقتَله وهو لا يعرِفُه، لكن قال لأصحابِه: التمِسُوا في القتلَى رجلاً ضربْتُه بالسيفِ فنفَحني منه ريحُ المسكِ، شرَّقَتْ يداه وغرَّبتْ رجلاه، وهو واقفٌ عندَ رايةٍ منفردةٍ على شاطئِ نهرِ خازرَ. فالتَمسُوه فإذا هو عبيدُ اللهِ ابنُ زيادٍ، وإذا هو قد ضربَه ابنُ الأشترِ فقطَعه نصفَين، فاحتَزُّوا رأسَه وبعثُوه إلى المختارِ إلى الكوفةِ مع البشارةِ بالنصرِ والظفرِ بأهلِ الشامِ. وقُتِل مِن رءوسِ أهلِ الشامِ أيضًا حصينُ بنُ نميرٍ وشرحبيلُ بنُ ذي الكَلاعِ، وأتبَعَ الكوفيون أهلَ الشامِ فقتَلوا منهم مقتلةً عظيمةً، وغرِق منهم أكثرُ ممَّن قُتِل، واحْتازُوا ما كان في معسكرِهم من الأموالِ والخيولِ.

وقد كان المختارُ بشَّر أصحابَه بالنصرِ قبلَ أن يجيءَ الخبرُ، فما ندري أكان ذلك تفاؤلاً منه أو اتفاقًا وقَع له - أو كهانةً - وأمَّا على ما كان يزعُمُ أصحابُه من أنه أُوحِيَ إليه بذلك فلا، فإنَّ مَن اعْتَقَد ذلك كفَر، ومَن أقَرَّهم على ذلك كفَر - لكن قال: إنَّ الوقعةَ كانت بنَصيبينَ. فأخطَأ مكانَها، فإنَّها إنَّما كانت بأرضِ الموْصِلِ، وهذا ممَّا انتقدَه عامرٌ الشعبيُّ على أصحابِ المختارِ حينَ جاءَه الخبرُ بالفتحِ، وقد خرَج المختارُ مِن الكوفةِ ليتلقَّى البشارةَ، فأتَى المدائنَ فصعِد منبرَها، فبينما هو يخطُبُ إذ جاءَتْه البِشارةُ وهو هنالك. قال الشعبيُّ: فقال لي بعضُ أصحابِه: أمَا سمِعتَه بالأمسِ يخبِرُنا بهذا؟ فقلتُ له: إنَّه زعَم أنَّ الوقعةَ كانتْ بنصيبينَ مِن أرضِ الجزيرةِ، وإنَّما قال البشيرُ: إنَّهم كانوا بالخازرِ مِن أرضِ الموصلِ. فقال: واللهِ لا تؤمِنُ يا شعبيُّ حتى ترَى العذابَ الأليمَ.

ثم رجَع المختارُ إلى الكوفةِ، وفي غيبتِه هذه تمكَّن جماعةٌ ممَّن كان قاتَله يومَ جَبَّانةِ السَّبيعِ والكُناسةِ مِن الخروجِ إلى البصرةِ؛ ليجتَمِعوا بمصعبِ بنِ الزبيرِ، وكان منهم شَبَثُ بنُ رِبْعِيٍّ. وأمَّا ابنُ الأشترِ فإنَّه بعَث بالبشارةِ ورأسِ عبيدِ اللهِ إلى المختارِ، واستقَلَّ هو في تلك البلادِ فبعَث أخاه لأمِّه عبدَ الرحمنِ بنَ عبدِ اللهِ على نيابةِ نصيبينَ، وبعَث عمالاً إلى الموصلِ، وأخَذ سِنْجارَ ودارا وما والاها مِن الجزيرةِ.

وقال أبو أحمدَ الحاكمُ: كان مقتلُ عبيدِ اللهِ بنِ زيادٍ يومَ عاشوراءَ سنةَ ستٍّ وستين. والصوابُ سنةَ سبعٍ وستين.

وقد قال سراقةُ بنُ مرداسٍ البارقيُّ يمدَحُ ابنَ الأشترِ على قتلِه ابنَ زيادٍ:

أتاكمْ غُلامٌ مِنْ عَرانينِ مَذْحِجٍ ... جَرِيءٌ على الأعداءِ غيرُ نَكولِ
فَيا ابنَ زيادٍ بُؤْ بأعظمِ مالكٍ ... وذُقْ حَدَّ ماضي الشَّفْرتَيْن صَقيلِ
ضَرَبْناك بالعَضْبِ الحُسامِ بحَدِّهِ ... إذا ما أبَانا قاتلاً بقَتيلِ
جَزَى اللهُ خيرًا شُرْطَةَ اللهِ إنَّهم ... شَفَوْا مِنْ عُبَيْدِ اللهِ أمْسِ غليلي

وهذه ترجمة ابن زياد

هو عبيدُ الله بنُ زيادِ بنِ عبيدٍ، المعروفُ بابنِ زيادٍ بنِ أبي سفيانَ، ويُقالُ له: زيادُ بنُ أبيه، وابنُ سُمَيَّةَ. أميرُ العراقِ بعدَ أبيه زيادٍ. وقال ابنُ معينٍ: ويُقالُ له: عبيدُ الله بنُ مَرْجانةَ - وهي أُمُّه -. وقال غيرُه: وكانت مجوسيةً. وكنيتُه أبو حفصٍ، وقد سكَن دمشقَ بعدَ يزيدَ بنِ معاويةَ، وكانت له دارٌ عندَ الديماسِ تُعْرَفُ بعدَه بدارِ ابنِ عجلانَ، وكان مولدُه سنةَ تسعٍ وثلاثين فيما حكاه ابنُ عساكرَ عن أبي العباسِ أحمدَ بنِ يونسَ الضبيِّ.

قال ابنُ عساكرَ: وروَىٰ الحديثَ عن معاويةَ وسعدِ بنِ أبي وقاصٍ ومَعْقِلِ بنِ يسارٍ. وحدَّث عنه الحسنُ البصريُّ وأبو المُليحِ ابنُ أسامةَ. وقال أبو نعيمٍ الفضلُ بنُ دُكَينٍ: ذكَروا أنَّ عبيدَ الله بنَ زيادٍ حينَ قتَل الحسينَ كان عمرُه ثمانيًا وعشرين سنة. قلتُ: فعلىٰ هذا يكونُ مولدُه سنةَ ثلاثٍ وثلاثين. واللهُ أعلمُ.

وقد روَىٰ ابنُ عساكرَ أنَّ معاويةَ كتَب إلىٰ زيادٍ أنْ أوفِدْ إليَّ ابنَك. فلمَّا قدم عليه لم يسأَله معاويةُ عن شيءٍ إلاَّ نفَذ منه، حتىٰ سأَله عن الشِّعْرِ فلم يعرفْ منه شيئًا، فقال: ما منَعك من تعلُّمِ الشعرِ؟ فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنِّي كرِهْتُ أن أجْمَعَ في صدْرِي مع كلامِ اللهِ كلامَ الشيطانِ. فقال: اغرُبْ، فواللهِ ما منعَني مِن الفرارِ يومَ صِفينَ إلاَّ قولُ ابنِ الإطْنابة حيثُ يقولُ:

أبتْ لي عِفَّتي وأَبَى بَلائي ... وأخْذِي الحمدَ بالثَّمنِ الرَّبيحِ

وإعطائي على الإعدامِ مالي ... وإقدامي على البطلِ المُشيحِ

وقولي كلَّما جشَأتْ وجاشَتْ ... مكانَك تُحمَدِي أو تَستريحي

لأدفَعَ عنْ مآثِرَ صالحاتٍ ... وأحْمِي بَعْدُ عن أنفٍ صَحيحِ

ثم كتَب إلىٰ أبيه: أنْ رَوِّه مِن الشعرِ، فرَوَّاه حتىٰ كان لا يَسْقُطُ عنه منه شيءٌ.

ومِن شعرِه بعدَ ذلك:

سَيَعْلمُ مَرْوانُ ابنُ نِسوةَ أنَّني ... إذا التَقتِ الخيلانِ أطعَنُها شَزْرا

وأنِّي إذا حَلَّ الضيوفُ ولم أجِدْ ... سوى فَرَسِي أوسَعْتُه لهم نَحْرا

وقد سأَل معاويةُ يومًا أهلَ البصرةِ عن ابنِ زيادٍ فقالوا: إنَّه لظريفٌ ولكنَّه يَلْحَنُ. فقال: أوَليسَ اللحنُ أظرفَ له؟ قال ابنُ قتيبةَ وغيرُه: إنَّما أرادوا أنَّه يَلْحَنُ في كلامِه، أي يُلْغِزُ وهو ألْحَنُ بحجَّتِه كما قال الشاعرُ:

منطقٌ رائعٌ وتَلحَنُ أحيا ... نًا وخيرُ الحديثِ ما كانَ لَحْنَا

وقيلَ: إنَّهم إنَّما أرادوا أنه يلحَنُ في قولِه لحنًا وهو ضدُّ الإعرابِ. وقيل: أرادوا اللحنَ الذي هو

ضدُّ الصواب. وهو الأشبهُ واللهُ أعلمُ. فاستحسَنَ معاويةُ منه السهولةَ في الكلامِ وأنَّه لم يكنْ ممَّن يَتَغَنَّى في كلامه ويفخِّمُه، ويتشدَّقُ فيه، وقيل: أرادوا أنَّه كانت فيه لُكْنةٌ من كلامِ العجمِ؛ فإنَّ أمَّه مَرْجانةَ كانت سُرِّيَّةً، وكانت بنتَ بعضِ ملوكِ الأعاجمِ؛ يَزْدَجِردَ أو غيره. قالوا: وكان في كلامه شيءٌ من كلامِ العجمِ؛ قال يومًا لبعضِ الخوارجِ: أَهَروريٌّ أنت؟ يعني: أحَروريٌّ أنت؟ وقال يومًا: مَن كاتَلَنا كاتَلْناه. أي: مَن قاتَلَنا قاتَلْناه. وقولُ معاويةَ: ذاك أظرفُ له. أي أجودُ له حيثُ نزَعَ إلى أخواله، وقد كانوا يوصَفون بحسنِ السياسةِ وجودةِ الرعايةِ ومحاسنِ الشيمِ.

ثمَّ لمَّا ماتَ زيادٌ سنةَ ثلاثٍ وخمسين ولَّى معاويةُ على البصرةِ سَمُرَةَ بنَ جُنْدُبٍ سنةً ونصفًا، ثمَّ عزَله وولَّى عليها عبدَ اللهِ بنَ عمرِو بنِ غَيْلانَ بنِ سلمةَ ستةَ أشهرٍ، ثم عزَله وولَّى عليها ابنَ زيادٍ سنةَ خمسٍ وخمسين. فلمَّا تولَّى يزيدُ الخلافةَ جَمَع له بينَ البصرةِ والكوفةِ، فبنَى في إمارةِ يزيدَ البيضاءَ، وجعَل بابَ القصرِ الأبيضِ الذي كان لكسرَى عليها، وبنَى الحمراءَ وهي على سكةِ المِرْبَدِ، فكان يشتُو في الحمراءِ ويصيفُ في البيضاءِ.

قالوا: وجاءَ رجلٌ إلى ابنِ زيادٍ فقال: أصلَحَ اللهُ الأميرَ، إنَّ امرأتي ماتَتْ، وإنِّي أُريدُ أن أتزوَّجَ أمَّها. فقال له: كم عطاؤُك في الديوانِ؟ فقال: سبعُمائةٍ. فقال: يا غلامُ حُطَّه من عطائه أربعَمائةٍ. ثم قال له: يكفيك من فقهِك هذا ثلاثُمائةٍ!.

قالوا: وتخاصَمَتْ أمُّ الفُجَيْعِ وزوجُها إليه وقد أحبَّتِ المرأةُ أن تفارِقَ زوجَها، فقال أبو الفُجَيْعِ: أصلَحَ اللهُ الأميرَ، إنَّ خيرَ شطرَيِ الرجلِ آخرُه، وإنَّ شرَّ شطرَيِ المرأةِ آخرُها. فقال له: وكيف ذاك؟ فقال: إنَّ الرجلَ إذا أسنَّ اشتدَّ عقلُه، واستحكَمَ رأيُه، وذهَب جهلُه، وإنَّ المرأةَ إذا أسنَّتْ ساءَ خلقُها، وعقِم رحمُها، واحتدَّ لسانُها. فقال: صدقْتَ، خُذْ بيدِها وانصرِفْ.

وقال يحيى بنُ معين: أمَرَ ابنُ زيادٍ لصفوانَ بنِ مُحْرِزٍ بألفَيْ درهمٍ فسُرِقَتْ، فقال: عسَى أن يكونَ خيرًا. فقال أهلُه: كيف يكونُ هذا خيرًا؟ فبلَغ ذلك ابنَ زيادٍ، فأمَر له بألفين آخَرين، ثم وجَد الألفين فصارَتْ أربعةَ آلافٍ فكان خيرًا.

وقيل لهندَ بنتِ أسماءَ بنِ خارجةَ - وكانتْ قد تزوَّجَتْ بعدَّةِ أزواجٍ من نوّابِ العراقِ: مَن أعزُّ أزواجِك عندَك وأكرمُهم عليك؟ فقالَتْ: ما أُكرِمَ النساءُ إكرامَ بشرِ بنِ مروانَ، ولا هابَ النساءُ هيبةَ الحجاجِ بنِ يوسفَ، ووَدِدْتُ أنَّ القيامةَ قد قامَتْ، فأرَى عبيدَ اللهِ بنَ زيادٍ وأشتَفِي من حديثِه والنظرِ إليه. وكان أبا عُذْرِها. وقد تزوَّجَتْ بالآخَرَين أيضًا.

وقال عثمانُ بنُ أبي شيبةَ، عن جريرٍ، عن مغيرةَ، عن إبراهيمَ قال: أولُ مَن جهَر بالمُعَوِّذتين في المكتوبةِ ابنُ زيادٍ. قلتُ: يعني - واللهُ أعلمُ - في الكوفةِ، فإنَّ ابنَ مسعودٍ كان لا يكتبُهما في مصحفِه،

وكان فقهاءُ الكوفة عن كبراءِ أصحابِ ابنِ مسعودٍ يأخُذون[١] . واللهُ أعلمُ.

وقد كان في ابنِ زيادٍ جراءَةٌ وإقدامٌ ومبادرةٌ إلىٰ ما لا يجوزُ، وما لا حاجةَ له به. ثبَت في الحديث الذي رَواه أبو يعلىٰ ومسلمٌ، كلاهما عن شَيْبانَ بنِ فَرُّوخَ، عن جريرٍ، عن الحسنِ، أنَّ عائذَ بنَ عمرو دخَل علىٰ عبيدِ اللهِ بنِ زيادٍ فقال: أيْ بُنَيَّ، إنِّي سمعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «إنَّ شرَّ الرِّعاءِ الحُطَمَةُ، فإيَّاكَ أنْ تكونَ منهم». فقالَ له: اجْلِسْ، فإنَّما أنت من نُخالَةِ أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ. فقال وهَلْ كانَتْ فيهم نُخالةٌ؟ إنَّما كانت النُّخالةُ بعدَهم وفي غيرِهم[٢] . وقد روَىٰ غيرُ واحدٍ، عن الحسنِ، أنَّ عبيدَ اللهِ بنَ زيادٍ دخَل علىٰ مَعْقِلِ بنِ يَسارٍ يعودُه فقال: إنِّي محدِّثك بحديثٍ سمِعْتُه من رسولِ اللهِ ﷺ؛ أنَّه قال: «ما من رجلٍ استرعاه اللهُ رعيَّةً، يموتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌّ لهم، إلاَّ حرَّمَ اللهُ عليه الجنةَ»[٣] . فذكَر غيرُ واحدٍ أنَّه لمَّا ماتَ مَعْقِلٌ صلَّىٰ عليه عبيدُ اللهِ بنُ زيادٍ ولم يشهَدْ دفنَه، واعتذَرَ بما ليس يُجْدِي شيئًا وركِب إلىٰ قصرِه.

ومن جراءَته إقدامُه علىٰ الأمرِ بإحضارِ الحسينِ إلىٰ بين يَدَيْه وإنْ قُتِل دونَ ذلك. وكان الواجبُ عليه أن يُجيبَه إلىٰ سؤاله الذي سألَه فيما طلَب من ذَهابه إلىٰ يزيدَ، أو إلىٰ مكةَ، أو إلىٰ أحدِ الثغورِ، فلمَّا أشارَ عليه شَمِرُ بنُ ذي الجوشنِ بأنَّ الحزمَ أنْ يُحْضَرَ عندك وأنت تسيِّرُه بعدَ ذلك إلىٰ حيثُ شئتَ من هذه الخصالِ أو غيرِها، فوافقَ شمرًا علىٰ ما أشارَ به من إحضارِه بينَ يدَيْه، فأبَىٰ الحسينُ أن يحضُرَ عندَه ليقضيَ فيه بما يراه ابنُ مَرْجانَةَ، وقد تعِس وخابَ وخسِر، فليسَ لابنِ بنتِ رسولِ اللهِ ﷺ أن يحضُرَ بينَ يدَي ابنِ مَرْجانةَ الخبيثِ.

وقد قالَ محمدُ بنُ سعد: أنا الفضلُ بنُ دُكَيْنٍ ومالكُ بنُ إسماعيلَ قالا: حدَّثنا عبدُ السلامِ بنُ حَرْبٍ، عن عبدِ الملكِ بنِ كُرْدُوسٍ، عن حاجبِ عبيدِ اللهِ بنِ زيادٍ قال: دخَلْتُ معه القصرَ حينَ قُتِل الحسينُ، قال: فاضْطَرَم في وجْهِه نارًا - أو كلمةً نحوَها - فقال بكُمِّه هكذا علىٰ وجهِه، وقال: لا تحدِّثَنَّ بهذا أحدًا[٤] .

وقال شريكٌ، عن مغيرةَ قال: قالتْ مَرْجانةُ لابنِها عبيدِ اللهِ: يا خبيثُ، قتَلْتَ ابنَ بنتِ رسولِ اللهِ ﷺ، لا ترَىٰ الجنةَ أبدًا[٥] .

وقد قدَّمنا أنَّ يزيدَ بنَ معاويةَ لمَّا مات بايعَ الناسُ في المِصرَيْنِ لعبيدِ اللهِ حتىٰ يجتمعَ الناسُ علىٰ

---

(١) فيما برز من إسناده ضعف لعنعنة المغيرة وهو مدلس.

(٢) أخرجه مسلم (١٣٨٠) من حديث عائذ بن عمرو وكان من أصحاب النبي ﷺ.

(٣) صحيح أخرجه البخاري (٧١٥٠).

(٤) في إسناده عبد الملك بن كردوس سكت عليه ابن أبي حاتم في «الجرح والتعديل» وفيه رجلٌ مبهم.

(٥) في إسناده ضعف من قبل شريك.

إمام، ثم خرجوا عليه فأخرجوا من بين أظهرهم، فسار إلى الشام فاجتمع بمروان، وحسَّن له أنْ يتولَّى الخلافةَ ويدعو إلى نفسه، ففعل ذلك، فكان من أمره ما تقدَّم مع الضحاك بن قيس. ثم سيَّره مروانُ في جيش إلى العراق، فالتقى بعين الوردة مع سليمانَ بن صُرَدَ ومَن كان معه من الجيش الذين يُسمَّون جيشَ التوَّابين فكسرَهم، واستمرَّ قاصدًا الكوفة في ذلك الجيش، فتعوَّقَ في الطريق بسبب مَن كان يمانعُه في أرض الجزيرة من الأعداء ممَّن بايعَ لابن الزبير. ثم اتَّفق خروجُ ابن الأشتر إليه في سبعة آلاف، وكان مع ابن زياد أضعاف ذلك، ولكن ظَفَرَ به ابنُ الأشتَر، فقتله شرَّ قتلة، على شاطئ نهر الخازرَ قريبًا من الموصل بخمس مراحلَ.

قال أبو أحمدَ الحاكمُ: وكان ذلك يومَ عاشوراءَ. قلتُ: وهو اليومُ الذي قُتل فيه الحسينُ.

ثم بعَث ابنُ الأشتر برأسه إلى المختار ومعه رأس حصين بن نمير وشرحبيل بن ذي الكَلاع وجماعة من رؤساء أصحابهم، فسُرَّ بذلك المختارُ.

وقال يعقوبُ بنُ سفيانَ: حدَّثني يوسفُ بنُ موسى، حدَّثنا جريرٌ، عن يزيدَ بن أبي زياد قال: لمَّا جيء برأس ابن مَرجانةَ وأصحابه، طُرِحَتْ بينَ يدَي المختار، فجاءَتْ حيَّةٌ دقيقةٌ تخلَّلت الرؤوسَ حتى دخلَتْ في فم ابن مَرجانةَ وخرجَتْ من منْخَره، ودَخلَتْ في منخره وخرجَتْ من فمه، وجعلَتْ تدخُلُ وتخرُجُ من رأسه من بين الرءوس. ورَواه الترمذيُّ من وجه آخرَ بلفظ آخرَ؛ فقال: حدَّثنا واصلُ بنُ عبد الأعلى، حدَّثنا أبو معاويةَ عن الأعمش، عن عُمارةَ بن عمير، قال: لمَّا جيء برأس عبيد الله وأصحابه نُضِّدَتْ في المسجد في الرَّحَبَة، فانْتَهَيْتُ إليهم وهم يقولون: قد جاءَتْ، قد جاءَتْ. فإذا حيَّةٌ قد جاءَتْ تَخَلَّلُ الرءوسَ حتى دخلَتْ في منْخَرَيْ عبيد الله بن زياد، فمكثَتْ هُنَيْهَةً ثم خرجَتْ فذهبَتْ حتى تغيَّبَتْ، ثم قالوا: قد جاءَتْ، قد جاءَتْ. ففعلَتْ ذلك مرَّتين أو ثلاثًا. قال الترمذيُّ: وهذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ[1].

وقال أبو سليمانَ بنُ زَبْر: وفي سنة ستٍّ وستين قالوا: فيها قُتل عبيدُ الله بنُ زياد والحُصينُ بنُ نُمير، وَلِيَ قتْلَهما إبراهيمُ بنُ الأشتر، وبعَث برءوسهما إلى المختار فبعَث بهما إلى ابن الزبير، فنُصبَتْ بمكة والمدينة. وهكذا حكَى ابنُ عساكرَ، عن أبي أحمدَ الحاكم وغيره، أنَّ ذلك كان في سنة ستٍّ وستين - زاد أبو أحمدَ: في يوم عاشوراءَ - وسكَت ابنُ عساكرَ عن ذلك، والمشهورُ أنَّ ذلك كان في سنة سبع وستين، كما ذكَره ابنُ جرير وغيرُه. ولكنَّ بعْثَ الرءُوس إلى ابن الزبير في هذه السنة متعذِّرٌ؛ لأن العداوةَ كانت قد قَوِيَتْ وتحقَّقَت بينَ المختار وابن الزبير في هذه السنة كما ذكَرنا، وعمَّا قليل أَمَر ابنُ الزبير أخاه مصعبًا أن يسيرَ من البصرة إلى الكوفة لحصار المختار وقتاله. واللهُ أعلمُ.

---

(١) صحيح إلى عمارة بن عمير وهو ثقة ثبت. أخرجه الترمذي (٣٧٨٠) بهذا الإسناد وقد تقدم.

مقتلُ المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب على يدَيْ مصعب بن الزبير وأهل البصرة

كان عبدُ الله بنُ الزبير قد عزَل في هذه السنة عن نيابة البصرة الحارثَ بنَ عبد الله بن أبي ربيعةَ المخزوميَّ المعروفَ بالقُبَاع، وولاّها لأخيه مصعب بن الزبير؛ ليكونَ رِدْءًا وقِرْنًا وكُفُؤًا للمختار، فلمَّا قدم مصعبٌ البصرةَ دخلَها مُتَلَثِّمًا فيمَّمَ المنبرَ، فلمَّا صعده قال الناسُ: أميرٌ أميرٌ. فلمَّا كشفَ اللِّثامَ عرَفَه الناسُ فأقْبَلوا إليه، وجاء القُبَاعُ فجلَس تحتَه بدرجة، فلمَّا اجتمَع الناسُ قامَ مصعبٌ خطيبًا، فاستفْتَح «القصص» حتى بلَغ ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٤]. وأشارَ بيده نحوَ الشام أو الكوفة، ثم قال: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص: ٥]. وأشارَ إلى الحجاز، وقال: يا أهلَ البصرة، إنَّكم تُلَقِّبون أُمراءَكم، وقد سمَّيتُ نفسي الجزَّارَ. فاجتمَع عليه الناسُ وفرِحوا به. ولمَّا انهزَمَ أهلُ الكوفة حينَ خرَجوا على المختار فقهَرهم وقتَل منهم مَن قتَل، كان لا ينهزمُ أحدٌ من أهلها إلاَّ قصَد البصرةَ، ثم لمَّا خرَج المختارُ لتلَقِّي ابن الأشتر حينَ بلَغه أنه قتَل ابنَ زياد، اغتنَم مَن بقي بالكوفة من أعداء المختار غَيبَتَه، فذهَبوا إلى البصرة فِرارًا من المختار؛ لقلَّة دينه وكفره ودَعْواه أنَّه يأتيه الوحيُ، وأنَّه قدَّم المواليَ على الأشراف. واتَّفَقَ أنَّ ابنَ الأشتر حينَ قتَل ابنَ زياد اشتَغَل بتلك النواحي، فأَحْرَز بلادًا وأقاليمَ ورَساتيقَ لنفسه، واستهانَ بالمختار، فطمع مصعبٌ فيه وبعَث محمدَ بنَ الأشعث بن قيس على البريد إلى المُهَلَّب بن أبي صُفرَةَ، وهو نائبُهم على خراسانَ، فقدم في تجمل عظيم ومال ورجال وعَدَد وعُدَد وجيش كثيف، ففرح به أهلُ البصرة وتقوَّى به مصعبٌ، فركِب في أهل البصرة ومَن اتَّبَعهم من أهل الكوفة فركِبوا في البحر والبرِّ قاصدين الكوفةَ.

وقدَّم مصعبٌ بينَ يدَيه عَبَّادَ بنَ الحُصَيْن، وجعَل على ميمنته عمرَ بنَ عُبيد الله بن مَعْمَر، وعلى الميسرة المُهَلَّبَ بنَ أبي صُفْرَةَ، ورتَّب الأمراءَ على راياتها وقبائلها؛ كمالك بن مِسْمَع، والأحنف بن قيس، وزياد بن عمرَ، وقيس بن الهيثم وغيرهم. وخرَج المختارُ بعسكَره فنزَل المَذارَ، وقد جعَل على مقدمَته أبا كامل الشَّاكريَّ، وعلى ميمنته عبدَ الله بنَ كامل، وعلى ميسرته عبدَ الله بنَ وهب الجُشَميَّ، وعلى الخيل وزيرَ بنَ عبد الله السَّلُوليَّ، وعلى الموالي أبا عَمْرَةَ صاحبَ شُرطته. ثم خطَب الناسَ وحثَّهم على الخروج، وبعَث بينَ يدَيه الجيوشَ، وركِب هو وخَلْقٌ من أصحابه وهو يبشِّرُهم بالنصر. فلمَّا انتهَى مصعبٌ إلى قريب الكوفة لقِيَتْهم الكتائبُ المختاريةُ، فحمَلتْ عليهم الفرسانُ الزبيريةُ، فما لبِثت المختاريةُ إلاَّ يسيرًا حتى هرَبوا على حمِيَّة، وقد قُتل منهم جماعةٌ من الأمراء، وخَلْقٌ من القُرَّاء، وطائفةٌ كثيرةٌ من الشيعة الأغبياء، ثم انتهَت الهزيمةُ إلى المختار.

وقال الواقدي: لمّا انتهَتْ مقدّمةُ المختارِ إليه، جاءَ مصعبٌ فقطَع الدجلةَ إلى الكوفة وقد حصَّن المختارُ القصرَ واستعمَلَ عليه عبدَ الله بنَ شَدّادٍ، وخرَج المختارُ بمَن بقِي معه فنزَل حَرُوراءَ، فلمّا قرُب جيشُ مصعبٍ منه جهَّز إلى كلِّ قبيلةٍ كُرْدوسًا، فبعَث إلى بكرِ بنِ وائلٍ سعيدَ بنَ مُنقذٍ، وإلى عبدِ القيسِ مالكَ بنَ المنذرِ، وإلى العاليةِ عبدَ الله بنَ جَعْدَةَ، وإلى الأزدِ مسافرَ بنَ سعيدٍ، وإلى بني تميمٍ سُلَيمَ بنَ يزيدَ الكِنْديَّ، وإلى محمدِ بنِ الأشعثِ السائبَ بنَ مالكٍ، ووقَف المختارُ في بقيةِ أصحابِه، فاقتَتَلوا قتالاً شديدًا إلى الليلِ؛ فقُتِل أعيانُ أصحابِ المختارِ، وقُتِل تلك الليلةَ محمدُ بنُ الأشعثِ، وعبيدُ الله بنُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ.

وتفرَّقَ عن المختارِ باقي أصحابِه، فقيل له: القصرَ القصرَ. فقال: والله ماخرَجتُ منه وأنا أريدُ أن أعودَ إليه، ولكنَّ هذا حكمُ الله. ثم سارَ إلى القصرِ فدخَله، وجاءَه مصعبٌ ففرَّق القبائلَ في نواحي الكوفة، واقتسَموا المَحالَّ، وخلَصوا إلى القصرِ. وقد منَعوا المختارَ المادةَ والماءَ، وكان المختارُ يخرُجُ فيُقَاتِلُهم ثم يَعودُ إلى القصرِ. ولمّا اشتَدَّ عليه الحصارُ قال لأصحابِه: إنَّ الحصارَ لا يَزيدُنا إلاَّ ضَعْفًا، فانزِلُوا بنا حتى نقاتِلَ حتى الليلِ حتى نموتَ كرامًا. فوَهَنوا، فقال: أمّا أنا، فوالله لا أُعطِي بيدِي. ثم اغتَسَل وتطيَّبَ وتحنَّطَ وخرَج، فقاتَل هو ومَن معه حتى قُتِلوا.

وقيل: بل أشارَ عليه جماعةٌ من أساورته بأن يدخُلَ القصرَ دارَ إمارته، فدخَله وهو ملومٌ مذمومٌ، وعن قريبٍ ينفُذُ فيه القدَرُ المحتومُ، فحاصَرَه مصعبٌ فيه وجميعَ أصحابِه، حتى أصابَهم من جهدِ العطشِ ما اللهُ به عليمٌ، وضيَّق عليهم المسالكَ والمقاصدَ، وانسَدَّتْ عليهم أبوابُ الحيلِ، وليس فيهم رجلٌ رشيدٌ ولا حليمٌ، ثم جعَل المختارُ يُجيلُ فكرتَه ويكرِّرُ رَوِيَّتَه في الأمرِ الذي قد حلَّ به، واستشارَ مَن عندَه من الموالي والعبيد، ولسانُ القدَرِ والشرعِ يُناديه ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]. ثم قوَّى عزمَه قوةُ الشجاعةِ المركبةِ فيه على أن أخرَجَتْه من بين أظهُرِ مَن كان يُحالفُه ويُوَاليه، ورأى أن يموتَ على فرسِه، حتى يكونَ عليها انقضاءُ آخرِ نَفَسِه، فنزَل حميَّةً وغضبًا، وشجاعةً وكَلَبًا، وهو مع ذلك لا يجِدُ مناصًا ولا مفرًّا ولا مهربًا، وليس معه من أصحابِه سوى تسعةَ عشرَ. ولعلَّه إن كان قد استَمرَّ على ما عاشَ عليه أن لا يُفارقَه التسعةَ عشرَ الموكَّلون بسَقَرَ. ولمّا خرَج من القصرِ قالَ لأصحابِ مصعبٍ: أتُؤمِّنوني؟ قالوا: لا، إلاَّ على حُكْمِ الأميرِ. فقالَ: إلاَّ حُكْمَ نفسي أبدًا. ثم قاتَلَ قتالاً شديدًا، وتقدَّم إليه رجلان شقيقان أخوان؛ وهما طَرَفةُ وطرّافٌ ابنا عبد الله ابنِ دَجاجةَ من بني حَنيفةَ، فقتَلاه بمكانِ الزَّيّاتين من الكوفة، واحتزّا رأسَه وأتَيا به إلى مصعبِ بنِ الزبيرِ، وقد دخَل قصرَ الإمارةِ، فوُضع بينَ يديه، كما وُضع رأسُ ابنِ زيادٍ بينَ يدَي المختارِ، وكما وُضع رأسُ الحسينِ بينَ يدَيِ ابنِ زيادٍ. وكما سيُوضَعُ رأسُ مصعبٍ بينَ يدَيْ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ. فلمّا وُضع رأسُ المختارِ بينَ يدَيْ مصعبٍ أمَر لهما بثلاثين ألفًا.

وقد قتَل مصعبٌ جماعةً من المختارية في المعركة وأسَر منهم خمسَمائة أسير، فضُربَتْ أعناقُهم عن آخرِهم في يوم واحد. وقد قُتِل من أصحاب مصعب في الوقعة محمدُ بنُ الأشعث بن قيس.

وأمَر مصعبٌ بكفِّ المختار فقُطعَتْ وسُمِرَتْ إلى جانب المسجد، فلم يزلْ هنالك حتى قدِم الحجاجُ، فسألَ عنها فقيل له: هي كفُّ المختار. فأمَر بها فرُفِعَتْ وانتُزِعَتْ من هنالك؛ لأنَّ المختارَ كان من قبيلة الحجاج - فالمختارُ هو الكذَّابُ، والمبيرُ الحجاجُ - ولهذا أخَذ الحجاجُ بثأرِه من ابن الزبير فقتَله وصلَبه شهوراً.

وقد سأَل مصعبٌ أمَّ ثابتٍ بنتَ سَمُرَةَ بن جُندب امرأةَ المختار عنه فقالت: ما عسى أن أقولَ فيه إلاَّ ماتقولون أنتم فيه؟ فتركها واستَدْعى زوجته الأُخرى؛ وهي عَمْرَةُ بنتُ النعمان بن بشير، فقالَ لها: ما تقولين فيه؟ فقالَتْ: رَحمَه اللهُ، لقد كانَ عبداً من عباد الله الصالحين. فسَجَنَها وكتَب إلى أخيه: إنَّها تقولُ إنَّه نبيٌّ. فكتَب إليه أن أَخْرِجْها فاقْتُلْها. فأَخْرَجَها إلى ظاهر البلد فضُرِبَتْ ضَرَباتٍ حتى ماتَتْ، فقال في ذلك عمرُ بنُ أبي ربيعةَ المخزوميُّ:

إنَّ منْ أعْجَبِ العجائبِ عندي ... قَتْلَ بَيْضاءَ حُرَّةٍ عُطْبُولِ

قُتِلَتْ هكذا على غيرِ جُرْمٍ ... إنَّ للهِ دَرَّهَا مِنْ قَتِيلِ

كُتِبَ القتلُ والقتالُ علَيْنَا ... وعلَى الغانياتِ جَرُّ الذُّيُولِ

وقال أبو مخنف: حدَّثني محمدُ بنُ يوسفَ أنَّ مصعبًا لقِي عبدَ الله بنَ عمرَ فسلَّم عليه، فقال ابنُ عمرَ: من أنتَ؟ فقالَ له أنا ابنُ أخيك، مصعبُ بنُ الزبير. فقالَ له ابنُ عمرَ: نعم، أنت القاتلُ سبعةَ آلافٍ من أهل القبلة في غداة واحدة؟ عِشْ ما استَطَعْتَ! فقال مصعبٌ: إنَّهم كانوا كفرةً سَحَرةً فقال ابنُ عمرَ: والله لو قَتَلْتَ عدَّتَهم غَنَماً من تُراث أبيك لكان ذلك سَرَفًا.

وهذه ترجمة المختار بن أبي عبيد الكذاب

هو المختارُ بنُ أبي عبيدِ بن مسعودِ بن عمرو بن عُميرِ بن عوفِ بن عُقْدةَ بن غِيَرَةَ بن عوف بن ثقيفٍ الثقفيُّ، أسلمَ أبوه في حياة النبيِّ ﷺ، ولكن لم يرَه، فلهذا لم يذكرْه أكثرُ الناس في الصحابة، وإنما ذكَره ابنُ الأثير في «الغابة»، وقد كان عمرُ بعثَه في جيشٍ كثيفٍ في قتال الفرس سنةَ ثلاثَ عشرةَ، فقُتِل يومَئذٍ شهيداً، وقُتِل معه نحوٌ من أربعة آلافٍ من المسلمين - كما قدَّمنا - وعُرِف ذلك الجسرُ به، وهو جسرٌ على دجلةَ، فيقالُ له إلى اليوم: جسرُ أبي عبيد. وكان له من الولد صفيةُ بنتُ أبي عبيدٍ، وكانت من الصالحات العابدات، وهي زوجةُ عبد الله بن عمرَ بن الخطاب، وكان عبدُ الله لها مكرِماً ومحبًّا، وماتت في حياته. وأمَّا أخوها المختارُ هذا، فإنه كان أولاً ناصبيًّا يُبْغِضُ عليًّا بُغضاً شديداً، وكان عند عمِّه بالمدائن، وكان عمُّه نائبَها، فلمَّا دَخَلَها الحسنُ بنُ عليٍّ يومَ خذَلَه أهلُ العراق وهو سائرٌ إلى الشام لقتال معاويةَ بعدَ مقتلِ أبيه عليٍّ، فلمَّا أحسَّ الحسنُ منهم بالغدر، فرَّ منهم إلى

المدائنِ في جيشٍ قليلٍ، فقال المختارُ لعمِّه: لو أخذتَ الحسنَ فبَعَثتَه إلى معاوية لاتَّخذْتَ عندَه بذلك اليدَ البيضاءَ أبداً. فقال له عمُّه: بئسَ ما تأمرُني به ياابن أخي.

فما زالت الشيعةُ تُبغضُه حتى كان مِن أمرِ مسلم بنِ عقيلٍ بالكوفة ما كان، وكان المختارُ مِن الأمراءِ بالكوفة، فجعَلَ يقولُ: أمَا لأنصرُنَّه. فبلَغ ابنَ زيادٍ ذلك فحبَسه بعدَما ضربَه مائةَ جلدةٍ، فأرسلَ ابنُ عمرَ إلى يزيدَ بنِ معاويةَ يشفَعُ فيه، فأرسَل يزيدُ إلى ابنِ زيادٍ فأطلَقه وسيَّرَه إلى الحجازِ في عباءةٍ، فضوَى إلى ابنِ الزبيرِ بمكةَ، فقاتلَ معه حينَ حصرَه أهلُ الشامِ قتالاً شديداً، ثم بلَغ المختارَ ما أهلُ العراقِ فيه مِن التخبيطِ، فسارَ إليهم وتركَ ابنَ الزبيرِ، ويقالُ: إنَّه سألَ ابنَ الزبيرِ أن يكتُبَ له كتابًا إلى ابنِ مُطيعٍ نائبِ الكوفةِ ففعَلَ، فسار إليها.

وكان يُظهِرُ مدحَ ابنِ الزبيرِ في العلانيةِ ويَسبُّه في السرِّ، ويمدَحُ محمدَ بنَ الحنفيةِ ويدعو إليه، وما زال حتى استحوذَ على الكوفةِ بطريقِ التَّشيُّعِ وإظهارِ الأخذِ بثأرِ الحسينِ، وبسببِ ذلك التفَّتْ عليه جماعاتٌ كثيرةٌ مِن الشيعةِ حتى قاومَ نوابَ ابنِ الزبيرِ على الكوفةِ، وأخرجَ عاملَ ابنِ الزبيرِ منها، واستقرَّ مُلكُ المختارِ بها، ثم كتَب إلى ابنِ الزبيرِ يعتذرُ إليه ويخبرُه أنَّ ابنَ مُطيعٍ كان مُداهنًا لبني أُميةَ، وقد خرَج مِن الكوفةِ، وأنا ومَن بها في طاعتِك، فصدَّقه ابنُ الزبيرِ؛ لأنَّه كان يدعو له على المنبرِ يومَ الجمعةِ على رءُوسِ الناسِ، ويُظهِرُ طاعتَه.

ثم شرَع في تَتبُّعِ قتلةِ الحسينِ ومَن شهِد الوقعةَ بكربلاءَ مِن ناحيةِ ابنِ زيادٍ، فقتَل منهم خلقًا كثيرًا، وظفِر برءُوسِ كبارٍ منهم؛ كعمرَ بنِ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ أميرِ الجيشِ الذين قتَلوا الحسينَ، وشَمِرِ بنِ ذي الجَوْشَنِ أميرِ الألفِ الذين ولُوا قتْلَ الحسينِ، وسنانِ بنِ أبي أنسٍ، وخَوْليٍّ بنِ يزيدَ الأصبحيِّ، وخلقًا غيرَ هؤلاءِ، وما زالَ حتى بعَث سيفَ نقْمتِه إبراهيمَ بنَ الأشترِ النخعيَّ في عشرين ألفًا إلى ابنِ زيادٍ، وهو في جيشٍ أعظمَ مِن جيشِ المختارِ بأضعافٍ، كانوا ستِّين ألفًا، وقيلَ: ثمانين ألفًا. فقتَل ابنُ الأشترِ ابنَ زيادٍ وكسَر جيشَه، واحتازَ ما في مُعسكرِه - واتفَق ذلك في يوم عاشوراءَ سنةَ سبعٍ وستِّين - ثم بعَث برأسِ ابنِ زيادٍ ورءوسِ أصحابِه مع البشارةِ إلى المختارِ، ففرِح بذلك فرحًا شديدًا. ثم إنَّ المختارَ بعَث برأسِ عُبيدِ اللهِ بنِ زيادٍ ورأسِ حصينِ بنِ نُميرٍ ومَن معهما إلى عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ بمكةَ فأمَر ابنُ الزبيرِ بها فنُصِبَتْ على عَقَبةِ الحَجُونِ، وقد كانوا نصَبوها بالمدينةِ.

وطابت نفسُ المختارِ بالمُلكِ، وظنَّ أنَّه لم يبْقَ له عدوٌّ ولا مُنازعٌ.

ثم إنَّ ابنَ الزبيرِ تبينَ خداعَه ومكرَه وسوءَ مذهَبِه، فبعَث أخاه مصعبًا أميرًا على العراقِ، فسار إلى البصرةِ فاجتَمع إليه أهلُها، ووفَد إليه جماعاتٌ مِن الكوفةِ، فلم يَتمَّ سُرورُ المختارِ حتى ركِب إليه مصعبُ بنُ الزبيرِ مِن البصرةِ في جيشٍ هائلٍ فحاصرَه بالكوفةِ وضيَّق عليه، وما زال حتى أمكَن اللهُ منه، فقتَله واحتزَّ رأسَه، وأمَر بصلبِ كفِّه على بابِ المسجدِ، وبعَث مصعبٌ برأسِ المختارِ مع رجلٍ

مِن الشُّرَطِ على البريدِ إلى أخيه عبدِ الله بنِ الزبير، فوصَل مكةَ بعدَ العشاءِ فوجَد عبدَ الله يَتنفَّلُ، فما زال يصلِّي حتى أسحَر ولم يَلتفتْ إلى البريد الذي جاء بالرأسِ، فلمَّا كان قَريبَ الفجرِ قال: ما جاء بك؟ فألقَى إليه الكتابَ فقرَأه، فقال: يا أميرَ المؤمنين، معي الرأسُ. فقال: ألقِهْ على بابِ المسجدِ. فألقاه ثم جاء فقال: جائزتي يا أميرَ المؤمنين. فقال: جائزتُك الرأسُ الذي جئتَ به تأخذُه معك إلى العراقِ.

ثم زالت دولةُ المختارِ كأنْ لم تكنْ، وكذلك سائرُ الدُّوَلِ، وفرِح المسلمون بزوالها؛ وذلك لأنَّ الرجلَ لم يكنْ في نفسِه صادقًا، بل كان كاذبًا وكاهنًا، وكان يزعُمُ أنَّ الوحيَ ينزِلُ عليه على يدِ جبريلَ يأتي إليه.

قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا ابنُ نميرٍ، حدَّثنا عيسى القارئُ أبو عمرَ بنُ عمرَ، ثنا السُّدِّيُّ، عن رفاعةَ القِتْبانيِّ قال: دخَلتُ على المختارِ فألقَى لي وسادةً وقال: لولا أنَّ أخي جبريلَ قام عن هذه ألقَيتُها لك. قال: فأردتُ أن أضرِبَ عُنقَه. قال: فذكَرتُ حديثًا حدَّثنيه أخي عمرُو بنُ الحَمِقِ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**أيُّما مؤمنٍ أمَّن مؤمنًا على دمِه فقتَلَه، فأنا من القاتلِ بريءٌ**»[1].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا يحيى بنُ سعيدٍ القطانُ، عن حمادِ بنِ سَلمةَ، حدَّثني عبدُ الملكِ بنُ عميرٍ، عن رفاعةَ بنِ شدَّادٍ، قال: كنتُ أقومُ على رأسِ المختارِ، فلمَّا عرَفتُ كَذِبَه هَمَمتُ أن أسُلَّ سَيْفي فأضرِبَ عُنُقَه، فذكَرتُ حديثًا حدَّثَناه عمرُو بنُ الحَمِقِ قال سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**مَن أمَّن رجلاً على نفسِه فقتَلَه، أُعطي لواءَ غدرٍ يومَ القيامة**»[2]. ورَواه النسائيُّ وابنُ ماجه مِن غيرِ وجهٍ، عن عبدِ الملكِ بنِ عُميرٍ به. وفي لفظٍ لهما: «**مَن أمَّنَ رجلاً على دمِه فقتَله، فأنا بريءٌ من القاتلِ، وإن كان المقتولُ كافرًا**». وفي سندِ هذا الحديثِ اختلافٌ. وقد قيلَ لابنِ عمرَ: إنَّ المختارَ يزعُمُ أنَّ الوحيَ يأتيه. فقال: صدَق، قال اللهُ تعالى: ﴿**وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ**﴾ [الأنعام: ١٢١]. وروى ابنُ أبي حاتمٍ، عن عكرمةَ قال: قدِمتُ على المختارِ فأكرَمني وأنزَلني حتى كان يتعاهَدُ مَبيتي بالليلِ، قال: فقال لي: اخرُجْ فحدِّثِ الناسَ. قال: فخرَجتُ فجاء رجلٌ فقال: ما تقولُ في الوحيِ؟ فقلت: الوحيُ وَحْيان، قال اللهُ تعالى: ﴿**بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ**﴾ [يوسف: ٣]. وقال تعالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا**﴾ [الأنعام: ١١٢]. قال: فهَمُّوا بي أن يأخُذُوني، فقلتُ: ما لَكم وذاك، إنِّي مُفتيكم وضَيْفُكم، فتركوني. وإنَّما أراد عكرمةُ أن يُعَرِّضَ بالمختارِ وكذبِه في ادِّعائه أنَّ الوحيَ ينزِلُ عليه.

---

(١) إسناده حسن أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٣، ٢٢٤)، بهذا الإسناد ورجاله ثقات إلا السدي وهو إسماعيل بن عبدالرحمن حسن الحديث.

(٢) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٤) بهذا الإسناد.

وروى الطبرانيُّ، من طريقِ أُنَيْسةَ بنت زيدِ بنِ أرقمَ، أنَّ أباها دخَل على المختارِ بنِ أبي عبيدٍ فقال له: يا أبا عامرٍ لو سبَقتَ رأيتَ جبريلَ وميكائيلَ. فقال له زيدٌ: حُقِرتَ وتَعِستَ، أنت أهونُ على الله من ذلك، كذابٌ مُفْترٍ على الله ورسوله[١] .

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثَنا إسحاقُ بنُ يوسفَ، ثنا ابنُ عونٍ، عن أبي الصِّدِّيقِ الناجيِّ، أنَّ الحجَّاجَ بنَ يوسفَ دخَل على أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ، بعدَما قتَل ابنَها عبدَ الله بنَ الزبيرِ، فقال: إنَّ ابنَكِ ألْحدَ في هذا البيتِ، وإنَّ اللهَ أذاقَه من عذابٍ أليمٍ، وفعَل به وفعَل. فقالت: كذَبْتَ، كان بَرًّا بالوالدَين، صوَّامًا قوَّامًا، والله لقد أخبَرَنا رسولُ الله ﷺ أنه سيَخْرُجُ من ثَقيفٍ كذَّابان؛ الآخِرُ منهما شرٌّ من الأوَّلِ، وهو مُبِيرٌ. هكذا رواه أحمدُ بهذا السَّندِ واللَّفظ[٢] .

وقد أخرَجه مسلمٌ في «صحيحه»، في كتابِ الفضائلِ، عن عُقْبةَ بنِ مكْرَمٍ العَمِّيِّ البصريِّ، عن يعقوبَ بنِ إسحاقَ الحضرَميِّ، عن الأسودِ بنِ شيبانَ، عن أبي نوفلٍ، عن أبي عقربٍ - واسمُه معاويةُ ابنُ مُسلمٍ - عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ في ثَقيفٍ كذَّابًا ومُبِيرًا**»[٣] .
وفي الحديثِ قصةٌ طويلةٌ في مقتَلِ الحَجّاجِ ولدَها عبدَ الله بنَ الزبيرِ في سنةِ ثلاثٍ وسبعين، كما سيأتي. وقد ذكَر البيهقيُّ هذا الحديثَ في «**دلائلِ النُّبوة**».

وذكَر العلماءُ أنَّ الكذَّابَ هو المختارُ بنُ أبي عبيدٍ، وكان يُظهِرُ التشيُّعَ ويُبطِنُ الكَهانةَ، ويُسِرُّ إلى أخصَّائه أنَّه يوحَى إليه. ولكنْ ما أدري هل كان يدَّعي النُّبوةَ أم لا؟ وكان قد وضع له كرسيٌّ يُعَظَّمُ ويُحَفُّ بالرجالِ ويُستَرُ بالحريرِ، ويُحمَلُ على البغالِ، وكان يُضاهي به تابوتَ بني إسرائيلَ المذكورَ في القرآنِ، ولا شكَّ أنَّه كان ضالًّا مُضِلًّا، أراح اللهُ المسلمين منه بعدَما انتقَم به من قومٍ آخَرين من الظالمين، كما قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ [الأنعام: ١٢٩] .
وأمَّا المُبِيرُ فهو القتّالُ وهو الحَجّاجُ بنُ يوسفَ الثَّقَفيُّ، نائبُ العراقِ لعبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ، الذي انْتزَع العراقَ من يدِ مصعبِ بنِ الزبيرِ، كما سيأتي بيانُه قريبًا.

وذكَر الواقديُّ أنَّ المختارَ لم يزَلْ مظهِرًا موافقةَ ابنِ الزبيرِ حتى قدِم مصعبٌ إلى البصرةِ في أوَّلِ سنةِ سبعٍ وستِّين، وأظهَر مخالفَتَه، فسار إليه مصعبٌ فقاتَله، وكان المختارُ في نحوٍ من عشرين ألفًا، وقد حَمَل عليه المختارُ مرَّةً فهزَمه، ولكنْ لم يَثْبُتْ جيشُ المختارِ حتى جعَلوا ينصرِفون إلى مصعبٍ ويَدَعون المختارَ، وينقِمون عليه ما هو فيه من الكَهانةِ والكذبِ. فلمّا رأى المختارُ ذلك انصرَف إلى قصرِ الإمارةِ، فحاصَره مصعبٌ فيه أربعةَ أشهرٍ، ثم قتَله في رابعَ عشَرَ رمضانَ سنةَ سبعٍ وستِّين، وله من العُمُرِ سبعٌ وستُّون سنةً فيما قيل.

(١) إسناده ضعيف فإن أنيسة مجهولة، وثابت بن زيد ضعيف وقد أخرجه الطبراني (٥/ ٢١٢) (٥١٢٧).
(٢) وهو عند أحمد (٦/ ٣٥١) بهذا الإسناد وهو صحيح، رجاله ثقات.
(٣) أخرجه مسلم (٢٥٤٥) مطولاً في باب ذكر كذاب ثقيف.

فصل

ولما استقرَّ مصعبُ بنُ الزبيرِ بالكوفة بعَث إلى إبراهيمَ بنِ الأشترِ ليَقدَمَ عليه، وبعَث عبدُ الملك بنُ مَرْوانَ إليه ليَقدَمَ عليه، فحار ابنُ الأشترِ في أمره، وشاوَر أصحابَه إلى أيِّهما يذهَبُ، ثم اتفقَ رأيُهم على الذَّهابِ إلى بلدهم الكوفة، فقدم ابنُ الأشترِ على مصعب بنِ الزبيرِ فأكرَمه وعظَّمه واحترَمه كثيرًا، وبعَث مصعبٌ المُهَلَّبَ بنَ أبي صُفْرَةَ على المَوْصِلِ والجزيرةِ وأذْرَبِيجانَ وأرمينيَة - وكان قد استَخلف على البصرة حينَ خرَج منها عبيدَ اللهِ بنَ عبدِ اللهِ بنِ مَعْمَرٍ - وأقام هو بالكوفة. ثم لم تنسلخْ هذه السنةُ حتى عزَله أخوه عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ عن البصرةِ وولَّى عليها ابنَه حمزةَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ، وكان شجاعًا جَوَادًا مُخلِّطًا؛ يُعطي أحيانًا حتى لا يدَعَ شيئًا، ويمنَعُ أحيانًا ما لا يُمنَعُ مثلُه، وظهَرتْ خِفَّتُه وطَيْشٌ في عقله وسرعةٌ في أمره، فبعَث الأحنفُ إلى عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ، فعزَله وأعاد إلى ولايتِها أخاه مصعبًا مُضافًا إلى ما بيده مِن ولايةِ الكوفة، قالوا: وخرَج حمزةُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ من البصرةِ بمالٍ كثيرٍ من بيتِ مالها، فعرَض له مالكُ بنُ مِسْمَعٍ، فقال: لا ندَعُك تذهَبُ بأَعطياتنا. فضَمِن له عبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ معمرٍ العطاءَ، فكَفَّ عنه، فلمّا انصرَف حمزةُ لم يَقدَمْ على أبيه مكةَ، بل عدَل إلى المدينة، فأودَع ذلك المالَ رجالاً، فكلُّهم غلَّ ما أودَعه وجَحَده، سوى رجلٍ من أهلِ الكتابِ، فأدَّى إليه أمانَتَه، فلمّا بلَغ أباه ما صنَع، قال: أبعدَه اللهُ، أردتُ أن أباهيَ به بني مَرْوانَ فنكَص.

وذكَر أبو مخنفٍ أنَّ حمزةَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ وَلِي البصرةَ سنةً كاملةً. فاللهُ أعلمُ.

قال ابنُ جرير: وحجَّ بالناسِ في هذه السَّنةِ عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ، وكان عاملُه على الكوفة أخاه مصعبًا، وعلى البصرةِ ابنَه حمزةَ، وقيل: بل كان رجَع إليها أخوه. وعلى خُراسانَ وتلك البلادِ عبدُاللهِ بنُ خازمٍ السُّلَميُّ مِن جهةِ ابنِ الزبيرِ، واللهُ سبحانَه أعلمُ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

الوليدُ بنُ عقبةَ بنِ أبي مُعَيْطٍ، وأبو الجَهْمِ، وهو صاحبُ الأنبَجانيَّةِ المذكورةِ في الحديثِ الصحيح.

وفيها قُتِل خلقٌ كثيرٌ يَطُولُ ذِكْرُهم.

ثم دخلت سنة ثمان وستين

ففيها رَدَّ عبدُ اللهِ أخاه مصعبًا إلى إمرةِ البصرة، فأتاها فأقام بها. واستخلَف على الكوفة الحارثَ ابنَ عبدِ اللهِ بنِ أبي ربيعةَ المخزوميَّ؛ قُباعًا، واستعمَل على المدينة جابرَ بنَ الأسودِ الزُّهْريَّ، وعزَل عنها عبدَ الرحمنِ بنَ الأشعثِ، لكَوْنِه ضرَب سعيدَ بنَ المسيِّبِ ستِّين سَوْطًا، فإنَّه أراد منه أن يُبايعَ

لابنِ الزبيرِ فامتنَع مِن ذلك فضربَه، فعزلَه ابنُ الزبيرِ.

وفيها هلَك ملكُ الرومِ قُسطَنْطِينُ بنُ قُسطَنْطِينَ ببلدِه، لعنَه اللهُ.

وفيها كانت وَقْعةُ الأزارقة. وذلك أنَّ مصعبًا كان قد عزَل عن ناحيةِ فارسَ المهلبَ بنَ أبي صُفرةَ، وكان قاهرًا لهم، وولَّاه الجزيرةَ، وولَّى على فارسَ عمرَ بنَ عبيدِ اللهِ بنِ معمرٍ، فثاروا عليه، فقاتَلهم عمرُ بنُ عبيدِ اللهِ فقهَرهم وكسرَهم، وكانوا مع أميرِهم الزبيرِ بنِ الماحوزِ، ففرُّوا بينَ يدَيْه إلى إصْطَخْرَ، فاتَّبعهم فقتَل منهم مَقتَلةً عظيمةً، وقتَلوا ابنَه، ثم ظفِر بهم مرةً أخرى، ثم هرَبوا إلى بلادِ أصبهانَ ونواحيها، فتَقَوَّوْا هنالك وكثُر عَدَدُهم وعُدَدُهم، ثم أقبَلوا يريدون البصرةَ، فمرُّوا ببعضِ بلادِ فارسَ وتركوا عمرَ بنَ عبيدِ اللهِ بنِ معمرٍ وراءَ ظهورِهم، فلمّا سمع مصعبٌ بقُدومِهم ركِب في الناسِ، وجعَل يلومُ عمرَ بنَ عبيدِ اللهِ بتركِه هؤلاء يجتازون ببلادِه إلى البصرةِ، وقد ركِب عمرُ بنُ عبيدِ اللهِ بنِ معمرٍ في آثارِهم، فبلَغ الخوارجَ أنَّ مصعبًا أمامَهم وعمرَ بنَ عبيدِ اللهِ وراءَهم، فعدَلوا إلى المدائنِ فجعَلوا يقتُلون النساءَ والولدانَ، ويبقُرون بطونَ الحَبالَى، ويفعَلون أفعالًا لم يفعَلْها غيرُهم، فقصدَهم نائبُ الكوفةِ الحارثُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ أبي ربيعةَ ومعه أهلُها وجماعاتٌ مِن أشرافِها؛ منهم ابنُ الأشترِ، وشَبَثُ بنُ رِبْعِيٍّ، فلمَّا وصَلوا إليهم عندَ جسرِ الصَّراةِ، قطَعه الخوارجُ بينَهم وبينَ الناسِ، فأمَر الأميرُ بإعادتِه، فأُعيدَ، ففرَّت الخوارجُ هاربين بينَ يدَيْه، فاتَّبعهم عبدُ الرحمنِ بنُ مِخْنَفٍ في ستَّةِ آلافٍ فمرُّوا على الكوفةِ، ثم صاروا إلى أرضِ أصبهانَ، فانصرَف عنهم ولم يقاتِلْهم، ثم أقبَلوا فحاصَروا عتَّابَ بنَ ورقاءَ شهرًا، بمدينةِ جَيٍّ حتى ضيَّقوا على الناسِ، فنزَلوا إليهم فقاتَلوهم فكشَفوهم وقتَلوا أميرَهم الزبيرَ بنَ الماحُوزِ وغنِموا ما في معسكرِهم، وأمَّرَت الخوارجُ عليهم قَطَرِيَّ بنَ الفُجاءَةِ، ثم ساروا إلى بلادِ الأهوازِ، فكتَب مصعبُ بنُ الزبيرِ إلى المهَلَّبِ ابنِ أبي صُفرةَ - وهو على المَوْصِلِ - أن يسيرَ إلى قتالِ الخوارجِ، وكان أبصرَ الناسِ بقتالِهم، وبعَث مكانَه إلى المَوْصِلِ إبراهيمَ بنَ الأشترِ، فانصرَف المهلبُ إلى الأهوازِ فقاتَل فيها الخوارجَ ثمانيةَ أشهرٍ قتالًا لم يُسمَعْ بمثلِه.

قال ابنُ جريرٍ: وفي هذه السنةِ كان القحطُ الشديدُ ببلادِ الشامِ؛ بحيثُ لم يتمكَّنوا معه مِن الغزوِ لضعفِهم وقلَّةِ طعامِهم ومِيرتِهم.

قال ابنُ جريرٍ: وفيها قتِل عبيدُ اللهِ بنُ الحُرِّ؛ وكان مِن خبرِه أنَّه كان رجلًا شجاعًا تنقَّلَت به الأحوالُ والأيامُ والآراءُ، حتى صار مِن أمرِه أنَّه لا ينطاعُ لأحدٍ مِن بني أميةَ ولا لآلِ الزبيرِ، وكان يمرُّ على عاملِ الكُورةِ مِن العراقِ وغيرِه، فيأخُذُ منه جميعَ ما في بيتِ مالِه مِن الحواصلِ قهرًا ويكتُبُ له براءةً ويذهَبُ فيُنفِقُه على أصحابِه، وكان الخلفاءُ والأمراءُ يبعَثُون إليه الجيوشَ فيطرُدُها ويكسرُها، قلَّتْ أو كثُرَتْ، حتى كاع فيه مصعبُ بنُ الزبيرِ وعُمّالُه ببلادِ العراقِ، ثم إنَّه وفَد على عبدِ الملكِ بنِ

مَرْوانَ فبعثَه في عَشَرَةِ نفر، وقال: ادخُلِ الكوفةَ فاعلِمْهم أنَّ الجنودَ ستصلُ إليهم سريعًا. فبعثَ في السِّرِّ إلى جماعةٍ من إخوانه فظهرَ على أمرِه، فأعلَم به أميرَ الكوفةِ الحارثَ بنَ عبدِ الله، فبعثَ إليه جيشًا فقتَلوه في المكان الذي هو فيه، وحمل رأسَه إلى الكوفة، ثم إلى البصرة، واستراح الناسُ منه.

قال ابنُ جرير: وفيها شهِد موقفَ عرفةَ أربعُ راياتٍ متباينةٌ، كلُّ واحدةٍ منها لا تأتمُّ بالأخرى؛ الواحدةُ لمحمد ابنِ الحنفيةِ في أصحابه، والثانيةُ لنَجْدةَ الحَرُوريِّ وأصحابه، والثالثةُ لبني أميةَ، والرابعةُ لعبدِ الله بنِ الزبير، وكان أولَ مَن دفَع رايةُ ابنِ الحنفيةِ، ثم نَجْدةُ، ثم بنو أميةَ، ثم دفَع ابنُ الزبيرِ فدَفَع الناسُ معه، وكان عبدُ الله بنُ عمرَ في مَن انتظَر دَفْعَ ابنِ الزبيرِ، ولكنَّه تأخر دفعُه، فقال ابنُ عمر: أشبه بتأخيرِه دَفْعَ الجاهلية. فدفَع ابنُ عمرَ فدفَع ابنُ الزبيرِ، وتحاجَز الناسُ في هذا العام فلم يكنْ بينَهم قتال. وكان على نيابةِ المدينةِ لابنِ الزبيرِ جابرُ بنُ الأسودِ بنِ عوفٍ الزُّهْريُّ، وعلى الكوفةِ والبصرةِ أخوه مصعبٌ، وعلى مُلكِ الشامِ عبدُ المَلِك بنُ مَرْوانَ. واللهُ أعلمُ.

وممَّن توفي في هذه السنة من الأعيان

عبدُ الله بنُ يزيدَ الأوسيُّ، شهِد الحُدَيْبِيَةَ.

وعبدُ الرحمن بنُ الأسود بن عبد يغوثَ.

وعبدُ الرحمن بنُ زيد بنِ الخطَّاب العدويُّ، ابنُ أخي عمرَ بنِ الخطابِ، أدرك النَّبيَّ ﷺ. وتوفِّيَ بالمدينة عن نحوِ سبعينَ سنةً.

عبدُ الرحمن بنُ حسّانَ بن ثابت الأنصاريُّ.

عديُّ بنُ حاتمِ بن عبد الله بنِ سعد بن امرئ القَيْس، صحابيٌّ جليلٌ، سكَن الكُوفَةَ ثم سكَن قَرْقِيسْياءَ.

زيدُ بنُ أرقمَ بن زيدٍ، صحابيٌّ جليلٌ.

وفيها توفي عبدُ الله بنُ عباس، ترجُمانُ القرآن، وابنُ عمِّ رسول الملك الديَّان

هو عبدُ الله بنُ عباسِ بنِ عبدِ المطلبِ بنِ هاشمِ بنِ عبدِ منافِ بنِ قُصَيٍّ، أبو العباسِ الهاشميُّ، ابنُ عمِّ رسولِ الله ﷺ، حَبْرُ هذه الأُمَّة، ومفَسِّرُ كتابِ الله وتَرْجُمانُه، وكان يقالُ له: الحَبْرُ، والبَحْرُ. رَوَىٰ عن رسولِ الله ﷺ شيئًا كثيرًا، وعن جماعةٍ من الصحابة، وأخَذ عنه خَلْقٌ من الصحابة وأُمَمٌ من التابعين، وله مفرداتٌ ليست لغيرِه من الصحابة؛ لاتِّساع علمِه، وكَثْرةِ فَهْمِه، وكمال عقله، وسَعَةِ فَضله، ونُبلِ أصله، رضي اللهُ عنه وأرْضاه.

وأُمُّه أُمُّ الفَضْلِ لُبابةُ بنتُ الحارثِ الهلاليَّةُ، أختُ مَيْمونةَ بنتِ الحارثِ أُمِّ المؤمنينَ، وهو والدُ

الخُلَفاءِ العباسيِّينَ، وهو أحدُ إخوةِ عَشَرةِ ذكورٍ للعباسِ مِن أمِّ الفَضْلِ، وهو آخرُهم مولدًا، وقد مات كلٌّ واحدٍ منهم في بلدٍ بعيدٍ مِن الآخرِ جدًّا، كما سيأتي ذلك.

قال مسلمُ بنُ خالد الزَّنْجِيُّ المَكِّيُّ، عن ابنِ أبي نَجيحٍ، عن مجاهدٍ، عن ابنِ عباسٍ قال: لمّا كان رسولُ اللهِ ﷺ في الشِّعْبِ جاء أَبِي إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ فقال: يا محمدُ، أرَىٰ أمَّ الفضلِ قد اشتَمَلَتْ علىٰ حَمْلٍ، فقال: **«لعلَّ اللهَ أن يُقرَّ أعيُنَكم»**. قال: فأتَىٰ بي رسولَ اللهِ ﷺ وأنا في خِرْقةٍ فحنَّكَني بريقِه. قال مجاهدٌ: فلا نعلَمُ أحدًا حنَّكَه رسولُ اللهِ ﷺ بريقِه غيرَه[1]. وفي روايةٍ أُخرَىٰ: فقال رسولُ اللهِ ﷺ: **«لعلَّ اللهَ أن يُبيِّضَ وجوهَنا بغلامٍ» فولَدتْ عبدَ اللهِ بنَ عبّاسٍ**[2]. وعن عمرِو بنِ دينارٍ قال: ولِد ابنُ عباسٍ عامَ الهجرةِ.

وروَىٰ الواقديُّ، مِن طريقِ شعبةَ، عن ابنِ عباسٍ أنه قال: **وُلِدتُ** قبلَ الهجرةِ بثلاثِ سنينَ ونحنُ في الشِّعْبِ، وتُوفِّي رسولُ اللهِ ﷺ وأنا ابنُ ثلاثَ عَشْرةَ سنةً[3]. ثم قال الواقديُّ: وهذا ما لا خِلافَ فيه بينَ أهلِ العلْمِ. واحتَجَّ الواقديُّ بأنَّه كان قد ناهَزَ الحُلُمَ عامَ حَجَّةِ الوَداعِ.

وفي «صحيحِ البخاريِّ» عن ابنِ عبَّاس، قال: تُوفِّي رسولُ اللهِ ﷺ وأنا مختونٌ، وكانوا لا يَختِنون الغلامَ حتىٰ يحتَلِمَ[4]. وقال شعبةُ وهُشَيْمٌ وأبو عَوانةَ، عن أبي بشرٍ، عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: تُوفِّي رسولُ اللهِ ﷺ وأنا ابنُ عشرِ سنينَ، مختونٌ[5]. زاد هُشَيْمٌ: وقد جمَعتُ المُحْكَمَ علىٰ عهدِ رسولِ اللهِ ﷺ. قلتُ: وما المحكَمُ؟ قال: المفصَّلُ[6].

وقال أبو داودَ الطَّيالسيُّ، عن شعبةَ، عن أبي إسحاقَ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، عن ابنِ عباسٍ قال: قبِض رسولُ اللهِ ﷺ وأنا ابنُ خمسَ عشْرةَ سنةً مختونٌ[7]. وهذا الأصحُّ، ويؤيِّدُه صحةُ ما ثبَت في «الصحيحيْنِ»، ورَواه مالكٌ، عن الزُّهْريِّ، عن عبيدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ، عن ابنِ عبَّاسٍ قال: أقبَلْتُ

---

(١) في إسناده مسلم بن خالد الزنجي هو إلىٰ الضعف أقرب - علىٰ الراجح - وابن أبي نجيح وصفه النسائي بالتدليس ولم يصرح بالتحديث.

(٢) **ضعيف جداً**: لإرسال فيه ولضعف راويه.
أخرجه الفسوي في «المعرفة» (١/ ٥٤١) ثنا نوح بن الهيثم العسقلاني قال حدثنا الوليد عن سعيد بن عبد العزيز عن داود بن علي أنهم قالوا يا رسول الله إن أم الفضل لحامل قال: فقال رسول الله ﷺ... فذكره.
وهذا بجانب إرساله بل فإن داود بن عليّ هوابن عبد الله بن عباس لم يوثقه معتبر وقال الحافظ في «التقريب» مقبول. وهو إلىٰ الضعف أقرب.

(٣) من ناحية الإسناد فإن فيه الواقدي متروك وشعبة لم يدرك ابن عباس.

(٤) أخرجه البخاري (٦٢٩٩).

(٥) **إسناده صحيح** أخرجه أحمد (١/ ٣٣٧) بإسنادٍ صحيح، رجاله ثقات.

(٦) أخرجه البخاري (٥٠٣٦).

(٧) **إسناده صحيح**: أخرجه الطيالسي (٢٧٦٣) ط. دار هجر بهذا الإسناد وهو صحيح ولا تضرُ عنعنة أبي إسحاق إذ الراوي عنه هنا شعبة.

راكبًا على حمارٍ أتانٍ، وأنا يومئذٍ قد ناهَزْتُ الاحتلامَ، ورسولُ الله ﷺ يُصلِّي بالناسِ بمنًى إلى غيرِ جدارٍ، فمَرَرْتُ بينَ يدَي بعضِ الصفِّ، فنزلتُ وأرسلْتُ الأتانَ ترتَعُ ودخلتُ في الصفِّ، فلم يُنكِرْ ذلك عليَّ أحدٌ[1] . وثبَت عنه في «الصحيح» أنَّه قال: كنتُ أنا وأمِّي من المُستضعَفين؛ كانت أمِّي من النساءِ، وكنتُ أنا من الوِلدان[2] . وهاجَر مع أبيه قبلَ الفتحِ، فاتَّفَق لُقْياهما النبيَّ ﷺ بالجُحفة وهو ذاهبٌ لفتحِ مكَّةَ، فشهِد الفتحَ وحُنينًا والطائفَ عامَ ثمانٍ، وقيل: كان في سنةِ تسعٍ وحَجَّةَ الوَداعِ سنةَ عشْرٍ. وصحِبَ النبيَّ ﷺ من حينئذٍ ولزِمَه، وأخَذ عنه وحفِظ، وضبَط الأقوالَ والأفعالَ والأحوالَ، وأخذَ عن الصحابة علمًا عظيمًا مع الفَهمِ الثاقبِ والبلاغةِ والفصاحةِ والجمالِ والملاحةِ والأصالةِ والبيانِ، ودعا له رسولُ الرحمنِ ﷺ، وذلك كما ورَدَتْ به الأحاديثُ الثابتةُ الأركانِ عندَ الأئمة الحفّاظِ المرضيِّين؛ أنَّ رسولَ الله ﷺ دعا له بأن يُعلِّمَه اللهُ التأويلَ، وأن يُفقِّهَه في الدِّينِ.

وقال الزُّبيرُ بنُ بكَّار: حدَّثني ساعدةُ بنُ عبيدِ الله المُزَنيُّ، عن داودَ بنِ عطاءٍ، عن زيدِ بنِ أسلمَ، عن ابنِ عمرَ أنَّه قال: إنَّ عمرَ كان يدعو عبدَ الله بنَ عبَّاسٍ فيُقرِّبُه ويقولُ: إنِّي رأيتُ رسولَ الله ﷺ دعاك يومًا فمسَح رأسَك، وتفَل في فيك وقال: «اللهمَّ فقِّهْه في الدِّين، وعلِّمْه التأويلَ»[3] . وبه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «اللهمَّ باركْ فيه وانشُرْ منه»[4] .

وقال حمَّادُ بنُ سلَمةَ، عن عبدِ الله بنِ عثمانَ بنِ خُثَيمٍ، عن سعيدِ بنِ جُبيرٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: بتُّ في بيتِ خالتي ميمونةَ فوَضَعْتُ للنبيِّ ﷺ غُسْلاً، فقال: «مَن وضَع هذا؟» قالوا: عبدُ الله ابنُ عبّاسٍ. فقال: «اللهمَّ علِّمْه التأويلَ، وفقِّهْه في الدين»[5] . وقد رَواه غيرُ واحدٍ، عن ابنِ خُثَيمٍ بنحوِه.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا عبدُ الله بنُ بكرٍ، ثنا حاتمُ بنُ أبي صَغيرةَ أبو يونُسَ، عن عمرِو بنِ دينارٍ أنَّ كُرَيبًا أخبَره أنَّ ابنَ عبّاسٍ قال: أتيتُ رسولَ الله ﷺ من آخرِ الليلِ فصلَّيتُ خلفَه، فأخَذ بيدي فجرَّني حتى جعَلني حذاءَه، فلمَّا أقبلَ رسولُ الله ﷺ على صلاته خَنَسْتُ، فصلَّى رسولُ الله ﷺ، فلمَّا انصرَف قال لي: «ما شأني أجعلُك حذائي فتَخنَس؟» فقلتُ: يا رسولَ الله أوينبغي لأحدٍ أنْ يُصلِّيَ حذاءَك وأنتَ رسولُ الله الذي أعطاك اللهُ عزَّ وجلَّ؟ قال: فأعجبْتُه، فدعا اللهَ لي أنْ يَزيدَني علمًا وفَهمًا، قال: ثم رأيتُ رسولَ الله ﷺ نام حتى سمعتُه يَنفُخُ، ثم أتاه بلالٌ فقال: يا رسولَ الله، الصلاةُ. فقام فصلَّى ما أعاد وُضوءًا[6] .

---

(١) أخرجه البخاري (٧٦) ومسلم.
(٢) أخرجه البخاري (٤٥٨٧).
(٣) ضعفه الذهبي من هذا الوجه لضعف داود بن عطاء انظر «السير» (٣/ ٣٣٧) لكن الحديث صحيح من طرق أخرى.
(٤) إسناده كسابقه ضعيف.
(٥) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٣٣٥) عن عبد الصمد حدثنا حماد به وإسناده صحيح على شرط مسلم.
(٦) **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد (١/ ٣٣٠) بهذا الإسناد وإسناده صحيح، رجاله ثقات.

وقال الإمامُ أحمدُ وغيرُه: حدَّثنا هاشمُ بنُ القاسم، ثنا ورقاءُ، سمعتُ عبيدَ الله بنَ أبي يزيد يُحدِّثُ عن ابنِ عبَّاسٍ، قال: أتى رسولُ الله ﷺ الخلاءَ فوضَعْتُ له وَضوءًا، فلمَّا خرجَ قال: «مَن وضَع ذا؟» فقيل: ابنُ عبَّاسٍ، فقال: **«اللهمَّ فقِّهْه في الدين، وعلِّمْه التأويلَ»**[1].

وقال الثَّوريُّ وغيرُه، عن ليْثٍ، عن أبي جَهْضَم موسى بنِ سالمٍ، عن ابنِ عبّاسٍ، أنَّه رأى جبريلَ، وأنَّ رسولَ الله ﷺ دعا له بالحكْمة - وفي رواية بالعلم - مرّتين[2].

وقال الدارقطني: حدّثنا حمزةُ بنُ القاسمِ الهاشميُّ وآخرون، قالوا: حدَّثنا العباسُ بنُ محمدٍ، حدّثنا محمدُ بنُ مُصعبٍ، حدّثنا أبو مالك النَّخعيُّ، عن **أبي إسحاقَ**، عن عكرمةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ قال: رأيتُ جبريلَ مرَّتين، ودعا لي رسولُ الله ﷺ بالحكمة مرَّتين. ثم قال: غريبٌ مِن حديثِ أبي إسحاقَ السَّبيعيِّ، عن عكرمةَ. تفرَّد به عنه أبو مالكٍ النَّخَعيُّ عبدُ الملك بنُ حُسيْنٍ[3].

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا هشيمٌ، عن خالدٍ، عن عكرمةَ، عن ابنِ عبّاسٍ قال: ضمَّني رسولُ الله ﷺ وقال: **«اللهمَّ علِّمْه الحكمةَ»**. ورَواه أحمدُ أيضًا، عن إسماعيلَ بنِ عُليَّةَ، عن خالدِ الحَذَّاءِ، عن عكرمةَ عنه، قال: ضمَّني إليه رسولُ الله ﷺ وقال: **«اللهمَّ علِّمْه الكتابَ»**. وقد رَواه البخاريُّ[4]، والترمذيُّ، والنَّسائيُّ، وابنُ ماجه، من حديثِ خالدٍ - وهو ابنُ مهرانَ الحذَّاءُ - عن عكرمةَ عنه به. وقال الترمذيُّ: حسنٌ صحيحٌ.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدّثنا أبو سعيدٍ، ثنا سليمانُ بنُ بلالٍ، ثنا حسينُ بنُ عبدِ الله، عن عكرمةَ، عن ابنِ عبّاسٍ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«اللهمَّ أعطِ ابنَ عبّاسٍ الحكمةَ وعلِّمْه التأويلَ»**[5]. تفرَّد به أحمدُ.

وقد رَوىٰ هذا الحديثَ غيرُ واحدٍ عن عكرمةَ بنحوِ هذا. ومنهم مَن أرسلَه عن عكرمةَ، والمتَّصلُ هو الصحيحُ؛ فقد رواه غيرُ واحدٍ مِن التابعين عن ابنِ عبَّاسٍ، ورُوِي مِن طريقِ أميرِ المؤمنين المَهديِّ، عن أبيه؛ أبي جعفرٍ المنصورِ عبدِ الله بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ الله بنِ عبّاسٍ، عن أبيه، عن جدِّه، عن عبدِ الله بنِ عبّاسٍ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«اللهمَّ علِّمْه الكتابَ وفقِّهْه في الدِّينَ»**.

---

(١) **صحيح**: أخرجه البخاري (١٤٣) وليس فيه وعلمه التأويل إنما هي عند أحمد (١/ ٣٢٧) وإسناده جيد وورقاء بن عمر اليشكري، ثقة على الراجح.
وبلفظة «وعلمه التأويل» أخرجه ابن سعد في «الطبقات»، «الكبرىٰ» (٢/ ٢٧٩) بإسناد جيد أيضًا.

(٢) **ضعيف**: أخرجه الترمذي (٣٨٢٢) ثنا محمد بن بشار ومحمود بن غيلان قالا حدثنا أبو أحمد عن سفيان به وقال عقبه: هذا حديث مرسل ولا نعرف لأبي جهضم سماعًا من ابن عباس.

(٣) إسناده **ضعيف جدًّا**: وما برز من إسناده فيه أبو مالك النخعي عبد الملك بن حسين متروك.

(٤) أخرجه البخاري (٧٥) من طريق خالد بن مهران عن عكرمة به كما قال المؤلف.

(٥) إسناده **ضعيف من هذا الوجه**: أخرجه أحمد (١/ ٢٦٩) بهذا الإسناد وفي إسناده ضعف من قبل الحسين بن عبد الله. والحديث بنحوه صح من طرق أخرىٰ.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدّثنا أبو كاملٍ وعفّانُ، المعْنىٰ، قالا: ثنا حمادٌ، ثنا عمارُ بنُ أبي عمَّارٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ قال: «كنتُ مع أبي عندَ النبيِّ ﷺ وعندَه رجلٌ يُناجيه، قال عفَّانُ: وهو كالمُعْرِضِ عن العبَّاسِ، فخرَجنا مِن عنده فقال العبَّاسُ: ألم ترَ إلىٰ ابنِ عمِّك كالمُعرِضِ عنِّي؟ فقلتُ: إنَّه كان عندَه رجلٌ يُناجيه. قال عفَّانُ: قال: أوَكان عندَه أحدٌ؟ قلتُ: نعم. قال: فرجَع إليه فقال: يا رسولَ اللهِ، هل كان عندَك أحدٌ؛ فإنَّ عبدَ اللهِ أخبرَني أنَّه كان عندَك رجلٌ تُناجيه؟ قال: «**هل رأيتَه يا عبدَ الله**» قال: نعم. قال: «**ذاك جبريلُ عليه السلامُ**»[(١)] . وقد رُوِيَ من حديثِ المهديِّ عن آبائه، وفيه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال له: «**أمَا إنَّك ستُصابُ في بصرِك**». فكان كذلك. وقد رُوِيَ من وجهٍ آخرَ أيضًا[(٢)]. واللهُ أعلمُ.

ذكرُ صفةٍ أُخرىٰ لرُؤْيته جبريلَ، رَواها قتيبةُ، عن الدراوَرْديِّ، عن ثورِ بنِ زيدٍ، عن موسىٰ بنِ مَيْسَرةَ أنَّ العبَّاسَ بعَث ابنَه عبدَ اللهِ في حاجةٍ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ، فوجَد عندَه رجلاً، فرجَع ولم يُكلِّمْه من أجلِ مكانِ ذلك الرجلِ، فلَقِي العباسُ رسولَ اللهِ ﷺ بعدَ ذلك، فقال العبَّاسُ: أرسلْتُ إليك ابني فوجَد عندَك رجلاً فلم يستطعْ أن يُكلِّمَك فرجَع وراءَه. فقال رسولُ اللهِ ﷺ: «**يا عمِّ، تدري مَن ذاك الرجلُ؟**» قال: لا. قال: «**ذاك جبريلُ، ولن يموتَ ابنُك حتى يذهَبَ بصرُه ويُؤتَىٰ علمًا**»[(٣)] . ورواه سليمانُ بنُ بلالٍ، عن ثَوْرِ بنِ زيدٍ كذلك، وله طريقٌ أخرىٰ. وقد ورَد في فضائلِ ابنِ عبَّاسٍ أحاديثُ كثيرةٌ منها ما هو منكرٌ جدًّا، أضربْنا عن كثيرٍ منها صفحًا، وذكَرنا ما فيه مَقنعٌ وكفايةٌ عمَّا سواه.

وقال أبو بكرٍ البيهقيُّ: أخبرَنا أبو عبدِ اللهِ الحافظُ، أنبأَ عبدُ اللهِ بنُ الحسنِ القاضي بمَرْوَ، ثنا الحارثُ بنُ محمَّدٍ، أخبرَنا يزيدُ بنُ هارونَ، أخبرَنا جريرُ بنُ حازمٍ، عن يَعْلَىٰ بنِ حكيمٍ، عن عكرمةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ قال: لَمَّا قُبِض رسولُ اللهِ ﷺ قلتُ لرجلٍ من الأنصارِ: هلمَّ فلنسأَلْ أصحابَ رسولِ اللهِ فإنَّهم اليومَ كثيرٌ. فقال: يا عجبًا لك ياابنَ عبَّاسٍ! أترَىٰ الناسَ يفتقرون إليك وفي النَّاسِ من أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ مَن فيهم؟ قال: فترَك ذلك، وأقبلْتُ أنا أسألُ أصحابَ رسولِ اللهِ ﷺ، فإن كان لَيَبْلُغُني الحديثُ عن الرجلِ فآتِي بابَه وهو قائلٌ، فأتوسَّدُ ردائي على بابِه يَسفي الريحُ عليَّ من الترابِ، فيخرُجُ فيراني فيقولُ: ياابنَ عمِّ رسولِ اللهِ، ما جاء بك؟ هلاَّ أرسلْتَ إليَّ فآتيَك؟ فأقولُ:

---

(١) **إسناده لا بأس به**: أخرجه أحمد (١/ ٣١٢) بهذا الإسناد وإسناده لا بأس به لكلام في عمار بن أبي عمار، وقد وهم من ادعىٰ أنه علىٰ شرط مسلم فإن عمار بن أبي عمار لم يرو عن ابن عباس في «صحيح مسلم» إلا حديث واحد وهو شواهد وقد استنكره عليه البخاري في «التاريخ الأوسط» وقد فصلت ذلك في غير هذا الموطن.

(٢) هذا الطريق رواه الطبراني في «الكبير» (١٠/ ٢٩٢) رقم (١٠٥٨٦) من حديث ابن عباس به وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢٧٧) وفيه من لم أعرفه.

(٣) ما برز من الإسناد صحيح: والدراوردي قد توبع كما سيذكر المؤلف.
وقد أورد هذه الطرق الذهبي في «السير» (٣/ ٣٤٠، ٣٤١).

لا ، أنا أحقُّ أنْ آتيَك . قال : فأسأله عن الحديثِ . قال : فعاش هذا الرجلُ الأنصاريُّ حتى رآني وقد اجتَمَع الناسُ حولي يسألوني ، فيقولُ : هذا الفتى كان أعقَلَ مني(١) .

وقال محمدُ بنُ عبد الله الأنصاريُّ: ثنا محمدُ بنُ عمرِو بنِ علقمةَ ، ثنا أبو سلمةَ ، عن ابنِ عبّاسٍ ، قال : وجَدتُ عامَّةَ عِلْمِ رسولِ اللهِ ﷺ عندَ هذا الحيِّ مِن الأنصارِ ، إنْ كنتُ لأَقيلُ ببابِ أحدِهم ، ولو شئتُ أن يُؤذَنَ لي عليه لأذن ، ولكنْ أبتَغِي بذلك طِيبَ نفسه(٢) .

وقال محمدُ بنُ سعد: أخبرَنا محمدُ بنُ عمرَ ، حدَّثني قُدامةُ بنُ موسى ، عن أبي سَلَمةَ الحضْرَميِّ قال : سمِعْتُ ابنَ عبّاسٍ يقولُ : كنتُ ألزَمُ الأكابرَ مِن أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ ؛ مِن المهاجرين والأنصارِ ، فأسألُهم عن مَغازي رسولِ اللهِ ﷺ وما نزَل مِن القرآنِ في ذلك ، وكنتُ لا آتي أحدًا منهم إلا سُرَّ بإتياني ؛ لقُربي مِن رسولِ اللهِ ﷺ ، فجعَلتُ أسألُ أُبيَّ بنَ كَعْبٍ يومًا - وكان مِن الرّاسخينَ في العلمِ - عمَّا نزَل مِن القرآنِ بالمدينةِ . فقال : نزَل سبعٌ وعشرون سورةً وسائرُها بمكّة(٣) .

وقال أحمدُ: عن عبدِ الرزّاقِ ، عن مَعْمَرٍ قال : عامَّةُ علمِ ابنِ عبَّاسٍ مِن ثلاثةٍ ؛ مِن عمرَ وعليٍّ وأُبيِّ بنِ كعبٍ(٤) . وقال طاوسٌ عن ابنِ عبّاسٍ أنَّه قال : إنْ كنتُ لأسألُ عن الأمرِ الواحدِ ثلاثينَ مِن أصحابِ رسولِ اللهِ ﷺ . وقال مغيرةُ ، عن الشعبيِّ قال : قيل لابنِ عبَّاسٍ : أنَّى أصبْتَ هذا العلْمَ؟ قال : بلسانٍ سئولٍ ، وقلبٍ عقولٍ(٥) . وثبَت عن عمرَ بنِ الخطّابِ أنَّه كان يُجلِسُ ابنَ عبَّاسٍ مع مشايخِ الصحابةِ ، ويقولُ : نِعْمَ تُرجمانُ القرآنِ عبدُ الله بنُ عبّاسٍ . وكان إذا أقبَل يقولُ عمرُ : جاء فتى الكُهولِ ، وذو اللسانِ السَّئولِ والقلبِ العَقولِ(٦) . وثبَت في «الصحيحِ» أنَّ عمرَ سأل الصحابةَ عن تفسيرِ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر : ١]. فسكَت بعضٌ وأجاب بعضٌ بجوابٍ لم يرتَضه عمرُ ، ثم سأَل ابنَ عبَّاسٍ عنها فقال : أجَلُ رسولِ اللهِ ﷺ نُعِي إليه . فقال : لا أعلمُ منها إلاَّ ما تَعْلَمَ . وأراد عمرُ بذلك أن يُقرِّرَ عندَهم جلالةَ قَدْرِه ، وكبيرَ منزلتِه في العلمِ والفَهْمِ . وسأَله مرَّةً عن ليلةِ القَدْرِ ، فاستنبَط أنّها في الليلةِ السابعةِ مِن العَشْرِ الأخيرِ ، فاستحسَنه عمرُ واستجاده ، كما ذكَرنا في

---

(١) **إسناده صحيح:** أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد الفضائل» (١٩٢٥) ثنا زياد بن أيوب أبو هاشم ثنا وهب بن جرير ثنا أبي عن يعلى بن حكيم وهو الثقفي به وهذا إسنادٌ صحيح رجاله ثقات .

(٢) **إسناده حسن:** أخرجه يعقوب بن سفيان الفسوي في «المعرفة» (١/ ٥٤٠) بهذا الإسناد وهذا إسنادٌ حسن رجاله ثقات إلا محمد بن عمرو فحسن الحديث .

(٣) **إسناده واه:** أخرجه ابن سعد في «طبقاته» (٢/ ٢٨٣ ، ٢٨٤) بهذا الإسناد ومحمد بن عمر متروك .

(٤) **إسناده جيد إلى معمر:** أخرجه الفسوي في «المعرفة» (١/ ٥٤١) ثنا سلمة حدثنا أحمد بن حنبل بهذا الإسناد .

(٥) **إسناده ضعيف:** أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٨٧٧) عن جرير عن مغيرة به وإسناده ضعيف فإن مغيرة مدلس ولم يدرك ابن عباس .

(٦) **إسناده ضعيف لضعف أبو بكر الهذلي:** أخرجه عبد الرزاق في «المصنف» (٨١٢٣) عن ابن عيينة عن أبي بكر الهذلي قال : دخلت على الحسن وهو يصلي ، فذاكرت ابنه . . . فذكره مطولاً وقال الهيثمي في «المجمع» (٩/ ٢٧٧) : «فيه أبو بكر الهذلي ضعيف» .

التفسير.

وقد قال الحسنُ بنُ عرفَةَ: حدَّثنا يحيىٰ بنُ اليَمان، عن عبدِ الملك بنِ أبي سُليمانَ، عن سعيدِ بنِ جُبَيْر قال: قال عمرُ لابنِ عبَّاسٍ: لقد علمْتَ علمًا ما علمناه. وقال الأوزاعيُّ: قال عمرُ لابنِ عبّاسٍ: إنك لأصبحُ فتياننا وجهًا، وأحسنُهم عقلاً، وأفقهُهم في كتابِ الله عزَّ وجل(١) . وقال مجالدٌ، عن الشعبيِّ، عن ابنِ عباسٍ قال: قال لي أبي: إنَّ عمرَ بنَ الخطابِ يُدنيك ويُجلسُك مع أكابرِ الصحابة، فاحفَظْ عنِّي ثلاثًا؛ لا تفشيَنَّ له سـرًّا، ولا تغتابَنَّ عندَه أحدًا، ولا يُجرِّبَنَّ عليك كذبًا. قال الشعبيُّ: قلتُ لابنِ عبَّاسٍ: كلُّ واحدةٍ خيرٌ من ألفٍ. فقال ابنُ عبّاسٍ: بل كُلُّ واحدةٍ خيرٌ من عشَرةِ آلافٍ(٢) .

وقال الواقديُّ: حدَّثنا عبدُ الله بنُ الفَضْلِ بنِ أبي عبدِ الله، عن أبيه، عن عَطاءِ بنِ يَسارٍ، أنَّ عمرَ وعثمانَ كانا يَدْعُوان ابنَ عبّاسٍ فيُشيرُ مع أهلِ بدرٍ، وكان يُفتي في عهدِ عمرَ وعثمانَ إلىٰ يومِ ماتَ(٣). قلتُ: وشهد فتحَ إفريقيَّةَ سنةَ سبعٍ وعشرين مع ابنِ أبي سَرْح. وقال الزُّهريُّ، عن عليِّ بنِ الحُسَيْنِ، عن أبيه قال: نظَر أبي إلىٰ ابنِ عبَّاسٍ يومَ الجملِ يمشي بينَ الصفَّيْن، فقال: أقرَّ اللهُ عينَ مَن له ابنُ عمٍّ مثلُ هذا. وقد شهِد مع عليٍّ أيضًا صفِّينَ، وكان أميرًا على الميسرةِ، وشهِد معه قتالَ الخوارجِ، وكان ممَّن أشار على عليٍّ بأن يستَنيبَ معاويةَ على الشام، وأن لا يعزِلَه عنها في بادئِ الأمرِ، حتىٰ قال له فيما قال: إن أحبَبْتَ عزلَه فولِّه شهرًا واعزِلْه دهرًا. فأبَىٰ عليه عليٌّ إلاَّ أن يُقاتلَه، فكان ما كان ممّا قد سبَق بيانُه. ولمَّا تراوَض الفريقان على تحكيمِ الحكَمَيْن، طلَب ابنُ عباسٍ أن يكونَ مِن جهةِ عليٍّ، ليُكافِئَ عمرَو بنَ العاصِ، فامتنَعَتْ مَذْحِجُ وأهلُ اليمنِ إلاَّ أن يكونَ من جهةِ عليٍّ أبو موسىٰ الأشعريُّ، فكان من أمرِ الحكَمَيْن ما سلَف أيضًا.

وقد استنابه عليٌّ على البصرةِ وأقام للناسِ الحج في بعضِ السنينَ، فخطَب بهم في عرفاتٍ خُطْبَةً، وفسَّر فيها سورةَ البقرة، وفي روايةٍ: سورةَ النورِ. قال مَن سمِعه: فسَّرَ ذلك تفسيرًا لو سمِعَتْه الرومُ والتُّركُ والدَّيْلَمُ لأسلَموا.

وهو أوَّلُ مَن عرَّف بالناسِ بالبصرةِ، فكان يصعَدُ المنبرَ ليلةَ عرَفَةَ، ويجتمعُ أهلُ البصرةِ حولَه فيُفسِّرُ شيئًا من القرآنِ، ويُذكِّرُ الناسَ من بعدَ العصرِ إلى الغروبِ، ثم ينزِلُ فيصلِّي بهم المغربَ. وقد اختلَف العلماءُ بعدَه في ذلك؛ فمنهم مَن كرِه ذلك وقال: هو بدعةٌ لم يعمَلْها رسولُ الله ﷺ ولا أحدٌ من الصحابةِ إلاَّ ابنَ عبَّاسٍ، ومنهم مَن استحبَّ ذلك لأجلِ ذكرِ اللهِ وموافقةِ الحُجَّاجِ.

---

(١) **إسناده مرسل:** أخرجه الفسوي في «المعرفة» (١/ ٥٣٤) عن عليِّ بن عثمان بن نفيل قال: حدثنا أبو مسهر قال: حدثني بعض أصحاب الأوزاعي وليد بن يزيد أنه سمع الأوزاعي فذكره والأوزاعي بينه وبين عمر زمان

(٢) **إسناده ضعيف:** أخرجه الإمام أحمد في «الفضائل» (١٨٦٢) من هذا الطريق ومجالد بن سعيد ضعيف.

(٣) في إسناده الواقدي وهو متروك.

وقد كان ابنُ عبَّاسٍ ينتقدُ على عليٍّ في بعضِ أحكامه فيرجعُ إليه عليٌّ في ذلك، كما قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا إسماعيلُ، حدَّثنا أيوبُ، عن عكرمةَ، أنَّ عليًّا حرَّق ناسًا ارتدُّوا عن الإسلام، فبلَغ ذلك ابنَ عبَّاسٍ فقال: لم أكنْ لأحرِّقَهم بالنَّارِ، إنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«لا تُعذِّبوا بعذابِ الله»**. وكنتُ قاتِلَهم؛ لقولِ رسولِ الله ﷺ: **«مَنْ بدَّلَ دينَه فاقْتُلُوه»**. فبلَغ ذلك عليًّا فقال: ويحَ ابنِ عبَّاسٍ! وفي روايةٍ: ويحَ ابنِ عباسٍ، إنَّه لغوَّاصٌ على الهَنَاتِ[1]. وقد كافأه عليٌّ، فإنَّ ابنَ عبَّاسٍ كان يرى إباحةَ المُتعةِ، وتحليلَ الحُمُرِ الإنسيَّةِ، فقال له عليٌّ: إنَّك امرؤٌ تائهٌ؛ إنَّ رسولَ الله ﷺ نَهَى عن نكاحِ المتعةِ، وعن لحومِ الحُمُرِ الإنسيَّةِ يومَ خَيْبرَ. وهذا الحديثُ مُخرَّجٌ في «الصحيحيْنِ» وغيرِهما، وله ألفاظٌ هذا من أحسنِها. واللهُ سبحانه وتعالى أعلمُ.

وقال البيهقيُّ: أنبأ أبو عبدِ الله الحافظُ قال: سمعتُ أبا بكرِ بنَ المُؤَمَّلِ يقولُ: سمعتُ أبا نصر ابنَ أبي ربيعةَ يقولُ: وردَ صَعْصَعةُ بنُ صُوْحانَ على عليِّ ابنِ أبي طالبٍ من البصرةِ، فسألَه عن ابنِ عبَّاسٍ - وكان علي خلافته بها - فقال صَعْصَعةُ: يا أميرَ المؤمنين، إنَّه آخذٌ بثلاثٍ، وتاركٌ لثلاثٍ؛ آخذٌ بقلوبِ الرجالِ إذا حَدَّثَ، وبحُسنِ الاستماعِ إذا حُدِّثَ، وبأيسرِ الأمريْنِ إذا خُولِف. وتركِ المِراءِ ومقارنةِ اللئيمِ، وما يعتَذَرُ منه[2].

وقال الواقديُّ: ثنا أبو بكرِ ابنُ أبي سَبْرَةَ، عن موسى بنِ سعدٍ، عن عامرِ بنِ سعدِ ابنِ أبي وقَّاصٍ عن أبيه قال: ما رأيتُ أحدًا أحضرَ فَهمًا ولا ألَبَّ لُبًّا، ولا أكثرَ علمًا، ولا أوسعَ حلمًا من ابنِ عبَّاسٍ، ولقد رأيتُ عمرَ يدعوه للمعضلاتِ ثم يقولُ: عندكَ، قد جاءتك معضلةٌ. ثم لا يُجاوزُ قولَه، وإنَّ حولَه لأهلُ بدرٍ من المهاجرين والأنصارِ[3]. وقال الأعمشُ، عن أبي الضُّحَى، عن مسروقٍ قال: قال عبدُ الله بنُ مسعودٍ: لو أدركَ ابنُ عبَّاسٍ أسنانَنا ما عشَّرَه منَّا أحدٌ[4]. وكان يقولُ: نِعمَ تُرْجمانُ القرآنِ ابنُ عبَّاسٍ. وعن ابنِ عمرَ أنَّه قال: ابنُ عبَّاسٍ أعلمُ النَّاسِ بما أنزَل اللهُ على محمدٍ ﷺ.

وقال محمدُ بنُ سعد: حدَّثنا محمدُ بنُ عمرَ، حدَّثني يحيى بنُ العلاءِ، عن يعقوبَ بنِ زيدٍ، عن أبيه قال: سمعتُ جابرَ بنَ عبدِ الله يقولُ حينَ بلَغه موتُ ابنِ عبَّاسٍ، وصفَّق بإحدَى يدَيه الأخرى:

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (١/ ٢١٧) بهذا الإسناد وليس في متنه إنه لغواص على الهنات وإسناده صحيح رجاله ثقات. وقد روي الحديث عن قتادة عن عكرمة واختلف على قتادة فيه على الرفع والإرسال وصوابه من هذا الوجه مرسلاً كما قال النسائي عقب حديث (٤٠٧٤) في المجتبى وقال الدراقطني في «السنن» (٣/ ١٠٨) على الوجه الذي أورده المؤلف هنا: «هذا ثابت صحيح».

(٢) إسناده منقطع بين نصر بن أبي ربيعة وصعصعة.

(٣) هذا إسناد واه.

(٤) **إسناده صحيح**: أخرجه أحمد في «الفضائل» (١٥٦٢) عن عبد الرزاق عن سفيان وبرقم (١٨٦٣) عن جعفر بن عون كلاهما [جعفر وسفيان] عن الأعمش به وهذا إسناد صحيح رجاله ثقات.

ماتَ اليومَ أعلمُ النَّاسِ وأحلمُ الناسِ، ولقد أصيبَتْ به هذه الأمةُ مصيبةً لا تُرْتَقُ. وبه إلى يحيى بنِ العلاء، عن عمرَ بنِ عبدِ الله، عن أبي بكرِ بنِ محمدِ بنِ عمرِو بنِ حَزْمٍ، قال: لما ماتَ ابنُ عبَّاسٍ قال رافعُ بنُ خَديجٍ: ماتَ اليومَ مَن كان يحتاجُ إليه مَن بينَ المشرقِ والمغربِ في العلمِ (١).

قال الواقديُّ: وحدَّثني أبو بكرِ بنُ عبدِ الله بنِ أبي سَبْرةَ، عن عمرِو بنِ أبي عمرٍو، عن عكرمةَ قال: سمعتُ معاويةَ يقولُ: مَوْلاك واللهِ أفقهُ مَن ماتَ ومَن عاشَ.

وروىٰ ابنُ عساكرَ، عن ابنِ عباسٍ قال: دخَلْتُ علىٰ معاويةَ حينَ كان الصُّلحُ وأولَ ما التقيتُ أنا وهو، فإذا عندَه أناسٌ، فقال: مرحبًا يا بنَ عبَّاسٍ، ما تحاكَتِ الفتنةُ بيني وبينَ أحدٍ كان أعزَّ عليَّ بُعدًا ولا أحبَّ إليَّ قُربًا، الحمدُ لله الذي أماتَ عليًّا. فقلتُ له: إنَّ اللهَ لا يُذَمُّ في قضائه، وغيرُ هذا الحديثِ أحسنُ منه، ثم قلت له: إنِّي أُحبُّ أن تُعفيَني من ابنِ عمِّي وأُعفيَك من ابنِ عمِّك. قال: ذلك لك. وقالتْ عائشةُ وأمُّ سلَمةَ حينَ حجَّ ابنُ عباسٍ بالنَّاسِ: هو أعلمُ النَّاسِ بالمناسكِ. وقال ابنُ المبارك، عن داودَ بنِ أبي هِنْدٍ، عن الشَّعْبيِّ قال: ركِبَ زيدُ بنُ ثابتٍ فأخَذ ابنُ عبَّاسٍ بركابِه، فقال: لا تفعَلْ يا بنَ عمِّ رسولِ الله ﷺ. قال: هكذا أُمِرْنا أنْ نفعَلَ بعلمائنا. فقال له زيدٌ: أرِني يديك. فأخرَج يدَيه، فقبَّلَهما، وقال: هكذا أُمِرْنا أنْ نفعلَ بأهلِ بيتِ نبيِّنا (٢).

وقال الواقديُّ: حدَّثني داودُ بنُ جُبَيْرٍ، سمعتُ ابنَ المسيِّبِ يقولُ: ابنُ عبَّاسٍ أعلمُ الناسِ. وحدَّثني عبدُ الرحمنِ بنُ أبي الزِّنادِ، عن أبيه، عن عبيدِ الله بنِ عبدِ الله بنِ عُتْبَةَ قال: كان ابنُ عبَّاسٍ قد فاتَ الناسَ بخصالٍ؛ بعلمِ ما سبَقه، وفقهٍ فيما احتيجَ إليه من رأيِه، وحلمٍ ونسَبٍ ونائلٍ، وما رأيتُ أحدًا كان أعلمَ بما سبَقَه من حديثِ النبيِّ ﷺ منه، ولا بقضاءِ أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ منه، ولا أفقهَ في رأيٍ منه، ولا أعلمَ بشعرٍ ولا عربيَّةٍ، ولا بتفسيرِ القرآنِ ولا بحسابٍ، ولا بفريضةٍ منه، ولا أعلمَ بما مضىٰ، ولا أثبتَ رأيًا فيما احتيجَ إليه منه، ولقد كان يَجلسُ يومًا ما يذكُرُ فيه إلاَّ الفقهَ، ويومًا التأويلَ، ويومًا المغازيَ، ويومًا الشعرَ، ويومًا أيامَ العربِ، وما رأيتُ عالمًا قطُّ جلَس إليه إلاَّ خضَع له، وما رأيتُ سائلاً قطُّ سألَه إلاَّ وجَد عندَه علمًا. قال: وربَّما حفظتُ القصيدةَ من فيه يُنشدُها ثلاثين بيتًا. وقال هشامُ بنُ عُروةَ، عن أبيه: ما رأيتُ مثلَ ابنِ عبَّاسٍ قطُّ. وقال عطاءٌ: ما رأيتُ مجلسًا قطُّ أكرمَ من مجلسِ ابنِ عبّاسٍ أكثرَ فقهًا، ولا أعظمَ هَيْبَةً؛ أصحابُ القرآنِ يَسألونَه، وأصحابُ العربيةِ يَسألونَه، وأصحابُ الشعرِ عندَه يَسألونه، فكلُّهم يصدُرُ في وادٍ واسعٍ.

وقال الواقديُّ: حدَّثني بشرُ بنُ أبي سُلَيمٍ، عن ابنِ طاوُسٍ، عن أبيه، قال: كان ابنُ عبّاسٍ قد بسَق على الناسِ في العلمِ كما تَبْسُقُ النخْلةُ السَّحُوقُ علىٰ الوَدِيِّ الصِّغارِ. وقال ليثُ بنُ أبي سُلَيمٍ:

---

(١) إسناد اللفظين واه لحال الواقدي فإنه متروك.

(٢) ما برز من الإسناد صحيح والشعبي يدرك زيد بن ثابت بالسن ولم ينف أحد سماعه.

قلتُ لطاوسٍ: لِمَ لَزِمتَ هذا الغلامَ - يعني ابنَ عبَّاسٍ - وتركْتَ الأكابرَ من الصحابة؟ فقال: إنِّي رأيتُ سبعين من الصحابة إذا تَدارءُوا في شيءٍ صاروا إلىٰ قوله. وقال طاوسٌ أيضًا: ما رأيتُ أفقهَ منه. قال: وما خالَفه أحدٌ قطُّ فتركه حتىٰ يُقرِّرَه[1].

وقال عليُّ بنُ المدينيِّ، ويحيى بنُ معين، وأبو نُعيم، وغيرُهم، عن سفيانَ بنُ عُيَيْنَةَ، عن ابنِ أبي نَجيح، عن مجاهدٍ، قال: ما رأيتُ مثلَه قطُّ، ولقد مات يومَ مات وإنَّه لَحَبرُ هذه الأمةِ. يَعني ابنَ عبّاسٍ[2].

وقال أبو بكرِ ابنُ أبي شَيْبةَ وغيرُه، عن أبي أسامةَ، عن الأعمشِ، عن مجاهدٍ. قال: كان ابنُ عبَّاسٍ يُسمَّىٰ البحرَ لكثرة علمه[3].

وروىٰ الواقديُّ، والزبيرُ بنُ بكّارٍ، عن مجاهدٍ أنَّه قال: كان ابنُ عبّاسٍ أَمَدَّهم قامةً، وأعظمَهم جَفْنةً، وأوسعَهم علمًا. وقال مجاهدٌ أيضًا: ما رأيتُ أحدًا قطُّ أعربَ لسانًا من ابنِ عبّاسٍ؛ وعن عمرِو بنِ دينارٍ، قال: ما رأيتُ مجلسًا قطُّ أجمَع لكلِّ خيرٍ من مجلسِ ابنِ عبّاسٍ؛ الحلالُ والحرامُ وتفسيرُ القرآنِ، والعربيةُ والشعرُ، والطعامُ.

وقال محمدُ بنُ سعد: ثنا عفَّانُ بنُ مُسلمٍ، ثنا سُلَيمُ بنُ أَخْضَرَ، عن سليمانَ التَّيميِّ، قال: أنبَأني مَن أرسَله الحكمُ بنُ أيوبَ إلىٰ الحسنِ يسألُه: مَن أولُ مَن جمَّع بالنَّاسِ في هذا المسجدِ يومَ عرَفةَ؟ فقال: إنَّ أولَ مَن جمَّع ابنُ عبَّاسٍ. وكان رجلاً مِثَجًّا - أحسَبُ في الحديث - كثيرَ العلمِ، وكان يصعَدُ المِنبرَ فيقرأُ سورةَ البقرةِ ويُفسِّرُها آيةً آيةً[4]. وقد رُوِي من وجهٍ آخرَ عن الحسنِ البصريِّ نحوَه.

وقال عبدُ الله بنُ مسلمِ بنِ قُتَيْبَةَ الدِّيْنَوريُّ: روىٰ سفيانُ، عن أبي بكرٍ الهُذَليِّ عن الحسنِ قال: كان ابنُ عبّاسٍ أوَّلَ مَن عرَّف بالبصرةِ؛ صعد المِنبرَ فقرأ البقرةَ وآلَ عمرانَ ففسَّرهما حرفًا حرفًا، وكان مِثَجًّا. قال ابنُ قُتيبةَ: مِثَجًّا، من الثَّجِّ، وهو السَّيَلانُ، قال اللهُ تعالىٰ: ﴿**وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا**﴾ [النبأ: ١٤]. وقيل: كثيرًا بسرعةٍ.

وقال يونسُ بنُ بُكَيْر: حدَّثنا أبو حمزةَ الثُّماليُّ، عن أبي صالحٍ، قال: لقد رأيتُ من ابنِ عبَّاسٍ مجلسًا لو أنَّ جميعَ قريشٍ فخَرَتْ به لكان لها فخرًا؛ لقد رأيتُ الناسَ اجتمَعوا حتىٰ ضاق بهم الطريقُ، فما كان أحدٌ يقدرُ علىٰ أن يجيءَ، ولا أن يذهَبَ. قال: فدخَلتُ عليه فأخبَرتُه بمكانهم علىٰ بابِه. فقال لي: ضعْ لي وَضوءًا. قال: فتوضأ وجلَس، وقال: اخرُجْ فقلْ لهم: مَن كان يريدُ أن يسألَ عن القرآنِ وحروفِه وما أراد منه فليدخُلْ. قال: فخرَجْتُ فأذنتُهم فدخَلوا حتىٰ ملَئُوا البيتَ

---

(١) إسنادٌ مطروح لحال الواقدي. (٢) ما برز من إسناده رجاله ثقات.

(٣) **صحيح عنه**: أخرجه أحمد في «الفضائل» (١٩٢٠) عن أبي معمر وعثمان ابن أبي شيبة عن أبي أُسامة به وإسناده صحيح رجاله ثقات.

(٤) **إسناده ضعيف**: لإبهام من حدَّث سليمان التيمي.

والحجرةَ، فما سألوه عن شيءٍ إلاَّ أخبرهم عنه وزادَهم مثلَ ما سألوا عنه أو أكثرَ. ثم قال: إخوانَكم. فخرجوا. ثم قال: اخرُجْ فقلْ: مَن كان يريدُ أن يسألَ عن تفسيرِ القرآنِ أو تأويله فليدخُلْ. قال: فخرجْتُ فأذنتُهم. قال: فدخَلوا حتى ملَئُوا البيتَ والحجرةَ، فما سألوه عن شيءٍ إلاَّ أخبَرهم به، وزادهم مثل ما سألوا وأكثرَ. ثم قال: إخوانَكم. فخرَجوا. ثم قال: اخرُجْ فقل: مَن أراد أن يسألَ عن الحلالِ والحرامِ والفقهِ فليَدْخُلْ. فخرَجْتُ فقلتُ لهم، فدخَلوا حتى مَلَئُوا البيتَ والحجرةَ، فما سألوه عن شيءٍ إلاَّ أخبَرهم به وزادَهم مثلَه، ثم قال: إخوانَكم. فخرَجوا، ثم قال: اخرُجْ، فقلْ: مَن أرادَ أنْ يسألَ عن الفرائضِ وما أشبَهَها فليدخُلْ. قال: فخرَجتُ فأذنتُهم، فدَخلوا حتى مَلَئُوا البيتَ الحُجرةَ، فما سألوه عن شيءٍ إلاَّ أخبَرَهم به وزادَهم مثلَه. ثم قال: إخوانَكم. فخرَجوا، ثم قال: اخرُجْ فقُلْ: مَن أراد أنْ يسألَ عن العربيةِ والشعرِ والغريبِ من الكلامِ فليدخُلْ. قال: فدخَلوا حتى ملئُوا البيتَ والحجرةَ، فما سألوه عن شيءٍ إلاَّ أخبَرَهم به وزادَهم مثلَه. قال أبو صالح: فلو أنَّ قريشًا كلَّها فخَرَتْ بذلك لكان فخرًا، فما رأيتُ مثلَ هذا لأحدٍ من النّاسِ[١].

وقال طاوسٌ وميمونُ بنُ مهرانَ: ما رأَينا أورَعَ من ابنِ عمرَ، ولا أفقهَ من ابنِ عبَّاسٍ. قال ميمونٌ: وكان ابنُ عبّاسٍ أفقهَهما. وقال شَريكٌ القاضي، عن الأعمشِ، عن أبي الضُّحَى، عن مسروقٍ قال: كنتُ إذا رأيتُ ابنَ عبَّاسٍ قلتُ: أجملُ الناسِ. فإذا نطَق قلتُ: أفصَحُ النَّاسِ. فإذا تحدَّثَ قلتُ: أعلمُ النَّاسِ.

وقال يعقوبُ بنُ سُفيانَ: ثنا أبو النُّعمانِ، ثنا حمادُ بنُ زيدٍ، عن الزبيرِ بنِ الخِرِّيتِ، عن عكرمةَ قال: كان ابنُ عباسٍ أعلمَهما بالقرآنِ[٢]، وكان عليٌّ أعلمَهما بالمُبْهَماتِ. وقال إسحاقُ بنُ راهويه: إنما كان كذلك؛ لأنَّ ابنَ عبَّاسٍ كان قد أخَذ ما عندَ عليٍّ من التفسيرِ، وضمَّ إلى ذلك ما أخَذه عن أبي بكرٍ، وعمرَ، وعثمانَ، وأُبيِّ بنِ كعبٍ، وغيرِهم من كبارِ الصحابةِ، مع دعاءِ رسولِ الله ﷺ له أن يُعلِّمَه اللهُ الكتابَ[٣].

وقال أبو مُعاويةَ، عن الأعمشِ، عن أبي وائلٍ شقيقِ بنِ سَلَمةَ قال: خطَب ابنُ عبَّاسٍ وهو على المَوْسِمِ فافتتَح سورةَ البقرةِ فجعَل يقرَؤُها ويُفسِّرُ، فجعَلْتُ أقولُ: ما رأيتُ ولا سمعتُ كلامَ رجلٍ مثلَه، لو سمِعَتْه فارسُ والرومُ لأسلمَتْ[٤]. وقد روَى أبو بكرِ بنُ عيَّاشٍ، عن عاصمِ بنِ أبي

---

(١) إسناده ضعيف: لضعف أبي حمزة الثمالي وهو ثابت ابن أبي صفية ضعيف رافضي.

(٢) إسناده صحيح رجاله ثقات: أخرجه الفسوي في «المعرفة» (١/ ٤٩٥) عن سليمان بن حرب عن حماد بن زيد به بنحوه.

(٣) صحيح تقدم.

(٤) أخرجه الفسوي في المعرفة (١/ ٤٩٥) عن قبيصة عن سفيان عن الأعمش عن أبي وائل قال قرأ ابن عباس . . . فذكره وهو صحيح.

النَّجُودِ، عن أبي وائلٍ، أنَّ ابنَ عباسٍ حجَّ بالناسِ عامَ قَتْلِ عثمانَ، فقرأَ سورةَ النورِ ففسَّرها. وذكَر نحوَ ما تقدَّم. فلعلَّ الأولَ كان في زمانِ عليٍّ، فقرأَ في تلك الحَجَّةِ سورةَ البقرةِ، وفي فِتْنةِ عثمانَ سورةَ النورِ. واللهُ أعلمُ.

وقد رُوِّينا عن ابنِ عباسٍ أنه قال: أنا مِن الراسخين في العلمِ الذين يعلَمون تأويلَه. وقال مجاهدٌ: عرَضْتُ القرآنَ على ابنِ عبَّاسٍ مرَّتين، مِن أولِه إلى آخرِه، أقفُ عندَ كلِّ آيةٍ فأسألُه عنها[1]. وروي عنه أنَّه قال: أربعٌ مِن القرآنِ لا أدري ما هي؛ الأوّاهُ، والحَنانُ، والرَّقيمُ، والغسلينُ، وكلُّ القرآنِ أعلَمُه إلاَّ هذه الأربعَ. وقال ابنُ وهبٍ وغيرُه، عن سفيانَ بنِ عُيينةَ، عن عبيدِ اللهِ بنِ أبي يزيدَ، قال: كان ابنُ عباسٍ إذا سُئِل عن مسألةٍ؛ فإنْ كانت في كتابِ اللهِ قال بها، وإن لم تكُنْ وهي في السُّنَّةِ قال بها، فإنْ لم يقُلْها رسولُ اللهِ ﷺ ووجَدَها عن أبي بكرٍ وعمرَ قال بها، وإلاَّ اجتهَد رأيَه.

وقال يعقوبُ بنُ سفيانَ: ثنا أبو عاصمٍ وعبدُ الرحمنِ بنُ حمّادٍ الشُّعَيثيُّ، عن كَهْمَسِ بنِ الحسنِ، عن عبدِ اللهِ بنِ بُرَيْدةَ، قال: شتَم رجلٌ ابنَ عبَّاسٍ فقال: إنّك لتشتُمُني وفيَّ ثلاثُ خصالٍ، إنِّي لآتي على الآيةِ من كتابِ اللهِ فلَوددت أنَّ الناسَ علموا منها مثلَ الذي أعلَمُ، وإنِّي لأسمَعُ بالحاكمِ من حكَّامِ المسلمينَ يَقضي بالعدلِ، فأفرَحُ به، ولعلِّي لا أقاضي إليه أبدًا، وإنِّي لأسمَعُ بالغيثِ يُصيبُ الأرضَ مِن أرضِ المسلمينَ فأفرَحُ به، وما لي بها مِن سائمةٍ أبدًا[2]. ورَواه البيهقيُّ، عن الحاكمِ، عن الأصمِّ، عن الحسنِ بنِ مُكْرمٍ، عن يزيدَ بنِ هارونَ، عن كَهْمَسٍ به.

وقال الواقديُّ: سأَل رجلٌ ابنَ عبّاسٍ عن قولِه تعالى: ﴿أَنَّ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا﴾ [الانبياء: ٣٠]. فقال: كانتِ السماءُ رَتْقًا لا تَمطُرُ، والأرضُ رَتْقًا لا تُنبِتُ، ففتَق هذه بالمطرِ وهذه بالنباتِ. وقال ابنُ أبي مُلَيْكَةَ: صحِبتُ ابنَ عبّاسٍ مِن المدينةِ إلى مكَّةَ، وكان يُصلِّي ركعتَيْن، فإذا نزَل قام شَطْرَ الليلِ ويُرتِّلُ القرآنَ؛ يقرأُ حرفًا حرفًا، ويُكثِرُ في ذلك مِن النشيجِ والنَّحيبِ، ويقرأُ: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ [ق: ١٩][3].

وقال الأصمعيُّ، عن المعتمرِ بنِ سليمانَ، عن شُعَيْبِ بنِ درهمٍ، قال: كان في هذا المكانِ - وأومأ إلى مجرَى الدموعِ مِن خدَّيْه - مِن خدَّي ابنِ عبّاسٍ - مثلُ الشِّراكِ البالي مِن البكاءِ. وقال غيرُه: كان يصومُ يومَ الإثنَيْنِ والخميسِ، ويقولُ: أُحِبُّ أن يُرفَعَ عمَلي وأنا صائمٌ. وروَى هشيمٌ وغيرُه، عن

---

(١) إسناده حسن لغيره: أخرجه عبد الله في «زوائد الفضائل» (٢٨٦٨) من طريق خصيف عن مجاهد وقد تابع خصيف شريك النخعي في «الفضائل» برقم (٢٨٦٧).

(٢) إسناده صحيح إلى عبد الله بن بريدة: أخرجه الفسوي في «المعرفة» (١/ ٥٢٦) بهذا الإسناد وهو صحيح رجاله ثقات.

(٣) إسناده لا بأس به: أخرجه الفسوي في «المعرفة» (١/ ٥٣٤) ورجاله ثقات إلا صالح بن رستم متكلَّم فيه والأقرب فيه أن يقال لا بأس به ومن ضعفه له وجه إلا أن الآثار يُتساهل فيها والله أعلم.

عليٍّ بنِ زيدٍ، عن يُوسُفَ بنِ مِهْرانَ، عن ابنِ عبّاسٍ أنَّ مَلِكَ الرومِ كتَب إلىٰ معاويةَ يسألُه عن أحبِّ الكلامِ إلىٰ اللهِ، عزَّ وجلَّ، ومَن أكرمُ العبادِ على اللهِ، عزَّ وجلَّ، ومَن أكرمُ الإماءِ علىٰ اللهِ عزَّ وجلَّ، وعن أربعةٍ فيهم الروحُ لم يركُضُوا في رَحِمٍ، وعن قبرٍ سار بصاحبِه، وعن مكانٍ من الأرضِ لم تطلُعْ عليه الشمسُ إلاَّ مرَّةً واحدةً، وعن قوسِ قُزَحَ ما هو؟ وعن المَجرَّة. فبعَث معاويةُ فسأل ابنَ عبّاسٍ عنهن، فكتَب ابنُ عباسٍ إليه: أمّا أحبُّ الكلامِ إلىٰ اللهِ فسبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ، ولا إلهَ إلا اللهُ، واللهُ أكبرُ، ولا حولَ ولا قوةَ إلاَّ باللهِ، وأكرَمُ العبادِ علىٰ اللهِ آدمُ؛ خلَقه بيدِه، ونفَخ فيه مِن روحِه، وأسجَد له ملائكتَه، وعلَّمه أسماءَ كُلِّ شيءٍ، وأكرمُ الإماءِ علىٰ اللهِ مريمُ بنتُ عِمرانَ، وأمَّا الأربعةُ الذين لم يركُضوا في رَحِمٍ؛ فآدمُ وحواءُ، وعصَا موسىٰ، وكبشُ إبراهيمَ الذي فدَىٰ به إسماعيلَ ـ وفي روايةٍ ـ وناقةُ صالحٍ ـ وأمّا القبرُ الذي سار بصاحبِه فهو حوتُ يونُسَ، وأمّا المكانُ الذي لم تُصِبْهُ الشمسُ إلاَّ مرَّةً واحدةً فهو البحرُ الذي انفلَق لموسىٰ حتىٰ جاز بنو إسرائيلَ فيه، وأما قَوسُ قُزَحَ فأمانٌ لأهلِ الأرضِ مِن الغرقِ، والمَجرَّةُ بابُ السماءِ، وفي روايةٍ: الذي تنشَقُّ منه. فلمَّا قرَأ مَلِكُ الرومِ ذلك أعجبَه وقال: واللهِ ما هي مِن عندِ معاويةَ ولا مِن قولِه، وإنَّما هي مِن عندِ أهلِ بيتِ النبيِّ ﷺ[1]. وقد ورَد في هذه الأسئلةِ رواياتٌ كثيرةٌ، وزياداتٌ كثيرةٌ فيها، وفي بعضِها نَظَرٌ؛ أنَّه سألَه عن مَن لا قِبْلَ له، وعن مَن لا عشيرةَ له، وعن مَن لا أبَ له، وعن شيءٍ، ونصفِ شيءٍ، ولا شيءٍ، وأرسَل قارورةً؛ فقال: ابعَثْ إليَّ في هذه ببَزْرِ كلِّ شيءٍ. فكتَب إليه يقولُ: أمّا الذي لا قِبْلَ له فاللهُ عزَّ وجلَّ، وأمّا مَن لا عشيرةَ له فآدمُ عليه السلامُ، وأمَّا مَن لا أبَ له فعيسىٰ عليه السلامُ، وأمّا عن شيءٍ، فهو العاقلُ يعمَلُ بعقْلِه، وأمَّا نصفُ شيءٍ، فالذي له عَقْلٌ ويعمَلُ برأيِ غيرِه، وأمّا لا شيءَ، فالذي لا عقْلَ له ولا يعمَلُ بعقلِ غيرِه. وملأَ القارورةَ ماءً وقال: هذا بَزْرُ كلِّ شيءٍ. فأعْجَب ذلك ملكَ الرُّومِ جدًّا. واللهُ أعلمُ.

فصلٌ

تولَّىٰ ابنُ عبّاسٍ إمامةَ الحجِّ سنةَ خمسٍ وثلاثين، بأمرِ عثمانَ بنِ عفَّانَ له وهو محصورٌ، وفي غيبتِه هذه قُتِلَ عثمانُ. وحضَر مع عليٍّ يومَ الجملِ، وكان علىٰ الميسرةِ يومَ صِفِّينَ، وشهِد قتالَ الخوارجِ، وتأمَّر علىٰ البصرةِ مِن جهةِ عليٍّ، فكان إذا خرَج منها يَستخلِفُ أبا الأسودِ الدُّؤليَّ علىٰ الصلاةِ، وزيادَ بنَ أبي سُفيانَ علىٰ الخَراجِ، وكان أهلُ البصرةِ مَغْبوطينَ به؛ يُفقِّهُهم ويُعلِّمُ جاهلَهم، ويَعِظُ مُجرِمَهم، ويُعطِي فقيرَهم، فلم يزَلْ عليها حتىٰ مات عليٌّ، ويُقالُ: إنَّ عليًّا عزلَه عنها قبلَ موتِه، ثم وفَد علىٰ معاويةَ، فأكرَمه وقرَّبه واحترَمه وعظَّمه، وكان يُلْقِي عليه المسائلَ المعضلَةَ فيُجيبُ

---

(١) **إسناده ضعيف**: أخرجه الفسوي في «المعرفة» (١/ ٥٣٠، ٥٣١) حدثني المعلى بن أسد قال حدثنا عبد الوارث عن علي بن زيد به وإسناده ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان.

فيها سريعًا ؛ فكان معاويةُ يقولُ : ما رأيتُ أحدًا أحضرَ جوابًا من ابنِ عبّاس . ولمّا جاء الكتابُ بموت الحسنِ بنِ عليٍّ اتّفق كونُ ابنِ عبّاس عند معاويةَ فعزّاه فيه بأحسنِ تعزية ، وردَّ عليه ابنُ عبّاس ردًّا حسنًا كما قدّمنا ، وبعث معاويةُ ابنَه يزيدَ فجلس بينَ يدَي ابنِ عبّاس ، فعزّاه فيه بعبارةٍ فصيحةٍ بليغةٍ وجيزةٍ ، شكره عليها ابنُ عباس وقد تقدَّم ذلك أيضًا . ولمّا مات معاويةُ ورام الحسينُ بنُ عليٍّ الخروجَ إلى العراق ، نهاه ابنُ عبّاس أشدَّ النَّهي ، ولامَه على عزمِه ذلك آكَدَ اللَّوْم ، وأرادَ ابنُ عباس أن يتعلَّقَ بثيابِ الحُسينِ - لأنَّ ابنَ عبّاس كان قد أضرَّ في آخرِ عمرِه - فلم يقبلْ منه ، فلمّا بلغه موتُه حزن عليه حُزنًا شديدًا ولزم بيتَه ، وكان يقولُ : يا لسانُ ، قلْ خيرًا تغنَمْ ، واسكُتْ عن شرٍّ تسلَمْ ، فإنَّك إنْ لا تفعَلْ تندَمْ . وجاء إليه رجلٌ يقالُ له : جُندَبٌ . فقال له : أَوْصِني . فقال : أُوصيكَ بتوحيدِ الله والعملِ له ، وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاة ، فإنَّ كلَّ خيرٍ أنت آتيه بعدَ ذلك مقبولٌ ، وإلى الله مرفوعٌ ، يا جُنْدَبُ ، إنَّك لن تزدَادَ من يومِك إلاَّ قُربًا ، فصَلِّ صلاةَ مُودِّعٍ ، وأصبِحْ في الدنيا كأنَّك غريبٌ مسافرٌ ؛ فإنَّك من أهلِ القبور ، وابكِ على ذنبِك ، وتُبْ من خطيئتك ، ولْتكُنِ الدنيا أهونَ عليك من شِسْعِ نعلك ، وكأن قد فارقتَها وصِرْتَ إلى عدلِ الله ، ولن تَنتَفعَ بما خلَّفْتَ ، ولن ينفعَك إلاَّ عملُك . وقال بعضُهم : أوصى ابنُ عبّاس بكلماتٍ خيرٍ من الخيلِ الدُّهْم ، قال : لا تكلَّمَنَّ فيما لا يَعنيك حتى ترَى له موضعًا ، ولا تُمارِيَنَّ سفيهًا ولا حليمًا ؛ فإنَّ الحليمَ يَغلِبُك والسفيهَ يزدَريك ، ولا تذكُرَنَّ أخاك إذا توارَى عنك إلاَّ بمثلِ الذي تُحِبُّ أنْ يتكلَّمَ فيك إذا تواريْتَ عنه ، واعمَلْ عملَ رَجُلٍ يعلَمُ أنَّه مَجْزيٌّ بالإحسانِ مأخوذٌ بالإجرام . فقال رجلٌ عندَه : يا ابنَ عبّاس ، هذا خيرٌ من عشَرةِ آلاف . فقال ابنُ عبّاس : كلمةٌ منه خيرٌ من عشَرةِ آلاف .

وقال ابنُ عبّاس : تمامُ المعروفِ تعجيلُه وتصغيرُه وسترُه . يعني أن تُعجِّلَ العطيَّةُ للمُعطَى ، وأن تصغُرَ في عينِ المُعطِي ، وأن تستُرَها عنِ النّاسِ فلا تُظهِرَها ؛ فإنَّ في إظهارِها فتحَ بابِ الرياءِ وكسرَ قلبِ المُعطَى ، واستحياءَه من النّاس .

وقال ابنُ عبّاس : أعزُّ النّاسِ عليَّ جليسي ؛ لو استطعتُ أنْ لا يقعَ الذُّبابُ على وجهِه لفعَلْتُ . وقال أيضًا : لا يُكافئ مَن أتاني يطلُبُ حاجةً فرآني لها موضعًا إلاَّ اللهُ ، عزَّ وجلَّ ، وكذا رجلٌ بدأني بالسلام ، أو أوسعَ لي في مجلس ، أو قام لي عن المجلس ، أو رجلٌ سقاني شَرْبةَ ماءٍ على ظمأ ، أو رجلٌ حَفِظني بظَهْرِ الغيب . والمأثورُ عنه من هذه المكارمِ كثيرٌ جدًّا ، وفيما ذكَرْنا إشارةٌ إلى ما لم نذكُره .

وقد عدَّه الهيثمُ بنُ عَديٍّ في العُمْيانِ من الأشراف ، وفي بعضِ الأحاديثِ الواردةِ عنه ما يدلُّ على ذلك . وقد أُصيبتْ إحدَى عينيْه فنحَل جسمُه ، فلمّا أُصيبَتِ الأُخرى عاد إليه لحمُه ، فقيل له في

ذلك، فقال: أصابني ما رأيتم في الأولى شفقةً على الأخرى، فلمّا ذهبَتا اطمأنَّ قلبي.

وقال أبو القاسم البَغَوي: ثنا عليُّ بنُ الجَعْد، ثنا شَريكٌ، عن سِماكٍ، عن عِكْرِمةَ، عن ابنِ عبَّاسٍ، أنَّه وقَع في عينِه الماءُ فقيل له: ننزعُ من عينِك الماءَ، على أنَّك لا تصلِّي سبعةَ أيام؟ فقال: لا، إنَّه مَن ترَك الصلاةَ وهو يقدرُ عليها لقي اللهَ وهو عليه غضبانُ[1]. وفي روايةٍ أنَّه قيل له: نُزيلُ هذا الماءَ من عينِك على أن تَبْقَى خمسةَ أيامٍ لا تصلِّي إلاَّ على عُودٍ؟ وفي روايةٍ: إلاَّ مستلْقِيًا؟ فقال: لا، واللهِ ولا ركعةً واحدةً، إنَّه مَن ترَك صلاةً واحدةً متعمِّدًا، لَقِي اللهَ وهو عليه غضبانُ.

وقد أنشَد المدائنيُّ لابنِ عبَّاسٍ حينَ عمِي:

إنْ يَأخُذِ اللهُ مِنْ عَينيَّ نُورَهما ... ففي لِساني وسَمْعي منهما نورُ
قَلبي ذَكيٌّ وعَقلي غيرُ ذي دَخَلٍ ... وفي فَمي صَارمٌ كالسَّيفِ مأثورُ

ولَمّا وقَع الخُلْفُ بينَ ابنِ الزبيرِ وبينَ عبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ، اعتزَل ابنُ عبَّاسٍ ومحمدُ بنُ الحنفيَّةِ الناسَ، فدعاهما ابنُ الزُّبيرِ؛ ليُبايِعاه فأبَيا عليه، وقال كلٌّ منهما: لا نبايعُك ولا نخالفُك. فهَمَّ بهما، فبعثا أبا الطُّفيلِ عامرَ بنَ واثلةَ فاستنجَد لهما مَن بالعراقِ من شيعتهما، فقدم أربعةُ آلافٍ فكبَّروا بمكَّةَ تكبيرةً واحدةً، وهمُّوا بابنِ الزبيرِ، فانطلَق ابنُ الزبيرِ هاربًا وتعلَّقَ بأستارِ الكعبةِ، وقال: أنا عائذٌ باللهِ. فكفُّوهم عنه، ثم مالوا إلى ابنِ عبَّاسٍ وابنِ الحنفيَّةِ وقد حمَل ابنُ الزبيرِ حولَ دُورِهم الحطبَ ليحرِقَهم، فخرَجوا بهما حتى نزَلوا الطائفَ، وأقام ابنُ عبَّاسٍ سنتين لم يُبايِعْ أحدًا، كما تقدَّمَ.

فلمّا كان في سنة ثمانٍ وستِّين تُوفِّي عبدُ الله بنُ عبّاسٍ بالطائفِ، وصلَّى عليه محمدُ بنُ الحنفيَّةِ، وقال: مات اليومَ حَبْرُ هذه الأمَّةِ. فلما وضَعوه ليُدخلوه في قبرِه جاء طائرٌ أبيضُ لم يُرَ مثلُ خلقته، فدخَل في أكفانه والتفَّ فيها حتى دُفِن معه. قال عفَّانُ: فكانوا يَرَوْنه علمَه، فلمَّا وُضع في اللَّحدِ تلا تالٍ لا يُعرَفُ مَن هو -وفي روايةٍ: أنَّهم سمعوا من قبرِه- ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠].

هذا القولُ في وفاته هو الذي صحَّحه غيرُ واحدٍ من الأئمة، ونصَّ عليه أحمدُ بنُ حنبلٍ والواقديُّ وابنُ عساكرَ، وهو المشهورُ عندَ الحفَّاظِ. وقيل: إنَّه تُوفِّي سنةَ ثلاثٍ وستِّين. وقيل: سنةَ ثلاثٍ وسبعين. وقيل: سنةَ سبعٍ وستِّين. وقيل: سنةَ تسعٍ وستِّين. وقيل: سنةَ سبعين. والصحيحُ الأولُ، وهذه الأقوالُ كلُّها شاذَّةٌ غريبةٌ مردودةٌ. واللهُ سبحانَه وتعالى أعلمُ. وكان عمرُه يومَ ماتَ ثنتيْن وسبعين سنةً. وقيل: إحدى وسبعين. وقيل: أربعًا وسبعين. والأوَّلُ أصحُّ، واللهُ أعلمُ.

---

(١) إسناده ضعيف: لسوء حفظ شريك النخعي.

صفة ابن عباس رضي الله عنه

كان جسيمًا، إذا قعَد يأخذُ مكانَ رجُلين، جميلاً له وَفرةٌ، قد شاب مُقدَّمُ رأسه، وشابَتْ لِمَّتُه، وكان يخضبُ بالحنَّاء، وقيل: بالسَّواد. حسَنَ الوجه، يلبَسُ حسنًا ويُكثِرُ من التطيُّب، بحيثُ إنَّه كان إذا مرَّ في الطريق تقولُ النساءُ: هذا ابنُ عباسٍ. أو رجلٌ معه مِسكٌ. وكان وسيمًا أبيضَ طويلاً، صَبيحًا فصيحًا، ولمَّا عمِي اعترَىٰ لونَه صُفرةٌ يسيرةٌ. وقد كان بنو العباسِ عشَرةً؛ وهم الفضلُ، وعبدُالله، وعبيدُ الله، ومعبَدٌ، وقُثَمُ، وعبدُ الرحمنِ، وكَثيرٌ، والحارثُ، وعَوْنٌ، وتَمّامٌ. وكان أصغرَهم تمامٌ، ولهذا كان العباسُ يحملُه ويقولُ:

تَمُّوا بتَمّامٍ فصاروا عشَرهْ يا ربِّ فاجعَلْهم كِرامًا بَرَرَهْ
واجعَلْهمُ ذِكرًا وأنمِ الثَّمَرهْ

فأمّا الفضلُ فمات بأجنادينَ شهيدًا، وعبدُ الله بالطائف، وعبيدُ الله باليمنِ، ومعبدٌ وعبدُالرحمن بإفريقيَّةَ، وقُثَمُ وكَثيرٌ بيَنْبُعَ، وقيل: إنَّ قُثَمَ مات بسَمَرْقَنْدَ.

وقد قال مسلمُ بنُ قمادينَ المكِّيُّ مولَى بني مخزوم: ما رأيتُ مثلَ بني أمٍّ واحدةٍ أشرافًا، وُلدوا في دارٍ واحدةٍ، أبعدَ قُبورًا من بني أمِّ الفضلِ. ثم ذكَر مواضعَ قُبورِهم، كما تقدَّم. إلاَّ أنَّه قال: الفضلُ مات بالمدينة، وعبيدُ الله بالشام. وقد كان عبدُ الله بنُ عبّاسٍ يلبَسُ الحُلَّةَ بألفِ درهمٍ، وكان له من الولد العباسُ وعليٌّ، ويُدعَىٰ السَّجّادَ؛ لكثرةِ صلاته، وكان أجملَ قُرشيٍّ علىٰ وجهِ الأرضِ، وقد قيلَ: إنَّه كان يُصلِّي كلَّ يومٍ ألفَ ركعةٍ. وقيل: في الليلِ والنهارِ مع الجمالِ التامِّ. وعلىٰ هذا فهو أبو الخلفاء العباسيِّين، ففي ولده كانت الخلافةُ العباسيَّةُ، كما سيأتي. وكان لابنِ عبّاسٍ أيضًا محمدُ والفضلُ وعبدُ الله ولُبابةُ، وأمُّهم زَرْعةُ بنتُ مُسَرِّحِ بنِ مَعْديكَرِبَ، وأسماءُ وهي لأمِّ ولدٍ. وكان له من الموالي عكرمةُ وكُرَيبٌ وأبو مَعْبَدٍ وشُعبةُ ودَقيقٌ وأبو عَمْرَةَ وأبو عبيدٍ ومِقسَمٌ.

وقد أسندَ ألفًا وستَّمائةٍ وسبعين حديثًا. واللهُ سبحانه وتعالىٰ أعلمُ.

وفيها تُوفِّي أبو شُرَيحٍ الخُزاعيُّ العَدَويُّ الكَعْبيُّ، اختُلف في اسمه علىٰ أقوالٍ؛ أصحُّها خويلدُ ابنُ عمرٍو، أسلَم عامَ الفتحِ، وكان معه أحدُ ألويةِ بني كعبٍ الثلاثة. قال محمدُ بنُ سعدٍ: مات في هذه السنة، وله أحاديثُ.

وأبو واقدٍ الليثيُّ، صحابيٌّ جليلٌ مختلَفٌ في اسمه وفي شهوده بدرًا،

قال الواقديُّ: تُوفِّي سنةَ ثمانٍ وستين، عن خمسٍ وستِّين سنةً. وكذا قال غيرُ واحدٍ في تاريخِ وفاته. وزعَم بعضُهم أنَّه عاش سبعين سنةً.

وكانت وفاتُه بمكَّةَ بعدَ ما جاوَر بها سنةً ودفن في مقابرِ المهاجرين. واللهُ أعلمُ.

حميدُ بنُ ثورٍ الهلاليُّ الشاعرُ المشهورُ، قال الشعرَ في أيامِ عمرَ، وهو من فحولِ الشعراءِ.

ثم دخلت سنة تسع وستين

ففيها كان مقتلُ عمرِو بنِ سعيدِ الأُمَويِّ الأشدقِ، قتَله عبدُ الملكِ بنُ مَرْوانَ؛ وكان سببَ ذلك أنَّ عبدَ الملكِ ركِب في أوَّلِ هذه السنةِ في جنودِه قاصدًا قَرْقِيسِياءَ؛ ليحاصِرَ زُفَرَ بنَ الحارثِ الكِلابيَّ الذي أعانَ سليمانَ بنَ صُرَدَ على جيشِ مَرْوانَ حينَ قاتَلوهم بعَيْنِ وَرْدَةَ، ومِن عَزْمِه إذا فرَغ مِن ذلك أن يقصِدَ مُصعبَ بنَ الزبيرِ بعدَ ذلك، فلمّا سار إليها استخلَف على دمشقَ عمرَو بنَ سعيدٍ الأَشدقَ، فتحصَّن بها وأخَذ أموالَ بيتِ المالِ. وقيل: بل كان مع عبدِ الملكِ، ولكنَّه انخذَل عنه في طائفةٍ مِن الجيشِ وكَرَّ راجعًا إلى دمشقَ في الليلِ، ومعه حميدُ بنُ حرَيْثِ بنِ بَحْدَلٍ الكلبيُّ، وزهيرُ بنُ الأبردِ الكلبيُّ، فانتهَوْا إلى دمشقَ، وعليها عبدُ الرحمنِ ابنُ أمِّ الحكمِ نائبًا مِن جهةِ عبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ، فلمّا أحسَّ بهم هرَب وترَكَ البلدَ، فدخَلها عمرُو بنُ سعيدٍ الأشدقُ، فاستحْوَذ على ما فيها مِن الخزائنِ، وخطَب الناسَ فوعَدهم العدلَ والنَّصَفَ والعطاءَ الجزيلَ والثناءَ الجميلَ. ولمّا علِم عبدُ الملكِ بما فعَله الأشدقُ، كرَّ راجعًا مِن فورِه فوجَد الأشدقَ قد حصَّنَ دمشقَ وعلَّق عليها الستائرَ والمُسوحَ، وانحازَ الأشدقُ إلى حصنٍ روميٍّ منيعٍ كان بدمشقَ فنزَله، فحاصَره عبدُ الملكِ وقاتَله عمرُو بنُ سعيدٍ الأشدقُ مدةَ ستةَ عشَرَ يومًا، وراسَله عبدُ الملكِ، وقال له: أَنشُدُك اللهَ والرَّحِمَ أن تفسِدَ أمرَ بيتِك وما هم عليه مِن اجتماعِ الكلمةِ، وإنَّ فيما صَنَعتَ قوةً لابنِ الزبيرِ، فارجِعْ إلى بيعتِك، ولك عليَّ عهدُ اللهِ وميثاقُه. وحلَف له بالأيمانِ المؤكَّدةِ أنَّك وليُّ عهدِي مِن بعدِي، وكتَبا بينَهما كتابًا، فانخدَع له عمرٌو وفتَح أبوابَ دمشقَ، ثم اصطَلَحا على تركِ القتالِ، وعلى أن يكونَ وليَّ العهدِ مِن بعدِ عبدِ الملكِ، وعلى أن يكونَ مع كلِّ عاملٍ لعبدِ الملكِ عاملٌ له، وكتَبا بينَهما كتابَ أمانٍ، وذلك عَشيَّةَ الخميسِ. ودخَل عبدُ الملكِ دمشقَ إلى دارِ الإمارةِ على عادتِه، وبعَث إلى عمرِو بنِ سعيدٍ الأشدقِ يقولُ له: رُدَّ على الناسِ أعْطياتِهم التي أخذتَها لهم مِن بيتِ المالِ. فبعَث إليه عمرٌو يقولُ له: إنَّ هذا ليس إليك، وليس هذا البلدُ لك، فاخرُجْ منه. فلمَّا كان يومُ الاثنينِ بعَث عبدُ الملكِ إلى عمرِو بنِ سعيدٍ يأمُرُه بالإتيانِ إلى منزِله بدارِ الإمارةِ الخضراءِ، فلمَّا جاءَه الرسولُ صادَف عندَه عبدَ اللهِ بنَ يزيدَ ابنِ معاويةَ وهو زوجُ ابنتِه أمِّ موسى بنتِ عمرِو بنِ سعيدٍ، فاستشارَه عمرٌو في الذَّهابِ إلى عبدِ الملكِ فقال له: يا أبا سعيدٍ، واللهِ لأنتَ أحبُّ إليَّ مِن سمعِي وبصرِي، وأرَى أنْ لا تأتيَه؛ فإنَّ تُبَيْعًا الحِمْيَرِيَّ ابنَ امرأةِ كعبِ الأحبارِ قال: إنَّ عظيمًا مِن عُظماءِ بني إسماعيلَ يُغلِقُ أبوابَ دمشقَ فلا يلبَثُ أنْ يُقتَلَ. فقال عمرٌو: واللهِ لو كنتُ نائمًا ما تخوَّفْتُ أنْ ينبِّهَني ابنُ الزرقاءِ، وما كان ليَجترِئَ على ذلك منِّي، مع أنَّ عثمانَ بنَ عفانَ أتاني البارحةَ في المنامِ فألبسَني قميصَه. وقال عمرُو بنُ سعيدٍ للرسولِ: أبلِغْه السلامَ، وقلْ له: أنا رائحٌ إليك العشيَّةَ إن شاءَ اللهُ. فلمَّا كان العَشيُّ -يَعنِي بعدَ الظُّهرِ- لبِس عمرٌو درعًا بينَ ثيابِه وتقلَّد سيفًا ونهَض فعثَر بالبُساطِ، فقالتِ امرأتُه وبعضُ مَن حضَره:

إنّا نرىٰ أن لا تأتيَه. فلم يلتفتْ إلىٰ ذلك ومضىٰ في مائةٍ من مَواليه، وعبدُ الملك قد أمَرَ بني مَرْوانَ فاجتمَعوا كلُّهم عندَه، فلمّا انتهىٰ عمرُو بنُ سعيدٍ إلى الباب أمَرَ عبدُ الملك أن يدخُلَ وأن يُحبَسَ مَن معه؛ عندَ كلِّ بابٍ طائفةٌ منهم، فدخَل كذلك حتىٰ انتهىٰ إلىٰ صَرْحة المكان الذي فيه عبدُ الملك، ولم يبقَ معه من مواليه سوىٰ وصيفٍ واحدٍ، فرَمىٰ ببصره فإذا بنو مروانَ عن بَكْرة أبيهم مُجتَمِعون عندَ عبد الملك، فأحسَّ بالشرِّ فالتفَت إلىٰ وصيفه، فقال له همسًا: وَيْلَك! انطلق إلىٰ أخي يحيىٰ بن سعيد فقُلْ له فليأتني. فلم يفهَمْ عنه، وقال له: لبَّيك. فأعادَ عليه ذلك، فلم يفهَمْ أيضًا، وقال: لبَّيك. فقال: وَيْلَكَ! اغرُبْ عنِّي في حَرَقِ اللهِ وناره. وكان عندَ عبد الملك حسَّانُ بنُ مالك بن بحدل، وقَبيصَةُ بنُ ذُؤَيْبٍ، فأذن لهما عبدُ الملك بالانصراف، فلمَّا خرَجا غُلِّقَت الأبوابُ واقترَب عمرٌو من عبد الملك، فرحَّبَ به وأجلَسه معه على السَّرير، ثم جعَل يُحدِّثه طويلاً. ثم إنَّ عبدَ الملك قال: يا غلامُ، خُذِ السيفَ عنه. فقال عمرٌو: إنَّا لله يا أميرَ المؤمنين! فقال له عبدُ الملك: أوَتطمَعُ أنْ تتحدَّثَ معي متقلِّدًا سيفَك؟ فأخَذ الغلامُ السيفَ عنه، ثم تحدَّثا ساعةً، ثم قال له عبدُ الملك يا أبا أمية. قال: لبَّيك يا أميرَ المؤمنين. قال: إنَّك حيثُ خلعْتَني آليتُ بيميني إن ملأتُ عيني منك وأنا مالكٌ لك أن أجمَعَك في جامعةٍ. فقالت بنو مَرْوانَ: ثم تُطلقُه يا أميرَ المؤمنين؟ قال: ثم أُطلقُه، وما عسَيتُ أن أفعلَ بأبي أميَّةَ؟ فقال بنو مَرْوانَ: أبرَّ قَسَمَ أميرِ المؤمنين. فقال عمرٌو: فأبِرَّ قسَمَك يا أميرَ المؤمنين. فأخرَج عبدُ الملك من تحت فراشه جامعةً فطرَحها إليه، ثم قال: يا غلامُ، قم فاجْمَعْه فيها. فقام الغلامُ فجمَعَه فيها، فقال عمرٌو: أُذكِّرُك اللهَ يا أميرَ المؤمنين أنْ تُخرِجَني فيها على رءوس الناس. فقال عبدُ الملك: أمَكْرًا يا أبا أمية عندَ الموت؟ لاها الله إذًا، ما كنَّا لنُخرجَك في جامعةٍ على رءوس الناس ولمَّا نُخرِجْها منك إلاَّ صَعَدًا. ثم اجتَبَذه اجتباذةً أصاب فمَه السَّريرُ فكسَر ثنيَّتَه، فقال عمرٌ: أذكِّرُك اللهَ يا أميرَ المؤمنين أنْ يدعُوَك كَسْرُ عَظمي إلىٰ ما هو أعظمُ من ذلك. فقال عبدُ الملك: والله لو أعلمُ أنَّك إذا بقِيتَ تفي لي وتَصلُحُ قريشٌ لأطلقتُك، ولكنْ ما اجتمَع رجلان قطُّ في بلدٍ على ما نحن عليه إلاَّ أخرَج أحدُهما صاحبَه.

وفي روايةٍ أنَّه قال له: أمَا علمتَ يا عمرُو أنَّه لا يجتمعُ فحلان في شَوْلٍ؟ فلمَّا تحقَّق عمرٌو ما يريدُ من قتله قال له: أغَدْرًا ياابن الزَّرقاء؟ وبينَما هما كذلك إذ أُذِّن للعصر، فقام عبدُ الملك ليخرُجَ إلى الصلاة، وأمَر أخاه عبدَ العزيز بنَ مروانَ بقتله، وخرَج عبدُ الملك وقام إليه عبدُ العزيز بالسيف، فقال له عمرٌو: أُذكِّرُك اللهَ والرَّحِمَ أن لا تليَ ذلك منِّي، وليتولَّ ذلك غيرُك. فكفَّ عنه عبدُ العزيز بنُ مَرْوانَ. ولمَّا رأىٰ الناسُ عبدَ الملك قد خرَج وليس معه عمرٌو أرجَف الناسُ بعمرو، وأقبَل أخوه يَحيىٰ ابنُ سعيدٍ في ألف عبدٍ لعمرو بن سعيدٍ وأناسٍ معه كثيرٍ، وأسرَع عبدُ الملك الدخولَ إلىٰ دار الإمارة، وجاء أولئك فجعَلوا يدقُّونَ بابَ الإمارة ويقولون: أسمِعْنا صوتَك يا أبا أميَّةَ. وضرَب رجلٌ منهم الوليدَ بنَ عبدِ الملك في رأسه بالسيف فجرَحه، فأدخَله إبراهيمُ بنُ عربيٍّ صاحبُ الديوان بيتًا،

وأحرزَه فيه، ووقعَتْ خبطةٌ عظيمةٌ في المسجد، وضجَّت الأصواتُ. ولما رجَع عبدُ الملك وجَد أخاه لم يقتُلْه، فلامَه وسبَّه وسبَّ أمَّه ـ ولم تكُنْ أمُّ عبدِ العزيزِ أمَّ عبدِ الملك ـ فقال: إنَّه ناشَدني اللهَ والرَّحِمَ. وكان ابنَ عمة عبدِ الملك بن مروانَ، ثم إنَّ عبدَ الملك قال: يا غلامُ، ائتني بالحَربة. فأتاه بها فهزَّها وضربه بها فلم تُغنِ شيئًا، ثم ثنَّى فلم تُغنِ شيئًا، فضرَب بيده إلى عَضُدِ عمرٍو فوجَد مسَّ الدرعِ فضحك وقال: ودارعٌ أيضًا! إن كنت لمُعِدًّا، يا غلامُ، ائتني بالصَّمْصامة. فأتاه بسيفه ثم أمَر بعمرٍ فصُرِعَ فجلَس على صدره فذبَحه، وهو يقولُ:

يا عمرُو إن لا تَدَعْ شَتْمي ومَنْقَصتي أَضْرِبْكَ حيثُ تقولُ الهامةُ اسقُوني

قالوا: وانتفَض عبدُ الملك بعدَ ما ذبَحه كما تنتفضُ القصبةُ برِعدةٍ شديدةٍ جدًّا، بحيثُ إنَّهم ما رفَعوه عن صدرِه إلاَّ محمولاً، فوضَعوه على سريرِه وهو يقولُ: ما رأيتُ مثلَ هذه قطُّ قِتْلةً، صاحبُ دنيا ولا طالبُ آخرةٍ. ودفَع الرأسَ إلى عبدِ الرحمنِ ابنِ أمِّ الحكم، فخرَج به للناسِ فألقاه بينَ أظهُرِهم، وخرَج عبدُ العزيزِ بنُ مروانَ ومعه البِدَرُ من الأموالِ تُحمَلُ، فأُلقِيَتْ بينَ النَّاسِ فجعلوا يختطفونها، ويقالُ: إنها استُرجِعتْ بعدَ ذلك من الناسِ إلى بيتِ المال.

ويقالُ: إنَّ الذي ولِي قتلَ عمرِو بنِ سعيدٍ مولى عبدِ الملكِ أبو الزُّعَيْزِعَةِ بعدَما خرَج عبدُ الملك إلى الصلاة، فاللهُ أعلمُ.

وقد دخَل يحيى بنُ سعيدٍ أخو عمرِو بنِ سعيدٍ دارَ الإمارةِ، بعدَ مقتَلِ أخيه، بمَن معه، فقام إليهم بنو مَرْوانَ فاقتتَلوا ، وجرِح جماعاتٌ من الطائفتَيْن، وجاءت يَحيى بنَ سعيدٍ صخرةٌ في رأسه أشغلَتْه عن نفسه وعن القتال، ثم إنَّ عبدَ الملك بنَ مَرْوانَ خرَج إلى المسجدِ الجامعِ فصعِد المنبرَ فجعَل يقول: ويْحكم، أين الوليدُ وأبيهمْ لئن كانوا قتَلوه لقد أدركوا ثأرَهم. فأتاه إبراهيمُ بنُ عربيٍّ الكنانيُّ فقال: هذا الوليدُ عندي، قد أصابَتْه جراحةٌ، وليس عليه بأسٌ. ثم أمَر عبدُالملك بيَحيى بن سعيدٍ أن يُقتلَ، فشفَع فيه أخوه عبدُ العزيزِ بنُ مَرْوانَ وفي جماعاتٍ آخَرين معه، كان عبدُ الملك قد أمَر بقتلِهم يومَئذٍ، فشفَّعه فيهم وأمَر بحبسِه فسُجِن شهرًا، ثم سيَّره وبني عمرِو بنِ سعيدٍ وأهليهم إلى العراقِ فدخَلوا على مُصعبِ بنِ الزُّبيرِ فأكرَمهم وأحسنَ إليهم.

ثم لمَّا انعقَدت الجماعةُ لعبدِ الملك بعدَ مقتَلِ ابنِ الزُّبيرِ ـ كما سيأتي ـ وفَدوا عليه فكادَ يقتُلُهم، فتلطَّف بعضُهم في العبارةِ حتى رقَّ لهم رِقَّةً شديدةً، وقال: إنَّ أباكم خيَّرني بينَ أن يقتُلَني أو أقتُلَه، فاختَرتُ قتلَه على قتلي، وأمَّا أنتم فما أرْغَبني فيكم وأوصَلني لقرابتكم وأرعاني لحقِّكم! فأحسنَ جائزتَهم وقرَّبَهم. وقد كان عبدُ الملك بعَث إلى امرأةِ عمرِو بنِ سعيدٍ أن ابعثي إليَّ بكتابِ الأمانِ الذي كنتُ كتبتُه لعمرٍو. فقالتْ: إنِّي دفنتُه معه ليُحاكمَك به يومَ القيامةِ عندَ الله.

وقد كان مَرْوانُ بنُ الحكم وعَد عمرَو بنَ سعيدٍ هذا أن يكونَ وليَّ العهدِ من بعدِ ولدِه عبدِ الملك،

كلامًا مجردًا، فطمع في ذلك وقويت نفسُه بسببِ ذلك. وكان عبدُ الملك يُبغضُه بُغضًا شديدًا من الصِّغَرِ، ثم كان هذا صنيعَه إليه في الكِبَرِ.

قال ابن جرير: وذُكر أنَّ خالدَ بنَ يزيدَ بنِ معاويةَ قال لعبدِ الملك ذاتَ يومٍ: عجبٌ منك ومن عمرِو ابنِ سعيدٍ، كيف أصبْتَ غِرَّته حتى قتلْتَه؟ فقال:

أدْنيتُه مني ليَسْكُنَ رَوْعُه ... فأصُولَ صَوْلَةَ حازمٍ مُستَمْكِنِ
غضَبًا ومحميَةً لديني إنَّه ... ليسَ المُسيءِ سبيلُه كالمُحسِنِ

قال خليفةُ بنُ خيَّاط: وهذا الشعرُ للصَّبيِّ ابنِ أبي رافعٍ، تمثَّل به عبدُ الملك.

وروى ابنُ دُرَيْد، عن أبي حاتم عن العُتْبيِّ أنَّ عبدَ الملك قال: لقد كان عمرُو بنُ سعيدٍ أحبَّ إليَّ من دمِ النَّواظرِ، ولكنْ واللهِ لا يجتمعُ فحلانِ في الإبلِ إلاَّ أخرَج أحدُهما الآخرَ، وإنَّا لَكَما قال أخو بني يربوعٍ:

أُجازي مَن جزاني الخيرَ خيرًا ... وجازي الخيرِ يُجْزَى بالنَّوالِ
وأجْزي مَن جزاني الشرَّ شرًّا ... كما تُحْذَى النِّعالُ على النِّعالِ

قال خليفةُ بنُ خياط: وأنشَد أبو اليقظان لعبدِ الملك في قتلِه عمرَو بنَ سعيد:

صحَّتْ ولا تَشْلَلْ وضرَّتْ عَدُوَّها ... يمينٌ أراقتْ مُهجةَ ابنِ سعيدِ
وجَدْتُ ابنَ مَروانَ ولا تَبْلُ نفسُه ... شَديدًا ضريرَ البأسِ غيرَ بَليدِ
هو ابنُ أبي العاصي لمَرْوَانَ ينتَمي ... إلى أُسْرَةٍ طابَتْ له وجُدُودِ

قال الواقدي: أمَّا حصارُ عبدِ الملك لعمرِو بنِ سعيدٍ الأشدقِ فكان في سنة تسعٍ وستِّين، رجَع إليه من بُطْنانَ فحاصَره بدمشقَ، وأمَّا قتلُه إيَّاه فكان في سنة سبعين، واللهُ أعلمُ.

وهذه ترجمة عمرو بن سعيد الأشدق

هو عمرُو بنُ سعيدِ بنِ العاصِ بنِ أُميةَ بنِ عبدِ شَمْسٍ، أبو أميةَ القرشيُّ الأمويُّ، المعروفُ بالأشدقِ، يقالُ: إنَّه رأىٰ النبيَّ ﷺ، وروَىٰ عنه أنَّه قال: «**ما نحلَ والدٌ ولدًا أحسنَ من أدبٍ حَسَنٍ**»[1]. وحديثًا آخرَ في العِتْقِ.

وروَىٰ عن عمرَ وعثمانَ وعليٍّ وعائشةَ، وحدَّث عنه بنوه؛ أميةُ وسعيدٌ وموسىٰ وغيرُهم.

---

(١) **ضعيف:** أخرجه أحمد (٣/ ٤١٢) ثنا يزيد بن هارون أخبرنا عامر بن صالح بن رستم المزني حدثنا أيوب بن موسىٰ بن عمرو بن سعيد بن العاص.
قال: أو ابن سعيد بن العاص عن أبيه عن جده مرفوعًا به وضعف إسناده لأن عامر بن صالح واه بالإضافة إلىٰ إرساله الذي نبه عليه البخاري في «تاريخه» (١/ ٤٢٢) وقد صححه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٦٣) فتعقبه الذهبي فقال: بل مرسل ضعيف في إسناده عامر بن صالح الخزاز واهٍ.

واستنابَه معاويةُ على المدينة، وكذلك يزيدُ بنُ معاويةَ بعدَ أبيه، كما تقدَّم. وكان من ساداتِ المسلمين، ومن الكُرماء المشهورين، يُعطي الكثيرَ، ويتحمَّلُ العَظائمَ، وكان وَصيَّ أبيه من بين بنيه، وكان أبوه - كما قدَّمنا - من المشاهيرِ الكرماء، والسادة النُّجباء. قال عمرٌو: ما شتَمْتُ رجلاً منذُ كنتُ رجلاً، ولا كَلَّفْتُ مَن قصَدني أن يسألَني؛ لَهو أَمَنُّ عليَّ منِّي عليه.

وقال سعيدُ بنُ المسيَّب: خطباءُ الناسِ في الجاهليةِ: الأسودُ بنُ المطَّلبِ، وسُهَيلُ بنُ عمرو، وخطباءُ الناسِ في الإسلام: معاويةُ وابنُه، وسعيدُ بنُ العاصِ وابنُه، وعبدُ الله بنُ الزُّبير.

وقد قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا عبدُ الصمد، ثنا حمَّادٌ، ثنا عليُّ بنُ زيدٍ، أخبرَني مَن سمع أبا هريرةَ يقولُ: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**لَيَرْعَفَنَّ على منبري جبَّارٌ من جبابرة بني أُميَّةَ حتى يسيلَ رُعافُه**». قال: فأخبرَني مَن رأى عمرَو بنَ سعيدِ بنِ العاصِ رَعَفَ على منبرِ رسولِ الله ﷺ حتى سال رُعافُه[١].

وهو الذي كان يبعَثُ البعوثَ إلى مكةَ بعد وَقعةِ الحَرَّةِ أيامَ يزيدَ بنِ معاويةَ لقتالِ ابنِ الزُّبير، فنهاه أبو شُريحٍ الخُزاعيُّ، وذكَر له الحديثَ الذي سمعه من رسولِ الله ﷺ في تحريمِ مكةَ، فقال: نحن أعلمُ بذلك منك يا أبا شُريحٍ، إنَّ الحَرَمَ لا يُعيذُ عاصيًا ولا فارًّا بدمٍ ولا فارًّا بخَرْبةٍ[٢]. الحديثَ كما تقدَّم وهو في «الصحيحين». ثم إنَّ مروانَ دخَل إلى مصرَ بعدَما دعا إلى بَيْعةِ نفسِه واستقرَّ له الشامُ، ودخَل معه عمرُو بنُ سعيدٍ ففتَح مصرَ، وقد كان وعَد عمرًا أن يكونَ وليَّ العهدِ من بعدِ عبدِ الملك، وأن يكونَ قبلَ ذلك نائبًا بدمشقَ، فلمَّا قَويت شوكةُ مروانَ رجَع عن ذلك، وجعَل الأمرَ من بعدِ عبدِ الملكِ لولدِه عبدِ العزيز، وخلَع عمرَو بنَ سعيدٍ من ذلك، فما زال ذلك في نفسِه، حتى كانت هذه السَّنةُ وعزَم عبدُ الملكِ على الدخولِ إلى العراقِ لقتالِ مصعبِ بنِ الزبيرِ، فرجَع من جيشِه ودخَل عمرٌو دمشقَ وتحصَّن بها وأجابه أهلُها، فاتَّبَعه عبدُ الملكِ فحاصَره، ثم استنزَله على أمانٍ صوريٍّ، ثم قتَله كما قدَّمنا.

وكان ذلك في هذه السنةِ على المشهورِ عندَ الأكثرين. وقال الواقديُّ وأبو سعيدِ بنُ يونُسَ: سنةَ سبعين. فاللهُ أعلمُ. ومن الغريبِ ما ذكَره هشامُ بنُ محمدٍ الكلبيُّ بسندٍ له: أنَّ رجلاً سمع في المنامِ قائلاً يقولُ على سُورِ دمشقَ قبلَ أن يخرُجَ عمرُو بنُ سعيدٍ بالكُلِّيَّة، وقبلَ قتلِه بمدةٍ هذه الأبياتَ:

ألا يا لَقَومي للسَّفاهةِ والوَهْنِ ... وللفاجرِ الموهونِ والرأيِ ذي الأَفْنِ
ولابنِ سعيدٍ بينَما هو قائمٌ ... على قدَمَيْه خرَّ للوجهِ والبَطنِ
رأى الحصنَ منجاةً من الموتِ فالتَجا ... إليه فزارَتْه المنيَّةُ في الحِصْنِ

---

(١) **إسناده ضعيف:** أخرجه أحمد (٢/ ٥٢٢) بهذا الإسناد وفيه علي بن زيد بن جدعان ضعيف والرجل الذي حدَّث عن أبي هريرة لا يعرف اسمه.

(٢) الحديث أخرجه البخاري (١٠٤) بذكر القصة التي بين أبي شريح وعمرو بن سعيد الأشدق.

قال: فأتى الرجلُ عبدَ الملك فأخبرَه فقال: ويْحَك، سمعها منك أحدٌ؟ قال: لا. قال: ضَعْها تحتَ قدميك. ثم بعدَ ذلك خلَع عمرٌو الطاعةَ وقتَله عبدُ الملكِ بنُ مَرْوانَ.

وممَّن توُفِّي فيها من الأعيان أيضًا أبو الأسودِ الدُّؤَليّ

ويُقالُ: الدِّيلي. قاضي البصرة، تابعيٌّ جليلٌ، واسمُه ظالمُ بنُ عمرِو بنِ سفيانَ بنِ جَنْدَلِ بنِ يَعمَرَ بنِ حِلْسِ بنِ نُفَاثَةَ بنِ عَدِيِّ بنِ الدُّئِلِ بنِ بكرٍ، أبو الأسود، الذي نُسب إليه علمُ النَّحوِ، ويُقالُ: إنَّه أوَّلُ مَن تكلَّم فيه، وإنَّما أخَذه عن أميرِ المؤمنين عليِّ بنِ أبي طالب.

وقد اختلف في اسمه على أقوالٍ؛ أشهرها أن اسمَه ظالمُ بنُ عمرٍو. وقيلَ عكسُه. وقال الواقديُّ: اسمُه عُوَيمرُ بنُ ظُوَيلمٍ. قال: وقد أسلَم في حياة النبيِّ ﷺ وشهِد الجملَ مع عليٍّ وهلَك في ولايةِ عبيدِ اللهِ بنِ زيادٍ. وقال يحيى بنُ معينٍ وأحمدُ بنُ عبد الله العِجْليُّ: كان ثقةً، وهو أوَّلُ مَن تكلَّمَ في النحوِ. وقال ابنُ معينٍ وغيرُه: مات في طاعونِ الجارفِ سنةَ تسعٍ وستين. قال ابنُ خَلِّكانَ: وقيل: إنَّه تُوفِّي في خلافةِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، وقد كان ابتداؤُها في سنةِ تسعٍ وتسعين. قلتُ: وهذا غريبٌ جدًّا.

قال ابنُ خَلِّكانَ وغيرُه: كان أوَّلَ مَن ألقَى إليه علمَ النحوِ عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وذكَر له أنَّ الكلامَ اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ، ثم إنَّ أبا الأسودَ نحَا نحوَه وفرَّع على قوله، وسلَك طريقَه؛ فسُمِّي هذا العلمُ النحوَ لذلك. وكان الباعثَ لأبي الأسود على بسطِ ذلك تغيُّرُ لغةِ الناسِ، ودخولُ اللحنِ في كلامِ بعضِهم أيامَ ولايةِ زيادٍ على العراقِ، وكان أبو الأسود مؤدِّبَ بنيه؛ فإنَّه جاء رجلٌ يومًا إلى زيادٍ فقالَ: تُوفِّي أبانا وترك بنون. فأمَره زيادٌ أنْ يضعَ للناسِ شيئًا يهتدون به إلى معرفةِ كلامِ العرب. ويقالُ: إنَّ أوَّلَ ما وضَع منه بابُ التعجُّبِ؛ مِن أجلِ أنَّ ابنتَه قالتْ له ليلةً: يا أبَه ما أحسنُ السماءِ! فقال: نجومُها. فقالَتْ: إنِّي لم أسأل عن أحسنِها، إنَّما تعجَّبْتُ مِن حسنِها. فقال قُولي: ما أحسنَ السماءَ!

قال ابنُ خَلِّكانَ: وقد كان أبو الأسودِ يُبَخَّلُ وكان يقولُ: لو أطَعْنا المساكينَ في أموالِنا لَكُنَّا مثلَهم. وعشَّى ليلةً مسكينًا ثم قيَّده وبيَّته عندَه ومنَعه أن يخرُجَ ليلتَه تلك؛ لئلَّا يُؤذيَ المسلمين بسؤالِه، فقال له المسكينُ: أطلِقْني. فقال: هيهاتَ، إنَّما عشَّيْتُك لأُريحَ منك المسلمين الليلةَ. فلمّا أصبحَ أطلَقه. وله شعرٌ حسَنٌ. رحمه اللهُ.

قال ابنُ جرير: وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ، وقد أظهَر خارجيٌّ التحكيمَ بمِنًى فقُتِل عندَ الجمرة.

والنُّوابُ فيها هم الذين كانوا في السنةِ التي قبلَها.

وممَّن توفِّي فيها من الأعيان:

جابرُ بنُ سَـمُرةَ بن جنادةَ، له صحبةٌ وروايةٌ، ولأبيه أيضًا صحبةٌ وروايةٌ. نزَل الكوفةَ وبها توفِّي هذه السنةَ، وقيل: سنةَ ستٍّ وستِّين. فاللهُ أعلمُ.

أسمـاءُ بنتُ يزيدَ بن السَّكَنِ الأنصـاريَّةُ، بايَعَتِ النبيَّ ﷺ، وقتَلَتْ بعمودِ خيمتِها يومَ اليرموكِ تسعةً من الرومِ، وسكَنَتْ دمشقَ، وقبرُها ببابِ الصَّغيرِ.

حسَّانُ بنُ مـالك بن بحْدَل، الأميرُ أبو سليمـانَ البَحْدَليُّ الكلبيُّ. وهو الذي قامَ ببيعةِ مروانَ. وقيلَ: إنَّهم سلَّموا عليه بالخلافَة أربعين يومًا، ثم سلَّمها لمروانَ.

وقصرُ حسانَ بدمشقَ، ويُعرفُ بقصرِ ابنِ أبي الحديدِ، وهو قصرُ البَحَادِلَةِ.

ماتَ في هذه السنة. واللهُ سبحانهُ أعلمُ.

يوسفُ بنُ الحَكَمِ الثَّقَفيُّ، والدُ الحجاجِ. قدِم من الطائفِ إلى الشامِ ثم ذهَب إلى مصرَ والمدينةِ، وكان يلزَمُ مروانَ.

عبـدُ الرحمنِ بنُ الحكمِ أخو مروانَ، شهِد الدارَ مع عثمانَ بنِ عفانَ، وكان شاعرًا محسنًا، وله منزلة عندَ معاويةَ وابنِه.

❊ ❊ ❊

---

(١) إسناده ضعيف: أخرجه أحمد (٢/ ٥٢٢) بهذا الإسناد وفيه علي بن زيد بن جدعان ضعيف والرجل الذي حدَّث عن أبي هريرة لا يعرف اسمه.

(٢) الحديث أخرجه البخاري (١٠٤) بذكر القصة التي بين أبي شريح وعمرو بن سعيد الأشدق.

ثم دخلت سنة سبعين من الهجرة

فيها ثارت الرومُ واستجاشُوا على مَن بالشام، واستضْعَفوهم لما يَرَوْنَ من الاختلاف الواقع بينَ عبدِ الملك بنِ مروانَ وعبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ، فصالَح عبدُالملك بنُ مروانَ ملكَ الرومِ، وهادَنه على أن يدفَعَ إليه عبدُ الملك في كلِّ جُمُعَةٍ ألفَ دينارٍ خوفًا منه على الشام.

وفيها وقَع الوباءُ بمصرَ، فهرَب منه عبدُ العزيز بنُ مَرْوانَ إلى الشرقية، فنزَل حُلوانَ وهي على مرحلةٍ من القاهرة، واتخَذها منزلاً واشتَراها من القبطِ بعشَرةِ آلافِ دينارٍ، وبنَى بها دارًا للإمارةِ وجامعًا، وأنزَلَها الجندَ. وفيها ركب مصعبُ بنُ الزبيرِ من البصرةِ إلى مكَّةَ ومعه أموالٌ جزيلةٌ، فأعطَى وفرَّق، ونحَر عندَ الكعبةِ ألفَ بَدَنَةٍ وعشرين ألفَ شاةٍ، وأغنَى ساكني مكةَ، ثم عادَ إلى العراقِ، وأنعَم وأطلَقَ لجماعةٍ من رؤساءِ النّاسِ بالحجازِ أموالاً كثيرةً.

وحجَّ بالناسِ فيها ابنُ الزبيرِ.

والعمالُ على الأمصارِ هم المذكورون فيما قبلُ.

وممّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

عاصمُ بنُ عمرَ بنِ الخطّابِ القرشيُّ العَدَويُّ، وأُمُّه جميلةُ بنتُ ثابتِ ابنِ أبي الأقْلَح. وُلد في حياةِ رسولِ الله ﷺ، ولم يروِ إلاَّ عن أبيه حديثًا واحدًا: «**إذا أقبلَ الليلُ من ههنا**»[1] الحديث. وعنه ابناه حَفْصٌ وعبَيدُ الله، وعُروةُ بنُ الزبيرِ. وقد طلَّق أبوه أمَّه فأخذَته جدَّته الشَّموسُ بنتُ أبي عامرٍ، حكَم له بها الصِّدِّيقُ، وقال: شَمُّها ولُطْفُها أحبُّ إليه منك. ثم لَمّا زوَّجه أبوه في أيامه أنفَقَ عليه من بيت المالِ شهرًا، ثم كفَّ عن الإنفاقِ عليه وأعطاه ثُمُنَ ماله، وأمَرَه أنْ يتَّجِرَ ويُنفقَ على عياله، وذكَر غيرُ واحدٍ أنَّه كان بين عاصمٍ وبينَ الحسنِ أو الحسينِ منازعةٌ في أرضٍ، فلمّا تبيَّن عاصمٌ من الحسنِ الغضبَ قال: هي لك. فقال له: بَلْ هي لك. فتركاها ولم يتعرَّضا لها، ولا أحدٌ من ذُرِّيَّتِهما حتى أخَذَها الناسُ من كلِّ جانبٍ وكان عاصمٌ رئيسًا وقورًا، كريمًا فاضلاً.

قال الواقديُّ: مات سنةَ سبعين.

قَبيصةُ بنُ جابر بن وهب الأسَديُّ الكوفيُّ أبو العلاء، من كبارِ التابعين. شهِد خطبةَ عمرَ بالجابية، وكان أخا معاويةَ من الرَّضاعة. وكان من الفصحاءِ البلغاء.

قيسُ بنُ ذَريحٍ، أبو يزيدَ، الليثيُّ، الشاعرُ المشهورُ، من باديةِ الحجازِ، وقيل: إنَّه أخو الحُسينِ بنِ عليٍّ من الرَّضاعةِ.

وكان قد تزوَّج لُبْنَى بنتَ الحُبَابِ، ثم طلَّقها، فلمّا طلَّقها، هامَ لِمَا به من الغَرامِ، وسكَن الباديةَ،

(١) صحيح: وهو ضمن حديث أخرجه البخاري (١٩٥٤) ومسلم (١١٠٠) ولفظه: «إذا أقبل الليل وأدبر النهار وغابت الشمس فقد أفطر الصائم».

وجعَل يقولُ فيها الأشعارَ ونحُل جسمُه، فلمّا زاد ما به أتاه ابنُ أبي عَتيقٍ، فأخذه ومضَى به إلى عبدِ الله بنِ جعفرٍ، فقال له: فداك أبي وأمي، اركَبْ معي في حاجةٍ. فركب، واستنهضَ معه أربعةَ نفرٍ مِن وجوهِ قُرَيشٍ، فذهَبوا معه، وهم لا يدرون ما يريدُ، حتى أتَى بهم بابَ زوجِ لُبنَى، فخرَج إليهم، فإذا وجوهُ قُرَيشٍ، فقال: جعَلني اللهُ فداكم! ما جاء بكم؟ قالوا: حاجةٌ لابنِ أبي عَتيقٍ. فقال الرجلُ: اشهَدوا على أنَّ حاجتَه مقضيَّةٌ، وحكمَه جائزٌ. فقالوا: أخبِرْه بحاجتك. فقال ابنُ أبي عَتيق: اشهدوا على أن زوجته لبنى منه طالق. فقال عبد الله بن جعفر: قبحك الله ألهذا جئتَ بنا؟ فقال: جُعِلْتُ فداكم، يُطَلِّقُ هذا زوجتَه ويتزوّجُ بغيرِها، خيرٌ مِن أنْ يموتَ رجلٌ مسلمٌ في هواها صبابةً، والله لا أبرَحُ حتى ينتقِلَ مَتاعُها إلى بيتِ قيسٍ، ففعَلتْ، وأقاموا مدَّةً في أرْغَدِ عيشٍ وأطيبِه، رحمهم اللهُ تعالى.

يزيدُ بنُ زيادِ بنِ ربيعةَ الحِمْيَريُّ الشاعرُ. كان كثيرَ الشرِّ والهَجْوِ. وقد أرادَ عبيدُ الله بنُ زيادٍ قتلَه؛ لكونِه هجا أباه زيادًا، فمنَعه معاويةُ مِن قتلِه، وقال: أدِّبه. فسقاه دواءً مُسْهِلاً وأركَبه على حمارٍ، وطافَ به في الأسواقِ، وهو يَسْلَحُ على الحمارِ، فقال في ذلك:

يَغْسِلُ الماءُ ما صنعتَ وشِعْري ... راسِخٌ منك في العظامِ البَوالي

بُشيرُ بنُ النَّضْرِ قاضي مصرَ، كان رزقُه في العامِ ألفَ دينارٍ. تُوفِّي بمصرَ، ووَلِي بعدَه عبدُ الرحمنِ ابنُ حمزةَ الخَوْلانيُّ. واللهُ سبحانَه أعلمُ.

مالكُ بنُ يُخامِرَ السَّكْسَكيُّ الألْهانيُّ الحِمْصيُّ، تابعيٌّ جليلٌ، ويقالُ: له صحبةٌ. فاللهُ أعلمُ. روَى البخاريُّ مِن طريقِ معاويةَ عنه عن مُعاذِ بنِ جبلٍ في حديثِ الطائفةِ الظاهرةِ على الحقِّ أنَّهم بالشامِ، وهذا مِن بابِ روايةِ الأكابرِ عن الأصاغرِ، إلاَّ أنْ يُقالَ: له صحبةٌ. والصحيحُ أنَّه تابعيٌّ وليس بصحابيٍّ، وكان مِن أخصِّ أصحابِ مُعاذِ بنِ جَبَلٍ، رضِي اللهُ عنه. قال غيرُ واحدٍ: مات في هذه السنةِ. وقيل: سنةَ اثنتيْنِ وسبعين، واللهُ سبحانَه وتعالى أعلمُ.

❊ ❊ ❊

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين

وفيها كان مقتلُ مُصعبِ بنِ الزبير، وذلك أنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ سار في جنودٍ هائلةٍ مِن الشام قاصداً مصعبَ بنَ الزبيرِ بالعراق، فالتقَيا في هذه السنة، وقد كانا قبلَها يركَبُ كلُّ واحدٍ للتقَى الآخَر، فيحولُ بينهما الشتاءُ والبردُ والوحْلُ، فيرجعُ كلٌّ واحدٍ منهما إلى بلده، فلمّا كان في هذا العامِ سار إليه عبدُ الملك، وبعَث بين يديْه السَّرايا، ودخَل بعضُ مَن أرسلَه إلى البصرةِ فدعا أهلَها إلى عبدِ الملكِ في السرِّ، فاستجاب له بعضُهم، وقد كان مُصعبٌ سار إلى الحجاز، فجاء ودَخل البصرةَ على إثرِ ذلك، فأنَّب الكُبراءَ مِن الناسِ، وشتَمهم ولامَهم على دخول أولئك إليهم، وإقرارهم له على ذلك، وهَدَمَ دُورَ بعضِهم، ثم شَخَص إلى الكوفة، ثم بلَغه قصدُ عبدِ الملكِ له بجنودِ الشّامِ فخرَج إليه.

ووصَل عبدُ الملك إلى مَسْكِنٍ، وكتَب إلى المَرْوانيَّةِ الذين استجابوا لمَن بعَثه إليهم فأجابوه، واشترطوا عليه أن يولِّيَهم أَصْبَهانَ، فقال: نعم. وهم جماعةٌ كثيرةٌ مِن الأمراء، وقد جعَل عبدُ الملك على مُقَدِّمته أخاه محمدَ بنَ مَرْوانَ بنِ الحكم، وعلى ميمنته عبدَ اللهِ بنَ يزيدَ بنِ معاويةَ، وعلى ميسرتِه خالدَ بنَ يزيدَ بنِ معاويةَ.

وخرَج مصعبُ بنُ الزبيرِ، وقد اختلَف عليه أهلُ العراقِ، وخذَلوه وجعَل يتأمَّلُ مَن معه فلا يجدُهم يُقاومون أعداءَه، فاستقتَل وطمَّن نفسَه على ذلك، وقال: لي بالحُسيْنِ بنِ عليٍّ أسوةٌ حين امتنَع من إلقائه يدَه، ومِن الذِّلَّة لعبيدِ اللهِ بنِ زيادٍ، وجعَل يُنشدُ ويقولُ مُسَلِّيًا نفسَه:

وإنَّ الأُلى بالطَّفِّ مِن آلِ هاشمٍ ... تأسَّوْا فسنُّوا للكرام التَّأسِّيا

وكان عبدُ الملك قد أشار عليه بعضُ أمرائه أن يقيمَ بالشام، وأن يبعَثَ إلى مُصعبٍ جيشًا، فأبَى وقال: لعليِّ أبعَثُ رجلاً شجاعًا لا رأيَ له، أو مَن له رأيٌ ولا شجاعةَ له، وإنِّي أجدُ مِن نفسي بصرًا بالحربِ وشجاعةً، وإنَّ مصعبًا في بيتِ شجاعةٍ؛ أبوه أشجعُ قريشٍ، وأخوه لا تُجهَلُ شجاعتُه، وهو شجاعٌ لا علْمَ له بالحرب، وهو يُحبُّ الدَّعةَ والخفضَ، ومعه مَن يخالفُه، ومعي مَن ينصَحُ لي. فسار بنفسِه، فلمّا تقارب الجيشان بعَث عبدُ الملك إلى أمراءِ مصعبٍ بكتبٍ يدعوهم إلى نفسه ويَعِدُهم الولايات، فجاء إبراهيمُ بنُ الأشترِ إلى مُصعبٍ فألقَى إليه كتابًا مختومًا، وقال: هذا جاءني من عبدِ الملكِ، ففتَحه فإذا هو يدعوه إلى الإتيانِ إليه، وله نيابةُ العراق. وقال لمصعبٍ: أيها الأميرُ، إنَّه لم يبقَ أحدٌ مِن أمرائكَ إلاَّ وقد جاءَه كتابٌ مثلُ هذا، فإن أطعتَني ضرَبتُ أعناقَهم. فقال له مصعبٌ: إنِّي لو فعلتُ ذلك لم تنصَحْنا عشائرُهم بعدَهم. فقال: فأوْقِرْهم في الحديدِ وابعَثْهم إلى أبيضِ كِسْرَى فاسجُنْهم فيه، ووكِّلْ بهم مَن إن غُلِبتَ ضرَب أعناقَهم، وإن غلَبتَ مَنَنتَ بهم على عشائرِهم. فقال له: يا أبا النعمانِ، إنِّي لَفي شُغْلٍ عن هذا. ثم قال مُصعبٌ: رحِم اللهُ أبا بَحْرٍ - يعني الأحنفَ بنَ

قيس - إنْ كان ليُحذِّرُني غدرَ أهلِ العراق، وكأنَّه كان ينظُرُ إلى ما نحنُ فيه الآنَ.

ثم تواجَه الجيشانِ بدَيْرِ الجاثَليقِ من مَسكن، فحمَل إبراهيمُ بنُ الأشترِ - وهو أميرُ المقدَّمَةِ العراقيةِ لجَيشِ مُصعبٍ - على محمدِ بنِ مَرْوانَ - وهو أميرُ مقدَّمةِ الشام - فأزاله عن موضعِه، فأردَفه عبدُ الملكِ ابنُ مَرْوانَ بعبدِالله بنِ يزيدَ بنِ معاويةَ، فحملُوا على إبراهيمَ بنِ الأشترِ، ومَن معه فطحَنوهم، وقتِل إبراهيمُ بنُ الأشترِ، رحمه اللهُ وعفا عنه، وقتِل معه جماعةٌ من الأمراءِ، وكان عتَّابُ بنُ ورقاءَ على خيلِ مصعبٍ فهرَب أيضًا ولجَأَ إلى عبدِ الملكِ بنِ مروانَ. وجعَل مصعبُ بنُ الزبيرِ وهو واقفٌ في القلبِ يُنهِضُ أصحابَ الراياتِ، ويَحُثُّ الشُّجعانَ والأبطالَ أن يتقدَّموا إلى أمامِ القومِ، فلا يتحرَّك أحدٌ، فجعَل يقولُ: يا إبراهيمُ ولا إبراهيمَ لي اليومَ! وتفاقَم الأمرُ، واشتدَّ القتالُ، وتخاذَلتِ الرجالُ، وضاقَ الحالُ، وكثُر النِّزالُ.

قال المدائنيُّ عن يَحيى بنِ إسماعيلَ بنِ المُهاجرِ عن أبيه قال: أرسَل عبدُ الملكِ أخاه محمدَ بنَ مروانَ إلى مُصعبٍ يُعطيه الأمانَ فأبَى، وقال: إنَّ مثلي لا ينصرِفُ عن هذا الموضعِ إلا غالبًا أو مغلوبًا.

قالوا: فنادَى محمدُ بنُ مَروانَ عيسى بنَ مصعبٍ فقال: يا بنَ أخي، لا تقتُلْ نفسَك، لك الأمانُ. فقال له مصعبٌ: قد آمَنَك عمُّك فامضِ إليه. فقال: لا تتحدَّثُ نساءُ قُريشٍ أنِّي أسلمتُك للقتلِ. فقال له: يا بُنيَّ، فاركَبْ خيلَ السبَقِ فالحَقْ بعمِّك، فأخبِرْه بمَا صنَع أهلُ العراقِ فإنِّي مقتولٌ ههنا. فقال: واللهِ إنِّي لا أخبِرُ عنك أحدًا أبدًا، ولا أخبِرُ نساءَ قُريشٍ بمصرعِك أبدًا، ولا أُقْتَلُ إلاَّ معَك، ولكن إنْ شئتَ ركِبتَ خيلَك، وسِرنا إلى البصرةِ؛ فإنَّهم على الجماعةِ. فقال مصعبٌ: لا واللهِ، ما الفرارُ لي بعادةٍ، ولكن أقاتلُ، فإن قتِلتُ فما السيفُ لي بعارٍ، واللهِ لا تتحدَّثُ قريشٌ عني أنِّي فرَرتُ من القتالِ. ثم قال لابنِه: تقدَّمْ بينَ يدَيَّ حتى أحتسِبَك. فتقدَّم ابنُه، فقاتَل حتى قُتِل، وأُثخِن مصعبٌ بالرمي، فنظَر إليه زائدةُ بنُ قدامةَ، وهو كذلك فحمَل عليه فطعَنه، وهو يقولُ: يا ثاراتِ المختارِ! فصرَعه ونزَل إليه رجلٌ يُقالُ له: عبيدُ اللهِ بنُ زيادِ بنِ ظَبيانَ التميميُّ. فقتَله وحزَّ رأسَه، وأتَى به عبدَ الملكِ بنَ مَرْوانَ، فسجدَ عبدُ الملكِ، وأطلَق له ألفَ دينارٍ فأبَى أنْ يقبَلَها وقال: لم أقتُلْه على طاعتِك، ولكن بثأرٍ كان لي عنده. وكان قد ولِي له عملاً قبلَ ذلك فعزلَه عنه وأهانَه.

قالوا: ولمَّا وُضِع رأسُ مُصعبٍ بينَ يديْ عبدِ الملكِ، قال عبدُ الملكِ: لقد كان بيني وبين مُصعبٍ صحبةٌ قديمةٌ، وكان من أحبِّ الناسِ إليَّ، ولكنَّ هذا المُلكَ عقيمٌ.

وقال: لمَّا تفرَّق عن مُصعبٍ جموعُه قال له ابنُه عيسى: لو اعتصمْتَ ببعضِ القلاعِ، وكاتبتَ مَن بعُدَ عنك مثلَ المهلَّبِ بنِ أبي صُفْرَةَ وغيرِه فقدِموا عليك، فإذا اجتمَع لك ما تُريدُ منهم لقيتَ القومَ؛ فإنَّك قد ضعُفتَ جدًّا. فلم يردَّ عليه جوابًا. ثم ذكَر ما جرَى للحُسيْنِ بنِ عليٍّ، وكيف قُتِل كريمًا،

ولم يُلْقِ بيدِه، ولم يجدْ من أهلِ العراقِ وفاءً، وكذلك أبوه وأخوه، ونحنُ ما وجَدْنا لهم وفاءً.

ثم انهزَم أصحابُه، وبقي في قليلٍ من خواصِّه، ومالَ الجميعُ إلى عبدِ الملك، وقد كان عبدُ الملك يُحبُّ مُصعبًا حبًّا شديدًا، وكان خليلاً له قبلَ الخلافة، فقال لأخيه محمدٍ: اذهَب إليه فأمنه. فجاءه، فقال له: يا مصعبُ، قد آمَنَك ابنُ عمِّك على نفسك وولدك ومالك وأهلك، فاذهَبْ حيثُ شئتَ من البلاد، ولو أرادَ بك غيرَ ذلك لكان. فقال مُصعبٌ: قُضِي الأمرُ، إنَّ مثلي لا ينصرفُ عن مثلِ هذا الموقفِ إلاّ غالبًا أو مغلوبًا. فتقدَّم ابنُه عيسى فقاتَل، فقال محمدُ بنُ مروانَ: يابْنَ أخي، لا تقتُلْ نفسَك. ثم ذكَر من قولِه ما تقدَّم، ثم قاتَلَ حتى قُتِل، رحمه اللهُ، ثم ذكَر من قَتْلِ أبيه بعدَه، كما تقدَّم.

قال: ولَمّا وضع رأسُ مُصعبٍ بين يدَيْ عبدِ الملك بكَى وقال: واللهِ ما كنتُ أقدر أنْ أصبِرَ عليه ساعةً واحدةً من حبِّي له حتى دخَل السيفُ بيننا، ولكنَّ المُلكَ عقيمٌ! ولقد كانت المحبةُ والحرمةُ بيننا قديمةً، متى تلدُ النِّساءُ مثلَ مُصعبٍ؟ ثم أمَر بمُواراته، ودفَنه هو وابنَه وإبراهيمَ بنَ الأشترِ في قبورٍ بمسكِنٍ بالقربِ من الكوفة.

قال المدائنيُّ: وكان مقتلُ مُصعبِ بنِ الزبيرِ يومَ الثلاثاء الثالثَ عشَرَ من جُمادَى الأولى أو الآخرةِ من سنةِ إحدى وسبعين في قولِ الجمهورِ، وقال المدائنيُّ: سنةَ ثنتين وسبعين. واللهُ أعلمُ.

قالوا: ولما قتَل عبدُ الملكِ مُصعبًا ارتحَل إلى الكوفة فنزَل النُّخَيْلَةَ فوفَدتْ عليه الوفودُ بها من رؤساء القبائلِ وساداتِ العربِ، وجعَل يُخاطِبُهم بفصاحةٍ وبلاغةٍ واستشهادٍ بأشعارٍ حسَنةٍ، وبايَعه أهلُ العراقِ وفرَّق العمالاتِ في الناسِ، وولَّى الكوفةَ قَطَنَ بنَ عبدِ الله الحارثيَّ أربعين يومًا، ثم عزَله وولَّى أخاه بشرَ بنَ مروانَ عليها. وخطَب عبدُ الملك يومًا بالكوفة فقال في خُطبته: إنَّ عبدَ الله بنَ الزُّبيرَ لو كان خليفةً كما يزعُمُ لخَرَج فآسَى بنفسه، ولم يغرِزْ ذَنَبَه في الحرم. ثم قال لهم: إنِّي قد استخلَفتُ عليكم أخي بشرَ بنَ مَروانَ، وأمَرتُه بالإحسانِ إلى أهلِ الطّاعة، وبالشدَّةِ على أهلِ المعصيَة، فاسمَعوا له وأطيعوا.

وأمَّا أهلُ البصرةِ فإنهم لَمّا بلَغهم مقتلُ مُصعبٍ تنازَع في إمارتها حُمْرانُ بنُ أبانٍ مولى عثمانَ بنِ عفّانَ، وعبيدُ الله بنُ أبي بَكْرَةَ، فغلَبه حُمرانُ بنُ أبانٍ عليها، فبايَعه أهلُها فكان أشرفَ الرجلَيْن. قال أعرابيٌّ: والله لقد رأيتُ رداءَ ابنِ أبانٍ مالَ عن عاتقِه يومًا، فابتدَره مَرْوانُ، وسعيدُ بنُ العاصِ، أيُّهما يُسوِّيه على مَنكِبَيه. وقال غيرُه: مدَّ حُمرانُ يومًا رجلَه فابتدَر معاويةُ وعبدُ الله بنُ عامرٍ أيُّهما يغمزُها. قال: فبعَث عبدُ الملكِ بنُ مروانَ خالدَ بنَ عبدِ الله بنِ خالدِ بنِ أَسيدٍ واليًا عليها - يعني على البصرةِ - فأخَذها من حُمْرانَ بنِ أبانٍ واستنابَ فيها عُبَيدَ اللهِ بنَ أبي بَكْرَةَ، وعزَل حُمْرانَ بنَ أبانٍ عنها.

قالوا: وقد أمر عبدُ الملك بطعام كثير فعُمل لأهل الكوفة فأكلوا من سماطه، ومعه يومئذٍ على السَّرير عمرُو بنُ حُرَيْث، فقال له عبدُ الملك: ما ألذَّ عيشَنا لو أنَّ شيئًا يدومُ، ولكنْ نحن كما قال الأولُ:

وكلُّ جديدٍ يا أُمَيمَ إلى بِلًى ... وكلُّ امرئٍ يومًا يصيرُ إلى كانْ

فلمّا فرَغ الناسُ من الطعام نهَض فدار في القصر، وجعَل يسألُ عمرَو بنَ حُرَيْثٍ عن أحوالِ القصر ومَن بنَى أماكنَه وبيوتَه، فيخبرُه، ثم جاء مجلسَه فاستلقَى وهو يقولُ:

اعْمَلْ على مَهَلٍ فإنَّكَ مَيِّتٌ ... واكْدَحْ لنفسِك أيُّها الإنسانْ

فكأنَّ ما قد كانَ لم يكُ إذْ مضَى ... وكأنَّ ما هو كائنٌ قد كانْ

قال ابنُ جرير: وفيها رجَع عبدُ الملك - فيما زعَم الواقديُّ - إلى الشام.

قال: وفيها عزَل ابنُ الزُّبيرِ جابرَ بنَ الأسودِ عن المدينة، وولَّى عليها طلحة بنَ عبدِ الله بنِ عَوْف، وكان هو آخرَ أُمرائه عليها، حتى قدم عليها طارقُ بنُ عمرو مولى عثمانَ، من جهةِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ.

وفيها حجَّ بالناسِ عبدُ الله بنُ الزبير، ولم يبقَ له ولايةٌ على العراق.

قال الواقديُّ: وفيها عقَد عبدُ العزيزِ بنُ مروانَ نائبُ مصرَ لحسَّانَ الغسّانيِّ على غزوِ إفريقيَّةَ، فسار إليها في عددٍ كثير، فافتتَح قَرْطَاجَنَّةَ وكان أهلُها رومًا عُبَّادَ أصنام.

وفيها قُتِل نَجْدةُ الحَروريُّ الذي تغلَّب على اليمامةِ. وفيها خرَج عبدُ الله بنُ ثَوْرٍ في اليمامةِ.

وهذه ترجمةُ مصعبِ بنِ الزبيرِ رحمه اللهُ

وهو مصعبُ بنُ الزبيرِ بنِ العوَّام بنِ خُوَيْلدِ بنِ أَسَدِ بنِ عبدِ العُزَّى بنِ قُصَيِّ بنِ كلاب، أبو عبدِ الله القرشيُّ - ويُقالُ له: أبو عيسى أيضًا - الأَسَديُّ. وأمُّه الرَّبَابُ بنتُ أُنَيْفٍ الكلبيةُ. كان من أحسنِ الناسِ وجهًا، وأشجعهم قلبًا، وأسخاهم كفًّا.

وقد حكَى عن عمرَ بنِ الخطَّاب، وروَى عن أبيه الزبيرِ بنِ العوَّام، وسعدٍ، وأبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ. وروَى عنه الحكمُ بنُ عُتَيبةَ، وعمرُو بنُ دينارٍ الجُمَحيُّ، وإسماعيلُ بنُ أبي خالدٍ. ووفَد على معاويةَ، وكان ممَّن يُجالسُ أبا هريرةَ، وكان من أحسنِ الناسِ وجهًا.

حكَى الزبيرُ بنُ بكّارٍ أنَّ جميلًا نظَر إليه وهو واقفٌ بعرفةَ، فقال: إنَّ ههنا فتًى أكرَهُ أنْ تراه بثينةُ. وقال الشعبيُّ: ما رأيتُ أميرًا قطُّ على منبرٍ أحسنَ منه. وكذا قال إسماعيلُ بنُ أبي خالدٍ. وقال الحسنُ: هو أجملُ أهلِ البصرة.

وقال الخطيبُ البغداديُّ: ولي إمرةَ العراقين لأخيه عبدِ اللهِ بنِ الزبير، حتى قتَله عبدُ الملكِ بنُ

مروانَ بمسكِنَ في موضع قريبٍ مِن أَوَانا على نهرِ دُجَيْلٍ عند دَيْرِ الجاثَليق، وقبرُه إلى الآنَ معروفٌ هناك. وقد ذكرْنا صفةَ قتلِه المختارَ بنَ أبي عُبيدٍ، وأنَّه قتَل في غداةٍ واحدةٍ مِن أصحابِ المختارِ سبعةَ آلافٍ.

قال الواقديُّ: لمَّا قتَل مُصعبٌ المختارَ، طلَب أهلُ القصرِ مِن أصحابِ المختارِ مِن مُصعبٍ الأمانَ فأمَّنَهم، ثم بعَث إليهم عبَّادَ بنَ الحُصينِ فجعَل يُخرجُهم مُلتفِّين، فقال له رجلٌ: الحمدُ للهِ الذي نصَرَكم علينا، وابتلانا بالأسرِ، يابنَ الزبيرِ مَن عفا عفا اللهُ عنه، ومَن عاقَب لا يأمَنُ القِصاصَ، نحن أهلُ قِبلتِكم وعلى ملَّتِكم وقد قَدَرْتَ فاسمَحْ واعفُ عنَّا.

قال: فرقَّ لهم مُصعبٌ وأرادَ أنْ يُخلِّيَ سبيلَهم، فقام عبدُ الرحمنِ بنُ محمدِ بنِ الأشعثِ وغيرُه مِن كلِّ قبيلةٍ، فقالوا: قد قتَلوا أولادَنا وعشائرَنا، وجرَحوا منَّا خلقًا، اختَرْنا أو اختَرْهم. فأمَر حينئذٍ بقتلِهم، فنادَوْا بأجمعِهم: لا تقتُلْنا واجعَلْنا مُقدِّمتَك في قتالِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ، فإنْ ظفِرنا فلكم، وإنْ قُتِلْنا لا نُقتَلُ حتى نَقتُلَ منهم طائفةً وكان الذي تريدُ. فأبَى ذلك مصعبٌ، فقال له مُسافرٌ: اتقِ اللهَ يا مصعبُ، فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ أمَرك أن لا تقتُلَ نفسًا مسلمةً بغيرِ نفسٍ، وإنَّ ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣]. فلم يسمَعْ له، بل أمَر بضربِ أعناقِهم جميعِهم، وكانوا سبعةَ آلافِ نفسٍ، ثم كتَب مُصعبٌ إلى ابنِ الأشترِ: إنْ أجَبْتني فلَكَ الشامُ، وأعِنَّةُ الخيلِ. فسار ابنُ الأشترِ إلى مُصعبٍ. وقيل: إنَّ مصعبًا لمَّا قدِم مكَّةَ أتَى عبدَ اللهِ بنَ عُمرَ فقال: أيْ عمِّ، إنِّي أسألُك عن قومٍ خلَعوا الطاعةَ، وقاتَلوا حتى إذا غُلِبوا تحصَّنوا، وسألوا الأمانَ فأُعطُوه، ثم قُتِلوا بعد ذلك. فقال: وكم هم؟ قال: خمسةُ آلافٍ. فسبَّح ابنُ عمرَ واسترجَع، وقال: لو أنَّ رجلًا أتى ماشيةَ الزبيرِ فذبَح منها خمسةَ آلافِ شاةٍ في غداةٍ واحدةٍ ألستَ تعُدُّه مُسرفًا؟ قال: نعم. قال: أفتراه إسرافًا في البهائمِ ولا تراه إسرافًا في مَن ترجو توبتَه؟ يابنَ أخي أصِبْ مِن الماءِ الباردِ ما استطعْتَ في دُنياك.

ثم إنَّ مُصعبًا بعَث برأسِ المختارِ إلى أخيه بمكَّةَ، وتمكَّن مُصعبٌ في العراقِ تمكُّنًا زائدًا، فقرَّر بها الولاياتِ والعمَّالَ، وحظِي عندَه إبراهيمُ بنُ الأشترِ فجعَله على الوِفادةِ، ثم رحَل مصعبٌ إلى أخيه بمكَّةَ فأعلمَه بما فعَل فأقرَّه على ما صنَع، إلَّا إبراهيمَ بنَ الأشترِ لم يُمضِ له ما جعَله عليه. فقال له: أعمَدتَ إلى رايةٍ خفَضها اللهُ تُريدُ أنْ ترفعَها؟ ثم كشَف عن ظهرِه فإذا ضربةٌ قد أصابته، وقال له: أتُراني أحِبُّ ابنَ الأشترِ وهو الذي جرحني هذه الجِراحةَ. ثم استدعَى بمَن قدِم مع مصعبٍ مِن أهلِ العراقِ فقال لهم: واللهِ لوددتُ أنَّ لي بكلِّ رَجُلَينِ منكم رجلًا مِن أهلِ الشامِ. فقال له أبو حاضرٍ الأُسَيِّديُّ-وكان قاضيَ الجماعةِ بالبصرةِ-: إنَّ لنا ولكم مثَلًا قد مضَى يا أميرَ المؤمنين، وهو ما قال

الأعشى:

عُلِّقْتُها عَرَضًا وعُلِّقَتْ رَجُلاً غَيْرِي وعُلِّقَ أُخْرى غَيْرَها الرَّجلُ

قلتُ: كما قيلَ أيضًا:

جُنِنّا بِلَيْلَى وَهْيَ جُنَّتْ بغيرِنا وأخرى بنا مجنونةٌ لا نريدُها

عُلِّقْناكَ يا أميرَ المؤمنين، وعُلِّقتَ أهلَ الشام، وعُلِّقَ أهلُ الشام إلى مَرْوانَ، فما عسَيْنا أنْ نصنَعَ؟ قال الشعبيُّ: فما سمعتُ جوابًا أحسنَ منه. وقال غيرُه: كان مُصعبٌ من أشدِّ الناسِ محبةً للنساء. وقد أعطاه اللهُ من ذلك شيئًا كثيرًا؛ كما رُوي أنَّه اجتمعَ عندَ الحجَرِ الأسودِ جماعةٌ، فقالوا فيما بينَهم: ليقُمْ كُلُّ واحدٍ منكم فليسأَلْ عندَ الحجرِ الأسودِ من الله شيئًا يُحبُّه. فقام كلٌّ يسألُ حاجتَه منهم، وكان منهم مصعبُ بنُ الزبير؛ سأل اللهَ عزَّ وجلَّ أنْ يزوِّجَه سُكَيْنَةَ بنتَ الحُسين، وعائشةَ بنتَ طلحةَ - وكانتا أحسنَ النساءِ في ذلك العصر - وأن يُعطيَه اللهُ إمرةَ العراقين. فأعطاه اللهُ ذلك كلَّه؛ تزوَّج بعائشةَ بنتِ طلحةَ، وكان صَداقُها عليه مائةَ ألفِ دينارٍ، وكانت باهرةَ الجمالِ جدًّا، وكان مصعبٌ أيضًا جميلاً جدًّا، وكذلك بقيةُ زوجاته. قال الأصمعيُّ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ أبي الزِّنادِ، عن أبيه قال: اجتَمَع في الحِجْرِ مصعبٌ وعروةُ وعبدُ الله، بنو الزبيرِ، وعبدُ الله بنُ عمرَ، فقالوا: تَمَنَّوا. فقال عبدُ الله بنُ الزبيرِ: أمّا أنا فأتمنَّى الخلافةَ. وقال عروةُ: أمّا أنا فأتمنَّى أنْ يُؤخذَ عني العلمُ. وقال مصعبٌ: أمّا أنا فأتمنَّى إمرةَ العراقِ، والجمعَ بينَ عائشةَ بنتِ طلحةَ وسُكَيْنةَ بنتِ الحُسينِ. وقال عبدُ الله بنُ عمرَ: أمّا أنا فأتمنَّى المغفرةَ. قال: فنالوا كلُّهم ما تمَنَّوْا، ولعلَّ ابنَ عمرَ قد غفر له.

وقال عامرٌ الشَّعبيُّ: بينما أنا جالسٌ يومًا إذ دعاني الأميرُ مصعبُ بنُ الزُّبيرِ فأدخَلَني دارَ الإمارةِ، ثم كشَفَ عن سترٍ فإذا وراءَه عائشةُ بنتُ طلحةَ، فلم أرَ منظرًا أبهَى، ولا أحسنَ منها. فقال: أتدري مَن هذه؟ فقلتُ: لا. فقال: هذه عائشةُ بنتُ طلحةَ. ثم خرجْتُ، فقالَتْ عائشةُ: مَن هذا الذي أظهَرْتني عليه؟ قال: هذا عامرٌ الشَّعبيُّ. قالت: فأطلِقْ له شيئًا. فوهَبني عشَرةَ آلافِ درهمٍ. قال الشَّعبيُّ: فكان أوَّلَ مالٍ ملَكتُه.

وحكَى الحافظُ ابنُ عساكرَ أنَّ عائشةَ بنتَ طلحةَ تغضَّبَتْ مرَّةً على مُصعبٍ فترَضَّاها بأربعمائة ألفِ درهمٍ، فأطلَقَتْها هي للمرأةِ التي أصلَحتْ بينهما. وقيل: إنّه أُهْدِيَتْ له نخلةٌ من ذهبٍ، ثمارُها من صنوفِ الجواهرِ الْمُثمنة، فقوِّمتْ بألفَيْ ألفِ دينارٍ، وكانت من متاعِ الفُرسِ فأعطاها لعبدِ الله بنِ أبي فَرْوةَ. وقيل: إنَّ أخاه عبدَ الله كان إذا كتَب لأحدٍ جائزةً بألفِ درهمٍ جعلَها مصعبٌ مائةَ ألفِ درهمٍ.

وقد كان مُصعبٌ من أجودِ الناسِ وأكثرِهم عطاءً، لا يستكثرُ ما يُعطي ولو كان ما عسَاه أنْ يكونَ؛ فكانَتْ عطاياه للقويِّ والضعيفِ والوضيعِ والشريفِ مُتقاربةً، وكان أخوه عبدُ الله يُبَخَّلُ.

وروَى الخطيبُ البغداديُّ في «تاريخه» أنَّ مُصعبًا غضب مرَّةً على رجُلٍ فأمَر بضربِ عنقه، فقال له الرجلُ: أعزَّ اللهُ الأميرَ، ما أقبحَ بمثلي أن يقومَ يومَ القيامة فيتعلَّقَ بأطرافك الحسنة، وبوجهك الذي يُستضاءُ به، فأقولَ: يا ربِّ، سَلْ مُصعبًا فيمَ قتَلني؟ فعفا عنه، فقال الرجلُ: أعزَّ اللهُ الأميرَ، إنْ رأيتَ أن تجعلَ ما وهبتَ لي من حياتي في عيشٍ رَخيٍّ. فأطلَق له مائةَ ألفٍ، فقال الرجلُ: إنِّي أُشهدُك أنَّ نصفَها لابنِ قيسِ الرُّقَيَّات؛ حيثُ يقولُ فيك:

إنما مصعبٌ شهابٌ من الله ... تجلَّتْ عنْ وجهِه الظَّلماءُ
مُلكُه مُلكُ عِزَّةٍ ليس فيه ... جَبَروتٌ منه ولا كبرياءُ
يتَّقي اللهَ في الأمورِ وقدْ أفـ ... ـلَح مَن كان همَّهُ الاتِّقاءُ

وفي روايةٍ أنَّه قال له: أيُّها الأميرُ، قد وهَبْتَني حياةً، فإنِ استطعْتَ أنْ تجعَلَ ما قد وهَبْتَني من الحياةِ في عيشٍ رَخيٍّ وسَعةٍ فافعَلْ. فأمَر له بمائة ألف.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا مُؤَمَّلٌ، حدثنا حمادُ بنُ سلَمةَ، ثنا عليُّ بنُ زيد قال: بلَغ مُصعبًا عن عريفِ الأنصارِ شيءٌ فهَمَّ به، فدخَل عليه أنسُ بنُ مالك، فقال له: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «**استوْصُوا بالأنصار خيرًا - أو قال: معروفًا - اقبَلوا من مُحسنهم وتجاوزوا عن مُسيئهم**»[1]. فألقَى مصعبٌ نفسَه عن سريرِه، وألزَقَ خدَّه بالبِساطِ، وقال: أمْرُ رسولِ الله ﷺ على الرأسِ والعَيْنِ. فترَكه.

ومِن كلامِ مُصعبٍ في التواضُعِ أنَّه قال: العجبُ مِن ابنِ آدمَ كيف يتكبَّرُ، وقد جرَىٰ في مَجرىٰ البولِ مرَّتَيْنِ؟!

وقال محمدُ بنُ يزيدَ المبرِّدُ: سُئلَ القاسمُ بنُ محمدٍ عن مُصعبٍ فقال: كان نبيلًا رئيسًا نفيسًا أنيسًا.

وقد تقدَّم أنَّه لمَّا ظهَر على المختارِ قتَل من أصحابِه في غداةٍ واحدةٍ خمسةَ آلافٍ، وقيل: سبعةَ آلافٍ. فلمَّا كان بعدَ ذلك لقِي ابنَ عمرَ فسلَّم عليه فلم يعرِفْه ابنُ عمرَ؛ لأنَّه كان قد انضرَّ في عينيْه، فتعرَّف له حتى عرَفه، فقال: أنت الذي قتَلتَ في غداةٍ واحدةٍ خمسةَ آلافٍ ممَّن يُوحِّدُ اللهَ؟ فاعتذَر إليه بأنَّهم بايَعوا المختارَ، فقال: أمَا كان فيهم مَن هو مستكرَهٌ أو جاهلٌ فيُنظَرَ حتى يتوبَ؟ أرأيتَ لو أنَّ رجلًا جاء إلى غنَمِ الزُّبيرِ فنحَر منها خمسةَ آلافٍ في غداةٍ واحدةٍ، أمَا كان مُسرِفًا؟ قال: بلى. قال: وهي لا تعبُدُ اللهَ ولا تعرِفُه كما يعرِفُه الآدَميُّ ويعبدُه، فكيفَ بمَن هو موحِّدٌ؟ ثم قال له: يا بُنيَّ تمتَّعْ مِن الماءِ الباردِ في الدنيا ما استطعْتَ. وفي روايةٍ أنَّه قال له: عِشْ ما استطعْتَ.

---

(١) الجزء المرفوع منه صحيح أما الحديث بهذا التمام: أخرجه أحمد (٣/ ٢٤٠، ٢٤١) بهذا الإسناد وهو إسنادٌ ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان.
والجزء المرفوع منه صحيح أخرجه أحمد (٣/ ١٦٢) عن عبد الرزاق حدثنا معمر عن ثابت البناني عن أنس مرفوعًا به وهذا إسنادٌ رجاله ثقات ورواية معمر عن ثابت متكلم فيها لكن المعنى في «صحيح البخاري» برقم (٣٧٩٩) من حديث أنس.

وقال الزبيرُ بنُ بكّار: حدَّثني محمدُ بنُ الحسنِ، عن زافرِ بنِ قُتيبةَ، عن الكلبيِّ قال: قال عبدُالملك بنُ مَرْوانَ يومًا لجُلسائه: مَن أشجعُ العربِ؟ قالوا: شَبيبٌ، قَطَرِيُّ بنُ الفُجاءَة، فلانٌ، فلانٌ. فقال عبدُ الملك: إنَّ أشجعَ العربِ لَرَجُلٌ جمعَ بين سُكَيْنةَ بنت الحُسين، وعائشةَ بنت طلحةَ، وأمَةِ الحَميدِ بنت عبدِ الله بنِ عامرِ بن كُرَيْز، وأمُّه ربابُ بنتُ أُنَيْفٍ الكلبيُّ، سيِّدُ ضاحيةِ العربِ، ووليَ العراقَين خمسَ سنينَ فأصابَ ألفَ ألفٍ، وألفَ ألفٍ، وألفَ ألفٍ، وأُعْطِي الأمانَ، فأبَى، ومشَى بسيفه حتَّى مات؛ ذلك مُصْعَبُ بنُ الزبيرِ، لا مَن قطَع الجسورَ مرَّةً ههنا ومرَّةً ههنا.

قالوا: وكان مَقْتَلُه يومَ الخميسِ النصف من جُمادَىٰ الأُولىٰ سنةَ اثنتَيْنِ وسبعين.

وقال الزبيرُ بنُ بَكّار: حدَّثني فُلَيْحُ بنُ إسماعيلَ وجَعْفَرُ بنُ أبي كَثير، عن أبيه، قال: لمَّا وُضع رأسُ مُصْعَبِ بنِ الزبيرِ بيْنَ يَدَيْ عبدِ الملك قال:

لقد أردَى الفوارسَ يومَ عَبْسٍ ... غلامًا غيرَ منَّاعِ المتاعِ
ولا فَرِحٍ بخيرٍ إنْ أتاهُ ... ولا هَلِعٍ من الحَدَثانِ لاعِ
ولا وقَّافةٍ والخيلُ تَعْدُو ... ولا خالٍ كأُنْبُوبِ اليَراعِ

فقال الرجلُ الذي جاء برأسه: والله يا أميرَ المؤمنين لو رأيتَه والرُّمحُ في يده تارةً، والسيفُ تارةً؛ يَفْري بهذا، ويطعَنُ بهذا، لرأيتَ رجلًا يملأُ القلبَ والعينَ شجاعةً وإقدامًا، ولكنَّه لمّا تفرَّقَتْ رجالُه، وكثُر مَن قصدَه وبقي وحدَه ما زال يُنشدُ:

وإنِّي على المكروه عندَ حضوره ... أُكذِّبُ نفسي والجُفونُ له تُغضِي
وما ذاك من ذُلٍّ ولكنْ حفيظةً ... أذُبُّ بها عندَ المكارمِ عن عِرضي
وإنِّي لأهلِ الشَّرِّ بالشَّرِّ مُرصَدٌ ... وإنِّي لذي سِلمٍ أذَلُّ من الأرضِ

فقال عبدُ الملك كان والله كما وصَف به نفسَه وصدَق، ولقد كان من أحبِّ النَّاسِ إليَّ، وأشَدِّهم لي إلْفًا ومودَّةً، ولكنَّ المُلْكَ عَقيمٌ.

وروَى يعقوبُ بنُ سفيانَ، عن سليمانَ بن حربٍ، عن غسّانَ بنِ مُضَرَ، عن سعيدِ بنِ يزيدَ، أن عبيدَ الله بنَ زيادِ بنِ ظَبيانَ قتَل مُصْعبًا عندَ دَيرِ الجاثليقِ علىٰ شاطئِ نهرٍ يُقالُ له: دُجَيلٌ. من أرضِ مَسْكِنَ، واحتَزَّ رأسَه فذهَب به إلىٰ عبدِ الملك فسجَد شكرًا لله، وكان ابنُ ظَبيانَ فاتكًا رديًّا، وكان يقولُ: لَيْتني قتلتُ عبدَ الملك حينَ سجَد يومئذٍ، فأكونَ قد قتَلتُ مَلِكَي العربِ.

قال يعقوبُ: وكان ذلك سنةَ ثِنْتينِ وسبعينَ. قلتُ: وكذا قال عليُّ بنُ محمدٍ المدائنيُّ. والذي رجَّحه ابنُ جريرٍ وغيرُه أنَّه سنةَ إحدىٰ وسبعين. واللهُ أعلمُ.

وحكىٰ الزبيرُ بنُ بكّارٍ - في عُمرِه يومَ قتِل - ثلاثةَ أقوالٍ: أحدُها: خمسٌ وثلاثون سنةً، والثاني: أربعونَ سنةً، الثالثُ: خمسٌ وأربعونَ سنةً. فاللهُ أعلمُ.

وروَى الخطيبُ البغداديُّ، أنَّ امرأتَه سُكينةَ بنتَ الحسينِ كانت معه في هذه الوقعةِ فلمّا قُتِل تطلَّبَتْه

في القَتْلى حتى عرفَتْه بشامةٍ في فَخذه فقالتْ: نعمَ بعلُ المرأةِ المسلمةِ كنتَ، أدركَكَ واللهِ ما قال عنترةُ:

وحليلِ غانيةٍ تركتُ مُجَدَّلًا ... بالقاعِ لم يعهَدْ ولم يتثلَّمِ
فهتكتُ بالرُّمحِ الطويلِ إهابَهُ ... ليسَ الكريمُ على القَنا بمحرَّمِ

قال الزبيرُ: وقال عبيدُ اللهِ بنُ قيسِ الرقياتِ يَرْثِي مصعبًا:

لقدْ أورثَ المِصْرَيْنِ خِزْيًا وذِلَّةً ... قتيلٌ بدَيرِ الجاثَليقِ مُقيمُ
فما نصَحَتْ لله بكرُ بنُ وائلٍ ... ولا صدَقَتْ يومَ اللقاءِ تَميمُ
ولو كانَ بَكْرِيًّا تَعطَّفَ حولَهُ ... كتائبُ يَغْلي حَمْيُها ويدومُ
ولكنَّهُ ضاعَ الذِّمامُ ولم يُكُنْ ... بها مُضَرِيٌّ يومَ ذاكَ كريمُ
جزى اللهُ كوفيًّا هناك ملامةً ... وبَصْريَهم إنَّ الملومَ مَلومُ
وإنَّ بَني العَلَّاتِ أخلَوا ظُهورنا ... ونحنُ صَريحٌ بينَهمْ وصميمُ
فإنْ نَفْنَ لا يَبقَى أولئك بعدَنا ... لِذي حُرْمةٍ في المسلمينَ حريمُ

وقال عبيدُ اللهِ بنُ قيسِ الرقياتُ يرثي مصعبًا أيضًا:

نَعَتِ السَّحائبُ والغَمامُ بأسرِها ... جسدًا بمَسْكِنَ عاريَ الأوصالِ
تُمسي عوائدَه السِّباعُ ودارُهُ ... بمنازلٍ أطلالُهُنَّ بَوالي
رحَلَ الرِّفاقُ وغادَروهُ ثاويًا ... للرِّيحِ بينَ صَبًا وبينَ شَمالِ

وقد قال أبو حاتمٍ الرَّازي: ثنا يَحيى بنُ مصعبٍ الكلبيُّ، ثنا أبو بكرِ بنُ عيَّاشٍ، عن عبدِ الملكِ ابنِ عُميرٍ قال: دخلْتُ القصرَ بالكوفةِ فإذا رأسُ الحسينِ بنِ عليٍّ على تُرْسٍ بينَ يَدَي عبيدِ اللهِ بنِ زيادٍ، وعبيدُ اللهِ على السَّريرِ، ثم دخلتُ القصرَ بعد ذلك بحينٍ فرأيتُ رأسَ عبيدِ اللهِ بنِ زيادٍ على تُرْسٍ بينَ يَدَي المختارِ، والمختارُ على السَّريرِ، ثم دخلتُ القصرَ بعدَ ذلك بحينٍ فرأيتُ رأسَ المختارِ على تُرْسٍ بينَ يَدَيْ مصعبٍ، ومصعبٌ على السَّريرِ، ثم دخلتُ بعدَ ذلك بحينٍ فرأيتُ رأسَ مصعبِ ابنِ الزبيرِ على تُرسٍ بينَ يَدَيْ عبدِ الملكِ، وعبدُ الملكِ على السَّريرِ. وقد حكاها الإمامُ أحمدُ، وغيرُ واحدٍ، عن عبدِ الملكِ بنِ عُميرٍ رحمه اللهُ.

قال ابنُ جريرٍ: وذكر أبو زيدٍ، عن أبي غسَّانَ محمدِ بنِ يحيى، حدَّثني مصعبُ بنُ عثمانَ قال: لَمَّا انتهَى إلى عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ قَتْلُ أخيه مصعبٍ، قام في الناسِ خطيبًا فقال: الحمدُ للهِ الذي له الخلقُ والأمرُ، يؤتي المُلْكَ مَن يشاءُ وينزعُ المُلْكَ مِمَّن يَشاءُ، ويُعِزُّ مَن يشاءُ ويُذِلُّ مَن يشاءُ، ألا وإنَّه لم يُذِلَّ اللهُ مَن كان الحقُّ معه، وإنْ كان فردًا وحدَه، ولن يُفلِحَ مَن كان وليَّه الشيطانُ وحزبُه، ولو كان معه الأنامُ طُرًّا، ألا وإنَّه أتانا من العراقِ خبرٌ أحزَننا وأفرحَنا؛ أتانا قَتْلُ مصعبٍ رحمه اللهُ، فأمّا الذي أفرحَنا فعلِمْنا أنَّ قَتْلَه له شهادةٌ، وأمَّا الذي أحزَننا فإنَّ لفراقِ الحميمِ لوعةً يجدُها حميمُه عندَ

المُصيبة به، ثُمَّ يرعَوِي من بَعْدها، وذو الرأي جميلُ الصبر كريمُ العزاء، ولئن أصبتُ بمصعب فلقد أصبتُ بالزبير قبلَه، وما أنا من عثمانَ بخلْوٍ مصيبة، وما مصعبٌ إلا عبدٌ من عَبيد الله، وعونٌ من أعواني، ألا وإنَّ أهلَ العراق أهلُ الغدر والنِّفاق؛ أسلَمُوه وباعُوه بأقلِّ الثمن، فإنْ يُقتَلْ فإنَّا والله ما نموتُ على مَضاجعنا كما تموتُ بنو أبي العاص؛ والله ما قُتل منهم رجلٌ في زحفٍ في الجاهلية ولا في الإسلام، وما نموتُ إلاَّ بأطراف الرِّماح أو تحتَ ظلِّ السيوف، ألاَ وإنَّ الدنيا عاريةٌ من الملكِ الأعلى الذي لا يَزولُ سلطانُه ولا يَبيدُ مُلكُه، فإنْ تُقْبِلِ الدُّنيا لا آخُذْها أخْذَ الأشرِ البَطِرِ، وإنْ تُدبِر لا أبكِ عليها بكاءَ الحزينِ المَهينِ، أقولُ قولي هذا وأستغفرُ اللهَ لي ولكم.

ومَّن تُوفِّي في هذه السَّنة من الأعيان:

إبراهيمُ بنُ الأشتر، واسمُ الأشترِ مالكُ بنُ الحارث النَّخَعيُّ. كان أبوه الأشترُ من كبارِ أُمراءِ عليٍّ، واستعمَلَه عليٌّ على خراسانَ، وهو ممَّن قام على عثمانَ وقتَله، وكان إبراهيمُ هذا من الأمراء المعروفينَ بالشجاعة وله شرفٌ، وهو الذي قتَل عبيدَ الله بنَ زيادٍ كما ذكرْنا، ثم صار إلى مصعبِ بنِ الزبيرِ، وقتل معه هذه السَّنةَ كما ذكرْنا.

عبدُ الرحمنِ بنُ أبزَى الخُزاعيُّ، له صحبةٌ وروايةٌ، واستعمَلَه عليٌّ على خراسانَ، وسكَن الكوفةَ ووليها مرةً. تُوفي بالكوفة.

عبدُ الرحمن بنُ عُسَيلةَ أبو عبد الله المراديُّ الصُّنابحيُّ، كان من الصُّلحاء، وكان عبدُ الملكِ يُجلسُه معه على السَّريرِ، وكان عالمًا فاضلاً، تُوفي بدمشق.

عمرُ بنُ أبي سلمةَ المخزوميُّ المدنيُّ، ربيبُ النبيِّ ﷺ، ولد بأرضِ الحبشةِ وكان عندَ أُمِّه؛ أُمِّ سَلَمَةَ. وله رواياتٌ عن النبيِّ ﷺ، وعن جماعةٍ من الصحابةِ رضي اللهُ عنهم.

سَفينةُ مَولى رسول الله ﷺ، أبو عبد الرحمن، كان عبدًا لأمِّ سَلَمةَ فأعتقَتْه وشرَطَتْ عليه أنْ يخدمَ رسولَ الله ﷺ، فقال: أنا لا أزالُ أخدمُ رسولَ الله، لو لم تُعتقيني ما عشتُ. وقد كان سفينةُ بآلِ رسول الله ﷺ أليفًا، وبهم خليطًا. وروَى الطبرانيُّ أنَّ سفينةَ سُئل عن اسمه؛ لِمَ سُمِّي سفينةَ؟ قال: سمَّاني رسولُ الله ﷺ سفينةَ؛ خرَج مرَّةً ومعه أصحابُه فثقُل عليهم متاعُهم، فقال لي رسولُ الله ﷺ: «ابسُطْ كساءَك». فبسطتُه، فجعَل فيه متاعَهم، ثم قال لي: «احمِلْ، ما أنتَ إلاَّ سفينةٌ»(١). قال: فلو حملتُ يومئذٍ وِقْرَ بعيرٍ أو بعيرَيْنِ أو خمسةٍ أو ستةٍ ما ثقُل عليَّ.

(١) **حسن لشواهده:** أخرجه أحمد (٥/ ٢٢١) ثنا أسود بن عامر ثنا شريك عن عمران النخلي عن مولى لأم سلمة قال: كنت مع النبي ﷺ في سفر. . . فذكر الحديث بنحوه وفي إسناده شريك النخعي وهو سيئ الحفظ.
وله إسنادٌ آخر عند أحمد أيضًا (٥/ ٢٢٠) ثنا إسحاق بن عيسى ثنا حمادٌ بن زيد عن سعيد بن جهمان عن سفينة أنه كان يحمل شيئًا كثيرًا فقال له رسول الله ﷺ: أنت سفينة وهذا إسنادٌ حسن رجاله ثقات إلا سعيد بن جهمان فهو حسن الحديث إن شاء الله. فأقل أحوال الخبر أن يكون حسنًا لشواهده والله أعلم وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٧/ ٨٢ - (٨٣) - (رقم ٦٤٣٩).

وروىٰ محمدُ بنُ المنكَدرِ، عن سفينةَ قال: ركِبتُ مرَّةً سفينةً في البحرِ فانكسرَتْ بنا فركبتُ لوحًا منها فطرَحني البحرُ إلىٰ غَيْضةٍ فيها الأسدُ، فجاءني فقلتُ: يا أبا الحارثِ، أنا سفينةُ مَوْلَىٰ رسولِ الله ﷺ، فطَأْطأ رأسَه وجعَل يدفَعُني بجنبِه أو بكفِّه، حتىٰ وضَعَني علىٰ الطريقِ، ثم هَمهَم هَمهمةً فظننتُ أنَّه يُودِّعُني.

وقال حمادُ بنُ سلمةَ: ثنا سعيدُ بنُ جُمْهانَ، عن سفينةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ دخَل بيتَ فاطمةَ فرأىٰ في ناحيةِ البيتِ قِرامًا مضروبًا فرجَع ولم يدخُلْ، فقالتْ فاطمةُ لعليٍّ: سَلْ رسولَ الله ﷺ ما الذي ردَّه؟ فسأَلَه فقال: «**ليس لي ولا لنبيٍّ أنْ يَدخُلَ بيتًا مزوَّقًا**»[(١)].

عمرُو بنُ أخطَبَ أبو زيد الأنصاريُّ الأعرجُ، غزا مع النبيِّ ﷺ ثلاثَ عشْرةَ غزوةً، ومسَح رأسَه وقال: «**اللهمَّ جمِّله**»[(٢)]. فبلَغ مائةَ سنةٍ ولم يَبْيَضَّ شَعْرُه. توفِّي بالبصرةِ.

غُضَيفُ بنُ الحارث بنِ زُنَيْمٍ السَّكُونيُّ، مختلَفٌ في صحبتِه، له رواياتٌ عن الصحابةِ، قيل: هو مِن تابعِي أهلِ الشامِ. سَكَنَ حِمصَ، وكان يتولَّىٰ صلاةَ الجمعةِ نيابةً عن خالدِ بنِ يزيدَ. وكان مِن الصالحين.

يزيدُ بنُ الأسود الجُرَشيُّ السَّكونيُّ، كان عابدًا زاهدًا صالحًا، سكَن الشامَ بقريةِ زبدِينَ، وقيلَ: بقريةِ جِسْرِينَ. وكانت له دارٌ داخلَ بابِ شَرقيٍّ. وهو مُختلَفٌ في صُحبتِه، وله رواياتٌ عن الصحابةِ، وكان أهلُ الشامِ يَستسقُون به إذا قحَطوا، وقد استسقَىٰ به معاويةُ، والضحاكُ بنُ قيسٍ، وكان يُجلِسُه معه علىٰ المِنبرِ، فإذا اجتمَع الناسُ قال معاويةُ: قُمْ يزيدُ، اللهمَّ إنّا نَتوسَّلُ إليك بخيارِنا وصُلحائنا. فيَستسقِي اللهَ فيُسقَون، وكان يصلِّي الصلواتِ في الجامعِ بدمشقَ، وكان إذا خرَج مِن القريةِ يريدُ الصلاةَ بالجامعِ في الليلةِ المظلمةِ يُضيءُ له إبهامُ قدمِه - وقيل: أصابعُ رجليه كُلُّها - حتىٰ يدخلَ الجامعَ، فإذا رجَع أضاءت له حتىٰ يدخلَ القريةَ. وذكَروا أنَّه لم يَدَعْ شجرةً في قريةِ زبدينَ إلاَّ صلَّىٰ عندَها ركعتينِ، وكان يمشي في ضوءِ إبهامِه في الليلةِ المظلمةِ ذاهبًا إلىٰ صلاةِ العشاءِ بالجامعِ بدمشقَ، وآيبًا إلىٰ قريتِه، وكان يَشهدُ الصلواتِ بالجامعِ بدمشقَ لا تفوتُه به صلاةٌ.

مات بقريةِ زبدينَ أو جِسْرِينَ مِن غُوطةِ دمشقَ، رحِمه اللهُ.

عمرُو بنُ الأسود، أبو عياض العَنْسيُّ الحِمصيُّ، مِن كبارِ علماءِ التابعين بالشامِ، صاحبُ زهدٍ وعبادةٍ واجتهادٍ، قليلُ التشيعِ. توفِّي بحمصَ.

---

(١) **إسناده حسن:** أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٠) ثنا أبو كامل حدثنا حماد بن سلمة به وإسناده حسن رجاله ثقات إلا الكلام الذي تقرر حاصله في سعيد بن جهمان.

(٢) **إسناده صحيح رجاله ثقات على الراجح:** أخرجه أحمد (٥/ ٧٧) ثنا حرمي بن عمارة حدثنا عزرة بن ثابت الأنصاري حدثنا علباء بن أحمر حدثنا أبو زيد الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ «أدن مني» قال: فمسح بيده علىٰ رأسه ولحيته قال: ثم قال: «اللهم جمله وأدم جماله» قال فلقد بلغ بضعًا ومئة سنة، وما في رأسه ولحيته بياض إلا نبذ يسير ولقد كان منبسط الوجه ولم يقبض وجهه حتىٰ مات وإسناده رجاله ثقات.

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين

ففيها كانت وقعةٌ عظيمةٌ بينَ المُهلَّبِ بنِ أبي صُفْرةَ وبينَ الأزارقةِ مِن الخوارجِ بمكانٍ يُقالُ له: سُولافُ. مكثوا نحوًا مِن ثمانيةِ أشهرٍ متواقفين، وجرَت بينَهم حروبٌ يَطولُ بسطُها، وقد استقصاها ابنُ جريرٍ. وقتِل في أثناءِ ذلك مِن هذه المدَّةِ مصعبُ بنُ الزبيرِ، وبايَع الناسُ عبدَ الملكِ بنَ مَرْوانَ، وأمَّرَ عبدُ الملكِ المهلَّبَ بنَ أبي صُفْرةَ على الأهوازِ وما معها، وشكَر سعيَه، وأثنَى عليه ثناءً كثيرًا، ثم تواقَع الناسُ في دولةِ عبدِ الملكِ بالأهوازِ، فكسَر الناسُ الخوارجَ كَسْرةً عظيمةً، وهرَبوا في البلادِ لا يَلوُونَ بل يُولولون، واتَّبَعهم خالدُ بنُ عبدِ اللهِ أميرُ الناسِ، وداودُ بنُ قَحْذَمَ ليَطرُدوهم، وأرسَل عبدُ الملكِ إلى أخيه بشرِ بنِ مَرْوانَ أن يُمِدَّهم بأربعةِ آلافٍ، فبعَث إليه أربعةَ آلافٍ عليهم عتَّابُ بنُ ورقاءَ، فطرَدوا الخوارجَ كُلَّ مَطردٍ، ولكنْ لقِي الجيشُ جَهْدًا عظيمًا وماتتْ خيولُهم ولم يرجعْ أكثرُهم إلا مشاةً إلى أهليهم.

قال ابنُ جرير: وفي هذه السنةِ كان خروجُ أبي فُدَيْكٍ الحارثيِّ، وهو مِن بني قيسِ بنِ ثعلبةَ، وغلَب على البحرَيْنِ، وقتَل نجدةَ بنَ عامرٍ الحارثيَّ، فبعَث إليه خالدُ بنُ عبدِ اللهِ أميرُ البصرةِ أخاه أميةَ ابنَ عبدِ اللهِ في جيشٍ كثيفٍ، فهزَمهم أبو فُدَيْكٍ وأخَذ جاريةً لأميَّةَ واصطفاها لنفسه، وكتَب خالدُ ابنُ عبدِ اللهِ أميرُ البصرةِ إلى عبدِ الملكِ يُعلِمُه بما وقَع، واجتمَع على خالدٍ حربُ أبي فُدَيْكٍ، وحربُ الأزارقةِ أصحابِ قَطَريِّ بنِ الفُجاءَةِ بالأهوازِ.

قال ابنُ جرير: وفيها بعَث عبدُ الملكِ بنُ مروانَ الحجاجَ بنَ يوسفَ الثقفيَّ إلى عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ ليحاصِرَه بمكةَ، قال: وكان السببُ في بعثِه له دونَ غيرِه، أنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ لما أراد الرجوعَ إلى الشامِ بعدَ قتلِه مصعبًا وأخْذِه العراقَ، ندَب الناسَ إلى قتالِ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ بمكةَ فلم يُجِبْه أحدٌ إلى ذلك، فقام الحجاجُ، وقال: يا أميرَ المؤمنين، أنا له. وقَصَّ الحجاجُ على عبدِ الملكِ منامًا زعَم أنَّه رآه؛ قال: رأيتُ يا أميرَ المؤمنين كأنِّي أخذتُ عبدَ اللهِ بنَ الزبيرِ فسلختُه، فابعَثْ بي إليه فإنِّي قاتلُه. فبعثَه في جيشٍ كثيفٍ مِن أهلِ الشامِ وكتَب معه أمانًا لأهلِ مكةَ إن هم أطاعوا.

قالوا: فخرَج الحجاجُ في جُمادَى مِن هذه السنةِ ومعه ألفَا فارسٍ مِن أهلِ الشامِ، فسلَك طريقَ العراقِ ولم يعرِضْ للمدينةِ حتى نزَل الطائفَ، وجعَل يبعَثُ البعوثَ إلى عرفةَ، ويرسلُ ابنُ الزبيرِ الخيولَ فيلتقيان فتُهزَمُ خيلُ ابنِ الزبيرِ، وتظفَرُ خيلُ الحجاجِ، ثم كتَب الحجاجُ إلى عبدِ الملكِ يستأذِنُ في دخولِ الحرمِ ومحاصرةِ ابنِ الزبيرِ؛ فإنَّه قد كَلَّتْ شوكتُه، وتفرَّقَ عنه عامَّةُ أصحابِه، وسأَلَه أن يَمُدَّه برجالٍ أيضًا، فكتَب عبدُ الملكِ إلى طارقِ بنِ عمرٍو يأمُرُه أن يَلحَقَ بمَنْ معه بالحجاجِ. وكان طارقٌ يتولَّى المدينةَ لعبدِ الملكِ، وكان قد أمَرَه عبدُ الملكِ أن يكونَ مقيمًا بوادي القرَى بمَن معه مِن جيشِ المدينةِ وغيرِها، وكان في نحوِ خمسةِ آلافٍ، مِن الشامِ منهم ثلاثةُ آلافٍ. وارتحلَ الحجاجُ مِن

الطائفِ فنزَل بئرَ ميمونٍ، وحصَر ابنَ الزبيرِ بالمسجدِ فلمّا دخَل ذو الحِجّةِ حجَّ بالناسِ الحجاجُ في هذه السنةِ، وعليه وعلى أصحابِه السلاحُ وهم وقوفٌ بعرفاتٍ، وكذا فيما بعدَها من المشاعرِ، وابنُ الزبيرِ محصورٌ لم يتمكَّنْ من الحجِّ هذه السنةَ، بل نحَر بُدْنًا يومَ النحرِ، وهكذا لم يتمكَّنْ كثيرٌ ممَّن معه من الحجِّ، وكذا لم يتمكَّنْ كثيرٌ ممَّن مع الحجاجِ وطارقِ بنِ عمرٍو أن يَطوفوا بالبيتِ، فبقُوا على إحرامِهم لم يحصُلْ لهم التحلُّلُ الثاني، والحجاجُ وأصحابُه نُزولٌ بينَ الحَجونِ وبئرِ ميمونٍ، فإنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعونَ.

قال ابنُ جريرٍ: وفي هذه السنةِ كتَب عبدُ الملكِ إلى عبدِ اللهِ بنِ خازمٍ أميرِ خُراسانَ يدعوه إلى بيعتِه ويُقْطِعُه خُراسانَ سبعَ سنينَ، فلمَّا وصَل إليه الكتابُ قال للرسولِ: بعَثك أبو الذِّبّانِ؟ واللهِ لولا أنَّ الرُّسُلَ لا تُقتَلُ لقتلتُك، ولكنْ كُلْ كتابَه. فأكَله، وبعَث عبدُ الملكِ إلى بُكيرِ بنِ وِشاحٍ نائبِ ابنِ خازمٍ على مَرْوٍ يعِدُه بإمرةِ خُراسانَ إن هو خلَع عبدَ اللهِ بنَ خازمٍ، فخلَعه، فجاءه ابنُ خازمٍ فقاتَله فقتِل في المعركةِ عبدُ اللهِ بنُ خازمٍ؛ قتَله رجلٌ يُقالُ له: وَكيعُ بنُ عُميرةَ. لكنْ كان قد ساعَده غيرُه، فجلَس وكيعٌ على صدرِه وفيه رَمَقٌ، فذهَب لينُوءَ فلم يتمكَّنْ من ذلك، وجعَل وكيعٌ يقولُ: يا ثاراتِ دُوَيلةَ قد قتَله ابنُ خازمٍ، ثم إنَّ ابنَ خازمٍ تنخَّم في وجهِ وكيعٍ، قال وكيعٌ: لم أرَ أحدًا أكثرَ ريقًا منه في تلك الحالِ. وكان أبو هُبيرةَ إذا ذكَر هذا يقولُ: هذه واللهِ البسالةُ. وقال له ابنُ خازمٍ: ويحَك، أتقتُلُني بأخيك؟ لعَنَك اللهُ، أتقتُلُ كبشَ مضرَ بأخيك العلجِ وكان لا يساوي كفًّا من ترابٍ؟ أو قال: من نَوًى. قالوا: فاحتَزَّ رأسَه وأقبَل بُكيرُ بنُ وِشاحٍ فأراد أخذَ الرأسِ فمنعه منه بَحيرُ بنُ ورقاءَ فضربَه بُكيرُ بنُ وِشاحٍ بعمودٍ وقيَّده، ثم أخَذ الرأسَ ثم بعَثه إلى عبدِ الملكِ بنِ مروانَ وكتَب إليه بالنصرِ والظَّفَرِ ومقتلِ عبدِ اللهِ بنِ خازمٍ، فسُرَّ بذلك سرورًا كثيرًا، وكتَب إلى بكُيرِ بنِ وِشاحٍ فأَقرَّه على نيابةِ خُراسانَ.

وفي هذه السنةِ أُخذتِ المدينةُ من نُوّابِ ابنِ الزبيرِ، واستناب فيها عبدُ الملكِ بنُ مَرْوانَ طارقَ بنَ عمرٍو الذي كان بعَثه مددًا للحجاجِ على ابنِ الزبيرِ.

وهذه ترجمة ابن خازم

هو عبدُ اللهِ بنُ خازمِ بنِ أسماءَ السُّلَميُّ، أبو صالحٍ البَصريُّ، أميرُ خراسانَ، أحدُ الشجعانِ المذكورينَ، والفرسانِ المشكورينَ.

قال شيخُنا الحافظُ أبو الحجاجِ المِزِّيُّ في «تهذيبِه»: يُقالُ: له صحبةٌ. روَى عن النبيِّ ﷺ في العِمامةِ السوداءِ[1]، وهو عندَ أبي داودَ والترمذيِّ والنسائيِّ[2]، لكنْ لم يُسمُّوه. روَى عنه سعدُ بنُ

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٣٨) والترمذي (٣٣٢١).
(٢) سنن أبي داود (٤٠٣٨) والترمذي (٣٣٢١).

عثمان الرازيُّ، وسعيدُ بنُ الأزرق. روىٰ أبو بشر الدُّولابيُّ أنَّه قُتل في سنة إحدىٰ وسبعين. وقيل: في سنةِ سبعٍ وثمانين. وليس هذا القولُ بشيءٍ. انتهىٰ ما ذكَره شيخُنا في «التهذيب».

وقد ذكَره الحافظُ أبو الحسنِ ابنُ الأثيرِ في «الغابة في أسماء الصحابة»، فقال: عبدُ اللهِ بنُ خازمِ ابنِ أسماءِ بنِ الصلتِ بنِ حبيبِ بنِ حارثةَ بنِ هلالِ بنِ سماكِ بنِ عَوفِ بنِ امرئِ القيسِ بنِ بُهْثَةَ بنِ سُليمِ بنِ منصورٍ، أبو صالحٍ السُّلَميُّ، أميرُ خراسانَ، شجاعٌ مشهورٌ، وبطلٌ مذكورٌ، روىٰ عنه سعيدُ بنُ الأزرقِ، وسعدُ بنُ عثمانَ، قيل: إنَّ له صحبةً وفتحَ سَرْخَسَ، وكان أميرًا علىٰ خُراسانَ أيامَ فتنة ابنِ الزبيرِ، وأوَّلَ ما وَلِيها سنةَ أربعٍ وستين بعدَ موتِ يزيدَ بنِ معاويةَ وابنه معاويةَ، وجرىٰ له فيها حروبٌ كثيرةٌ حتىٰ تَمَّ أمرُه بها، وقد استقصَينا أخبارَه في كتابِ «الكاملِ في التاريخ»، وقُتل سنةَ إحدىٰ وسبعين بخراسانَ. هكذا قال: إنه قتل سنةَ إحدىٰ وسبعين. وهكذا حكىٰ شيخُنا عن الدُّولابيِّ، وكذا رأيتُ في «التاريخ» لشيخنا الحافظِ أبي عبدِ اللهِ الذَّهبيِّ، والذي ذكَره ابنُ جريرٍ في سياقِ «تاريخه»، أنَّه قُتل في سنة ثنتين وسبعينَ.

قال ابنُ جرير: وزعَم بعضُهم أنَّه إنَّما قُتل بعدَ مَقتلِ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ، وأنَّ عبدَ الملك بعَث برأسِ ابنِ الزبيرِ إلىٰ ابنِ خازمٍ، ويدعوه إلىٰ طاعته وله خُراسانُ عشْرَ سنينَ، وأنَّ ابنَ خازمٍ لَمَّا رأىٰ رأسَ ابنِ الزبيرِ حلَف لا يُعطيه طاعةً أبدًا، ودعا بطَسْتٍ فغسَل رأسَ ابنِ الزبيرِ وكفَّنه وطيَّبه وبعَث به إلىٰ أهله بالمدينة ـ ويُقالُ: بل دفَنه عندَه بخراسانَ. واللهُ أعلَمُ ـ وأطعَم الكتابَ للرسولِ الذي جاء به، وقال: لولا أنَّك رسولٌ لضرَبتُ عُنُقَكَ. وقال بعضُهم: بل قطَع يَدَيْه ورِجْلَيْه وضرَب عُنقَه.

وممَّن تُوفي فيها من الأعيان:

الأَحْنَفُ بنُ قَيْسِ بنِ معاويةَ بنِ حُصين التميميُّ السعديُّ، أبو بَحْرٍ البصريُّ، ابنُ أخي صعصعةَ ابنِ معاويةَ. والأحنفُ لَقَبٌ له، وإنَّما اسمُه الضحَّاكُ، وقيل: صَخْرٌ. أسلَم في حياة النبيِّ ﷺ ولم يَرَه وجاء في حديثٍ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ دعا له [1].

وكان سيِّدًا شريفًا مطاعًا مؤمنًا، عليمَ اللسان، وكان يُضرَبُ بحلمه المَثَلُ، وله أخبارٌ في حِلْمه سارتْ بها الركبانُ. قال عنه عمرُ بنُ الخطاب: هو مؤمنٌ عليمُ اللسان. وقال الحسنُ البصريُّ: ما رأيتُ شريفَ قومٍ أفضلَ منه. وقال أحمدُ بنُ عبد الله العِجْليُّ: هو بصريٌّ تابعيٌّ ثقةٌ، وكان سيدَ قومه، وكان أعورَ أحنفَ الرِّجلين دميمًا قصيرًا كَوْسَجًا، له بيضةٌ واحدةٌ، احتبَسه عمرُ سنةً يختبرُه، ثم قال: هذا والله السيِّدُ. وقيل: إنَّه خطَب عندَ عمرَ فأعجَبه مَنطقُه. قيل: ذهَبتْ عينُه بالجُدَريِّ. وقيل: في فتح سَمَرْقندَ. وقال يعقوبُ بنُ سفيانَ: كان الأحنفُ جَوادًا حليمًا، وكان رجلاً صالحًا،

---

(١) ولكن إسناده ضعيف بذلك. أخرجه أحمد (٥/ ٣٧٢) ثنا سليمان بن حرب ثنا حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن الحسن عن الأحنف... فذكره وفيه اللهم اغفر للأحنف قال: فما أنا بشيء أرضىٰ لها مني.
إلا أن إسناده فيه علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف.

أدرك الجاهليةَ ثم أسلَم، وذكر للنبيِّ ﷺ فاستغفَر له.

وقال محمدُ بنُ سعد: كان ثقةً مأمونًا قليلَ الحديث. وكان كثيرَ الصلاةِ بالليلِ، وكان يُسرجُ المصباحَ، وكان يضعُ إصبَعَه فيه، ثم يقولُ لنفسه: إذا لم تصبرْ على المصباحِ، فكيف تَصبرُ على نارِ جهنم؟ وقيل له: بأيِّ شيءٍ سوَّدَك قومُك؟ قال: لو عاب الماءَ الناسُ ما شربتُه. وكان الأحنفُ لا يحسُدُ، ولا يجهَلُ، ولا يدفَعُ الحقَّ. وقال: إنَّ من السؤدَدِ الصبرَ على الذلِّ، وكفَى بالحلمِ ناصرًا. وقال: ما نازَعني أحدٌ إلاَّ أخَذتُ من أمري إحدىٰ ثلاثٍ؛ إن كان فوقي عرَفتُ قدرَه، وإن كان دُوني رفَعتُ نفسي عنه، وإنْ كان مثلي تفضَّلتُ. وقال: ما ذكَرتُ أحدًا بسوءٍ بعدَ أنْ يقومَ من عندي، ولا سمِعتُ كلمةً تسوءني إلا طأطأتُ رأسي لما هو أعظمُ منها. وأغلَظ له رجلٌ في الكلام، فلمَّا وصَل إلى نادي قومِه وقَف وقال: إن كان عندكَ شيءٌ آخرُ، فقُلْ؛ لئلاَّ يسمعَك قومي فيُؤذوك. وقيل: إن عبدَ الملكِ بنَ مروانَ كتَب إليه يدعوه لنفسه ويعِدُه بولايةِ الشام، فقال: يدعوني ابنُ الزرقاءِ إلى ولايةِ الشام، والله وددتُ أنَّ بيني وبينَهم جبلاً من نارٍ. وكان زيادُ ابنُ أبيه يقولُ: قد بلَغ الأحنفُ من السؤدَدِ والشرفِ ما لا ينفعُه معه ولايةٌ ولا يضرُّه عزلٌ. وإنَّه ليفرُّ من الشرفِ وهو يتبعُه.

وقال الحاكم: وهو الذي افتتَح مروَ الرُّوذِ، وكان الحسنُ وابنُ سيرينَ في جيشِه. وقيل: إنه مات سنةَ سبعٍ وستينَ. وقيل: غيرُ ذلك. عن سبعين سنةً. وقيل: عن أكثرَ من ذلك.

ومن كلامه وقد سُئل عن الحِلْمِ ما هو؟ فقال: الذُّلُّ مع الصبرِ. وكان إذا تعجَّب الناسُ من حلمه يقولُ: والله إنِّي لأجدُ ما تجدون، ولكنِّي صَبورٌ. وقال: وجدتُ الحِلمَ أنصرَ لي من الرجال.

وقد انتهَى إليه الحِلمُ والسُّؤدَد. وقال: أحْيِ معروفَك بإماتةِ ذكرِه. وقال: عجبتُ لمَن يجري في مَجْرىٰ البولِ مرتين كيف يتكبَّرُ؟! وقال: ما أتيتُ بابَ أحدٍ من هؤلاءِ إلاَّ أنْ أُدعَى، ولا دخلتُ بينَ اثنين إلا أنْ يُدخِلاني بينَهما. وقال له رجلٌ: بِمَ سُدْتَ قومَك؟ قال: بتركي من أمرِك ما لا يَعْنيني، كما عناك من أمري ما لا يَعنيكَ. وأغلَظ له رجلٌ في الكلام، وقال له: والله يا أحنفُ، لَئِن قُلتَ لي واحدةً لتسمَعَنَّ بدلَها عشْرًا. فقال له: إنَّك إنْ قلتَ لي عشْرًا لا تسمعُ منِّي واحدةً. وكان يقولُ في دعائِه: اللهمَّ إنْ تُعذِّبْني، فأنا أهلٌ لذلك، وإنْ تغفرْ لي فأنتَ أهلٌ لذلك.

وقد كان زيادُ بنُ أبيه يُقرِّبُه ويعظِّمه ويُدْنيه، فلمّا مات زيادٌ، ووَلي ابنُه عبيدُ الله لم يرفَعْ به رأسًا، فتأخرتْ عندَه منزلتُه لقبحِ منظرِه، وصار يقدِّمُ عليه مَن هو دونَه، فلمّا وفَد برؤساءِ أهلِ العراقِ على معاويةَ، أدخَلهم عليه على مراتبِهم عندَه، فكان الأحنفُ آخرَ مَن أدخَله عليه، فلمّا رآه معاويةُ أجَلَّه وعظَّمَه، وأدناه وكرَّمه، وأجلَسه معه على الفراشِ، ثم أقبَل عليه يحادثُه دونَهم، ثم شرَع الحاضرون في الثناءِ على عبيدِ الله بنِ زيادٍ، والأحنفُ ساكتٌ، فقال له معاويةُ: ما لَكَ لا تتكلَّمُ؟ قال: إنْ تكلَّمتُ خالفتُهم. فقال معاويةُ: اشهَدوا عليَّ أنِّي قد عزَلتُ عبيدَ الله عن العراقِ. ثم قال لهم:

انظُروا لكم نائبًا عليكم. وأجَّلَهم ثلاثةَ أيام فاختلَفوا بينَهم اختلافًا كثيرًا، ولم يذكُرْ أحدٌ منهم بعدَ ذلك عبيدَ الله ولا طلَبَه أحدٌ منهم، ولم يتكلَّم الأحنفُ في هذه الأيام في ذلك كلمةً واحدةً مع أحدٍ منهم، فلمّا اجتمَعوا بعدَ ثلاثٍ أفاضُوا في ذلك، وكثُر اللَّغَطُ وارتفعت الأصواتُ، والأحنفُ ساكتٌ، فقال له معاويةُ: تكلَّمْ. فقال له: إنْ كنتَ تريدُ أنْ تولِّيَ فيها أحدًا من أهلِ بيتك فليس فيهم مَن هو مثلُ عُبيدِ الله فإنَّه رجلٌ حازمٌ، ولا يَسُدُّ أحدٌ منهم مَسدَّه، وإن كنتَ تريدُ غيرَه فأنت أعلمُ بنُوّابك. فردَّه معاويةُ إلى الولاية، ثم قال له بينَه وبينَه: كيف جهلتَ مثلَ الأحنفِ؟ إنه عزَلك وولّاك وهو ساكتٌ. فعظُمتْ منزلةُ الأحنفِ بعدَ ذلك عندَ ابنِ زيادٍ.

تُوفِّي الأحنفُ بالكوفة، وصلَّى عليه مصعبُ بنُ الزبيرِ ومشَى في جنازته. ذكَر الواقديُّ أنَّه قدِم على معاويةَ فوجَده غضبانَ على ابنه يزيدَ، وأنَّه أصلَح بينَهما بكلامٍ، قال: فبعَث معاويةُ إلى يزيدَ بمالٍ جزيلٍ وقُماشٍ كثيرٍ، فأعطَى يزيدُ نصفَه للأحنفِ. واللهُ سبحانَه أعلمُ.

البراءُ بنُ عازبِ بنِ الحارثِ بنِ عَديِّ بنِ مَجْدَعةَ بنِ حارثةَ بنِ الحارثِ بنِ الخَزْرجِ بنِ عمرو ابنِ مالكِ بنِ الأَوْسِ الأنصاريُّ، الحارثيُّ، الأوسيُّ، صحابيٌّ جليلٌ، وأبوه أيضًا صحابيٌّ. روَى عن رسولِ الله ﷺ أحاديثَ كثيرةً، وحدَّث عن أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وعليٍّ وغيرِهم. وعنه جماعةٌ من التابعينَ، وبعضُ الصَّحابة. وقيل: إنه مات بالكوفةِ في أيامِ مصعبٍ على العراقِ.

عَبِيدةُ السَّلْمانيُّ القاضي، وهو عَبيدةُ بنُ عمرٍو - ويقالُ: ابنُ قَيْسِ بنِ عمرٍو - السَّلْمانيُّ، المراديُّ، أبو عمرٍو الكوفيُّ. وسلمانُ بطنٌ من مرادٍ. أسلَم عَبيدةُ في حياة النبيِّ ﷺ، وروَى عن ابنِ مسعودٍ وعليٍّ وابنِ الزبيرِ، وحدَّث عنه جماعةٌ من التابعينَ. وقال الشعبيُّ: كان يوازي شُريحًا في القضاءِ. وقال ابنُ نُميرٍ: كان شُريحٌ إذا أشكَل عليه أمرٌ كتَب إلى عَبيدة فيه وانتهَى إلى قوله. وقد أثنَى عليه غيرُ واحدٍ. وكانت وفاتُه في هذه السنة، وقيل: سنةَ ثلاثٍ. وقيل: أربعٍ وسبعين. فاللهُ أعلمُ. وقد قيل: إنَّ مصعبَ بنَ الزبيرِ قُتِل في هذه السنة. فاللهُ أعلمُ.

وممَّن تُوفي في هذه السنة من الأعيان:

عبدُ الله بنُ السائبِ بنِ صَيْفيٍّ المخزوميُّ، قارئُ أهلِ مكةَ، له صُحبةٌ وروايةٌ، وقرأ على أُبيِّ بنِ كعبٍ، وقرأ عليه مجاهدٌ وغيرُه.

عطيةُ بنُ بُسرٍ المازنيُّ، له صحبةٌ وروايةٌ. توفِّي بالمدينة.

عُبيدُ بنُ نُضَيْلةَ، أبو معاويةَ الخُزاعيُّ الكوفيُّ، مُقرِئُ أهلِ الكوفةِ، مشهورٌ بالخيرِ والعبادة. تُوفِّي بالكوفة في هذه السنة.

عبيدُ الله بنُ قَيسِ الرُّقيّاتِ القرشيُّ العامريُّ، أحدُ الشعراءِ، مدَح مصعبَ بنَ الزبيرِ وعبدَ الله بنَ جعفرٍ.

عبدُ الله بنُ همَّامٍ أبو عبدِ الرحمنِ الشاعرُ، السلوليُّ، أحدُ الشعراءِ الفصحاءِ، مدَح يزيدَ بنَ معاويةَ، بعدَ أن هَجاه بقولِه:

شربِنا الغَيْضَ حتى لو سُقِينا ... دماءَ بني أميةَ ما روِينا
ولو جاءوا برَمْلَةَ أو بهندٍ ... لَبَايَعْنا أميرَ المؤمنينا

* * *

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين

فيها كان مقتلُ عبدِ اللهِ بنِ الزُّبيرِ، رضي اللهُ عنه، على يدَيِ الحجَّاج بن يُوسُفَ الثقفيِّ المُبيرِ، قبَّحه اللهُ وأخزاه.

قال الواقديُّ: حدَّثني مُصعبُ بنُ ثابتٍ، عن نافع مولى بني أسَدٍ ـ وكان عالمًا بفتنة ابنِ الزُّبيرِ ـ قال: حُصِرَ ابنُ الزبيرِ ليلةَ هلالِ ذي الحجَّة سنةَ ثنتين وسبعين، وقُتِل لسبعَ عشْرةَ ليلةً خلتْ من جُمادَى الأُولَى، سنةَ ثلاثٍ وسبعين، فكان حصرُ الحجّاجِ له خمسةَ أشهرٍ وسبعَ عشْرةَ ليلةً.

وقد ذكَرْنا فيما تقدَّم أن الحجَّاجَ حجَّ بالناسِ في هذه السنة الخارجةِ، وكان في الحجِّ ابنُ عمرَ، وقد كتَب عبدُ الملك إلى الحجّاجِ أنْ يأتَمَّ بابنِ عمرَ في المناسك، كما ثبَت ذلك في «الصحيحَين»[٢].

فلمّا استَهلَّت هذه السنةُ، استهَلَّت وأهلُ الشام مُحاصِرون أهلَ مكةَ، وقد نصَب الحجّاجُ المنجَنيقَ على مكةَ ليحصُرَ أهلَها، حتى يخرُجوا إلى الأمانِ والطاعة لعبدِ الملك.

وكان مع الحجّاجِ خَلقٌ قدموا عليه من أرضِ الحبشة، فجعَلوا يرمون بالمنجَنيقِ فقتَلوا خلقًا كثيرًا، وكان معه خمسُ مجانيقَ، فألحَّ عليها بالرمي من كلِّ مكانٍ، وحبَس عنهم المِيرةَ فجاعوا، وكانوا يشرَبون من ماءِ زمزمَ، وجعَلت الحجارةُ تقَعُ في الكعبة، والحجّاجُ يَصيحُ بأصحابِه: يا أهلَ الشامِ، اللهَ اللهَ في الطاعة! فكانوا يحملون على ابنِ الزبيرِ حتى يقالَ: إنهم آخذوه في هذه الشدّة. فيشُدُّ عليهم ابنُ الزبيرِ، وليس معه أحدٌ حتى يُخرِجَهم من بابِ بني شَيْبةَ، ثم يكُرُّون عليه، فيشُدُّ عليهم، فعَل ذلك مرارًا، وقتَل يومئذٍ جماعةً منهم وهو يقولُ: خُذْها، وأنا ابنُ الحَواريِّ. وقيل لابنِ الزبيرِ: ألا تُكلِّمُهم في الصُّلحِ؟ فقال: واللهِ لو وجدَوكم في جَوْفِ الكعبةِ لذبَحوكم جميعًا، واللهِ لا أسألُهم صلحًا أبدًا.

وذكَر غيرُ واحدٍ أنَّهم لما رُموا بالمنجَنيقِ، جاءت الصواعقُ والبُروقُ والرُّعودُ حتى جعَلتْ تعلو أصواتُها على صوتِ المنجَنيقِ، ونزَلتْ صاعقةٌ، فأصابت من الشاميِّين اثني عشَرَ رجلًا، فضَعُفَتْ عندَ ذلك قلوبُهم عن المحاصرةِ، فلم يزَلِ الحجَّاجُ يُشجِّعُهم، ويقولُ: إنّي خبيرٌ بهذه البلادِ، هذه بُروقُ تِهامةَ ورُعودُها وصواعقُها، وإنَّ القومَ يُصيبُهم مثلُ الذي يُصيبُكم. وجاءتْ صاعقةٌ من الغَدِ، فقتَلتْ من أصحابِ ابنِ الزبيرِ جماعةً كثيرةً أيضًا، فجعَل الحجّاجُ يقولُ: ألم أقُلْ لكم: إنَّهم يُصابون مثلَكم، وأنتم على الطاعة وهم على المخالفة؟

وكان أهلُ الشام يَرْتجِزون وهم يَرمون بالمنجَنيقِ؛ يقولون:

خطّارةٌ مثلُ الفَنيقِ المُزبِدِ ... نَرمي بها عُوّاذَ هذا المسجِدِ

---

(٢) انظر ذلك في «صحيح البخاري» برقم (١٦٦٠).

فنزلَت صاعقةٌ على المنجَنيقِ فأحرَقَتْه، فتوقَّف أهلُ الشام عن الرمي والمحاصرة، فخطَبهم الحجَّاجُ، فقال: ويحكم، ألم تعلَموا أنَّ النارَ كانت تنزلُ على مَن كان قَبْلَنا فتأكلَ قُربانَهم إذا تُقبِّل منهم؟ فلولا أنَّ عملَكم مقبولٌ ما نزلَت النارُ فأكَلَتْه. فعادوا إلى المُحاصَرة.

ومازال أهلُ مكَّةَ يخرُجون إلى الحجَّاج بالأمان، ويترُكون ابنَ الزبير، حتى خرَج إليه قريبٌ من عشَرة آلاف، فأمَّنَهم، وقلَّ أصحابُ ابنِ الزبيرِ جدًّا، حتى خرَجَ إلى الحجاج حمزةُ وخُبَيبٌ؛ ابنا عبد الله بنِ الزبير، فأخَذا لأنفسِهما أمانًا مِن الحجّاج، فأمَّنهما، ودخَل عبدُ الله بنُ الزبير على أمِّه، فشكَا إليها خِذلانَ الناسِ له، وخروجَهم إلى الحجاج حتى أولادِه وأهلِه، وأنَّه لم يبقَ معه إلاَّ اليسيرُ، ولم يبقَ لهم صبرُ ساعةٍ، والقومُ يُعطونني ما شئتُ من الدنيا، فما رأيُك؟ فقالت: يا بُنيَّ، أنت أعلمُ بنفسِك، إن كنتَ تعلَمُ أنَّك على حقٍّ وتدعو إلى حقٍّ فاصبِرْ عليه، فقد قُتِل عليه أصحابُك، ولا تُمكِّنْ مِن رقبتِك يلعَبْ بها غلمانُ بني أُميَّةَ، وإن كنتَ إنما أردتَ الدُّنيا، فلَبِئسَ العبدُ أنت؛ أهلكتَ نفسَك وأهلكتَ مَن قُتل معَك، وإن كنتَ على حقٍّ فما وهَن الدينُ، وإلى كم خلودُك في الدنيا؟ القتلُ أحسنُ. فدَنا منها فقبَّل رأسَها، وقال: هذا والله رأيي. ثم قال: والله ما ركَنتُ إلى الدنيا ولا أحبَبتُ الحياةَ فيها، وما دعاني إلى الخروجِ إلا الغضبُ لله أن تُستحَلَّ حرمتُه، ولكنِّي أحببتُ أن أعلمَ رأيَك، فزدتِني بصيرةً مع بصيرتي، فانظري يا أمَّاه فإنِّي مقتولٌ مِن يومي هذا، فلا يشتدَّ حزنُكِ، وسلِّمي لأمرِ الله، فإنَّ ابنَك لم يتعمَّدْ إتيانَ منكَرٍ، ولا عمِل بفاحشةٍ قطُّ، ولم يجُرْ في حكمِ الله، ولم يغدُرْ في أمانٍ، ولم يتعمَّدْ ظلمَ مسلمٍ ولا مُعاهَدٍ، ولم يبلُغني ظلمٌ عن عاملٍ فرضيتُه، بل أنكرتُه، ولم يكنْ عندي آثَرُ مِن رضا ربِّي عزَّ وجلَّ، اللهمَّ إنِّي لا أقولُ هذا تزكيةً لنفسي، اللهم أنتَ أعلمُ بي مِني ومِن غيري، ولكنِّي أقولُ ذلك تعزيةً لأمِّي لتسلُوَ عنِّي. فقالت أمُّه: إنِّي لأرجو من الله أنْ يكونَ عَزائي فيك حسَنًا إنْ تقدَّمتَني، أو تقدمتُك ففي نفسي، اخرُجْ يا بنيَّ حتى أنظُرَ ما يصيرُ إليه أمرُك. فقال: جزاكِ اللهُ يا أمَّهْ خيرًا فلا تدَعي الدعاءَ قبلُ وبعدُ لي. فقالت: لا أدَعُه أبدًا، فمَن قتِل على باطلٍ فلقد قتِلتَ على حقٍّ. ثم قالت: اللهمَّ ارحَمْ طولَ ذلك القيامِ في الليلِ الطويلِ، وذلك النحيبِ والظمأ في هواجرِ المدينةِ ومكَّةَ، وبرَّه بأبيه وبي، اللهم إنِّي قد سلَّمتُه لأمرك فيه، و ورضيتُ بما قضَيتَ، فقابِلْني في عبدِ الله بنِ الزبيرِ بثوابِ الصابرين الشاكرين. ثم قالت له: ادنُ مني أودِّعْكَ. فدَنا منها فقبَّلَته، ثم أخَذته إليها، فاحتَضنَته لتودِّعَه، واعتنَقها ليودِّعَها - وكانت قد أضرَّت في آخرِ عمرِها - فوجَدته لابسًا درعًا من حديد، فقالت: يا بُنيَّ، ما هذا لباسَ مَن يُريدُ ما تريدُ مِن الشَّهادة. فقال: يا أمَّاه، إنَّما لبِستُه لأطيِّبَ خاطرَكِ وأُسكِّنَ قلبَكِ به. فقالت: لا يا بنيَّ، ولكنِ انزِعْه. فنزَعه، وجعَل يلبَسُ بقيةَ ثيابِه ويتشدَّدُ، وهي تقولُ: شمِّرْ ثيابَك. وجعَل يتحفَّظُ مِن أسفلِ ثيابِه؛ لئلاَّ تبدوَ عورتُه إذا قُتِل، وجعَلَتْ تذكِّرُه بأبيه الزبير، وجدِّه أبي بكرٍ الصدِّيق، وجدَّته صفيةَ بنت عبدِ المطلب، وخالتِه عائشةَ زوجِ رسولِ الله ﷺ، وتُرجِّيه القدومَ عليهم إذا هو قُتِل شهيدًا، ثم خَرج مِن عندها

فكان ذلك آخرَ عهدِه بها، رضي اللهُ عنهما، وعن أبيه وأبيها، ثم قالت له: امضِ على بَصيرتِك. فودَّعها، وخرَج وهو يقولُ:

ولستُ بِمُبْتاعِ الحياةِ بسُبَّةٍ ... ولا مُرتَقٍ مِن خَشيةِ الموتِ سُلَّما

قالوا: وكان يخرُجُ مِن بابِ المسجدِ الحرام، وهناك خمسُمائةِ فارسٍ وراجلٍ، فيحمِلُ عليهم، فيتفرَّقون عنه يمينًا وشمالاً، ولا يثبُتُ له أحدٌ وهو يقولُ:

إنِّي إذا أعرِفُ يومي أصبِرْ ... إذ بعضُهم يعرِفُ ثمَّ ينكِرْ

ويقولُ أيضًا:

الموتُ أكرمُ مِن إعطاءِ منقصةٍ ... مَن لم يمُت غِبطةً فالغايةُ الهَرَمُ

وكانت أبوابُ الحرمِ قد قلَّ مَن يحرُسُها مِن أصحابِ ابنِ الزبيرِ، وكان لأهلِ حِمْصَ حصارُ البابِ الذي يواجِهُ بابَ الكعبةِ، ولأهلِ دمشقَ بابُ بني شَيْبَةَ، ولأهلِ الأُردُنِّ بابُ الصَّفا، ولأهلِ فِلَسْطينَ بابُ بني جُمَحَ، ولأهلِ قِنَّسرينَ بابُ بني سَهْمٍ، وعلى كلِّ بابٍ قائدٌ ومعه أهلُ تلك البلادِ، وكان الحجَّاجُ وطارقُ بنُ عمرٍو في ناحيةِ الأَبطَحِ.

وكان ابنُ الزبيرِ لا يخرُجُ على أهلِ بابٍ إلا فرَّقهم وبدَّد شمْلَهم، وهو غيرُ مُلبسٍ، حتى يُخرِجَهم إلى الأَبطَحِ، ثم يصيحُ:

لو كان قِرني واحدًا كَفيتُه

فيقولُ ابنُ صَفْوانَ وأهلُ الشامِ أيضًا: إيْ واللهِ، وألفُ رجلٍ. ولقد كان حجرُ المنجَنيقِ يقعُ على طرَفِ ثوبِه فلا ينزعجُ لذلك، ثم يخرُجُ إليهم فيقاتِلُهم كأنَّه أسدٌ ضارٍ، حتى جعَل الناسُ يتعجَّبون من إقدامِه وشجاعتِه، فلمّا كان ليلةُ الثلاثاءِ السابعَ عشَرَ مِن جُمادَى الأُولى من هذه السنة، بات ابنُ الزبيرِ يُصلِّي طولَ ليلتِه، ثم جلَس فاحتبَى بحَميلةِ سيفِه فأغْفَى ثم انتبَه مع الفجرِ على عادتِه، ثم قال: أذِّنْ يا سعدُ. فأذَّن عندَ المَقامِ، وتوضَّأ ابنُ الزبيرِ ثم صلَّى ركعتي الفجرِ، ثم أقيمتِ الصلاةُ فصلَّى الفجرَ، فقرَأ سورةَ «ن» حرفًا حرفًا، ثم سلَّم فحمِد اللهَ وأثنَى عليه، ثم قال لأصحابِه: ما أُراني اليومَ إلا مقتولاً؛ فإني رأيتُ في منامي كأنَّ السماءَ فُرِجت لي، فدخَلتُها، وإني واللهِ قد مَللتُ الحياةَ وجاوَزتُ سنِّي اثنتين وسبعين سنةً، اللهمَّ إنِّي أحبُّ لقاءَك فأَحِبَّ لقائي. ثم قال: اكشفوا عن وجوهكم حتى أنظُرَ إليكم. فكشَفوا عن وجوهِهم، وعليهم المَغافرُ، فحرَّضهم وحثَّهم على القتالِ والصبرِ، ثم نهَض بهم، فحَمَل وحمَلوا حتى كشَفوهم إلى الحَجونِ، فجاءتْه آجُرَّةٌ فأصابتْه في وجهِه، فارتعَش لها، فلمّا وجَد سُخونةَ الدمِ يسيلُ على وجهِه تمثَّل بقولِ بعضِهم:

فلَسنا على الأعقابِ تَدْمَى كُلومُنا ... ولكنْ على أقدامِنا تقطُرُ الدِّما

ثم رجَع، فجاءه حجرُ منجَنيقٍ مِن ورائِه فأصابه في قَفاه فوقَذه، ثم وقَع إلى الأرضِ على وجهِه،

ثم انتهض فلم يقدرْ على القيام، وابتدَره الناسُ، فشَدَّ عليه رجلٌ من أهلِ الشام، فضرَب الرجلَ فقطَع رِجليه، وهو متَّكِئٌ على مرفقه الأيسرِ، وجعَل يضربُ وما يقدرُ أن ينتهضَ حتى كثُروا عليه، فابتدَروه بالسيوف فقتَلوه، رضِي اللهُ عنه.

وجاءوا إلى الحجَّاجِ فأخبَروه فخرَّ ساجدًا، قبَّحه اللهُ، ثم قام هو وطارقُ بنُ عمرٍو حتى وقَفا عليه، وهو صريعٌ، فقال طارقٌ: ما ولَدتِ النساءُ أذكرَ من هذا. فقال الحجَّاجُ: تمدَحُ مَن يخالفُ طاعةَ أميرِ المؤمنين؟ قال: نعم، هو أعذَرُ لنا؛ إنّا محاصِروه، وليس هو في حصنٍ ولا خندقٍ ولا مَنَعَةٍ ينتصِفُ منّا، بل يُفضَّلُ علينا في كلِّ موقفٍ. فلمّا بلَغ ذلك عبدَ الملكِ صوَّب طارقًا.

وروَى ابنُ عساكرَ في ترجمةِ الحجَّاجِ أنَّه لمّا قتَل ابنَ الزبيرِ ارتجَّت مكّةُ بُكاءً على عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ، رحمه اللهُ، فخطَب الحجّاجُ الناسَ فقال: أيُّها الناسُ، إنَّ عبدَ اللهِ بنَ الزبيرِ كان من خيارِ هذه الأمَّةِ حتى رغِب في الخلافةِ ونازَعها أهلَها وألحَدَ في الحَرَمِ، فأذاقه اللهُ من عذابٍ أليمٍ، وإنَّ آدمَ كان أكرمَ على اللهِ من ابنِ الزبيرِ، وكان في الجنةِ، وهي أشرفُ من مكّةَ، فلما خالَف أمرَ اللهِ وأكلَ من الشجرةِ التي نهِي عنها، أخرجَه اللهُ من الجنَّةِ، قوموا إلى صلاتِكم يرحَمْكم اللهُ.

وقيل: إنَّه قال: يا أهلَ مكّةَ، بلَغني إكبارُكم واستعظامُكم قتلَ ابنِ الزبيرِ، فإنَّ ابنَ الزبيرِ كان من خيارِ هذه الأمَّةِ حتى رغِب في الدنيا ونازَع الخلافةَ أهلَها، فخلَع طاعةَ اللهِ وألحَدَ في حرمِ اللهِ، ولو كانت مكةُ شيئًا يمنَعُ القضاءَ لمَنَعت آدمَ حُرمةُ الجنَّةِ، وقد خلَقه اللهُ بيدِه ونفَخ فيه من رُوحِه وأسجَد له ملائكتَه وعلَّمه أسماءَ كلِّ شيءٍ، فلمّا عصاه أخرَجه من الجنَّةِ وأهبَطه إلى الأرضِ، وآدمُ أكرمُ على اللهِ من ابنِ الزبيرِ، وإنَّ ابنَ الزبيرِ غيَّر كتابَ اللهِ. فقال له عبدُ اللهِ بنُ عمرَ: لو شئتَ أن أقولَ لك: كذَبتَ لقلتُ، واللهِ إنَّ ابنَ الزبيرِ لم يغيِّرْ كتابَ اللهِ، بل كان قوّامًا به صوّامًا عاملاً بالحقِّ.

وكتَب الحجّاجُ إلى عبدِ الملكِ بما وقَع، وبعَث برأسِ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ مع رأسِ عبدِ اللهِ بنِ صفوانَ وعُمارةَ بنِ حَزمٍ إلى عبدِ الملكِ، وأمَرهم إذا مرُّوا بالمدينةِ أن يَنصِبوا الرءوس بها، ثم يسيروا بها إلى الشامِ، ففعَلوا ما أمرَهم به.

ثم أمَر الحجّاجُ بجثةِ ابنِ الزبيرِ فصلبتْ على ثَنِيَّةِ كَداءٍ عندَ الحَجونِ - يقالُ: منكَّسةً - فما زالت مصلوبةً، حتى مرَّ به عبدُ اللهِ بنُ عمرَ فقال: رحمةُ اللهِ عليك يا أبا خُبيبٍ، أمَا واللهِ لقد كنتَ صوّامًا قوّامًا. ثم قال: أمَا آنَ لهذا الراكبِ أن ينزِلَ؟ فبعَث الحجَّاجُ، فأُنزِل عن الجِذْعِ ودفِن هناك.

ودخَل الحجّاجُ إلى مكّةَ فأخَذ البيعةَ من أهلِها لأميرِ المؤمنين عبدِ الملكِ بنِ مروانَ، ولم يزَلِ الحجَّاجُ مقيمًا بمكّةَ حتى أقام للناسِ الحجَّ عامَه هذا أيضًا، وهو على مكّةَ واليَمامةِ واليمنِ.

وهذه ترجمة أمير المؤمنين
عبد الله بن الزبير رضي الله عنه

عبدُ الله بنُ الزبيرِ بنِ العوّام بنِ خُويلدِ بنِ أسدِ بنِ عبدِ العُزّىٰ بنِ قُصيٍّ بنِ كلابٍ، أبو بكرٍ، ويقالُ له: أبو خُبَيْبٍ. القرشيُّ الأسَديُّ، أوّلُ مولودٍ وُلد بعدَ الهجرةِ بالمدينةِ من المهاجرين. وأمُّه أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ الصديقِ، ذاتُ النّطاقَيْنِ، هاجرَتْ به ـ وهي حاملٌ به مُتِمٌّ ـ فولَدَتْه بقُباءٍ أوّلَ مَقدَمِهم المدينةَ، وقيل: إنّما ولَدَتْه في شَوّالٍ سنةَ ثنتين من الهجرةِ. قاله الواقديُّ، ومصعبُ بنُ الزُّبيرِ وغيرُهما، والأوّلُ أصحُّ لِمَا رواه أحمدُ عن أبي أسامةَ، عن هشامٍ، عن أبيه، عن أسماءَ، أنّها حمَلَتْ بعبدِ الله بمكّةَ، قالت: فخرجتُ وأنا متمٌّ، فأتيتُ المدينةَ فنزلْتُ فولَدتُه، ثم أتيتُ به رسولَ الله ﷺ فوضَعْتُه في حجرِه، ثم دَعا بتمرةٍ فمَضَغها ثم تَفَل في فيه، فكان أوّلَ ما دخَل في جوفِه ريقُ رسولِ الله ﷺ. قالت: ثم حنّكه بتمرةٍ، ثم دعا له وبرَّك عليه، وكان أوّلَ مولودٍ وُلِدَ في الإسلام[1]. وهو صحابيٌّ جليلٌ، روىٰ عن النبيِّ ﷺ أحاديثَ، وروىٰ عن أبيه وعمرَ وعثمانَ وغيرِهم، وعنه جماعةٌ من التابعينَ، وشهِد اليرموكَ مع أبيه وهو صغيرٌ، وحضَر خُطبةَ عمرَ بالجابيةِ، ورواها عنه بطولها، ثبَت ذلك مِنْ غيرِ وجهٍ. وقدم دمشقَ لغزوِ القسطنطينيةِ، ثم قدمها مرّةً أخرىٰ، وبُويع بالخلافةِ أيامَ يزيدَ بنِ معاويةَ، ولمّا مات يزيدُ غلَب على الحجازِ واليمنِ والعراقَيْنِ ومصرَ وخُراسانَ وسائرِ بلادِ الشامِ إلا دمشقَ، وتمّتِ البيعةُ له سنةَ أربعٍ وستين، وكان الناسُ بخيرٍ في زمانه.

وثبَت من غيرِ وجهٍ عن هشامٍ، عن أبيه، عن أسماءَ، أنّها خرَجتْ بعبدِ الله من مكّةَ مهاجرةً وهي حُبْلَىٰ به فولَدَتْه بقُباءٍ أوّلَ مَقدَمِهم المدينةَ، فأتَتْ به رسولَ الله ﷺ فحنّكه وسمّاه عبدَ الله ودعا له. وفرح المسلمون بمولده؛ لأنّه كانتِ اليهودُ قد زعَموا أنّهم قد سحَروا المهاجرينَ؛ فلا يولَدُ لهم في المدينةِ، فلمّا وُلد ابنُ الزبيرِ كبَّر المسلمون. وقد سمع عبدُ الله بنُ عمرَ جيشَ الشامِ حينَ كبَّروا عندَ قتلِه، فقال: أمَا والله لَلّذين كبَّروا عندَ مولدِه خيرٌ من هؤلاءِ الذين كبَّروا عندَ قتلِه. وأذَّنَ الصديقُ في أُذنيه حينَ وُلد، رَضِي اللهُ عنهما.

ومَن قال: إنّ الصديقَ طاف به حولَ الكعبةِ، وهو في خِرقةٍ. فهو واهمٌ، واللهُ أعلمُ، وإنّما طاف الصديقُ به في المدينةِ ليشتهرَ أمرُ ميلادِه على خلافِ ما زعَمتِ اليهودُ.

وقال مصعبٌ الزبيريُّ: كان عارِضا عبدِ الله بنِ الزبيرِ خفيفَيْنِ، وما اتصلَتْ لحيتُه حتى بلَغ ستّين سنةً.

وقال الزبيرُ بنُ بكّارٍ: حدَّثني عليُّ بنُ صالحٍ، عن عامرِ بنِ صالحٍ، عن سالمِ بنِ عبدِ الله بنِ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ٣٤٧) ثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن أسماء رضي الله عنها به وإسناده صحيح على شرط الشيخين وهو في «صحيح البخاري» (٣٩٠٩) من نفس الطريق.

عُروةَ، عن أبيه، أنَّ رسولَ الله ﷺ كُلِّم في غِلْمة ترَعرَعوا؛ منهم عبدُ الله بنُ جعفر، وعبدُ الله بنُ الزبير، وعمرُ بنُ أبي سَلَمةَ، فقيل: يا رسولَ الله، لو بايعتَهم فتصيبَهم بركتُك ويكونَ لهم ذِكرٌ. فأُتِي بهم إليه، فكأنَّهم تكَعْكعوا واقتَحَم عبدُ الله بنُ الزبيرِ، فتبسَّم رسولُ الله ﷺ، وقال: «إنَّه ابنُ أبيه». وبايَعَه.

وقد رُوي من غيرِ وجهٍ أنَّ عبدَ الله بنَ الزبيرِ شرب من دم النبيِّ ﷺ؛ كان النبيُّ ﷺ قد احتجَم في طَستٍ فأعطاه عبدَ الله بنَ الزبير ليُريقَه فشربه، فقال له: «لا تمَسُّكَ النارُ إلاَّ تحلَّةَ القسَم، وويلٌ لكَ من الناسِ، وويلٌ للناسِ منك». وفي روايةٍ أنَّه قال له: «يا عبدَ الله، اذهَبْ بهذا الدَّم فأهرِقْه حيثُ لا يراكَ أحدٌ». فلمَّا بعُدَ عمَد إلى ذلك الدم فشربه، فلمّا رجَع قال: «ما صنعتَ بالدم؟» قال: عمَدتُ إلى أخفَى موضعٍ علِمتُ فجعَلتُه فيه. قال: «فلعلك شربتَه». قال: نعم. فقال: «لا تَمسُّكَ النارُ إلاَّ تحِلَّةَ القسَم، ويلٌ للناسِ منك، وويلٌ لك من الناس»[1]. فكانت تلك القوةُ التي به من ذلك الدم.

وقال محمدُ بنُ سعد: أنا مسلمُ بنُ إبراهيمَ، ثنا الحارثُ بنُ عُبيدٍ، ثنا أبو عِمرانَ الجَوْنيُّ، أنَّ نَوْفًا البِكاليَّ كان يقولُ: إنِّي لأجدُ في كتابِ الله المنزَّل أنَّ ابنَ الزُّبيرِ فارسُ الخلفاء. وقال حمادُ بنُ زَيدٍ، عن ثابتٍ البُنانيِّ قال: كنتُ أمُرُّ بعبدِ الله بنِ الزبيرِ وهو يصلِّي خلفَ المقَام كأنَّه خشبةٌ منصوبةٌ لا يتحرَّكُ.

وقال الأعمشُ، عن يَحيى بنِ وثَّاب: كان ابنُ الزبيرِ إذا سجَد وقعَتِ العصافيرُ على ظهرِه تصعَدُ وتنزِلُ لا تراه إلاَّ جِذْمَ حائطٍ.

وقال غيرُه: كان ابنُ الزبيرِ يقومُ ليلَه حتى يُصبحَ، ويركَعُ ليلَه حتى يُصبحَ، ويسجُدُ ليلَه حتى يُصبحَ.

وقال بعضُهم: ركَع ابنُ الزبيرِ يومًا فقرَأتُ البقرةَ وآلَ عمرانَ والنساءِ والمائدةَ وما رفَع رأسَه.

وقال عبدُ الرزاق، عن ابنِ جُريجٍ، عن عطاءٍ قال: كنتُ إذا رأيتُ ابنَ الزبيرِ يصلِّي كأنَّه كعبٌ راتبٌ. وفي رواية: ثابتٌ.

وقال أحمدُ: تعلَّم عبدُ الرَّزَّاقِ الصلاةَ مِن ابنِ جُريجٍ، وابنُ جريجٍ مِن عطاءٍ، وعطاءٌ مِن ابنِ الزبيرِ، وابنُ الزبيرِ مِن الصدِّيقِ، والصدِّيقُ مِن رسولِ الله ﷺ.

وقال الحُميدي، عن سفيانَ بنِ عُيينَةَ، عن هشامِ بنِ عُروةَ، عن ابنِ المُنكَدرِ، قال: لو رأيتَ ابنَ الزبيرِ يُصلِّي كأنَّه غُصنُ شجرةٍ تصفِقُها الريحُ، والمنجَنيقُ يقَعُ ههنا وههنا. قال سفيانُ: كأنَّه لا يُبالي.

---

(١) **في إسناده من لم أقف عليه**: أخرجه الحاكم (٣/ ٥٥٤) وفي إسناده الهنيد بن القاسم بن عبد الرحمن ذكره ابن أبي حاتم ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً وسكت على الخبر الحاكم والذهبي، وشيخ الحاكم إبراهيم بن عصمة ادخلوا في كتبه أحاديث راجع «الميزان واللسان».

وحكى بعضُهم لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، أنَّ حجراً من المنجَنيقِ وقَع على شُرافة المسجدِ فطارتْ فلقةٌ منها فمرَّت بين لحيةِ ابنِ الزبيرِ وحلْقِه، فما زال عن مَقامه ولا عُرِف ذلك في صوتِه، فقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: لا إلهَ إلا اللهُ، جاد ما وصفتَ. وقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يومًا لابنِ أبي مُلَيْكَةَ: صفْ لنا عبدَ الله بنَ الزبيرِ. فقال: والله ما رأيتُ جلدًا قطُّ رُكِّب على لحمٍ، ولا لحمًا على عصبٍ، ولا عصبًا على عظمٍ مثلَه، ولا رأيتُ نفْسًا رُكِّبتْ بينَ جنبَيْنِ مثلَ نفسِه، ولقد مرَّتْ آجُرَّةٌ من رَمْيِ المنجَنيقِ بينَ لحيتِه وصدرِه، فوالله ما جشع ولا قطَع لها قراءتَه، ولا ركَع دونَ ما كان يركَعُ، وكان إذا دخَل في الصلاةِ خرَج من كلِّ شيءٍ إليها، ولقد كان يركَعُ فيكادُ يقعُ الرَّخَمُ على ظهرِه، ويسجُدُ فكأنَّه ثوبٌ مطروحٌ.

وقال أبو القاسم البغويّ، عن عليِّ بنِ الجعد، عن شُعبةَ، عن منصورِ بنِ زَاذانَ قال: أخبَرني مَن رأى ابنَ الزبيرِ يشرَبُ في صلاتِه[1]، وكان ابنُ الزبيرِ من المصلِّين. وسُئِل ابنُ عبّاسٍ عن ابنِ الزُّبيرِ فقال: كان قارئًا لكتابِ الله متبعًا لسنَّةِ رسولِ الله، قانتًا لله، صائمًا في الهواجرِ من مخافةِ الله، ابنُ حواريِّ رسولِ الله، وأمُّه بنتُ الصديقِ، وخالتُه عائشةُ؛ حبيبةُ حبيبِ الله، زوجةُ رسولِ الله فلا يجهَلُ حقَّه إلا مَن أعماه اللهُ.

ورُوِي أنَّ ابنَ الزبيرِ كان يومًا يُصلِّي فسقَطتْ حيَّةٌ من السقفِ تطوَّقتْ على بطنِ ابنِه هاشمٍ، فصرَخ النسوةُ وانزعَج أهلُ المنزلِ، واجتمَعوا على قتلِ تلك الحيةِ، فقتَلوها وسَلِمَ الولَدُ؛ فعَلوا هذا كلَّه وابنُ الزبيرِ في الصلاةِ لم يلتَفِتْ، ولا درَى بما جرَى لابنِه حتى سلَّم.

وقال الزبيرُ بنُ بكّار: حدَّثني محمدُ بنُ الضحَّاكِ الحزاميُّ، وعبدُ الملكِ بنُ عبدِ العزيزِ، ومَن لا أُحصِي كثرةً من أصحابِنا، أنَّ ابنَ الزبيرِ كان يواصِلُ الصومَ سبْعًا؛ يصومُ يومَ الجُمعةِ ولا يفطِرُ إلاَّ ليلةَ الجُمعةِ الأخرى، ويصومُ بالمدينةِ، ولا يُفطِرُ إلاَّ بمكَّةَ، ويصومُ بمكَّةَ فلا يُفطِرُ إلاَّ بالمدينةِ، وكان إذا أفطَر أوَّلَ ما يُفطِرُ على لبنِ لِقْحةٍ، وسمْنٍ، وصَبِرٍ. وفي روايةٍ أخرى: فأمَّا اللبنُ فيَعصِمُه، وأمَّا السمْنُ فيقطَعُ عنه العطَشَ، وأمَّا الصَّبِرُ فيُفتِّقُ الأمعاءَ.

وقال ابنُ معين، عن رَوْحٍ، عن حَبيبِ بنِ الشَّهيدِ، عن ابنِ أبي مُلَيْكَةَ، قال: كان ابنُ الزبيرِ يواصِلُ سبعةَ أيامٍ، ويُصبِحُ في اليومِ الثامنِ وهو أَلْيَثُنا. ورُوِي مثلُه من غيرِ وجهٍ. وقال بعضُهم: لم يكنْ يأكلُ في شهرِ رمضانَ سوى مرَّةٍ واحدةٍ في وسَطِه.

وقال خالدُ بنُ أبي عمران: كان ابنُ الزبيرِ لا يُفطِرُ من الشهرِ إلاَّ ثلاثةَ أيامٍ، ومكَث أربعين سنةً لم يَنزِعْ ثوبَه عن ظهرِه.

وقال ليثٌ عن مجاهد: لم يكُنْ أحدٌ يُطيقُ ما يُطيقُه ابنُ الزبيرِ من العبادةِ، رضي اللهُ عنه. ولقد جاء سَيلٌ مرَّةً فطبَّق البيتَ فجعَل ابنُ الزبيرِ يطوفُ بالبيتِ سباحةً.

---

(١) إسناده منقطع.

وقال بعضهم: كان ابنُ الزبيرِ لا يُنازَعُ في ثلاثٍ؛ في العبادةِ، والشجاعةِ، والفصاحةِ. وقد ثبَت أنَّ عثمانَ جعَله في النَّفَرِ الذين نسَخوا المصاحفَ مع زيدِ بنِ ثابتٍ، وسعيدِ بنِ العاصِ، وعبدِ الرحمنِ ابنِ الحارثِ بنِ هشامٍ. وذكَره سعيدُ بنُ المسيَّبِ في خُطباءِ الإسلامِ مع معاويةَ وابنِه، وسعيدِ بنِ العاصِ وابنِه.

وقال عبدُ الواحدِ بنُ أيمنَ: رأيتُ علَى ابنِ الزبيرِ رداءً يمانيًّا عَدَنيًّا يُصلِّي فيه، وكان صيِّتًا؛ إذا خطَب يُجاوِبُه الجبلانِ أبو قُبَيْسٍ، وزَرُودُ.

وكان آدمَ نحيفًا ليس بالطويلِ، وكان بينَ عينيه أثرُ السجودِ، كثيرَ العبادةِ مجتهدًا شهْمًا فصيحًا، صوّامًا قوّامًا، شديدَ البأسِ ذا أَنَفَةٍ، له نَفْسٌ شريفةٌ وهِمّةٌ عاليةٌ، وكان خفيفَ اللِّحيَةِ ليس في وجهِه مِن الشَّعرِ إلاَّ قليلاً، وكانت له جُمَّةٌ، وكان له لِحيَةٌ صفراءُ.

وقد ذكَرْنا أنَّه شهِد مع عبدِ اللهِ بنِ سعدِ بنِ أبي سَرْحٍ قتالَ البرْبَرِ؛ وكانوا في عشرين ومائةِ ألفٍ، والمسلمون عشرين ألفًا، فأحاطوا بهم مِن كلِّ جانبٍ، فمازال عبدُ الله بنُ الزبيرِ يحتالُ حتى ركِب في ثلاثين فارسًا، وسار نحوَ ملكِ البربرِ، وهو مُنفردٌ وراءَ الجيشِ، وجواريه يظلِّلْنه بريشِ النعامِ، فساق حتى انتهى إليه، والناس يَظُنونَ أنَّه ذاهبٌ في رسالةٍ إليه، فلمّا فهِمه الملكُ ولَّى مدبرًا، فلحقه عبدُ اللهِ بن الزبيرِ فقتَلَه واحتزَّ رأسَه، وجعَله فوقَ رُمْحِه، وكبَّر وكبَّر المسلمونَ وحمَلوا على البَرْبَرِ، فانهزَمتِ البربرُ بينَ أيديهم فقتَلوا منهم خلقًا كثيرًا، وغنِموا مغانمَ كثيرةً جدًّا، وبعثَ ابنُ أبي سَرحٍ بالبشارةِ مع عبدِ الله بنِ الزبيرِ، فقَصَّ على عثمانَ الخبرَ وكيف جرى، فقال له عثمانُ: أتستطيعُ أن تُؤدِّيَ هذا للناسِ فوقَ المنبرِ؟ قال: نعم فأمرَه، فصعِد ابنُ الزبيرِ فوقَ المنبرِ فخطَب الناسَ، وذكَر لهم كيفيَّةَ ما جرى، قال عبدُ اللهِ: فالتفتُّ فإذا أبي - الزبيرُ - في جملةِ من حضرَ، فلمّا تبيَّنتُ وجهَه كاد أن يُرتَجَ عليَّ في الكلامِ من هيبتِه في قلبي، فزبَرَني بعينِه وأشار إليَّ ليَحصِبَني، فمضَيتُ في الخطبةِ كما كنتُ، فلمّا نزَلتُ، قال: واللهِ لكأنِّي أسمَعُ خطبةَ أبي بكرٍ الصديقِ حينَ سمِعتُ خُطبتَك يا بُنيَّ.

وقال أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ: سمِعتُ أبا سُليمانَ الدارانيَّ يقولُ: خرَج ابنُ الزبيرِ في ليلةٍ مقمرةٍ على راحلةٍ له فنزل يبُولُ، فالتفتَ فإذا على الراحلةِ شيخٌ أبيضُ الرأسِ واللِّحيةِ، قال: فشَدَّ عليه ابنُ الزبيرِ فتنَحَّى عنها فركِب ابنُ الزبيرِ راحلتَه ومضَى، قال: فناداه: واللهِ يا بنَ الزبيرِ لو دخَل قلبَك الليلةَ منّي شعْرةٌ لخبَلْتُك. قال: ومنك أنت يا لعينُ يدخلُ قلبي شيءٌ! وقد رُوِي لهذه الحكايةِ شواهدُ من وجوهٍ أخرَى جيدةٍ وروى عبدُ الله بنُ المباركِ، عن إسحاق بن يحيى، عن عامرِ بن عبدِ اللهِ بن الزبيرِ قال: أقبَل عبدُ اللهِ بن الزبيرِ من العُمرةِ في رَكْبٍ من قريشٍ، فلمّا كانوا عندَ التَّناضبِ أبصرُوا رجلاً عندَ شجرةٍ، فتقدَّمهُم ابنُ الزبيرِ فلما انتهى إليه سلم عليه فلم يعبأْ به، ورد ردًّا ضعيفًا، ونزل

ابن الزبير فلم يتحركْ له الرجلُ، فقال له ابن الزبيرُ تنحَّ عن الظِّلِّ. فانحاز مُتكارهًا، قال ابنُ الزبير: فجلَستُ وأخذتُ بيده وقلتُ: مَن أنت؟ فقال: رجلٌ من الجنِّ. فما عدا أنْ قالها حتى قامتْ كُلُّ شعْرةٍ منّي فاجتذبتُه، وقلتُ أنت رجلٌ من الجنِّ وتبدو لي هكذا؟ وإذ ليس له سُفلةٌ وانكسر ونهَرْتُه وقلت: إليَّ تتبدَّىٰ وأنتَ من أهلِ الأرض؟ فذهَب هاربًا وجاء أصحابي، فقالوا: أين الرجلُ الذي كان عندك؟ فقلتُ إنَّه كان من الجنِّ فهرَب. قال: فما منهم رجلٌ إلا سقَط إلى الأرضِ عن راحلته، فأخذتُ كُلَّ رجُلٍ منهم فشددتُه على راحلته حتى أتيتُ بهم أمَجَ وما يعقلون.

وقال سفيانُ بن عيينة: قال ابن الزبير: دخلْتُ المسجدَ ذاتَ ليلةٍ فإذا نسوةٌ يطفْن بالبيت فأعجبْنني، فلمّا قضيْنَ طوافَهُنَّ خرَجنَ فخرَجتُ في إثرهنَّ لأعلَمَ أين منزلُهن، فخرَجْنَ من مكةَ حتى أتيْنَ العقَبةَ، ثم انحدَرْنَ حتى أتيْنَ فجًّا، فدخَلْن في خَرِبةٍ، فدخلتُ في إثْرِهِنَّ، فإذا مشيخةٌ جُلوسٌ، فقالوا: ما جاء بك ياابنَ الزبير؟ فقلتُ لهم: مَن أنتم؟ قالوا: الجنُّ، وتلك النسوةُ نساؤنا، فما تشتَهي ياابنَ الزبير؟ فقلتُ: أشتهي رُطَبًا، وما بمكةَ يومئذٍ من رُطَبةٍ، فأتَوْني برُطَبٍ فأكَلتُ، ثم قالوا: احمِلْ ما بقِي معك. فجئتُ به المنزلَ فوضَعتُه في سَفَطٍ ووضَعتُ السَّفَطَ في صُندوقٍ، ثم وضَعتُ رأسي لأنامَ، فبينَما أنا بينَ النائمِ واليقْظانِ إذ سمعتُ جَلَبةً في البيت، فقال بعضُهم لبعض: أينَ وضعَه؟ قالوا: في الصُّندوقِ ففتَحوه فإذا هو في السَّفَطِ داخلَه، فهمُّوا بفتحه فقال بعضُهم: إنَّه ذكَر اسمَ الله عليه، فأخذُوا السَّفَطَ بما فيه فذهَبوا به، قال: فلم آسَفْ على شيءٍ أسَفِي كيف لم أَثِبْ عليهم، وهم في البيت؟

وقد كان عبدُالله بنُ الزبيرِ ممَّن حاجفَ عن عثمانَ يومَ الدَّار، وجُرِح يومئذٍ بضعَ عشْرةَ جراحةً. وكان على الرجّالةِ يومَ الجمَلِ وجُرِح يومئذٍ تسعَ عشْرةَ جراحةً أيضًا. وقد تبارَزَ يومئذٍ هو ومالكُ بنُ الحارثِ بنِ الأشترِ، فاتَّحدا فصرَعَ الأشترُ ابنَ الزبيرِ فلم يتمكَّنِ الأشترُ من القيام عنه، بل احتضَنَه ابنُ الزبيرِ وجعَل يُنادِي ويقولُ:

اقــتلوني ومــالكًا واقــتلوا مــالكًا مــعي

فأرسَلَها مثلاً. ثم تفرَّقا ولم يَقْدِرْ عليه الأشترُ. وقد قيل: إنَّه جُرِح يومئذٍ بضعًا وأربعينَ جراحةً، ولم يُوجَدْ إلاَّ بينَ القَتلى وبه رَمَقٌ، وقد أعطَتْ عائشةُ لَمن بشَّرَها أنَّه لم يُقتَلْ عشرةَ آلاف درهمٍ وسجَدَتْ لله شُكرًا، وقد كانت تُحبُّه حُبًّا شديدًا؛ لأنَّه ابنُ أختِها، وكان عزيزًا عليها. وقد رُوِي عن عُروةَ أنَّه قال: لم تكُنْ عائشةُ تُحبُّ أحدًا بعدَ رسولِ الله ﷺ وأبي بكرٍ مثلَ حُبِّها عبدَ الله بنَ الزبيرِ. وقال: وما رأيتُ أبي وعائشةَ يدعوان لأحدٍ من الخلقِ مثلَ دعائهما لابنِ الزبيرِ.

وقال الزبيرُ بنُ بكّار: حدَّثني أخي هارونُ بنُ أبي بكرٍ، عن يحيى بنِ إبراهيمَ، عن سليمانَ بنِ محمدِ بنِ يحيى بنِ عروةَ، عن أبيه، عن عمِّه عبدِ الله بنِ عروةَ قال: أَقْحمت السَّنَةُ نابغةَ بَني جَعْدةَ

فدخل على عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ المسجدَ الحرامَ، فأنشدَه هذه الأبياتَ:

حكيْتَ لنا الصِّدِّيقَ لَمَّا وليتَنا وعثمانَ والفاروقَ فارتاحَ مُعدِمُ
وسويتَ بينَ الناسِ في الحقِّ فاستووْا فعادَ صباحًا حالكُ الليلِ مُظلِمُ
أتاكَ أبو ليلى يجوبُ به الدُّجى دُجَى الليلِ جوّابُ الفلاةِ عَثَمْثَمُ
لتَجبُرَ منهُ جانبًا ذَعْذَعَتْ به صروفُ الليالي والزمانُ المُصمِّمُ

فقال له ابنُ الزبيرِ: هوِّنْ عليك أبا ليلى، فإنَّ الشعرَ أهونُ وسائلكَ عندَنا، أمَّا صفوةُ مالنا فلآلِ الزبيرِ، وأمّا عَفْوُه فإنَّ بني أسدٍ يشغَلُها عنك وتيمًا، ولكنْ لك في مالِ اللهِ حقَّانِ؛ حقٌّ برؤيتِك رسولَ اللهِ ﷺ، وحقٌّ لشركَتِكَ أهلَ الإسلامِ في فَيْئِهم. ثم أخذَ بيدِه فأدخلَه دارَ النَّعَمِ فأعطاه قلائصَ سبعًا وجملاً رحيلاً، وأوقرَ له الرِّكابَ بُرًّا وتمرًا وثيابًا، فجعلَ النابغةُ يستعجلُ ويأكلُ الحَبَّ صِرْفًا، فقال له ابنُ الزبيرِ: ويْحَ أبي لَيْلى، لقد بلَغ الجَهْدُ. فقال النابغةُ: أشهَدُ لَسمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «ما وَلِيَتْ قريشٌ فعدلَتْ، واستُرْحِمتْ فرَحِمتْ، وحدَّثَتْ فصدَقَتْ، ووعَدَتْ خيرًا فأنجزَتْ، فأنا والنبيُّون فُرَّاطُ القاصفينَ».

وقال محمد بنُ مرْوانَ صاحبُ كتابِ «المجالسة»: أخبرَني حَبيبُ بنُ نَصرٍ الأزديُّ، ثنا محمدُ ابنُ دينارٍ، ثنا محمدُ بنُ زيادٍ الضَّبِّيُّ، ثنا هشامُ بنُ سليمانَ المخزوميُّ، عن أبيه، قال: أَذِنَ معاويةُ للناسِ يومًا فدخلُوا عليه فاحْتَفَلَ المجلسُ، وهو على سَريرِه، فأجالَ بصرَه فيهم ثم قال: أَنْشدُوني لقدماءِ العربِ ثلاثةَ أبياتٍ جامعةٍ من أجمعِ ما قالَتْها العربُ. ثم قال: يا أبا خُبيبٍ. فقال: مَهْيَمْ؟ قال: أنشدْني ذلك. فقال: نعمْ يا أميرَ المؤمنينَ، بثلاثمائةِ ألفٍ؛ كلُّ بيتٍ بمائةِ ألفٍ. قال: نعمْ، إنْ ساوتْ. قال: أنتَ بالخيارِ، وأنت وافٍ كافٍ. قال: نعم. فأنشدَه للأفوهِ الأوْديِّ:

بلوتُ النَّاسَ قرنًا بعدَ قرْنٍ فلَمْ أرَ غيرَ ختَّالٍ وقالِ

فقال: صدَق.

ولم أرَ في الخُطُوبِ أشدَّ وَقْعًا وكيدًا من معاداةِ الرجالِ

فقال: صدَق.

وذُقتُ مرارةَ الأشياءِ طُرًّا فما شيءٌ أمرَّ من السُّؤالِ

فقال: صدَق. ثم قال معاويةُ: هِيهِ يا أبا خُبيبٍ. قال: إلى هَهُنا انتهَى.

قال: فدعا معاويةُ بثلاثين عبدًا، على عُنقِ كلِّ واحدٍ منهم بَدْرةٌ، وهي عشَرةُ آلافِ درهمٍ، فمرُّوا بينَ يَدَيِ ابنِ الزبيرِ حتى انتهَوْا إلى دارِه.

وروى ابنُ أبي الدُّنيا، عن أبي زَيدٍ النُّمَيْريِّ، عن أبي عاصمٍ النبيلِ، عن جويريةَ بنِ أسماءَ أنَّ معاويةَ لَمَّا حجَّ تلقاه الناسُ وتخلَّفَ ابنُ الزبيرِ، ثم جاءَه وقد حلَق رأسَه، فقال: يا أميرَ المؤمنينَ، ما

أكثرَ جحرَةَ رأسك؟ فقال له: اتَّقِ؛ لا تخرُجْ عليك منها حيَّةٌ فتقتُلَك. فلمّا أفاضَ معاويةُ طاف معه ابنُ الزبيرِ وهو آخذٌ بيده ثم استَدْعاه إلى داره ومنازله بقُعَيْقعانَ، فذهَب معه إليها، فلمّا خرَجا، قال: يا أميرَ المؤمنينَ، إنَّ الناس يَقولونَ: جاء معه أميرُ المؤمنينَ إلى دُورِه ومنازله ففعَل ماذا؟ لا والله لا أدَعُك حتى تُعطِيَني مائةَ ألف. فأعطاه، فجاءَ مَرْوانُ فقال: والله يا أميرَ المؤمنين ما رأيتُ مثلَك؛ جاءك رجلٌ قد سمَّى بيتَ مالِ الديوانِ، وبيتَ الخلافةِ، وبيتَ كذا وبيتَ كذا، فأعطيتَه مائةَ ألف. فقال له: ويلَك، فكيف أصنعُ بابنِ الزبيرِ؟

وقال ابنُ أبي الدُّنيا: أخبرَني عمرُ بنُ بُكيرٍ، عن عليِّ بنِ مجاهدٍ، عن هشامِ بنِ عُروةَ، قال: سأل عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ معاويةَ شيئًا فمنَعه، فقال: والله ما أجهلُ أنْ ألزَمَ هذه البَنِيَّةَ فلا أشتُمُ لك عِرْضًا ولا أَقصِبُ لك حَسَبًا، ولكنِّي أَسدُلُ عِمامَتي من بين يَدَيَّ ذراعًا، ومن خَلْفي ذراعًا في طريقِ أهلِ الشامِ، وأذكُرُ سيرةَ أبي بكرٍ الصديقِ وعمرَ، فيقولُ الناسُ: مَن هذا؟ فيقولون: ابنُ حَواريِّ رسولِ اللهِ ﷺ وابنُ بنتِ الصِّدِّيق. فقال معاويةُ: حَسْبُك بهذا شرًّا. ثم قال: هاتِ حوائجَك.

وقال الأصمعيُّ: ثنا غسّانُ بنُ مُضرَ، عن سعيدِ بنِ يزيدَ، قال: دخَل ابنُ الزبيرِ على معاويةَ فأمَر ابنًا له صغيرًا فلطَمه لَطْمةً دوَّخ منها رأسَه، فلمّا أفاقَ ابنُ الزبيرِ قال للصبيِّ: ادْنُ منِّي. فدَنا منه، فقال له: الْطِمْ معاويةَ. قال: لا أفعَلُ. قال: ولِمَ؟ قال: لأنَّه أبي. فرفَع ابنُ الزبيرِ يدَه فلطَم الصبيَّ لطمةً جعَل يدُورُ منها كما تدورُ الدُّوَّامةُ، فقال له معاويةُ: تفعَلُ هذا بغلامٍ لم تَجْرِ عليه الأحكامُ؟ قال: إنَّه واللهِ قد عرَف ما يَضُرُّه ممَّا ينفَعُه، فأحبَبتُ أنْ أحسنَ أدبَه.

وقال أبو الحسنِ عليُّ بنُ محمدٍ المدائنيُّ، عن عبدِ اللهِ بنِ أبي بكرٍ، قال: لحِق ابنُ الزبيرِ معاويةَ وهو سائرٌ إلى الشامِ من المدينة، فوجَده وهو يَنعَسُ على راحلته، فقال له: أتنعَسُ وأنا معك؟ أمَا تخافُ منِّي أنْ أقتُلَك؟ فقال: إنَّك لستَ من قُتَّالِ الملوك، إنَّما يصيدُ كلُّ طائرٍ قدْرَه. فقال: أمَا لقد سِرْتُ تحتَ لواءِ أبي إلى عليِّ بنِ أبي طالبٍ، وهو مَن تعلَمُ. فقال: لا جرَمَ، قتَلَكُم واللهِ بشِمَالِه. فقال: أمَا إنَّ ذلك كان في نُصرةِ عثمانَ، ثم لم يُجزَ بها. فقال: إنما كان لبُغضِ عليٍّ لا لنُصرةِ عثمانَ. فقال له ابنُ الزبيرِ: إنَّا قد أعطيناك عَهْدًا فنحنُ وافُونَ لك به ما عشتَ، فإذا متَّ فسيَعلَمُ مَن بعدَك. فقال: أمَا والله ما أخافُك إلاَّ على نفسِك، ولكأنِّي بكَ قد خُبِطتَ في الحِبالةِ واستُحكِمَتْ عليك الأُنشُوطةُ، فذكَرْتَني وأنتَ فيها، فقلتَ: ليتَ أبا عبدِ الرحمنِ لها، لَيْتَني واللهِ لها، أمَا واللهِ لأحُلَّنَّكَ رُويدًا، ولأُطْلِقَنَّكَ سريعًا، ولبئسَ الوليُّ أنتَ تلك الساعةَ. وحكَى ابنُ عُيَيْنةَ نحوَ هذا.

وقد تقدَّم أنَّ معاويةَ لمَّا مات وجاءتْ بيعةُ يزيدَ بنِ معاويةَ إلى المدينة انشمَر منها ابنُ الزبيرِ والحسينُ بنُ عليٍّ فقصَدا مكةَ فأقاما بها، ثم خرَج الحسينُ إلى العراقِ فكان من أمرِ مقتله بأرضِ كربلاء ما تقدَّم. وتفرَّد بالرياسةِ والسُّؤْدَدِ بمكةَ عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ؛ ولهذا كان ابنُ عباسٍ يُنشِدُ بعدَ مَخْرجِ الحسينِ:

يا لكِ مِن قُنْبَرةٍ بِمَعْمَرِ ... خلا لكِ الجوُّ فبيضي واصْفِري
ونَقِّري ما شئتِ أنْ تُنَقِّري

يُعرِّضُ بابنِ الزبيرِ.

وقيل: إنَّ يزيدَ بنَ معاويةَ كتَبَ إلى ابنِ الزبيرِ؛ يقولُ: إنِّي قد بعَثتُ إليك بسِلْسلةٍ من فضَّةٍ، وقَيْدٍ مِن ذهَبٍ، وجامعةٍ مِن فضةٍ وحلَفْتُ لَتأتينِّي في ذلك، فأبِرَّ قسَمي، ولا تشُقَّ العصا. فلمَّا قرأ كتابَه ألقاه من يده، وقال:

ولا ألينُ لغيرِ الحقِّ أسألُه ... حتى يَلينَ لضِرْسِ الماضغِ الحَجَرُ

فلمَّا مات يزيدُ بنُ معاويةَ، وابنُه معاويةُ بنُ يزيدَ من بعده قريبًا، استفحَلَ أمرُ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ جدًّا، وبُويع له بالحجازِ والعراقِ ومصرَ، وبايعَ له الضَّحَّاكُ بنُ قيسٍ بدمشقَ وأعمالِها، ولكنْ عارضَه مرْوانُ بنُ الحكمِ في ذلك، وما زال حتى قتَله وجماعةً بمَرْجِ راهطٍ، كما تقدَّم. فبايَع له أهلُ الشامِ، ثم دخَل مصرَ فانتزَعها مِن نوَّابِ ابنِ الزبيرِ، ثم جهَّز السَّرايا إلى العراقِ، ومات واستخلَف بعدَه ابنَه عبدَ الملكِ بنَ مرْوانَ، فما زال حتى قتَل مُصعبَ بنَ الزبيرِ وأخَذ العراقَ منه، ثم بعَث الحجَّاجَ بنَ يوسفَ، فحاصَر ابنَ الزبيرِ بمكةَ قريبًا مِن سبعةِ أشهرٍ، حتى ظفِر به في يومِ الثلاثاءِ سابعَ عشرَ من جُمادَىٰ الأُولىٰ سنةَ ثلاثٍ وسبعينَ.

وكانت وِلايةُ ابنِ الزبيرِ في سنةِ أربعٍ وستِّين، وحجَّ بالناسِ فيها كلِّها، وبنَىٰ الكعبةَ في أيامِه، كما أشار إليه الرسولُ ﷺ[1]. وردَّ بناءَها كما كانت عليه، كما أخبَرَتْه بذلك عائشةُ أُمُّ المؤمنين، وكسَا الكعبةَ الحرير، وكانت كُسوتُها قبلَ ذلك الأنطاعَ والمُسُوحَ.

وكان ابنُ الزبيرِ عالمًا عابدًا مهيبًا وقورًا، كثيرَ الصيامِ والصَّلاة، شديدَ الخُشُوعِ قويَّ السياسة.

قال أبو نُعيم الأصبهانيُّ: حدَّثنا أبو حامدِ بنُ جَبَلَةَ، ثنا محمدُ بنُ إسحاقَ الثقفيُّ، ثنا أحمدُ بنُ سعيدٍ الدَّارميُّ، ثنا أبو عاصمٍ، عن عمرَ بنِ قَيْسٍ. قال: كان لابنِ الزبيرِ مائةُ غلامٍ يتكلَّمُ كلُّ غلامٍ منهم بلغةٍ غيرِ لغةِ الآخَرِ، وكان ابنُ الزبيرِ يُكلِّمُ كلَّ واحدٍ منهم بلغتِه، وكنتَ إذا نَظَرتَ إليه في أمرِ دُنياه قلتَ: هذا رجُلٌ لم يُرِدِ اللهَ طَرْفَةَ عينٍ، وإذا نَظَرتَ إليه في أمرِ آخرتِه قلتَ: هذا رجلٌ لم يُرِدِ الدنيا طرفةَ عينٍ.

وقال الثوريُّ، عن الأعمشِ، عن أبي الضُّحَىٰ قال: رأيتُ على رأسِ ابنِ الزبيرِ من المسكِ ما لو كان لي كان رأسَ مالٍ. وكان يُطيِّبُ الكعبةَ حتى كان يُوجَدُ ريحُها من مسافةٍ بعيدةٍ[2].

وقال ابنُ المُبارك، عن مَعمرٍ، عن ابنِ طاوسٍ، عن أبيه قال: دخَل ابنُ الزبيرِ على امرأتِه بنتِ الحسنِ، فرأَىٰ ثلاثةَ مُثُلٍ - يعني أفرشة - فقال: هذا لي، وهذا لابنةِ الحسنِ، وهذا للشيطانِ. فأخرَجوه[3].

---

(١) يشير إلى قوله ﷺ لعائشة: «لولا حداثة عهد قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم فإن قريشًا حين بنت البيت استقصرت، ولجعلت لها خَلْفًا» أخرجه البخاري (١٥٨٥) ومسلم (١٣٣٣).

(٢) ما برز من إسناده صحيح.

(٣) ما أبرز من الإسناد رجاله ثقات.

وقال الثوريُّ، عن عبدِ الملكِ ابنِ أبي بشيرٍ، عن عبدِ اللهِ بنِ مُساورٍ، قال: سمعتُ ابنَ عباسٍ يُعاتِبُ ابنَ الزبيرِ على البُخلِ، ويقولُ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**ليس بالمؤمنِ مَن يَبيتُ شبعانَ، وجارُه إلى جنبِه جائعٌ**»(١) .

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا إسماعيلُ بنُ أبانٍ الورّاقُ، ثنا يعقوبُ، عن جعفرِ ابنِ أبي المُغيرةِ، عن ابنِ أبزَى، عن عثمانَ بنِ عفانَ، قال: قال له عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ حينَ حصِر: إنَّ عندي نجائبَ قد أعددتُها لك، فهل لك أن تَحوَّلَ إلى مكةَ فيأتيَك مَن أراد أن يأتيَك؟ قال: لا، إنِّي سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**يُلحدُ بمكةَ كَبشٌ من قريشٍ اسمُه عبدُ اللهِ، عليه مثلُ أوزارِ النّاسِ**»(٢) . وهذا الحديثُ مُنكَرٌ جداً، وفي إسنادِه ضعفٌ، ويعقوبُ هذا هو القُمِّيُّ، وفيه تَشيُّعٌ وضعفٌ. ومثلُ هذا لا يُقبلُ تفرُّدُه به، وبتقديرِ صحَّتِه فليس هو بعبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ، فإنَّه كان على صفاتٍ حميدةٍ، وقيامُه في الإمارةِ إنَّما كان للهِ عزَّ وجلَّ، ثم هو كان له الأمرُ بعدَ موتِ معاويةَ بنِ يزيدَ لامحالةَ، وهو أرشَدُ من مروانَ ابنِ الحكمِ، حيثُ نازَعه بعدَ أنِ اجتمعتِ الكلمةُ عليه، وقامتِ البيعةُ له في الآفاقِ وانتظَم له الأمرُ. واللهُ أعلمُ.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا أبو النَّضرِ هاشمُ بنُ القاسمِ، ثنا إسحاقُ بنُ سعيدٍ، ثنا سعيدُ بنُ عمرٍو قال: أتَى عبدُ اللهِ بنُ عمرٍو عبدَ اللهِ بنَ الزبيرِ، وهو جالسٌ في الحِجْرِ، فقال: يا بنَ الزبيرِ، إيّاك والإلحادَ في حَرمِ اللهِ، فإنِّي أشهدُ لَسمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**يُحِلُّها ويَحُلُّ به رجلٌ من قُريشٍ، لو وُزِنَتْ ذُنوبُه بذُنوبِ الثَّقلَين لوزنَتْها**». قال: فانظُرْ أن لا تكونَه يا بنَ عمرٍو، فإنَّك قد قرأتَ الكتبَ وصحِبتَ النبيَّ ﷺ. قال: فإنِّي أشهدُك أنَّ هذا وَجْهي إلى الشامِ مُجاهداً(٣) .

وهذا قد يكونُ رَفْعُه غلطاً، وإنَّما هو من كلامِ عبدِ اللهِ بنِ عمرٍو، مِمَّا أصابه من الزّاملتَيْن من علومِ أهلِ الكتابِ يومَ اليرموكِ. واللهُ أعلمُ.

وقال وكيعٌ، عن الثَّوْريِّ، عن سَلَمةَ بنِ كُهيلٍ، عن أبي صادقٍ، عن حنشٍ الكنانيِّ، عن عُلَيْمٍ الكنديِّ، عن سلمانَ الفارسيِّ، قال: لَيُحرَقَنَّ هذا البيتُ على يَدَي رجلٍ من آلِ الزُّبيرِ(٤) .

وقال أبو بكرِ ابنُ أبي خَيْثَمةَ، عن يحيى بنِ مَعينٍ، عن ابنِ فُضَيْلٍ، ثنا سالمُ ابنُ أبي حَفْصَةَ، عن مُنذرٍ الثَّوريِّ قال: قال ابنُ الحنفيَّةِ: اللهمَّ إنَّك تعلمُ أنِّي كنتُ أعلمُ مما علَّمتَني أنَّ ابنَ الزُّبيرِ لا يخرُجُ منها إلاَّ قتيلاً يُطافُ برأسِه في الأسواقِ.

وقد روَى الزبيرُ بنُ بكّارٍ، عن هشامِ بنِ عُروةَ قال: إنَّ أوَّلَ ما أفصَح به عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ وهو

---

(١) حديث جيد لشواهده: قد خرَّجتُه في كتابي «فقه التعامل مع الجار».
(٢) ضعيف: أخرجه أحمد (١/ ٦٤) بهذا الإسناد وهو ضعيف كما قال المؤلف رحمه الله.
(٣) رجاله ثقات: أخرجه أحمد (٢/ ٢١٩) بهذا الإسناد ورجاله ثقات ورفعه خطأ كما قال المؤلف.
(٤) إسناده ضعيف فإن حنش هو حنش بن المعتمر - ضعيف على الراجح.

صغيرٌ السيفُ، فكان لا يضعُه من فيه. وكان الزبيرُ إذا سمع ذلك منه يقولُ له: أمَا والله ليكونَنَّ لك منه يومٌ ويومٌ وأيامٌ. وقد تقدَّم كيفيةُ مقتَله، وأنَّ الحجاجَ صلَبه على جذْع فوقَ الثَّنِيَّةِ، وأنَّه ربَط إلى جانبه هرَّةً ميِّتةً، فكان ريحُ المسك يغلُبُ على ريحها، وأنَّ أمَّه أرسلَت إلى الحجاج تقولُ له: قاتلَك اللهُ، علامَ تصلُبُ ولدي؟ فقال: إنِّي استبقتُ أنا وإيَّاه إلى هذه الخشبة فسبقَني إليها. وأنَّ أمَّه جاءت حتى وقَفت عليه فدَعَتْ له طويلاً ولا يقطُرُ من عينها دمعةٌ، ثم انصرفَتْ. وكذلك وقَف عليه ابنُ عمرَ فدعا له، وأثْنَى عليه ثناءً كثيراً جداً.

وقال الواقديُّ: حدَّثني نافعُ بنُ ثابتٍ، عن عبد الله مولَى أسماءَ قال: لمَّا قتِل عبدُ الله خرجَتْ إليه أمُّه حتى وقفَتْ عليه، وهي على دابَّة، فأقبَل الحجاجُ في أصحابه فسأل عنها فأُخبِرَ بها، فأقبَل حتى وقَف عليها فقال: كيف رأيتِ نصرَ اللهُ الحقَّ وأظهرَه؟ قالت: ربَّما أديلَ الباطلُ على الحقِّ، وإنَّك بينَ فرثِها والجِيَّة. فقال: إنَّ ابنَكِ ألحَد في هذا البيت، وقد قال اللهُ تعالى: ﴿ **وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ** ﴾ [الحج: ٢٥]. وقد أذاقَه اللهُ ذلك العذابَ الأليمَ؛ قَطْعَ السُّبُل. قالت: كذَبْتَ، كان أوَّلَ مولودٍ ولِد في الإسلام بالمدينة، وسُرَّ به رسولُ الله ﷺ، وحنَّكه بيده وكبَّر المسلمون يومَئذٍ حتى ارتجَّت المدينةُ فرَحًا به، وقد فرِحْتَ أنتَ وأصحابُك بمقتله، فمَن كان فرِح يومئذٍ خيرٌ منك ومن أصحابِك، وكان مع ذلك بَرًّا بالوالدين صوَّامًا، قوَّامًا بكتاب الله، معظِّمًا لحُرُم الله، يُبغِضُ أن يُعصَى اللهُ عزَّ وجلَّ، أشهَدُ على رسول الله ﷺ لَسمعتُه يقولُ: «**سيخرُجُ من ثَقيفٍ كذابان؛ الآخرُ منهما شرٌّ من الأوَّل وهو مُبيرٌ**». فانكسَر الحجاجُ وانصرَف، فبلَغ ذلك عبدَ الملك فكتَب إليه يلُومُه في مخاطبته أسماءَ، وقال: ما لَكَ ولابنة الرجلِ الصالح؟[1]

وقال مسلمُ بنُ الحجاج في «صحيحه»: ثنا عُقبةُ بنُ مُكرَم، حدَّثنا يعقوبُ بنُ إسحاقَ الحضرميُّ، أنا الأسودُ بنُ شيبانَ، عن أبي نوفَلٍ، قال: رأيتُ عبدَ الله بنَ الزبير على عَقَبة المدينة، قال: فجعلَتْ قريشٌ تمُرُّ عليه والناسُ، حتى مرَّ عليه عبدُ الله بنُ عمرَ فوقَف عليه فقال: السلامُ عليك أبا خُبَيب، السلامُ عليك أبا خُبَيب، السَّلامُ عليك أبا خُبَيب، أمَا والله لقد كنتُ أنهاك عن هذا، أمَا والله لقد كنتُ أنهاك عن هذا، أمَا والله لقد كنتُ أنهاك عن هذا، أمَا والله إن كنتَ ما علمتُ صوَّامًا قوَّامًا وَصولاً للرَّحم، أمَا والله لأُمَّةٌ أنت شرُّها لأُمَّةٌ خير. ثم نفَذ عبدُ الله بنُ عمرَ، فبلَغ الحجاجَ وُقوفُ ابنِ عمرَ عليه وقولُه، فأرسَل إليه فأُنزِل عن جذْعه وأُلقِي في قبور اليهود، ثم أرسَل إلى أمِّه أسماءَ بنت أبي بكر فأبَت أن تأتيَه فأعاد عليها الرسولَ: لَتأتيَنِّي أو لأبعثَنَّ إليك مَن يسحبُكِ بقُرونك. فأبَتْ وقالت: والله لا آتيه حتى يبعثَ إليَّ مَن يَسحبُني بقروني. قال: فقال: أُرُوني سِبْتَيَّ. فأخَذ نَعْلَيه ثم انطلَق يَتوذَّفُ حتى دخَل عليها فقال: كيف رأيتِني صنعتُ بعدُوِّ الله؟ قالت: رأيتُك أفسدتَ عليه دُنياه، وأفسَد عليكَ آخرتَك، بلغَني أنك تقولُ: يابنَ ذات النِّطاقَين، أنا

(١) إسناده تالف لحال الواقدي فإنه متروك وسيأتي بعده الرواية الصحيحة.

والله ذاتُ النطاقَين؛ أمّا أحدُهما فكنتُ أرفعُ به طعامَ رسول الله ﷺ وطعامَ أبي بكر، وأمَّا الآخَرُ فنطاقُ المرأة الذي لا تَسْتغني عنه، أمَا إنَّ رسولَ الله ﷺ حدَّثنا أنَّ في ثقيف كذَّابًا ومُبيرًا، فأمَّا الكذَّابُ فرأيناه، وأمّا المُبيرُ فلا إخالُكَ إلاَّ إياه. قال: فقام عنها ولم يُراجعْها[1]. انفرَد به مسلمٌ.

وروىٰ الواقديُّ أنَّ الحجاجَ لما صلَب ابنَ الزبير علىٰ ثَنيَّة الحَجُون بعثَتْ إليه أسماءُ تدعو عليه، وطلَبتْ منه أن يُدفَنَ، فأبَىٰ عليها، حتىٰ كتَب إلىٰ عبد الملكِ في ذلك، فكتَب إليه أن يُدفَنَ، فدُفِن بالحَجُون، وذكَروا أنَّه كان يُشتَمُّ من عند قبره ريحُ المسك.

وكان الحجاجُ قد قدم من الشام في ألفيْ فارس وانْضافَ إليه طارقُ بنُ عمرو في خمسة آلاف. وروىٰ محمدُ بنُ سعد، وغيرُه، بسنده أنَّ الحجاجَ حاصَر ابنَ الزبير، وأنَّه اجتمَع معه أربعونَ ألفًا، وأنَّه نصَب المَنجَنيقَ علىٰ أبي قُبَيس ليرميَ به المسجدَ الحرامَ، الذي فيه عبدُ الله بنُ الزبير، وأنَّه جعَل يؤمِّنُ، وأنه أمَّنَ مَن خرَج إليه من أهل مكةَ، ونادىٰ فيهم بذلك، وقال: إنَّا لم نأتِ لقتال أحدٍ سوىٰ ابن الزبير، وأنَّه خيَّر ابنَ الزبير بينَ ثلاث؛ إمّا أن يذهبَ في الأرض حيثُ شاء، أو يبعثَه إلىٰ الشام مقيَّدًا بالحديد، أو يُقاتلَ حتىٰ يُقتلَ. فشاوَر أمَّه في ذلك فأشارتْ عليه بالثالث فقط. ويروىٰ أنَّها استدْعَتْ بكَفَن له وبخَّرَتْه وشجَّعَتْه علىٰ القتل، فخرَج بهذه النية فقاتَل يومَ الثلاثاء السابعَ عشرَ من جُمادىٰ الأولىٰ سنةَ ثلاث وسبعين قتالاً شديدًا، فجاءَتْه آجُرَّةٌ ففلَقتْ رأسَه فسقَط علىٰ وجهه إلىٰ الأرض، ثم أراد أن ينهَضَ فلم يَقدِرْ، فاتَّكَأ علىٰ مَرفِقه الأيسر وجعَل يَحذِمُ بالسيف مَن جاءه، فأقبَل إليه رجلٌ من أهل الشام فضربَه فقطَع رجلَيْه، ثم تكاثَروا عليه حتىٰ قتلُوه واحتزُّوا رأسَه، وكان مَقتَلُه قريبًا من الحَجُون، ويُقالُ: بل قُتِل وهو متعلِّقٌ بأستار الكعبة. فاللهُ أعلمُ. ثم صلَبه الحجاجُ مُنكَّسًا علىٰ ثَنية كَداءَ عندَ الحَجون، ثم لمَّا أنزَله دفَنَه في مقابر اليهود كما رواه مسلمٌ، وقيل: دُفِن بالحَجُون بالمكان الذي صُلِب فيه. فاللهُ أعلمُ. وقيل: إنَّ والدتَه أسماءَ غسَّلَتْه بعدَما تَقطَّعَت أوصالُه، وخيَّطتْه وكفَّنَتْه، وصلَّتْ عليه، وحمَلَتْه إلىٰ المدينة فدفَنَتْه في دار صفيةَ بنتِ حُيَيٍّ، وأنَّ هذه الدارَ زِيدَتْ في المسجد، فهو مدفونٌ في المسجد مع أبي بكر وعمرَ.

وقال عبدُ الرزاق، عن مَعمر، عن أيوبَ، عن ابن سيرينَ قال: قال عبدُ الله بنُ الزبير لمّا جِيءَ برأس المختار: ما كان يُحدِّثُنا كعبُ الأحبار شيئًا إلاَّ وجَدْناه كما قال، إلاَّ قولَه: إنَّ فتىٰ ثَقيف يَقتُلُني، وهذا رأسُه بينَ يَدَيَّ. قال ابنُ سيرينَ: ولم يَشعُرْ أنَّه قد خُبِّئَ له الحجاجُ[2]. ورُوِي هذا من وجهٍ آخرَ.

قلتُ: والمشهورُ أنَّ مقتَلَ ابن الزبير كان في سنة ثلاث وسبعينَ في يوم الثلاثاء السابعَ عشرَ من جُمادىٰ الأولىٰ، وقيل: الآخرة منها. وعن مالك وغيره أنَّ مقتَلَه كان علىٰ رأس اثنتين وسبعينَ. والصَّحيحُ المشهورُ هو الأوّلُ، وكانت بيعتُه في سابع رجب سنةَ أربع وستِّين، وكان مولدُه في أوَّل

---

(١) صحيح: تقدم.

(٢) رجاله ثقات أخرجه عبد الرزاق (٢٠٧٥٥) بهذا الإسناد.

سنة إحدىٰ مِن الهجرةِ، وقيل: في شوّالٍ مِن سنةِ ثنتينِ مِن الهجرةِ. فجاوزَ السبعين قطعًا، واللهُ أعلمُ.

وأمَّا أُمُّه فإنَّها لم تَعِشْ بعدَه إلاَّ مائةَ يومٍ، وقيل: إنَّما عاشت بعدَه عشرةَ أيام. وقيل: خمسةً. والأوَّلُ هو المشهورُ. وسيأتي ترجمتُها قريبًا، رضي اللهُ عنها.

وكان له مِن الولدِ خُبَيْبٌ وحمزةُ وعبّادٌ وثابتٌ، وأُمُّهم تُماضِرُ بنتُ منظورٍ الفَزاريِّ، وهاشمٌ وقيسٌ وعروةُ - قتِل مع أبيه - والزبيرُ، وأُمُّهم أُمُّ هاشمٍ بنتُ حلّةَ بنِ منظورٍ، وعامرٌ وموسىٰ وأُمُّ حكيمٍ وفاطمةُ وفاختةُ، وأُمُّهم جثيمةُ بنتُ عبدِ الرحمنِ بنِ الحارثِ بنِ هشامٍ، وبكرٌ ورقيةُ، وأُمُّهم عائشةُ بنتُ عثمانَ بنِ عفانَ، وعبدُ اللهِ ومصعبٌ مِن أمِّ ولدٍ.

وقد أسنَد ثلاثةً وثلاثين حديثًا.

وقد رثِي ابنُ الزبيرِ وأخوه مصعبٌ بمراثٍ كثيرةٍ حسنةٍ بليغةٍ، رحمهما اللهُ؛ مِن ذلك قولُ عمرِو ابنِ مَعمرٍ الذُّهْليِّ يرثيهما بأبياتٍ:

لعمرُكَ ما أبقيتُ في الناسِ حاجةً ... ولا كنتُ مَلبوسَ الهُدَىٰ مُتذَبذِبا

غداةَ دعاني مُصعبٌ فأجبتُه ... وقلتُ له أهلاً وسهلاً ومرحبا

أبوكَ حواريُّ الرسولِ وسيفُه ... فأنتَ بحمدِ اللهِ من خيرِنا أبا

وذاكَ أخوكَ المهتدَىٰ بضيائه ... بمكّةَ يَدعونا دعاءً مثوّبا

ولم أكُ ذا وَجهينِ وجهٍ لمصعبٍ ... مريضٍ ووجهٍ لابنِ مروانَ إذ صبا

وكنتُ امرأً ناصحتُه غيرَ مُؤثرٍ ... عليه ابنَ مروانَ ولا مُتقرِّبا

إليه بما تُقذَىٰ به عينُ مصعبٍ ... ولكنَّني ناصحتُ في اللهِ مُصعبا

إلى أن رمَتْهُ الحادثاتُ بسهمِها ... فللهِ سهمًا ما أسدَّ وأصوبا

فإن يَكُ هذا الدهرُ أودَىٰ بمصعبٍ ... وأصبحَ عبدُ اللهِ شِلوًا مُلَحَّبا

فكُلُّ امرئٍ حاسٍ مِن الموتِ جُرعةً ... وإن حادَ عنها جُهدَه وتَهَيَّبا

وقد روىٰ الطَّبرانيُّ عن عامرِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ أنَّ أباه حدَّثه أنَّ النبيَّ ﷺ أعطاه دمَ مَحاجمِه يُهَرِيقُه فحساه، فلمَّا رجَع إلى النبيِّ ﷺ، قال: **«ما صنَعتَ يا عبدَ اللهِ بالدَّمِ؟»** قلتُ: جعَلتُه في مكانٍ ظنَنتُ أنه خافٍ على الناسِ. قال: **«فلعلَّك شربتَه»**. قلتُ: نعم. قال: **«ومَن أمَرك أن تشربَ الدَّمَ؟ ويلٌ لك مِن الناسِ، وويلٌ للناسِ منك»** [1].

(١) تقدم.

ودخَل سلمانُ الفارسيُّ مرَّةً على النبيِّ ﷺ، فإذا عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ قائمٌ في الدِّهليزِ ومعه طَسْتٌ يشرَبُ منه، فدخَل سلمانُ ودخل عبدُ اللهِ على رسولِ اللهِ ﷺ، قال له: «فرَغْتَ؟». قال: نعم. قال سلمانُ: وما ذاك يا رسولَ الله؟ قال: «أعطيتُه غُسَالةَ محاجمي يُهَرِيقَ ما فيها». قال سلمانُ: شربها والذي بعَثك بالحقِّ. قال: «شربتَه؟». قال: نعم. قال: «لِمَ؟». قال: أحبَبتُ أن يكونَ دَمُ رسولِ اللهِ ﷺ في جَوْفي. فقال بيدِه على رأسِ ابنِ الزبيرِ، وقال: «وَيلٌ لك من الناسِ، وَوَيلٌ للناسِ منك، لا تَمَسّك النارُ إلا تَحِلَّةَ القَسَمِ»(١).

ولَمّا بعَث يزيدُ بنُ معاويةَ إلى ابنِ الزبيرِ ذلك القيدَ مِن ذهبٍ، وسلسلةً مِن فِضَّةٍ، وجامعةً مِن فضَّةٍ، وأقسَم لتأتيَنِّي فيها، فقالوا له: بِرَّ قسَمَ أميرِ المؤمنين. فقال:

ولا أَلِينُ لِغَيرِ الحقِّ أسألُه ... حتى يَلِينَ لضِرسِ الماضغِ الحجرُ

ثم قال: واللهِ لَضَربةٌ بسيفٍ في عزٍّ أحبُّ إليَّ مِن ضربةٍ بسَوطٍ في ذُلٍّ. ثم دعا إلى نفسِه، وأظهَر الخلافَ ليزيدَ بنِ معاويةَ.

وروَى الطبرانيُّ أنَّ ابنَ الزبيرِ دخَل على أمِّه، فقال: إنَّ في الموتِ لراحةً. وكانت أمُّه قد أتَتْ عليها مائةُ سنةٍ لم يسقُطْ لها سِنٌّ، ولم يفسُدْ لها بصرٌ، فقالت له: ما أُحبُّ أن أموتَ حتى آتيَ على أحدِ طرفَيك؛ إمَّا أن تملكَ فتقَرَّ عيني، وإمَّا أن تُقتَلَ فأحتَسِبَك. ثم خرَج عنها، وهو يقولُ:

ولستُ بمُبتاعِ الحياةِ بسُبَّةٍ ... ولا مُرتَقٍ من خشيةِ الموتِ سُلَّما

ثم أقبَل على آلِ الزبيرِ يعظُهم، ويقولُ: لِيكِنَّ أحدُكم سيفَه كما يُكِنُّ وجهَه، فيدفَعَ عن نفسِه بيدِه كأنَّه امرأةٌ، واللهِ ما لَقِيتُ زَحْفًا قطُّ إلا في الرَّعيلِ الأولِ، وما ألِمْتُ جُرْحًا إلا ألَمَ الدَّواءِ. ثم حمَل عليهم ومعه سيفان، فأوَّلُ مَن لقِيه الأسودُ، فضربه بسيفِه حتى أطَنَّ رِجلَه، فقال له الأسودُ: أخْ يا ابنَ الزانيةِ. فقال له ابنُ الزبيرِ: اخسأ يا ابنَ حامٍ، أسماءُ زانيةٌ؟! ثم أخرَجهم مِن المسجدِ، وكان على ظهرِ المسجدِ جماعةٌ مِن أعوانِه يَرمُون أعداءَه بالآجُرِّ، فأصابَتْه آجُرَّةٌ مِن أعوانِه مِن غيرِ قَصْدٍ في مَفْرِقِ رأسِه ففلَقَتْ رأسَه، فوقَف قائمًا، وهو يقولُ:

لو كان قِرْني واحدًا كَفَيتُه

ويقولُ:

ولَسْنا على الأعقابِ تدْمَى كلومُنا ... ولكن على أقدامِنا تقطُرُ الدِّما

ثم وقَع فأكَبَّ عليه مَوليان له، وهما يقولان:

العبدُ يَحْمي ربَّه ويَحْتَمي

---

(١) تقدم.

ثم أرسَلوا إليه فحزُّوا رأسَه.

وروى الطبراني أيضًا، عن إسحاقَ بن أبي إسحاقَ قال: أنا حاضرٌ مَقتلَ عبدِ الله بنِ الزبيرِ في المسجدِ الحرامِ؛ يومَ قُتِل جعَلَت الجيوشُ تدخُلُ من أبوابِ المسجدِ، وكلَّما دخَل قومٌ من بابٍ، حمَل عليهم حتى يُخرِجَهم، فبينَما هو على تلك الحالِ إذ جاءت شُرفةٌ من شُرُفاتِ المسجدِ، فوقَعتْ على رأسِه فصرَعَتْه، وهو يتمثَّلُ بهذه الأبياتِ:

أسماءُ يا أسماءُ لا تَبْكِيني لم يَبْقَ إلا حَسَبي ودِيني
وصارمٌ لانَتْ به يَميني

وقد روي أنَّ أمَّه قالت للحجاجِ: أمَا آنَ لهذا الراكبِ أنْ يَنْزِلَ؟ فقال الحجاجُ: ابنُكِ المنافقُ؟ فقالت: والله ما كان منافقًا، إن كان لَصوَّامًا قوَّامًا وَصولاً للرَّحمِ. فقال: انْصَرِفي يا عجوزُ، فإنَّكِ قد خَرِفْتِ. فقالت: والله ما خَرِفْتُ منذُ سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ: «يَخرجُ من ثقيف كذَّابٌ ومبيرٌ»[1] فأمَّا الكذَّابُ فقد رأيناه، وأمَّا المبيرُ فأنتَ.

وقال مُجاهدٌ: كنتُ مع ابنِ عمرَ فمرَّ على ابنِ الزبيرِ فوقَف فترَحَّم عليه وأثْنَى عليه، ثم التفَتَ إليَّ وقال: أخبرَني أبو بكرٍ الصديقُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مَن يَعملْ سُوءًا يُجْزَ به».

وروى سفيانُ، عن ابنِ جُرَيجٍ، عن ابنِ أبي مُلَيكةَ قال: ذكَرتُ ابنَ الزبيرِ عندَ ابنِ عباسٍ، فقال: كان عفيفًا في الإسلامِ، قارئًا للقرآنِ، صوَّامًا قوَّامًا، أبوه الزبيرُ، وأمُّه أسماءُ، وجَدُّه أبو بكرٍ، وعمَّته خديجةُ، وجَدَّته صفيةُ، وخالتُه عائشةُ، والله لأُحاسِبَنَّ له بنفسِي محاسبةً لم أحاسِبْها لأبي بكرٍ ولا لعمرَ.

وقال الطبرانيُّ: حدَّثنا زكريا السَّاجيُّ، ثنا حَوْثَرةُ بنُ محمدٍ، ثنا أبو أسامةَ، ثنا سعيدُ بنُ المَرْزُبانِ أبو سعيدٍ العَبْسيُّ، ثنا محمدُ بنُ عبدِ الله الثَّقَفيُّ، قال: شهِدتُ خُطبةَ ابنِ الزبيرِ بالمَوْسمِ، خرَج علينا قبلَ الترويةِ بيومٍ وهو مُحْرِمٌ، فلَبَّى بأحسنِ تلبيةٍ سمِعتُها قَطُّ، ثم حمِد اللهَ وأثْنَى عليه، ثم قال: أمَّا بعدُ، فإنَّكم جِئتُم من آفاقٍ شتَّى وُفُودًا إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، فحَقٌّ على الله أن يُكرِمَ وَفْدَه، فمَن كان منكم يَطلُبُ ما عندَ الله فإنَّ طالبَ ما عندَ الله لا يَخيبُ، فصَدِّقوا قولَكم بفعلٍ، فإنَّ مِلاكَ القولِ الفعلُ، والنيةَ النيةَ، والقلوبَ القلوبَ، اللهَ اللهَ في أيامِكم هذه؛ فإنَّها أيامٌ تُغفَرُ فيها الذُّنوبُ، جِئتُم من آفاقٍ شتَّى في غيرِ تجارةٍ ولا طلبِ مالٍ ولا دُنيا تَرجونها ههنا. ثم لَبَّى ولَبَّى الناسُ، فما رأيتُ باكيًا أكثرَ من يومئذٍ.

وروى الحسنُ بنُ سفيانَ قال: ثنا حِبَّانُ بنُ موسى، ثنا عبدُ الله بنُ المُبارَكِ، ثنا مالكُ بنُ أنسٍ، عن وهبِ بنِ كَيسانَ قال: كُتِب إلى عبدِ الله بنِ الزبيرِ بموعظةٍ: أمَّا بعدُ، فإنَّ لأهلِ التقوى علاماتٍ

---

(١) تقدم.

يُعرَفون بها ويَعرِفونها من أنفسهم؛ صِدْقُ الحديث، وأداءُ الأمانة، وكَظْمُ الغيظ، وصَبْرٌ على البلاء، ورضًا بالقضاء، وشكرٌ للنَّعماء، وذُلٌّ لحُكْم القرآن، وإنَّما الإمامُ كالسُّوقِ ما نفَق فيها حمِل إليها، إن نفق الحقُّ عندَه حمِل إليه وجاءه أهلُه وإن نفق الباطل عنده حُمِل إليه وجاءه أهله.

وقال أبو معاوية: ثنا هشامُ بنُ عروةَ، عن وهبِ بنِ كيسانَ قال: ما رأيتُ ابنَ الزبيرِ يعطِي سَلَمَه قطُّ لرغبة ولا لرهبة سلطانٍ ولا غيره.

وبهذه الإسنادات أهلُ الشام كانوا يُعَيِّرُونَ ابنَ الزبيرِ ويقولون له: يا ابنَ ذاتِ النِّطاقَين. فقالت له أسماءُ: يا بُنيَّ، إنَّهم يُعيِّرونك بالنِّطاقَين، وإنَّما كان لي نطاقٌ واحدٌ شَقَقْتُه نصفَين؛ فجعلْتُ في سُفرة رسولِ الله ﷺ أحدَهما، وأوكَيتُ قربتَه بالآخرِ لمَّا خرَج هو وأبو بكرٍ يريدان الهجرةَ إلى المدينة. فكان ابنُ الزبيرِ بعدَ ذلك إذا عيَّروه بالنِّطاقَين يقولُ: إيهًا والله:

وتلك شَكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها

واللهُ سبحانَه وتعالى أعلمُ.

وممَّن قُتل مع ابن الزبير في سنة ثلاث وسبعينَ بمكةَ من الأعيان:

عبدُ الله بنُ صَفْوانَ بنِ أُميةَ بنِ خَلَفٍ الجُمَحيُّ أبو صفوانَ المكِّيُّ، وكان أكبرَ ولدِ أبيه، أدرك حياةَ النبيِّ ﷺ وروىٰ عن عمرَ وجماعةٍ من الصحابة، وحدَّث عنه خَلْقٌ من التابعين، وكان سيِّدًا شريفًا مطاعًا حليمًا يحتملُ الأذىٰ؛ لو سبَّه عبدٌ أسودُ ما استنكَف عنه، ولم يَقصِدْه أحدٌ في شيءٍ فردَّه خائبًا، ولا سَمِع بمفازةٍ إلاَّ حفَر فيها جُبًّا أو عمِل فيها بِرْكةً، ولا عقَبةٍ إلا سَهَّلها. وقيل: إنَّ المُهَلَّبَ بنَ أبي صُفْرةَ قدم على ابنِ الزبيرِ من العراقِ فأطال الخَلْوةَ معه، فجاء ابنُ صَفْوانَ فقال: من هذا الذي شغَلك منذُ اليوم؟ قال: هذا سيِّدُ العربِ من أهلِ العراق. فقال: يَنْبغي أنْ يكونَ المُهَلَّبَ. فقال المُهَلَّبُ لابنِ الزبير: ومَن هذا الذي يَسألُ عنِّي يا أميرَ المؤمنين؟ قال: هذا سيِّدُ قريشٍ بمكَّةَ. فقال: ينبغي أن يكونَ عبدَ الله بنَ صفوانَ. وكان ابنُ صفوانَ كريمًا جدًّا.

وقال الزبيرُ بنُ بكَّار بسنده: إنَّ معاويةَ قدم مكَّةَ حاجًّا فتلقَّاه النَّاسُ، فكان عبدُ الله بنُ صَفْوانَ في جملة مَن تلَقَّاه فجعَل يُسايرُ معاويةَ، وجعَل أهلُ الشَّام يقولون: مَن هذا الذي يُسايرُ أميرَ المؤمنينَ؟ فلمَّا انتهَىٰ إلى مكةَ إذا الجبلُ أبيضُ من الغَنَم، فقال: يا أميرَ المؤمنين، هذه غَنَمٌ أجزَرْتُكها تُقسِّمُها بينَ الجند؛ فإذا هي ألفا شاةٍ، فقالوا: ما رأينا أكرَمَ من ابنِ عمِّ أميرِ المؤمنين.

ثم كان ابنُ صَفوانَ من جملة مَن صبَرَ مع ابنِ الزبيرِ حين حصَره الحجَّاجُ، فقال له ابنُ الزبيرِ: إنِّي قد أقلتُك بيعتي، فاذهَبْ حيثُ شئتَ. فقال: إنِّي إنما قاتَلْتُ عن ديني. ثم صبَّر نفسَه حتىٰ قُتِل، وهو متعلِّقٌ بأستارِ الكعبةِ في هذه السنة، رحمه اللهُ وأكرَم مثواه.

عبدُ الله بنُ مُطيعِ بنِ الأسودِ بنِ حارثةَ القُرَشيُّ العَدَويُّ المَدَنيُّ، ولد في حياةِ رسولِ الله ﷺ

وحنّكه، ودعا له بالبركةِ، وروىٰ عن أبيه عن رسولِ الله ﷺ أنَّه قال: «**لا يُقتلُ قُرَشيٌّ بعدَ اليومِ صبراً إلى يومِ القيامة**»(١).

وعنه ابناه؛ إبراهيمُ ومحمدٌ، والشّعبيُّ، وعيسىٰ بنُ طلحةَ بنِ عبيدِ الله، ومحمدُ بنُ أبي موسىٰ.

قال الزبيرُ بنُ بكّار: كان ابنُ مُطيعٍ مِن كبارِ رجالِ قريشٍ جَلَدًا وشجاعةً، وأخبرني عمِّي مصعبٌ أنه كان علىٰ قريشٍ يومَ الحرَّة، وقُتِل مع ابنِ الزبيرِ بمكّةَ، وهو الذي يقولُ:

أنا الذي فَرَرتُ يومَ الحَرَّهْ ... والشيخُ لا يفرُّ غيرَ مَرَّهْ

لأجْبُرَنَّ كَرَّةً بفَرَّهْ

رحمه اللهُ.

عَوْفُ بنُ مالكِ بنِ أبي عَوفٍ الأشْجعيُّ الغَطَفانيُّ، صحابيٌّ جليلٌ، شهِد مُؤْتةَ مع خالدِ بنِ الوليدِ والأمراءِ قبلَه، وشهِد الفتحَ، وكانت معه رايةُ قومِه يومئذٍ، وشهِد فتحَ الشامِ، وروىٰ عن رسولِ الله ﷺ أحاديثَ، وروىٰ عنه جماعةٌ مِن التابعين، وأبو هريرةَ، وقد مات قبلَه، وقال الواقديُّ، وخليفةُ بنُ خيّاطٍ، وأبو عبيدٍ، وغيرُ واحدٍ: تُوفي سنةَ ثلاثٍ وسبعينَ بالشّامِ.

أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ الصِّدّيقِ والدةُ عبدِ الله بنِ الزبيرِ، يقالُ لها: ذاتُ النِّطاقين. وإنما سُمِّيتْ بذلك عامَ الهجرةِ حينَ شقَّتْ نطاقَها فربطَتْ به سُفرةَ النبيِّ ﷺ وأبي بكرٍ حينَ خرَجا إلى غارِ ثورٍ للهجرةِ. وأمُّها: قَيلةُ، وقيلَ: قُتَيْلَةُ بنتُ عبدِ العُزَّىٰ مِن بني عامرِ بنِ لُؤيٍّ.

أسلَمتْ أسماءُ قديمًا، وهم بمكّةَ في أوّلِ الإسلامِ، وهاجَرتْ هي وزوجُها الزبيرُ، وهي حاملٌ مُتِمٌّ بولدِها عبدِ الله فوضَعتْه بقُباءٍ أوّلَ مَقدَمِهم المدينةَ، ثم ولَدتْ للزبيرِ بعدَ ذلك عُروةَ، والمُنذرَ، ثم لمّا كبِرتْ طلَّقها الزبيرُ؛ وقيل: بل قال له عبدُ الله ابنُه: إنَّ مِثْلي لا تُوطأُ أُمُّه. فطلَّقها الزبيرُ. وقيل: بل اختصمَت هي والزبيرُ فجاء عبدُ اللهِ ليُصلحَ بينَهما، فقال الزبيرُ: إنْ دخلَتَ فهي طالقٌ. فدخَلتَ فبانَت. فاللهُ أعلمُ.

وقد عُمِّرتْ أسماءُ دهرًا صالحًا وأضَرَّتْ في آخرِ عمرِها. وقيل: بل كانت صحيحةَ البصرِ لم يَسقُطْ لها سنٌّ. وأدركَتْ قَتْلَ ولدِها في هذه السنة، كما ذكَرنا، ثم ماتَتْ بعدَه بخمسةِ أيامٍ. وقيل: بعشرةٍ. وقيل: بعشرينَ. وقيل: ببضعةٍ وعشرينَ يومًا. قيل: عاشَتْ بعدَه مائةَ يومٍ. وهو الأشهرُ. وبلَغت مِن العمرِ مائةَ سنةٍ، ولم يسقُطْ لها سنٌّ، ولم يُنكَرْ لها عقلٌ، رحمها اللهُ، ورضي عنها. وقد روَت عن النبيِّ عدّةَ أحاديثَ طيبةٍ مباركةٍ، رضي اللهُ عنها، ورحِمها.

قال ابنُ جرير: وفي هذه السنةِ - يعني سنةَ ثلاثٍ وسبعينَ - عزَل عبدُ الملكِ خالدَ بنَ عبدِ الله عن البصرةِ، وأضافَها إلى أخيه بشرِ بنِ مروانَ مع الكوفةِ، فارتحَل إليها بشرٌ واستَخلَف علىٰ الكوفةِ

---

(١) تقدم.

عمرو بن حُريث.

وفيها غزا محمدُ بنُ مروانَ الصَّائفَةَ فهزم الرومَ.

وقيل: إنه كان في هذه السَّنة وَقْعةُ عثمانَ بنِ الوليدِ بالرومِ من ناحيةِ أرمينيَّةَ، وهو في أربعةِ آلافٍ، والرومُ في ستين ألفًا فهزمهم، وأكثرَ القتلَ فيهم.

وأقام للنّاسِ الحجَّ في هذه السنة الحجَّاجُ بنُ يوسفَ الثقفيُّ أيضًا، وهو على مكَّةَ واليمنِ واليمامة. وعلى الكوفةِ والبصرةِ بشرُ بنُ مروانَ، في قولِ الواقديِّ. وفي قولِ غيره؛ على الكوفةِ بشرُ بنُ مروانَ، وعلى البصرةِ خالدُ بنُ عبد الله. وعلى قضاءِ الكوفةِ شُرَيحُ بنُ الحارث. وعلى قضاءِ البصرةِ هشامُ بنُ هُبَيْرةَ. وعلى إمرةِ خراسانَ بُكَيرُ بنُ وشاحٍ، يعني الذي كان نائبًا لعبدِ الله بنِ خازمٍ، واللهُ أعلمُ.

وممَّن تُوفي فيها غيرُ مَن تقدَّمَ ذكرُه مع ابن الزبير:

عبدُ الله بنُ سعد بن خَيْثمةَ الأنصاريُّ، له صُحبةٌ، وشهد اليرموكَ، وكان كثيرَ العبادةِ والغَزْوِ.

عبدُ الله بنُ أبي حَدْرد الأسلميُّ، أبو محمد، له صحبةٌ وروايةٌ، تُوفِّي بالمدينةِ.

مالكُ بنُ مسمَع بن غسَّانَ البصريُّ، كان شديدَ الاجتهادِ في العبادةِ والزَّهادةِ.

ثابتُ بنُ الضَّحَّاك الأنصاريُّ، له صُحبةٌ وروايةٌ، تُوفِّي بالمدينة، يقالُ له: أبو زيدٍ الأشهليُّ. وهو من أهلِ البيعةِ تحتَ الشَّجرة. قال يحيى بنُ أبي كثير: أخبرَني أبو قِلابةَ، أنَّ ثابتَ بنَ الضَّحَّاك أخبرَه أنَّه بايعَ رسولَ الله ﷺ تحتَ الشَّجرة، وأنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**مَن قذَفَ مؤمنًا بكفرٍ فهو كقتله**»[1].

زينبُ بنتُ أبي سلمةَ المخزوميةُ، ربيبةُ النبيِّ ﷺ، وَلَدَتْها أمُّها بالحبشةِ، ولها روايةٌ وصُحبةٌ.

توبةُ بنُ الحُمَيِّر، وهو الذي يُقالُ له: مجنونُ ليلَى. كان توبةُ يَشُنُّ الغاراتِ على بني الحارثِ بن كعبٍ، فرأَىٰ ليلى فهواها، وتَهتَّك فيها، وهام بها محبَّةً وعشْقًا، وقال فيها الأشعار الكثيرةَ القويَّةَ الرائقةَ التي لم يُسبَق إليها ولا يُلْحَقُ فيها؛ لكثرةِ ما فيها من المعاني والحِكم، وقد قيل له مرَّةً: هل كان بينَك وبين ليلى ريبةٌ قطُّ؟ فقال: بَرئتُ من شفاعةِ محمدٍ ﷺ إنْ كنتُ قطُّ حلَلْتُ سَراويلي على محرَّم. وقد دخلَتْ ليلى على عبدِ الملكِ بنِ مروانَ تَشكُو ظُلامةً فقال لها: ماذا رأىٰ منك توبةُ حتى عشقك هذا العشْقَ كلَّه؟ فقالت: والله يا أميرَ المؤمنينَ لم يكُنْ بيني وبينَه قطُّ ريبةٌ ولا خَنا، وإنما العربُ تعشَقُ وتعفُّ، وتقولُ الأشعارَ في مَن تهوَىٰ وتُحبُّ مع العفَّةِ والصيانةِ لأنفسِها عن الدَّناءات. فأزال ظُلامتَها وأجازها. تُوفي توبةُ في هذه السنةِ، وقيل: إنَّ ليلى جاءتْ إلى قَبْرِه فبكَتْ عليه حتى ماتَتْ. واللهُ أعلمُ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤١٧١) وانظر رقم (٦٠٤٧).

ثم دخلت سنة أربع وسبعين

فيها عزل عبدُ الملك طارقَ بنَ عمرو عن إمرة المدينة وأضافها إلى الحجّاج بن يوسفَ الثقفيِّ، فقدمها الحجّاج فأقام بها شهراً، ثم خرج معتمراً، ثم عاد إلى المدينة في صَفَر فأقام بها ثلاثةَ أشهر، وبنَى في بني سَلِمة مسجداً، وهو الذي يُنسَبُ إليه اليومَ. ويقالُ: إنَّ الحجّاجَ في هذه السَّنة وهذه المدة ختَم جابراً وسهلَ بنَ سعدٍ، وقرَّعهما؛ لِمَ لا نَصَرا عثمانَ بنَ عفانَ، وخاطبهما خطاباً غليظاً ـ قبَّحه اللهُ وأخزاه ـ وقد استقضَىٰ أبا إدريسَ الخَوْلانيَّ ـ أظُنُّه ـ علىٰ اليمنِ. واللهُ أعلمُ.

وقال الواقدي: إنَّ الحجَّاجَ لما قدم المدينةَ صعد منبَرَ رسولِ الله ﷺ، فخطَب الناسَ، وقال: يا أهلَ خَبيثةَ ـ يعني طَيْبَةَ ـ أنتم شرُّ أُمَّةٍ وأخَسُّ، ولولا أنَّ أميرَ المؤمنين أوصاني بكم لجعلتُها مثلَ جوفِ حمارٍ، يا أهلَ خَبيثةَ، تمَنَّوْن، هل تَعوَّذون إلاَّ بأعوادٍ يابسةٍ ـ يَعْني ـ المنبرَ ـ ورُمَّةٍ باليةٍ، وأشار إلى قبرِ النبيِّ ﷺ، ثم نزَل وأرسَل إلى سهلِ بنِ سعدٍ الساعديِّ، فقال: ما منَعك أن تنصُرَ أميرَ المؤمنين عثمانَ؟ فقال: قد فعَلتُ. فقال: كذَبْتَ. ثم أمَر به فختِم في عُنُقِه برَصاصٍ، وكذلك فعَل بجابرِ بنِ عبد الله؛ ختَمه في يدِه، وأنسِ بنِ مالكٍ في عنُقِه، وكان قصدُه يُذِلُّهم بذلك، فقال أنسٌ: إنَّ أهلَ الذِّمَّةِ لا يجوزُ أن يُفعَلَ بهم هذا.

قال ابنُ جرير: وفيها نقَض الحجَّاجُ بنيانَ الكعبةِ الذي كان ابنُ الزبيرِ بناه، وأعادها على بنيانها الأول.

قلتُ: الحجَّاجُ لم ينقُضْ بنيانَ الكعبةِ جميعَه، بل إنَّما هدَم الحائطَ الشاميَّ حتى أخرَج الحِجْرَ من البيت ثم سدَّه وأدخَل في جوفِ الكعبةِ ما فضَل من الأحجارِ، وبَقِيت الحيطانُ الثلاثةُ بحالها؛ ولهذا بقِي البابانِ الشرقيُّ والغربيُّ وهما ملصَقان بالأرضِ، كما هو المشاهَدُ إلى يومنا هذا، ولكنْ سَدَّ الغربيَّ بالكُلِّيةِ وردَم أسفلَ الشرقيِّ حتى جعَله مرتفعاً كما كان في الجاهلية، ولم يبلُغِ الحجَّاجَ ولا عبدَ الملك ما كان بلَغ ابنَ الزبيرِ من العلمِ النبويِّ الذي كانت أخبرَتْه به خالتُه أُمُّ المؤمنين عائشةُ بنتُ الصدِّيقِ، رضي اللهُ عنها، عن رسول الله ﷺ ـ كما تَقدَّم ذلك ـ من قوله: **«لولا أنَّ قومَك حديثٌ عهدُهم بكفرٍ** ـ وفي رواية: بجاهليَّةٍ ـ **لنَقَضتُ الكعبةَ وأدخَلتُ فيها الحِجْرَ، وجَعلتُ لها باباً شرقيّاً وباباً غربيّاً، ولألصَقْتُهما بالأرضِ، فإنَّ قومَك قصرَتْ بهم النفقةُ فلم يُدْخلوا فيها الحِجْرَ ولم يُتَمِّمُوها على قواعد إبراهيمَ، ورفَعوا بابَها ليُدخلوا مَن شاءُوا ويمنَعوا مَن شاءُوا»**[1]. فلمّا تمكَّن ابنُ الزبيرِ بناها كذلك. ولمّا بلَغ عبدَ الملك هذا الحديثُ بعدَ ذلك قال: وددْنا أنّا تركناه وما تَوَلَّى من ذلك.

وفي هذه السنة ولِي المُهَلَّبُ ابنُ أبي صُفْرة حربَ الأزارقة عن أمر عبد الملك لأخيه بشر بن مروان أن يجهز المهلَّب إلى الخوارج الأزارقة في جيوشٍ من أهلِ البصرة والكوفة، ووجَد بشرٌ على المهلَّب في نفسه، حيثُ عيَّنه عبدُ الملكِ في كتابِه، فلم يجدْ بُـدّاً من طاعته في تأميره على الناسِ في هذه الغزوةِ، وما كان له من الأمرِ شيءٌ، غيرَ أنَّه أوصَى أميرَ الكوفيِّين عبدَ الرحمنِ بنَ مِخْنَفٍ أن يَستبِدَّ

(١) صح هذا بنحو من الفاظه انظر صحيح مسلم (١٣٣٣) وما بعده وانظر صحيح البخاري (١٥٨٥).

بالأمرِ دونَه، وأن لا يَقبَلَ له رأيًا ولا مشورةً، فسار المهلَّبُ بأهلِ البصرةِ وأمراءِ الأرباعِ معه على منازلِهم حتى نزَل برامَهُرْمُزَ، فلم يَلبَثْ عليها إلا عَشْرًا حتى جاءَ نَعْيُ بشرِ بنِ مَرْوانَ، وأنَّه مات بالبصرةِ، واستَخلَف عليها خالدَ بنَ عبدِ الله، فارفَضَّ بعضُ الجيشِ ورجَعوا إلى البصرةِ، فبعَثوا في آثارِهم مَن يرُدُّهم، وكتَب خالدُ بنُ عبدِ الله إلى الفارِّين يتوعَّدُهم إن لم يرجِعوا إلى أميرِهم، ويتوعَّدُهم بسَطْوةِ عبدِ الملك، فعدَلوا يستأذِنون عمرَو بنَ حُريثٍ في المصيرِ إلى الكوفةِ، فكتَب إليهم: إنَّكم ترَكتُم أميرَكم وأقبلتُم عاصِين مخالِفين، فليس لكم إذنٌ ولا إمامٌ ولا أمانٌ. فلمَّا جاءهم ذلك أقبَلوا إلى رحالِهم فركِبوها ثم ساروا إلى بعضِ البلادِ، فلم يزالوا مختفين بها حتى قدِم الحجَّاجُ واليًا على العراقِ مكانَ بشرِ بنِ مَرْوانَ، كما سيأتي بيانُه قريبًا.

وفي هذه السنةِ عزَل عبدُ الملك بُكَيرَ بنَ وِشاحٍ التميميَّ عن إمرةِ خُراسانَ وولَّاها أُمَيَّةَ بنَ عبدِ الله ابنِ خالدِ بنِ أسيدٍ القرشيَّ؛ ليجتَمعَ عليه الناسُ، فإنَّه قد كادت الفتنةُ تتفاقَمُ بخُراسانَ بعدَ عبدِ الله بنِ خازمٍ، فلمَّا قدِم أميةُ بنُ عبدِ الله خُراسانَ عرَض على بكيرِ بنِ وِشاحٍ أن يكونَ على شُرْطتِه، فأبَى وطلَب منه أن يولِّيَه طُخارِستانَ، فخوَّفوه منه أن يخلَعَه هنالك، فترَكه مقيمًا عندَه.

قال ابنُ جرير: وحجَّ بالناسِ فيها الحجَّاجُ وهو على إمرةِ المدينةِ ومكةَ واليمنِ واليمامةِ. قال ابنُ جرير: وقد قيل: إنَّ عبدَ الملك اعتمَر في هذه السنةِ، ولا نعلمُ صحةَ ذلك.

ذكرُ مَن توفي في هذه السنةِ من الأعيان

رافعُ بنُ خَديجِ بنِ رافعٍ الأنصاريُّ، صحابيٌّ جليلٌ، شهِد أُحُدًا وما بعدَها، وشهِد صفِّينَ مع عليٍّ، وكان يَتعانَى المزارعَ والفلاحةَ. توفِّي وهو ابنُ ستٍّ وثمانين سنةً، وأسنَد ثمانيةً وسبعين حديثًا، وأحاديثُه جيدةٌ. وقد أصابه يومَ أُحدٍ سهمٌ في تَرقُوتِه، فخيَّره رسولُ الله ﷺ بينَ أن ينزِعَه منه وبينَ أن يترُكَ فيه القُطْبَةَ ويشهدَ له يومَ القيامةِ، فاختار هذه، وانتقَض عليه في هذه السنةِ فمات منه، رضي اللهُ عنه.

أبو سعيدٍ الخُدْريُّ سعدُ بنُ مالكِ بنِ سِنانٍ الأنصاريُّ الخزرجيُّ، صحابيٌّ جليلٌ من فقهاءِ الصحابةِ، استُصْغِر يومَ أُحدٍ، ثم كان أولَ مشاهدِه الخندقُ، وشهِد مع رسولِ الله ﷺ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ غزوةً، وروَى عنه أحاديثَ كثيرةً، وعن جماعةٍ من الصحابةِ، وحدَّث عنه خلقٌ من التابعين وجماعةٌ من الصحابةِ. وكان من نُجباءِ الصحابةِ وفُضلائِهم وعلمائِهم، رضي اللهُ عنه.

قال الواقديُّ وغيرُه: مات سنةَ أربعٍ وسبعين. وقيل: قبلَها بعشرِ سنين. فاللهُ أعلمُ.

قال الطبرانيُّ: حدَّثنا المقدامُ بنُ داودَ، ثنا خالدُ بنُ نزارٍ، ثنا هشامُ بنُ سعدٍ، عن زيدِ بنِ أسلمَ، عن عطاءِ بنِ يسارٍ، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، قال: قلتُ: يا رسولَ الله، أيُّ الناسِ أشدُّ بلاءً؟ فقال: «**النبيُّون**». قلتُ: ثم أيٌّ؟ قال: «**ثم الصالحون، إن كان أحدُهم ليُبتَلَى بالفقرِ حتى ما يجدُ إلا السُّترةَ**ـ

وفي رواية: «إلاَّ العَباءةَ - أو نحوَها، وإن أحدَهم ليُبتلَى فيَقْمَلُ حتى يَنبذَ القَمْلَ، وكان أحدُهم بالبلاءِ أشدَّ فرحًا منه بالرخاء»(١).

وقال قتيبةُ بنُ سعيد: ثنا الليثُ بنُ سعدٍ، عن ابنِ عَجْلانَ، عن سعيدٍ المَقْبُريِّ، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ، أنَّ أهلَه شكَوْا إليه الحاجةَ فخرَجَ إلى رسولِ الله ﷺ يسألُ لهم شيئًا، فوافَقَه على المنبرِ وهو يقولُ: «أيُّها الناسُ، قد آنَ لكم أن تستغنُوا عن المسألة، فإنَّه مَن يَستعفَّ يُعفَّه اللهُ، ومَن يَستغنِ يُغنه اللهُ، والذي نفسُ محمدٍ بيده، ما رزَقَ اللهُ عبدًا من رزقٍ أوسَعَ له من الصبرِ، ولئن أبيتُم إلاَّ أن تسألوني لأعطينَّكم ما وجَدتُ». وقد رواه الطبرانيُّ، عن عطاءِ بنِ يسارٍ، عن أبي سعيدٍ، نحوَه(٢).

عبدُ الله بنُ عمرَ بنِ الخطاب، القرشيُّ العدَويُّ، أبو عبدِ الرحمن المكيُّ ثم المدنيُّ

أسلَم قديمًا مع أبيه ولم يبلُغِ الحُلُمَ، وهاجَر وعمرُه عَشْرُ سنين، وقد استُصغِر يومَ أُحدٍ وكان ابنَ أربعَ عشرةَ، فلمّا كان يومُ الخندقِ أجازه وهو ابنُ خمسَ عَشْرةَ سنةً فشهِدها وما بعدَها. وهو شقيقُ حفصةَ أمِّ المؤمنين، أُمُّهما زينبُ بنتُ مظعونٍ أختُ عثمانَ بنِ مظعونٍ.

وكان عبدُ الله بنُ عمرَ رَبْعةً من الرجال آدمَ، له جُمَّةٌ تضرِبُ إلى مَنكِبَيْه، جَسيمًا يَخضِبُ بالصُّفْرة ويُحفِي شاربَه، وكان يتوضَّأُ لكلِّ صلاةٍ ويُدخِلُ الماءَ في أُصولِ عينَيْه، وقد أراده عثمانُ على القضاءِ فأبَى ذلك، وكذلك أبوه. وشهِد اليرموكَ والقادسيةَ وجَلُولاءَ وما بينَهما من وقائعِ الفرسِ، وشهِد فتحَ مصرَ، واختَطَّ بها دارًا، وقدِم البصرةَ، وشهِد غزوَ فارسَ وورَد المدائنَ مرارًا، وكان عمرُه يومَ مات النبيُّ ﷺ ثنتين وعشرين سنةً، وكان إذا أعجَبَه شيءٌ من ماله تقرَّب به إلى الله عزَّ وجلَّ، وكان عبيدُه قد عرَفوا ذلك منه، فربَّما لزِم أحدُهم المسجدَ فإذا رآه ابنُ عمرَ على تلك الحالِ أعتقَه، فيقالُ له: إنَّهم يخدعُونك. فيقولُ: مَن خدَعنا بالله انخدَعْنا له. وكان له جاريةٌ يحبُّها كثيرًا فأعتَقها وزوَّجها لمولاه نافعٍ، وقال: إنَّ اللهَ تعالى يقولُ: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]. وكان له نَجيبٌ اشتراه بمالٍ فأعجَبه لمّا ركِبه، فقال: يا نافعُ أدخِلْه في إبلِ الصدقة. وأعطاه ابنُ جعفرٍ في نافعٍ عشرةَ آلافِ دينارٍ، فقيل له: ما تنتظِرُ ببَيعِه؟ فقال: ما هو خيرٌ من ذلك، هو حُرٌّ لوجهِ الله. واشترَى مرةً غلامًا بأربعين ألفًا وأعتقَه، فقال الغلامُ: يا مولاي قد أعتقتَني فهَبْ لي شيئًا أعيشُ به. فأعطاه أربعين ألفًا. واشترَى مرةً خمسةَ عبيدٍ فقام يصلِّي فقاموا خلفَه يصلُّون فقال: لمن صلَّيتُم هذه

---

(١) في إسناده ضعف: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٩٠٤٣) بهذا الإسناد وشيخ الطبراني المقدام بن داود متكلم فيه ضعفه الدارقطني وغيره.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٧٠) وشيخ أبي نعيم إبراهيم بن عبد الله بن أبي العزائم لا أعرفه. وله طريق آخر في نفس المصدر من طريق الطبراني ثنا المقدام بن داود وفيه ضعف وتقدمت ترجمته.

الصلاةَ؟ فقالوا: لله! فقال: فأنتم أحرارٌ لمن صلَّيتُم له. فأعتقَهم. والمقصودُ أنَّه ما مات حتىٰ أعتَقَ ألفَ رقبةٍ، وربَّما تصدَّقَ في المجلسِ الواحدِ بثلاثين ألفًا، وكانت تمضي عليه الأيامُ الكثيرةُ والشهرُ لا يذوقَ فيه لحمًا، وما كان يأكُلُ طعامًا إلاَّ وعلىٰ مائدته يتيمٌ.

وبعَث إليه معاويةُ بمائة ألف لمَّا أراد أن يبايعَ ليزيدَ، فما حال عليه الحولُ وعندَه منها شيءٌ، وكان يقولُ: إنِّي لا أسألُ أحدًا شيئًا، فما رزقَني اللهُ فلا أرُدُّه. وكان في مدةِ الفتنةِ لا يأتي أميرٌ إلاَّ صلَّىٰ خلفَه، وأدَّىٰ إليه زكاةَ ماله، وكان أعلمَ الناسِ بمناسكِ الحجِّ، وكان يتتبَّعُ آثارَ رسولِ الله ﷺ كلَّ مكانٍ صلَّىٰ فيه أو قعدَ فيه، حتىٰ إنَّ النبيَّ ﷺ نزَل تحتَ شجرةٍ، فكان ابنُ عمرَ يتعاهَدُها ويَصُبُّ في أصلِها الماءَ حتىٰ لا تيبَسَ. وكان إذا فاتَته العشاءُ في جماعةٍ أحيا تلك الليلةَ، وكان يقومُ أكثرَ الليلِ، وقيلَ: إنَّه مات وهو في الفَضْلِ مثلَ أبيه، وكان يومَ مات خيرَ مَن بقِي. ومكَث ستِّين سنةً يُفتِي الناسَ مِن سائرِ البلادِ.

وروَىٰ عن النبيِّ ﷺ أحاديثَ كثيرةً، وروَىٰ عن الصدِّيقِ وعن عمرَ وعثمانَ وسعدٍ وابنِ مسعودٍ وحفصةَ وعائشةَ أمَّي المؤمنين وغيرِهم. وعنه خلقٌ من التابعين؛ منهم بنوه حمزةُ وبلالٌ وزيدٌ وسالمٌ وعبدُ الله وعبيدُ الله وعمرُ - إن كان محفوظًا - وأسلَمُ - مولىٰ أبيه - وأنسُ بنُ سيرينَ والحسنُ وسعيدُ بنُ جُبيرٍ وسَعيدُ بنُ المَسيَّبِ وطاوسٌ وعروةُ وعطاءٌ وعكرمةُ ومجاهدٌ وابنُ سيرينَ والزهريُّ ومولاه نافعٌ.

وثبَت في «الصحيح» عن حفصةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ عبدَ الله رجلٌ صالحٌ لو كان يقومُ الليلَ**». فكان بعدُ يقومُ الليلَ[1]. وقال ابنُ مسعودٍ: إنَّ من أملَكِ شبابِ قريشٍ لنفسه عن الدنيا ابنَ عمرَ. وقال جابرٌ: ما منَّا أحدٌ أدرَك الدنيا إلاَّ مالت به ومال بها، إلاَّ ابنَ عمرَ، وما أصاب أحدٌ من الدنيا شيئًا إلاَّ نقَص من درجاته عندَ الله وإن كان عليه كريمًا. وقال سعيدُ بنُ المسيَّبِ: مات ابنُ عمرَ يومَ مات وما من الدنيا أحدٌ أحَبَّ أن ألقَىٰ اللهَ بمثلِ عَمَلِه منه. وقال الزُّهْريُّ: لا يُعدَلُ برأيِه، فإنَّه أقام بعدَ رسولِ الله ﷺ ستِّين سنةً، فلم يَخْفَ عليه شيءٌ من أمرِه ولا من أمرِ أصحابه، رضي اللهُ عنهم. وقال مالكٌ: بلَغَ ابنُ عمرَ ستًّا وثمانين سنةً، وأفتَىٰ في الإسلامِ ستين سنةً، يَقدَمُ عليه وُفودُ الناسِ من أقطارِ الأرضِ. وقال الواقديُّ وجماعةٌ: توفِّي ابنُ عمرَ سنةَ أربعٍ وسبعين. وقال الزبيرُ بنُ بكَّارٍ وآخَرون: توفِّي سنةَ ثلاثٍ وسبعين. والأوَّلُ أثبَتُ. واللهُ تعالىٰ أعلمُ.

وقال ابنُ سعد: لمَّا قُتِل عثمانُ واستُخلف عليٌّ، أتاه ابنُ عمرَ، فقال له عليٌّ: إنَّك محبوبٌ إلىٰ الناسِ، فسِرْ إلىٰ الشامِ، فقد ولَّيتُكَها. فقال: أُذكِّرُك اللهَ وقرابَتي وصُحبَتي لرسولِ الله والرحمَ إلا ما ولَّيتَ غيري وأعفيْتَني، فأبىٰ عليه، فاستعانَ بحفصةَ أختِه فكلَّمته، ثم سار من ليلتِه إلىٰ مكةَ هاربًا

[1] أخرجه البخاري (٧٠٢٩).

منه. وقيل: إنَّ مَرْوانَ قال لابنِ عمرَ: ألا تخرُجُ إلى الشامِ فيُبايعوكَ؟ قال: فكيف أصنعُ بأهلِ العراقِ؟ قال: تقاتِلُهم بأهلِ الشامِ. فقال: والله ما يسُرُّني أنَّ لي مُلكَ الأرضِ وأنَّ الناسَ كلَّهم بايَعوني وقد قُتِل منهم رجلٌ واحدٌ، وما أحبُّ أنَّها أتَتْني ورجلٌ يقولُ: لا وآخرُ يقولُ: نعم. وقيل: إنَّه دخَل عليه الحجاجُ وهو مريضٌ فغمَّض عينَيه فكلَّمه فلم يُجِبْهُ.

تُوفِّيَ بمكةَ بعدَ مُنْصرَفِ الناسِ من الحجِّ في آخرِ السنةِ وعمْرُه أربعٌ وثمانونَ سنةً. ودُفِن بالمُحصَّبِ وهو آخرُ مَن مات من الصَّحابةِ بمكةَ.

وكان له من الولدِ؛ أبو بكرٍ وأبو عبيدةَ وواقدٌ وعبدُ الله وعمرُ وحفصةُ وسوْدةُ، أمُّهم صفيةُ بنتُ أبي عبيدٍ أختُ المختارِ، وعبدُ الرحمنِ وسالمٌ وعبيدُ الله وحمزةُ، وأمُّهم أمُّ ولدٍ، وزيدٌ وعائشةُ، لأمِّ ولدٍ. وأسنَد ألفين وستَّمائة وثلاثين حديثًا.

عبيدُ بنُ عُمَير بن قتادةَ بن سعد بن عامرِ بنِ جُنْدَعِ بن ليث، الليثيُّ ثم الجندَعيُّ، أبو عاصم المكيُّ، قاصُّ أهلِ مكةَ.

قال مسلمُ بنُ الحجَّاجِ: ولِد في حياةِ النبيِّ ﷺ. وقال غيرُه: ورآه أيضًا. روَىٰ عن أبيه - وله صحبةٌ - وعن عمر وعليٍّ وأبي هريرةَ وابنِ عباسٍ وابنِ عمرَ وعبدِ الله بن عمرو وأمِّ سلَمةَ، وغيرِهم.

وعنه جماعةٌ من التابعين وغيرهم، ووثَّقه ابنُ معينٍ وأبو زُرعةَ وغيرُ واحد.

وكان ابنُ عمرَ يجلِسُ في حلْقتِه ويبكي، وكان يُعجِبُه تذكيرُه. وكان بليغًا، وكان يبكي حتى يَبُلَّ الحَصَىٰ بدُموعِه.

قال مهديُّ بنُ ميمون، عن غَيْلانَ بن جرير، قال: كان عبيدُ بنُ عمير إذا آخَىٰ أحدًا في الله استقبَل به القِبلةَ فقال: اللَّهمَّ اجعَلْنا سعداءَ بما جاء به نبيُّك، واجعَلْ محمدًا شهيدًا علينا بالإيمانِ، وقد سبقَتْ لنا منك الحسنَىٰ، غيرَ متطاولٍ علينا الأمدُ، ولا قاسيةٍ قلوبُنا ولا قائلين ما ليس لنا بحقٍّ، ولا سائلين ما ليس لنا به علمٌ.

وحكَىٰ البخاريُّ، عن ابنِ جُريجٍ أنَّ عبيدَ بنَ عميرٍ مات قبلَ ابنِ عمرَ رضي اللهُ عنه.

أبو جُحَيفةَ وهبُ بنُ عبد الله السُّوائيُّ، صحابيٌّ رأَىٰ النبيَّ ﷺ، وكان دونَ البلوغِ عندَ وفاةِ النبيِّ ﷺ، لكنْ روَىٰ عنه عدةَ أحاديثَ، وعن عليٍّ والبراءِ بن عازب. وعنه جماعةٌ من التابعين؛ منهم إسماعيلُ بنُ أبي خالدٍ، والحَكَمُ وسلَمةُ بنُ كُهَيْلٍ والشعبيُّ وأبو إسحاقَ السَّبيعيُّ. وكان قد نزَل الكوفةَ وابتنَىٰ بها دارًا. وتُوفِّي في هذه السنة، وقيل: في سنةِ أربعٍ وتسعين. فاللهُ أعلمُ. وكان صاحبَ شُرْطةِ عليٍّ، وكان عليٌّ إذا خطَب يقومُ أبو جُحيفةَ تحت منبرِه.

سلَمةُ بنُ الأكوعِ بنِ عمرِو بنِ سنانٍ الأنصاريُّ، وهو أحدُ مَن بايَع تحتَ الشجرةِ، وكان من

فرسانِ الصحابة وعلمائهم، كان يُفتي بالمدينة، وله مشاهدُ معروفةٌ في حياةِ النبيِّ ﷺ وبعدَه، توفِّي بالمدينة وقد جاوَزَ السبعين سنةً.

مالكُ بنُ أبي عامرٍ الأصبَحيُّ المدنيُّ، وهو جَدُّ الإمامِ مالكِ بنِ أنسٍ، روىٰ عن جماعةٍ من الصحابةِ وغيرِهم، وكانَ فاضلاً عالمًا، توفِّي بالمدينة.

أبو عبدِ الرحمنِ السُّلَميُّ، مقرئُ أهلِ الكوفة بلا مدافعة، واسمُه عبدُ الله بنُ حبيبٍ، قرأ القرآنَ على عثمانَ بنِ عفانَ وابنِ مسعودٍ، وسمع من جماعةٍ من الصحابةِ وغيرِهم، وأقرأَ الناسَ القرآنَ بالكوفة من خلافةِ عثمانَ إلى إمْرةِ الحجّاجِ، قرأ عليه عاصمُ بنُ أبي النَّجودِ وخلقٌ غيرُه، توفِّي بالكوفة.

أبو مُعْرِض الأسديُّ، اسمُه مغيرةُ بنُ عبد الله الكوفيُّ، ولد في حياة النبيِّ ﷺ، ووفَد على عبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ وامتدَحه، وله شعرٌ جيِّدٌ، ويُعرَفُ بالأُقَيْشِرِ، وكان أحمرَ الوجهِ كثيرَ الشعْرِ، توفِّي بالكوفة في هذه السَّنة، وقد قارَب الثمانين سنةً.

بِشرُ بنُ مروانَ الأُمويُّ، أخو عبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ، ولِي إمْرةَ العراقَيْن لأخيه عبدِ الملك، وله دارٌ بدمشقَ عندَ عَقَبةِ الكتَّان، وكان سَمْحًا جَوادًا، وإليه يُنسبُ دَيْرُ مَرْوانَ عندَ حجيرا، وهو الذي قَتَل خالدَ بنَ حُصينٍ الكلابيَّ يومَ مَرجِ راهطٍ، وكان لا تُغلَقُ دونَه الأبوابُ، ويقولُ: إنَّما تَحتجبُ النِّساءُ. وكان طليقَ الوجه، وكان يُجيزُ على الشِّعرِ بأُلوفٍ، وقد امتدَحه الفرزدقُ والأخطلُ. والجَهميَّةُ تستدلُّ على الاستواءِ على العرشِ بأنَّه الاستيلاءُ ببيتِ الأخطلِ، فيما مدَح به بشرَ بنَ مَرْوانَ، وهو قولُه:

قد استوىٰ بشرٌ على العراقِ ... من غيرِ سيفٍ ودمٍ مُهراقِ

وليس فيه دليلٌ، فإنَّ هذا استدلالٌ باطلٌ من وُجوهٍ كثيرةٍ، وقد كان الأخطلُ نَصرانيًا.

وكان سببَ موتِ بشرٍ أنَّه وقَعت القُرحةُ في يَمينه، فقيلَ له: نقطَعُها من المَفصِل. فجزع، فما أمسى حتى خالطَت الكتفَ، ثم أصبَح وقد خالَطت الجوفَ، ثم مات، ولمَّا احتُضر جعَل يبكي ويقولُ: والله لَوددتُ أنِّي كنتُ عبدًا أرعَى الغنمَ في الباديةِ لبعضِ الأعرابِ ولم آلِ ما وليتُ. فذُكِر قولُه لأبي حازمٍ -أو لسعيدِ بنِ المسيَّبِ- فقال: الحمدُ لله الذي جعَلَهم عندَ الموتِ يفرُّون إلينا ولم يجعَلْنا نفرُّ إليهم، إنّا لنَرىٰ فيهم عِبَرًا. وقال الحسنُ: دخَلتُ عليه فإذا هو يتمَلْمَلُ على سريرِه، ثم نزَل عنه إلى صَحْنِ الدارِ، والأطِبّاءُ حولَه.

مات بالبصرةِ في هذه السَّنةِ وهو أوَّلُ أميرٍ مات بها. ولمَّا بلَغ عبدَ الملكِ موتُه حزِن عليه وأمَر الشعراءَ أن يَرثُوه. واللهُ سبحانَه وتعالى أعلمُ.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين

ففيها غزا محمدُ بنُ مَرْوانَ - أخو عبدِ الملك بنِ مَرْوانَ، وهو والدُ مَرْوانَ الحمارِ - صائفةَ الروم حينَ خرجوا من عند مَرْعَش. وفيها ولَّىٰ عبدُ الملكِ بنُ مَرْوانَ نيابةَ المدينة ليَحْيَىٰ بن الحكم بنِ أبي العاص، وهو عمُّه، وعزَل عنها الحجَّاجَ.

وفيها ولَّىٰ عبدُ الملكِ الحجَّاجَ بنَ يوسفَ نيابةَ العراق؛ البصرة والكوفة وما يَتبَعُ ذلك من الأقاليم الكبار، وذلك بعدَ موتِ أخيه بشرِ بنِ مَرْوانَ، فرأىٰ عبدُ الملك أنَّه لا يَسُدُّ عنه أهلَ العراقِ غيرُ الحجّاج لسَطْوته وقهرِه وقسوته وشهامته، فكتَب إليه، وهو بالمدينة، بولاية العراق، فسارَ من المدينة إلىٰ العراقِ في اثنَيْ عشرَ راكبًا علىٰ النجائب، فنزَل قريبَ الكوفة فاغتَسل واختضَب ولبِس ثيابَه وتَقلَّد سيفَه وألقىٰ عَذَبةَ العمامةِ بينَ كَتِفَيْه، ثم سار فنزَل دارَ الإمارة، وذلك يومَ الجُمُعة وقد أذَّن المؤذِّنُ الأولُ، فخرَج عليهم وهم لا يعلَمون، فصعِد المنبرَ وجلَس عليه وأمسَك عن الكلام طويلاً، وقد شَخَصوا إليه بأبصارِهم وجَثَوْا علىٰ الرُّكَب وتناوَلوا الحَصْباءَ ليَقذفوه بها، وقد كانوا حصَبوا الذي كان قبلَه، فلمّا سكَت أبهَتَهم وأحبُّوا أن يسمَعوا كلامَه، فكان أولَ ما تكلَّم به أن قال: يا أهلَ العراقِ يا أهلَ الشِّقاقِ ويا أهلَ النفاقِ، ومَساوئِ الأخلاقِ، واللهِ إن كان أمرُكم لَيَهُمُّني قبلَ أن آتيَ إليكم. ولقد كنتُ أدعو اللهَ أن يَبتليَكم بي، فأجاب دعوتي، إلاَّ أنِّي سِرتُ البارحةَ فسقَط منِّي سوطي الذي أُؤذيكم به، فاتخَذتُ هذا مكانَه - وأشار إلىٰ سيفه - ثم قال: والله لأجُرَّنَّه فيكم جرَّ المرأة ذيلَها، ولأفعلَنَّ بكم ولأصنعَنَّ. فلمّا سمِعوا كلامَه جعَل الحَصَىٰ يتساقَطُ من أيديهم، وقيلَ: إنَّه دخَل الكوفةَ علىٰ حينِ غَفْلةٍ من أهلها في شهرِ رمضانَ من هذه السَّنة ظهرًا، فأتَىٰ المسجدَ، وصعِد المنبرَ، وهو معتَجِرٌ بعمامةٍ حمراءَ، متلثِّمٌ بطرَفِها، ثم قال: عليَّ بالناسِ. فحسِبه الناسُ وأصحابَه من الخوارجِ، فهَمُّوا به حتىٰ إذا اجتمَع الناسُ قام وكشَف عن وجهه، وقال:

أنا ابنُ جَلاَ وطَلاَّعُ الثَّنايا ... متىٰ أضَعِ العِمامةَ تعرِفوني

ثم قال: أمَا واللهِ إنِّي لأحمِلُ الشرَّ بحَمْله، وأحذُوه بنَعْله، وأَجزيه بمثله، وإنِّي لأَرَىٰ رءوسًا قد أينَعت وحان قِطافُها، وإنِّي لأنظُرُ إلىٰ الدماء تَترقرَقُ بينَ العمائم واللِّحَىٰ:

شمَّرتْ عن ساقِها فشَمِّري

ثم أنشَد أيضًا:

هذا أوانُ الشدِّ فاشتَدِّي زِيَمْ ... قد لَفَّها الليلُ بسَوَّاقٍ حُطَمْ

ليس براعي إبلٍ ولا غَنَمْ ... ولا بجَزَّارٍ علىٰ ظَهْرِ وَضَمْ

قد لفَّها الليلُ بعَصْلَبيِّ ... أروعَ خَرَّاجٍ من الدَّوِّيِّ

مُهاجرٍ ليس بأعرابيِّ

ثم قال: إنِّي والله يا أهلَ العراقِ ما أُغمَزُ بغمازٍ، ولا يُقعقَعُ لي بالشِّنانِ، ولقد فُرِرْتُ عن ذكاءٍ، وجرَيتُ إلى الغايةِ القُصوى، وإنَّ أميرَ المؤمنين عبدَ الملكِ بنَ مَرْوانَ نثرَ كنانتَه ثم عجَم عيدانَها عُودًا عُودًا فوجَدَني أمرَّها عُودًا وأصلَبَها مَغمزًا، فوَجَّهني إليكم، فإنَّكم طالما أوضَعْتم في أوديةِ الفتَنِ، وسنَنْتُم سُنَنَ الغَيِّ، أمَا والله لألحوَنَّكم لَحْيَ العُودِ، ولأعصِبنَّكم عَصْبَ السَّلَمَةِ، ولأضرِبنَّكم ضربَ غرائبِ الإبلِ، إنِّي والله لا أعِدُ إلاَّ وَفَيْتُ، ولا أخلُقُ إلاَّ فرَيْتُ، فإيايَ وهذه الجماعاتِ وقيلاً وقالاً، والله لتَستقيمُنَّ على سبيلِ الحقِّ أو لأدَعَنَّ لكلِّ رجلٍ منكم شُغلاً في جسدِه. ثم قال: مَن وجَدتُ بعدَ ثالثةٍ من بَعْثِ المُهلَّبِ - يعني الذين كانوا قد رجَعوا عنه لما سمِعوا بموتِ بشرِ بنِ مَرْوانَ، كما تقدَّم - سفكتُ دمَه وانتهَبتُ مالَه. ثم نزَل فدَخَل منزلَه ولم يَزِدْ على ذلك.

ويقالُ: إنَّه لما صعد المنبرَ واجتمَع الناسُ تحتَه أطال السكوتَ حتى إنَّ محمدَ بنَ عميرٍ أخَذ كفًّا من حصًى وأراد أن يحصبَه بها، وقال: قبَّحه اللهُ، ما أعياه وأذَمَّه! فلمّا نهَض الحجّاجُ وتكلَّم بما تكلَّم به جعَل الحصَى يتناثرُ من يدِه، وهو لا يشعُرُ به؛ لما يَرَى من فصاحتِه وبلاغتِه. ويقالُ: إنَّ الحجّاجَ قال في خطبتِه هذه: شاهت الوجوهُ، إنَّ اللهَ ضرَب مثلاً ﴿قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢]. وأنتم أولئك فاستوثِقوا واستقيموا، فوالله لأذيقَنَّكم الهوانَ حتى تَدرُّوا، ولأعصِبنَّكم عَصْبَ السَّلَمةِ حتى تنقادوا، وأُقسِمُ بالله لتُقْبِلُنَّ على الإنصافِ ولتَدَعُنَّ الإرجافَ وكان وكان، وأخبرَني فلانٌ عن فلانٍ، والخبَرُ وما الخبرُ، أو لأهبُرَنَّكم بالسيفِ هَبْرًا يدَعُ النساءَ أيامَى والأولادَ يتامَى، حتى تَمشُوا السُّمَّهَى وتُقلِعوا عن ها وهَا. في كلامٍ طويلٍ بليغٍ غريبٍ مُشتمِلٍ على وعيدٍ شديدٍ، ليس فيه وعدٌ بخيرٍ.

فلمَّا كان في اليومِ الثالثِ سمِع تكبيرًا في السوقِ فخرَج حتى جلَس على المنبرِ فقال: يا أهلَ العراقِ يا أهلَ الشِّقاقِ والنفاقِ، ومساوئِ الأخلاقِ، إنِّي سمعتُ تكبيرًا في السُّوقِ ليس بالتكبيرِ الذي يرادُ به الترغيبُ، ولكنَّه تكبيرٌ يرادُ به الترهيبُ، وقد عَصَفَت عَجاجةٌ تحتَها قَصفٌ، يا بني اللَّكيعةِ وعبيدَ العصا وأبناءَ الإماءِ والأيامَى، ألا يربَعُ كلُّ رجلٍ منكم على ظَلْعِه، ويحسنُ حَقْنَ دمِه ويبصرُ موضعَ قَدمِه، وأقسِمُ بالله لأوشِكُ أن أوقعَ بكم وقعةً تكونُ نَكالاً لما قبلَها وأدبًا لما بعدَها. قال: فقام إليه عميرُ بنُ ضابئٍ التميميُّ ثم الحنظليُّ فقال: أصلَح اللهُ الأميرَ أنا في هذا البعثِ وأنا شيخٌ كبيرٌ وعليلٌ، وهذا ابني وهو أشَبُّ منِّي. قال: ومَن أنتَ؟ قال: أنا عميرُ بنُ ضابئٍ التميميُّ. قال: أسمعتَ كلامَنا بالأمسِ؟ قال: نعم. قال: ألستَ الذي غزا عثمانَ بنَ عفانَ؟ قال: بلَى. قال: وما حمَلَك على ذلك؟ قال: كان حبَس أبي وكان شيخًا كبيرًا. قال: أو ليس هو الذي يقولُ:

همَمتُ ولم أفعَلْ وكِدتُ وليتَني ... فعَلتُ وولَّيتُ البُكاءَ حلائلَه

ثم قال الحجاج: إنّي لا حسبُ أنّ في قتلك صلاحَ المصرَين. ثم قال: قُمْ إليه يا حرسيُّ فاضربْ عنُقَه. فقام إليه رجلٌ فضرَب عنقَه وانتهَب مالَه، وأمَر مناديًا فنادَىٰ في الناسِ: ألاَ إنَّ عميرَ بنَ ضابئٍ تأخَّر بعدَ سماعِ النداء. ثلاثًا، فأمُر بقتله.

قال: فخرَج الناسُ حتىٰ ازدحَموا علىٰ الجسرِ فعبَر عليه في ساعةٍ واحدةٍ أربعةُ آلافٍ من مَذْحِجٍ، وخرجَتْ معهم العُرَفاءُ حتىٰ وصَلوا بهم إلىٰ المهلَّبِ، وأخَذوا منه كتابًا بوصولهم إليه، فقال المهلَّبُ: قدِم العراقَ واللهِ رجلٌ ذكرٌ، اليومَ قوتِل العدوُّ.

ويروَىٰ أنَّ الحجَّاجَ لم يعرِفْ عميرَ بنَ ضابئٍ حتىٰ قال له عنبسةُ بنُ سعيدٍ: أيُّها الأميرُ، إنَّ هذا جاء إلىٰ عثمانَ، رضِي اللهُ عنه، وقد قُتِل فلطَم وجهَه. فأمَر الحجاجُ عندَ ذلك بقتله.

وبعَث الحجاجُ الحكَمَ بنَ أيوبَ الثقفيَّ نائبًا علىٰ البصرةِ من جهتِه، وأمَره أن يشتَدَّ علىٰ خالدِ بنِ عبدِ اللهِ. وأقَرَّ علىٰ قضاءِ الكوفةِ شُريحًا، ثم ركِب الحجّاجُ إلىٰ البصرةِ، واستخلَف علىٰ الكوفةِ أبا يَعْفورٍ، وولَّىٰ قضاءَ البصرةِ لزُرارةَ بنِ أوْفَىٰ، ثم عاد إلىٰ الكوفةِ. وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ عبدُ الملكِ بنُ مَرْوانَ، وأقَرَّ عمَّه يَحْيَىٰ علىٰ نيابةِ المدينةِ، وعلىٰ بلادِ خراسانَ أُميَّةَ بنَ عبدِ اللهِ.

وفي هذه السَّنَةِ وثَب الناسُ بالبصرةِ علىٰ الحجاجِ، وذلك أنَّه لمّا ركِب من الكوفةِ بعدَ قتلِ عميرِ بنِ ضابئٍ، وقام في أهلِ البصرةِ بخُطْبةٍ نظيرَ ما قام في أهلِ الكوفةِ من الوعيدِ الشديدِ والتهديدِ الأكيدِ، ثم أُتِي برجلٍ من بني يَشْكُرَ، فقيلَ: هذا عاصٍ. فقال الرجلُ: إنَّ بي فَتْقًا وقد عَذَرني بشرُ بنُ مَرْوانَ، وهذا عطائي مردودٌ علىٰ بيتِ المالِ. فلم يَقبَلْ منه، وأمَر بقتله فقتِل، ففزِع أهلُ البصرةِ وخرَجوا من البصرةِ حتىٰ اجتمَعوا عندَ قنطرةِ رامَهُرْمُزَ، وعليهم عبدُ اللهِ بنُ الجارودِ، وخرَج إليهم الحجاجُ - وذلك في شعبانَ من هذه السَّنةِ - في أمراءِ الجيشِ من المصرَين، فاقتَتلوا هنالك قتالاً شديدًا فهزَمهم الحجاجُ، وقتَل أميرَهم عبدَ اللهِ بنَ الجارودِ في رءوسٍ من القبائلِ معه، وأمَر برءوسِهم فنُصِبت عندَ الجسرِ من رامَهُرْمُزَ، ثم بعَث بها إلىٰ المهلَّبِ فقَوِي بذلك، وضعُفَ أمرُ الخوارجِ، وأرسَل الحجاجُ إلىٰ المهلَّبِ وعبدِ الرحمنِ بنِ مِخْنَفٍ، فأمَرهما بمناهضةِ الأزارقةِ، فنهَضا بمَن معهما إلىٰ الخوارجِ الأزارقةِ فأجلَوْهم عن أماكنِهم من رامَهُرْمُزَ بأيسرِ قتالٍ، فهَربوا إلىٰ أرضِ كازَرُونَ من إقليمِ سابُورَ، وسار الناسُ وراءَهم فالتقَوْا في العَشْرِ الآخِرِ من رمضانَ.

فلمّا كان الليلُ بيَّتَ الخوارجُ المهلَّبَ من الليلِ فوجَدوه قد تحصَّنَ بخَنْدقٍ حولَ معسكَرِه، فجاءوا إلىٰ عبدِ الرحمنِ بنِ مِخْنَفٍ فوجَدوه غيرَ مُحترِزٍ - وكان المهلَّبُ قد أمَره بالاحترازِ بخندقٍ حولَه فلم يفعَلْ - فاقتَتلوا في الليلِ فقتَلتِ الخوارجُ عبدَ الرحمنِ بنَ مِخْنَفٍ، وطائفةً من جيشِه، وهزَموهم هزيمةً منكَرَةً. ويُقالُ: إنَّ الخوارجَ لمّا التقَوْا مع الناسِ في هذه الوقعةِ كان ذلك في يومِ الأربعاءِ لعَشْرٍ بقِين من رمضانَ، فاقتَتَلوا قتالاً شديدًا لم يُعهَدْ مثلُه من الخوارجِ، وحمَلتِ الخوارجُ علىٰ جيشِ المهلَّبِ

فاضطرُّوه إلى مُعَسْكَره، فجعَل عبدُ الرحمنِ بنُ مِخْنَف يُمِدُّه بالخيلِ بعدَ الخيلِ، والرجالِ بعدَ الرجالِ، فمالتِ الخوارجُ إلى مُعَسْكَرِ عبدِ الرحمنِ بنِ مِخْنَف بعدَ العصرِ، فاقتَتَلوا معه إلى الليلِ، فقتِل عبدُ الرحمنِ في أثناءِ الليلِ، وقتِل معه طائفةٌ كثيرةٌ مِن أصحابِه الذين ثبَتوا معه، فلمّا كان الصباحُ جاء المهلَّبُ فصلَّى عليه ودفنَه، وكتَب إلى الحجاجِ بمهلِكِه، فكتَب الحجاجُ إلى عبدِ الملكِ يُعَزِّيه فيه، فنَعاه عبدُ الملكِ إلى الناسِ بمِنًى، وأمَّر الحجاجُ مكانَه عتَّابَ بنَ ورقاءَ، وكتَب إليه أن يطيعَ المهلَّبَ، فكرِه ذلك، ولم يجِد بُدًّا من طاعةِ الحجاجِ، ولم يُمكنْه مخالفتُه، فسار إلى المهلَّبِ فجعَل لا يطيعُه إلا ظاهرًا ويَعصيه كثيرًا، ثم تقاوَلا، فهَمَّ المهلَّبُ أن يوقِعَ بعتّابٍ، ثم حجَز بينَهما الناسُ، فكتَب عتّابٌ إلى الحجاجِ يشكو المهلَّبَ، فكتَب إليه أن يَقدَمَ عليه، وأعفاه مِن ذلك، وجعَل المهلَّبُ مكانَه ابنَه حبيبَ بنَ المهلَّبِ.

وفيها خرجَ داودُ بنُ النعمانِ المازنيُّ بنواحي البصرةِ، فوجَّه إليه الحجّاجُ أميرًا على سريَّةٍ فقتَله.

قال ابنُ جرير: وفي هذه السَّنةِ تحرَّك صالحُ بنُ مُسَرِّحٍ أحدُ بني امرئِ القيسِ - وكان يرَى رأيَ الصُّفْريَّةِ، وقيل: إنَّه أولُ مَن خرَج مِن الصُّفْريةِ - وكان سببُ ذلك أنَّه كان حجَّ بالناسِ في هذه السنةِ، ومعه شبيبُ بنُ يزيدَ، والبَطِينُ، وأشباهُهم مِن رءوسِ الخوارجِ، واتفَق حجُّ أميرِ المؤمنين عبدِ الملكِ، فهَمَّ شبيبٌ بالفَتْكِ به، فبلَغ عبدَ الملكِ ذلك مِن خبرِه، فكتَب إلى الحجّاجِ بعدَ انصرافِه مِن الحجِّ أن يتطَلَّبَهم، وكان صالحُ بنُ مُسرِّحٍ هذا يُكثِرُ الدخولَ إلى الكوفةِ والإقامةَ بها، وكان له جماعةٌ، من أهلِ دارَا وأهلِ المَوْصلِ، يُعلِّمُهم القرآنَ ويُفَقِّهُهم ويَقُصُّ عليهم، وكان مُصْفَرًّا كثيرَ العبادةِ، وكان إذا قصَّ يحمَدُ اللهَ، ويُثني عليه، ويصلِّي على رسولِ اللهِ ﷺ، ثم يأمُرُ بالزهدِ في الدنيا والرغبةِ في الآخرةِ، ويَحُثُّ على ذكرِ الموتِ، ثم يترحَّمُ على الشيخَين أبي بكرٍ وعمرَ، ويُثني عليهما ثناءً حسنًا، ولكن بعدَ ذلك يذكُرُ عثمانَ بنَ عفانَ، رضي اللهُ عنه، فيَسُبُّه وينالُ منه، ويُنكِرُ عليه أشياءَ من جنسِ ما كان يُنكِرُ عليه الذين خرَجوا عليه وقتَلوه من فَجَرةِ أهلِ الأمصارِ، ثم يَحُضُّ أصحابَه على الخروجِ مع الخوارجِ للأمرِ بالمعروفِ ولإنكارِ المنكَرِ الذي قد شاع في الناسِ وذاع، ويُهَوِّنُ عليهم القتلَ، ويذُمُّ الدنيا وأمرَها ويُصغِّرُها، فالْتَفَّ عليه جماعةٌ من الناسِ، وكتَب إليه شبيبُ بنُ يزيدَ الخارجيُّ يستبطئُه في الخروجِ، ويَحُثُّه عليه، ويندُبُه إليه، ثم قدِم شبيبٌ على صالحٍ وهو بدَارَا فتواعَدوا، وتوافَقوا على الخروجِ في مُستَهلِّ صَفَرٍ من السَّنةِ الآتيةِ - وهي سنةُ ستٍّ وسبعين - وقدِم على صالحٍ شبيبٌ، وأخوه مُصادٌ، والمُحلَّلُ، والفضلُ بنُ عامرٍ، فاجتَمَع عليه من الأبطالِ وهو بدارا نحوُ مائةٍ وعَشَرةِ أنفسٍ، ثم وثَبوا على خيلٍ لمحمدِ بنِ مَرْوانَ فأخَذوها وتَقوَّوْا بها، ثم كان مِن أمرِهم بعدَ ذلك ما سنذكُرُه في التي بعدَها، إن شاء اللهُ تعالى.

وكان ممَّن توفِّي في هذه السَّنةِ في قولِ أبي مُسهِرٍ، وأبي عبيدٍ:

العرباضُ بنُ ساريةَ السُّلَميُّ أبو نَجيحٍ، سكَن حِمْصَ، وهو صحابيٌّ جليلٌ، أسلَم قديمًا هو وعمرُو بنُ عَبَسَةَ، رضي اللهُ عنهما، ونزَل الصُّفَّةَ، وكان من البَكّائين المذكورينَ في سورة براءة، كما قد ذَكَرْنا أسماءَهم عندَ قولِه تعالى: ﴿ **وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ** ﴾ الآية [التوبة: ٩٢].

وهو راوي حديث: خطَبَنا رسولُ اللهِ ﷺ خطبةً وَجِلت منها القلوبُ وذَرَفت منها العيونُ حتىٰ قُلْنا: يا رسولَ اللهِ، كأنَّها موعظةُ مودِّعٍ فأَوْصِنا. قال: «**أُوصيكم بتقوى اللهِ والسَّمعِ والطاعةِ، وإنْ تأمَّر عليكم عبدٌ حَبَشيٌّ كأنَّ رأسَه زبيبةٌ، عليكم بسُنَّتي وسُنَّةِ الخلفاءِ الراشدين مِن بعدي، عَضُّوا عليها بالنواجذِ، وإيّاكم ومحدَثاتِ الأمورِ، فإنَّ كلَّ محدَثةٍ بدعةٌ**»[١]. رواه أحمدُ[٢] وأهلُ السُّنَنِ، وصحَّحه الترمذيُّ، وغيرُه، وروَىٰ أيضًا أنَّ النبيَّ ﷺ كان يصلِّي علىٰ الصفِّ المقدَّمِ ثلاثًا، وعلىٰ الثاني واحدةً، وقد كان العرباضُ شيخًا كبيرًا، وكان يُحبُّ أن يقبِضَه اللهُ إليه، وكان يدعو: اللهمَّ كبِرتْ سِنِّي، ووهَن عظمي، فاقبِضْني إليك. وروَىٰ أحاديثَ.

أبو ثعلبةَ الخُشَنيُّ، صَحابيٌّ جليلٌ؛ شهِد بيعةَ الرِّضوانِ، وغزَا حُنينًا. وكان ممَّن نزَل الشامَ بداريّا غربيَّ دمشقَ إلىٰ جهةِ القبلةِ، وقيل: ببلاط - قريةٍ شرقيَّ دمشقَ - فاللهُ أعلمُ. وقد اختُلِف في اسمِه،

---

(١) **قوي لشواهده**: أخرجه أحمد (٤/ ١٢٦) ثنا عبد الرحمن بن مهدي حدثنا معاوية بن صالح عن ضمرة بن حبيب عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي أنه سمع العرباض بن سارية فذكره ورجاله ثقات إلا عبد الرحمن قال الذهبي في «الكاشف» (٢/ ١٥٨) صدوق وقد توبع من حُجر بن حجر الكلاعي. ولكن الظاهر جهالة حاله.
عند أحمد في المصدر المشار إليه وتابعه أيضاً عبد الله ابن أبي بلال الخزاعي عند أحمد (٤/ ١٢٧) وغيره لكن في الطريق إليه بقية بن الوليد ولم يصرح في جميع طبقات السند بالتحديث
فالحديث لا مرية في تقويته وقد قواه جمع من أهل العلم فقال الترمذي: حسن صحيح وقال أبو نعيم هو حديث جيد من صحيح حديث الشاميين ولم يكن ترك البخاري ومسلم له من جهة إنكار منهما له، وجود ابن رجب الحنبلي إسناداً له وقال إسناده جيد متصل ورواته ثقات مشهورون راجع «جامع العلوم والحكم» (ص ٣١٣ حديث ٢٨).

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٤/ ١٢٨) ثنا حسن بن موسىٰ ثنا شيبان عن يحيىٰ عن محمد بن إبراهيم عن خالد بن معدان حدثه أن جبير بن نفير حدثه أن العرباض بن سارية قال. . . . فذكره وهذا إسنادٌ صحيح رجاله ثقات ويحيىٰ هو ابن أبي كثير.
وقد رواه هشام عن يحيىٰ بن أبي كثير عن محمد بن إبراهيم عن خالد بن معدان عن العرباض بن سارية به فلم يذكر جبير بن نفير وذلك عند أحمد (٤/ ١٢٦) ثم وجدت خلافًا آخر علىٰ خالد بن معدان فقد رواه بقية بن الوليد حدثنا بحير بن سعد عن خالد بن معدان عن جبير بن نفير عن العرباض به أخرجه أحمد عقب الرواية الأولىٰ فذكر جبيراً وهذا مما يقوي رواية شيبان وإن كان بقية لم يصرح بالتحديث في صحيح طبقات السند لكن قد تابعه إسماعيل بن عياش عن بحير بن سعد به عند أحمد (٤/ ١٢٨) ورواية إسماعيل هنا صحيحة لأن بحير من أهل بلد إسماعيل وروايته عن أهل بلده مستقيمة.
ولئن كان هشام أقوىٰ في روايته عن يحيىٰ من شيبان إلا أن شيبان قد توبع من وجه آخر علىٰ إثبات جبير بن نفير في الإسناد.
وطريق إسماعيل وبقية إسنادٌ حسن والله أعلم.

واسم أبيه على أقوال كثيرة، والأشهر منها: جُرثومُ بنُ ناشر.

وقد روىٰ عن رسول الله ﷺ أحاديثَ، وعن جماعةٍ من الصحابة. وعنه جماعةٌ من التابعين؛ منهم سعيدُ بنُ المسيَّب، ومكحولٌ الشاميُّ، وأبو إدريسَ الخولانيُّ، وأبو قلابةَ الجَرْميُّ.

وكان ممَّن يجالسُ كعبَ الأحبار، وكان في كلِّ ليلةٍ يخرُجُ، فينظُرُ إلى السماء فيتفكَّرُ، ثم يَرجِعُ فيسجُدُ لله، عزَّ وجلَّ. وكان يقولُ: إنِّي لأرجو أن لا يخنُقَني اللهُ عندَ الموت كما أراكم تُخنَقون. فبينَما هو ليلةً يصلِّي من الليل إذ قبِضت روحُه وهو ساجدٌ. ورأت ابنتُه في المنام كأنَّ أباها قد مات فانتبهَت مذعورةً، فقالت لأمِّها: أينَ أبي؟ قالت: هو في مُصلاّه. فنادتْه فلم يُجبْها، فجاءته فحرَّكَتْه فسقَط لجَنْبه فإذا هو ميتٌ، رحمه اللهُ.

قال أبو عبيد، ومحمدُ بنُ سعد، وخليفةُ، وغيرُ واحد: كانت وفاتُه سنةَ خمسٍ وسبعين. وقال غيرُهم: كانت وفاتُه في أوَّل إمْرَةِ معاويةَ. فاللهُ أعلمُ.

وقد توفِّي في هذه السَّنة الأسودُ بنُ يزيدَ صاحبُ ابنِ مسعودٍ، وهو الأسودُ بنُ يزيدَ النَّخَعيُّ، من كبارِ التابعين، ومن أعيانِ أصحاب ابنِ مسعودٍ، ومن كبارِ أهلِ الكوفة، وكان يصومُ الدهرَ، وقد ذَهَبتْ عينُه من كثرة الصوم، وقد حجَّ البيتَ ثمانين حَجَّةً وعمرةً، وكان يُهِلُّ من الكوفة، توفِّي في هذه السنة، وكان يصومُ حتى يخضرَّ ويصفرَّ، فلمّا احتُضر بكَىٰ، فقيل له: ما هذا الجَزَعُ؟ فقال: ما لي لا أجزَعُ؟ ومَن أحقُّ بذلك منِّي؟ والله لو أنبئتُ بالمغفرة من الله لأهمَّني الحياءُ منه مما قد صنعتُ، إنَّ الرجلَ ليكونُ بينَه وبينَ الرجلِ الذنبُ الصغيرُ فيَعفو عنه، فلا يزالُ مُستحيِيًا منه.

حُمْرانُ بنُ أبان، مولَى عثمانَ بن عفانَ، كان من سَبْيِ عين التَّمْر، اشتراه عثمانُ، وهو الذي كان يأذَنُ للناسِ على عثمانَ. توفِّي في هذه السَّنةِ. واللهُ سبحانَه أعلمُ.

* * *

ثم دخلت سنة ست وسبعين

وكان في أوَّلها في مستهَلِّ صفَر منها ليلةَ الأربعاء اجتماعُ صالح بنِ مُسَرِّح أميرِ الصُّفرية، وشبيبِ ابنِ يزيدَ أحد شُجعانِ الخوارجِ، فقام فيهم صالحُ بنُ مُسَرِّح فأمَرهم بتقوى الله، وحثَّهم على الجهاد، وأن لا يُقاتلوا أحدًا حتى يدْعوه إلى الدخولِ معهم.

ثم مالوا إلى دوابِّ محمدِ بنِ مَرْوانَ نائبِ الجزيرة لأخيه عبدِ الملك، فأخذوها فتقَوَّوْا بها، وأقاموا بأرضِ دَارَا ثلاثَ عشْرةَ ليلةً، وتَحصَّن منهم أهلُ دَارَا ونَصيبينَ وسِنجارَ، فبعَث إليهم محمدُ بنُ مروانَ نائبُ الجزيرةِ خمسَمائةِ فارسٍ، عليهم عَدِيُّ بنُ عديِّ بنِ عُميرةَ، ثم زاده خمسَمائةٍ أخرى، فسار في ألفٍ من حَرّانَ إليهم، وكأنما يُساقُ إلى الموت، وهو ينظرُ؛ لِمَا يعلَمُ من جلَدِ الخوارجِ وقوَّتِهم وشِدَّةِ بأسِهم، فلمّا التقَى مع الخوارجِ هزَموه هزيمةً شنيعةً بالغةً، واحتوَوْا على ما في مُعسكرِه، ورجَع فَلُّهم إلى محمدِ بنِ مَرْوانَ فغضِب، وبعَث إليهم ألفًا وخمسَمائةٍ مع الحارثِ بنِ جَعْونَةَ، وألفًا وخمسَمائةٍ مع خالدِ بنِ جَزْءٍ السُّلميِّ، وقال لهما: أيُّكما سبَق إليهم فهو الأميرُ على الناسِ. فساروا إليهم في ثلاثةِ آلافِ مقاتلٍ، والخوارجُ في نحوٍ من مائةِ نفسٍ، وعشَرةِ أنفُسٍ، فلمّا انتهَوْا إلى آمِدَ توجَّه صالحٌ إلى خالدِ بنِ جَزْءٍ في شَطرِ الناسِ، ووجَّه شبيبًا إلى الحارثِ بنِ جَعْونَةَ في الباقين، فاقتتل الناسُ في هذا اليومِ قتالًا شديدًا إلى الليلِ، فلمّا كان المساءُ انكفَّ كلٌّ من الفريقَيْن عن الآخرِ، وقد قتِل من الخوارجِ نحوُ السبعين، وقتِل من أصحابِ ابنِ مَرْوانَ نحوُ الثلاثين، وهرَبتِ الخوارجُ في الليلِ فخرَجوا من الجزيرةِ، وأخذوا في أرضِ المَوْصِلِ، ومضَوا حتى قطَعوا الدَّسْكَرَةَ، فبعَث إليهم الحجاجُ ثلاثةَ آلافٍ مع الحارثِ بنِ عُميرةَ، فسار نحوَهم حتى لحِقهم بأرضِ المَوصِلِ، وليس مع صالحٍ سوى تسعين رجُلًا، فالتقى معهم، وقد جعَل صالحٌ أصحابَه ثلاثةَ كَراديسَ؛ فهو في كُرْدوسٍ، وشبيبٌ عن يمينِه في كُردوسٍ، وسُوَيْدُ بنُ سليمانَ عن يسارِه في كُردوسٍ، وحمَل عليهم الحارثُ بنُ عُميرةَ، وعلى ميمنتِه أبو الرَّوّاغِ الشاكريُّ، وعلى ميسرتِه الزبيرُ بنُ الأروحِ التميميُّ، فصبَرتِ الخوارجُ على قِلَّتِهم صبرًا شديدًا، ثم انكشَف سويدُ بنُ سليمانَ، ثم قتِل صالحُ بنُ مُسَرِّح أميرُهم، وصرع شبيبٌ عن فرسِه، فالتفَّ عليه بقيةُ الخوارجِ حتى احتمَلوه فدخَلوا به حصنًا هنالك، وقد بقِي منهم سبعون رجلًا، فأحاط بهم الحارثُ بنُ عُميرةَ، وأمَر أصحابَه أن يحرقوا البابَ ففعَلوا، ورجَع الناسُ إلى معسكرِهم ينتظِرون حريقَ البابِ فيأخُذون الخوارجَ قهرًا، فلمّا رجَع الناسُ واطمأنّوا خرَجَتْ عليهم الخوارجُ من البابِ على الصَّعْبِ والذَّلولِ، فبيَّتوا جيشَ الحارثِ بنِ عُميرةَ، فقتَلوا منهم مقتلةً عظيمةً، وهرَب الناسُ سِراعًا إلى المدائنِ، واحتازَ شبيبٌ وأصحابُه ما في معسكرِهم، فكان جيشُ الحارثِ بنِ عُميرةَ أوَّلَ جيشٍ هزَمه شبيبٌ، وكان مقتَل صالحِ بنِ مُسَرِّح في يومِ الثلاثاءِ لثلاثَ عشْرةَ ليلةً بقِيتْ من جُمادَى الآخرةِ من هذه السنة.

وفيها دخَل شبيبٌ الكوفةَ ومعه زوجتُه غَزَالةُ، وذلك أن شبيبًا جرَتْ له فصولٌ يطولُ تفصيلُها بعد مَقتلِ صالحِ بنِ مُسَرِّحٍ، واجتمعَتْ عليه الخوارجُ وبايَعوه، وبعَث إليه الحجَّاجُ جيشًا آخَرَ فقاتَلوه فهزَموه، ثم هزَمهم بعدَ ذلك، ثم سار فحاصرَ المدائنَ فلم ينلْ منها شيئًا، فسار فأَخَذ دَوابَّ للحجَّاجِ من كَلْواذا، ومن عزمِه أنْ يُبيِّتَ أهلَ المدائنِ، فهرَب مَن فيها من الجندِ إلى الكوفةِ، فلمّا وصَل الفَلُّ إلى الحجّاجِ جهّز جيشًا أربعةَ آلافِ مُقاتلٍ إلى شبيبٍ، فمرُّوا على المدائنِ، ثم ساروا في طلبِ شبيبٍ، فجعَل شَبيبٌ يسيرُ بينَ أيديهم قليلاً قليلاً، وهو يُريهم أنَّه خائفٌ منهم، ثم يكُرُّ في كلِّ وقتٍ على المقدِّمةِ فيكسرُها وينهَبُ ما فيها، ولا يواجهُ أحدًا إلاَّ هزَمه، والحجَّاجُ يُلِحُّ في طلبِه ويجهِّزُ إليه السَّرايا والبعوثَ والمَددَ، وشبيبٌ لا يُبالي بأحدٍ، وإنَّ ما معه مائةٌ وستُّونَ فارسًا، وهذا من أعجبِ العجبِ، ثم سار من طريقٍ أخرى حتى واجَه الكوفةَ وهو يريدُ أن يحاصرَها، فخرَج الجيشُ بكمالِه إلى السَّبَخَةِ لقتالِه، وبلَغه ذلك فلم يبالِ بهم، وانزعَج الناسُ وخافوا منه وفرِقوا، وهمُّوا أن يدخُلوا الكوفةَ خوفًا منه فيتحصَّنوا فيها منه، حتى قيلَ لهم: إنَّ سُوَيدَ بنَ عبدِ الرحمنِ في آثارِهم وقد اقترَب منهم، وشَبيبٌ نازلٌ بالكوفةِ بالدَّيرِ، ليس عندَه خبرٌ منهم ولا خوفٌ، وقد أمَر بطعامٍ وشِواءٍ أن يُصنعَ له، فقيل له: قد جاءكَ الجندُ فأدرِكْ نفسَك. فجعَل لا يَلتفتُ إلى ذلك، ولا يكترثُ بهم، ويقولُ للدِّهقانِ الذي يصنَعُ له الطعامَ: عجِّلْ به. فلمّا استوَى أكلَه، ثم توضَّأَ وصلَّى بأصحابِه صلاةً تامةً بتطويلٍ وطمأنينةٍ، ثم لبِس درعَه وتقلّد سيفين، وأخَذ عمودَ حديدٍ، ثم قال: أسرِجوا لي البغلةَ. فقال له أخوه مصادٌ: أفي هذا اليومِ تركَبُ البغلةَ وقد أحاط بك الأعداءُ من كلِّ جانبٍ؟ قال: نعم. فركِبها، ثم فتَح بابَ الدَّيرِ الذي هو فيه وخرج وهو يقولُ: أنا أبو المدلَّه، لا حُكْمَ إلاَّ للهِ. وتقدَّم إلى أميرِ الجيشِ الذين تقدَّموا إليه، فضرَبه بالعمودِ الحديدِ فقتَله، وهو سعيدُ بنُ المجالدِ، وحمَل على الجيشِ الآخَرِ الكثيفِ فصرَع أميرَه، وهرَب الناسُ من بين يديه، ولجئُوا إلى الكوفةِ، ومضَى شبيبٌ حتى أغار على أسفلِ الفراتِ، وقتَل جماعةً هناك، وخرَج الحجّاجُ من الكوفةِ إلى البصرةِ، واستخلَف على الكوفةِ عُروةَ بنَ المُغيرةِ بنِ شُعبَةَ، ثم اقترَب شبيبٌ من الكوفةِ يُريدُ دخولَها، فأعلَم الدَّهاقينُ عُروةَ بنَ المغيرةِ بذلك فكتَب إلى الحجَّاجِ يعلِمُه بذلك، فأسرَع الحجَّاجُ الخُروجَ من البصرةِ، وقصَد الكوفةَ فأسرَع السَّيرَ، وبادَره شبيبٌ إلى الكوفةِ فسبَقه الحجّاجُ إليها فدَخَلها العصرَ، ووصَل شبيبٌ إلى المِربَدِ عندَ الغروبِ، فلمّا كان آخرُ الليلِ دخَل شبيبٌ الكوفةَ، وقصَد قصرَ الإمارةِ، فضرَب بابَه بعمودِه الحديدِ فأثَّرت ضربتُه في البابِ، فكانت تُعرَفُ بعدَ ذلك؛ يقالُ: هذه ضربةُ شبيبٍ. وسلَك في طرقِ المدينةِ، وتقصَّدَ مَحالَّ القبائلِ، وقتَل رجالاً من رؤساءِ أهلِ الكوفةِ وأشرافِهم؛ منهم أبو سُليمٍ والدُ لَيْثِ بنِ أبي سُلَيمٍ، وعَديُّ بنُ عَمْرٍو، وأَزْهَرُ بنُ عبدِ اللهِ العامريُّ، في طائفةٍ كثيرةٍ من أهلِ الكوفةِ، وكان مع شبيبٍ امرأتُه غَزَالةُ، وكانت معروفةً بالشجاعةِ، فدخَلَتْ مسجدَ الكوفةِ، وجلَستْ على منبرِه، وجعَلت تذُمُّ بني مَرْوانَ.

ونادىٰ الحجّاجُ في الناسِ: يا خيلَ اللهِ اركبي وأبشري. فخرَجَ شبيبٌ من الكوفةِ، فجهَّز الحجَّاجُ في إثره ستةَ آلافِ مقاتلٍ، فساروا وراءَه وهو بينَ أيديهم ينعَسُ، ويهُزُّ رأسَه، وفي أوقاتٍ كثيرةٍ يكُرُّ عليهم شبيبٌ فيقتُلُ منهم جماعةً، حتىٰ قتَل من جيشِ الحجّاجِ خلقًا كثيرًا، وقتَل جماعةً من الأمراء؛ منهم زائدةُ بنُ قُدامةَ ـ قتَله شبيبٌ، وهو ابنُ عمِّ المختارِ ـ فوجَّه الحجَّاجُ مكانَه لحربِه عبدَ الرحمنِ بنَ الأشعث، فلم يُقابِلْ شبيبًا ورجَع، فوجَّه مكانَه عثمانَ بنَ قَطَنٍ الحارثيَّ، فالتقَوْا في آخرِ السَّنة، فقُتل عثمانُ بنُ قَطَنٍ، وانهزَمتْ جموعُه بعدَ أن قُتل من أصحابِه ستُّمائةِ نَفْسٍ؛ فمن أعيانِهم عَقِيلُ بنُ شدَّادٍ السَّلُوليُّ، وخالدُ بنُ نَهيكٍ الكنديُّ، والأسودُ بنُ ربيعةَ.

واستفحَل أمرُ شبيبٍ وتزلزَل له عبدُ الملكِ بنُ مَرْوانَ، والحجّاجُ، وسائرُ الأمراءِ، وخاف عبدُ الملكِ منه خوفًا شديدًا، فبعَث له جيشًا من أهلِ الشامِ فقدِموا في السنةِ الآتيةِ، وإنَّ ما مع شبيبٍ شِرذمةٌ قليلةٌ، وقد ملأَ قلوبَ الناسِ رعبًا. وجرَت خطوبٌ كثيرةٌ له معهم، ولم يَزَل ذلك دأبَه ودأبَهم حتىٰ استهلَّت هذه السنةُ.

قال ابنُ جريرٍ: وفي هذه السنةِ نقَش عبدُ الملكِ بنُ مَرْوانَ علىٰ الدراهمِ والدنانيرِ، وهو أوَّلُ مَن نقَشها.

وقال القاضي الماوَرْديُّ في كتاب «الأحكام السلطانيَّة»: اختُلف في أوَّلِ من ضرَبها بالعربيةِ في الإسلامِ؛ فقال سعيدُ بنُ المسيَّبِ: أوَّلُ مَن ضرَب الدراهمَ المنقوشةَ عبدُ الملكِ بنُ مَرْوانَ، وكانتِ الدنانيرُ روميةً، والدراهمُ كِسرويةً. قال أبو الزِّنادِ: وكان نقشُه لها في سنةِ أربعٍ وسبعين. وقال المدائنيُّ: خمسٍ وسبعين، وضُرِبتْ في الآفاقِ سنةَ ستٍّ وسبعين. وذكَر أنَّه ضرَب علىٰ الجانبِ الواحدِ منها (اللهُ أحدٌ)، وعلىٰ الوجهِ الآخرِ (اللهُ الصمدُ). قال: وحكَىٰ يحيىٰ بنُ النُّعمانِ الغفاريُّ. عن أبيه أنَّ أوَّلَ مَن ضرَب الدراهمَ مصعبُ بنُ الزبيرِ عن أمرِ أخيه عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ، سنةَ سبعين، علىٰ ضرْبِ الأكاسرةِ، وعليها (المُلْكُ بركةٌ) من جانبٍ، و(لله) من جانبٍ، ثم غيَّرها الحجّاجُ، وكتَب اسمَه عليها من جانبٍ، ثم خلَّصها بعدَه يوسفُ بنُ هُبيرةَ في أيامِ يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ، ثم خلَّصها أجودَ منها خالدُ بنُ عبدِ اللهِ القَسْريُّ في أيامِ هشامٍ، ثم يوسفُ بنُ عمرَ أجودَ منهم كلِّهم. ولهذا كان المنصورُ لا يقبَلُ منها إلا الهُبَيْريَّةَ والخالديَّةَ واليوسفيَّةَ.

وذكَر أنَّه قد كان للناسِ نقودٌ مختلفةٌ؛ منها الدرهمُ البغليُّ، وكان ثمانيةَ دوانقَ، والطبريُّ وكان أربعةَ دوانقَ، والمصريُّ ثلاثةَ دوانقَ، واليمنيُّ دانقًا، فجمَع عمرُ بنُ الخطّابِ بينَ البغليِّ والطبريِّ، ثم أخَذ نصفَها فجعَله الدرهمَ الشرعيَّ، وهو نصفُ مثقالٍ وخُمسُ مثقالٍ. وذكَروا أنَّ المثقالَ لم يغيَّروا وزنَه في جاهليةٍ ولا إسلامٍ، وفي هذا نظرٌ. واللهُ أعلمُ.

وفيها ولِد مَرْوانُ بنُ محمدِ بنِ مَرْوانَ بنِ الحكمِ، وهو مَروانُ الحمَارُ، آخرُ مَن تولَّىٰ الخلافةَ من

بني أميةَ بالشام، ومنه أخَذَها بنو العبّاس.

وفيها ولّى عبدُ الملكِ بنُ مَروانَ نيابةَ المدينةِ لأبانِ بنِ عثمانَ، وعزَل عنها يَحيى بنَ مروانَ عمَّه، واستدعاه إلى الشام.

وفيها حجَّ بالناسِ أبانُ بنُ عُثمانَ بن عفَّانَ نائبُ المدينةِ. وكان على إمرةِ العراقِ الحجَّاجُ، وعلى خُراسانَ أميةُ بنُ عبدِ الله، واللهُ أعلمُ.

وممَّن تُوفي فيها من الأعيان:

أبو عثمانَ النَّهْديُّ القُضَاعيُّ، اسمُه عبدُ الرحمنِ بنُ مُلٍّ، أسلَم على عهدِ النبيِّ ﷺ، وغزا جَلُولاءَ والقادسيَّةَ وتُسْتَرَ ونَهاوَنْدَ وأَذْرِبيجانَ، وغيرَها، وكان كثيرَ العبادةِ زاهدًا عالمًا يصومُ النهارَ، ويقومُ الليلَ. تُوفِّي وعمرُه مائةٌ وثلاثون سنةً بالكوفةِ.

صِلَةُ بنُ أَشْيَمَ العَدَويُّ: من كبارِ التابعين من أهلِ البصرةِ، وكان ذا فضلٍ ووَرَعٍ وعبادةٍ وزهدٍ، كنيتُه أبو الصَّهْباءِ، كان يصلِّي حتى ما يستطيعُ أن يأتيَ الفراشَ إلاَّ حَبْوًا، وله مَناقبُ كثيرةٌ جدًّا؛ منها أنَّه كان يَمُرُّ عليه شبابٌ يَلهُون ويَلعَبون، فيقولُ: أخبِروني عن قومٍ أرادوا سَفَرًا، فحادُوا في النهارِ عن الطريقِ، وناموا الليلَ، فمتى يَقطعُون سفَرَهم؟ فقال لهم يومًا هذه المقالةَ، فقال شابٌّ منهم: والله يا قومِ، إنَّه ما يَعني بهذا غيرَنا، نحن بالنهارِ نلهُو، وبالليلِ ننامُ. ثم تبع صِلةَ فلم يَزَلْ يتعبَّدُ معه حتى مات. ومرَّ عليه فتًى يَجُرُّ ثوبَه، فهَمَّ أصحابُه أن يأخُذوه بألسنتهم، فقال: دَعُوني أكفِكُم أمرَه. ثم دعاه فقال: يا ابنَ أخي، لي إليك حاجةٌ. قال: وما حاجتُك؟ قال: أن تَرفعَ إزارَك. قال: نعم، ونِعْمَتْ عَيْنٌ. فرَفَع إزارَه، فقال صِلةُ: هذا أمثَلُ مما أردتُم، لو شتَمتموه لَشتَمَكم.

ومنها ما حكاه جعفرُ بنُ زيدٍ، قال: خرَجْنا في غَزاةٍ، وفي الجيشِ صِلَةُ بنُ أَشْيَمَ، فنزَل الناسُ عندَ العَتَمةِ، فقلتُ: لأَرمُقَنَّ عَمَلَه الليلة. فدخَل غَيْضةً، ودخَلتُ في أَثَرِه، فقام يصلِّي، وجاء الأسَدُ حتى دنا منه، وصعِدتُ أنا في شجرةٍ. قال: فتُراه التفَتَ، أو عَدَّه جرْوًا حتى سجدَ؟ فقلتُ: الآنَ يفترسُه، فجلَس ثم سلَّم، فقال: أيُّها السَّبُعُ، إن كنتَ أُمِرتَ بشيءٍ فافعَلْ، وإلاَّ فاطلُب الرزقَ من مكانٍ آخَرَ. فولَّى الأسدُ وإنَّ له لَزَئيرًا تَصدَّعُ منه الجبالُ، فلمّا كان عندَ الصباحِ جلَس فحمِد اللهَ بَمحامدَ لم أسمَعْ بمثلِها، ثم قال: اللهمَّ إنِّي أسألُك أن تُجيرَني من النارِ، أوَ مِثْلي يَجترِئُ أن يسألَك الجنَّةَ؟ ثم رجَع إلى الجيشِ، فأصبَح كأنَّه بات على الحَشايا، وأصبحتُ وبي من الفَتْرةِ شيءٌ اللهُ به عَليمٌ.

قال: وذهَبتْ بَغلَتُه بثِقَلِها، فقال: اللهمَّ إنِّي أسألُك أن تَرُدَّ عليَّ بغلتي بثِقَلِها. فجاءت حتى قامتْ بينَ يَدَيْه، قال: فلمّا التقينا العدُوَّ، حمَل هو وهشامُ بنُ عامرٍ فصنَعا بهم طعنًا وضَرْبًا، فقال العدُوُّ: رجُلانِ من العربِ صنَعا بنا هذا، فكيف لو قاتَلونا كُلُّهم؟ أعطُوا المسلمينَ حاجَتهم. يعني

انزلوا على حُكمهم.

وقال صلة: جُعتُ مرةً في غَزاةٍ جوعًا شديدًا، فبينما أنا أسيرُ أدعو ربِّي وأستطعمُه، إذ سمعتُ وَجْبةً من خَلْفي، فالتفتُّ فإذا أنا بمِنْديلٍ أبيضَ، فإذا فيه دَوْخَلَة ملآنةٌ رُطبًا، فأكلتُ منه حتى شَبِعتُ، وأدركني المساءُ فملتُ إلى دَيرِ راهبٍ، فحدَّثتُه الحديثَ، فاستطعَمني من الرُّطبِ فأطعَمتُه، ثم إنِّي مررتُ على ذلك الراهبِ بعدَ زمانٍ، فإذا نَخَلاتٌ حِسانٌ، فقال: إنهنَّ لمِن الرُّطَباتِ التي أطعمتَني. وجاء بذلك المنديلِ إلى امرأته فكانت تُريه للناسِ.

ولما أُهديتْ مُعاذةُ إلى صلةَ، أدخَله ابنُ أخيه الحمّامَ، ثم أدخَله بيتَ العَروسِ؛ بيتًا مُطيَّبًا، فقام يُصلِّي، فقامت تُصلِّي معه، فلم يزالا يُصلِّيان حتى بَرَقَ الصبحُ، قال: فأتيتُه فقلتُ له: أي عَمِّ، أهديتُ إليك ابنةَ عمِّكَ الليلةَ، فقُمتَ تُصلِّي وتركتَها! قال: إنَّ: أدخلْتني بيتًا أوَّلَ النهارِ أذكرتَني به النارَ، وأدخلْتَني بيتًا آخرَ النهارِ أذكرتَني به الجنةَ، فلم تَزَلْ فكْرتي فيهما حتى أصبحتُ. البيتُ الذي أذكرَه به النّارَ هو الحمّامُ، والبيتُ الذي أذكرَه به الجنةَ هو بيتُ العَروسِ.

وقال له رجلٌ: ادعُ اللهَ لي. فقال: رَغَّبك اللهُ فيما يبقَى، وزَهَّدك فيما يَفنَى، ورَزَقك اليَقينَ الذي لا تَركَنُ إلاَّ إليه، ولا تُعوِّلُ في الدِّينِ إلاَّ عليه.

وكان صلةُ في غَزاةٍ ومعه ابنُه فقال له: أي بُنَيَّ، تقدَّمْ فقاتِلْ حتى أَحتسِبَك. فحمَل فقاتَل حتى قتِل، ثم تقدَّم صلَةُ فقاتَل حتى قتِل، فاجتمَع النساءُ عندَ امرأتِه مُعاذَةَ العَدَويَّةِ، فقالت: إن كُنتنَّ جِئتُنَّ لتُهَنِّئنَني فمَرْحبًا بكنَّ، وإن كنتنَّ جِئتُنَّ لغيرِ ذلك فارجِعنَ.

تُوفِّي صلةُ في غَزاةٍ هو وابنُه نحوَ بلادِ فارِسَ، في هذه السنة.

زُهَيرُ بنُ قَيسٍ البَلَويُّ: شهِد فَتْحَ مِصرَ وسكَنَها، له صُحْبةٌ. قَتَلَته الرومُ ببَرْقَةَ من بلادِ المغربِ، وذلك أنَّ الصريخَ أَتى الحاكمَ بمصرَ، وهو عبدُ العزيزِ بنُ مَرْوانَ، أنَّ الرُّومَ نزَلُوا بَرْقةَ، فأَمَره بالنهوضِ إليهم، فساق زهيرٌ ومعه أربعون نَفْسًا، فوجَد الرُّومَ، فأراد أن يَكُفَّ عن القتالِ حتى يَلحَقَه العسكرُ، فقالوا: يا أبا شَدّادٍ، احمِلْ بنا عليهم. فحمَلوا فقُتِلوا جميعًا.

المُنذرُ بنُ الجارودِ: مات في هذه السنةِ. تولَّى بيتَ المالِ، ووفَد على معاويةَ. واللهُ سُبحانَه أَعْلَمُ.

* * *

ثم دخلت سنة سبع وسبعين

فيها أخرَج الحجاجُ مقاتلةَ أهلِ الكوفة وكانوا أربعين ألفًا، وانضافَ إليهم عشَرةُ آلاف، فصاروا خمسين ألفًا، وأمَّر عليهم عتَّابَ بنَ ورقاءَ، وأمَره أنْ يقصدَ لشبيبِ بنِ يزيدَ أين كان، وأن يُصمِّمَ عليه وعلى مَن معه - وكانوا قد تجمَّعوا ألفَ رجلٍ - وأن لا يفعَلوا كما كانوا يفعَلون قبلَها من الفرارِ والهَزيمة.

ولمّا بلَغ شبيبًا ما بعَث به الحجاجُ إليه من الجنودِ، لم يعبَأْ بهم شيئًا، بل قام في أصحابِه خطيبًا؛ فوعَظَهم، وذكَّرهم، وحثَّهم على الصبرِ عندَ اللقاءِ ومناجزةِ الأعداءِ، سار شبيبٌ بأصحابه نحوَ عتّابِ بنِ ورقاءَ، فالتقَيا في آخرِ النهارِ عندَ غروبِ الشمسِ، فأمَر شبيبٌ مُؤَذِّنَه سلامَ بنَ سَيّارٍ الشَّيْبانيَّ فأذَّن المغربَ، ثم صلَّى شبيبٌ بأصحابِه المغربَ، وصفَّ عتابٌ أصحابَه - وكان قد خَنْدَقَ حولَ جيشِه من أولِ النهارِ - فلما صلَّى شبيبٌ بأصحابِه المغربَ، انْتَظَرَ حتى إذا طَلَع القمرُ وأضاء، تأمَّل الميمنةَ والميسرةَ، ثم حمَل على أصحابِ راياتِ عتّابٍ وهو يقولُ: أنا شبيبٌ أبو المدلّه، لا حُكمَ إلا لله. فهزَمهم، وقُتِل أميرُهم قَبيصةُ بنُ والقٍ، وجماعةٌ من الأمراءِ معه، ثم كرَّ على المَيْمَنَةِ وعلى الميسرةِ، ففرّق شملَ كلٍّ واحدةٍ منهما، ثم قصَد القلبَ فما زال حتى قُتِل الأميرُ عتّابُ بنُ ورقاءَ، وزُهرةُ بنُ حَوِيَّةَ، وولَّى عامّةُ الجيشِ مدبِرين، وداسُوا الأميرَ عتّابًا، وزُهرةَ، فوطِئَتْه الخيلُ، وقتِل في المعركةِ عَمّارُ بنُ يزيدَ الكلبيُّ، ثم قال شبيبٌ لأصحابِه: لا تَتَبَّعوا منهزمًا، وانهزَم جيشُ الحجاجِ عن بَكْرَةِ أبيهم راجعين إلى الكوفةِ.

وكان شبيبٌ لمّا احتوَى على المعسكرِ، أخَذ ممَّن بقِي منهم البيعةَ له بالإمارةِ فبايَعوه، وقال لهم: إلى ساعةٍ تهْرُبون. ثم احتَوى على ما في المعسكرِ من الأموالِ والحواصلِ، واستدعى بأخيه مصادٍ من المدائنِ، ثم قصَد نحوَ الكوفةِ، وقد وفَد إلى الحجاجِ سفيانُ بنُ الأبردِ الكلبيُّ، وحبيبُ بنُ عبدِ الرحمنِ الحَكَميُّ - من مَذْحِج - في ستةِ آلافِ فارسٍ، ومعهما خلقٌ من أهلِ الشامِ، فاستَغْنى الحجاجُ بهم عن نُصرةِ أهلِ الكوفةِ، وقامَ في الناسِ خطيبًا، فحمد اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: أمّا بعدُ يا أهلَ الكوفةِ، لا أعزَّ اللهُ مَن أراد بكم العزَّ، ولا نصَر مَن أراد بكم النصرَ، اخرُجوا عنّا فلا تشهَدوا معنا قتالَ عدوِّنا الحَقوا بالحِيرةِ فانزِلوا مع اليهودِ والنصارى، فلا يقاتِلَنَّ معنا إلا مَن كان لنا عاملًا، ومَن لم يشهَدْ قتالَ عتّابِ بنِ ورقاءَ. وعزَم الحجاجُ على قتالِ شبيبٍ بنفسِه، وسار شبيبٌ حتى بلَغ الصَّراةَ، وخرَج إليه الحجاجُ بمَن معه من الشاميِّين، وغيرِهم، فلمّا تَواجَه الفريقان نظَر الحجاجُ إلى شبيبٍ وهو في ستِّمائةٍ من أصحابِه، فخطَب الحجاجُ أهلَ الشامِ وقال: يا أهلَ الشامِ، أنتم أهلُ السمعِ والطاعةِ والصبرِ واليقينِ، لا يَغْلِبَنَّ باطلُ هؤلاءِ الأرجاسِ حقَّكم، غضُّوا الأبصارَ، واجثُوا على الرُّكَبِ، واستقبِلوا بأطرافِ الأسنَّةِ. ففعَلوا ذلك، وأقبَل شبيبٌ وقد عبَّأ أصحابَه ثلاثَ فرقٍ؛

واحدةٌ معه، وأخرىٰ مع سُوَيدِ بنِ سُلَيم، وأخرىٰ مع المجلَّلِ بنِ وائلٍ، وأمَرَ شبيبٌ سُويداً أن يحملَ، فحمَلَ علىٰ جيشِ الحجّاج، فصبَروا له حتىٰ إذا دنا منهم، وثَبوا إليه وثبةً واحدةً، فانهزَمَ عنهم، فنادىٰ الحجاجُ: يا أهلَ السمعِ والطاعة، هكذا فافعَلوا. ثم أمَرَ الحجاجُ، فقُدِّمَ كرسيُّه الذي هوَ جالسٌ عليه إلىٰ الأمام، ثم أمَرَ شبيبٌ المجلَّلَ أن يحملَ، ففعَلوا به كما فعَلوا بسُويدٍ، وقال لهم الحجاجُ كما قال لأولئك، وقدَّم كرسيَّه إلىٰ أمامٍ، ثم إن شبيبًا حمَلَ عليهم في كتيبته، فثبَتوا له حتىٰ إذا غَشِيَ أطرافَ الرِّماحِ وثَبوا في وجهِهِ فقاتَلَهم طويلاً، ثم إنَّ أهلَ الشامِ طاعَنوه قُدُمًا حتىٰ ألحَقوه بأصحابِه، فلمَّا رأىٰ صبرَهم نادىٰ: يا سويدُ، احمِلْ في خيْلِك علىٰ أهلِ هذه السِّكَّة، لعلَّك تُزيلُ أهلَها عنها، فأتِ الحجاجَ مِن ورائه، ونحمِلُ نحن عليه مِن أمامِه. فحمَلَ فلم يُفِدْ ذلك شيئًا وذلك أنَّ الحجاجَ كان قد جعَلَ عروةَ بنَ المغيرةِ بنِ شعبةَ في ثلاثمائة فارسٍ رِدْءًا له مِن ورائه لئلا يُؤْتَوا مِن خلفِهم، وكان الحجاجُ بصيرًا بالحربِ أيضًا، فعندَ ذلك حرَّض شبيبٌ أصحابَه علىٰ الحملةِ، وأمرَهم بها، ففهِم ذلك الحجاجُ، فنادىٰ: يا أهلَ السمعِ والطاعة، اصبِروا لهذه الشدة الواحدة، ثم وربِّ السماءِ والأرضِ، ما شيءٌ دونَ الفتح. فجثَوا علىٰ الرُّكَبِ، وحمَلَ عليهم شبيبٌ بجميعِ أصحابِه، فلما غَشِيَهم نادىٰ الحجاجُ بجماعةِ الناسِ فوثَبوا في وجهِه، فما زالوا يَطْعَنون ويُطعَنون، وهم مُسْتَظْهِرون علىٰ شبيبٍ وأصحابِه حتىٰ ردُّوهم عن مواقِفِهم إلىٰ ما وراءَها، فنادىٰ شبيبٌ في أصحابِه: يا أولياءَ الله، الأرضَ الأرضَ. ثم نزَل ونزَل أصحابُه، وجاء الحجاجُ فنادىٰ: يا أهلَ الشامِ، يا أهلَ السمعِ والطاعة، هذا أولُ النصرِ والذي نفسي بيدِه. وصعِد مسجدًا هنالك لشبيبٍ، ومعه نحوٌ مِن عشرين رجلاً معهم النَّبلُ، واقْتَتَلَ الناسُ قتالاً شديدًا عامةَ النهارِ، مِن أشدِّ قتالٍ في الأرضِ، حتىٰ أقرَّ كلُّ واحدٍ مِن الفريقين لصاحبِه، والحجاجُ ينظُرُ إلىٰ الفريقين مِن مكانه، ثم إنَّ خالدَ بنَ عتابٍ استأذَنَ الحجاجَ في أن يركبَ في جماعةٍ فيأتيَ الخوارجَ مِن ورائهم، فأذِن له، فانْطَلَقَ في جماعةٍ معه؛ نحوٍ من أربعةِ آلافٍ، فدخَلَ عَسْكَرَ الخوارجِ مِن ورائهم فقتَل مصادًا أخا شبيبٍ، وغزالةَ امرأةَ شبيبٍ؛ قَتَلَها رجلٌ يقالُ له: فروةُ بنُ دقّانَ الكلبيُّ. وخرَقَ في جيشِ شبيبٍ، ففرِح بذلك الحجاجُ وأصحابُه وكبَّروا، وانصرَفَ شبيبٌ وأصحابُه كلٌّ منهم علىٰ فرسٍ، فأمَرَ الحجاجُ الناسَ أن يَنْطَلِقوا في تَطَلُّبِهم، فشَدُّوا عليهم فهزَموهم، وتَخَلَّفَ شبيبٌ في حاميةِ النّاسِ، ثم انْطَلَقَ واتَّبَعه الطَّلَبُ، فجعَل يَنْعَسُ وهو علىٰ فرسِه حتىٰ يَخْفِقَ برأسِه، ودنا منه الطلبُ، فجعَل بعضُ أصحابِه ينهاه عن النُّعاسِ في هذه الساعة، فجعلَ لا يَكْتَرِثُ بهم، ويعودُ فيَخْفِقُ رأسُه، فلمّا طال ذلك، بعَث الحجاجُ إلىٰ أصحابِه يقولُ: دَعُوه في حَرَقِ النارِ. فتركوه ورجَعوا.

ثم دخَلَ الحجاجُ الكوفةَ فخطَب الناسَ فقال في خطبته: إن شبيبًا لم يُهْزَمْ قبلَها. ثم قصَد شبيبٌ الكوفةَ، فخرَجت إليه سَرِيَّةٌ مِن جيشِ الحجاجِ، فالتقَوا معه يومَ الأربعاءِ، فهُزِم الخوارجُ يومَ الجمعة،

وسارت الخوارجُ هاربين. وكان على سرية الحجاج الحارثُ بنُ معاوية الثَّقفيُّ في ألف فارس معه، فحمَل شبيبٌ على الحارث بن معاوية، فكسَرَه ومَن معه، وقتَل منهم طائفةً، ودخَل الناسُ الكوفةَ هاربين، وحصَّن الناسُ السكك، فخرَج إليه أبو الورد مولى الحجاج في طائفة من الجيش، فقاتل حتى قتِل، ثم هرَب أصحابُه ودخَلوا الكوفةَ، ثم خرَج إليه أميرٌ آخرُ فانكسرَ أيضًا، ثم سار شبيبٌ بأصحابه نحوَ السواد، فمرُّوا بعامل الحجاج على تلك البلاد فقتَلوه، ثم خطَب أصحابَه وقال: اشْتَغَلْتُم بالدُّنيا عن الآخرة. ثم رمَى بالمال في الفرات، ثم سار بهم حتى افْتَتَح بلادًا كثيرةً، ولا يبرُزُ له أحدٌ إلا قتَلَه، ثم خرَجَ إليه بعَضُ الأمراء الذين على بعض المدن، فقال له: يا شبيبُ، ابرُزْ إليَّ وأبرُزُ إليك - وكان صديقَه - فقال له شبيبٌ: إنِّي لا أُحِبُّ قتْلَك. فقال له: لكنِّي أُحِبُّ قتْلَك، فلا تغُرَّنك نفسُك، وما تَقَدَّمَ من الوقائع. ثم حمَل عليه فضَربَه شبيبٌ على رأسه، فهمَس رأسَه حتى اختلَط دماغُه بلحمه وعظمه، ثم كفَّنه ودفَنه، ثم إنَّ الحجاجَ أنفَق أموالاً كثيرةً على الجيوش والعساكر في طلب شبيب فلم يُطيقُوه ولم يَقْدِروا عليه، وإنما سلَّط اللهُ عليه موتًا قدَرًا، من غير صُنْعهم، ولا صُنْعه في هذه السنة.

ذكرُ مقتل شبيب في هذه السنة عند ابن الكلبيِّ

وكان سببَ ذلك أنَّ الحجاجَ كتَب إلى نائبه على البصرة؛ الحكم بن أيوبَ بن الحكم بن أبي عقيل، وهو زوجُ ابنة الحجاج، يأمُرُه أن يَجَهِّزَ جيشًا أربعةَ آلاف يتطلَّبون شبيبًا، ويكونون تبعًا لسفيانَ بن الأبرد، ففعَل فالتقَوا فاقتَتَلوا قتالاً شديدًا، وصبَر كلٌّ من الفَريقَيْن لصاحبه، ثم عَزم أصحابُ الحجاج فحمَلوا على الخوارج، ففَرُّوا بينَ أيديهم ذاهبين حتى اضْطَرُّوهم إلى جسر هناك، فوقفَ عندَه شبيبٌ، في مائة من أصحابه، وعجَز سفيانُ بنُ الأبرد عن مقاومته، وردَّه عن موقفه هذا بعدَما تقاتَلوا نهارًا كاملاً أشدَّ قتال يكونُ، ثم أمَر سفيانُ بنُ الأبرد الرُّماةَ من أصحابه، فرشَقُوهم بالنَّبل رَشْقًا واحدًا، ففرَّت الخوارجُ، ثم كرَّتْ على الرُّماة، فقتَلوا منهم نحوًا من ثلاثين رجلاً، من أصحاب ابن الأبرد، وجاء الليلُ بظلامه، فكَفَّ الناسُ بعضُهم عن بعض، وبات كلٌّ من الفريقين مُصرًّا على مناهضَة الآخر، فلمّا طلَع الفجرُ، عبَر شبيبٌ وأصحابُه على الجسر، فبينَما شبيبٌ على متن الجسر، وهو على حصان له وبينَ يديه فرسٌ أنثى، فنزا فرسُه وهو على الجسر، ونزَل حافرُ رِجْل فرس شبيب على حَرْف السفينة فسقَط في الماء، فقال: لِيَقْضي اللهُ أمرًا كان مفعولاً. ثم انغمَر في الماء، ثم ارتفَع وهو يقولُ: ذلك تقديرُ العزيز العليم. فغرق.

ولمّا تحقَّقَت الخوارج سقوطَه في الماء كَرُّوا، وانصرَفوا ذاهبين مُفَرَّقين في البلاد، وجاء أميرُ جيش الحجّاج فاستخرَج شبيبًا من الماء، وعليه دِرْعُه، ثم أمَر به فشُقَّ صدرُه، فاستُخرج قلبُه، فإذا هو

مجتمعٌ صُلْبٌ كأنَّه صخرةٌ، وكانوا يضربون به الأرضَ فيثبُ قامةَ الإنسان. وقيل: إنَّه كان معه رجالٌ قد أبْغَضُوه لما أصابَ من عشائرهم، فلمَّا تَخَلَّفَ في السَّاقَة، اشْتَوَرُوا وقالوا: نَقْطَعُ الجسرَ به. ففَعلوا ذلك، فمالَت السفنُ بالجسرِ، ونفَر فرسُه، فسقَط في الماءِ فغرق، فنادَوا: غرِق أميرُ المؤمنين. فعرَف جيشُ الحجاجِ ذلك فجاءُوا فاستخرَجوه.

ولمَّا نُعي شبيبٌ إلى أمِّه، قالت: صدَقْتُم، إنِّي كنتُ رأيتُ في المنام، وأنا حاملٌ به أنَّه قد خرَج منِّي شهابٌ من نارٍ، فعلمتُ أنَّه لا يُطفِئُه إلاَّ الماءُ.

وكانت أمُّه جاريةً اسمُها جَهيزَةُ، وكانتَ جميلةً، وكانت من أشجعِ النساءِ، تقاتِلُ مع ابنِها في الحروب.

وذكَر القاضي ابنُ خَلِّكان أنَّها قُتِلَت في هذه الغزوة. وكذلك قُتِلَت زوجتُه غزالةُ. وكانت شديدةَ البأسِ خارجيةً، وكان الحجّاجُ مع هَيْبتِه يخافُ منها أشدَّ خوفٍ، حتى قال فيه بعضُ الشعراء:

أسدٌ عليَّ وفي الحروب نعامةٌ ... فَتْخاءُ تَنْفِرُ من صَفِيرِ الصافرِ
هلاَّ بَرَزْتَ إلى غزالةَ في الوَغَى ... بل كانَ قلبُكَ في جناحَيْ طائرِ

قال: وقد كان شبيبُ بنُ يزيدَ بنِ نعيم بنِ قيسِ بنِ عمرِو بنِ الصَّلْتِ بنِ قيسِ بنِ شراحيلَ بنِ مُرَّةَ ابنِ ذُهْلِ بنِ شيْبانَ الشَّيْبانيُّ - يَدَّعي الخلافةَ، ويَتَسَمَّى بأميرِ المؤمنين، ولولا أنَّ اللهَ تعالى قهَرَه بما قهَرَه به من الغرَقِ لنال الخلافةَ إن شاءَ اللهُ، ولَما قدَر عليه أحدٌ، وإنَّما قهَره اللهُ على يدَي الحجاجِ لَمَّا أرْسَلَ إليه أميرُ المؤمنينَ عبدُ الملكِ بعساكرَ لقتاله، فهرَب غيرَ مرةٍ، ولمَّا ألقاه جوادُه عن الجسرِ في نَهْرِ دُجَيلٍ قال له رجلٌ: أغَرَقًا يا أميرَ المؤمنين؟ قال: ذلك تقديرُ العزيزِ العليم. قال: ثم أُخرِج، وحُمِل إلى الحجاجِ، فأمَر فنُزِع قلبُه مِن صدرِه. فإذا هو مثلُ الحجرِ.

وكان رجلاً طويلاً أشْمَطَ جَعْدًا. وكان مولدُه في يومِ عيدِ النحرِ سنةَ ستٍّ وعشرين. وقد أُمْسِك رجلٌ من أصحابِه فحُمِل إلى عبدِ الملكِ بنِ مروان، فقال له: ألَسْتَ القائلَ:

فإن يَكُ منكم كانَ مروانُ وابنُه ... وعمرٌو ومنكم هاشمٌ وحبيبُ
فمنَّا حُصَينٌ والبَطِينُ وقَعْنَبٌ ... ومنَّا أميرُ المؤمنينَ شبيبُ

فقال: إنَّما قلتُ: ومنا أميرَ المؤمنين شبيبُ. فأعجبَه اعتذارُه وأطلقَه.

وفي هذه السنة كانَت حروبٌ كثيرةٌ جدًّا بينَ المُهَلَّبِ بنِ أبي صُفْرَةَ نائبِ الحجاجِ، وبينَ الخوارجِ مِن الأزارقة، وأميرُهم قَطَرِيُّ بنُ الفُجَاءَةِ، وكان أيضًا مِن الفرسانِ الشُّجعانِ المَذْكورين المَشْهورين، وقد تَفَرَّق عنه أصحابُه، ونفَروا في هذه السنة، وأمَّا هو فشرَد في الأرضِ لا يُدْرَىٰ أين ذهَب، وقد جرَت بينَهم مناوشاتٌ ومجاولاتٌ يطولُ بَسْطُها واستِقْصَاؤها، وقد بالَغ ابنُ جريرٍ في ذكرِها.

قال: وفي هذه السنةِ ثارَ بُكَيرُ بنُ وِشاحٍ، الذي كان نائبَ خُراسانَ، على نائبِها أُمَيَّةَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ

خالدِ بنِ أَسيدٍ - كما سيأتي - وذلك أنَّ بكيرًا استَجَاشَ عليه الناسَ، وغَدَرَ به وقتَله، وقد جرَت بينَهما خُطوبٌ طويلةٌ قد استَقْصاها أبو جعفرٍ، رحمه اللهُ، في «تاريخه».

وفي هذه السنةِ كانت وفاةُ شبيبِ بنِ يزيدَ الخارجيِّ - كما قدَّمْنا - وقد كان من الشَّجاعةِ والفروسيَّةِ على جانبٍ كبيرٍ لم أرَ بعدَ عصرِ الصحابةِ مثلَه، ومثلَ الأشترِ وابنِه إبراهيمَ، ومُصْعَبِ بنِ الزُّبيرِ وأخيه عبدِ اللهِ، وممَّن يُناطُ بهؤلاءِ في الشجاعةِ؛ مثلَ قَطَريِّ بنِ الفُجاءةِ من الأزارقةِ الخوارجِ. واللهُ أعلمُ.

وفيها تُوُفِّيَ من الأعيان:

كثيرُ بنُ الصَّلْتِ بنِ مَعْدي كَربَ الكِنْديُّ، كان كبيرًا مطاعًا في قومِه، وله بالمدينةِ دارٌ كبيرةٌ بالمصلَّى، وقيل: إنَّه كان كاتبَ عبدِ الملكِ على الرسائلِ. تُوُفِّيَ بالشامِ.

محمدُ بنُ موسى بنِ طلحةَ بنِ عُبَيْدِ اللهِ، كانت أختُه تحتَ عبدِ الملكِ وولَّاه سجِسْتانَ، فلما سَار إليها قيل له: إنَّ شبيبًا في طريقِك وقد أعْيا الناسَ، فاعدِلْ إليه لعلَّك أن تَقْتُلَه، فيكونَ ذكرُ ذلك وشهرتُه لك إلى الأبدِ، فلمّا سار لقيه شبيبٌ، فاقْتَتَل معه فقتَلَه شبيبٌ. وقيل غيرُ ذلك، واللهُ أعلمُ.

عياضُ بنُ عَمْرٍو الأشْعَريُّ: شهِد اليرموكَ، وحدَّث عن جماعةٍ من الصحابةِ وغيرِهم، تُوُفِّي بالبصرةِ، رحمَه اللهُ.

مُطَرِّفُ بنُ المُغيرةِ بنِ شُعبةَ: وقد كانوا إخوةً؛ عُروةُ ومُطَرِّفٌ وحمزةُ، وقد كانوا يميلُون إلى بني أُميَّةَ، فاستعملَهم الحجاجُ على أقاليمَ؛ فاستعمَل عُروةَ على الكوفةِ، ومطرِّفًا على المدائنِ، وحمزةَ على همْدانَ.

* * *

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين

ففيها كانت غزوةٌ عظيمةٌ للمسلمين ببلادِ الرُّوم ففتَحُوا إرقيلِيَّةَ، فلمّا رجَعوا أصابَهم مطرٌ عظيمٌ وثلجٌ وبَرَدٌ، فأُصيبَ بسببِه ناسٌ كثيرٌ.

وفيها ولَّى عبدُ الملك موسىٰ بنَ نصير غزوَ بلادِ المغرب جميعه، فسار إلىٰ طَنْجَةَ، وقدَّم علىٰ مُقَدِّمته طارقًا، فقتَلوا ملوكَ تلك البلاد، وبعضُهم قطَعوا أنفَه ونفَوه.

وفيها عزَل عبدُ الملك أميةَ بنَ عبدِ الله عن إمرةِ خُراسانَ، وأضافها إلى الحجاجِ بنِ يوسفَ الثقفيِّ مع سِجِسْتانَ أيضًا، وركِب الحجاجُ بعدَ فراغه من شأنِ شبيبٍ من الكوفة إلى البصرة، وقد استخْلَف علىٰ الكوفة المغيرةَ بنَ عبد الله بنِ عامرٍ الحضرميَّ، فقدِم المهلَّبُ علىٰ الحجاج وهو بالبصرة، وقد فرَغ من شأن الأزارقة أيضًا، فأجلَسه معه علىٰ السَّرير، واستدعَىٰ بأصحاب البلاء من جيشه، فمَن أثنَىٰ عليه المهلَّبُ أجزَل الحجاجُ له العطيَّةَ، ثم ولَّىٰ الحجاجُ المهلَّبَ إمرةَ سجِسْتانَ، وولَّىٰ عُبيدَ الله بنَ أبي بَكْرَةَ إمرةَ خراسانَ، ثم ناقَل بينَهما قبلَ خُروجهما من عنده، فقيل: كان ذلك بإشارة المهلَّب. وقيل: إنَّه استعان بصاحب الشُّرطة، وهو عبدُ الرحمنِ بنُ عبيدِ بنِ طارقٍ العَبْشَميُّ، حتىٰ أشار علىٰ الحجاج بذلك، فأجابَه الحجّاجُ إلىٰ ذلك، وألزَم المهلَّبَ بألفِ ألفِ درهمٍ؛ لكونِه اعترَض علىٰ ذلك.

قال أبو معشر: وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ الوليدُ بنُ عبد الملك، وكان أميرُ المدينة أبانَ بنَ عثمانَ، وأميرُ العراقِ وخراسانَ وسجِستانَ وتلكَ النواحي كلِّها الحجاجَ، ونائبُه علىٰ خراسانَ المهلَّبَ بنَ أبي صُفرةَ، ونائبُه علىٰ سجِسْتانَ عبيدَ الله بنَ أبي بَكْرَةَ الثقفيَّ، وعلىٰ قضاءِ الكوفة شُريحٌ، وعلىٰ قضاءِ البصرةِ موسىٰ بنُ أنسِ بنِ مالكٍ الأنصاريُّ.

وقد تُوفِّي في هذه السنة من الأعيان:

جابرُ بنُ عبد الله بن عمرِو بن حرام، أبو عبد الله الأنصاريُّ السُّلَميُّ، صاحبُ رسولِ الله ﷺ، وله رواياتٌ كثيرةٌ، وشهِد العقبةَ، وأراد أنْ يَشْهَدَ بدرًا فمنَعه أبوه، وخلَّفه علىٰ أخواته وإخوته، وكانوا تسعةً، وقيل: إنَّه ذهَب بصرُه قبلَ موته. توفِّي جابرٌ بالمدينة وعمرُه أربعٌ وتسعون سنةً، وأسندَ ألفًا وخمسَمائةٍ وأربعين حديثًا.

شُرَيحُ بنُ الحارث بن قيس أبو أُمَيةَ الكنديُّ، وهو قاضي الكوفة، وقد تولَّىٰ القضاءَ لعمرَ بنِ الخطاب وعثمانَ بنِ عفانَ وعليِّ بنِ أبي طالبٍ، ثم عزَله عليٌّ، ثم ولاه معاويةُ، ثم استقَلَّ في القضاءِ إلىٰ أنْ مات في هذه السنة. وكان رزقُه علىٰ القضاءِ في كلِّ شهرٍ مائةَ درهمٍ، وقيل: خمسَمائةِ درهمٍ. وكان إذا خرَج إلىٰ القضاء، يقولُ: سيعلَمُ الظالمُ حظَّ مَن نقَص. وقيل: إنه كان إذا جلَس للقضاء قرأ هذه الآيةَ: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾ الآية [ص: ٢٦]. وكان يقولُ: إنَّ الظالمَ ينتظِرُ العقابَ والمظلومَ ينتظِرُ النصرَ، أو المثوبةَ.

وقيل له: كيف أصبحتَ؟ فقال: كيف يُصبحُ حالُ مَن شَطرُ الناسِ عليه غضبانُ؟ وقيل: إنَّه مكث قاضيًا نحوَ سبعينَ سنةً. وقيل: إنَّه استُعفي من القضاءِ قبلَ موتِه بسنةٍ. فاللهُ أعلمُ.

وأصلُه من أولادِ الفُرسِ الذين كانوا باليمنِ، وقدِمَ المدينةَ بعد موتِ النبيِّ ﷺ، وتُوفِّي بالكوفةِ وعمرُه مائةٌ وثمانِ سنينَ.

عبدُ الرحمن بنُ غَنْم الأشعريُّ، نزيلُ فلسطينَ، وقد روىٰ عن جماعةٍ من الصحابةِ، وقيل: إنَّ له صُحبةً. وقد بعثه عمرُ بنُ الخطاب إلى الشام ليفقِّهَ أهلَها في الدينِ، وكان من العُبَّادِ الصالحين.

جُنادةُ بنُ أبي أُميَّةَ الأزديُّ، شهِد فتحَ مصرَ، وكان أميرًا علىٰ غزوِ البحر لمعاويةَ، وكان موصوفًا بالشجاعة والخيرِ، توفِّي بالشام وقد قارَب الثمانين.

العلاء بنُ زياد البصريُّ، كان من الصالحين العبّادِ، من أهلِ البصرةِ، وكان كثيرَ الخوفِ والوَرَعِ، وكان يعتزِلُ في بيتِه، ولا يخالطُ الناسَ، وكان كثيرَ البكاءِ، لم يزَلْ يبكي حتىٰ عميَ، وله مناقبُ كثيرةٌ، توفِّي بالبصرةِ في هذه السنةِ.

سُراقةُ بنُ مرداسٍ الأزديُّ، كان شاعرًا مطبقًا، هجا الحجاجَ فنفاه إلى الشام، فتُوفِّي بها.

النابغةُ الجعديُّ الشاعرُ.

السائبُ بنُ يزيدَ الكنديُّ، توفِّيَ في هذه السنةِ.

سفيانُ بنُ سلمةَ الأسديُّ.

معاويةُ بنُ قُرَّةَ البصريُّ.

زِرُّ بنُ حُبَيْش.

* * *

ثم دخلت سنة تسع وسبعين

ففيها وقع طاعونٌ عظيمٌ بالشام حتى كادوا يَفنَون من شدّته، ولم يغزُ فيها أحدٌ من أهلِ الشام لضعفهم وقلّتهم، ووصلت الرومُ فيها إلى أنطاكيَّة، فأصابوا خَلْقًا من أهلها؛ لعلمهم بضَعْف الجُنود والمُقاتلة.

وفيها غزا عُبيدُ الله ابنُ أبي بَكْرةَ رُتْبيلَ ملك التُّرك حتى أوغَل في بلاده، ثم صالحه على مالٍ يحملُه إليه في كلِّ سنة.

وفيها قتَل عبدُ الملك بنُ مروانَ الحارثَ بنَ سَعيدٍ المُتنبِّئَ الكذّابَ، ويُقالُ له: الحارثُ بنُ عبد الرحمنِ بنِ سعيدٍ الدمشقيُّ، مَولَى أبي الجُلاسِ العَبْدَريِّ. ويُقالُ: مولى الحَكَمِ بنِ مروانَ. كان أصلُه من الحُولَة فنزَل دمشقَ، وتعبَّد بها، وتنسَّك وتزهَّد، ثم مُكِر به، ورجَع القَهقَرى على عَقِبِه، وانسلَخ من آيات الله تعالى، وفارَق حِزبَ الله المُفلحين، وأتبَعه الشيطانُ فكان منَ الغاوين، ولم يَزَل الشيطانُ يَزُخُّ في قَفَاه حتى أخسَره دينَه ودنياه، وأخزاه فيهما وأشقاه، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وحَسْبُنا اللهُ ولا حَولَ ولا قُوَّةَ إلاّ بالله.

قال أبو بكر ابنُ أبي خيثمةَ: ثنا عبدُ الوهّاب بنُ نَجدةَ الحَوْطيُّ، حدّثنا محمدُ بنُ مُبارك، ثنا الوَليدُ بنُ مُسلم، عن عبد الرحمنِ بنِ حَسّان[1]، قال: كان الحارثُ الكذّابُ من أهلِ دمشقَ، وكان مولًى لأبي الجُلاسِ، وكان له أبٌ بالحُولَة، فعرَض له إبليسُ، وكان رجلاً متعبِّدًا زاهدًا، لو لبس جُبَّةً من ذهَبٍ لرُئيت عليه الزَّهادةُ والعبادةُ، وكان إذا أخَذ في التحميد، لم يسمَع السامعون مثلَ تحميده، ولا أحسنَ من كَلامه، فكتَب إلى أبيه، وكان بالحُولَة: يا أبتاه، أَعجِلْ عليَّ؛ فإنّي قد رأيتُ أشياءَ أتخوَّفُ أن يكونَ الشيطانُ قد عرضَ لي. قال: فزاده أبوه غَيًّا على غَيِّه، فكتَب إليه أبوه: يا بُنيَّ، أقبِلْ على ما أُمرتَ به، فإنَّ اللهَ تعالى، يقولُ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]. ولستَ بأفّاكٍ ولا أثيمٍ، فامضِ لما أُمرتَ به. فكان يَجيء إلى أهلِ المسجد، رجلاً رجلاً، فيذاكرُهم أمرَه، ويأخُذُ عليهم العهدَ والميثاقَ، إن هو يرى ما يرضى قَبِلَ وإلاّ كتَم عليه.

قال: وكان يُريهم الأعاجيبَ؛ كان يأتي إلى رُخامةٍ في المسجد، فينقُرُها بيده، فتسبِّحُ تسبيحًا بليغًا حتى يضجَّ من ذلك الحاضرون. قلت: وقد سمعتُ شيخَنا العَلاّمةَ أبا العبّاسِ ابنَ تيميةَ، رحمه اللهُ، يقولُ: كان ينقُرُ هذه الرُّخامةَ الحمراءَ التي في المقصورة، فتسبِّحُ، وكان زنديقًا.

قال ابنُ أبي خيثمةَ في رواية: وكان الحارثُ يُطعمُهم فاكهةَ الشتاء في الصيف، وفاكهةَ الصيف في الشتاء، وكان يقولُ لهم: اخرُجوا حتى أريكم الملائكة. فيخرُجُ بهم إلى دَيرِ المُرّان، فيُريهم رجالاً على خيلٍ، فتَبِعه على ذلك بشرٌ كثيرٌ، وفشا أمرُه في المسجد، وكثُرَ أصحابُه وأتباعُه، حتى وصَل

---

(١) ما برز من إسناده رجاله ثقات إلا عبد الرحمن بن حسان وهو الكناني فهو حسن الحديث.

الأمرُ إلى القاسمِ بنِ مُخَيمرةَ، قال: فعرَض على القاسم أمرَه، وأخَذ عليه العهدَ والميثاقَ؛ **إن هو رضِي أمرًا قبِله، وإن كرِهه كتَم عليه**. قال: فقال له: إني نَبيٌّ. فقال القاسمُ: كذَبتَ يا عدوَّ الله، ما أنت بنبيٍّ.

وفي رواية: ولكنَّك أحدُ الكذّابين الدجّالين الذين أخبرَ عنهم رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ الساعةَ لا تقومُ حتى يخرُجَ ثلاثون دجّالون كذّابون، كلُّهم يزعُمُ أنّه نَبيٌّ**»[1] . وأنت أحدُهم ولا عهدَ لك. قال: ثم قام، فخرَج إلى أبي إدريسَ - وكان على القضاء بدمشقَ - فأعلَمَه بما سمع من الحارث، فقال أبو إدريسَ: نعرِفُه. ثم أعلَم أبو إدريسَ عبدَ الملك بذلك.

وفي رواية أخرى أنَّ مَكْحُولاً، وعبدَ الله ابنَ أبي زكريا دخَلا على الحارث، فدعاهما إلى نبوَّته، فكذَّباه وردّا عليه ما قال، ودخَلا على عبدِ الملك فأعلَماه بأمرِه، فتطلَّبه عبدُ الملك طَلَبًا حثيثًا، واختفَى الحارثُ، وصار إلى دار ببيتِ المقدس يدعو إلى نفسه سـرًّا، واهتَمَّ عبدُ الملك بشأنه حتى ركِب إلى الصِّنَّبرة، فنزَلها فورَد عليه هناك رجلٌ من المسلمين من أهلِ البصرة ممَّن كان يدخُلُ على الحارث، وهو ببيت المقدس، فأعلَمه بأمره وأين هو، وسأَل من عبدِ الملك أن يبعَثَ معه بطائفة من الجند الأتراك ليحتاطَ عليه، فأرسلَ معه طائفةً، وكتَب إلى نائب القدس؛ ليكونَ في طاعة هذا الرجُلِ، ويفعَلَ ما يأمُرُه به، فلما وصَل الرجلُ إلى بيتِ المقدس بمَن معه انتَدب نائبُ القدسِ لخدمته، فأمَره أن يَجمَعَ ما يقدرُ عليه من الشموع، ويَجعَل مع كلِّ رجلٍ شمعةً، فإذا أمَرهم بإشعالها في الليلِ أشعَلوها كلُّهم في سائرِ الطرقِ والأزقَّة، حتى لا يخفَى أمرُه، وذهَب الرجلُ بنفسه، فدخَل الدارَ التي فيها الحارثُ، فقال لبوابِه: استأذن لي على نبيِّ الله. فقال: في هذه الساعة لا يُؤذَنُ عليه حتى يُصبحَ. فصاح البصريُّ: أَسرِجوا. فأسرَجَ الناسُ شموعَهم حتى صار الليلُ كأنَّه النهارُ، وهجَم البصريُّ على الحارث، فاختفَى منه في سَرَبٍ هناك، فقال أصحابُه: هَيهاتَ، تُريدون أن تصلوا إلى نبيِّ الله! إنه قد رُفِع إلى السماء.

قال: فأدخَل البصريُّ يدَه في ذلك السَّرَبِ، فإذا بثوبِه، فاجترَّه فأخرَجه، ثم قال للفَرْغانيِّين من أتراك الخليفة: تسلَّموا. قال: فأخَذوه فربَطوه وقيَّدوه. فيقالُ: إن القيودَ والجامعةَ سقَطت من عنُقه مرارًا، ويعيدونها. وجعَل يقرأُ: ﴿**قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ**﴾ [سبأ: ٥٠]. وقال لأولئك الأتراك: ﴿**أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ**﴾ [غافر: ٢٨]. فقالوا له بلسانهم ولغتهم: هذا كُرانُنا فهات كُرانَك. أي هذا قرآنُنا فهات قرآنَك، فلمّا انتهَوا به إلى عبدِ الملك، أمَر بصَلبِه على خَشَبة، وأمَر رجلاً فطعَنه بحربة، فانثَنت في ضِلَعٍ من أضلاعه، فقال له عبدُ الملك: ويْحَك، أذكَرتَ اسمَ الله حينَ طعَنْتَه فقال: نسيتُ. فقال: ويحَك، سمِّ اللهَ، ثم اطعَنْه. قال: فذكَر اسمَ الله ثم طعَنه، فأنفَذه. وقد كان عبدُ الملك حبَسه قبلَ صلبِه، وأمَر رجالاً من

---

(١) صحيح قد تقدم

أهلِ العلمِ والفقهِ أنْ يعظُوه ويُعلمُوه؛ أنَّ هذا الذي به من الشَّيطانِ، فأبى أنْ يَقْبلَ منهم، فصلَبه بعدَ ذلك، وهذا من تمامِ العَدْلِ والدِّينِ.

وقد قال الوليدُ بنُ مسلم،عن ابنِ جابر، فحدَّثني مَن سمع عُتْبةَ الأعورَ يقولُ: سمعتُ العلاءَ بنَ زيادٍ العَدَويَّ يقولُ: ما غَبَطتُ عبدَ الملك بشيءٍ من ولايته إلاَّ بقتْله حارثًا، حُدِّثتُ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **«لا تقومُ السّاعةُ حتى يَخرُجَ ثلاثونَ دجَّالونَ كذَّابونَ كلُّهم يَزْعُمُ أنَّه نبيٌّ، فمَن قاله فاقتُلوه، ومَن قتَل منهم أحدًا فله الجنةُ»** (١).

وقال الوليدُ بنُ مسلم:بلَغَني أنَّ خالدَ بنَ يزيدَ بنِ معاويةَ قال لعبدِ الملك: لو حضَرْتُك ما أمرْتُك بقتله. قال: ولِمَ؟ قال: إنَّه إنَّما كان به المُذْهبُ، فلو جوَّعتَه لذهَبَ ذلك عنه. وقال الوليدُ، عن المنذرِ بنِ نافعٍ: سمعتُ خالدَ بنَ اللَّجْلاجِ يقولُ لغَيْلانَ: ويحَك يا غَيْلانُ، ألم يأخُذْك في شَبِيبَتِك: تُرامي النِّساءَ في شهرِ رمضان بالتُّفَّاحِ، ثم صِرْتَ حارثيًّا يَحْجُبُ امرأتَه، ويَزْعُمُ أنَّها أمُّ المؤمنينَ، ثم تَحوَّلتَ فصِرْتَ قَدَريًّا زِنْديقًا.

وفيها غزَا عبيدُ الله ابنُ أبي بَكْرَةَ رُتْبِيلَ - ملكَ التُّرْك الأعظمَ فيهم - وقد كان يُصانعُ المسلمينَ تارةً، ويَتَمرَّدُ أُخرىٰ، فكتَب الحجَّاجُ إلىٰ ابنِ عبيدِ الله ابنِ أبي بكرةَ أنْ ناجِزْه بمَن معك من المسلمين حتىٰ تَسْتَبيحَ أرضَه، وتَهدِمَ قلاعَه، وتَقْتُلَ مُقاتلتَه.

فخرَج في جَمْعٍ من الجنودِ من بلاده وخَلْقٍ من أهلِ البصرةِ والكوفة، ثم التقىٰ مع رُتْبِيلَ - ملكِ التُّرْك - فكسَره وهدَم أركانَه بسَطْوةٍ بتَّارةٍ، وجاسَ ابنُ أبي بكرةَ وجُنْدُه خلالَ ديارِهم، واستَحْوذَ علىٰ كثيرٍ من أقاليمِه ومُدُنِه وأمصارِه، وتبَّرَ ما هُنالكَ تَتْبيرًا، ثم إنَّ رُتْبِيلَ تقَهْقر منه مُنْشمِرًا، وما زال يَتْبعُه حتىٰ اقترَبَ من مدينته العُظْمىٰ، حتىٰ كانوا منها علىٰ ثمانيةَ عشرَ فَرْسخًا، وخافت الأتراكُ منهم خوفًا شديدًا، ثم إنَّ التركَ أخذَتْ عليهم الطُّرُقَ والشِّعابَ، وضيَّقوا عليهم المسالكَ حتىٰ ظَنَّ كُلٌّ من المسلمينَ أنه لا محالة هالكٌ، فعندَ ذلك طلَب عبيدُ الله أنْ يُصالحَ رُتْبِيلَ علىٰ أن يدفَعَ إليه سبعَمائةِ ألفٍ، ويَفْتحُوا للمسلمينَ طريقًا يَخْرُجونَ منه، ويرجعُونَ عنهم إلىٰ بلادهم.

فانتدَب شُرَيحُ بنُ هانئٍ الحارثيُّ - وكان صحابيًّا، وكان من أكبرِ أصحابِ عليٍّ، وهو المُقَدَّمُ علىٰ أهلِ الكوفة - فندَب الناسَ إلىٰ القتالِ والمُصابرةِ والنِّزالِ والجلادِ بالسُّيوفِ والرِّماحِ والنِّبالِ، فنهاه عُبيدُ الله ابنُ أبي بكرةَ، فلم يَنْتَهِ، وأجابَه شِرْذِمةٌ من النَّاسِ من الشُّجعانِ وأهلِ الحفائظِ، فما زال يُقاتِلُ بهم التركَ حتىٰ فَنِي أكثرُ المسلمين، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون. قالوا: وجعَل شُرَيحُ بنُ هانئٍ يَرْتَجِزُ، ويقولُ:

---

(١) إسناده ضعيف بهذا السياق.

أصبحتُ ذا بثٍّ أُقاسي الكِبَرا ... قد عشتُ بينَ المشركينَ أَعْصُرا
ثُمَّتَ أدركتُ النبيَّ المُنْذِرا ... وبعدَه صِدِّيقَه وعُمَرا
ويومَ مِهْرانَ ويومَ تُسْتَرا ... والجَمْعَ في صِفِّينِهم والنَّهَرا
هَيْهاتَ ما أطولَ هذا عُمُرا

ثم قاتَل حتى قُتِل رضي اللهُ عنه، وقُتِل معه خَلْقٌ من أصحابه، ثم خرَج مَن خرَج مِن النّاسِ صُحبةَ عُبيدِ اللهِ بن أبي بكْرةَ من أرضِ رُتْبيلَ، وهم قليلٌ، وبلَغ ذلك الحجّاجَ، فأخَذه ما تقدَّم، وما تأخَّر. وكتَب إلى عبدِ الملك يُعلِمُه بذلك، ويَسْتشيرُه في بعثِ جيشٍ كثيفٍ إلى بلادِ رُتْبيلَ؛ ليَنْتقِموا منه بسببِ ما حلَّ بالمسلمينَ في بلادِه، فحينَ وصَل البريدُ إلى عبدِ الملك كتَب إلى الحجّاجِ بالموافقةِ على ما رأى من المصلحةِ في ذلك، وأنْ يُعجِّلَ ذلك سَريعًا، فحينَ وصَل البريدُ إلى الحجَّاجِ بذلك أخَذ في جَمْعِ الجيوشِ، فجهَّز جيشًا كثيفًا لذلك. على ما سيأتي تفصيلُه في السنةِ الآتيةِ بعدَها.

وقيل: إنّه قُتِل من المسلمينَ مع شُرَيحِ بنِ هانئٍ ثلاثونَ ألفًا، وابْتِيعَ الرَّغيفُ مع المسلمينَ بدينارٍ، وقاسَوا شدائدَ، وماتَ بسببِ الجوعِ منهم خَلْقٌ كثيرٌ أيضًا. فإنّا للهِ وإنّا إليه راجعون. وقد قتَل المسلمون مِن التركِ خلقًا كثيرًا أيضًا؛ قتَلوا أضعافَهم.

ويُقالُ: إنَّه في هذه السنةِ استَعْفى شُريحٌ مِن القضاءِ فأعفاه الحجاجُ من ذلك، وولَّى مكانَه أبا بُرْدةَ ابنَ أبي موسى الأشعريَّ. وقد تقدَّمتْ ترجمةُ شُريحٍ عندَ وفاتِه في السنةِ الماضيةِ. واللهُ أعلمُ.

قال الواقديُّ، وأبو مَعْشَرٍ، وغيرُ واحدٍ من أهلِ السِّيَرِ: وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ أَبَانُ بنُ عثمانَ أميرُ المدينةِ النبويةِ.

وفي هذه السنةِ قُتِل قَطَرِيُّ بنُ الفُجَاءةِ التميميُّ، أبو نَعامةَ الخارجيُّ، وكان من الشُّجْعانِ المشاهيرِ. ويقالُ: إنّه مكَث عشرينَ سنةً يُسلَّمُ عليه أصحابُه من الخوارجِ بالخلافةِ، وقد جرَت له خُطوبٌ وحروبٌ مع جيشِ المُهَلَّبِ بنِ أبي صُفْرةَ مِن جهةِ الحجَّاجِ وغيرِه. وقد قدَّمنا منها طرَفًا صالحًا في أماكنِه.

وكان خروجُه في زمنِ مُصعبِ بنِ الزبيرِ، وتغلَّب على قِلاعٍ كثيرةٍ وأقاليمَ وغيرِها، ووقائعُه مشْهورةٌ، وقد أرسَل إليه الحجّاجُ جيوشًا كثيرةً فهزَمها. وقيل: إنَّه برَز إليه رجلٌ من بعضِ الحَرُوريَّةِ، وهو على فرسٍ أعجَفَ، وبيدِه عمودُ حديدٍ، فلمّا قرُب منه كشَف قَطَرِيٌّ عن وَجْهِه، فولَّى الرجلُ هاربًا، فقال له قَطَرِيٌّ: إلى أينَ؟ أمَا تستحِي أنْ تَفِرَّ ولم تَرَ طَعْنًا ولا ضربًا؟ فقال: إنَّ الإنسانَ لا يَسْتَحِي أنْ يَفِرَّ من مِثْلِك. ثم إنّه في آخرِ أمْرِه توجَّه إليه سفيانُ بنُ الأبردِ الكلبيُّ في جيشٍ فاقتتلُوا بطَبَرِسْتانَ، فعثَر بقَطَرِيٍّ فرسُه فوقَع إلى الأرضِ، فتكاثَروا عليه فقتَلوه وحمَلوا رأسَه إلى الحجّاجِ. وقيل: إنَّ الذي قتَله سَوْدةُ بنُ الحُرِّ الدّارميُّ.

وكان قَطَرِيُّ بنُ الفُجَاءَة ـ مع شجاعته المُفرِطَة وإقدامه ـ من خطباء العرب المشهورينَ بالفصاحة والبلاغةِ وجَوْدةِ الكلامِ والشِّعرِ الحَسَنِ، فمن مُستجادِ شِعْرِه قولُه يُشَجِّعُ نفسَه وغيره، ومَن سمعها انتفَع بها:

أقُولُ لها وقَدْ طارَتْ شَعَاعًا	مِنَ الأبْطَالِ ويْحَكِ لنْ تُراعي
فإنَّكِ لَوْ سألتِ بَقاءَ يومٍ	على الأجَلِ الذي لكِ لم تُطَاعي
فَصَبْرًا في مجالِ الموتِ صَبْرًا	فما نَيْلُ الخُلُودِ بمُستَطاعِ
ولا ثَوْبُ الحياةِ بثَوْبِ عِزٍّ	فيُطوَى عن أخي الخَنَعِ اليَرَاعِ
سَبيلُ الموتِ غايةُ كُلِّ حَيٍّ	وداعيهِ لأهْلِ الأرضِ داعي
ومن لا يغتبط يسأم ويهرم	وتُسْلِمْهُ المنونُ إلى انقطاعِ
وما للمَرْءِ خَيْرٌ في حَياةٍ	إذا ما عُدَّ مِنْ سَقَطِ المتَاعِ

ذكَرها صاحبُ الحَماسةِ، واستَحْسَنَها ابنُ خَلِّكانَ في تاريخِه كثيرًا.

وفيها تُوفِّي عبيدُ الله بنُ أبي بَكْرةَ، رَحمه اللهُ، وهو أميرُ الجيشِ الذي دخَل بلادَ التُّرك، وقاتَلوا رُتْبِيلَ ـ مَلِكَ التُّرك ـ وقد قُتِل من جيشه خَلْقٌ كثيرٌ مع شُرَيحِ بنِ هانئٍ، كما تقدَّم ذلك. وقد دخَل عبيدُ اللهِ بنُ أبي بَكْرةَ على الحجّاجِ مرَّةً وفي يده خاتَمٌ، فقال له الحجّاجُ: كم ختَمْتَ بخاتَمك هذا؟ قال: على أربعينَ ألفَ ألفِ دينارٍ. قال: فَفِيم أنفَقتَها؟ قال: في اصْطناعِ المعروف، وردِّ الملْهوف، والمكافأةِ بالصنائعِ، وتزويجِ العقائلِ. وقيل: إنَّ عبيدَ الله عطشَ يومًا فأخرَجَتْ له امرأةٌ كوزَ ماءٍ باردٍ فأعطاها ثلاثينَ ألفًا. وقيلَ: إنه أُهْدِي إليه وَصيفٌ ووصيفةٌ، وهو جالسٌ بين أصحابه، فقال لبعضِ أصحابِه: خُذْهُما لك. ثم فكَّر، وقال: واللهِ إنَّ إيثارَ بعضِ الجُلساءِ على بعضٍ لشُحٌّ قبيحٌ ودناءةٌ رديئةٌ. ثم قال: يا غلامُ، ادفَعْ إلى كلِّ واحدٍ من جُلسائي وَصيفًا ووَصيفةً. فأُحصِيَ ذلك فكانوا ثمانينَ وَصيفًا ووَصيفةً.

تُوفِّي عبيدُ اللهِ بنُ أبي بَكْرةَ بِبُسْتَ. وقيل: بِذَرِيحَ. واللهُ أعلمُ.

* * *

ثم دخلت سنة ثمانين من الهجرة النبوية

فيها كان السَّيلُ الجُحافُ بمكّةَ ؛ لأنّه جحَف على كلِّ شيءٍ مَرَّ به ، وحمَل الحُجَّاجَ من بطنِ مكّةَ والجمالَ بما عليها ، والرجالَ والنِّساءَ لا يستطيعُ أحدٌ أن يُنقذَهم منه ، وبلَغ الماءُ إلى الحَجُونِ ، وغرق خلقٌ كثيرٌ ، وقيل : إنَّه ارتفَع حتى كاد أن يُغطِّيَ البيتَ . واللهُ أعلمُ .

وحكَى ابنُ جريرٍ عن الواقديِّ أنَّه قال : كان بالبصرةِ في هذه السنةِ الطاعونُ الجارفُ . فاللهُ أعلَمُ . والمشهورُ أنَّه كان في سنةِ تسعٍ وستين ، كما تقدَّم .

وفيها قطَع المُهلَّبُ بنُ أبي صُفْرةَ نهرَ بَلْخَ ، وأقامَ بكَشَّ سَنَتَين صابراً مُصابراً للأعداءِ من الأتراكِ ، وجرَتْ له معهم هناك فصولٌ يطولُ ذكرُها . وقَدِم عليه في غُبونِ هذه المدَّةِ كتابُ ابنِ الأشعَثِ بخلْعِه الحجّاجَ ، فبعَثه المهلَّبُ برُمَّتِه إلى الحجّاجِ حتى قرأه ، ثم كان ما سيأتي بيانُه وتفصيلُه فيما بعدُ من حروبِ ابنِ الأشعثِ .

وفي هذه السنةِ جهَّز الحجّاجُ الجيوشَ من البصرةِ والكوفةِ وغيرِهما ، لقتالِ رُتْبِيلَ مَلِكِ الترك ؛ ليقتصُّوا منه ما كان من قَتْلِ جيشِ عبيدِ اللهِ بنِ أبي بكرةَ في السَّنةِ الماضيةِ ، فجهَّز أربعينَ ألفًا ، من كلٍّ من المصرَين عشرينَ ألفًا ، وأمَّر على الجميعِ عبدَ الرحمنِ بنَ محمدِ بنِ الأشعَثِ مع أنَّه كان الحجّاجُ يُبغِضُه جدًّا ، حتى إنَّه كان يقولُ : ما رأيتُه قطُّ إلا همَمْتُ بقتلِه .

ودخَل ابنُ الأشعثِ يومًا على الحجَّاجِ وعندَه عامرٌ الشعبيُّ ، فقال : انظُر إلى مشيتِه ، واللهِ لقد هَمَمت أن أضرِبَ عُنُقَه . فأسرَّها الشعبيُّ إلى ابنِ الأشعثِ ، فقال ابنُ الأشعثِ : وأنا واللهِ لأجهَدَنَّ أن أُزيلَه عن سلطانِه إن طال بي وبه البقاءُ .

والمقصودُ أنَّ الحجّاجَ أخَذ في استعراضِ هذه الجيوشِ ، وبذَل فيهم العطاءَ ، ثم اختلَف رأيُه في مَن يؤمِّرُ عليهم ، ثم وقَع اختيارُه على عبدِ الرحمنِ بنِ محمدِ بنِ الأشعثِ ، فقدَّمه عليهم ، فأتى عمُّه إسماعيلُ بنُ الأشعثِ ، فقال للحجّاجِ : إنِّي أخافُ أن تؤمِّرَه فلا يرى لك طاعةً إذا جاوَز جِسْرَ الفُراتِ . فقال : ليس هو هنالك ، هو لي أهيَبُ ومني أرهَبُ أن يُخالفَ أمري أو يخرُجَ عن طاعتي . فأمضاه عليهم ، فسار ابنُ الأشعثِ بالجيوشِ نحوَ أرضِ رُتْبِيلَ ، فلمّا بلَغ رُتْبِيلَ مجيءُ ابنِ الأشعثِ بالجنودِ إليه كتَب إليه رُتْبِيلُ يَعتذِرُ ممّا أصاب المسلمينَ في بلادِه في السنةِ الماضيةِ ، وأنَّه كان لذلك كارهًا ، وأنَّهم الجَئوه إلى قتالِهم ، وسأَل من ابنِ الأشعثِ أن يُصالحَه ، وأن يَبذُلَ للمسلمينَ الخَراجَ ، فلم يُجِبْه ابنُ الأشعثِ إلى ذلك ، وصمَّم على دخولِ بلادِه ، وجمَع رُتْبِيلُ جنودَه وتهيَّأ له ولحربِه ، وجعَل ابنُ الأشعثِ كلّما دخَل بلدًا ، أو مدينةً ، أو أخَذ قَلْعةً من بلادِ رُتْبِيلَ استعمَل عليها نائبًا من جهتِه ، وجعَل معه من يحفظُها له ، وجعَل المسالحَ على كلِّ أرضٍ ومكانٍ مَخُوفٍ ، فاستحوذَ على بلادٍ ، ومُدُنٍ كثيرةٍ من بلادِ رُتْبِيلَ ، وغنِم أموالاً كثيرةً جزيلةً ، وسبَى خلقًا كثيرةً ، ثم حبَس الناسَ عن

التوغُّلِ في بلادِ رُتْبِيلَ حتىٰ يُصلِحوا ما بأيديهم مِن البلادِ، ويتقوَّوْا بما فيها مِن المُغَلّاتِ والحَواصِلِ، ثم يتقدّموا في العامِ المقبلِ إلىٰ أعدائهم فلا يزالون يجوزون الأراضيَ والأقاليمَ حتىٰ يُحاصِروهم في مدينتِهم - مدينةِ العُظماءِ - علىٰ الكنوزِ والأموالِ والذراري حتىٰ يَغنَموها ثم يقتُلون مُقاتِلَتَهم، وعزَموا علىٰ ذلك؛ وكان هذا هو الرأيَ.

وكتَب ابنُ الأشعثِ إلىٰ الحجّاجِ يُخبِرُه بما وقَع مِن الفتحِ وما صنَع اللهُ لهم، وبهذا الرأيِ الذي رآه لهم.

وقال بعضُهم: كان الحجّاجُ قد وجَّه هِمْيانَ بنَ عَدِيٍّ السدُوسيَّ إلىٰ كَرْمانَ، مَسْلَحةً لأهلِها، لِيمُدَّ عامِلَ سِجِستانَ والسِّندِ إن احتاجا إلىٰ ذلك، فعصَىٰ هِمْيانُ ومَن معه، فوجَّه الحجّاجُ إليه ابنَ الأشعثِ، فهزَمه وأقام بمَن معه.

ومات عبيدُ اللهِ بنُ أبي بَكْرةَ، فكتَب الحجَّاجُ إلىٰ ابنِ الأشعثِ بإمْرَةِ سِجِستانَ مكانَ ابنِ أبي بَكْرَةَ، وجهَّز إلىٰ ابنِ الأشعثِ جيشًا أنفَق عليهم ألفَيْ ألفٍ سِوىٰ أعطياتِهم، وكان يُدْعَىٰ هذا الجيشُ جيشَ الطَّواويسِ، وأمَره بالإقدامِ علىٰ رُتْبِيلَ، فكان مِن أمرِه معه ما تقدَّم.

قال الواقديُّ وأبو مَعْشَر: وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ أبانُ بنُ عثمانَ. وقال غيرُهما: بل حجَّ بهم سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ. وكان علىٰ الصَّائفةِ في هذه السنةِ الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ، وعلىٰ المدينةِ أبانُ بنُ عثمانَ، وعلىٰ المشرقِ بكمالِه الحجَّاجُ، وعلىٰ قضاءِ الكوفةِ أبو بُرْدَةَ بنُ أبي موسىٰ، وعلىٰ قضاءِ البصرةِ موسىٰ بنُ أنسِ بنِ مالكٍ.

وممَّن تُوفِّي في هذه السنة من الأعيان:

أسْلَمُ مولى عمرَ بنِ الخَطَّاب: وهو أبو زيدٍ بنُ أسلَمَ، أصلُه مِن سبيِ عينِ التمرِ، اشتراه عمرُ بمكَّةَ لمّا حجَّ سنةَ إحدىٰ عَشْرةَ، وتُوفِّي وعمرُه مائةٌ وأربعَ عشْرَةَ سنةً، وروىٰ عن عمرَ عدةَ أحاديثَ، وروىٰ عن غيرِه مِن أصحابِه أيضًا، وله مناقبُ كثيرةٌ، رحمه اللهُ.

جُبَيْرُ بنُ نُفَيرِ بنِ مالكٍ الحَضرميُّ: له صحبةٌ وروايةٌ، وكان مِن علماءِ أهلِ الشامِ، وكان مشهورًا بالعبادةِ والعلمِ، توفِّي بالشّامِ وعمرُه مائةٌ وعشرونَ سنةً، وقيل أكثرُ، وقيل أقلُّ.

عبدُ اللهِ بنُ جعفرِ بنِ أبي طالب: وُلِد بأرضِ الحبشةِ، وأمُّه أسماءُ بنتُ عُمَيْسٍ، وهو آخِرُ مَن رأىٰ النبيَّ ﷺ مِن بني هاشمٍ وفاةً، سكَن المدينةَ، ولمّا استُشْهِد أبوه جعفرٌ بمُؤْتةَ أتىٰ النبيُّ ﷺ إلىٰ أمِّهم فقال: «ائتُوني بنِي أخي». فأُتِي بهم كأنَّهم أفرخٌ، فدعا بالحلاقِ فحلَق رءوسَهم، ثم قال: «اللهم اخلُفْ جعفرًا في أهلِه، وبارِك لعبدِ اللهِ في صفقتِه». فجاءتْ أمُّهم فذكَرت للنبيِّ ﷺ أنَّه ليس لهم شيءٌ، فقال: «أنا لهم عوضًا مِن أبيهم»(١). وقد بايَع النبيَّ ﷺ عبدُ اللهِ بنُ جعفرٍ، وعبدُ اللهِ بنُ

---

(١) تقدم.

الزبير وعمرُهما سبعُ سنين، وهذا لم يتفقْ لغيرهما.

وكان عبدُ الله بنُ جعفر من أسخَىٰ الناس، يُعطي الجزيلَ الكثيرَ ويستقلُّه، وقد تصدَّقَ مرةً بألفي ألف، وأعطَىٰ مرّةً رجلاً ستين ألفًا، ومرّةً أعطَىٰ رجُلاً أربعةَ آلاف دينار، وقيل: إنَّ رجلاً جلَب مرّةً سُكّرًا إلى المدينة فكسَد عليه، فلم يشتره أحدٌ، فأمَر ابنُ جعفر قيِّمَه أنْ يشتريَه، وأنْ يَهَبَه للناس.

وقيل: إن معاويةَ لمّا حجَّ ونزَل المدينةَ في دارِ مَروانَ قال يومًا لحاجبِه: انظرْ هل ترىٰ بالبابِ الحسنَ أو الحسينَ أو ابنَ جعفر أو فلانًا - وعدَّ جماعةً - فخرَج فلم يرَ أحدًا، فقيل له: هم مجتمِعون عند عبد الله ابنِ جعفر يتغدَّون. فأتىٰ معاويةَ فأخبَره، فقال: ما أنا إلاّ كأحدِهم. ثم أخَذ عصًا فتوكَّأ عليها ثم أتىٰ بابَ ابنِ جعفر، فاستأذَن عليه، ودخَل فأجلَسه في صدرِ فراشه، فقال له معاويةُ: أين غداؤُك يابنَ جعفر؟ فقال: وما تشتَهي من شيءٍ فادْعُ به. فقال معاويةُ: أطْعِمْنا مُخًّا. فقال: يا غلامُ، هاتِ مخًّا. فأتىٰ بصَحْفةٍ فأكَل معاويةُ، ثم قال ابنُ جعفر لغلامِه: هاتِ مخًّا. فجاء بصَحفةٍ أخرىٰ ملآنةٍ مخًّا إلىٰ أنْ فعَل ذلك ثلاثَ مرّاتٍ. فتعجَّب معاويةُ وقال: يابنَ جعفر، ما يَسعُك إلا الكثيرُ من العطاء. فلمّا خرَج معاويةُ أمَر له بخمسين ألفَ دينارٍ. وكان ابنُ جعفر صديقًا لمعاويةَ، وكان يفِدُ عليه كلَّ سنةٍ فيُعطيه ألفَ ألفِ درهمٍ، ويقضي له مائةَ حاجةٍ. ولمّا حضَرتْ معاويةَ الوفاةُ أوصَىٰ ابنَه يزيدَ به. فلمّا قدم ابنُ جعفر علىٰ يزيدَ قال له: كم كان أميرُ المؤمنين يُعطيك كلَّ سنةٍ؟ قال: ألفَ ألفٍ. فقال له: قد أضعَفْناها لك. وكان يُعطيه ألفَيْ ألفٍ كلَّ سنةٍ. فقال له عبدُ الله بنُ جعفر: بأبي أنت وأمّي، ما قلتُها لأحدٍ قبلَك، ولا أقولُها لأحدٍ بعدَك. فقال له يزيدُ: ولا أعطاكها أحدٌ قبلي ولا يُعطيكَها أحدٌ بعدي.

وقيل: إنه كان عندَ ابنِ جعفر جاريةٌ تغنِّيه تُسمَّىٰ عمَّارةَ، وكان يحبُّها محبةً عظيمةً، فحضَر عنده يزيدُ بنُ معاويةَ يومًا، فغنَّت الجاريةُ، فلمَّا سمعها يزيدُ افتتَن بها ولم يجسُرْ علىٰ ابنِ جعفر أنْ يطلُبَها منه، خوفًا أنْ يمنَعه إياها، فلم يزَلْ في نفسِ يزيدَ منها حتىٰ مات أبوه معاويةُ، فبعَث يزيدُ رجلاً من أهلِ العراقِ ودفَع إليه تجارةً وأمَره أن يتلطَّفَ في أمرِ هذه الجارية، فقدِم الرجلُ إلىٰ المدينةِ، ونزَل جوارَ ابنِ جعفر وأهدَىٰ إليه هدايا وتُحفًا كثيرةً، وأنَس به، ولا زال حتىٰ أخَذ الجاريةَ وأتىٰ بها يزيدَ.

وكان الحسنُ البصريُّ يذُمُّ عبدَ الله بنَ جعفر علىٰ سماعه الغناءَ واللهوَ، وبشرائه المولَّدات، ويقولُ: أمَا يكفيه هذا الأمرُ القبيحُ الذي هو متلبسٌ به من هذه الأشياءِ وغيرِها؟ حتىٰ زوَّج الحجاجَ بنتَ رسـول الله ﷺ، وكان الحجّاجُ يقولُ: إنَّما تزوَّجتُها لأذلَّ بها آلَ أبي طالبٍ. وقيل: إنه لم يصِلْ إليها. وقد كتَب عبدُ الملك إليه أنْ يطلِّقَها فطلَّقَها. أسنَدَ عبدُالله بنُ جعفر ثلاثةَ عَشَرَ حديثًا.

أبو إدريسَ الخَوْلانيُّ: اسمُه عائذُ الله بنُ عبد الله، له أحوالٌ ومناقبُ، كان يقولُ: قلبٌ نقيٌّ في ثيابٍ دنسةٍ خيرٌ من قلبٍ دنسٍ في ثيابٍ نقيَّةٍ. وقد تولَّىٰ القضاءَ بدمشقَ، وقد ذكَرْنا ترجمتَه في كتابِنا «التكميل».

مَعْبدٌ الجُهَنيُّ القَدَريُّ: يقالُ: إنَّه معبدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عُكيمٍ، راوي حديثِ: «لا تنتَفعوا من المَيْتة بإهابٍ ولا عَصَبٍ»[1] . وقيل غيرُ ذلك في نسبِه. سمع الحديثَ مِن ابنِ عبّاسٍ، وابنِ عمرَ، ومعاويةَ، وعِمرانَ بنِ حُصَيْنٍ، وغيرِهم. وشهِد يومَ التحكيمِ، وسأَل أبا موسىٰ في ذلك ووصَّاه، ثم اجتَمع بعمرِو بنِ العاصِ فوصَّاه في ذلك، فقال له: إيهًا يا تَيسَ جُهَيْنَةَ، ما أنت مِن أهلِ السرِّ ولا العلانيةِ، وإنّه لا ينفعُك الحقُّ ولا يضرُّك الباطلُ. وهذا توسُّمٌ فيه مِن عمرِو بنِ العاصِ، ولهذا كان أولَّ مَن تكلَّم في القَدَرِ، ويقالُ: إنَّه أخَذ ذلك عن رجلٍ مِن النَّصارىٰ مِن أهلِ العراقِ يقال له: سُوسنُ. وأخَذ غَيْلانُ القَدَرَ مِن مَعبدٍ.

وقد كانت لَمعبدٍ عبادةٌ، وفيه زَهادةٌ، ووثَّقه ابنُ معينٍ وغيرُه في حديثِه.

وقال الحسنُ البصريُّ: إياكم ومَعبدًا؛ فإنّه ضالٌّ مُضِلٌّ. وكان ممَّن خرَج مع ابنِ الأشعثِ فعاقَبه الحجّاجُ عقوبةً عظيمةً بأنواعِ العذابِ ثم قتَله، وقال سعيدُ بنُ عُفَيْرٍ: بل صلَبه عبدُ الملكِ بنُ مَرْوانَ في سنةِ ثمانين بدِمشقَ ثم قتَله. وقال خليفةُ بنُ خيّاطٍ: مات قبلَ التسعينَ. فاللهُ أعلمُ.

* * *

---

(١) هذا الحديث في أسانيده اختلافات كثيرة وكذلك في متنه وهو كتاب كما في بعض الطرق ففيها قرئ علينا كتاب رسول الله ﷺ أن لا تنتفعوا من الميتة بإهاب ولا عصب وابن عكيم هذا ليس بصحابي وفي بعض الطرق عن مشيخةٍ لنا من جهينة.

ثم إن الحديث الوارد عن النبي ﷺ «إذا دبغ الإهاب فقد طهر» مفاده جواز الانتفاع بجلود الميتة إذا طهرت وهو أصح من هذا الحديث بمراحل.

ولذا اضطر من حاول تصحيحه إلىٰ الجمع بين الحديثين بطرق مبسوطة في كتب الفقه والحديث فيه كلام طويل وتخريجات مطولة وهي لا تتناسب مع حجم هذا الكتاب وحاصل ما في ذلك ما قاله النووي في «الخلاصة» وحديث عبد الله بن عكيم أعل بأمور ثلاثة أحدها: الاضطراب في سنده كما تقدم، والثاني: الاضطراب في متنه، فروي قبل موته بثلاثة أيام، وروي بشهرين، وروي بأربعين يومًا.

والثالث: الاختلاف في صحبته قال البيهقي وغيره لا صحبة له. اهـ. وانظر «نصب الراية» (١/ ١٢٠، ١٢٢) وغيره وقد حسنه الحازمي في «الاعتبار» ص (١٧٦) علىٰ شرط أبي داود.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين

ففيها: فتح عبيدُ الله بنُ عبد الملك بن مَرْوان مدينةَ قاليقَلا، وغنم المسلمون منها غنائمَ كثيرةً.

وفيها: قُتِل بُكيرُ بنُ وِشَاحٍ؛ قتَله بَحيرُ بنُ ورقاءَ الصُّرَيْميُّ، وكان بُكيرٌ من الأمراء الشُّجعان، ثم ثار لبُكَيرِ بن وِشَاحٍ رجلٌ من قومه يقالُ له: صعصعةُ بنُ حربٍ العَوْفيُّ الصُّرَيْميُّ. فقتَل بَحيرَ بنَ وَرْقاءَ الذي قتَل بُكيرًا؛ طعَنه بخَنْجَرٍ، وهو جالسٌ عند المهلَّبِ بنِ أبي صُفْرةَ، فحُمِل إلى منزله وهو بآخِرِ رَمَقٍ، فبعَث المهلَّبُ بصعصعةَ إليه، فلما تمكَّن منه بَحيرُ بنُ ورقاءَ قال: ضعوا رأسَه عندَ رِجلي. فوضَعوه فطعَنه بَحيرٌ بحربته حتى قتَله ومات على إثرِه. وقد قال له أنسُ بنُ طارقٍ: اعفُ عنه فقد قتَلتَ بُكيرَ بنَ وِشاحٍ. فقال: لا والله لا أموتُ وهذا حيٌّ. ثم قتَله، وقد قيل: إنَّه إنما قُتِل بعد موته. فاللهُ أعلمُ.

فتنة ابن الأشعث

قال أبو مخنَف: كان ابتداؤُها في هذه السنة. وقال الواقديُّ: في سنة ثنتَين وثمانين. وقد ساقها ابنُ جرير في هذه السنة فوافقْناه في ذلك. وكان سببَ هذه الفتنة أنَّ ابنَ الأشعث كان الحجَّاجُ يُبغضُه، وكان هو يفهَمُ ذلك ويُضمِرُ له السوءَ وزوالَ الملك عنه، فلمَّا أمَّره الحجَّاجُ على ذلك الجيشِ المتقدِّم ذكرُه، وأمَره بدخول بلاد رُتْبيلَ ملك الترك، فمضَى وصنَع ما قدَّمْناه من أخذه بعضَ بلادِ الترك، ثم رأى لأصحابه أنْ يُقيموا حتى يتقوَّوا إلى العام المقبِل، فكتَب إلى الحجَّاج بذلك، فكتَب إليه الحجَّاجُ يستهجنُ رأيَه في ذلك، ويستضعفُ عقلَه ويُقرِّعُه بالجبن والنُّكول عن الحرب، ويأمُرُه حتمًا بدخول بلاد رُتْبيلَ، ثم أردَف ذلك بكتابٍ ثانٍ ثم ثالثٍ فلمّا تواردت كتبُ الحجاج إليه يحثُّه على التوغل في بلاد رُتْبيلَ، جمَع من معه، وقام فيهم، فأعلمهم بما كان رأى من الرأي في ذلك، وبما كتَب إليه الحجَّاجُ من الأمر بمعاجلة رُتْبيلَ، فثار إليه الناسُ، وقالوا: لا بل نأبى على عدوِّ اللهِ الحجّاجِ، ولا نسمَعُ له ولا نُطيعُ.

قال أبو مخنَف: فحدَّثني مُطرِّفُ بنُ عامرِ بنِ واثلةَ الكِنانيُّ، أنَّ أباه كان أوَّلَ مَن تكلَّم في ذلك، وكان شاعرًا خطيبًا؛ وكان ممَّا قال: إنَّ مثلَ الحجّاجِ في هذا الرأي ومثلَنا كما قال الأولُ لأخيه: احمل عبدَك على الفرَس فإنْ هلَك هلَك، وإنْ نجا فلك. إنكم إن ظفرتم كان ذلك زيادةً في سلطانه، وإن هلَكتُم كنتُمُ الأعداءَ البُغضاءَ. ثم قال: اخلَعوا عدوَّ الله الحجَّاج - ولم يذكُرْ خلعَ عبدِ الملك - وبايِعوا لأميركم عبدِ الرحمنِ بنِ الأشعث، فإني أُشهِدُكم أنِّي أولُ خالعٍ للحجَّاج. فقال الناسُ من كلِّ جانبٍ: خلَعْنا عدوَّ الله. ووثَبوا إلى عبدِ الرحمنِ بنِ الأشعثِ فبايَعوه عوضًا عن الحجّاج، ولم يذكُروا خلعَ عبدِ الملكِ بنِ مَروانَ.

وبعَث ابنُ الأشعثِ إلى رُتْبيلَ فصالحَه على أنَّه إنْ ظفر بالحجّاج فلا خَراجَ على رُتْبيلَ أبداً. ثم سار ابنُ الأشعث بالجنودِ الذين معه مُقبِلاً من سجستانَ إلى الحجَّاج؛ ليقاتلَه ويأخذَ منه العراقَ، ثم لمّا توسّطوا الطريقَ قالوا: إنَّ خَلْعَنا للحجّاجِ خَلْعٌ لابنِ مَروانَ. فخلَعوهما جميعًا وجدَّدوا البيعةَ لابنِ الأشعث، فبايَعهم على كتاب الله وسنَّةِ رسولِه وخلعِ أئمةِ الضلالةِ وجهادِ المُحلين. فإذا قالوا: نعم. بايعَهم. فلما بلَغ الحجّاجَ ما صنَعوا مِن خَلْعِه وخَلْعِ ابنِ مروانَ، كتَب إلى عبد الملك يُعلمُه بذلك ويستعجلُه في بعثِه الجنودَ إليه، وجاء الحجّاجُ حتى نزَل البصرةَ، وبلَغ المهلَّبَ خبرُ ابنِ الأشعث، وكتَب إليه يدعوه إلى ذلك فأبَى عليه، وبعَث بكتابِه إلى الحجّاجِ. وكتَب المهلَّبُ إلى ابنِ الأشعث يقولُ له: إنك يا بنَ الأشعثِ قد وضَعْتَ رجلَك في ركابٍ طويلٍ، أبْقِ على أمَّةِ محمدٍ ﷺ، اللهَ اللهَ، انظُرْ لنفسِك فلا تُهلكْها، ودماءِ المسلمين فلا تسفكْها، والجماعةِ فلا تفرِّقْها، والبيعةِ فلا تَنكُثْها، فإن قلتَ: أخافُ الناسَ على نفسي. فاللهُ أحقُّ أن تخافَه من الناسِ، فلا تُعرِّضْها للهِ في سفكِ دمٍ، أو استحلالِ مُحرَّمٍ، والسلامُ عليك.

وكتَب المهلَّبُ إلى الحجّاجِ: أمّا بعدُ، فإنَّ أهلَ العراقِ قد أقبَلوا إليك مثلَ السيلِ المنحدرِ من عَلُ ليس شيءٌ يَردُّه حتى ينتهيَ إلى قرارِه، وإنّ لأهلِ العراقِ شِرَّةً في أولِ مخرَجِهم، وصَبابةً إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شيءٌ يردُّهم حتى يَصِلوا إلى أهليهم، ويشمُّوا أولادَهم، ثم واقِعْهم عندَها فإنّ اللهَ ناصرُك عليهم إن شاء اللهُ.

فلما قرأ الحجّاجُ كتابَه قال: فعَل اللهُ به وفعَل، لا واللهِ ما لي نَظَرَ، ولكنْ لابنِ عمِّه نصَح. ولما وقَع كتابُ الحجّاجِ إلى عبدِ الملكِ هاله ذلك ثم نزَل عن سَريرِه، وبعَث إلى خالدِ بنِ يزيدَ بنِ معاويةَ فأقرأَه كتابَ الحجّاجِ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنْ كان هذا الحدثُ من قِبَلِ خُراسانَ فخَفْه، وإن كان من قِبَلِ سِجِسْتانَ فلا تخَفْه.

ثم أخَذ عبدُ الملكِ في تجهيزِ الجنودِ من الشامِ إلى العراقِ في نُصرةِ الحجّاجِ، وتجهَّز الحجاجُ للخروجِ إلى ابنِ الأشعثِ، وعصَى رأيَ المهلَّبِ فيما أشار به عليه، وكان فيه النصحُ والصدقُ، وجعلَتْ كتبُ الحجّاجِ لا تنقطعُ عن عبدِ الملكِ بخبرِ ابنِ الأشعثِ صباحًا ومساءً؛ أين نزَل ومن أين ارتحَل، وأيُّ الناسِ إليه أسرعُ؟ وجعَل الناسُ يلتفُّون على ابنِ الأشعثِ من كلِّ جانبٍ، حتى قيل: إنه سار معه ثلاثةٌ وثلاثون ألفَ فارسٍ ومائةٌ وعشرون ألفَ راجلٍ. وخرَج الحجّاجُ في جنودِ الشامِ من البصرةِ نحوَ ابنِ الأشعثِ، فنزَل تُسْتَرَ، وقدَّم بين يديْه مُطهَّرَ بنَ حَيٍّ العَكِّيَّ أميرًا على المقدِّمةِ، ومعه عبدُ اللهِ بنُ زميت أميرًا آخرَ، فانتهَوا إلى دُجَيلٍ، فإذا مقدِّمةُ ابنِ الأشعثِ في ثلاثمائة فارسٍ عليها عبدُ اللهِ بنُ أبانٍ الحارثيُّ، فالتقَوا في يومِ الأضحى عندَ نَهْرِ دُجَيْلٍ، فهُزِمتْ مقدِّمةُ الحجّاجِ، وقَتَل أصحابُ ابنِ الأشعثِ منهم خلقًا كثيرًا نحوَ ألفٍ وخمسمائةٍ، واحتازوا ما في مُعَسْكرِهم من خيولٍ

وقماشٍ وأموالٍ، وجاء الخبرُ إلى الحجّاجِ بهزيمةِ أصحابه، فأخذه ما دبَّ ودرَج. وقد كان قائمًا يخطُبُ، فقال: أيها الناسُ ارجعوا إلى البصرةِ، فإنّه أرفقُ بالجند. فرجَع بالنّاسِ واتَّبَعتهم خيولُ ابنِ الأشعث لا يُدركون منهم شاذًّا إلا قَتَلوه، ولا فاذًّا إلا أهلَكوه، ومضَى الحجاجُ هاربًا لا يَلْوِي على شيءٍ حتى أتى الزاويةَ فعسكَر عندَها، وجعَل يقولُ: لله دَرُّ المُهَلَّبِ! أيُّ صاحبِ حَرْبٍ هو؟! قد أشار علينا بالرأيِ، ولكنَّا لم نقْبَلْ.

وأنفَق الحجّاجُ على جيشه - وهو بهذا المكان - مائةً وخمسين ألفَ ألفِ درهمٍ، وخندَقَ حولَ جيشِه خَنْدقًا، وجاءَ أهلُ العراقِ فدخَلوا البصرةَ واجتمَعوا بأهاليهم وشمُّوا أولادَهم، ودخَل ابنُ الأشعث البصرةَ فخطَب الناسَ بها وبايعَهم وبايعُوه على خَلْعِ عبدِ الملك ونائبِه الحجاجِ بنِ يوسفَ، وقال لهم ابنُ الأشعث: ليس الحجّاجُ بشيءٍ، ولكن اذْهَبوا بنا إلى عبدِ الملكِ لنقاتلَه. ووافَقه على خَلْعِهما جميعُ مَن بالبصرةِ من الفقهاءِ، والقرَّاءِ، والشُّيوخِ، والشَّبابِ، ثم أمَرَ ابنُ الأشعث بخندقٍ حولَ البصرةِ فعمِل ذلك، وكان ذلك في أواخرِ ذي الحجّةِ من هذه السنةِ.

وحجّ بالناسِ فيها سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ فيما ذكره الواقديُّ وأبو مَعْشَرٍ. واللهُ سبحانَه وتعالى أعلمُ.

وفيها غزا موسى بنُ نُصيرٍ أميرُ بلادِ المغربِ من جهةِ عبدِ الملكِ بلادَ الأندلسِ، فافْتَتَح مُدنًا كثيرةً، وأراضيَ عامرةً، وأوغَل في بلادِ المغربِ إلى أنْ وصَل إلى الزقاقِ المنبثقِ من البحرِ الأخضرِ المحيطِ. واللهُ أعلمُ.

وممَّن تُوفي فيها من الأعيان:

بَحيرُ بنُ وَرْقاءَ الصَّرِيميُّ البصريُّ أحدُ الأشرافِ بخراسانَ، والقوّادِ والأمراءِ، وهو الذي حاربَ ابنَ خازمٍ وقتَله، وقَتَل بُكيرَ بنَ وِشاحٍ.

ثم قُتل في هذه السنة:

سُوَيْدُ بنُ غَفَلَةَ بنِ عَوْسجَةَ بنِ عامرٍ: أبو أميَّةَ الجعفيُّ الكوفيُّ، شهد اليرموكَ وحدَّث عن جماعةٍ من الصحابةِ، وكان من كبارِ المخضرمين، ويقالُ: إنه رأى النبيَّ ﷺ وصلَّى معه. والصحيحُ: أنَّه لم يَرَه، وكان مولدُه عامَ ولد النبيُّ ﷺ. وقيل: إنه وُلد بعدَه بسنتين. وعاش مائةً وعشرين سنةً، لم يُرَ يومًا محتبيًا ولا متساندًا، وافتضَّ بكرًا عامَ وفاته، وكانت وفاتُه في سنةِ إحدى وثمانين، قاله أبو عبيدٍ، وغيرُ واحدٍ. وقيل: إنه تُوفي في سنةِ ثنتين وثمانينَ. فاللهُ أعلمُ.

عبدُ الله بنُ شدَّاد بنِ الهاد: كان من العُبّادِ الزُّهّادِ العلماءِ، وله وصايا وكلماتٌ حِسانٌ، وقد روى عدّةَ أحاديثَ عن الصّحابةِ، وعنه خلقٌ من التابعين.

محمدُ بنُ عليِّ بنِ أبي طالبٍ: أبو القاسمِ وأبو عبدِ الله أيضًا، وهو المعروفُ **بابنِ الحنفيَّةِ**،

وكانت أُمُّه أَمَةً سوداءَ سِنْدِيَّةً مِن سَبْيِ بني حنيفةَ، اسمُها خَوْلَةُ، وُلِد محمدٌ في خلافةِ عمرَ بنِ الخطابِ، ووفَد علىٰ معاويةَ، وعلىٰ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ وقد صرَع مروانَ يومَ الجملِ وقعَد علىٰ صَدْرِه وأراد قتلَه فناشَده مروانُ باللهِ، وتذلّل له فأطلَقه، فلَمّا وفَد علىٰ عبدِ الملكِ ذكَّره بذلك، فقال: عفواً يا أميرَ المؤمنين. فعفا عنه وأجزَل له الجائزةَ. وكان محمدُ بنُ عليٍّ مِن ساداتِ قريشٍ ومِن الشُّجعانِ المشهورينَ، ومِن الأقوياءِ المذكورينَ، ولمَّا بُويع لابنِ الزبيرِ لم يُبايِعْه، فجرَىٰ بينهما شرٌّ عظيمٌ حتىٰ هَمَّ ابنُ الزبيرِ به وبأهلِه، كما تقدَّم ذلك. فلمّا قُتِل ابنُ الزبيرِ واستقَرَّ أمرُ عبدِ الملكِ وبايَعه ابنُ عمرَ، تابَعه ابنُ الحنفيّةِ، وقدِم المدينةَ فماتَ بها في هذه السنةِ، وقِيل: في التي قبلَها، أو في التي بعدَها. ودُفِن بالبقيعِ. والرّافضةُ يَزعمونَ أنَّه بجبلِ رَضْوىٰ، وأنه حيٌّ يُرزقُ، وهُمْ يَنْتظِرونه، وقد قال كُثَيِّرُ عزةَ في ذلك:

أَلاَ إنَّ الأئمةَ من قريشٍ ... وُلاةَ الحقِّ أربعةٌ سَواءُ
عليٌّ والثلاثةُ مِنْ بَنيه ... هُمُ الأسباطُ ليس بهم خَفاءُ
فسِبطٌ سِبْطُ إيمانٍ وبرٍّ ... وسِبْطٌ غيَّبتهُ كربلاءُ
وسِبطٌ لا تَراهُ العينُ حتى ... يقودُ الخيلَ يَقْدُمُها لواءُ
تَغَيَّبَ لا يُرى عنهم زمانًا ... برَضْوَى عنده عسلٌ وماءُ

وقال الزبيرُ بنُ بكَّارٍ: كانتْ شيعتُه تزعُمُ أنه لم يَمُتْ، وفيه يقولُ السَّيِّدُ:

ألاَ قلْ للوصيِّ فدَتْكَ نَفْسي ... أطَلْتَ بذلكَ الجبلِ المُقاما
أضرَّ بمَعْشَرٍ والَوْكَ منّا ... وسمَّوكَ الخليفةَ والإمَاما
وعادَوا فيكَ أهلَ الأرضِ طُرًّا ... مُقامُكَ عنهمُ ستِّينَ عاما
وما ذاق ابنُ خولةَ طعمَ موتٍ ... ولا وارتْ لهُ أرضٌ عظاما
لقدْ أمْسى بمُورِقِ شِعبِ رَضْوى ... تراجعُهُ الملائكةُ الكلاما
وإنَّ لهُ به لَمَقِيلَ صِدْقٍ ... وأنديةً تُحدِّثُهُ كِراما
هدانا اللهُ إذ حُزتُم لأمرٍ ... به وعليه نلتمسُ التَّماما
تمامَ مودةِ المهديِّ حتى ... تَرَوْا راياتِه تَترى نظاما

وقد ذهَب طائفةٌ مِن الرافضةِ إلىٰ إمامتِه، وأنه يُنْتظَرُ خروجُه في آخرِ الزمانِ، كما يَنتظِرُ طائفةٌ أخرىٰ منهم الحسنَ بنَ محمدٍ العسكريَّ، الذي يخرُجُ في زعمِهم مِن سردابِ سامَرًّا، وهذا مِن خُرافاتِهم وهذيانِهم وجهلِهم وضلالِهم وبهتانِهم، وسنزيدُ ذلك وضوحًا في موضعِه إن شاء الله.

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين

ففي المحَرَّم منها كانت وقعةُ الزاويةِ بينَ ابنِ الأشعثِ والحجاجِ، في آخرِه. وكان أوّلُ يومٍ لأهلِ العراقِ على أهلِ الشّام، ثم تواقَعوا يومًا آخَرَ، فحمَل سفيانُ بنُ الأبردِ أحدُ أمراءِ أهلِ الشّامِ على ميمنةِ ابنِ الأشعثِ فهزَمها، وقتَل خلقًا من القُرَّاءِ من أصحابِ ابنِ الأشعثِ في هذا اليوم، وخرَّ الحجاجُ لله ساجدًا بعدَما كان جثَا على رُكْبتيه وسَلَّ شيئًا من سيفِه، وجعَل يترحَّمُ على مصعبِ بنِ الزبيرِ، ويقولُ: ما كان أكرمَه حينَ صبَر نفسَه للقتلِ.

وكان من جملةِ مَن قُتِل من أصحابِ ابنِ الأشعثِ: الطُّفَيلُ بنُ عامرِ بنِ واثلَةَ الليثيُّ. ولما فرَّ أصحابُ ابنِ الأشعثِ رجَع ابنُ الأشعثِ بمَن بقِي معه ومَن اتَّبَعه من أهلِ البصرةِ، فسار حتى دخَل الكوفةَ، فعمَد أهلُ البصرةِ إلى عبدِ الرحمنِ بنِ عباسِ بنِ ربيعةَ بنِ الحارثِ بنِ عبدِ المطلبِ فبايعوه، فقاتلَ الحجّاجَ خمسَ ليالٍ أشدَّ القتالِ، ثم انصرَف فلحِق بابنِ الأشعثِ، وتبِعه طائفةٌ من أهلِ البصرةِ، فاستَنابَ الحجّاجُ على البصرةِ أيوبَ بنَ الحكمِ بنِ أبي عقيلٍ، ودخَل ابنُ الأشعثِ الكوفةَ، فبايعه أهلُها على خَلْعِ الحجاجِ وعبدِ الملكِ بنِ مروانَ، وتفاقَم الأمرُ، وكثُر متابعو ابنِ الأشعثِ على ذلك، واشتَدَّ الحالُ، وتفرَّقت الكلمةُ جدًّا، وعظُم الخَطْبُ، واتَّسعَ الخَرْقُ.

قال الواقديُّ: لما التقَى جيشُ الحجّاجِ وجيشُ ابنِ الأشعثِ بالزاويةِ، جعَل جيشُ الحجّاجِ يحمِلُ عليهم مرَّةً بعدَ مرّةٍ، فقال القُرَّاءُ - وكان عليهم جَبَلَةُ ابنُ زَحرٍ: أيها النّاسُ ليس الفرارُ من أحدٍ بأقبَحَ منه منكم، فقاتلوا عن دينِكم ودُنياكم. وقال سعيدُ بنُ جبيرٍ نحوَ ذلك، وقال الشّعبيُّ: قاتِلُوهم على جَوْرِهم واستذلالِهم الضعفاءَ، وإماتتِهم الصلاةَ. ثم حمَلت القرّاءُ - وهم العلماءُ - على جيشِ الحجّاجِ حملةً صادقةً فبدَعوا فيهم، ثم رجَعوا فإذا هم بمُقدَّمِهم جبلةُ بنُ زَحْرٍ صريعًا، فهدَّهم ذلك، فناداهم جيشُ الحجاجِ: يا أعداءَ اللهِ، قد قتَلنا طاغيَتَكم. ثم حمَل سفيانُ بنُ الأبردِ - وهو على خيلِ الحجاجِ على ميسرةِ ابنِ الأشعثِ - وعليها الأبردُ بنُ قرَّةَ التميميُّ - فانهزَمُوا ولم يُقاتِلوا كثيرَ قتالٍ، فأنكَر الناسُ منهم ذلك. وكان أميرُ ميسرةِ ابنِ الأشعثِ الأبردُ شجاعًا لا يَفِرُّ، وظَنّوا أنه قد خامر، فنُقِضت الصفوفُ وركب الناسُ بعضُهم بعضًا، وكان ابنُ الأشعثِ يحرِّضُ الناسَ على القتالِ، فلمّا رأى ما الناسُ فيه أخَذ مَن اتَّبعه وذهَب إلى الكوفةِ فبايعَه أهلُها.

ثم كانت وقعةُ دَيْرِ الجماجمِ في شعبانَ من هذه السنةِ. قاله الواقديُّ.

وذلك أنَّ ابنَ الأشعثِ لما قصَد الكوفةَ خرَج إليه أهلُها، فتلقَّوه وحَفُّوا به ودخَلوا بينَ يدَيه، غيرَ أنَّ شِرْذمةً قليلةً أرادتْ أنْ تقاتلَه دونَ مطرِ بنِ ناجيةَ نائبِ الحجاجِ، فلم يُمكِنْهم ذلك، فعدَلوا إلى القصرِ، فلمّا وصَل ابنُ الأشعثِ إلى الكوفةِ أمَر بالسلاليمِ فنُصِبتْ على قصرِ الإمارةِ فأخَذه واستنزَلَ مطرَ بنَ ناجيةَ وأراد قَتْلَه، فقال له: استَبقِني فإنّي خيرٌ من فرسانِك. فحبَسه، ثم استدعاه فأطلَقه

وبايَعه، واستوثَق لابنِ الأشعثِ أمرُ الكوفةِ، وانضَمَّ إليه مَن جاء مِن أهلِ البصرةِ، وكان ممَّن قدِم عليه عبدُ الرحمنِ بنُ العباسِ بنِ ربيعةَ بنِ عبدِ المطلبِ، وأمَر بالمسالحِ مِن كلِّ جانبٍ، وحُفِظَت الثغورُ والطرقُ المسالكُ.

ثم إنَّ الحجاجَ ركِب في مَن معه مِن الجيوشِ الشاميةِ مِن البصرةِ في البرِّ، حتى مرَّ بينَ القادسيةِ والعُذَيبِ، وبعَث إليه ابنُ الأشعثِ عبدُ الرحمنِ بنَ العباسِ في خيلٍ عظيمةٍ مِن المصرين فمنَعُوا الحجاجَ مِن نزولِ القادسيةِ، فسار الحجاجُ حتى نزَل دَيْرَ قُرَّةَ، وجاء ابنُ الأشعثِ بمَن معه مِن الجيوشِ البصريةِ والكوفيةِ حتى نزَل دَيْرَ الجماجمِ، ومعه جنودٌ كثيرةٌ، وفيهم القرَّاءُ مِن المصرَيْن وخَلْقٌ مِن الصالحِينَ، وكان الحجاجُ بعدَ ذلك يقولُ: قاتَلَ اللهُ ابنَ الأشعثِ، أمَا كان يزجُرُ الطيرَ حيثُ رآني قد نزَلتُ دَيْرَ قُرَّةَ ونزَل هو بدَيْرِ الجماجمِ. وكان جملةُ مَن اجتمَع مع ابنِ الأشعثِ مائةَ ألفِ مقاتلٍ ممَّن يأخذُ العطاءَ، ومعهم مثلُهم مِن مَواليهم، وقدِم على الحجاجِ في غُبونِ ذلك أمدادٌ كثيرةٌ مِن الشامِ، وخَندَقَ كلٌّ مِن الطائفتين على نفسِه وحولَ جيشِه خندقًا يمتنعُ به مِن الوصولِ إليهم، غيرَ أنَّ الناسَ كان يبرُزُ بعضُهم لبعضٍ في كلِّ يومٍ فيقتتِلونَ قتالًا شديدًا في كلِّ يومٍ، حتى أُصيب مِن رءوسِ الناسِ خَلْقٌ مِن قريشٍ وغيرِهم، واستمرَّ هذا الحالُ مدَّةً طويلةً، واجتمَع الأمراءُ مِن أهلِ المشورةِ عندَ عبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ، فقالوا له: إنْ كان أهلُ العراقِ يرضِيهم منك أنْ تَعزِلَ عنهم الحجاجَ فهو أيسَرُ مِن قتالِهم وسفكِ دمائِهم. فاستحضَر عبدُ الملكِ عندَ ذلك أخاه محمدَ بنَ مروانَ، وابنَه عبدَ اللهِ بنَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ، ومعهما جنودٌ كثيرةٌ جدًّا، وكتَب معهما كتابًا إلى أهلِ العراقِ يقولُ لهم: إنْ كان يرضيكم منِّي عَزْلُ الحجاجِ عنكم، عزلتُه، وأبقيتُ عليكم أعطياتِكم مثلَ أهلِ الشامِ، وليَختَرِ ابنُ الأشعثِ أيَّ بلدٍ شاء، يكونُ عليه أميرًا ما عاش وعشتُ، وتكونُ إمرةُ العراقِ لمحمدِ بنِ مروانَ. وقال في عهدِه هذا: فإنْ لم يُجِبْ أهلُ العراقِ إلى ذلك فالحجاجُ على ما هو عليه، وإليه إمرةُ الحربِ، ومحمدُ بنُ مَرْوانَ وعبدُ اللهِ بنُ عبدِ الملكِ في طاعتِه وتحتَ أمْرِه لا يخرُجونَ عن رأيِه في الحربِ وغيرِه.

ولما بلَغ الحجاجَ ما كتَب به عبدُ الملكِ إلى أهلِ العراقِ مِن عَزْلِه إنْ رضُوا به، شقَّ عليه ذلك مشقةً عظيمةً جدًّا، وعظُم شأنُ هذا الرأيِ عندَه، وكتَب إلى عبدِ الملكِ: يا أميرَ المؤمنينَ، واللهِ لئن أعطيتَ أهلَ العراقِ نَزْعي عنهم لا يلبَثون إلا قليلًا حتى يُخالِفُوكَ ويَسيرُوا إليك، ولا يزيدُهم ذلك إلا جُرْأةً عليك، ألم ترَ وتسمَعْ بوُثوبِ أهلِ العراقِ مع الأشترِ النَّخَعيِّ على ابنِ عفانَ، فلمَّا سألَهم: ما يُريدونَ؟ قالوا: نَزْعَ سعيدِ بنِ العاصِ. فلمَّا نزَعه لم تَتِمَّ لهم السَّنَةُ حتى ساروا إليه فقتلَوه؟ وإنَّ الحديدَ بالحديدِ يُفْلَحُ، كان اللهُ لك فيما ارتأيتَ، والسلامُ عليك.

قال: فأبَى عبدُ الملكِ إلا عرْضَ هذه الخصالِ على أهلِ العراقِ كما أمَر، فتقدَّم عبدُ اللهِ ومحمدٌ،

فنادَىٰ عبدُ الله : يا معشرَ أهلِ العراقِ ، أنا عبدُ الله ابنُ أميرِ المؤمنينَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ ، وإنه يَعرِضُ عليكم كَيتَ وكَيتَ . فذكَر ما كتَب به أبوه معه إليهم من هذه الخصال . وقال محمدُ بنُ مروانَ : وأنا رسولُ أخي أميرِ المؤمنين إليكم بذلك . فقالوا : ننظُرُ في أمرِنا غداً ونرُدُّ عليكم الخبرَ عشيةً . ثم انصرَفُوا ، فاجتَمَع جميعُ الأمراءِ إلى ابنِ الأشعثِ ، فقام فيهم خطيبًا وندَبهم إلى قبولِ ما عُرِض عليهم من عَزْلِ الحجاجِ عنهم ، وبيعةِ عبدِ الملكِ وإبقاءِ الأعْطِياتِ ، وإمْرةِ محمدِ بنِ مروانَ على العراقِ بدَلَ الحجاجِ . فنفَر الناسُ من كلِّ جانبٍ ، وقالوا : لا واللهِ لا نَقبَلُ ذلك ، نحن أكثرُ عَدداً وعِدداً ، وهم في ضِيقٍ من الحالِ ، وقد حكَمنا عليهم وذَلُّوا لنا ، واللهِ لا نُجيبُ إلى ذلك أبداً . ثم جدَّدوا خَلْعَ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ ثانيةً ، واتَّفقوا على ذلك كلُّهم .

فلمّا بلَغ عبدَ الله بنَ عبدِ الملكِ وعمَّه محمدَ بنَ مروانَ الخبرُ ، قالا للحجَّاجِ : شأنَكَ بهم إذاً ، فنحنُ في طاعتِك كما أمَرَنا أميرُ المؤمنينَ . فكانا إذا لقِياه سلَّما عليه بالإمرةِ ، ويُسلِّمُ هو أيضًا عليهم بالإمرةِ ، وتولَّى الحجاجُ أمرَ الحربِ وتدبيرَها كما كان قبلَ ذلك ، فعندَ ذلك برَز كُلٌّ من الفريقينِ للقتالِ والحربِ ، فجعَل الحجاجُ على ميمنتِه عبدَ الرحمنِ بنَ سُليمٍ الكلبيَّ ، وعلى ميسرتِه عُمارةَ بنَ تميمٍ اللخميَّ ، وعلى الخيلِ سفيانَ بنَ أبردٍ ، وعلى الرَّجّالةِ عبدَ الرحمنِ بنَ حبيبٍ الحَكَميَّ ، وجعَل ابنُ الأشعثِ على ميمنتِه الحجاجَ بنَ حارثةَ الخثعميَّ ، وعلى الميسرةِ الأبردَ بنَ قُرَّةَ التميميَّ ، وعلى الخيَّالةِ عبدَ الرحمنِ بنَ عبَّاسِ بنِ ربيعةَ ، وعلى الرَّجّالةِ محمدَ بنَ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ الزُّهريَّ ، وعلى القُرَّاءِ جبلةَ بنَ زَحْرِ بنِ قيسٍ الجُعْفيَّ ، وكان في القرَّاءِ سعيدُ بنُ جبيرٍ وعامرٌ الشعبيُّ وعبدُ الرحمنِ بنُ أبي ليلى وكُميلُ بنُ زيادٍ - وكان شجاعًا فاتكًا على كِبرِ سنِّه - وأبو البَخْتَريِّ الطائيُّ ، وغيرُهم .

وجعَلوا يقتَتِلون في كلِّ يومٍ ، وأهلُ العراقِ تأتيهم الميرَةُ ، من الرساتيقِ والأقاليمِ ؛ من العَلَفِ والطَّعامِ وغيرِه ، وأما أهلُ الشَّامِ الذين مع الحجاجِ ففي ضيقٍ من العيشِ ، وقلَّةٍ من الطَّعامِ ، وقد فقَدُوا اللحمَ بالكُلِّيةِ فلا يَجِدونه ، وما زالتِ الحربُ بينَهم في هذه المدَّةِ كلِّها حتى انسلَخَتْ هذه السنةُ ، وهم على حالِهم وقتالِهم في كلِّ يومٍ أو يومٍ بعدَ يومٍ ، والدائرةُ لأهلِ العراقِ على أهلِ الشَّامِ في أكثرِ الأيامِ . وقد قُتِل من أصحابِ الحجاجِ زيادُ بنُ غَنْمٍ ، وكسَر بِسطامُ بنُ مَصقلةَ في أربعةِ آلافٍ جفونَ سيوفِهم ، واستقتَلوا ، وكانوا من أصحابِ ابنِ الأشعثِ .

وفي هذه السنة كانت وفاةُ المُهَلَّبِ بنِ أبي صُفْرَةَ ، وهو المُهَلَّبُ بنُ أبي صُفْرةَ ظالمٌ أبو سعيد الأزدي ، أحدُ أشرافِ أهلِ البصرةِ ووجوهِهم ودُهاتِهم وأجوادِهم وكرمائِهم . وُلِد عامَ الفتحِ ، وكانوا ينزِلون فيما بينَ عمانَ والبحرينِ ، وقد ارتَدَّ قومُه فقاتَلهم عكرمةُ بنُ أبي جهلٍ فظفِر بهم ، وبعَث بهم إلى الصِّدِّيقِ وفيهم أبو صُفْرَةَ وابنُه المُهَلَّبُ غلامٌ لم يبلُغِ الحِنْثَ ، ثم نزَل المُهَلَّبُ البصرةَ وقد غزا في

أيام معاويةَ أرضَ الهندِ سنةَ أربعٍ وأربعينَ، ووليِ الجزيرةَ لابنِ الزبيرِ سنةَ ثمانٍ وستينَ، ثم ولي حربَ الخوارجِ أوّلَ دولةِ الحجاجِ، وقَتل منهم في وقعةٍ واحدةٍ أربعةَ آلافٍ وثمانمائة، فعظُمَتْ منزلتُه عندَ الحجاجِ. وكان فاضلاً شجاعًا كريمًا يُحبُّ المدحَ، وله كلامٌ حسنٌ؛ فمنه: نعمَ الخَصلةُ السّخاءُ، تسترُ عورةَ الشريفِ وتلحَقُ خَسيسةَ الوضيعِ، وتُحبِّبُ المزهودَ فيه. وقال: يُعجِبُني في الرَّجلِ خَصْلتان؛ أن أرىٰ عقلَه زائدًا علىٰ لسانه، ولا أرىٰ لسانَه زائدًا علىٰ عقله.

تُوفِّي المُهَلَّبُ غازيًا بمَرْوِ الرُّوذِ، وعمرُه ستةٌ وسبعون سنةً، رحمه اللهُ. وكان له عشَرةٌ من الولد، وهم: يزيدُ، وزيادٌ، والمفضَّلُ، ومُدْرِكٌ، وحبيبٌ، والمغيرةُ، وقَبيصةُ، ومحمدٌ، وهندُ، وفاطمةُ. تُوفي المُهَلَّبُ في ذي الحجةِ منها، وكان من الشُّجعانِ، وله مواقفُ حميدةٌ وغزواتٌ مشهورةٌ في التركِ والأزارقةِ وغيرِهم من أنواعِ الخوارجِ، وجعَل الأمرَ من بعدِه لولدِه يزيدَ بنِ المهلبِ علىٰ إمرةِ خُراسانَ، فأمضَىٰ ذلك الحجاجُ وعبدُ الملكِ بنُ مروانَ.

وفي جمادَىٰ الآخرةِ منها عزل أميرُ المؤمنين عبدُ الملكِ بنُ مروانَ عن إمْرَةِ المدينة أبانَ بنَ عثمانَ وولّىٰ عليها هشامَ بنَ إسماعيلَ المخزوميَّ، وكانت ولايةُ أبانَ علىٰ المدينة سبعَ سنين وثلاثةَ أشهُرٍ وثلاثةَ عشَرَ يومًا، وكان علىٰ إمرةِ بلادِ المشرقِ بكمالِه الحجاجُ بنُ يوسفَ، والنوّابُ في الأقاليمِ من تحتِ يدِه، وهو مشغولٌ عن تدبيرِ الممالكِ بحربِ ابنِ الأشعثِ في هذه المدة كلّها.

قال أبو معشر: وحجَّ بالناسِ في هذه السنة أبانُ بنُ عثمانَ الذي كان نائبَ المدينة.

وفيها توفِّي أسماءُ بنُ خارجةَ الفَزاريُّ الكوفيُّ، كان جوادًا مُمدَّحًا، حُكي عنه أنه رأىٰ يومًا شابًّا علىٰ بابِ داره جالسًا، فسألَه عن قعوده علىٰ بابِه فقال: حاجةٌ لا أستطيعُ ذِكْرَها. فألَحّ عليه، فقال: جاريةٌ رأيتُها دخَلَتْ هذه الدارَ، لم أرَ أحسنَ منها وقد خَطَفَتْ قلبي معها. فأخَذ بيده وأدخَله دارَه، وعرَض عليه كُلَّ جاريةٍ عندَه حتىٰ مرَّتْ تلك الجاريةُ فقال: هذه؟ فقال له: اخْرُجْ فاجلِسْ علىٰ البابِ مكانَك. فخرَج الشّابُّ فجلَس مكانَه، ثم خرَج إليه بعدَ ساعةٍ والجاريةُ معه قد ألبَسها أنواعَ الحُليِّ، وقال له: ما منعَني أنْ أدفعَها إليك وأنت داخلَ الدارِ إلاّ أن الجاريةَ كانت لأختي، وكانت ضنينةً بها، فاشتريتُها لك منها بثلاثةِ آلافٍ، وألْبستُها هذا الحُليَّ، فهي لك بما عليها. فأخَذها الشّابُّ وانصرَف.

المغيرةُ بنُ المهلَّبِ بنِ أبي صُفْرةَ، كان جوادًا مُمدَّحًا شجاعًا، له مواقفُ مشهورةٌ.

الحارثُ بنُ عبدِ الله بنِ أبي ربيعةَ المخزوميُّ، المعروفُ بقُبَاعٍ، ولي إمْرةَ البصرةِ لابنِ الزبيرِ.

محمدُ بنُ أسامَةَ بنِ زيدِ بنِ حارثةَ، كان من فضلاءِ أبناءِ الصحابةِ وأعقلِهم. تُوفي بالمدينة، ودُفن بالبقيعِ.

عبدُ الله بنُ أبي طلحةَ بنِ الأسودِ، والدُ الفقيهِ إسحاقَ. حملَتْ به أُمُّه أمُّ سليمٍ ليلةَ ماتَ ابنُها،

فأصبح أبو طلحةَ فأعلَم النبيَّ ﷺ، فقال ﷺ: «أعرَسْتُم؟ باركَ اللهُ لكما في ليلتكما». ولمَّا وُلِد حنَّكَه بتَمَرات[1].

عبدُ الله بنُ كعب بن مالك، كان قائدَ كعبٍ حينَ عمِي، له رواياتٌ. تُوفِّي بالمدينة هذه السنة.

سفيانُ بنُ وَهْب أبو أيمن الخَوْلانيُّ المصري، له صُحبةٌ وروايةٌ، وغزا المغربَ، وسكَن مصرَ وبها مات.

جَميلُ بنُ عبد الله بن مَعْمر بن صُبَاح بن ظَبْيانَ بن حُنٍّ بن ربيعةَ بن حرام بن ضِنَّةَ بن عبد بن كَثير بن عُذْرةَ بن سَعد بن هُذَيم بن زيد بن ليث بن سُود بن أَسْلَمَ بن الحاف بن قُضَاعةَ، أبو عمرو الشَّاعرُ، صاحبُ بُثَينةَ، كان قد خطَبها فمنعتْ منه، فتغزَّل فيها، واشتُهر بها، وكان أحدَ عشَّاق العرب، كانت إقامتُه بوادي القُرىٰ وما حولَه، وكان عفيفًا صيِّنًا ديِّنًا شاعرًا إسلاميًّا، من أفصح الشعراء في زمانه.

وكان كُثَيِّرُ عزَّةَ راويتَه، وهو يَرْوي عن هُدْبةَ بن خَشْرَم، عن الحطيئة، عن زهير بن أبي سُلْمىٰ وابنه كعب. قال كثيِّرُ عزةَ: كان جَميلٌ أشعرَ العرب، حيثُ يقولُ:

وخبَّرتُماني أن تيماءَ منزلٌ ... لليلَى إذا ما الصَّيفُ ألقى المَراسيا
فهذي شهورُ الصَّيفِ عنَّا قد انقضَتْ ... فما للنَّوى تَرمي بلَيلَى المَراميا

ومنها قولُه:

وما زلتُ بي يا بَثْنُ حتى لوانني ... من الشَّوق أستَبكي الحَمامَ بكَى ليا
وما زادَني الواشونَ إلا صَبابةً ... ولا كثرةُ النَّاهينَ إلا تَماديا
وما أحدثَ النَّأيُ المفرِّقُ بينَنا ... سُلُوًّا ولا طولُ الليالي تَقَاليا
ألم تَعْلمي يا عَذْبةَ الرِّيق أنَّني ... أظَلُّ إذا لم ألْقَ وجهَك صاديا
لقد خِفتُ أن ألقَى المنيةَ بغتةً ... وفي النَّفس حاجاتٌ إليك كما هيا

ومما أوردَ له القاضي ابنُ خلكانَ في «الوفيات» قولَه:

إنِّي لأحفظُ سرَّكم ويسرُّني ... لو تعلمينَ بصالحٍ أن تُذكَري

إلىٰ أن قال:

ما أنت والوعدُ الذي تَعِدينَني ... إلا كبرقِ سحابةٍ لم تُمطرِ

وقولُه -ورُوي لعُمرَ بن أبي ربيعةَ، فيما نقَله ابنُ عساكرَ-:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٧٠) ومسلم (٢١٤٤).

مـــا زلتُ أبغي الحيَّ أتبعُ فَلَّهم حتى دُفعتُ إلى ربيبة هَوْدَجِ
فدنوتُ مُختفيًا أُلِمُّ ببيتها حتى ولجتُ إلى خفيِّ المَولجِ
قالت وعيشِ أخي ونعمةِ والدي لأُنبِّهنَّ الحيَّ إن لم تَخرُجِ
فتناولتْ رأسي لتعرفَ مَسَّه بمُخضَّب الأطراف غير مشنَّجِ
فخرجتُ خيفةَ أهلها فتبسَّمتْ فعلمتُ أنَّ يمينَها لم تَحرَجِ
فلثمتُ فاها آخذًا بقرونها شُربَ النزيف ببردِ ماءِ الحَشْرَجِ

قال كثيِّرُ عزةَ: لقيني جَميلُ بثينةَ، فقال: من أين أقبلتَ؟ فقلتُ: من عند هذه الحبيبة. فقال: وإلى أين؟ فقلتُ: إلى هذه الحبيبة -يعني عزَّةَ- فقال: أقسمتُ عليكَ لَمَّا رجعتَ إلى بثينة فواعدتَها لي؛ فإن لي من أوَّل الصَّيف ما رأيتُها، وكان آخرُ عهدي بها بوادي الدَّوْم، وهي تغسلُ هي وأمُّها ثوبًا، فَتحادَثنا إلى الغُروب. قال كثيِّرٌ: فرجَعتُ حتى أنختُ بهم. فقال أبو بثينةَ: ما ردَّكَ يا ابنَ أخي؟ فقُلتُ: أبياتٌ قلتُها، فرجَعتُ لأعرضَها عليك. فقال: وما هي؟ فأنشدتُه، وبثينةُ تسمعُ من وراء الحجاب:

فقلتُ لها يا عزُّ أُرسلُ صاحبي إليكِ رسولاً والرسولُ مُوكَّلُ
بأن تجعَلي بيني وبينَكِ موعدًا وأنْ تأمُريني ما الذي فيه أفعَلُ
وآخرُ عهدي منك يومَ لقيتِني بأسفلِ وادي الدَّوْم والثوبُ يُغسلُ

قال: فضرَبتْ بثينةُ جانبَ خدرِها، وقالت: اخسأْ، اخسأْ. فقال أبوها: مَهْيَمْ؟ فقالت: كلبٌ يأتينا إذا نام الناسُ، من وراء الرابية. ثم قالت لجاريتها: ابغينا من الدَّوْمات حطَبًا ليُشوَىٰ به لكثيِّر شاةٌ. فقلتُ: أنا أعجَلُ من ذلك. وانطلقتُ إلى جميلٍ، فقلْتُ: موعدُك الدَّوْماتُ. قال: فلمَّا كان الليلُ أقبَلتْ بُثَينةُ إلى المكانِ الذي واعدتْه إليه، وجاء جميلٌ، وكنتُ معهم فما رأيتُ ليلةً أعجبَ منها ولا أحسنَ مُنادَمات، وانفَضَّ ذلك المجلسُ وما أدري أيُّهما أفهمُ لما في ضميرِ صاحبه منه.

وذكَر الزبيرُ بنُ بكَّارٍ عن عبَّاسِ بنِ سَهْلٍ السَّاعديِّ أنَّه دخَل على جميلٍ، وهو يموتُ، فقال له: ما تقولُ في رجلٍ لم يشربِ الخمرَ قطُّ، ولم يَزْنِ قطُّ ولم يسرِقْ، ولم يقتُلِ النفسَ، وهو يشهدُ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ؟ قال: أظنُّه قد نجا وأرجو له الجنةَ، فمَن هذا؟ قال: أنا. فقلْتُ: والله ما أظنُّك سلمتَ وأنت تُشبِّبُ منذُ عشرين سنةً ببُثينةَ. فقال: لا نالَتني شفاعةُ محمدٍ ﷺ -وإنِّي لَفي أوَّلِ يومٍ من أيامِ الآخرةِ وآخرِ يومٍ من أيامِ الدنيا- إن كنتُ وضعتُ يدي عليها بريبةٍ. قال: فمابرحنا حتى مات.

قلتُ: كانت وفاتُه بمصرَ؛ لأنه كان قد قدِم على عبدِ العزيزِ بنِ مروانَ فأكرَمه، وسألَه عن حُبِّه بثينةَ، فقال: شديدٌ. واستنشدَه من أشعارِه ومدائحه فأنشَده، فوَعده أن يجمَعَ بينَه وبينَها فعاجَلتْه المنيةُ في سنةِ ثنتين وثمانينَ، رحِمه اللهُ، آمين.

وقد ذكر الأصمعيُّ، عن رجلٍ، أنَّ جميلاً قال له: هل أنتَ مُبلغٌ عني رسالةً إلى حيٍّ بثينةَ، ولك ما عندي؟ قال: نعم. قال: إذا أنا متُّ فاركَبْ ناقتي، والبَسْ حُلَّتي هذه. وأمرَه أن يقولَ أبياتًا؛ منها قولُه:

قومي بُثينةُ فاندُبي بعويلِ ... وابكي خليلَك دونَ كلِّ خليلِ

فلمّا انتهى إلى حيِّهم أنشدَ الأبياتَ، قال: فخرجَتْ بثينةُ كأنَّها بدرٌ بدا في دُجْنَةٍ، وهي تتثنَّى في مِرْطِها فقالت له: ويحكَ، إن كنتَ صادقًا فقد قتَلْتني، وإن كنتَ كاذبًا فقد فضَحتَني. فقلتُ: بل والله صادقٌ، وهذه حُلَّتُه وناقتُه. فلمَّا تحقَّقتْ ذلك صاحت بأعلى صوتِها، وصكَّت وجهَها، واجتَمع نساءُ الحيِّ إليها، يبكين معها، ثم صُعِقت مغشيًّا عليها، ثم أفاقت، وهي تقولُ:

وإنّ سُلُوِّي عن جميلٍ لساعةٌ ... من الدهرِ ما حانت ولا حان حينُها
سواءٌ علينا يا جميلُ بنَ معمرٍ ... إذا متَّ بأساءُ الحياةِ ولينُها

قال الرجل: فما رأيت أكثر باكيًا ولا باكيةً من يومئذٍ.

وروَىٰ ابنُ عساكرَ عنه أنه قيل له بدمشقَ: لو تركتَ الشعرَ وحفظتَ القرآنَ؟ فقال: هذا أنسُ بنُ مالكٍ يخبرُني عن رسولِ الله ﷺ، أنه قال: «**إنَّ من الشِّعرِ حكمةً**»[1].

عمرُ بنُ عبيدِ الله بن مَعْمرِ بن عثمانَ، أبو حفص القُرَشيُّ التيميُّ، أحدُ الأجوادِ والأمراءِ الأمجادِ، فُتحتْ على يديه بلدانٌ كثيرةٌ، وكان نائبًا لابنِ الزبيرِ على البصرةِ، وقد فتح كابُلَ مع عبدِ الله بنِ خازمٍ. وهو الذي قتَل قَطَريَّ بنَ الفُجَاءة.

روَىٰ عن ابنِ عمرَ وجابرٍ وغيرِهما، وعنه عطاءُ بنُ أبي رَباحٍ، وابنُ عَونٍ. ووفَد على عبدِ الملكِ، فتُوفِّي بدمشقَ سنةَ ثنتين وثمانينَ، قاله المدائنيُّ.

وحكي أن رجلاً اشترىٰ جاريةً كانت تُحسنُ القرآنَ والشِّعرَ وغيرَه، فأحبَّها حُبًّا شديدًا، وأنفق عليها مالَه كُلَّه حتى أفلَس ولم يبقَ له شيءٌ سوىٰ هذه الجارية، فقالت له الجاريةُ: قد أرىٰ ما بك من قلَّةِ الشيءِ، فلو بعتني وانتفعتَ بثَمَني صلَح حالُكَ. فباعَها لعمرَ بنِ عبيدِ الله هذا - وهو يومئذٍ أميرُ البصرةِ - بمائة ألفِ درهمٍ، فلمّا قبَض المالَ ندم وندمت الجاريةُ، فأنشأت تخاطبُ مولاها الذي باعها:

هنيئًا لكَ المالُ الذي قد أخذتَهُ ... ولم يبقَ في كفَّيَّ إلاَّ تفكُّري
أقولُ لنفسي وهْيَ في كَرْبِ غَشْيةٍ ... أقلِّي فقد بانَ الخليطُ أو اكثري
إذا لم يكُنْ في الأمرِ عندك حيلةٌ ... ولم تجدي بُدًّا من الصَّبرِ فاصْبري

---

(١) صحيح من حديث أُبيِّ بن كعب: أخرجه البخاري (٦١٤٥) باب ما يجوز من الشعر والرجز والحداء وما يكره منه.

فأجابها سيِّدُها، فقال:

ولولا قعودُ الدَّهرِ بي عنك لم يكن ... لفُرقتنا شيءٌ سوى الموت فاعذُري
أؤوبُ بحُزنٍ من فراقك مُوجعٍ ... أناجي به قلبًا طويلَ التَّذكُّرِ
عليك سلامٌ لا زيارةَ بيننا ... ولا وصلَ إلا أنْ يشاءَ ابنُ مَعْمَرِ

فلمّا سمعها ابنُ معمَرٍ قد شبَّبتْ، قال: والله لا فرَّقتُ بينَ مُحبَّين أبدًا.

ثم أعطاه المالَ - وهو مائةُ ألفٍ - والجاريةَ، لما رأى من توجُّعهما على فِراقِ كلٍّ منهما صاحبَه، فأخذَ الرجلُ الجاريةَ وثمنَها وانطلَق.

تُوفي عمرُ بنُ عبيدِ الله بنِ مَعْمرٍ هذا بدمشقَ، بالطَّاعون، وصلَّى عليه عبدُ الملك بنُ مروانَ، ومشَى في جنازتِه وحضَر دفنَه، وأثنَى عليه بعدَ موتِه، وكان له من الولدِ طلحةُ، وهو من ساداتِ قريشٍ، تزوَّج فاطمةَ بنتَ القاسمِ بنِ محمدِ بنِ جعفرٍ، على صَداقِ أربعين ألفَ دينارٍ، فأولَدَها إبراهيمَ ورملةَ، فتزوَّج رملةَ إسماعيلُ بنُ عليِّ بنِ عبدِ الله بن عباسٍ، على صداقِ مائةِ ألفِ دينارٍ، رحمهم اللهُ.

كُمَيلُ بنُ زيادِ بن نَهيكِ بن الهيثمِ النَّخَعيُّ الكوفيُّ. روَى عن عمرَ وعثمانَ وعليٍّ وابنِ مسعودٍ وأبي هريرةَ. وشهِد مع عليٍّ صفِّينَ، وكان شجاعًا فاتكًا، وزاهدًا عابدًا، قتَله الحجاجُ في هذه السنة - وقد عاش مائةَ سنةٍ - قتلَه صبرًا بينَ يدَيه، وإنما نقَم عليه لأنه طلَب من عثمانَ بنِ عفّانَ القصاصَ من لَطْمةٍ لطمَها إياه. فلما أمكَنَه عثمانُ من نفسِه عفا عنه، فقال له الحجاجُ: أوَ مثلُك يسألُ من أميرِ المؤمنين القصاصَ؟ ثم أمَر فضُربتْ عنقُه، قالوا: وذكَر الحجاجُ عليًّا في غبونِ ذلك فنالَ منه، وصلَّى عليه كُميلٌ، فقال له الحجاجُ: والله لأبعثَنَّ إليك مَن يُبغضُ عليًّا أكثرَ مما تحبُّه أنتَ. فأرسَل إليه ابنَ أدهمَ، وكان من أهلِ حمصَ، ويقالُ: أبا الجَهْمِ بنَ كنانةَ. فضَرب عنقَه.

وقد روَى عن كُميلٍ جماعةٌ كثيرةٌ من التَّابعينَ، وله الأثرُ المشهورُ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ، الذي أوَّله: القلوبُ أوعيةٌ؛ فخيرُها أوعاها. وهو طويلٌ، قد رواه جماعةٌ من الحفَّاظِ الثقاتِ، وفيه مواعظُ وكلامٌ حسَنٌ، رضِي اللهُ عن قائله.

زاذانُ أبو عمرَ الكنديُّ، أحدُ التَّابعينَ، كان أوّلاً يشربُ المُسْكِرَ ويضربُ بالطنبورِ، فرزَقه اللهُ التوبةَ على يدِ عبدِ الله بنِ مسعودٍ، وحصَلت له إنابةٌ ورجوعٌ إلى الحقِّ وخشيةٌ شديدةٌ، حتى إذا كان في الصَّلاة كأنَّه خشبةٌ.

وقال مرَّةً: إنِّي جائعٌ. فنزَل عليه من الرَّوزَنَةِ رغيفٌ مثلُ الرَّحا.

وهو ثقةٌ عند ابنِ معينٍ وغيرِه. قال خليفةُ: توفِّي سنةَ ثنتين وثمانين.

قال خليفةُ: وفيها تُوفي زِرُّ بنُ حُبَيشٍ أحدُ أصحابِ ابنِ مسعودٍ وعائشةَ، وقد أتَت عليه مائةٌ

وعشرونَ سنةً.

وقال أبو عبيد: مات سنةَ إحدىٰ وثمانين، وقد تقدَّمت له ترجَمةٌ.

وشقيقُ بنُ سلَمةَ أبو وائل، أدرك مِن زمنِ الجاهليةِ سبْعَ سنين، وأسلَم في حياةِ النبيِّ ﷺ.

أمُّ الدَّرداء الصُّغرىٰ، اسْمُها هُجَيمَةُ، ويقالُ: جُهَيمَةُ. تابعيّةٌ عابدةٌ عالمةٌ فقيهةٌ، كان الرجالُ يَقْرءُونَ عليهَا ويتفقَّهون في الحائطِ الشَّماليِّ بجامعِ دمشقَ، وكان عبدُ الملكِ بنُ مروانَ يجلِسُ في حلقتِها مع المتفقِّهةِ، يشتغِلُ عليها وهو خليفةٌ، رضِي اللهُ عنها.

* * *

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين

استهلَّتْ هذه السنةُ والناسُ مُتواقفون لقتال الحجّاج وأصحابه بدَيْرِ قُرة، وابنُ الأشعث وأصحابُه بدَيرِ الجَماجم، والمبارزةُ في كلِّ يومٍ بينَهم واقعةٌ، وفي غالبِ الأيام تكونُ النُّصرةُ لأهلِ العراقِ على أهلِ الشّام، حتى قيل: إنَّ أصحابَ ابنِ الأشعثِ - وهم أهلُ العراقِ - كسَروا أهلَ الشّام - وهم أصحابُ الحجاجِ - بضعًا وثمانينَ مرةً ينتصِرون عليهم. ومع هذا فالحجاجُ ثابتٌ مكانَه صابرٌ ومُصابرٌ، لا يتزحزَحُ عن موضعه الذي هو فيه، بل إذا حصَل له ظفَرٌ في يومٍ من الأيام تقدَّم بجيشه إلى نحرِ عدوِّه - وكان له خبرةٌ بالحرب - ومازال ذلكَ دأبَه ودأبَهم حتى أمرَ بالحملة على كتيبة القُرَّاء - لأنَّ الناسَ كانوا تبعًا لهم، وهم الذين يحرِّضونَهم على القتال، والناسُ يقتَدونَ بهم - فصَبَرَ القُرَّاءُ لحملةِ جيشِه، ثم جمَع الرُّماةَ من جيشِه، وحمَل بهم، وما انفكَّ حتى قتَل منهم خلقًا كثيرًا، ثم حمَل على جيشِ ابنِ الأشعثِ، فانهزَم أصحابُ ابنِ الأشعثِ وذَهَبوا في كلِّ وجهٍ، وهرَب ابنُ الأشعثِ بينَ أيديهم، ومعه فَلٌّ قليلٌ من الناسِ، فأتبعَه الحجاجُ جيشًا كثيفًا مع عمارةَ بنِ تميمٍ اللخميِّ ومعه محمدُ بنُ الحجاجِ، والإمرةُ لعمارةَ، فساقوا وراءَهم يَطْرُدونَهم لعلهم يظفَرون به قتلاً أو أسرًا، فمازال يسوقُ ويخترقُ الأقاليمَ والكُورَ والرساتيقَ، وهم في أثرِه حتى وصَل إلى كَرْمانَ، واتَّبَعه الشّاميون فنزَلوا في قصرٍ كان فيه أهلُ العراقِ قبلَهم، فإذا فيه كتابٌ قد كتَبه بعضُ أهلِ الكوفة من أصحابِ ابنِ الأشعثِ الذين فرُّوا معه، من شعرِ أبي جَلدةَ اليَشْكُريِّ، يقولُ:

أيا لَهفًا ويا حَزَنا جميعًا ... ويا حَرَّ الفُؤادِ لِما لَقِينا
تركْنا الدينَ والدُّنيا جميعًا ... وأسلَمْنا الحلائلَ والبَنينا
فما كُنّا أُناسًا أهلَ دُنيا ... فنمنعَها ولو لم نَرْجُ دِينا
تركْنا دورَنا لِطَغامِ عكٍّ ... وأنباطِ القُرى والأشعَرينا

ثم إنَّ ابنَ الأشعثِ دخَل هو ومَن معه مِن الفَلِّ إلى بلادِ رُتْبيلَ ملكِ التُّركِ، فأكرَمه رُتْبيلُ وأنزلَه عنده وأمَّنه وعظَّمه.

قال الواقديُّ: ومرَّ ابنُ الأشعثِ وهو ذاهبٌ إلى بلادِ رُتْبيلَ على عاملٍ له في بعضِ المدن، كان ابنُ الأشعثِ قد استعمَله على ذلك عندَ رجوعِه إلى العراقِ، فأكرَمه ذلك العاملُ وأهْدى إليه هدايا وأنزلَه؛ فعَل ذلك خديعةً به ومكرًا، وقال له: ادخُلْ إلى عندي إلى البلد لتتحصَّنَ بها من عدوِّك، ولكنْ لا تَدَعْ أحدًا ممَّن معك يدخُلُ المدينةَ. فأجابه إلى ذلك - وإنَّما أراد المكرَ به - فمنَعه أصحابُه فلم يَقبَلْ منهم، فتفرَّقَ عنه أصحابُه. فلمّا دخَل المدينةَ وثَب عليه العاملُ فمسَكه وأوثَقه بالحديد، وأراد أنْ يتَّخذَ به يدًا عندَ الحجاجِ، وقد كان الملكُ رُتْبيلُ سُرَّ بقدومِ ابنِ الأشعثِ، فلمّا بلَغه ما حدَث له من

جهة ذلك العامل بمدينة بُسْتَ، سار حتى أحاط ببُسْتَ، وأرسَل إلى عاملها يقولُ له: والله لئِنْ آذيتَ ابنَ الأشعث لا أبرحُ حتى أستنزلَك وأقتُلَ جميعَ من في بلدك. فخافه ذلك العاملُ وسيَّرَ إليه ابنَ الأشعث فأكرَمه رُتْبيلُ، فقال ابنُ الأشعث لرُتْبيلَ: إنَّ هذا العاملَ كان عاملي ومن جهتي فغدَر بي وفعَل ما رأيتَ، فأْذَنْ لي في قتله. فقال: قد أَمَّنْتُه. وكان مع ابنِ الأشعث عبدُ الرحمن بنُ عباس ابنِ ربيعةَ بنِ الحارث بنِ عبدِ المطلب، وكان هو الذي يُصلِّي بالنّاس هنالك في بلادِ رُتْبيلَ، ثم إنَّ جماعةً من الفَلِّ الذين هربوا من الحجاج اجتمعوا وساروا وراءَ ابنِ الأشعث ليُدْرِكوه فيكونوا معه - وهم قريبٌ من ستينَ ألفًا - فلما وصَلوا إلى سجِسْتانَ وجَدوا ابنَ الأشعث قد دخَل إلى عندِ رُتْبيلَ فتغَلَّبوا على سجِستانَ وعذَّبوا عاملَها عبدَ الله بنَ عامرٍ البعّارَ وإخوتَه وقرابتَه، واستحوَذُوا على ما فيها من الأموال، وانتشَرُوا في تلك البلاد وأخَذُوها، ثم كتَبوا إلى ابنِ الأشعث: أن اخْرُجْ إلينا حتى نكونَ معك؛ ننصرُك على مَن يُخالِفُكَ، ونأخُذُ بلادَ خُراسانَ، فإنَّ بها جندًا عظيمًا منا، فنكونُ بها حتى يُهلِكَ اللهُ الحجاجَ أو عبدَ الملك، فنرى بعدَ ذلك رأيَنا. فخرَج إليهم ابنُ الأشعث وسارَ بهم قليلاً إلى نحوِ خُراسانَ فاعتزَله شرْذمةٌ من أهلِ العراقِ مع عبيدِ الله بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ سَمُرةَ، فقام فيهم ابنُ الأشعث خطيبًا، فذكَر غدرَهم ونُكُولَهم عن الحرب، وقال: لا حاجةَ لي بكم، وأنا ذاهبٌ إلى صاحبي رُتْبيلَ فأكونُ عندَه. ثم انصرَف عنهم وتبِعه طائفةٌ منهم وبقِي معظمُ الجيش. فلَمَّا انفصَل عنهم ابنُ الأشعث بايعوا عبدَ الرحمنِ بنَ عباسِ بنِ ربيعةَ الهاشميَّ، وساروا معه إلى خُراسانَ، فخرَج إليهم أميرُها يزيدُ بنُ المُهَلَّبِ بنِ أبي صُفْرةَ ليمنَعَهم من دخولِ بلادِه، وكتَب يزيدُ إلى عبدِ الرحمنِ بنِ عباسٍ يقولُ له: إنَّ في البلادِ مُتَّسعًا، فاذهَبْ إلى أرضٍ ليس بها سلطانٌ فإنِّي أكرهُ قتالَكَ، وإنْ كنتَ تريدُ مالاً بعَثْتُ إليك. فقال له: إنّا لم نجِئْ لقتالِ أحدٍ، وإنَّما جئنا نَسْتريحُ ونُريحُ خيلَنا ثم نَذْهبُ وليسَت بنا حاجةٌ إلى حاجةٍ مما عرَضتَ. ثم أقبَلَ عبدُ الرحمنِ على أخذِ الخراجِ ممَّا حَوْلَه من البلادِ من كورِ خُراسانَ، فخرَج إليه يزيدُ بنُ المُهلَّبِ ومعه أخوه المفضَّلُ في جيوشٍ كثيفةٍ، فلمّا صافُّوهم اقْتَتَلُوا غيرَ كثيرٍ، ثم انهزَم أصحابُ عبدِ الرحمنِ بنِ عباسٍ، وقتَل يزيدُ منهم مَقْتلةً عظيمةً، وأسَر منهم أسرى كثيرةً، واحتاز ما في معسكرِهم، وبعَث بالأُسارى - وفيهم محمدُ بنُ سعدِ بنِ أبي وقاصٍ - إلى الحجاج، ويقالُ: إنَّ محمدَ بنَ سعدٍ قال ليزيدَ بنِ المُهَلَّبِ: أسألُكَ بدعوةِ أبي لأبيكَ لَمَا أطْلقتَني. فأطلَقه، قال أبو جعفرٍ بنُ جريرٍ: ولهذا الكلامِ خبرٌ فيه طولٌ.

ولما قَدِمت الأُسارى على الحجاجِ قتَل أكثرَهم وعفا عن بعضِهم، وقد كان الحجاجُ يومَ ظهَر على ابنِ الأشعث بدَيرِ الجماجم نادى مناديه في الناس: مَن رجَع فهو آمنٌ، ومَن لحِق بقتيبةَ بنِ مسلمٍ بالرَّيِّ فهو آمنٌ. فلحِق به خلقٌ كثيرٌ ممَّن كان مع ابنِ الأشعث، فأمَّنهم الحجاجُ، ومَن لم يَلْحَقْ به شرَع الحجاجُ في تتبعُّهم فقتَل منهم خلقًا كثيرًا، حتى كان آخرَ مَن قتَل منهم سعيدُ بنُ جُبيرٍ، على ما

سيأتي بيانُه.

وكان الشَّعبيُّ مِن جملة مَن صار إلى قتيبةَ بنِ مسلمٍ، فذكَره يومًا الحجاجُ، فقيل له: إنه سار إلى قتيبةَ. فكتَب إليه: أن ابْعَثْ إليَّ بالشَّعبيِّ. قال الشعبيُّ: فلمّا دخَلتُ عليه سلَّمتُ عليه بالإمرة، ثم قلتُ: أيها الأميرُ، إنَّ الناسَ قد أمَروني أنْ أعتذرَ إليك بغيرِ ما يعلَمُ اللهُ أنَّه الحقُّ، وايْمُ الله لا أقولُ في هذا المقامِ إلا الحقَّ، قد واللهِ تَمرَّدْنا عليك، وحرَّضْنا وجهَدْنا كُلَّ الجُهْد فما آلَوْنا، فما كنّا بالأقوياءِ الفجَرَة، ولا بالأتقياءِ البَرَرة، ولقد نصَرك اللهُ علينا وأظفرَك بنا، فإنْ سطَوتَ فبذنوبِنا وما جرَّتْ إليك أيدينا، وإنْ عفوتَ عنّا فبحِلْمكَ، وبعدُ فالحُجَّةُ لك علينا. فقال الحجاجُ: أنتَ واللهِ يا شعبيُّ أحبُّ إليَّ ممَّن يدخُلُ علينا يَقْطُرُ سيفُه من دمائنا ثم يقولُ: ما فعلتُ ولا شهِدْتُ. قد أمِنْتَ عندَنا يا شعبيُّ. قال: فانصرَفْتُ فلمّا مَشَيتُ قليلاً، قال: هلُمَّ يا شعبيُّ. قال: فوَجِلَ لذلك قَلْبي، ثم ذكرتُ قولَه: قد أمِنْتَ يا شعبيُّ. فاطْمَأَنَّتْ نفسي، فقال: كيف وجَدْتَ الناسَ بعدَنا يا شعبيُّ؟ قال: - وكان لي مُكرِمًا - فقُلْتُ: أصلَح اللهُ الأميرَ، قد اكْتحَلْتُ بعدَك السَّهرَ، واستوعرتُ السُّهولةَ، واستوخَمْتُ الجَنابَ، واستَحْلَسْتُ الخوفَ، واستحليتُ الهَمَّ، وفقَدتُ صالحَ الإخوانِ، ولم أجِدْ مِن الأميرِ خلَفًا. قال: انصرِفْ يا شعبيُّ. فانصرفتُ. ورَواه أبو مِخْنَفٍ، عن السَّرِيِّ بنِ إسماعيلَ، عن الشعبيِّ.

وروَى البيهقيُّ أنَّه سأله عن المسألة الخرقاءِ في الفرائضِ؛ وهي أمٌّ وزوجٌ وأختٌ، وما كان يقولُه فيها الصِّدِّيقُ وعمرُ وعثمانُ وعليٌّ وابنُ مسعودٍ، وكان لكلٍّ منهم قولٌ فيها، فنقَل ذلك كلَّه الشعبيُّ في ساعته، فاستَحْسَن قولَ عليٍّ، وحكَم بقولِ عثمانَ، وأُطلِقَ الشعبيُّ بسببِ ذلك.

وقيل: إنَّ الحجاجَ قتَل خمسةَ آلافِ أسيرٍ ممَّن سيَّرَهم إليه يزيدُ بنُ المُهلَّبِ. كما تقدَّم ذلك. ثم سار إلى الكوفة فدخَلها فجعَل لا يبايعُ أحدًا من أهلها إلا قال: أتشهَدُ على نفسك أنَّك قد كفَرْتَ. فإذا قال: نعم. بايعَه، وإن أبَى قتَلَه، فقتَل منهم خلقًا كثيرًا ممَّن أبَى أنْ يَشْهَدَ على نفسه بالكُفْرِ، قال: فأُتي برجلٍ، فقال الحجاجُ: ما أظُنُّ هذا يشهَدُ على نفسه بالكفْرِ؛ لصلاحه ودينه - وأراد الحجاجُ مخادعتَه - فقال: أتخادعِني أنتَ عن نَفْسِي! أنا أكفَرُ أهلِ الأرضِ، وأكفَرُ مِن فرعونَ وهامانَ ونمرودَ. قال: فضحِكَ الحجاجُ وخلَّى سبيلَه.

وذكَر ابنُ جريرٍ من طريق أبي مِخْنَفٍ، أنَّ أعشَى هَمْدانَ أُتيَ به إلى الحجاج، وكان قد عمِل قصيدةً هجا فيها الحجاجَ وعبدَ الملك بنَ مروانَ، ويمدَحُ فيها ابنَ الأشعث وأصحابَه، فاستنشَده إيَّاها، فأنشدَه قصيدةً طويلةً داليَّةً، فيها مدحٌ كثيرٌ لعبدِ الملك وأهلِ بيته، فجعَل أهلُ الشّامِ يقولون: قد أحسنَ أيُّها الأميرُ. فقال الحجاجُ: إنَّه لم يُحسِنْ، إنما يقولُ هذا مصانعةً. ثم ألَحَّ عليه حتى أنشَدَه قصيدتَه الأُخرَى، فلَمَّا أنشدَها، غضِب عندَ ذلك الحجاجُ، وأمَر به فضرِبتْ عنقُه صبرًا بينَ يدَيه.

واسمُ الأعْشىٰ هذا عبدُ الرحمنِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الحارثِ أبو المصبحِ الهَمْدانيُّ الكوفيُّ، الشاعرُ، أحدُ الفصحاءِ البلغاءِ المشهورين، وقد كان له فَضْلٌ وعبادةٌ في مبتدئه، ثم ترَك ذلك، وأقبَل على الشِّعرِ فعُرِف به. وقد وفَد على النعمانِ بنِ بشيرٍ وهو أميرٌ بحِمْصَ فامتدَحه، وكان محصولُه في رحلته إليه منه ومن جندِ حِمْصَ أربعينَ ألفَ دينارٍ، وكان زوجَ أختِ الشَّعبيِّ، كما أنَّ الشَّعبيَّ كان زوجَ أختِه أيضًا، وكان ممَّنْ خرَج مع ابنِ الأشعثِ، فقتَله الحجاجُ كما ذكَرْنا، رحِمه اللهُ.

وقد كان الحجاجُ وهو مواقفٌ لابنِ الأشعثِ، بعَث كَمينًا يأتون جيشَ ابنِ الأشعثِ مِن ورائه، ثم تواقَف الحجاجُ وابنُ الأشعثِ، وهرَب الحجاجُ بمَنْ معه، وترَك معسكرَه، فجاء ابنُ الأشعثِ فاحتاز ما في المعسكرِ وبات فيه، فجاءتِ السَّريةُ إليهم ليلًا وقد وضَعوا أسلحتَهم، فمالُوا عليهم ميلةً واحدةً، ورجَع الحجاجُ بأصحابِه فأحاطوا بهم فاقتتَلوا قتالًا شديدًا، وقُتِل مِن أصحابِ ابنِ الأشعثِ خَلْقٌ كثيرٌ، وغرِق كثيرٌ منهم في دجلةَ ودُجيلٍ، وجاء الحجاجُ إلى معسكرِهم فقتَل مَن وجَده فيه، فقتَل منهم نحوًا مِن أربعةِ آلافٍ، منهم جماعةٌ مِن الرُّؤساءِ والأعيانِ، واحْتازُوه بكمالِه، وانطلَق ابنُ الأشعثِ هاربًا في ثلاثمائةٍ مِن أصحابِه فركِبوا دُجيلًا في السُّفُنِ وعقَروا دوابَّهم وجازوا إلى البصرةِ، ثم ساروا مِن هُنالك، وكان مِن أمرِهم مِن دُخولِهم بلادَ رُتْبيلَ ما كان. ثم شرَع الحجاجُ في تتبُّعِ أصحابِ ابنِ الأشعثِ فقتَلهم مَثْنىٰ وفُرادىٰ، حتىٰ قيل: إنَّه قَتَل منهم بينَ يديه صبرًا مائةَ ألفٍ وثلاثين ألفًا. قاله النَّضرُ بنُ شُمَيلٍ، عن هشامِ بنِ حسَّانَ. منهم محمدُ بنُ سعدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، وجماعاتٌ مِن السّاداتِ، حتىٰ كان آخرُهم سعيدَ بنَ جُبيرٍ - رحِمهم اللهُ ورضِي عنهم - كما سيأتي ذلك في موضِعِه.

بناءُ واسطٍ

قال ابنُ جرير: وفي هذه السنةِ بنَى الحجاجُ واسطًا، وكان سببَ بنائِه لها أنه رأىٰ راهبًا على أتانٍ قد أجاز دجلةَ، فلمَّا مرَّ بموضعِ واسطٍ وقفَتْ أتانُه فبالَتْ، فنزَل عنها، وعمَد إلىٰ موضعِ بَوْلِها فاحتَفَره، ورمَىٰ به في دِجْلةَ، فقال الحجاجُ: عليَّ به. فأُتي به، فقال له: لِمَ صنعتَ هذا؟ قال: إنا نجدُ في كُتُبِنا أنه يُبنَىٰ في هذا الموضعِ مسجدٌ يُعبَدُ اللهُ فيه مادامَ في الأرضِ أحدٌ يُوحِّدُه. فعندَ ذلك اختَطَّ الحجاجُ مدينةَ واسطٍ في ذلك المكانِ، وبنَى المسجدَ في ذلك الموضعِ.

وفيها كانت غزوةُ عطاءِ بنِ رافعٍ صِقِلِّيَةَ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

عبدُ الرحمنِ بن حجيْرةَ الخَوْلانيُّ المصريُّ، روَىٰ عن جماعةٍ مِن الصَّحابةِ، وكان عبدُ العزيزِ بنُ مروانَ أميرُ مصرَ قد جمَع له بينَ القضاءِ والقَصصِ وبيتِ المالِ، وكان رِزقُه في العامِ ألفَ دينارٍ، وكان لا يَدَّخِرُ منها شيئًا.

طارقُ بنُ شهابِ بنِ عبدِ شمسٍ الأحْمَسيُّ، مِمَّن رأى النبيَّ ﷺ، وغزا في خلافةِ الصِّدِّيقِ وعمرَ، رضي اللهُ عنهما، بضعًا وأربعينَ غزاةً. تُوفِّي بالمدينة هذه السنةَ.

عبيدُ الله بنُ عديِّ بنِ الخِيارِ، أدركَ النبيَّ ﷺ، وحدَّث عن جماعةٍ من الصَّحابةِ، وكان من فقهاءِ قُرَيشٍ وعُلمائهم، وأبوه عَدِيٌّ مِمَّن قُتِل يومَ بدرٍ كافرًا.

عبدُ الله بن قَيْس بن مَخْرمةَ، كان قاضيَ المدينةِ، وتُوفِّي بها في هذه السنةِ.

مَرْثَدُ بن عبد الله، أبو الخير، اليَزَنيُّ.

وفيها فُقِد جماعةٌ من القُرَّاءِ والعلماءِ الذين كانوا مع ابنِ الأشعثِ؛ منهم مَن هرَب، ومنهم مَن قُتِل في المعركة، ومنهم مَن أُسِر فضرَب الحجّاجُ عنقَه، ومنهم مَن تَتبَّعَه الحجاجُ حتى قتلَه.

وقد سَمَّى منهم خليفةُ بنُ خيَّاطٍ طائفةً من الأعيانِ؛ فمنهم مسلمُ بنُ يَسَارٍ المُزَنيُّ، وأبو مرَانةَ العِجْليُّ قُتِل، وعُقبةُ بنُ عبد الغافرِ قُتِل، وعقبةُ بنُ وَسَّاجٍ قُتِل، وعبدُ الله بنُ غالبٍ الجَهْضَميُّ قُتِل، وأبو الجَوْزاءِ الرَّبَعيُّ قُتِل، والنَّضْرُ بنُ أنسٍ، وعمرانُ والدُ أبي جَمْرةَ الضُّبَعيُّ، وأبو المنهال سيَّارُ بنُ سلامةَ الرِّياحيُّ، ومالكُ بنُ دينارٍ، ومُرَّةُ بنُ ذبَّابٍ الهَدَاديُّ، وأبو نُجَيدٍ الجَهْضَميُّ، وأبو شيخٍ الهُنائيُّ، وسعيدُ بنُ أبي الحسنِ، وأخوه الحسنُ البصريُّ.

قال أيوبُ: قيل لابنِ الأشعثِ: إنْ أحببتَ أنْ يُقتلَ الناسُ حولَك كما قُتِلوا حولَ هَوْدَجِ عائشةَ يومَ الجملِ فأخرِجِ الحسنَ معك. فأخرَجه.

ومن أهلِ الكوفةِ سعيدُ بنُ جُبَيرٍ، وعبدُ الرحمنِ بنُ أبي ليلى، وعبدُ الله بنُ شدَّادٍ، والشعبيُّ، وأبو عبيدةَ بنُ عبدِ الله بنِ مسعودٍ، والمعرورُ بنُ سُوَيدٍ، ومحمدُ بنُ سعدِ بنِ أبي وقّاصٍ، وأبو البَخْتَريِّ، وطلحةُ بنُ مُصَرِّفٍ وزُبَيدُ بنُ الحارث اليامِيَّانِ، وعطاءُ بنُ السَّائبِ. قال: أيوبُ: فما منهم من أحدٍ صُرِع مع ابن الأشعث إلا رُغِب عن مَصْرَعِه، ولا نجا أحدٌ منهم إلا حمِد اللهَ الذي سلَّمه.

ومن أعيانِ مَن قتَل الحجاجُ:

عمرانُ بنُ عِصامٍ الضُّبَعيُّ، والدُ أبي جَمْرةَ، كان من علماءِ أهلِ البصرةِ، وكان صالحًا عابدًا، أُتِي به أسيرًا إلى الحجّاجِ فقال له: اشْهَدْ على نفسِك بالكفرِ حتى أُطلقَك. فقال: واللهِ إنِّي ما كفَرتُ باللهِ منذُ آمنتُ به. فأمَر فضُرِبت عنُقُه.

عبدُ الرحمن بنُ أبي ليلى، روى عن جماعةٍ من الصَّحابةِ، ولأبيه أبي ليلى صُحْبةٌ، أخذ عبدُ الرحمنِ القرآنَ عن عليِّ بنِ أبي طالبٍ. خرَج مع ابنِ الأشعثِ فأُتي به الحجاجُ أسيرًا فضرَب عنُقَه بين يدَيه صبرًا.

* * *

ثم دخلت سنة أربع وثمانين

قال الواقدي: فيها افتتح عبدُ الله بنُ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ المَصِّيصَةَ.

وفيها: غزا محمدُ بنُ مروانَ أرْمينيَّةَ فقتَل منهم خلقًا كثيرًا وحرَق كنائسَهم وضِياعَهم. وتُسمَّىٰ سنةَ الحَريقِ.

وفيها: استعمَل الحجّاجُ علىٰ فارسَ محمدَ بنَ القاسمِ الثَّقفيَّ، وأمرَه بقَتْلِ الأكرادِ.

وفيها: وَلَّىٰ عبدُ الملكِ الإسكندريةَ عِياضَ بنَ غَنْمٍ التُّجيبيَّ، وعزَل عنها عبدَ الملكِ بنَ أبي الكنودِ الذي كان قد وليها في العامِ الماضي.

وفيها: افتتَح موسىٰ بنُ نُصيرٍ طائفةً من بلادِ المغربِ؛ من ذلك بلدُ أَوْرَبَةَ، وقتَل من أهلِها بشرًا كثيرًا جدًّا، وأسَر نحوًا من خمسين ألفًا.

وفيها قتَل الحجّاجُ أيضًا جماعةً من رؤساءِ أصحابِ ابنِ الأشعثِ، منهم.

أيوبُ ابنُ القِرِّيَّةِ، وكان فصيحًا بليغًا واعظًا، قتَله صبرًا بينَ يدَيه، ويقالُ: إنه ندم علىٰ قتلِه. وهو أيُّوبُ بنُ زيدِ بنِ قيسٍ، أبو سليمانَ الهلاليُّ، المعروفُ بابنِ القِرِّيَّةِ.

وعبدُ الله بنُ الحارث بن نوفل. وسعدُ بنُ إياس الشَّيْبانيُّ. وأبو عِنَبَةَ الخَوْلانيُّ، له صُحبةٌ وروايةٌ، سكَن حِمْصَ وبها تُوفي وقد قاربَ المائةَ سنةٍ. **عبدُ الله بنُ قتادةَ**، وغيرُ هؤلاء جماعةٌ؛ منهم مَن قتَله الحجاجُ.

ومنهم مَن تُوفي: أبو زُرعةَ الجُذاميُّ الفلسطينيُّ، كان ذا منزلةٍ عندَ أهلِ الشّامِ، فخاف منه معاويةُ، ففهِم منه ذلك أبو زُرعةَ فقال: يا أميرَ المؤمنين، لا تَهدِمْ ركنًا بنيتَه، ولا تُحزِنْ صاحبًا سرَرْتَه، ولا تُشمتْ عدوًّا كبتَّه. فكفَّ عنه معاويةُ.

وفيها تُوفي عتبةُ بنُ النُّدَّرِ السُّلميُّ، صحابيٌّ جليلٌ.

عمرانُ بنُ حطّانَ الخارجيُّ، كان أولاً من أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ فتزَوَّج امرأةً من الخوارجِ حسنةً جميلةً جدًّا فأحبَّها، وكان هو دميمَ الشَّكلِ، فأراد أنْ يرُدَّها إلى السُّنَّة فأبَتْ، فارتَدَّ معها إلىٰ مذهبِها. وقد كان من الشعراءِ المُطْبِقين، وهو القائلُ في قتلِ عليٍّ وقاتله:

يا ضربةً من تَقيٍّ ما أرادَ بها ... إلاَّ ليَبْلُغَ من ذي العرشِ رِضْوانا

إني لأذكُرُه يومًا فأحسَبُهُ ... أوْفَى البريَّةِ عندَ اللهِ ميزانا

أكرِمْ بقومٍ بطونُ الطيرِ قبرُهُمُ ... لمْ يَخلِطُوا دينَهمْ بغيًا وعُدوانا

وقد كان الثَّوريُّ يتمثَّلُ بأبياته هذه في الزهدِ في الدنيا، وهي قولُه:

أرَى أشقياءَ الناسِ لا يَسأمُونها ... على أنَّهُمْ فيها عُراةٌ وجُوَّعُ

أراها وإنْ كانتْ تُحَبُّ فإنّها ... سَحابةُ صيفٍ عن قليلٍ تَقشَّعُ

كرَكْبٍ قَضَوا حاجاتِهمْ وترحَّلوا ... طريقُهُمُ بادي العَلامةِ مَهْيَعُ

مات عمرانُ بنُ حطّانَ سنةَ أربعٍ وثمانينَ. وقد ردَّ عليه بعضُ العلماءِ في أبياتِه المتقدِّمةِ في قَتْلِ عليٍّ رضي اللهُ عنه، بأبياتٍ على قافيتِها ووزنِها:

بلْ ضربةٌ من شَقيٍّ ما أرادَ بها ... إلا لِيَبْلُغَ من ذي العرشِ خُسْرانا

إني لأذكُرُه يومًا فأحسَبُهُ ... أشْقَى البريةِ عندَ اللهِ مِيزانا

رَوْحُ بنُ زِنْباعٍ الجُذَاميُّ، كان من أمراءِ الشّامِ، وكان عبدُ الملك يَسْتشيرُه في أمورِه.

وفيها كان مَهْلِكُ عبدِ الرحمنِ بنِ محمدِ بنِ الأشعثِ بنِ قيسٍ الكنديِّ، وقيل: في التي بعدَها. فاللهُ أعلمُ؛ وذلك أنَّ الحجاجَ كتَبَ إلى رُتْبيلَ ملكِ التركِ الذي لجأَ ابنُ الأشعثِ إليه يقولُ له: واللهِ الذي لا إلَه إلا هو لئن لم تَبعَثْ إليَّ بابنِ الأشعثِ لأبعثَنَّ إلى بلادك ألفَ ألفِ مقاتلٍ؛ ولأُخرِّبنَّها. فلمَّا تحقَّقَ الوعيدَ من الحجاجِ استشار في ذلك بعضَ الأمراءِ فأشار عليه بتسليمِ ابنِ الأشعثِ إليه قبلَ أنْ يُخرِّبَ الحجاجُ ديارَه ويأخُذَ عامةَ أمصارِه، فأرسَل إلى الحجاجِ يَشترطُ عليه أنْ لا يقاتِلَ عشرَ سنين، وأنْ لا يُؤدِّيَ في كلِّ سنةٍ منها إلا مائةَ ألفٍ من الخَراجِ، فأجابه الحجاجُ إلى ذلك، وقيل: إنَّ الحجاجَ وعدَه أنْ يُطلقَ له خَراجَ أرضِه سبعَ سنينَ. فعندَ ذلك غدَر رُتْبيلُ بابنِ الأشعثِ، فقيل: إنَّه أمَر بضربِ عُنُقِه صبرًا بينَ يدَيه، وبعَث برأسِه إلى الحجاجِ. وقيل: بل كان ابنُ الأشعثِ قد مرِض مرضًا شديدًا فقتَله وهو بآخرِ رَمَقٍ. والمشهورُ أنه قبَض عليه وعلى ثلاثينَ من أقربائِه فقيَّدَهم في الأصفادِ وبعَث بهم مع رُسُلِ الحجاجِ إليه، فلَمّا كانوا ببعضِ الطريقِ بمكانٍ يُقالُ له: الرُّخَّجُ. صعِد ابنُ الأشعثِ وهو مُقيَّدٌ بالحديدِ إلى سطحِ قصرٍ، ومعه رجلٌ موكَّلٌ به لئلاَّ يفرَّ، وألْقَى نفسَه من ذلك القصرِ وسقَط معه المُوكَّلُ به فماتا جميعًا، فعمَد الرسولُ إلى رأسِ ابنِ الأشعثِ فاحتَزَّه، وقتَل مَن معه من أصحابِ ابنِ الأشعثِ، وبعَث برءُوسِهم إلى الحجّاجِ، فأمَر فطِيف برأسِه في العراقِ، ثم بعثَه إلى أميرِ المؤمنين عبدِ الملكِ بنِ مروانَ فطِيف برأسِه في الشّامِ، ثم بعَث به إلى أخيه عبدِ العزيزِ بمصرَ فطِيفَ برأسِه هنالك، ثم دَفَنُوا رأسَه بمصرَ وجُثَّتَه بالرُّخَّجِ، وقد قال بعضُ الشُّعراءِ في ذلك:

هيهاتَ موضعُ جثَّةٍ من رأسِها ... رأسٌ بمصرَ وجثَّةٌ بالرُّخَّجِ

وإنما ذكَر ابنُ جريرٍ مقتلَ ابنِ الأشعثِ في سنةِ خمسٍ وثمانين. فاللهُ أعلمُ.

وعبدُ الرحمنِ هذا هو ابنُ محمدِ بنِ الأشعثِ بنِ قيسٍ، ومنهم من يقولُ: عبدُ الرحمنِ بنُ قيسِ ابنِ محمدِ بنِ الأشعثِ بنِ قيسٍ الكِنْديُّ الكوفيُّ. قد روَى له أبو داودَ والنَّسائيُّ، عن أبيه، عن جدِّه،

عن ابنِ مسعودٍ حديثَ: «إذا اختلَف المتبايعان والسلعةُ قائمةٌ، فالقولُ ما قال البائعُ أو يتتاركان»[١].
وعنه أبو العُمَيس، ويُقالُ: إنَّ الحجاجَ قتَله بعدَ التسعين سنةً. فاللهُ أعلمُ.

والعجَبُ كُلُّ العجبِ من هؤلاءِ الذين بايَعوه بالإمارةِ وليس من قريشٍ، وإنما هو كِنْديٌّ من اليمنِ، وقد اجتمَع الصحابةُ يومَ السَّقيفةِ على أنَّ الإمارةَ لا تكونُ إلا في قريشٍ، واحتَجَّ عليهم الصِّدِّيقُ بالحديثِ في ذلك، حتى إنَّ الأنصارَ سألوا أنْ يكونَ منهم أميرٌ مع أميرِ المهاجرينَ، فأبَى الصِّدِّيقُ عليهم ذلك، ثم مع هذا كُلِّه ضرَب سعدُ بنُ عبادةَ - الذي دعا إلى ذلك أولاً ثم رجَع عنه - كما قرَّرنا ذلك فيما تقدَّم؛ فكيف يعمَدون إلى خليفةٍ قد بُويعَ له بالإمارةِ على المسلمين من سنين فيعزِلونه وهو من صَلِيبَةِ قريشٍ، ويبايِعون لرجلٍ كِنْديٍّ بيعةً لم يتَّفقْ عليها أهلُ الحَلِّ والعَقْدِ؟ لهذا لما كانت هذه زَلَّةً وفَلْتَةً نشَأ بسببِها شرٌّ كثيرٌ هلَك فيه خَلْقٌ كثيرٌ، فإنا للهِ وإنا إليه راجعون.

أَيُّوبُ ابنُ القِرِّيَّةِ - وهي أُمُّه - واسمُ أبيه يزيدُ بنُ قيسِ بنِ زُرارةَ بنِ مسلمٍ النَّمَرِيُّ الهلاليُّ، كان أعرابيًّا أُمِّيًّا، وكان يُضرَبُ به المثلُ في فصاحتِه وبيانِه وبلاغتِه، صحِب الحجاجَ ووفَد على عبدِ الملكِ، ثم بعَثه رسولاً إلى ابنِ الأشعثِ، فقال له ابنُ الأشعثِ: لئن لم تقُمْ خطيبًا فتَخْلَع الحجاجَ لأضربنَّ عُنُقَكَ. ففعَل، وأقام عندَه، فلمّا ظهَر الحجاجُ استحضرَه وجرَت له معه مقاماتٌ ومقالاتٌ في الكلامِ، ثم في آخرِ الأمرِ ضرَب عنقَه، وندِم بعدَ ذلك على ما فعَل مِن ضَرْبِ عنقِه، ولكن ندِم حيثُ لا ينفَعُه النَّدَمُ؛ كما قيل:

وجـــــادَتْ بـوَصْلٍ حـينَ لا يَنْـفَـعُ الـوصـلُ

وقد ذكَره ابنُ عساكرَ في «تاريخِه»، وابنُ خلِّكانَ في «الوفياتِ»، وأطال ترجمتَه وذكَر فيها أشياءَ

---

(١) **في طرقه مقال**: أخرجه أحمد (١/ ٤٦٦) عن الشافعي أخبرنا سعيد بن سالم القداح أخبرنا ابن جريج أن إسماعيل بن أمية أخبره عن عبد الملك بن عمير أخبرنا ابن جريج أن إسماعيل بن أمية أخبره عن عبد الملك بن عمير أنه قال حضرت أبا عبيدة بن عبد الله بن مسعود وأتاه رجلان تبايعا في سلعة فذكره عن ابن مسعود مرفوعًا.
وأبو عبيدة لم يسمع من ابن مسعود ثم عبد الملك بن عمير صوابه عبد الملك بن عُبيد كما قال البيهقي وأحمد وهو ظاهر كلام البخاري كما في «تلخيص الحبير» (٣/ ٣١) وهو مجهول.
وله طريق آخر.
عند أحمد (١/ ٤٦٦) عن يحيى بن سعيد عن ابن عجلان عن عون بن عبد الله عن ابن مسعود مرفوعًا بلفظ «إذا اختلف البيعان فالقول ما قال البائع والمبتاع بالخيار» وهذا إسنادٌ منقطع عون بن عبد الله لم يدرك ابن مسعود كما قال الترمذي عقب حديث (١٢٧٠) والدارقطني، قال العلائي في «جامع التحصيل» ص (٢٤٩): «وذلك واضح».
وله طريق آخر عن ابن مسعود:
أخرجه أحمد (١/ ٤٦٦) عن وكيع عن المسعودي عن القاسم عن عبد الله بن مسعود مرفوعًا «إذا اختلف البيعان وليس بينهما بيِّنة فالقول ما يقول صحاب السلعة أو يترادَّان».
وإسناده منقطع بين القاسم وعبد الله بن مسعود.
وراجع الكلام على بقية طرقه وأقوال العلماء منه في «التلخيص الحبير» (٣/ ٣٠، ٣١).

حسنةٌ، قال: والقَرِيَّةُ، بكسرِ القافِ وتشديدِ الياءِ، وهي جدَّتُه، واسمُها خُماعةُ بنتُ جُشَمَ.

قال ابنُ خلِّكان: ومِن الناسِ مَن أنكرَ وجودَه، ووجود مجنونِ ليلى، وابنِ أبي العَقَبِ صاحبِ الملحمة، وهو يحيى بنُ عبد الله بنِ أبي العقب. واللهُ أعلمُ.

رَوْحُ بنُ زِنْباعِ بن سلامةَ الجُذَاميُّ أبو زُرْعةَ، ويقالُ: أبو زِنْباعٍ الدِّمشقيُّ. دارُه بدمشقَ في طرفِ البُزُوريين عندَ دارِ ابنِ أبي العَقَبِ صاحبِ الملحمةِ. وهو تابعيٌّ جليلٌ، روَىٰ عن أبيه - وكانت له صُحْبةٌ - وتميمٍ الدَّاريِّ، وعبادةَ بنِ الصامتِ، ومعاويةَ، وكعبِ الأحبارِ، وغيرِهم، وعنه جماعةٌ؛ منهم عُبادةُ بنُ نُسَيٍّ.

كان رَوحٌ عندَ عبدِ الملكِ كالوزيرِ لا يكادُ يفارقُه، وكان مع أبيه مروانَ يومَ مَرْجِ راهطٍ، وقد أمَّرَه يزيدُ بنُ معاويةَ على جندِ فلسطينَ. وزعَم مسلمُ بنُ الحجاج أنَّ رَوْحَ بنَ زِنْباعٍ كانت له صُحبةٌ، ولم يُتابَعْ مسلمٌ على هذا القولِ، والصحيحُ أنه تابعيٌّ وليس بصحابيٍّ. ومِن مآثرِه التي تفرَّدَ بها أنه كان كلما خرَجَ مِن الحمّامِ يُعتِقُ نسمةً. قال ابنُ زَبْرٍ: مات سنةَ أربعٍ وثمانينَ بالأُردنِّ. وزعَم بعضُهم أنه بقِي إلى أيامِ هشامِ بنِ عبدِ الملكِ.

وقد حجَّ مرَّةً فنزَل على ماءٍ بينَ مكةَ والمدينة فأمَر فأُصلحت له أطعمةٌ مختلفةُ الألوانِ، ثم وُضعَتْ بينَ يَدَيه، فبينما هو يأكلُ إذ جاء راعٍ مِن الرُّعاةِ يَرِدُ الماءَ، فدعاه رَوْحُ بنُ زِنباعٍ إلى الأكلِ مِن ذلك الطعامِ، فجاء الرَّاعي فنظَر إلى طعامِه وقال: إني صائمٌ. فقال له رَوْحٌ: في مثلِ هذا اليومِ الطويلِ الشديدِ الحرِّ تصومُ يا راعي؟ فقال الراعي: أفأَغْبِنُ أيامي مِن أجلِ طُعَيِّمِك؟ ثم إنَّ الراعيَ ارتاد لنفسه مكانًا فنزَله وترَك روحَ بنَ زِنباعٍ، قال رَوْحُ بنُ زنباعٍ:

لقد ضَنِنتَ بأيامِكَ يا راعي ... إذ جادَ بها رَوْحُ بنُ زِنباعِ

ثم إنَّ رَوحًا بكَىٰ طويلاً وأمرَ بتلك الأطعمةِ فَرُفِعَتْ، وقال: انظُروا هَلْ تجدون لها آكلاً مِن هذه الأعرابِ أو الرعاةِ؟ ثم سار مِن ذلك المكانِ وقد أخَذ الراعي بمجامعِ قَلْبِه وصغُرَتْ إليه نفسُه. واللهُ سبحانه وتعالىٰ أعلمُ.

* * *

ثم دخلت سنة خمس وثمانين

فيها - كما ذكَر ابنُ جرير - كان مَقتلُ عبدِ الرحمنِ بنِ الأشعثِ الكِنْديِّ. فاللهُ أعلمُ.

وفيها: عزَل الحجاجُ عن إمْرةِ خُراسانَ يزيدَ بنَ المُهَلَّبِ، وولَّى عليها أخاه المفضَّلَ بنَ المُهَلَّبِ. وكان سببَ ذلك أنَّ الحجّاجَ وفَد مرَّةً على عبدِ الملكِ، فلمَّا انصرَف مَرَّ بدَيْرٍ، فقيل له: إنَّ فيه شيخًا من أهلِ الكتابِ عالمًا. فدُعِي له، فقال: يا شيخُ، هل تجِدون في كُتُبِكم ما أنتم فيه وما نحن فيه؟ قال: نعم. قال: فما تجدُون صفةَ أميرِ المؤمنين؟ قال: نجِدُه مَلِكًا أقرَعَ، مَن يَقُمْ بسبيلِه يُصْرَعْ. قال: ثم مَن؟ قال: ثم رجلٌ يقالُ له: الوليدُ. قال: ثم ماذا؟ قال: ثم رجلٌ اسمُه اسمُ نبيٍّ يُفْتَحُ به على النَّاسِ. قال: أفتَعْرِفُني؟ قال: قد أُخْبِرْتُ بك. قال: أفتعرفُ ما أَلِي؟ قال: نعم. قال: فمَن يَلِي العراقَ بَعْدي؟ قال: رجلٌ يقالُ له: يزيدُ. قال: أَفي حياتي أم بعدَ موتي؟ قال: لا أدري. قال: أفتعرفُ صفتَه؟ قال: يغدرُ غَدْرَةً، لا أعرفُ غيرَها.

قال: فوقَع في نفسِ الحجاجِ أنه يزيدُ بنُ المُهَلَّبِ، وسار سبعًا وهو وَجِلٌ مِن كلامِ الشَّيخِ، ثم بعَث إلى عبدِ الملكِ يَستعفيه مِن ولايةِ العراقِ؛ ليعلَمَ مكانتَه عندَه، فجاء الكتابُ بالتقريعِ، والتَّأنيبِ، والتوبيخِ، والأمرِ بالثباتِ، والاستمرارِ على ما هو عليه. ثم إنَّ الحجاجَ جلَس يومًا مُفكِّرًا واستَدْعى بعُبيدِ بنِ مَوْهَبٍ فدخَل عليه، وهو ينكُتُ في الأرضِ، فرفَع رأسَه إليه، فقال: ويْحك يا عبيدُ، إنَّ أهلَ الكتابِ يذكُرون أنَّ ما تحتَ يَدي يليه رجلٌ يقالُ له: يزيدُ. وقد تذكَّرتُ يزيدَ بنَ أبي كَبْشَةَ، ويزيدَ بنَ حُصينِ بنِ نُميرٍ، ويزيدَ بنَ دينارٍ، فليسُوا هناك، وما هو - إن كان - إلا يزيدُ بنُ المُهَلَّبِ. فقال عبيدٌ: لقد شرَّفتَهم وعظَّمْتَ ولايتَهم، وإنَّ لهم لعَددًا وجَلَدًا وحظًّا، فأَخْلِقْ به. فأجمَعَ رأْيُ الحجاجِ على عزلِ يزيدَ بنِ المُهَلَّبِ، فكتَب إلى عبدِ الملكِ يَذُمُّه ويُخوِّفُه غَدْرَه، ويُخبِرُه بما أخبرَه به ذلك الشَّيخُ وكتَب إليه عبدُ الملكِ: قد أكثَرتَ في شأنِ يزيدَ فسَمِّ رجلاً يصلُحُ لخراسانَ. فوقَع اختيارُ الحجاجِ على المفضَّلِ بنِ المُهَلَّبِ، فولَّاه قليلاً تسعةَ أشهرٍ، فغزا باذَغِيسَ وغيرَها، وغنِم مغانمَ كثيرةً، وامتدَحه الشعراءُ، ثم عزَله بقُتيبةَ بنِ مسلمٍ.

قال ابنُ جرير: وفي هذه السنة قُتِل موسى بنُ عبدِ اللهِ بنِ خازمٍ بتِرْمِذَ. ثم ذكَر سببَ ذلك. وملخَّصُه، أنه بعدَ مقتلِ أبيه لم يَبْقَ بيدِه بلدٌ يلجأُ إليه بمَنْ معه من أصحابِه، فجعَل كُلَّما اقْتَرَب مِن بلدةٍ خرَج إليه ملكُها فقاتلَه، فلم يَزَلْ ذلك دأبَه حتى نَزَل قريبًا مِن تِرْمِذَ، وكان ملكُها فيه ضَعْفٌ، فجعَل يهادنُه ويبعَثُ إليه بالألْطَافِ والتُّحفِ، حتى جعَل يَتصَيَّدُ هو وهو، ثم عنَّ للملكِ فعمِل له طعامًا، وبعَث إلى موسى بنِ عبدِ اللهِ بنِ خازمٍ: أن ائتني في مائةٍ مِن أصحابِك، فاختار موسى مِن جيشِه مائةً مِن شُجْعانِهم، ثم دخَل البلدَ فأكَل مِن طعامِ الملكِ فلمَّا فرَغَت الضِّيافةُ اضطجَع موسى على جنبِه في دارِ الملكِ، وقال: واللهِ لا أقومُ مِن هنا حتى يكونَ هذا المنزلُ منزِلي، أو يكونَ قَبرِي.

فثار أهلُ القصرِ إليه فحاجفَ عنه أصحابُه، ثم وقعَت الحربُ بينَهم وبينَ أهلِ ترْمذَ، فاقتتلوا فقُتِل من أهلِ ترْمذَ خَلْقٌ كثيرٌ وهرَب بقيَّتُهم، واستدعى موسى بقيةَ جيشه إليه، واستحوذَ موسى على البلد فحصَّنَها ومنَعها من الأعداء، وخرَج منها ملكُها هاربًا فلجَأ إلى إخوانه من الأتراك فاستنصرَهم، فقالوا له: هؤلاءِ قومٌ في نحوٍ من مائة رجلٍ أخرجوكم من بلدكم، لا طاقةَ لنا بقتال هؤلاء. ثم ذهَب ملك ترْمذَ إلى طائفةٍ أخرى من التركِ فاستصرَخَهم فبعَثوا معه قُصّادًا نحوَ موسى ليسمَعوا كلامَه. فلمَّا أحسَّ بقدومهم عليه - وكان ذلك في شدَّة الحرِّ - أمَر أصحابَه أن يُؤجِّجوا نارًا ويَلْبَسوا ثيابَ الشتاء ويُدْنوا أيديَهم من النَّار كأنهم يَصْطَلونَ بها، فلمَّا وصَلت إليه الرسلُ رأَوا أصحابَه وما يصنَعون في شدَّة الحرِّ فقالوا لهم: ما هذا الذي تفعلونَه؟ فقالوا لهم: إنا نجِدُ البردَ في الصيف، والكَرْبَ في الشتاء. فرجَعوا إلى أنفسِهم، فقالوا: ما هؤلاءِ بَشَرٌ، ما هؤلاءِ إلا جنٌّ. ثم عادوا إلى مَلِكهم فأخبروه بما رأَوا، فقالوا: لا طاقةَ لنا بقتالِ هؤلاء. ثم ذهَب صاحبُ ترْمذَ فاستجاش بطائفة أخرى، فجاءوا فحاصرُوهم بِترْمذَ، وجاء الخُزَاعيُّ فحاصرَهم أيضًا، فجعَل يُقاتِلُ الخزاعيَّ أوَّلَ النهارِ، ويقاتِلُ آخرَه العجَمَ. ثم إن موسى بيَّتهم فقتَل منهم مقتلةً عظيمةً، وأفزَع ذلك عمرَ الخُزَاعيَّ فصالَحه وكان معه، فدخَل يومًا عليه، وليس عندَه أحدٌ، وليس يَرى معه سلاحًا، فقال على وجه النُّصح: أصلَح اللهُ الأميرَ، إنَّ مِثْلَكَ لا يَنْبَغي أن يكونَ بلا سلاحٍ. فقال: إنَّ عندي سلاحًا. ثم رفعَ صَدْرَ فِراشِه فإذا سيفُه مُنْتضًى، فأخذَه عمرُ فضربَه به حتى بَرَد، وخرَج هاربًا، ثم تَفَرَّق أصحابُ موسى بنِ عبدِ اللهِ بنِ خازمٍ.

قال ابنُ جرير: وفي هذه السنة عزَم عبدُ الملك على عَزْلِ أخيه عبدِ العزيزِ بنِ مَرْوانَ عن إِمْرةِ الدِّيارِ المصريةِ، وحسَّن له ذلك رَوْحُ بنُ زِنباعٍ الجُذاميُّ، فبينما هما في ذلك إذ دخَل عليهما قَبِيصَةُ بنُ ذُؤَيبٍ في الليلِ، وكان لا يُحْجَبُ عنه أيَّ ساعةٍ جاء من ليلٍ أو نهارٍ، فعزَّاه في أخيه عبدِ العزيزِ، فندِم على ما كان منه من العزمِ على عزلِه، وإنما حمَله على إرادة عزْله أنه أراد أن يَعْهَدَ بالأمرِ من بعده لأولاده؛ الوليدِ، ثم سليمانَ، ثم يزيدَ، ثم هشامٍ، وذلك عن رأيِ الحجاجِ وترتيبِه ذلك لعبدِ الملك، وكان أبوه مروانُ عهِدَ بالأمرِ إلى عبدِ الملك، ثم من بعدِه إلى عبدِ العزيزِ، فأراد عبدُ الملك أن يُنحِّيَه عن الإمرةِ بعدِه بالكُلِّيةِ، ويجعلَ الأمرَ في أولاده وعقِبِه، وأن تكونَ الخلافةُ باقيةً فيهم. واللهُ أعلمُ.

عبدُ العزيزِ بنُ مَرْوانَ، رحمه اللهُ تعالى

عبدُ العزيزِ بنُ مروانَ بنِ الحكمِ بنِ أبي العاصِ بنِ أميةَ بنِ عبدِ شمسٍ، أبو الأصبَغِ، القُرشيُّ، الأمويُّ، وُلِد بالمدينة، ثم دخَل الشَّامَ مع أبيه مروانَ بنِ الحكمِ، وكان وليَّ عهدِه من بعدِ أخيه عبدِ الملكِ، وولَّاه أبوه إمرةَ الدِّيارِ المصريةِ في سنةِ خمسٍ وستين، فكان واليًا عليها إلى هذه السنة، وشهِد قتْلَ عمرِو بنِ سعيدِ بنِ العاصِ، كما قدَّمنا. وكانت له دارٌ بدمشقَ، وهي الدارُ التي للصُّوفيةِ

اليومَ، المعروفةُ بالخانقاه السُّمَيْساطِيَّة، ثم كانت من بعده لولده عمرَ بنِ عبد العزيز، ثم تنَقَّلت إلى أن صارت خانقاهَ للصوفيَّة.

وقد روىٰ عبدُ العزيز بنُ مروانَ الحديثَ عن أبيه، وعبدِ الله بنِ الزبيرِ، وعُقْبةَ بنِ عامرٍ، وأبي هريرةَ. وحديثُه عنه في «مسند أحمدَ»، «وسننِ أبي داودَ»، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**شَرُّ ما في الرَّجلِ شُحٌّ هالعٌ وجُبْنٌ خالعٌ**»[1]. وعنه ابنُه عمرُ، والزهريُّ، وعُلَيُّ بنُ رَباحٍ، وجماعةٌ.

قال محمدُ بنُ سعد: كان ثقةً قليلَ الحديث. وقال غيرُه: كان يلحَنُ في الحديث، وفي كلامِه. ثم تعلَّم العربيةَ فأتقَنَها وأحسنَها فكان من أفصحِ الناسِ؛ وكان سببَ ذلك أنه دخَل عليه رجلٌ يشكو خَتَنَه - وهو زوجُ ابنته - فقال له عبدُ العزيز: مَن ختنَكَ؟ فقال الرجلُ: ختنَني الخاتنُ الذي يختِنُ الناسَ. فقال لكاتبِه: ويحَك! بماذا أجابني؟ فقال الكاتبُ: يا أميرَ المؤمنين، كان ينبغي أن تقولَ: مَن ختَنُك؟ فآلىٰ علىٰ نفسه أن لا يخرُجَ من منزله حتىٰ يتعلَّمَ العربيةَ، فمكَث جُمُعةً واحدةً فتعلَّمها، فخرَج وهو من أفصحِ الناسِ. وكان بعدَ ذلك يُجزِلُ عطاءَ مَن يُعْرِبُ كلامَه، ويَنْقُصُ عطاءَ مَن يلحَنُ فيه؛ فتسارَعَ الناسُ في زمانِه إلىٰ تعلُّمِ العربية. قال عبدُ العزيزِ يومًا لرجلٍ: مِمَّن أنت؟ فقال: مِن بنو عبدِ الدَّار. فقال: تجدُها في جائزتِك. فنقَصه مائةَ دينارٍ.

وقال أبو يعلَى المَوْصليُّ: حدثنا مجاهدُ بنُ موسىٰ، ثنا إسحاقُ بنُ يوسفَ، أنبأنا سفيانُ، عن محمدِ بنِ عَجْلانَ، عن القَعْقاعِ بنِ حكيمٍ، قال: كتَب عبدُ العزيزِ بنُ مروانَ إلىٰ عبدِ الله بنِ عمرَ: ارفَعْ إليَّ حاجتَك. فكتَب إليه ابنُ عمرَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**اليدُ العُليا خيرٌ من اليد السفلى، وابدَأْ بمَن تعولُ**». ولستُ أسألُك شيئًا ولا أرُدُّ رزقًا رَزَقَنيه اللهُ عزَّ وجلَّ منك[2].

وقال ابنُ وَهب: حدَّثني يحيىٰ بنُ أيوبَ، عن يزيدَ ابن أبي حَبيبٍ، عن سُوَيدِ بنِ قيسٍ، قال: بعَثني عبدُ العزيزِ بنُ مروانَ بألفِ دينارٍ إلىٰ ابنِ عمرَ، قال: فجئتُه فدفَعتُ إليه الكتابَ فقال: أين المالُ؟ فقلتُ: لا أستطيعُه الليلةَ حتىٰ أُصبحَ. قال: لا والله، لا يبيتُ ابنُ عمرَ الليلةَ وله ألفُ دينارٍ. قال: فدفَع إليَّ الكتابَ حتىٰ جئتُه بها ففرَّقها، رضِي اللهُ عنه[3]. ومن كلامِه، رحِمه اللهُ: عجبًا لمؤمنٍ يؤمنُ ويُوقِنُ أنَّ اللهَ يرزُقُه ويُخلِفُ عليه، كيف يحبِسُ مالاً عن عظيمِ أجرٍ وحُسْنِ سماعٍ؟!

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٢) عن عبد الرحمن بن مهدي عن موسىٰ - يعني ابن علي عن أبيه عن عبد العزيز بن مروان عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال . . . فذكره وهذا إسنادٌ صحيح رجاله ثقات والأولىٰ في عبد العزيز بن مروان أن يكون ثقة لا صدوق فراجع ترجمته بتوسع.

(٢) حديث جيد: أخرجه أبو يعلىٰ (٥٧٣٠) بهذا الإسناد وهو حسن من أجل الكلام في محمد بن عجلان وجوَّد إسناده البنا في كتابه «الفتح الرباني» (٩/ ١١٩).

وأصل هذا الحديث في «صحيح البخاري» (١٤٢٩) من حديث ابن عمر مرفوعًا بلفظ «اليد العليا خيرٌ من اليد السفلىٰ فاليد العليا هي المنفقة والسفلىٰ هي السائلة».

(٣) ما برز من إسناده فيه يحيىٰ بن أيوب الغافقي وحديثه محتمل للتحسين وبقية رجاله ثقات.

ولمّا حضرَتْه الوفاةُ أُحضِر له مالٌ يخُصُّه، وإذا هو ثلاثُمائة مُدْيٍ من ذهَبٍ، فقال: والله لوددتُ أنه بعرٌ حائلٌ بنجدٍ. وقال: والله لوددتُ أنّي لم أكُنْ شيئًا مذكورًا، ولوددتُ أنْ أكونَ هذا الماءَ الجاريَ، أو نباتةً بأرضِ الحجازِ.

وقال: ائتوني بكفَني الذي تُكفِّنُونني فيه. فجعَل يقولُ: أُفٌّ لك ما أقصرَ طويلَك، وأقلَّ كثيرَك!

قال يعقوبُ بنُ سفيانَ، عن ابنِ بُكَيْرٍ، عن اللَّيثِ: كانت وفاتُه ليلةَ الإثنين لثلاثَ عشْرةَ ليلةً خلَتْ من جُمادىٰ الأولىٰ سنةَ ستٍّ وثمانين. قال ابنُ عساكرَ: وهذا وَهْمٌ من يعقوبَ، والصَّوابُ سنةَ خمسٍ وثمانين؛ فإنَّه مات قبلَ عبدِ الملك أخيه، ومات عبدُ الملك سنةَ ستٍّ وثمانينَ.

وقد كان عبدُ العزيزِ بنُ مروانَ من خيارِ الأمراءِ كريمًا جوَادًا مُمدَّحًا، وهو والدُ الخليفةِ الرَّاشدِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، وقد اكتَسىٰ عمرُ أخلاقَ أبيه، وزاد عليه بأمورٍ كثيرةٍ. وكان لعبدِ العزيزِ من الأولادِ غيرُ عمرَ، عاصمٌ، وأبو بكرٍ، ومحمدٌ، والأَصْبَغُ - مات قبلَه بقليلٍ فحزِن عليه حُزنًا كثيرًا ومرِض بعدَه ومات - وسُهَيلٌ، وكان له عدَّةُ بناتٍ؛ أمُّ محمدٍ، وأمُّ عثمانَ، وأمُّ الحكَم، وأمُّ البنينَ، وهنَّ من أمهاتٍ شتَّىٰ، وله من الأولادِ غيرُ هؤلاءِ، مات بالمدينةِ التي بناها علىٰ مرحلةٍ من مصرَ، وحُمِل إلىٰ مصرَ في النيلِ ودُفِن بها. وقد ترك عبدُ العزيزِ بنُ مروانَ من الأموالِ والأثاثِ والدوابِّ؛ من الخيلِ والبِغالِ والإبلِ وغيرِ ذلك ما يعجِزُ عنه الوصفُ، من جملةِ ذلك ثلاثُمائةِ مُدٍّ ذهبٍ غيرُ الورِقِ، مع جُودِه، وكرَمِه، وبَذْلِه، وعطاياه الجزيلةِ، فإنه كان من أعطَى الناسِ للجزيلِ، رحمه اللهُ تعالىٰ.

وقد ذكَر ابنُ جريرٍ أنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ كتَب إلىٰ أخيه عبدِ العزيزِ، وهو بالديارِ المصريةِ، يسألُه أن ينزِلَ عن العهدِ الذي له من بعدِه لولدِه الوليدِ، أو يكونَ وليَّ العهدِ من بعدِه؛ فإنَّه أعزُّ الخلقِ عليَّ. فكتَب إليه عبدُ العزيزِ يقولُ: إنّي أرىٰ في أبي بكرِ بنِ عبدِ العزيزِ ما ترَىٰ في الوليدِ. فكتَب إليه عبدُ الملكِ يأمرُه بحَمْلِ خراجِ مصرَ - وقد كان عبدُ العزيزِ لا يحملُ إليه شيئًا من الخَراجِ ولا غيرِه، وإنما كانت بلادُ مصرَ بكمالِها، وبلادُ المغربِ، وغيرُ ذلك، كلُّها لعبدِ العزيزِ؛ مغانمُها وخراجُها وحملُها - . فكتَب عبدُ العزيزِ إلىٰ أخيه عبدِ الملكِ: إنّي وإيَّاك يا أميرَ المؤمنين قد بلَغْنا سنًّا لم يبلُغْها أحدٌ من أهلِ بيتِك إلّا كان بقاؤه قليلًا، وإنّي لا أدري ولا تدري أيُّنا يأتيه الموتُ أوّلًا! فإنْ رأيتَ أن لا تُغَثِّثَ عليَّ بقيةَ عُمْري فافعَلْ. فرَقَّ له عبدُ الملكِ، وقال: لعَمْري لا أُغَثِّثُ عليك بقيَّةَ عمْرِك.

وقال عبدُ الملك لابنه الوليد: إن يُرِدِ اللهُ أن يعطِيَكها لا يقدرْ أحدٌ من العبادِ علىٰ ردِّ ذلك عنك. وقال لابنيه الوليدِ وسليمانَ: هل قارفتما مُحرَّمًا أو حرامًا قطُّ؟ قالا: لا والله، فقال: اللهُ أكبرُ، نِلْتُماها وربِّ الكعبةِ.

ويقالُ: إنَّ عبدَ الملكِ لمّا امتنَع أخوه عبدُ العزيزِ من إجابتِه إلىٰ ما طلَب منه من بيعتِه لولدِه الوليدِ

دعا عليه، وقال: اللهمَّ إنه قطَعَني فاقْطَعْه. فمات في هذه السنة كما ذكرْنا، فلمّا جاءه الخبرُ بموتِ أخيه عبدِ العزيزِ ليلاً حزن وبكَى، وبكَى أهلُه بُكاءً كثيرًا على عبدِ العزيز. ولكن سرَّه ذلك من جهةِ ابنيه الوليدِ وسليمانَ؛ فإنَّه نال فيهما ما كان يُؤمِّلُه لهما من ولايتِه إياهما العهدَ من بعده.

وقد كان الحجّاجُ كتبَ إلى عبدِ الملك يُزيِّنُ له ولايةَ الوليدِ من بعده، وأوفَد إليه وفدًا في ذلك، عليهم عِمرانُ بنُ عصامٍ العنَزيُّ، فلمّا دخَلوا عليه قام عِمرانُ خطيبًا فتكلَّم، وتكلَّم الوفدُ، حثُّوا عبدَ الملكِ على ذلك، وأنشدَ عِمرانُ بنُ عِصامٍ في ذلك:

أميرَ المؤمنينَ إليكَ نُهدِي ... على النَّأيِ التَّحيَّةَ والسَّلاما
أجِبْني في بَنيكَ يكُنْ جوابي ... لهُمْ عاديَّةً ولنا قِوامَا
فلو أنَّ الوليدَ أُطاعُ فيه ... جعلتَ لهُ الخلافةَ والذِّماما
شبيهُكَ حولَ قُبَّتِه قريشٌ ... به يَسْتمطِرُ الناسُ الغَماما
ومثلُكَ في التُّقَى لم يَصْبُ يومًا ... لَدُنْ خَلَعَ القلائدَ والتِّماما
فإن تُؤثِرْ أخاكَ بها فإنَّا ... وجَدِّكَ لا نُطيقُ لها اتِّهاما
ولكنَّا نُحاذرُ من بنيه ... بنى العَلَّاتِ مَأثَرَةً سَمَاما
ونَخْشَى إن جعلتَ المُلْكَ فيهم ... سَحَابًا أن تَعُودَ لهم جَهَاما
فلا يكُ ما حلَبْتَ غدًا لقوم ... وبعدَ غدٍ بنُوكَ همُ العِياما
فأُقسمُ لو تخطَّأني عِصَامٌ ... بذلكَ ما عَذَرتُ به عِصَاما
ولو أنِّي حَبَوتُ أخًا بفضلٍ ... أُريدُ به المقالةَ والمَقاما
لعقَّبَ في بَنِيَّ على بنيه ... كذلكَ أو لرُمْتُ لهُ مَراما
فمَن يكُ في أقاربِه صُدُوعٌ ... فصَدْعُ المُلكِ أبطؤُهُ التئاما

فهاجَه ذلك على أن كتَب إلى أخيه يَستنزِلُه عن الخلافةِ للوليدِ، فأَبَى عليه، وقدَّر اللهُ سبحانَه موتَ عبدِ العزيزِ قبلَ موتِ عبدِ الملك بعامٍ واحدٍ، فتمكَّن حينئذٍ ممَّا أراد من بيعةِ الوليدِ، وسليمانَ. واللهُ سبحانَه وتعالى أعلمُ.

ذكرُ بيعةِ عبدِ الملك لولدِه الوليدِ، ثم من بعدِه لأخيه سليمانَ بنِ عبدِ الملك

وكان ذلك في هذه السَّنَة بعدَ موتِ عبدِ العزيزِ بنِ مروانَ، بُويعَ له بدمشقَ، ثم في سائرِ الأقاليم، ثم لسليمانَ من بعده، ثم لمَّا انتهت البيعةُ إلى المدينة، امتنَع سعيدُ بنُ المسيَّبِ أن يُبايعَ في حياةِ عبدِ الملكِ لأحدٍ، فأمَر به هشامُ بنُ إسماعيلَ نائبُ المدينةِ، فضُرِب ستين سوطًا، وألبسَه ثيابًا من

شَعْرٍ، وأركَبه جملاً وطاف به في المدينة، ثم أمَر به فذهبوا به إلى ثَنِيَّة ذباب - وهي الثَّنِيَّةُ التي كانوا يُصلَبون عندَها ويُقتَلون - فلمَّا وصَلوا إليها ردُّوه إلى المدينة، فأودَعوه السجنَ، فقال لهم: واللهِ لو أعلَمُ أنَّكم لا تقتُلُونني لم ألبَس هذا التُّبَّانَ.

ثم كتَب هشامُ بنُ إسماعيلَ المخزوميُّ إلى عبدِ الملك يُعلِمُه بمخالفةِ سعيدٍ في ذلك، فكتَب إليه يُعنِّفُه في ذلك، ويأمُرُه بإخراجِه، ويقولُ له: إنَّ سعيدًا كان أحقَّ منك بصلةِ الرَّحمِ مما فعَلتَ به، وإنَّا لنعلَمُ أنَّ سعيدًا ليس عندَه شقاقٌ ولا خلافٌ.

ويُروىٰ أنَّه قال له: ما ينبَغي إلا أن يبايعَ، فإن لم يبايعْ ضرَبْتَ عنقَه أو خلَّيْتَ سبيلَه.

وذكَر الواقديُّ أنَّ سعيدًا، رحِمه اللهُ، لمَّا جاءت بيعةُ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ، إلى المدينةِ، امتَنع من البيعةِ، فضرَبه نائبُها في ذلك الوقتِ - وهو جابرُ بنُ الأسودِ بنِ عوفٍ - ستين سوطًا أيضًا، وسجَنه. فاللهُ أعلمُ.

قال أبو مخنف، وأبو معشر، والواقديُّ: وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ هشامُ بنُ إسماعيلَ المخزومي نائبُ المدينةِ، وكان على العراقِ والمَشرقِ بكماله الحجّاجُ.

قال شيخُنا الحافظُ الذهبيُّ: وتوفِّي في هذه السنة أبانُ بنُ عثمانَ بن عفانَ، أميرُ المدينةِ، كان من فقهاءِ المدينةِ العشرةِ. قاله يحيىٰ القطَّانُ، وقال محمدُ بنُ سعدٍ: كان ثقةً، وكان به صَمَمٌ، ووَضَحٌ كثيرٌ، وأصابَه الفالجُ قبلَ أن يموتَ.

وعبدُ اللهِ بنُ عامرِ بنِ ربيعةَ.

وعمرُو بنُ حُرَيث.

وعمرُو بنُ سَلِمةَ.

وواثلةُ بنُ الأَسْقَع، قال الواقديُّ ويحيىٰ بنُ معينٍ: كان يسكُنُ الصُّفَّةَ في زمنِ النبيِّ ﷺ.

قال الواقديُّ: أسلَم واثلةُ والنبيُّ ﷺ يتجهَّزُ إلى تبوكَ في آخرِ الأمرِ.

قال واثلةُ: قال لنا رسولُ اللهِ ﷺ: **«كيف أنتم بعدي إذا شبِعتم من خبزِ البُرِّ والزيت، فأكلتُم ألوانَ الطعامِ، ولبِستُم أنواعَ الثيابِ، فأنتم اليومَ خيرٌ أم ذلك اليومُ؟»**. قال: قُلنا: ذلك اليومُ. قال: **«بل أنتم اليومَ خيرٌ»**. قال واثلةُ: فما ذهبَتْ عنَّا الأيامُ حتى أكَلْنا ألوانَ الطعامِ، ولبِسْنا أنواعَ الثِّيابِ وركِبنا المراكبَ[1].

شهِد واثلةُ تبوكَ، ثم شهِد فتحَ دمشقَ ونزَلها، ومسجدُه بها عندَ حبْسِ بابِ الصغيرِ من القبلةِ. وهو آخِرُ مَن توفِّي بدمشقَ من الصحابةِ. قاله سعيدُ بنُ بشيرٍ. وقد قال البخاريُّ وغيرُه: إنَّه تُوفِّي سنةَ

(١) الخبر أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٢) وفي إسناده من لم أقف على ترجمته.

ثلاثٍ وثمانين. واللهُ أعلمُ.

خالدُ بنُ يزيدَ بن معاويةَ بن أبي سفيانَ صخرِ بنِ حربِ بنِ أميةَ، كان أعلمَ قريشٍ بفنونِ العلمِ، وله يدٌ طُولَى في الطبِّ، وكلام كثيرٌ في الكيمياءِ، وكان قد استفاد ذلك من راهبٍ اسمُه مَرْيَانُسُ، وكان خالدٌ فصيحًا بليغًا شاعرًا مُطبِقًا كأبيه. دخَلَ يومًا على عبدِ الملكِ بنِ مروانَ بحضرةِ الحكمِ بنِ أبي العاصِ، فشكا إليه أنَّ ابنَه الوليدَ يحتَقرُ أخاه عبدَ الله بنَ يزيدَ، فقال عبدُ الملك: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾ [النمل: ٣٤]. فقال له خالدٌ: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]. فقال عبدُ الملك: واللهِ لقد دخَل عليَّ أخوكَ عبدُ الله، فإذا هو لا يقيمُ اللَّحنَ. فقال خالدٌ: والوليدُ لا يقيمُ اللحنَ. فقال عبدُ الملك: إنَّ أخاه سليمانَ لا يَلْحَنُ. فقال خالدٌ: وأنا أخو عبدِ الله لا ألحَنُ. فقال الوليدُ - وكان حاضرًا - لخالدِ بنِ يزيدَ: اسكُتْ، فواللهِ ما تُعدُّ في العيرِ ولا في النفيرِ. فقال خالدٌ: اسمَعْ يا أميرَ المؤمنين. ثم أقبلَ خالدٌ على الوليدِ فقال: ويحكَ! وما هو العيرُ والنفيرُ غيرُ جدِّي أبي سفيانَ صاحبِ العيرِ، وجدِّي عتبةَ بنِ ربيعةَ صاحبِ النفيرِ، ولكن لو قلتَ: غُنَيماتٌ وحُبَيلاتٌ والطائفُ، ورحِمَ اللهُ عثمانَ. لقلنا: صدَقتَ - يعني: أن الحكَمَ كان منفيًّا بالطائفِ يرعَى غنمًا، ويأوي إلى حَبَلَةِ الكَرْمِ، حتى آواه عثمانُ بنُ عفّانَ حينَ وُلِّي - فسكَت الوليدُ وأبوه، ولم يُحيرا جوابًا. واللهُ سبحانه وتعالى أعلمُ.

* * *

ثم دخلت سنة ست وثمانين

ففيها: غزا قتيبةُ بنُ مسلمٍ نائبُ الحجاج على مروَ وخراسانَ، بلادًا كثيرةً من أرضِ الترك وغيرِهم من الكفارِ، وسبَىٰ وغنِم وسلِم، وتسلَّم قِلاعًا وحصُونًا وممالكَ، ثم قفَل فسبَق الجيشَ، فكتَب إليه الحجاجُ يلومُه على ذلك، ويقولُ له: إذا كنت قاصدًا بلادَ العدوِّ فكُنْ في مقدِّمَة الجيشِ، وإذا قفَلتَ راجعًا، فكُنْ في ساقةِ الجيشِ. يعني لتكونَ رِدْءًا لهم مِن أنْ ينالَهم أحدٌ مِن العدوِّ وغيرِهم بكيدٍ، وهذا رأيٌ حسنٌ، وعليه جاءت السُّنَّةُ.

وكان في جملةِ السَّبيِ امرأةُ بَرْمكَ - والدُ خالدِ بنِ بَرْمكَ - فأعطَاها قُتَيبَةُ أخاه عبدَ اللهِ بنَ مسلمٍ، فوطِئها فحملَتْ منه. ثم إن قتيبةَ مَنَّ على السَّبيِ وردَّتْ تلك المرأةُ على زوجِها بَرْمَك وهي حُبْلَىٰ من عبدِ اللهِ بنِ مسلمٍ، وكان ولدُها عندَهم حتىٰ أسلَموا، فقدِموا به معهم أيامَ بني العباسِ كما سيأتي.

ولَمَّا رجَع قتيبةُ إلىٰ خُراسانَ، تلقَّاه دَهاقينُ بُلْغارَ وصاغانَ بهدايا عظيمةٍ، ومِفتاحٍ من ذهبٍ بُلْغارَ.

وفيها: كان طاعونٌ بالشَّامِ والبصرةِ وواسطٍ، ويُسمَّىٰ طاعونَ الفتياتِ؛ لأنَّه أوَّلُ ما بدَأ بالنساءِ فسُمِّي بذلك.

وفيها: غزا مسلمةُ بنُ عبدِ الملكِ بلادَ الرومِ، فقتَل وسبَىٰ وغنِم وسلم، وافتَتَح حصنَ بولَقَ، وحصنَ الأخرمِ مِن أرضِ الرومِ.

وفيها: عقَد عبدُ الملك لابنِه عبدِ اللهِ علىٰ مصرَ، وذلك بعدَ موتِ أخيه عبدِ العزيزِ، فدخَلها في جُمادىٰ الآخرةِ، وعمرُه يومَئذٍ سبعٌ وعشرون سنةً.

وفيها: هلَك ملكُ الرومِ الأخرمُ بورىٰ، لا رحِمه اللهُ.

وفيها: حبَس الحجاجُ يزيدَ بنَ المهلبِ.

وحجَّ بالناسِ فيها هشامُ بنُ إسماعيلَ المخزوميُّ.

وفي هذه السنة توفِّي أبو أُمامةَ صُدَيُّ بنُ عَجْلانَ الباهليُّ، وعبدُ اللهِ بنُ أبي أوْفَى، وعبدُ اللهِ ابنُ الحارثِ بنِ جَزْءٍ الزُّبَيْديُّ في قولٍ، شهِد فتحَ مصرَ وسكَنها، وهو آخرُ مَن مات مِن الصحابةِ بمصرَ، وله أحاديثُ.

وفيها: في النصفِ من شوالِها، توفِّي أميرُ المؤمنين:

عبدُ الملكِ بنُ مروانَ والدُ الخلفاءِ الأمويين

وهو عبدُ الملكِ بنُ مروانَ بنِ الحكمِ بنِ أبي العاصِ بنِ أميةَ، أبو الوليدِ الأمويُّ أميرُ المؤمنين، وأمُّه عائشةُ بنتُ معاويةَ بنِ المغيرةِ بنِ أبي العاصِ بنِ أميةَ.

سمع عثمانَ بنَ عفانَ، وشهِد الدارَ مع أبيه وله عشرُ سنينَ، وهو أولُ مَن سار بالناسِ في بلادِ

الروم سنةَ ثنتين وأربعين، وكان أميرًا على أهلِ المدينة، وله ستَّ عشْرةَ سنةً، ولاَّه إيَّاها معاويةُ، وكان يجالسُ الفقهاءَ، والعلماءَ، والعبَّادَ، والصُّلحاءَ. وروَىٰ الحديثَ عن أبيه، وجابرٍ، وأبي سعيدٍ الخدريِّ، وأبي هريرةَ، وابنِ عمرَ، ومعاويةَ، وأمِّ سلمةَ، وبَريرةَ مولاةِ عائشةَ. وروَىٰ عنه جماعةٌ؛ منهم خالدُ بنُ مَعْدانَ، وعروةُ، والزهريُّ، وعمرُو بنُ الحارثِ، ورجاءُ بنُ حَيوةَ، وجريرُ بنُ عثمانَ.

ذُكر عن محمدِ بنِ سيرينَ أن أباه كان قد سمَّاه القاسمَ، فكان يُكْنَىٰ بأبي القاسمِ، فلمَّا بلَغَه النهيُ عن التكنِّي بأبي القاسمِ، غيَّر اسمَه فسمَّاه عبدَ الملكِ.

قال ابنُ أبي خيثمةَ، عن مصعبِ بنِ الزبيرِ: وكان أولَ مَن سُمِّي في الإسلامِ بعبدِ الملكِ.

قال ابنُ أبي خيثمةَ: وأولُ مَن سُمِّي في الإسلامِ بأحمدَ، والدُ الخليلِ بنِ أحمدَ العروضيِّ.

وبُويعَ له بالخلافةِ في سنةِ خمسٍ وستين في حياةِ أبيه، في خلافةِ ابنِ الزبيرِ، وبقِي على الشامِ ومصرَ مدَّةَ سبعِ سنينَ، وابنُ الزبيرِ على باقي البلادِ، ثم استقلَّ بالخلافةِ على سائرِ البلادِ والأقاليمِ بعدَ مقتلِ ابنِ الزبيرِ، وذلك في سنةِ ثلاثٍ وسبعين إلى هذه السنةِ، كما ذكَرنا ذلك.

وكان مولدُه ومولدُ يزيدَ بنِ معاويةَ في سنةِ ستٍّ وعشرين، وقد كان عبدُ الملكِ قبلَ الخلافةِ مِن العُبَّادِ الزُّهادِ الفقهاءِ، الملازمين للمسجدِ، التَّالين للقرآنِ، وكان رَبْعَةً مِن الرجالِ أقربَ إلى القصرِ.

وكانت أسنانُه مشبَّكةً بالذَّهبِ، وكان أفْوَهَ مفتوحَ الفمِ، فربَّما غفَل فينفتحُ فمُه فيدخُلُ فيه الذُّبابُ؛ ولهذا كان يقالُ له: أبو الذُّبَّانِ. وكان أبيضَ رَبْعةً ليس بالنحيفِ ولا البادنِ، مقرونَ الحاجبَين، أشهلَ، كبيرَ العينَين، دقيقَ الأنفِ؛ مُشْرِقَ الوجهِ، أبيضَ الرأسِ واللحيةِ، حسَنَ الوجهِ، لم يَخْضِبْ، ويقالُ: إنه خضَب بعدَ ذلك.

وقد قال نافعٌ: لقد رأيت المدينةَ وما فيها شابٌّ أشدُّ تشميرًا، ولا أفقهُ ولا أقرأُ لكتابِ اللهِ مِن عبدِ الملكِ بنِ مروانَ.

وقال الأعمشُ، عن أبي الزنادِ: كان فقهاءُ المدينةِ أربعةً؛ سعيدُ بنُ المسيَّبِ، وعروةُ، وقَبيصةُ بنُ ذؤيبٍ، وعبدُ الملكِ بنُ مروانَ قبلَ أنْ يدخُلَ في الإمارةِ.

وعن ابنِ عمرَ أنه قال: وَلَد الناسُ أبناءً وولَد مروانُ أبًا - يعني عبدَ الملكِ - ورآه يومًا، وقد ذُكر اختلافُ الناسِ، فقال: لو كان هذا الغلامُ اجتمعَ الناسُ عليه. وقال عبدُ الملكِ: كنتُ أجالسُ بَريرةَ بالمدينةِ قبلَ أن أَلِيَ هذا الأمرَ، فكانت تقولُ: يا عبدَ الملكِ، إنَّ فيك خصالًا، وإنك لجديرٌ أن تليَ أمرَ هذه الأمةِ، فاحذَرِ الدماءَ؛ فإنِّي سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: **«إنَّ الرجلَ ليُدفَعُ عن بابِ الجنةِ أن ينظُرَ إليها، على مِحْجَمَةٍ مِن دمٍ يُريقُه مِن مسلمٍ بغيرِ حقٍّ»**[1].

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٤/ ٢٠٥) (٥٢٦) بإسناد فيه عبدالخالق بن زيد بن واقد ضعفه غير واحد راجع «لسان الميزان» (٤/ ٣٩٥) وبه ضعفه الهيثمي في «المجمع».

وقد أثنى عليه قبلَ الولاية معاويةُ، وعمرُو بنُ العاصِ، في قصَّةٍ طويلةٍ.

وقال سعيدُ بنُ داودَ الزنْبَريُّ، عن مالكٍ، عن يحيىٰ بنِ سعيدٍ، قال: أولُ مَن صلَّىٰ ما بينَ الظُّهرِ والعصرِ عبدُ الملكِ بنُ مروانَ وفتيانٌ معه. فقال سعيدُ بنُ المسيَّبِ: ليستِ العبادةُ بكثرةِ الصلاةِ والصومِ، إنما العبادةُ التفكُّرُ في أمرِ اللهِ، والورعُ عن محارمِ اللهِ.

وقال الشعبيُّ: ما جالستُ أحدًا إلاَّ وجَدتُ لِيَ الفضْلَ عليه إلاَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ؛ فإنِّي ما ذاكَرتُه حديثًا إلاَّ زادَني فيه، ولا شعرًا إلاَّ زادَني فيه.

وذكَر خليفةُ بنُ خياطٍ، أنَّ معاويةَ كتَب إلىٰ مروانَ، وهو نائبُه علىٰ المدينةِ سنةَ خمسين: أن ابعثْ ابنَك عبدَ الملكِ علىٰ بعْثِ المدينةِ إلىٰ بلادِ المغربِ مع معاويةَ بنِ خَديجٍ. فذكَر من كفايتِه، وغَنائه، ومُجاهدتِه في تلك البلادِ شيئًا كثيرًا. ولم يَزلْ عبدُ الملكِ مُقيمًا بالمدينةِ حتىٰ كانت وقعةُ الحرَّةِ، واستولَىٰ ابنُ الزبيرِ علىٰ بلادِ الحجازِ، وأجلَىٰ بني أميةَ مِن هنالك، فقدِم مع أبيه إلىٰ الشامِ، ثم لَمَّا صارتِ الإمارةُ إلىٰ أبيه، وبايعَه أهلُ الشامِ، كما تقدَّم أقام في الإمارةِ تسعةَ أشهرٍ، ثم عهِد إليه بالإمارةِ مِن بعدِه، فاستقلَّ عبدُ الملكِ بالخلافةِ في مستهلِّ رمضانَ أو ربيعٍ الأولِ مِن سنةِ خمسٍ وستين، واجتَمع الناسُ عليه بعدَ مقتلِ ابنِ الزبيرِ سنةَ ثلاثٍ وسبعينَ في جُمادىٰ الأُولىٰ إلىٰ هذه السنةِ.

وقال ثعلبٌ عن ابنِ الأعرابيِّ: لَمَّا سُلِّم علىٰ عبدِ الملكِ بالخلافةِ، كان في حِجْرِه مصحفٌ، فأطبَقه، وقال: هذا فراقُ بيني وبينِك.

وقال أبو الطُّفيلِ: صُنِع لعبدِ الملكِ مجلسٌ تُوُسِّعَ فيه، وقد كان بُني له فيه قبةٌ قبلَ ذلك، فدخَله وقال: لقد كان ابنُ حَنْتَمةَ الأحْوزيُّ -يعني عمرَ بنَ الخطابِ- يرىٰ أنَّ هذا عليه حرامٌ.

وقيل: إنَّه لَمَّا وضَع المصحفَ مِن حجرِه قال: هذا آخرُ العهدِ منك. وكان عبدُ الملكِ له إقدامٌ علىٰ سفكِ الدماءِ، وكان عمالُه علىٰ مذهبِه؛ منهم الحجَّاجُ، والمهلبُ، وغيرُهم، وكان حازمًا فَهِمًا فطِنًا سائسًا لأمورِ الدُّنيا، لا يكِلُ أمْرَ دنياه إلىٰ غيرِه، وأمُّه عائشةُ بنتُ معاويةَ بنِ المغيرةِ بنِ أبي العاصِ، وأبوها معاويةُ هو الذي جدَع أنفَ حمزةَ عمِّ النبيِّ ﷺ يومَ أحدٍ.

وقال سعيدُ بنُ عبدِ العزيزِ: لَمَّا خرَج عبدُ الملكِ إلىٰ العراقِ لقتالِ مصعبِ بنِ الزبيرِ، خرَج معه يزيدُ ابنُ الأسودِ الجُرَشيُّ، فلمَّا التقَوا قال: اللهمَّ احجزْ بينَ هذين الجبلين، وولِّ الأمرَ أحبَّهما إليك. فظفِر عبدُ الملكِ، وقد ذكَرنا كيفيةَ قتْلِه مصعبًا، ودخولَه الكوفةَ، ووَضْعَه رأسَ مصعبٍ بينَ يدَيه، وقد كان مِن أعزِّ الناسِ عليه، وأحبِّهم إليه.

وقال سعيدُ بنُ عبدِ العزيزِ: لَمَّا بويعَ لعبدِ الملكِ بالخلافةِ، كتَب إليه عبدُ اللهِ بنُ عمرَ بنِ الخطابِ: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، مِن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ إلىٰ عبدِ اللهِ عبدِ الملكِ أميرِ المؤمنين، سلامٌ عليك،

فإنِّي أحمَدُ إليك اللهَ الذي لا إلهَ إلا هو، أمَّا بعدُ، فإنَّك راعٍ، وكلُّ راعٍ مسئولٌ عن رعيَّته ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ [النساء: ٨٧]. لا أحد، والسلامُ. وبعَث به مع سالمٍ، فوجَدوا عليه؛ إذ قدَّم اسمَه على اسم أميرِ المؤمنين، ثم نظَروا في كتُبِه إلى معاويةَ فوجَدوها كذلك، فاحتَملوا ذلك منه.

وقال الواقديُّ: حدَّثني ابنُ أبي سَبْرةَ، عن أبي موسى الحنّاط، عن ابنِ كعبٍ قال: سمِعتُ عبدَ الملك بنَ مروانَ يقولُ: يا أهلَ المدينة، إنَّ أحقَّ الناسِ أن يلزَمَ الأمرَ الأوَّلَ لأنتم، وقد سالَتْ علينا أحاديثُ من قِبلِ هذا المشرقِ ولا نعرِفُها ولا نعرفُ منها إلاَّ قراءةَ القرآن، فالزَموا ما في مصحفكم الذي جمَعكم عليه الإمامُ المظلومُ، وعليكم بالفرائضِ التي جمَعكم عليها إمامُكم المظلومُ، رحِمه اللهُ، فإنَّه قد استَشار في ذلك زيدَ بنَ ثابتٍ، ونعم المشيرُ كان للإسلام، رحِمه اللهُ، فأحكما ما أحْكَما، وأسْقَطا ما شذَّ عنهما.

وقال ابنُ جُرَيجٍ، عن أبيه: حجَّ علينا عبدُ الملكِ بنُ مروانَ سنةَ خمسٍ وسبعين بعدَ مقتلِ ابنِ الزبيرِ بعامين، فخطَبَنا فقال: أما بعدُ، فإنَّه كان مَن قَبْلي من الخلفاءِ يأكُلون من المالِ، ويُؤكِلون، وإنِّي واللهِ لا أُداوي أدواءَ هذه الأمة إلا بالسَّيفِ، ولستُ بالخليفة المستضعَف ـ يعني عثمانَ ـ ولا الخليفةِ المداهِن ـ يعني معاويةَ ـ ولا الخليفةِ المأبونِ ـ يعني يزيدَ بنَ معاويةَ ـ أيها الناسُ إنَّا نَحتمِلُ لكم كلَّ اللُّغُوبةِ ما لم يكُنْ عقدُ رايةٍ، أو وثوبٌ على منبرٍ.

هذا عمرُو بنُ سعيدٍ حقُّه حقُّه، وقرابتُه قرابتُه، قال برأسه هكذا، فقُلنا بسيفِنا هكذا، وإنَّ الجامعةَ التي خلَعها من عنُقه عندي، وقد أعطَيتُ اللهَ عهدًا ألاَّ أضعَها في رأسِ أحدٍ إلاَّ أخرَجها الصُّعَداءَ، فليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ.

وقال الأصمعيُّ: ثنا عبَّادُ بنُ سلمِ بنِ عثمانَ بنِ زيادٍ، عن أبيه، عن جدِّه قال: ركِب عبدُ الملكِ بنُ مروانَ بَكْرًا، فأنشأ قائدُه يقولُ:

يا أيُّها البَكْرُ الذي أراكا
عليكَ سهلَ الأرضِ في مَمْشاكا
ويحكَ! هل تعلَمُ مَن علاكا؟
خليفةُ الله الذي امْتَطاكا
لم يَحْبُ بَكْرًا مثلَ ما حَباكا

فلمَّا سمعه عبدُ الملك قال: إيهًا يا هَنَاهُ، قد أمَرتُ لك بعشرة آلافٍ.

وقال الأصمعيُّ: خطَب عبدُ الملكِ فحَصِر، فقال: إن اللسانَ بَضعةٌ مِن الإنسانِ، وإنَّا لا نسكُتُ

(١) إسناده تالف لحال الواقدي.

حَصَرًا ولا ننطقُ هَذَرًا، ونحن أمراءُ الكلامِ، فينا رسَختْ عروقُه، وعلينا تهدَّلتْ أغصانُه، وبعدَ مقامِنا هذا مقامٌ، وبعدَ عِيِّنا هذا مقالٌ، وبعدَ يومِنا هذا أيامٌ، يُعرَفُ فيها فصْلُ الخِطابِ، ومواقعُ الصَّوابِ.

قال الأصمعيُّ: قيل لعبدِ الملكِ: أسرَعَ إليك الشَّيبُ. فقال: وكيف لا وأنا أعرِضُ عقلي على الناسِ في كلِّ جُمُعَةٍ مرَّةً أو مرَّتَيْنِ!

وقال غيرُه: قيل لعبدِ الملكِ: أسرَعَ إليك الشَّيبُ، فقال: شيَّبَني كثرةُ ارتقاءِ المنبرِ ومخافةُ اللَّحْنِ.

ولَحَن رجلٌ عندَ عبدِ الملكِ، فقال له آخَرُ: زِدْ ألفٌ. فقال له عبدُ الملكِ: وأنت فزِدْ ألفًا.

وقال الزهريُّ: سمعتُ عبدَ الملكِ يقولُ في خُطبتِه: إنَّ العلمَ سيُقبَضُ قبضًا سريعًا، فمَن كان عندَه علمٌ، فَلْيُظهِرْه غيرَ غالٍ فيه ولا جافٍ عنه.

وروَىٰ ابنُ أبي الدُّنيا، أن عبدَ الملكِ كان يقولُ لِمَن يُسايرُه في سفرِه إذا رُفِعتْ له شجرةٌ: سبِّحوا بنا حتىٰ نأتيَ تلك الشجرةَ، وكبِّروا بنا حتىٰ نأتيَ تلك الحجرَ، ونحوَ ذلك.

وروَىٰ البيهقيُّ أن عبدَ الملكِ وقَع منه فَلْسٌ في بئرٍ قذرةٍ، فاكْترَىٰ عليه بثلاثةَ عشرَ دينارًا حتىٰ أخرَجه منها، فقيل له في ذلك، فقال: إنَّه كان عليه اسمُ اللهِ، عزَّ وجلَّ.

وقال غيرُ واحدٍ: كان عبدُ الملكِ إذا جلَس للقضاءِ بينَ الناسِ، يقومُ السَّيَّافون على رأسِه بالسيوفِ فيُنشدُ وقال بعضُهم: يأمُرُ مَن ينشدُ فيقولُ:

إنَّا إذا نالَتْ دواعي الهوىٰ	وأنصَت السَّامعُ للقائلِ
واصْطرَعَ الناسُ بألبابِهم	نَقْضي بحكمٍ عادلٍ فاصلِ
لا نجعَلُ الباطلَ حقًّا ولا	نَلُطُّ دونَ الحقِّ بالباطلِ
نخافُ أنْ تُسفَّهَ أحلامُنا	فنَخْمُلَ الدهرَ مع الخاملِ

وقال الأعمشُ: أخبرَني محمدُ بنُ الزبيرِ، أن أنسَ بنَ مالكٍ كتَب إلى عبدِ الملكِ يَشْكو الحجاجَ، ويقولُ في كتابِه: لو أنَّ رجلًا آوَىٰ عيسىٰ ليلةً واحدةً، أو خدَمه فعرَفَته النَّصارىٰ لنزَل عندهم، ولعرَفوا له ذلك، ولو أنَّ رجلًا خدَم موسىٰ، أو رآه فعرفَتْه اليهودُ، فذكَر نحوَه، وإنِّي خادمُ رسولِ اللهِ ﷺ وصاحبُه، وإنَّ الحجاجَ قد أضرَّ بي، وفَعَل وفعَل. قال: فأخبَرَني مَن شهِد عبدَ الملكِ يقرأُ الكتابَ وهو يبكي، وبلَغ به الغضبُ ما شاء اللهُ، ثم كتَب إلى الحجاجِ بكتابٍ غليظٍ، فجاء إلى الحجاجِ، فقرأه فتغيَّر وجهُه، ثم قال إلى حاملِ الكتابِ: انطلقْ بنا إليه نترضَّاه.

وقال أبو بكرِ بنُ دُريدٍ: كتَب عبدُ الملكِ إلى الحجاجِ في أيامِ ابنِ الأشعثِ: إنك أعزُّ ما تكونُ باللهِ أحوجَ ما تكونُ إليه، وإذا عَزَزتَ باللهِ فاعفُ له، فإنَّك به تَعزُّ وإليه ترجعُ.

قال بعضهم: سألَ رجلٌ من عبدِ الملك أن يخلُوَ به، فأمرَ مَن عندَه بالانصراف، فلمَّا تهيَّأ الرجلُ ليتكلَّمَ قال له عبدُ الملك: إيَّاك أنْ تمدَحَني؛ فإنِّي أعلَمُ بنفسي منك، أو تكْذِبَني؛ فإنَّه لا رأيَ لكذوبٍ، أو تَسْعىٰ إليَّ بأحدٍ، وإن شئْتَ أقلْتُك. فقال الرجلُ: أقِلْني. فأقاله.

وكذا كان يقولُ للرسولِ إذا قدِم عليه من الآفاق: أعْفِني من أربعٍ، وقُلْ ما شئْتَ؛ لا تُطْرِني، ولا تُجِبْني فيما لم أسألْكَ عنه، ولا تَكْذِبني، ولا تحملني على الرعية؛ فإنَّهم إلى رأفتي ومَعْدَلَتي أحوجُ.

وقال الأصمعيُّ، عن أبيه قال: أُتِيَ عبدُ الملك برجلٍ كان مع بعضِ مَن خرَج عليه، فقال: اضْربوا عنقَه. فقال: يا أميرَ المؤمنين، ما كان هذا جَزائي منك! فقال: وما جَزاؤك؟ فقال: واللهِ ما خرَجْتُ مع فلانٍ إلاَّ بالنَّظرِ لك، وذلك أنِّي رجلٌ مشئومٌ، ما كنتُ مع رجلٍ قطُّ إلاَّ غُلِب وهُزِم، وقد بانَ لك صحةُ ما ادَّعيْتُ، وكنتُ عليك خيرًا لك من مائة ألفٍ معك. فضحِك وخلَّىٰ سبيلَه.

وقيل لعبد الملك: أيُّ الرجالِ أفضلُ؟ قال: مَن تواضَع عن رِفعةٍ، وزهِد عن قُدْرةٍ، وترَك النصرةَ عن قوةٍ.

وقال أيضًا: لا طُمأنينةَ قبلَ الخبرةِ، فإنَّ الطُّمأنينةَ قبلَ الخبرةِ ضدُّ الحزمِ.

وقال: خيرُ المالِ ما أفاد حمدًا ودفعَ ذمًّا، ولا يقولَنَّ أحدُكم: ابدأْ بمَن تعولُ. فإنَّ الخلْقَ كلَّهم عيالُ الله. وينبغي أن يُحمَلَ هذا على غيرِ ما ثبَت به الحديثُ.

وقال المدائنيُّ: قال عبدُ الملك لمؤدِّبِ أولاده - وهو إسماعيلُ بنُ عبيدِ اللهِ بنِ أبي المهاجرِ -: علِّمْهم الصِّدقَ كما تُعلِّمُهم القرآنَ، وجنِّبْهم السَّفِلَةَ؛ فإنَّهم أسْوأُ الناسِ رِعَةً، وأقلُّهم أدبًا، وجنِّبْهم الحشَمَ؛ فإنَّهم لهم مفسدَةٌ، وأحْفِ شعورَهم، تَغْلُظْ رقابُهم، وأطعِمْهم اللحمَ يقْوَوا، وعلِّمْهم الشعرَ يَمْجُدُوا وينجُدُوا، ومُرْهم أن يَستاكوا عَرْضًا، ويمصُّوا الماءَ مصًّا، ولا يعُبُّوا عبًّا، وإذا احتجْتَ أن تتناولَهم بأدبٍ، فلْيكُنْ ذلك في سرٍّ لا يعلَمُ بهم أحدٌ من الغاشيةِ، فيَهونوا عليهم.

وقال الهيثمُ بنُ عديٍّ: أذِن عبدُ الملك للناسِ في الدخولِ عليه إذنًا خاصًّا، فدخَل شيخٌ رثُّ الهيئةِ لم يَأْبَه له الحرسُ، فألقَىٰ بينَ يدَي عبدِ الملك صحيفةً، وخرَجَ فلم يَدْرِ أينَ ذهَب، وإذا فيها:

بسمِ الله الرحمنِ الرحيمِ، يا أيُّها الإنسانُ إنَّ اللهَ قد جعَلَك بينَه وبينَ عبادِه؛ فاحْكُمْ بينَهم بالحقِّ ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]. ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٤-٦]. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ [هود: ١٠٣، ١٠٤]. إنَّ الذي أنتَ فيه لو بقِي لغيرِك ما وصَل إليك ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾ [النمل: ٥٢]. وإنِّي أحذِّرُك يومَ يُنادي المُنادي ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]. ﴿أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]. قال: فتغيَّر وجهُ عبدِ الملكِ، فدخَل دارَ حرمِه، ولم تزَل

الكآبةُ في وجْهِه بعدَ ذلك أيامًا.

وكتَب زِرُّ بنُ حُبيشٍ إلى عبدِ الملكِ كتابًا وفي آخرِه: ولا يُطمعُك يا أميرَ المؤمنين في طولِ البقاءِ ما يظهَرُ لك مِن صحَّتِك، فأنتَ أعلمُ بنفسِك، واذكُرْ ما تكلَّمَ به الأولون:

إذا الرجالُ ولَدتْ أولادَها وبَلِيَتْ مِن كِبَرٍ أجسادُها
وجعَلَتْ أسقامُها تعتادُها تلك زُرُوعٌ قد دَنَا حَصادُها

فلمَّا قرأه عبدُ الملكِ بكَى حتى بلَّ طرفَ ثوبِه، ثم قال: صدقَ زِرٌّ، ولو كتَب إلينا بغيرِ هذا كان أرفقَ.

وسمع عبدُ الملكِ جماعةً مِن أصحابِه يذكُرون سيرةَ عمرَ بنِ الخطابِ فقال: إيهًا عن ذكرِ عمرَ فإنَّه إزراءٌ على الولاةِ، مفسدةٌ للرعيَّةِ.

وقال إبراهيمُ بنُ هشامِ بنِ يحيى الغَسَّانيُّ، عن أبيه، عن جدِّه قال: كان عبدُ الملكِ يجلسُ في حَلْقةِ أمِّ الدَّرداءِ في مُؤخَّرِ المسجدِ بدمشقَ، فقالت له: بلَغني أنَّك شَرِبتَ الطِّلاءَ بعدَ العبادةِ والنُّسُكِ. فقال: إي واللهِ، والدِّماءَ قد شرِبتُها. ثم جاءَه غلامٌ كان قد بعثَه في حاجةٍ، فقال: ما حبَسك، لعَنك اللهُ؟ فقالتْ أمُّ الدَّرداءِ: لا تفعَلْ يا أميرَ المؤمنين؛ فإنِّي سمِعتُ أبا الدَّرداءِ يقولُ: سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**لا يدخُلُ الجنةَ لعَّانٌ**».

وقال أبو بكرِ بنُ أبي الدُّنيا: ثنا الحسينُ بنُ عبدِ الرحمنِ قال: قيل لسعيدِ بنِ المسيَّبِ: إنَّ عبدَ الملكِ بنَ مروانَ قال: قد صِرْتُ لا أفرَحُ بالحسنةِ أعمَلُها، ولا أحزَنُ على السَّيِّئةِ أرتكِبُها. فقال سعيدٌ: الآنَ تكامَل موتُ قلبِه.

وقال الأصمعيُّ عن أبيه قال: خطَب عبدُ الملكِ يومًا خُطبةً بليغةً، ثم قطَعها وبكَى بكاءً شديدًا، ثم قال: يا ربِّ إنَّ ذُنوبي عظيمةٌ، وإنَّ قليلَ عفوِك أعظمُ منها، اللهُمَّ فامْحُ بقليلِ عفوِك عظيمَ ذُنوبي. قال: فبلَغ ذلك الحسنَ فبكَى. وقال: لو كان كلامٌ يُكتَبُ بالذَّهبِ لَكُتِب هذا الكلامُ. وقد رُوِي عن غيرِ واحدٍ نحوُ ذلك.

وقال أبو مُسْهِرٍ الدِّمشقيُّ: وُضِع سِماطُ عبدِ الملكِ يومًا بينَ يدَيه، فقال لحاجبِه: ائذَنْ لخالدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ خالدِ بنِ أَسيدٍ. فقال: ماتَ يا أميرَ المؤمنين. قال: فأميةَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ خالدِ بنِ أسيدٍ. قال: ماتَ. قال: فلخالدِ بنِ يزيدَ بنِ معاويةَ. قال: ماتَ. قال: فلفلانٍ وفلانٍ، لأقوامٍ قد ماتوا - وهو يعلمُ ذلك - فبكَى، وأمَر برفعِ السِّماطِ، وأنشأ يقولُ:

ذَهَبَتْ لِداتي وانقَضَتْ أيامُهم وغَبَرْتُ بعدَهُمُ ولستُ بخالدِ

وقيل: إنَّه لما احتُضِر دخَل عليه ابنُه الوليدُ فبكَى، فقال له عبدُ الملكِ: ما هذا؟ أتحِنُّ حنينَ الجاريةِ والأمَةِ؟ إذا أنا مِتُّ فشمِّرْ واتَّزِرْ والبَسْ جلدَ النَّمرِ، وضَعِ الأمورَ عندَ أقرانِها، واحْذَرْ قريشًا. ثم قال

له: يا وليدُ اتَّقِ اللهَ فيما أستخلفُك فيه، واحفَظْ وصيَّتي، وانظُرْ إلى أخي معاويةَ فصِلْ رحِمَه واحْفَظْني فيه، وانظُرْ إلى أخي محمد فاقرَّه على الجزيرة، ولا تعزِلْه عنها، وانظُرْ ابنَ عمِّنا عليَّ بنَ عبد الله بنِ عباس؛ فإنَّه قد انقطَع إلينا بمودَّته ونصيحته، وله نسَبٌ وحقٌّ؛ فصِلْ رحِمَه، واعرِفْ حقَّه، وانظُرْ الحجّاجَ بنَ يوسفَ فأكرِمْه؛ فإنَّه هو الذي مهَّد لكم البلادَ، وقهرَ الأعداءَ، وأخلَص لكم المُلْكَ، وشتَّت الخوارجَ، وأنهاكَ وإخوتَك عن الفُرْقة، وكونوا أولادَ أمٍّ واحدة، وكونوا في الحربِ أحرارًا، وللمعروف مَنارًا؛ فإنَّ الحربَ لم تُدْنِ منيَّةً قبلَ وقتِها، وإنَّ المعروفَ يُشيِّدُ ذكرَ صاحبِه، ويُميلُ القلوبَ بالمحبَّة، ويُذلِّلُ الألسنةَ بالذِّكرِ الجميل، ولله درُّ القائل:

إنَّ الأمورَ إذا اجتمَعْنَ فرامَها	بالكسرِ ذو حَنَقٍ وبطشٍ باليدِ
عزَّتْ فلم تُكسَرْ وإنْ هي بُدِّدَتْ	فالكسرُ والتَّوهينُ للمُتَبدِّدِ

ثم قال: إذا أنا متُّ فادعُ الناسَ إلى بيعتك، فمَن أبَى فالسَّيفُ، وعليكَ بالإحسان إلى أخواتك فأكرِمْهُنَّ، وأحبُّهنَّ إليَّ فاطمةُ. وكان قد أعطاها قُرْطَي ماريةَ، والدُّرَّةَ اليتيمةَ. ثم قال: اللهمَّ احْفَظْني فيها. فتزوَّجَها عمرُ بنُ عبد العزيز، وهو ابنُ عمِّها.

ولما احتُضِر سمع غسَّالاً يَغسِلُ الثيابَ، فقال: ما هذا؟ فقالوا: غسَّالٌ. فقال: يا ليتَني كنتُ غسَّالاً أكسبُ ما أعيشُ به يومًا بيوم، ولم أَلِ الخلافَةَ، ثم تمثَّل فقال:

لعَمْري لقد عُمِّرْتُ في المُلك بُرْهةً	ودانتْ ليَ الدُّنيا بوقْعِ البَواتِرِ
وأُعْطيتُ جَمَّ المالِ والحكمَ والنُّهَى	ودانَ قَماقيمُ الملوكِ الجبابرِ
فأضحَى الذي قدْ كانَ ممَّا يسُرُّني	كحلمٍ مضَى في المُزْمناتِ الغَوابرِ
فيا ليتَني لم أغْنَ بالمُلك ليلةً	ولم أسعَ في لذَّاتِ عيشٍ نواضرِ
وكنتُ كذي طِمْرَيْنِ عاش بِبُلْغَةٍ	من العيشِ حتى زار ضيقَ المقابرِ

وقد أنشَد هذه الأبياتَ معاويةُ بنُ أبي سفيانَ عندَ موته.

وقال أبو مُسْهِر: قيل لعبد الملك في مرضِ موته: كيف تجدُك؟ فقال: أجدُني كما قال اللهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ﴾ [الأنعام: ٩٤].

وقال سعيدُ بنُ عبد العزيز: لما احتُضر عبدُ الملك أمَر بفتح الأبواب من قصره، فسمع قصَّارًا، فقال: ما هذا؟ قالوا: قصَّارٌ. فقال: يا ليتني كنتُ قصَّارًا. فلمَّا بلَغ سعيدًا قولُه، قال: الحمدُ لله الذي جعلَهم يَفِرُّونَ إلينا، ولا نفرُّ إليهم.

وقال غيرُه: لمَّا حضرَه الموتُ جعَل يندَمُ، ويضربُ بيده على رأسه، ويقولُ: وددتُ أنِّي كنتُ أكسِبُ قوتي يومًا بيوم، واشتغَلْتُ بطاعة الله.

وقال غيرُه: لمَّا حضرَتْه الوفاةُ دعا بَنيه فوصَّاهُمْ ثم قال: الحمدُ لله الذي لا يَنْسَى أحدًا من خلقه

صغيراً أو كبيراً، ثم يُنشدُ:

فهَل من خالد إمَّا هَلَكنَا ... وهَلْ بالموت يا للناس عارُ

ويُروى أنَّه قال: ارفَعُوني. فرفعُوه حتىٰ شَمَّ الهواءَ، وقال: يا دُنيا، ما أطيبَكِ! إنَّ طويلَكِ لقصيرٌ، وإنَّ كثيرَك لحقيرٌ، وإنْ كُنَّا منكِ لفي غرورٍ. ثم تمثَّل بهذين البيتَيْنِ، ويُروىٰ أن معاويةَ قالهما في هذه الحال:

إنْ تُناقِشْ يكُنْ نقاشُكَ يا ربُّ ... عذابًا لا طوقَ لي بالعذابِ

أو تُجاوِزْ فأنتَ ربٌّ صَفُوحٌ ... عن مُسيءٍ ذنوبُه كالتُّرابِ

قالوا: وكانتْ وفاتُه بدمشقَ يومَ الجمعة. وقيل: الاربعاء. وقيل: الخميس. في النِّصفِ من شوَّالٍ، وقيل: لخمسٍ مضَين منه. سنةَ ستٍّ وثمانينَ. وصلَّىٰ عليه ابنُه الوليدُ وليُّ عهده من بعده، وكان عمرُه يومَ مات ستِّينَ سنةً. قاله أبو مَعْشَر. وصحَّحه الواقديُّ: وقيل: ثلاثًا وستينَ سنةً. قاله المدائنيُّ. وقيل: ثمانٍ وخمسين. ودُفِن بباب الجابية الصَّغير.

قال ابن جرير: ذكرُ أولاده وأزواجه؛ منهم الوليدُ، وسليمانُ، ومَرْوانُ الأكبرُ - درَجَ - وعائشةُ، وأُمُّهم ولَّادةُ بنتُ العبَّاسِ بنِ جَزْء بنِ الحارثِ بنِ زُهيرِ بنِ جَذيمةَ بنِ رَوَاحة بنِ ربيعةَ بنِ مازنِ بنِ الحارثِ بنِ قُطيعةَ بنِ عَبْسِ بنِ بَغيض.

ويزيدُ، ومروانُ الأصغرُ، ومعاويةُ - درَجَ - وأمُّ كلثومَ، وأمُّهم عاتكةُ بنتُ يزيدَ بنِ معاويةَ بنِ أبي سفيانَ. وهشامٌ، وأمُّه أمُّ هشام عائشةُ - فيما قاله المدائنيُّ - بنتُ هشام بن إسماعيلَ المخزوميِّ. وأبو بكرٍ، واسمُه بكَّارٌ، وأمُّه عائشةُ بنتُ موسىٰ بن طلحةَ بنِ عُبيد الله التيميِّ، والحكمُ - درَجَ - وأُمُّه أمُّ أيوبَ بنتُ عمرِو بنِ عثمانَ بنِ عفانَ الأُمويِّ. وفاطمةُ، وأمُّها أمُّ المغيرة بنتُ المغيرة بنِ خالد بنِ العاصِ بنِ هشامِ بنِ المغيرة المخزوميِّ. وعبدُ الله، ومَسْلَمَةُ، والمنذرُ وعَنْبَسَةُ، ومحمدٌ، وسعدُ الخيرِ، والحجَّاجُ، لأمهاتِ أولادٍ شتَّىٰ.

فكان جملةُ أولاده تسعةَ عشرَ؛ ذكوراً وإناثًا، وكانت مدَّةُ خلافته إحدَىٰ وعشرين سنةً؛ منها تسعُ سنينَ مشارِكًا لابنِ الزبير، وثلاثَ عشْرةَ سنةً، وثلاثةُ أشهرٍ ونصفٍ مستقلاً بالخلافة وحدَه.

وكان قاضيَه أبو إدريسَ الخَوْلانيُّ، وكاتبَه رَوْحُ بنُ زِنباع، وحاجبَه يوسفُ مَولاه، وصاحبَ بيتِ المالِ والخاتمِ قَبيصَةُ بنُ ذؤيبٍ، وعلىٰ شُرطته أبو الزُّعَيزِعَة، وقد ذكرنا عمَّالَه فيما مضىٰ.

قال المدائني: وكان له زوجاتٌ أخَرُ؛ شقراءُ بنتُ سَلَمةَ بنِ حَلْبَسٍ الطائيِّ، وابنةٌ لعليِّ بنِ أبي طالبٍ، وأمُّ أبيها بنتُ عبد الله بن جعفر.

وممن يُذكر أنه توفي في هذه السنة تقريبًا:

أرطاةُ بنُ زُفَرَ بن عبد الله بن مالكِ بنِ شدَّاد بن ضَمْرَةَ بن عُقْفانَ بن أبي حارثةَ بن مُرَّةَ بن

نُشْبَةَ بن غَيظ بن مرةَ بن عوف بنِ سعد بنِ ذُبيانَ بن بَغيض بنِ رَيث بنِ غطفانَ، أبو الوليد المُرِّيُّ، ويعرَفُ بابنِ سُهَيَّةَ، وهي أمُّه بنتُ زاملِ بنِ مروانَ بنِ زهيرِ بنِ ثعلبةَ بنِ خديجِ بنِ أبي جُشَمِ بنِ كعبِ ابنِ عوفِ بنِ عامرِ بنِ عوفٍ، سَبِيَّةٌ من كلبٍ، وكانت عندَ ضِرارِ بنِ الأزورِ، ثم صارت إلى زُفَر - وهي حاملٌ - فأتَتْ بأرطاةَ على فراشه، وقد عُمِّر أرطاةُ دهرًا طويلاً حتى جاوَز المائةَ بثلاثين سنةً، وقد كان سيِّدًا شريفًا مُطاعًا مُمدَّحًا شاعرًا مُطْبِقًا.

قال المدائنيُّ: ويقالُ: إنَّ بني عُقْفانَ بنِ حنظلةَ بنِ رواحةَ بنِ ربيعةَ بنِ مازنِ بنِ الحارثِ بنِ قَطيعةَ ابنِ عبسٍ، دخَلوا في بني مُرَّةَ بنِ نُشْبَةَ، فقالوا: بني عُقْفانَ ابنِ أبي حارثةَ بنِ مُرَّةَ.

وقد وفَد أبو الوليدِ أرطاةُ بنُ زُفَرَ هذا على عبدِ الملكِ بنِ مروان، فأنشدَه أبياتًا:

رأيتُ المرءَ تأكُلُهُ الليالي ... كأكلِ الأرضِ ساقطةَ الحديدِ
وما تُبقي المنيَّةُ حينَ تأتي ... على نفسِ ابنِ آدمَ من مزيدِ
وأعلَمُ أنَّها ستكُرُّ حتى ... تُوَفِّيَ نَذْرَها بأبي الوليدِ

قال: فارتاعَ عبدُ الملك، وظنَّ أنَّه عنَاه بذلك، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنما عَنَيتُ نفْسي. فقال عبدُ الملكِ: وأنا واللهِ سيمُرُّ بي الذي يُمُرُّ بك.

وزاد بعضُهم في هذه الأبياتِ:

خُلقْنا أنفُسًا وبنِي نفوسٍ ... ولسنا بالسَّلامِ ولا الحديدِ
لئنْ فُجِّعْتُ بالقُرناءِ يومًا ... لقد مُتِّعتُ بالأملِ البعيدِ

وهو القائلُ:

وإنِّي لقوَّامٌ لدَى الضَّيفِ مُوهَنًا ... إذا أسبَلَ السِّتْرَ البخيلُ المُواكِلُ
دعا فأجابَتْه كلابٌ كثيرةٌ ... على ثقةٍ منِّي بأنِّيَ فاعِلُ
وما دونَ ضَيفي من تلادٍ تَحوزُه ... ليَ النفسُ إلاَّ أنْ تُصانَ الحلائلُ

يونسُ بنُ عطيةَ الحضرميُّ، قاضي مصرَ، وصاحبُ الشرطةِ في أيامِ عبدِ العزيزِ بنِ مرْوانَ، ثم تولَّى بعدَه القضاءَ ابنُ أخيه أوسُ بنُ عبدِ اللهِ.

مُطَرِّفُ بنُ عبد الله بن الشِّخِّير، كان من كبارِ التّابعين، وكان من أصحابِ عِمرانَ بنِ حُصينٍ، وكان مجابَ الدعوةِ، وكانَ يقولُ: ما أُوتِيَ أحدٌ أفضلَ من العقلِ، وعقولُ الناسِ على قَدْرِ زمانِهم. وقال: إذا استَوتْ سَرِيرةُ العبدِ وعلانيتُه قال اللهُ: هذا عبدي حقًّا. وقال: إذا دخَلتُم على مريضٍ، فإنِ استَطَعتُم أنْ يدعوَ لكم، فإنَّه قد حُرِّك - أيْ قد أُوقظ من غفْلته بسببِ مرضِه - فدُعاؤه مستجابٌ من أجلِ كَسْرِه ورِقَّةِ قلبِه. وقال: إنَّ أقبحَ ما طُلبت به الدُّنيا عملُ الآخرةِ.

وقال لبعض إخوانه: إذا كانت لك إليَّ حاجةٌ، فلا تكلِّمْني فيها؛ فإنِّي أكرَهُ أن أرَى ذُلَّ السؤالِ

في وجهك، ولكن اكتُبها في رُقْعةٍ وارفَعْها.

وكان يقولُ: إن هذا الموتَ قد أفسَد على أهلِ النَّعيم نعيمَهم، فاطلُبوا نعيمًا لا موتَ فيه.

وقال: لو علمتُ متى أجَلي؛ لخشيتُ على ذَهابِ عقلي، ولكنَّ اللهَ مَنَّ على عباده بالغفلة عن الموتِ، ولولا الغفلةُ لَما تَهنَّوا بعيشٍ، ولا قامَت بينَهمُ الأسواقُ.

وكان مطرِّفٌ إذا دخَل بيتَه، سبَّحتْ معه آنيةُ بيته.

وكان يسكُنُ الباديةَ، ويجيء منها إلى الجمُعَةِ مبكِّرًا، فمرَّ مرَّةً بمقبرةٍ، فنعَس فنام عندَ القبور، فرأى في منامه أهلَ القبورِ على أفواهِ قبورِهم، فقالوا: هذا مطرِّفٌ يذهَبُ إلى الجمُعة. قال: فقلتُ لهم: وتعرِفون الجمُعَةَ من غيرِها؟ قالوا: نعم، ونعرِفُ ما يقولُ الطيرُ فيه في جوِّ السماءِ.

قال: فقلتُ: وما تقولُ؟ قالوا: تقولُ: سلامٌ سلامٌ ليومٍ صالحٍ.

وكان يقولُ: يا إخوتاه، اجتَهدوا في الأعمال الصالحة؛ فإن يكُنِ الأمرُ كما نرجو من رحمة الله، كان لنا درجاتٌ في الجنة، وإنْ يكنُ الأمرُ شديدًا كما نخافُ لم نقُلْ: ربَّنا ارجِعْنا نعمَلْ صالحًا غيرَ الذي كنَّا نعمَلُ، نقولُ: قد عَملنا فلم ينفَعْنا.

وكان يدعو: اللهمَّ ارضَ عنَّا؛ فإن لم ترضَ عنَّا، فاعفُ عنَّا؛ فإن المولَى قد يعفو عن العبدِ، وهو عنه غيرُ راضٍ.

وكان مطرِّفٌ قد حفَر في داره قبرًا، كان كلَّ يومٍ ينزِلُ إليه فيصلِّي فيه، ويقرأُ القرآنَ.

توفِّي مطرِّفٌ بالبصرةِ، وكان له منزلةٌ عندَ الخلفاءِ والملوكِ والأمراءِ، وكان هو من أرْشدِ الناسِ فيهم، وكان مجابَ الدعوةِ؛ كذَب عليه رجلٌ عندَ بعضِ الأمراء، فقال مطرِّفٌ: يا هذا، إنْ كنتَ كاذبًا عجَّل الله حتفَك. فوقَع الرجلُ ميِّتًا مكانَه. واللهُ سبحانه أعلمُ.

خلافة الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق

لمَّا رجَع من دَفْنِ أبيه خارجَ بابِ الجابيةِ الصغيرِ - وكان ذلك في يومِ الخميس، وقيل: الجمعة. للنصفِ من شَوَّالٍ من هذه السنة - أعني سنَةَ ستٍّ وثمانين - لم يدخُلِ المنزلَ حتى صعِد المنبرَ - منبرَ المسجدِ الأعظمِ بدمشقَ - فخطَب الناسَ فكان ممَّا قال: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعونَ، واللهُ المستعانُ على مُصيبَتِنا بموتِ أميرِ المؤمنينَ، والحمدُ لله على ما أنعَم به علينا من الخلافةِ، قوموا فبايِعوا. فكان أوَّلَ مَن قام إليه عبدُ الله بنُ هَمّام السَّلوليُّ، وهو يقولُ:

اللهُ أعطاكَ التي لا فَوقَها	وقد أرادَ الملحِدونَ عَوقَها
عنكَ ويأبى اللهُ إلاَّ سَوقَها	إليكَ حتى قلَّدُوكَ طَوقَها

ثم بايَعه وبايَعَه الناسُ بعدَه.

وذكَر الواقديُّ، أنَّه حمد اللهَ وأثنَى عليه بما هو أهلُه، ثم قال: أيُّها الناسُ، إنَّه لا مُقدِّمَ لما أخَّرَ اللهُ، ولا مُؤخِّرَ لمَا قدَّم اللهُ، وقد كان مِن قضاء الله وسابقته، وما كتَبه على أنبيائه وحمَلة عرشه وملائكته الموتُ، وقد صار إلى منازلِ الأبرارِ بما لاقَى في هذه الأُمَّة - يعني بالذي يحقُّ للهِ عليه - مِن الشِّدَّة على المُريب، واللِّين لأهلِ الحقِّ والفضلِ، وإقامة ما أقام اللهُ مِن منار الإسلام، وإعلائه؛ مِن حَجِّ هذا البيت، وغَزْوِ هذه الثُّغورِ، وشَنِّ هذه الغارات على أعداء الله عزَّ وجلَّ، فلم يكُنْ عاجزًا ولا مُفرِّطًا، أيها الناسُ، عليكم بالطَّاعة ولُزومِ الجماعة؛ فإنَّ الشيطانَ مع الفرد، أيها الناسُ، مَن أبدَىٰ لنا ذاتَ نفسه ضرَبْنا الذي فيه عَيْناه، ومَن سكَت مات بدائه. ثم نزَل فنظَر إلى ما كان مِن دوابِّ الخلافة فحازها، وكان جبَّارًا عنيدًا.

وقد ورَد في تَوْلية الوليد حديثٌ غريبٌ، وإنَّما هو الوليدُ بنُ يزيدَ بنِ عبد الملك، كما سيأتي بيانُه، وكما تقدَّم تقريرُه في كتاب «دلائل النبوة»، في باب الإخبار عن الغيوب المستقبَلة، فيما يتعلَّقُ بدولة بني أميةَ.

وأمَّا الوليدُ بنُ عبدِ الملك هذا فقد كان صَيِّنًا في نفسه حازمًا في رأيه، يُقالُ: إنَّه لا تُعرَفُ له صَبوةٌ. ومن جُمْلة محاسنه ما صَحَّ عنه أنَّه قال: لولا أنَّ اللهَ قصَّ علينا قصَّةَ قوم لوطٍ في كتابه ما ظَنَنْتُ أنَّ ذكَرًا يأتي ذكرًا كما تُؤتَى النِّساءُ. كما سيأتي ذلك في ترجَمته عندَ ذِكرِ وفاته في سنة ستٍّ وتسعين، إن شاءَ اللهُ تعالى، وهو باني جامع دمشقَ الذي لا يُعرَفُ في الآفاق أحسنُ بناءً منه، وقد شرَع في بنائه في ذي القَعدة من هذه السنة، فلم يزَلْ في بنائه وتحسينه مدَّةَ خلافته، وهي عشْرُ سنينَ، فلَمَّا أنهاه انتهَتْ أيامُ خلافته، كما سيأتي بيانُ ذلك مُفصَّلًا. وقد كان موضعَ هذا المسجد كنيسةٌ يُقالُ لها: كنيسةُ يُوحنَّا. فلمَّا فَتَحت الصحابةُ دمشقَ جعَلوها مناصَفةً، فأخَذُوا منها الجانبَ الشَّرقيَّ فحوَّلوه مسجدًا، وبقِي الجانبُ الغربيُّ كنيسةً بحاله مِن لَدُنْ سنة أربعَ عشْرةَ إلى هذه السنة، فعزَم الوليدُ على أخذ بقية هذه الكنيسة منهم وعوَّضهم عنها كنيسةَ مريمَ لدخولها في جانب السيفِ، وقيل: عوَّضهم عنها كنيسةَ تُومَا، وهدَم بقيةَ هذه الكنيسة وأضافها إلى مسجد الصَّحابة، وجعَل الجميعَ مسجدًا واحدًا، على هيئة بديعة لا يَعرِفُ كثيرٌ من الناس أو أكثرُهم لها نظيرًا في البُنيانِ والديارات والآثار والعمارات. واللهُ سبحانَه وتعالى أعلمُ.

* * *

ثم دخلت سنة سبع وثمانين

ففيها عزَل الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ هشامَ بنَ إسماعيلَ عن إمْرةِ المدينةِ، وولَّى عليها ابنَ عمِّه وزَوْجَ أخته - فاطمةَ بنتِ عبدِ الملكِ - عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ، فدخَلها في ثلاثينَ بعيرًا، في ربيعٍ الأوَّلِ منها، فنزَل دارَ مَرْوانَ، وجاء الناسُ للسَّلامِ عليه - وعمرُه إذ ذاك خمسٌ وعشرونَ سنةً - فلمَّا صلَّى الظهرَ دعا عشرةً مِن فقهاءِ المدينةِ، وهم؛ عروةُ بنُ الزبيرِ، وعبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عُتبةَ، وأبو بكرِ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ الحارثِ بنِ هشامٍ، وأبو بكرِ بنُ سليمانَ ابنِ أبي خيثمةَ، وسليمانُ بنُ يَسارٍ، والقاسمُ ابنُ محمدٍ، وسالمُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ، وأخوه عبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ، وعبدُ اللهِ بنُ عامرِ بنِ ربيعةَ، وخارجةُ بنُ زيدِ بنِ ثابتٍ، فدخَلوا عليه فجلَسوا، فحمِد اللهَ وأثنَى عليه بما هو أهلُه، ثم قال: إني إنَّما دعوتُكم لأمرٍ تُؤجَرونَ عليه، وتكونونَ فيه أعوانًا على الحقِّ، إنِّي لا أريدُ أنْ أقطعَ أمرًا إلَّا برأيِكم أو برأيِ مَن حضَر منكم، فإنْ رأيتُم أحدًا يتعدَّى، أو بلَغكم عن عاملٍ لي ظُلامةٌ، فأُحرِّجُ اللهَ على مَن بلَغه ذلك إلَّا أبلَغني. فخرجُوا مِن عنده يَجزُونَه خيرًا، وافترَقُوا على ذلك.

وكتَب الوليدُ إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ بأنْ يُوقِفَ هشامَ بنَ إسماعيلَ للناسِ عندَ دارِ مروانَ، وكان سيِّئَ الرأيِ فيه؛ لأنَّه أساءَ إلى الناسِ بالمدينةِ في مدَّةِ ولايتِه عليهم، وكانت نحوًا مِن أربعِ سنينَ، ولاسيَّما إلى سعيدِ بنِ المسيَّبِ وإلى عليِّ بنِ الحسينِ وأهلِ بيتِه، فلمَّا أُوقِفَ للناسِ قال هشامٌ: ما أخافُ إلَّا مِن سعيدٍ وعليِّ بنِ الحسينِ. فقال سعيدُ بنُ المسيَّبِ لابنِه ومَوالِيه: لا يَعرِضْ منكم أحدٌ لهذا الرجلِ، فإنِّي تركتُ ذلك للهِ وللرَّحمِ، وأمَّا كلامُه فلا أكلِّمُه أبدًا. وأمَّا عليُّ بنُ الحسينِ فإنَّه مرَّ به وهو موقوفٌ عندَ دارِ مَروانَ فلم يَتعرَّضْ له، وكان قد تقدَّم إلى خاصَّتِه أنْ لا يَعرِضَ له أحدٌ منهم، فلمَّا اجتاز به عليُّ بنُ الحسينِ، وتجاوزَه، ناداه هشامُ بنُ إسماعيلَ، فقال: «اللهُ أعلَمُ حيثُ يجعلُ رِسالاتِه».

وفي هذه السَّنةِ غزا مَسلمةُ بنُ عبدِ الملكِ بلادَ الرُّومِ فقتَل منهم خلقًا كثيرًا، وفتَح حُصُونًا كثيرةً، وغَنِم غنائمَ جمَّةً، ويقالُ: إنَّ الذي غزا بلادَ الرومِ في هذه السنةِ هشامُ بنُ عبدِ الملكِ، ففتَح حصنَ بولَقَ، وحصنَ الأخرمِ، وبحيرةَ الفرسانِ، وحصنَ بولُسَ، وقُمَيقِمَ، وقتَل مِن المستعربةِ نحوًا مِن ألفٍ وسبَى ذَرارِيَّهم. وفيها غزا قتيبةُ بنُ مسلمٍ بلادَ التركِ، وصالحَه مَلِكُهم نيزَكُ على مالٍ جزيلٍ، وعلى أنْ يُطلِقَ كلَّ مَن ببلادِه مِن أُسارَى المسلمينَ. وفيها غزا قتيبةُ بِيكَنْدَ، فاجتمَع له مِن الأتراكِ عندَها بشرٌ كثيرٌ وجمٌّ غفيرٌ، وهي مِن أعمالِ بُخارَا، فلمَّا نزَل بأرضِهم استنجَدوا عليه بأهلِ الصُّغْدِ ومَن حولَهم مِن الأتراكِ، فأتَوْهم في جَمْعٍ عظيمٍ فأخَذوا على قتيبةَ الطرقَ والمضايقَ، فتواقفَ هو وهُم قريبًا مِن شهرينِ، وهو لا يقدرُ على أنْ يبعثَ إليهم رسولًا، ولا يأتيه مِن جهتِهم رسولٌ، وأبطَأ خبرُه على الحجاجِ حتى خاف عليه، وأشفَق على مَن معه مِن المسلمينَ مِن كثرةِ الأعداءِ مِن التركِ،

فأمَرَ الناسَ بالدعاء لهم في المساجد، وكتَب بذلك إلى الأمصار.

وقد كان قتيبةُ ومَن معه من المسلمين يقتَتلونَ مع الترك في كلِّ يوم، وكان لقُتيبةَ عينٌ من العَجَم يقالُ له: تندرُ، فأعطاه أهلُ بُخارىٰ مالاً جزيلاً على أن يأتيَ قُتيبةَ فيُخذِّلَه عنهم، فجاء إليه فقال له: أخلني. فأخلاه، فلم يَبْقَ عندَه سوىٰ رجلٍ يقالُ له: ضِرارُ بنُ حصين. فقال له تندرُ: هذا عاملٌ يقدَمُ عليك سريعًا بعزل الحجاج، فلو انصرفتَ بالناس إلى مروَ. فقال قتيبةُ لمولاه سِياه: اضرِبْ عُنُقَه. فقتَله، ثم قال قتيبةُ لضرار: لم يَبْقَ أحدٌ سمعَ هذا غيري وغيرُك، وإنّي أُعطي اللهَ عَهْدًا إنْ ظَهر هذا الخبرُ حتى يَنقضيَ حَرْبُنا لأُلحقنَّك به، فاملِكْ عليك لسانَك؛ فإنَّ انتشارَ هذا يَفُتُّ في أعضادِ الناس.

ثم نهَض قتيبةُ فحرَّض الناسَ على الحرب، ووقَف على أصحاب الرَّايات يُحرِّضُهم، فاقتَتَل الناسُ قتالاً شديدًا، وأنزَل اللهُ على المسلمينَ الصَّبرَ فما انتصَف النَّهارُ حتى أنزَل اللهُ عليهم النَّصرَ، فهُزِمتِ التركُ هزيمةً عظيمةً، واتَّبعَهم المسلمونَ يقتُلُون فيهم ويأسِرُونَ ما شاءوا، واعتصَم مَن بَقِي منهم بالمدينة، فأمَرَ قتيبةُ الفَعَلَةَ بهدْمِها، فسألوه الصُّلحَ على مالٍ عظيمٍ فصالَحهم، وجعَل عليها رجلاً من أهله وعندَه طائفةٌ من الجيش ثم سار راجعًا، فلمَّا كان منهم على خمسِ مراحلَ نقَضوا العهْدَ، وقتَلوا الأميرَ، وجدَعوا أُنوفَ مَن كان معه، فرجَع إليهم، وحاصَرها شهرًا. وأمَر النَّقَّابينَ والفَعَلَةَ فعلَّقُوا سُورَها على الخشب، وهو يريدُ أن يُضرِمَ النارَ فيها، فسَقَط السُّورُ فقتَل من الفَعَلَة أربعينَ نفسًا، فسألوه الصلحَ فأبَىٰ، ولم يزَلْ حتى افتتحَها، فقتَل المقاتلةَ وسَبَى الذُّرِّيَّةَ وغَنِم الأموالَ.

وكان الذي أَلَّب على المسلمينَ رجلٌ أعورُ منهم، فأسر فقال: أنا أَفتدي نفسي بخمسة أثوابٍ صينيَّةٍ قيمتُها ألفُ ألفٍ. فأشَار الأمراءُ على قتيبةَ بقَبول ذلك منه، قال قتيبةُ: لا والله، لا أُروِّعُ بك مسلمًا مرَّةً ثانيةً. وأمَر به فضُرِبتْ عنُقُه وقد غنِم المسلمون من بِيكَنْدَ شيئًا كثيرًا من آنية الذَّهبِ والفضَّةِ والأصنامِ من الذَّهبِ، وكان فيها صنَمٌ سُبِكَ فخَرَج منه مائةُ ألفٍ وخمسونَ ألفَ دينارٍ من الذَّهبِ، ووجَدُوا في خزائنِ المُلْكِ أموالاً كثيرةً وسلاحًا كثيرًا وعُددًا متنوِّعةً وجواهرَ نفيسةً، وأخَذوا من السَّبيِ شيئًا كثيرًا، فكتَب قتيبةُ إلى الحجّاجِ في أن يُعطيَ ذلك للجند، فأذن له فتمولَ المسلمونَ مالاً كثيرًا جدًّا، وصارتْ لهم أسلحةٌ وعُدَدٌ وخيولٌ، وتقوَّوا على الأعداءِ قوةً عظيمةً. ولله الحمدُ والمنَّةُ.

وقد حجَّ بالناس في هذه السنة عمرُ بنُ عبدِ العزيز نائبُ المدينة، وقاضيه بها أبو بكرِ بنُ محمدِ بنِ عمرِو بنِ حزم، وعلى العراقِ والمشرقِ بكماله الحجّاجُ بنُ يوسفَ الثَّقَفيُّ، ونائبُه على البصرةِ الجرّاحُ ابنُ عبدِ الله الحَكَميُّ وقاضيه بها عبدُ الله بنُ أُذَيْنةَ، وعاملُه على الحربِ بالكوفةِ زيادُ بنُ جريرِ بنِ عبدِ الله البَجَليُّ، وقاضيه بها أبو بكرِ بنُ أبي موسى الأشعريُّ، ونائبُه على خراسانَ وأعمالِها قتيبةُ ابنُ مسلم.

وفي هذه السنة تُوفِّي من الأعيان:

عتبةُ بنُ عبدِ السُّلَمي،صحابيٌّ جليلٌ، نزَل حِمْصَ، يُروَىٰ أنَّه شهد بني قريظةَ. وعن العِرْباضِ أنَّه كان يقولُ: هو خيرٌ منِّي، أسلَم قَبْلي بسنةٍ. قال الواقديُّ وغيرُه: تُوفِّي في هذه السنة. وقال غيرُه: بعدَ التسعينَ. واللهُ أعلمُ. قال أبو سعيدِ ابنُ الأعرابيِّ: كان عتبةُ بنُ عبدِ السُّلَميُّ من أهلِ الصُّفَّةِ. وروىٰ بقيةُ، عن بُجيرِ بنِ سعدٍ، عن خالدِ بنِ مَعْدانَ، عن عتبةَ بنِ عبدِ السُّلَميِّ أنَّ النبيَّ ﷺ قال: **«لو أنَّ رجلاً يُجَرُّ على وجهِه من يومِ وُلِد إلى يومِ يموتُ هَرَمًا في مَرْضاةِ الله لحَقَره يومَ القيامة»** [1] . وقال إسماعيلُ بنُ عيَّاشٍ، عن عَقِيلِ بنِ مُدْرِكٍ، عن لقمانَ بنِ عامرٍ، عن عتبةَ بنِ عبدِ السُّلَميِّ، قال: اشتكيتُ إلىٰ رسولِ الله ﷺ العُرْيَ، فكسَاني خَيْشَتَيْنِ، فلقد رأيتُني ألْبَسُهما وأنا أكسَىٰ أصحابي [2] .

المقدامُ بنُ مَعْد يكربَ،صحابيٌّ جليلٌ، نزَل حِمْصَ أيضاً، له أحاديثُ، وروىٰ عنه غيرُ واحدٍ من التّابعينَ. قال محمدُ بنُ سعدٍ والفلاَّسُ وأبو عبيدٍ: تُوفِّي في هذه السنة. وقال غيرُهم: تُوفِّي بعدَ التسعينَ. فاللهُ أعلمُ.

أبو أُمامةَ الباهليُّ،واسمُه صُدَيُّ بنُ عَجْلانَ، صحابيٌّ جليلٌ، نزَل حِمصَ، وهو راوي حديثَ تلقينِ الميِّت بعدَ الدَّفنِ. رواه الطبرانيُّ في الدعاء [3] ، وقد تقدَّم له ذكرٌ في الوَفَيات.

قَبيصةُ بنُ ذؤَيب أبو سفيانَ الخُزاعيُّ المدنيُّ،وُلد عامَ الفتحِ، وأُتي به النبيَّ ﷺ ليدعوَ له. روىٰ عن جماعةٍ كثيرةٍ من الصَّحابةِ، وأُصيبتْ عينُه يومَ الحَرَّةِ، وكان من فقهاءِ المدينة، وكانتْ له مَنزلةٌ عندَ عبدِ الملكِ، ويدخلُ عليه بغيرِ إذنٍ، وكان يقرأُ الكُتُبَ إذا وردَت من البلادِ، ثم يدخُلُ على عبد الملك فيخبرُه بما ورَد من البلادِ فيها، وكان صاحبَ سرِّه، وكان له دارٌ بدمشقَ بباب البريدِ، وتُوفِّي بدمشقَ.

عروةُ بنُ المغيرة بنِ شعبةَ،وليَ إمْرَةَ الكوفةِ للحجّاجِ، وكان شريفًا لبيبًا مُطاعًا في الناسِ، وكان أحولَ. تُوفي بالكوفةِ.

يحيى بنُ يَعْمَرَ،كان قاضيَ مَرْوَ، وهو أوَّلُ مِن نقَط المصاحفَ، وكان مِن فضلاءِ الناسِ وعلمائِهم، وله أحوالٌ ومعاملاتٌ، وله رواياتٌ، وكان أحدَ الفصحاءِ، أخذَ العربيةَ عن أبي الأسودِ الدُّؤَلِيِّ.

شُرَيحُ بنُ الحارثِ بنِ قيسٍ القاضي،أدرَك الجاهليةَ، واستقْضاه عمرُ على الكوفةِ فمكَث بها

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٥) بإسناد فيه ضعف لعنعنة بقية وهو يدلس تدليس التسوية ويبدو أن صوابه موقوف عند أحمد (٤/ ١٨٥) من طريق جبير بن نفير عن محمد بن أبي عميرة وكان من أصحاب النبي ﷺ قال: لو أن عبداً خرَّ على وجهه من يوم ولد إلى أن يموت هرمًا في طاعة الله لحقره ذلك اليوم، ولو أنه رُدَّ إلى الدنيا كيما يزداد من الأجر والثواب» وإسناده صحيح موقوف.

(٢) إسناده صحيح أخرجه أبو داود (٤٠٣٢) وغيره.

(٣) **هذا حديث ضعيف**:وهو المعروف بحديث التلقين بعد الدفن وهو عند الطبراني في «الكبير» و«الدعاء» وفي إسناده مجاهيل وقد ضعف هذا الحديث جمعٌ من العلماء وقد تكلمت عليه باستفاضة في كتابي «جامع أحكام الميت» الجزء الأول.

قاضيًا خمسًا وستينَ سنةً، وكان عالمًا عادلاً كثيرَ الخيرِ، حسَنَ الأخلاقِ فيه دُعابةٌ كثيرةٌ، وكان كَوْسجًا؛ لا شعرَ بوجهِهِ ـ وكذلك كان عبدُ اللهِ بنُ الزبيرِ، والأحنفُ بنُ قيسٍ، وقيسُ بنُ سعدِ بنِ عبادةَ.

وقد ترجَمْناه في «التكميلِ» بما فيه كفايةٌ، وقد اختُلِفَ في نسبِهِ وسنِّه وعامِ وفاتهِ، على أقوالٍ، ورجّح ابنُ خلِّكانَ وفاتَه في هذه السنةِ. واللهُ أعلمُ.

* * *

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين

فيها غزا الصائفة مسلمةُ بنُ عبد الملك وابنُ أخيه العباسُ بنُ الوليد بن عبد الملك، فافتتحا بمَن معهما من المسلمين حصنَ طُوانة في جُمادَىٰ من هذه السنة، وكان حصنًا منيعًا، اقتتل الناسُ عنده قتالاً عظيمًا، ثم حمَل المسلمون على النَّصارَىٰ فهزَموهم حتى أدخَلُوهم الكنيسةَ، ثم خرَجت النَّصارىٰ، فحملوا على المسلمينَ، فانهزَم المسلمونَ ولم يبْقَ أحدٌ منهم في موقفه إلاَّ العباسَ بنَ الوليد، ومعه ابنُ مُحَيْريز الجُمَحيُّ، فقال العباسُ لابن مُحَيْريز: أينَ قرَّاءُ القرآن الذين يُريدونَ وجــهَ الله عزّ وجلّ؟ فقال: نادهم يأتوكَ. فنادَىٰ: يا أهلَ القرآن. فتراجَع الناسُ، فحمَلُوا على النَّصارىٰ فكسَرُوهم ولجئوا إلى الحصن فحاصَرُوهم حتى فتَحُوه.

وذكر ابنُ جرير أن في شهر ربيع الأول من هذه السنة قدم كتابُ الوليد على عمرَ بن عبد العزيز بالمدينة، يأمُرُه بهدم المسجد النبويِّ، وإضافة حُجَر أزواج رسول الله ﷺ فيه، وأن يوسِّعَه من قبلته وسائر نواحيه، حتى يكونَ مائتي ذراع في مائتي ذراع، فمَن باعك ملكَه فاشتَرِ منه، وإلاَّ فقوِّمْه له قيمةَ عدْلٍ، ثم اهدمْ وادفَعْ إليهم أثمانَ بيوتهم، فإنّ لك في ذلك سلفَ صدْقٍ؛ عمرَ وعثمانَ. فجمَع عمرُ بنُ عبد العزيز وُجوهَ الناس والفقهاءَ العشَرَةَ أهلَ المدينة، وقرأ عليهم كتابَ الوليد، فشَقَّ عليهم ذلك، وقالوا: هذه حُجَرٌ قصيرةُ السُّقوف، وسُقوفُها من جَريد النَّخل، وحيطانُها من اللَّبِن، وعلى أبوابها المُسُوحُ، وترْكُها على حالها أولىٰ؛ لينظُرَ إليها الحُجَّاجُ والزُّوَّارُ والمسافرونَ، وإلى بيوت النبيِّ ﷺ فينتفعُوا بذلك ويعتبروا به، ويكونَ ذلك أدعى لهم إلى الزُّهد في الدُّنيا، فلا يُعمِّرون فيها إلاَّ بقدر الحاجة، وهو ما يَستُرُ ويُكِنُّ، ويعرفونَ أنَّ هذا البنيانَ العاليَ إنَّما هو من أفعال الفراعنة والأكاسرة، وكلِّ طويل الأمل راغبٍ في الدنيا وفي الخلود فيها. فعندَ ذلك كتَب عمرُ بنُ عبد العزيز إلى الوليد بما أجمَع عليه الفقهاءُ العشَرةُ المتقدِّمُ ذكرُهم، فأرسَل إليه يأمرُه بالخراب وبناء المسجد على ما ذكَر، وأن يُعَلِّيَ سُقوفَه. فلم يَجِدْ عمرُ بُـدًّا من هدمها. ولَمَّا شرَعوا في الهدم، صاح الأشرافُ ووُجوهُ الناس من بني هاشم وغيرهم، وتَباكَوا مثلَ يوم مات النبيُّ ﷺ، فأجاب مَن له ملْكٌ متاخمٌ للمسجد إلى بيعه، فاشترَىٰ منهم عمرُ، وشرَع في بنائه وشمَّر عن إزاره، واجتهَد في ذلك، وجاءته فُعولٌ كثيرةٌ من قِبَل الوليد، فأدخَل فيه الحُجرةَ النبويةَ - حجرةَ عائشةَ، فدخَل القبرُ في المسجد، وكانت حَدُّه من الشَّرق - وسائرَ حُجَر أمهات المؤمنينَ، كما أمَر الوليدُ.

ورُوِّينا أنهم لما حفَروا الحائطَ الشرقيَّ من حجرة عائشةَ بدَتْ لهم قدمٌ فخشُوا أن تكونَ قدمَ النبيِّ ﷺ، حتى تحقَّقوا أنَّها قدمُ عمرَ بن الخطاب رضي اللهُ عنه. ويُحكَىٰ أنّ سعيدَ بنَ المسيَّب أنكرَ إدخالَ حجرة عائشةَ في المسجد - كأنَّه خَشِي أن يُتَّخذَ القبرُ مسجدًا - واللهُ أعلمُ.

وذكَر ابنُ جرير أنَّ الوليدَ كتَب إلى ملك الروم يسألُه أن يبعَثَ له صُنَّاعًا للبناء، فبعَث إليه بمائة

صانع، وفصوص كثيرة من أجل المسجد النبوي-نحوَ خمسينَ حِمْلاً ومائة ألف دينار-والمشهور أنّ هذا إنما كان من أجل مسجد دمشقَ. فالله أعلمُ.

وكتب الوليدُ إلى عمرَ بن عبد العزيز أن يحفرَ الفوّارةَ بالمدينة، وأن يُجريَ ماءَها، ففعل. وأمره أن يحفرَ الآبارَ، وأن يُسهِّلَ الطرقَ والثّنايا. وساق إلى الفوّارة الماءَ من ظاهر المدينة، والفوّارةُ بُنيتْ في ظاهر المسجد عندَ بقعةٍ رآها فأعجبته.

وفيها غزا قتيبةُ بنُ مسلم ملكَ الترك كُورمغانونَ ابنَ أختِ ملك الصّين، ومعه مائتا ألف مقاتلٍ من أهل الصُّغْد وفَرْغانةَ وغيرهم، فاقتتلوا قتالاً شديدًا-وكان مع قتيبةَ نيزكُ ملكُ الترك مأسورًا-فكسرهم قتيبةُ بنُ مُسلم، وغنم من أموالهم شيئًا كثيرًا، وقتل منهم خلقًا وسبَى وأسرَ.

وفيها حجَّ بالناس عمرُ بنُ عبد العزيز، ومعه جماعاتٌ من أشراف قريش، فلمَّا كان بالتّنعيم لقيَه طائفةٌ من أهل مكةَ فأخبَروه عن قلة الماء بمكةَ لقلّة المطر، فقال لأصحابه: ألاَ نستَمْطرُ؟ فدعا ودعا الناسُ، فما زالوا يدعونَ حتى سُقُوا ودخلُوا مكةَ ومعهم المطرُ، وجاء سيلٌ عظيمٌ حتى خاف أهلُ مكةَ من شدَّة المطر، ومُطرتْ عَرَفةُ ومُزدلِفةُ ومنًى، واخصبتِ الأرضُ هذه السنةَ خصبًا عظيمًا بمكةَ وما حولَها، وذلك ببركة دعاء عمرَ بن عبد العزيز ومَن كان معه من الصَّالحينَ.

وكان النُّوابُ على البُلدان في هذه السنة هم الذين كانوا قبلَها.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

عبدُ الله بنُ بُسْر بن أبي بُسْر المازنيُّ، صحابيٌّ كأبيه، سكَن حِمْصَ، وروى عنه جماعةٌ من التابعينَ. قالَ الواقديُّ: تُوفِّيَ في سَنة ثمانٍ وثمانينَ، عن أربعٍ وتسعينَ سنةً. زادَ غيرُه: وهو آخرُ مَن تُوفِّي من الصحابة بالشّام. وقد جاء في الحديث، أنَّه يعيشُ قرنًا؛ فعاش مائةَ سنة.

عبدُ الله بنُ أبي أوْفَى علقمةَ بن خالد بن الحارث الخزاعيُّ ثم الأسلميُّ، صحابيٌّ جليلٌ، وهو آخرُ مَن بَقيَ من الصحابة بالكوفة. وكانت وفاتُه، فيما قاله البخاريُّ سنةَ سبعٍ أو ثمانٍ وثمانينَ. وقال الواقديُّ وغيرُ واحد: سنةَ ستٍّ وثمانينَ. وقد جاوز المائةَ، وقيل: قارَبها. رضي اللهُ عنه.

وفيها تُوفِّي هشامُ بنُ إسماعيلَ بن هشامَ بن الوليد المخزوميُّ المدنيُّ، وكان حمَا عبد الملك بن مرْوانَ ونائبَه على المدينة، وهو الذي ضرَب سعيدَ بنَ المسيّب كما تقدَّم، ثم قدِم دمشقَ فمات بها، وهو أوَّلُ مَن أحدَث دراسةَ القرآن بجامع دمشقَ، فمات بها في السُّبُع.

حكيمُ بنُ عُمير العنْسيُّ الشاميُّ-له رواية، ولم يكُنْ أحدٌ في الشام يستطيعُ أن يعيبَ الحجاجَ علانيةً إلاّ هو وابنُ مُحَيْريز-أبو الأحْوَص. قُتل في غزوة طُوانةَ من بلاد الروم في هذه السنة.

* * *

ثم دخلت سنة تسع وثمانين

فيها غزا مَسْلَمةُ بنُ عبد الملك وابنُ أخيه العباسُ بنُ الوليد بلادَ الروم، فقتلا خلقًا كثيرًا، وفتحا حُصونًا كثيرةً؛ منها حصنُ سُورِيةَ وعَمُّورِيَةَ وهِرَقْلَةَ وقَمودِيةَ، وغَنِما شيئًا كثيرًا وأسرا جمًّا غفيرًا.

وفيها غزا قتيبةُ بنُ مسلمٍ بلادَ الصُّغْد، ونَسَفَ، وكِسَّ، وقد لقيه هنالك خلقٌ من الأتراك فظَفِر بهم فقتَلَهم، وسار إلى بُخَارا فلقيه دونَها خلقٌ كثيرٌ من التُّرك فقاتلَهم يومَين وليلتَين عندَ مكانٍ يقالُ له: خَرْقانُ. وظفِر بهم، فقال في ذلك نَهارُ بنُ تَوسعةَ:

وباتَتْ لَهم منَّا بخَــرْقــانَ لَيلةٌ ... ولَيلَتُنا كــانتْ بخَــرْقــانَ أطولا

ثم قصَد قتيبةُ وَرْدانَ خُذَاهَ، ملكَ بُخَارا، فقاتلَه وَرْدانُ قتالاً شديدًا فلم يظفَرْ به قتيبةُ، فرجَع عنه إلى مَرْوَ، فجاءه كتابُ الحجّاج يعنِّفُه على الفرارِ والنُّكُول عن أعداءِ الإسلامِ، وكتَب إليه أن يبعَثَ بصورةِ هذا البلدِ - يعني بُخَارا - فبعَث إليه بصورتِها، فكتَب إليه؛ أنِ ارجِعْ إليها وتُبْ إلى اللهِ من ذنبِك وائتِها من مكانِ كذا وكذا، ورِدْ وَرْدانَ خُذَاه، وإياكَ والتَّحويطَ، ودَعْني وبُنيّاتِ الطريقِ.

وفي هذه السنةِ ولَّى الوليدُ بنُ عبدِ الملك إمْرةَ مكةَ لخالدِ بنِ عبدِ الله القَسريِّ، فحفَر بئرًا بأمرِ الوليدِ عندَ ثَنِيَّةِ طُوًى وثَنِيَّةِ الحَجُونِ، فجاءتْ عذبةَ الماءِ طَيِّبةً، وكان يَستقي الناسُ منها.

وروى الواقــديُّ: حدثني عمرُ بنُ صالحٍ، عن نافعٍ مَوْلى بني مَخْزومٍ، قال: سمعتُ خالدَ بنَ عبدِ اللهِ القَسْريَّ يقولُ على منبرِ مكةَ وهو يَخطُبُ الناسَ: أيُّها الناسُ، أيُّهما أعظمُ؛ خليفةُ الرجلِ على أهلِه أم رسولُه إليهم؟ واللهِ لو لم تعلَموا فَضْلَ الخليفةِ إلا أنَّ إبراهيمَ خليلَ الرحمنِ استَسْقاه فسَقاه ملحًا أُجاجًا، واستَسْقى الخليفةُ فسقاه عذبًا فُراتًا - يعني البئرَ التي احتَفرَها له بالثَّنِيَّتَيْنِ؛ ثَنِيَّةِ طُوًى وثَنِيَّةِ الحَجونِ - فكان يُنقَلُ ماؤُها فيُوضَعُ في حوضٍ من أَدَمٍ إلى جَنْبِ زَمْزَمَ ليُعرَفَ فضلُه على زَمْزَمَ. قال: ثم غارَت تلك البئرُ فذهَب ماؤُها فلا يُدرى أين هو إلى اليومِ وهذا الإسنادُ غريبٌ، وهذا الكلامُ يتَضَمَّنُ كفرًا إن صحَّ عن قائلِه، وعندي أنّ خالدَ بنَ عبدِ الله القَسْريَّ لا يصحُّ عنه هذا الكلامُ، وإن صحَّ فهو عدوُّ اللهِ، وقد قيل عن الحجاجِ بنِ يوسفَ نحوُ هذا الكلامِ؛ من أنَّه جعَل الخليفةَ أفضلَ من الرسولِ الذي أرسَله اللهُ، وكلُّ هذه الأقوالِ تتضمَّنُ كُفرَ قائلِها.

وفي هذه السنةِ غزَا مَسْلمةُ التُّركَ حتى بلَغ البابَ من ناحيةِ أَذْرَبيجانَ، وفتَح حصونًا ومدائنَ هنالك. وحجَّ بالناسِ فيها عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ. قال شيخُنا الحافظُ أبو عبدِ اللهِ الذَّهبيُّ: وفي هذه السنةِ فُتِحتْ صِقِلِّيَةُ ومَيُورْقَةُ - وقيل: مَنُورْقَةُ - وهما في البحرِ بينَ جزيرةِ صِقِلِّيَةَ وحَدَارُهُ من بلادِ الأنْدلُسِ. وفيها سيَّر موسى بنُ نُصيرٍ ولدَه إلى النقريسِ ملكِ الفرنجِ فافتتَح بلادًا كثيرةً.

وفيها تُوفِّي من الأعيان:

عبدُ الله بنُ بُسْر بن أبي بُسْر المازنيُّ، له ولأبيه صحبةٌ، والصحيحُ أنَّه توفي في التي قبلَها.

قال: وعَبدُ الله بنُ ثَعْلبةَ بن صُعَير - أحدُ التابعينَ - العُذْريُّ الشاعرُ.

وقد قيل: إنَّه أدرَك حياةَ النبيِّ ﷺ، ومسَح على رأسِه. وكان الزهريُّ يتعلَّمُ منه النسبَ.

والعمَّالُ في هذه السنةِ هم المذكُورُونُ في التي قبلَها، وقد تقدَّم ذِكرُهم. واللهُ سبحانهُ أعلمُ.

* * *

ثم دخلت سنة تسعين من الهجرة

فيها غزا مسلمةُ بنُ عبدِ الملك والعباسُ بنُ الوليد بلادَ الروم، ففتحا حصونًا، وقتَلا خلقًا من الروم وغنما وأسَرا خلقًا كثيرًا. وفيها أسَرتِ الرومُ خالدَ بنَ كَيْسانَ صاحبَ البحرِ، وذهَبوا به إلى ملكهم فأهداه ملكُ الرومِ إلى الوليدِ بنِ عبدِ الملك. وفيها عزَل الوليدُ أخاه عبدَ الله بنَ عبد الملك عن إمْرة مصرَ وولّى عليها قُرَّةَ بنَ شَريك. وفيها قتَل محمدُ بنُ القاسم الثقفيُّ ملكَ السِّند داهرَ بنَ صَصَّةَ، وكان محمدُ بنُ القاسم هذا على جيشٍ من جهة الحجاج. وفيها فتَح قتيبةُ بنُ مسلم مدينةَ بُخارا، وهزَم جمعَ العدوِّ من الترك بها، وجرَتْ بينَهم فصولٌ يطولُ ذِكرُها، وقد تقصَّاها ابنُ جرير. وفيها طلَب طَرْخونُ ملكُ الصُّغْد بعدَ فتحِ بُخارا من قتيبةَ أن يصالحَه على مالٍ يبذُلُه في كلِّ عامٍ فأجابه قتيبة إلى ذلك وأخَذ منه رَهْنًا عليه.

وفيها استنجَد وَرْدانُ خُذَاه بالتُّرك فأتَوْه من جميعِ النَّواحي - وهو صاحبُ بُخارا بعدَ أخْذ قتيبةَ لها - وخرَج وَرْدانُخُذَاه وحمَل على المسلمينَ فحطَّموهم، ثم عاد المسلمونَ عليهم فقتَلُوا منهم مقتلةً عظيمةً، وصالَح قتيبةُ ملكَ الصُّغدِ، وفتَح بُخارا وحصونَها، ورجَع قتيبةُ بالجند إلى بلاده فأذن له الحجاجُ، فلمّا سار إلى بلاده بلَغه أنَّ صاحبَ الصُّغد قال لملوك الترك: إن العربَ بمنزلة اللصوص فإن أُعطُوا شيئًا ذهَبوا، وإنَّ قتيبةَ هكذا يقصدُ الملوكَ، فإن أعطَوه شيئًا أخَذَه ورجَع عنهم، وإنَّ قتيبةَ ليس بملكٍ ولا يَطلُبُ مُلْكًا. فبلَغ قُتيبةَ قولُه فرجَع إليهم، فكاتَب نيزكُ ملكُ الترك ملوكَ ما وراءَ النهر؛ منهم ملكُ الطالَقان، وكان قد صالحَ قُتيبةَ فنقَض الصُّلْحَ الذي كان بينَه وبينَ قُتيبَةَ، واستجاشَ عليه بالملوك كلِّها، فأتاه ملوكٌ كثيرٌ كانوا قد عاهَدُوا قتيبةَ على الصُّلح، فنقَضُوا كلُّهم وصاروا يدًا واحدةً على قتيبةَ، واتَّعَدُوا إلى الربيع، وتعاهَدُوا وتعاقَدُوا على أن يجتَمعوا فيُقاتلُوا كلُّهم فاجتمعوا في فصلِ الربيع من السنة الآتية، فقتَل منهم قُتيبةُ في ذلك الحين مَقتَلَةً عظيمةً جدًّا لم يُسمَعْ بمثلِها، وصلَب منهم سِماطَيْن في مسافة أربعة فراسخَ في نِظامٍ واحدٍ، وذلك مما كسَر جموعَهم كلَّهم.

وفي هذه السنة هرَب يزيدُ بنُ المُهَلَّب وأخواه المفضَّلُ وعبدُ الملك من سجنِ الحجّاج، فلحقُوا بسليمانَ بنِ عبد الملك فأمَّنَهم من الحجاج، وذلك أنَّ الحجاجَ كان قد احْتاطَ عليهم قبلَ ذلك وعاقَبهم عقوبةً عظيمةً، وأخَذ منهم ستةَ آلافِ ألفٍ، وكان أصبرَهم على العقوبة يزيدُ بنُ المُهَلَّب، كان لا يُسمَعُ له صوتٌ ولو فعَلوا به ما فعَلوا، فكان ذلك يغيظُ الحجاجَ حتى قال قائلٌ للحجاج: إنَّ في ساقه أثرَ نُشَّابةٍ بقِي نصلُها فيه، وإنَّه متى أصابَها شيءٌ لا يملكُ نفسَه أن يصرُخَ فأمَر الحجّاجُ أن يُنالَ ذلك الموضعُ منه بعذابٍ، فصاح فلمَّا سمعتْ أختُه هندُ بنتُ المُهَلَّب - وكانت تحتَ الحجّاج - صوتَه بكَتْ وناحَتْ عليه؛ فطَلَّقها الحجّاجُ ثم أودَعهم السجنَ. ثم خرَج الحجّاجُ إلى بعضِ المَحالِّ ليُنْفِذَ جيشًا إلى الأكرادِ واستصحَبهم معه، فخندَق حولَهم، ووكَّل بهم الحرَسَ. فلمَّا كان في بعضِ الليالي أمَر

يزيدُ بنُ المُهلَّب بطعام كثير فصُنع للحرَس، فاشتَغلوا به، ثم تنكَّر في هيئة بعضِ الطَّبَّاخينَ وجعَل لحيتَه لحيةً بيضاءَ ثم خَرج فرآه بعضُ الحرَس، فقال: ما رأيتُ مشيةً أشبهَ بمشية يزيدَ بن المُهلَّب من هذا. ثم اتَّبعَه يتحقَّقُه، فلمَّا رأىٰ بياضَ لحيته انصرَف عنه، ثم لحِقَه أخواه فركبُوا السُّفُنَ وسارُوا نحوَ الشَّام، فلمَّا بلَغ الحجّاجَ هربُهم انزعَج لذلك، وذهَب وَهْمُه أنَّهم سارُوا إلى خُراسانَ، فكتَب إلى قتيبةَ بنِ مسلم يُحذِّرُه قُدومَهم، ويأمُرُه بالاستعدادِ لهم، وأن يرصُدَهم في كلِّ مكانٍ، ويكتُبَ إلى أمراء الثغورِ والكُورِ بتحصيلِهم. وكتَب إلى أميرِ المؤمنينَ الوليدِ بنِ عبدِ الملك يُخبرُه بهرَبِهم، وأنَّه لا يراهُم هرَبوا إلاَّ إلى خُراسانَ، وخاف الحجّاجُ مِن يزيدَ بن المهلَّب أن يصنَعَ كما صنَع عبدُ الرحمنِ بنُ محمد بن الأشعثِ من الخروج عليه وجَمْع الناسِ له.

وأمَّا يزيدُ بنُ المُهلَّب فإنَّه سلَك على البطائح وجاءتْه خيولٌ كان قد أعَدَّها له أخوه مروانُ بنُ المُهلَّب لهذا اليوم، فركبها وسلَك به دليلٌ من بني كلبٍ يُقالُ له: عبدُ الجَبَّار بنُ يزيدَ. فأخَذَ بهم على السَّمَاوَة. وجاء الخبرُ إلى الحجاج بعدَ يومين أنَّ يزيدَ قد سلَك نحوَ الشَّام، فكتَب إلى الوليدِ يُعلمُه بذلك وسار يزيدُ حتى نزَل الأُرْدُنَّ على وُهَيبِ بنِ عبدِ الرحمنِ الأزْديِّ - وكان كريمًا على سليمانَ بنِ عبد الملك - فسار وُهيبٌ إلى سليمانَ بنِ عبدِ الملك فقال له: إنَّ يزيدَ بنَ المُهلَّب وأخويه في منزلي، قد جاءُوا مُتعوِّذينَ بك من الحجّاج. قال: فاذهَبْ فأْتني بهم فهم آمنونَ ما دُمتُ حيًّا. فجاءهم فذهَب بهم حتى أدخلَهم على سليمانَ بنِ عبدِ الملك، فأمَّنهم سليمانُ، وكتَب إلى أخيه الوليدِ: إنَّ آلَ المُهلَّب قد أمَّنتُهم، وإنَّما بقِي للحجّاج عندَهم ثلاثةُ آلافِ ألفٍ، وهي عندي. فكتَب إليه الوليدُ: لا والله لا أُؤمِّنُه حتى تبعَثَ به إليَّ. فكتَب إليه: لا والله لا أبعثُه حتى أجيءَ معه، فأنشُدُكَ اللهَ يا أميرَ المؤمنينَ أن تفضَحَني أو تُخفِرَني في جواري. فكتَب إليه: لا والله لا تَجيءُ معه وابعَثْ به إليَّ في وَثاقٍ. فقال يزيدُ: ابعَثْني إليه، فما أُحبُّ أن أُوقعَ بينَكَ وبينَه عداوةً وحربًا، فابعَثْني إليه وابْعَثْ معي ابنَكَ، واكتُبْ إليه بألْطَفِ عبارةٍ تَقْدرُ عليها. فبعَثه وبعَث معه ابنَه أيوبَ، وقال لابنه: إذا دخَلْتَ في الدِّهليزِ فادخُلْ مع يزيدَ في السِّلسلةِ، وادخُلاَ عليه كذلك.

فلمَّا رأى الوليدُ ابنَ أخيه في السِّلسلة، قال: والله لقد بلَغْنا من سليمانَ. ودفَع أيوبُ كتابَ أبيه إلى عمِّه وقال: يا أميرَ المؤمنين، نفسي فِداؤُكَ، لا تُخفِرْ ذِمَّةَ أبي وأنتَ أحَقُّ مَن منَعها، ولا تقطَعْ منَّا رجاءَ مَن رَجَا السَّلامةَ في جوارنا لمكانِنا منكَ، ولا تُذِلَّ مَن رَجَا العزَّ في الانقطاعِ إلينا لعِزِّنا بكَ. ثم قرَأ الوليدُ كتابَ سليمانَ بنِ عبدِ الملك فإذا فيه: أما بعدُ يا أميرَ المؤمنينَ، فوالله إن كُنتُ لأَظُنُّ لو استجَار بي عدُوٌّ قد نابذَكَ وجاهدَكَ فأنزلتُه وأجرْتُه، أنَّك لا تُذِلُّ جاري ولا تُخفِرُ جواري، بل لم أُجِرْ إلاَّ سامعًا مُطيعًا، حَسَنَ البلاءِ والأثرِ في الإسلام هو وأبوه وأهلُ بيتِه، وقد بعَثْتُ به إليكَ فإن كنتَ إنَّما تُعِدُّ قَطيعَتي والإخفارَ بذِمَّتي والإبلاغَ في مَساءَتي، فقد قدَرْتَ إن أنتَ فعلتَ، وأنا

أُعيذُكَ بالله من احتراد قطيعتي وانتهاك حُرْمَتي، وترك برِّي وصِلَتي، فوالله يا أميرَ المؤمنينَ ما تَدْري ما بقائي وبقاؤُكَ، ولا متى يُفرِّقُ الموتُ بيني وبينَك، فإن استطاع أميرُ المؤمنينَ - أدام اللهُ سرورَه - أن لا يأتي أجلُ الوفاةِ علينا إلاَّ وهو لي واصلٌ، ولحَقِّي مُؤدٍّ، وعن مَساءتي نازعٌ، فَلْيفعَلْ، ووالله يا أميرَ المؤمنينَ ما أصبحتُ بشيءٍ من أمرِ الدنيا بعدَ تَقْوَى الله فيها بأَسَرَّ منِّي برضاكَ وسرورِكَ، وإنَّ رضاكَ وسرورَكَ مِمَّا ألتمسُ به رضوانَ اللهِ عزَّ وجلَّ، وإن كنتَ يا أميرَ المؤمنينَ يومًا من الدَّهرِ تريدُ مَسَرَّتي وصِلَتي وكرامَتي وإعظامَ حقِّي فتجاوَزْ لي عن يزيدَ، وكلُّ ما طلبتَه به فهو عليَّ.

فلمَّا قرأ الوليدُ كتابَه قال: لقد أشقَقْنا على سليمانَ! ثم دعا ابنَ أخيه فأدناه منه، وتكلَّم يزيدُ بنُ المُهَلَّب فحمد اللهَ وأثنَى عليه وصلَّى على رسوله، ثم قال: يا أميرَ المؤمنين، إن بلاءكم عندَنا أحسنُ البلاءِ، فمَن يَنْسَ ذلك فلَسنا ناسيه، ومَن يَكْفُرْه فلَسْنا بكافريه، وقد كان من بلائنا أهلَ البيت في طاعتِكم والطَّعنِ في أعينِ أعدائكم في المواطنِ العِظامِ في المشارقِ والمغاربِ ما إنَّ المِنَّةَ علينا فيه عظيمةٌ. فقال له: اجلِسْ. فجلَس فأمَّنه وكفَّ عنه وردَّه إلى سليمانَ، فكان عندَه يُعلِّمُه الهيئةَ، ويصفُ له ألوانَ الأطعمةِ الطيبة، وكان حظيًّا عندَه، لا يُهدَى إليه بهديَّةٍ إلاَّ بعَث إليه بنصفِها. وتقرَّب يزيدُ بنُ المُهَلَّبِ إلى سليمانَ بأنواعِ الهدايا والتُّحفِ والتقادم.

وكتَب الوليدُ إلى الحَجاجِ: إنِّي لم أصِلْ إلى يزيدَ بنِ المُهَلَّب، وأهلُ بيتِه مع أخي سليمانَ، فاكفُفْ عنهم والْهَ عن الكتابِ إليَّ فيهم. فكَفَّ الحجاجُ عن آلِ المُهَلَّبِ وترَك ما كان يطالبُهم به من الأموال، حتى ترك لأبي عُيينةَ بنِ المُهَلَّبِ ألفَ ألفِ درهمٍ، ولم يزَلْ يزيدُ بنُ المُهَلَّبِ عندَ سليمانَ بنِ عبد الملك حتى هلَك الحجاجُ في سنةِ خمسٍ وتسعينَ - كما سيأتي بيانُه - ثم ولِي يزيدُ بلادَ العراقِ بعدَ الحَجاجِ، كما أخبرَه الرَّاهبُ.

وفيها تُوفِّي من الأعيان:

تياذوقُ الطبيبُ الحاذقُ، له مصنَّفاتٌ في فنِّه، وكان حظيًّا عندَ الحجاجَ. مات في حدودِ سنةِ تسعين بواسط.

وفيها تُوفِّي عبدُ الرحمنِ بنُ المِسْوَرِ بن مَخْرَمةَ، وأبو العالية الرِّياحيُّ، وسنانُ بنُ سلمةَ بن المحبِّق، أحدُ الشجعانِ المذكورين، أسلَم يومَ الفتحِ، وتولَّى غزوَ الهِنْدِ، وطال عمرُه.

وتوفِّي في هذه السنة محمدُ بنُ يوسفَ الثقفيُّ، أخو الحجاج، وكان أميرًا على اليمنِ، وكان يلعَنُ عليًّا على المنابرِ، قيلَ: إنَّه أمَر حُجْرًا المَدَريَّ أن يلعَنَ عليًّا. فقال: بل لعَن اللهُ مَن يلعَنُ عليًّا، ولعنةُ اللهِ على مَن لعَنه اللهُ. وقيل: إنَّه ورَّى في لعنه. فاللهُ أعلمُ.

خالدُ بنُ يزيدَ بنِ معاويةَ أبو هاشمٍ الأمويُّ الدمشقيُّ، وكانت دارُه بدمشقَ، تلي دارَ الحجارة، وكان عالمًا شاعرًا، ويُنسَبُ إليه شيءٌ مِنْ علمِ الكيمياءِ، وكان يعرفُ شيئًا من علوم الطبيعة. روَى عن

أبيه ودحيةَ الكلبيِّ. وعنه الزهريُّ، وغيرُه.

قال الزهري: كان خالدٌ يصومُ الأعيادَ كلَّها؛ الجمُعةَ والسبتَ والأحدَ؛ يعني يومَ الجُمُعةِ وهو عيدُ المسلمين، ويومَ السبتِ وهو عيدُ اليهودِ، والأحدِ للنصارَىٰ. وقال أبو زُرعةَ الدمشقيُّ: كان هو وأخوه معاويةُ مِن خيارِ القومِ. وقد ذُكر للخلافة بعدَ أخيه معاويةَ بنِ يزيدَ، وكان وليَّ العهدِ مِن بعدِ مروانَ فلم يلتئمْ له الأمرُ، وكان مروانُ زوجَ أمِّه. ومن كلامه: أقربُ شيءٍ الأجلُ، وأبعدُ شيءٍ الأملُ، وأرجَىٰ شيءٍ العملُ.

وقد امتدَحه بعضُ الشعراء، فقال:

سألتُ الندَى والجودَ حُرَّان أنتما ... فقالا جميعًا إننا لعبيدُ

فقلتُ ومَن مولاكُما فتطاولا ... عليَّ وقالا خالدُ بنُ يزيدِ

قال: فأمَر له بمائة ألفٍ.

وكانت وفاتُه في هذا العامِ، وقيل: في سنةِ أربعٍ وثمانين. وقد ذُكِر هناك، والصحيحُ الأوَّلُ.

عبدُ الله بنُ الزَّبِير بن سُلَيم الأسديُّ الشاعر أبو كَثِير، ويقالُ: أبو سعدٍ. وهو مشهورٌ، وفَد على عبدِ الله بنِ الزُّبَيْرِ، فامتدَحه فلم يُعطِه شيئًا، فقال: لعَنَ اللهُ ناقةً حمَلَتني إليكَ. فقال ابنُ الزُّبير: إنْ وصاحِبَها.

يقال: إنه مات في زمنِ الحجاجِ.

* * *

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين

فيها غزا الصائفةَ مَسلَمةُ بنُ عبدِ الملكِ وابنُ أخيه عبدُ العزيزِ بنُ الوليد.

وفيها غزا مسلمةُ بلاد الترك حتى بلَغ البابَ مِن ناحيةِ أَذْرَبِيجانَ، ففتَح مدائنَ، وحصونًا كثيرةً أيضًا، وكان الوليدُ قد عزَل عمَّه محمدَ بنَ مروانَ عن الجزيرةِ وأَذْرَبِيجانَ، وولأَّهما أخاه مسلمةَ بنَ عبدِ الملك.

وفيها غزا موسى بنُ نُصَيرٍ بلادَ المغربِ، ففتَح مُدُنًا كثيرةً، ودخَل في تلك البلادِ، وولَج فيها حتى دخَل أراضيَ غابرةً قاصيةً، فيها آثارُ قُصورٍ وبُيوتٍ ليس بها ساكنٌ، ووجَد هناك من آثارِ نعمةِ أهلِ تلك البلادِ ما يلُوحُ على سماتِها أنَّ أهلَها كانوا أصحابَ أموالٍ ونعمةٍ دارَّةٍ سابغةٍ، فبادوا جميعًا فلا مَخبرَ بها.

وفيها مهَّد قتيبةُ بنُ مُسلمٍ بلادَ الترك، الذين كانوا قد نقَضوا ما كانوا عاهَدوه عليه من المصالحة، وذلك بعد قتالٍ شديدٍ وحربٍ يَشيبُ لها الوليدُ، وذلك أنَّ ملوكَهم كانوا قد اتَّعدوا في العامِ الماضي في أوانِ الربيعِ أن يجتمعوا ويقاتلوا قتيبةَ، وأن لا يُولُّوا عن القتال حتى يُخرِجوا العربَ مِن بلادهم. فاجتَمعوا اجتماعًا هائلًا لم يجتمِعوا مثلَه في موقفٍ، فكسَرهم قتيبةُ، وقتَل منهم أممًا كثيرةً، وردَّ الأمورَ إلى ما كانت عليه، حتى ذُكر أنه صلَب منهم في بعضِ المواضعِ مِن جملةِ مَن أخَذ مِن الأسارى سِماطَين طولُهما أربعةُ فراسخَ مِن ههنا وههنا، واتَّبع نيزكَ خان ملكَ الترك الأعظمَ مِن إقليمٍ إلى إقليمٍ، ومِن كُورةٍ إلى كُورةٍ، ومن رُستاقٍ إلى رستاقٍ، ولم يزَلْ ذلك دأبَه ودأبَه حتى حصَره في قلعةٍ هنالك شهرين مُتَتابِعَين، حتى نفِد ما عندَ نيزكَ خان مِن الأطعمة، وأشرَف هو ومَن معه على الهلاك، فبعثَ إليه قتيبةُ مَن جاء به مُستأمَنًا مذمومًا مخذولًا، فسجَنه عندَه، ثم كتَب إلى الحجاجِ في أمرِه، فجاء الكتابُ بعدَ أربعينَ يومًا بقتله، فجمَع قتيبةُ الأمراءَ، فاستشارهم فيه فاختلفَوا عليه؛ فقائلٌ يقولُ: اقتُلْه. وقائلٌ يقولُ: لا تقتُله. فقال له بعض الأمراء: إنك أعطيتَ اللهَ عهدًا أنَّك إنْ ظفِرتَ به لتقتُلَنَّه، وقد أمكَنك اللهُ منه. فقال قتيبةُ: واللهِ لو لم يبقَ مِن عُمْري إلَّا ما يسَعُ ثلاثَ كلماتٍ لقتَلْتُه. ثم قال: اقتُلوه اقتُلوه اقتُلوه. فقُتل هو وسبعُمائةٍ من أصحابِه في غداةٍ واحدة، وأخَذ قتيبةُ من أموالِهم وخيولِهم وثيابِهم وأبنائِهم ونسائِهم شيئًا كثيرًا، وفتَح في هذا العامِ مُدُنًا كثيرةً، وقرَّر ممالكَ كثيرةً.

قال الواقديُّ، وغيرُه: وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ أميرُ المؤمنين الوليدُ بنُ عبدِ الملك، فلمَّا قرُب مِن المدينةِ أمَر عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ نائبُ المدينة أشرافَ المدينة فتلقَّوه، فرحَّب بهم، وأحسَن إليهم، ودخَل المدينةَ النبويةَ فأُخلِي له المسجدُ النبويُّ، فلم يبقَ به أحدٌ سوى سعيدِ بنِ المسيَّب، لم يتجاسرْ أحدٌ أن يُخرِجَه، وإنما عليه ثيابٌ لا تُساوِي خمسةَ دراهمَ، فقالوا له: تنحَّ عن المسجدِ أيُّها الشيخُ،

فإنَّ أميرَ المؤمنين قادمٌ. فقال: والله لا أخرُجُ منه. فدخَل الوليدُ المسجدَ فجعَل يدورُ فيه؛ يصلِّي ههنا وههنا، ويدعو اللهَ عزَّ وجل. قال عمرُ بنُ عبدِ العزيز: وجعلتُ أعدلُ به عن موضعِ سعيدٍ خشيةَ أن يراه، فحانت منه التفاتةٌ فقال: من هذا، أهو سعيدُ بنُ المسيَّب؟ فقلتُ: نعمْ يا أميرَ المؤمنين، ولو علم بمكانك لقام إليك وسلَّم عليك. فقال الوليدُ: قد علمتُ حاله، وجعَل يدورُ في المسجدِ ويتفرَّجُ في عمارته ويسألُني عن سعيدِ بنِ المسيَّب، فقلتُ: إنَّه وإنَّه، وقصدتُ موافقتَه في ذلك»، فشرَع الوليدُ يُثني عليه بالعلمِ والدين، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، إنَّه ضعيفُ البصرِ - وإنما قلتُ ذلك لأعتذرَ له - فقال: نحنُ أحقُّ بالسعيِ إليه. فجاء فوقَف عليه فسلَّم عليه، فلم يقُمْ له سعيدٌ، ثم قال الوليدُ: كيفَ الشيخُ؟ فقال: بخيرٍ والحمدُ لله، كيفَ أميرُ المؤمنين؟ فقال الوليدُ: بخيرٍ والحمدُ للهِ وحدَه. ثم انصرَف، وهو يقولُ لعمرَ بنِ عبدِ العزيز: هذا بقيةُ الناس. فقال: أجلْ يا أميرَ المؤمنين.

قالوا: ثم خطَب الوليدُ على منبرِ رسول الله ﷺ، فجلَس في الخطبةِ الأولى، وانتصَب قائمًا في الثانية، وقال: هكذا خطَب عثمانُ بنُ عفَّانَ. ثم انصرَف فصرَف على الناسِ من أهلِ المدينة ذهبًا كثيرًا، وفضةً كثيرةً، ثم كسا المسجدَ النبويَّ كُسوةً من كُسوةِ الكعبةِ التي معَه، وهي من ديباجٍ غليظٍ.

وتُوفِّي في هذه السنة:

السائبُ بنُ يزيدَ بنِ سعيد بن ثُمامةَ، وقد حجَّ به أبوه مع رسولِ الله ﷺ، وكان عمْرُ السائبِ سبعَ سنين. رَواه البخاريُّ. فلهذا قال الواقديُّ: إنه ولد سنةَ ثلاثٍ من الهجرة، وتُوفِّي في سنةِ إحدى وتسعين. وقال غيرُه: سنةَ ستٍّ. وقيل: ثمانٍ وثمانين. واللهُ أعلمُ.

سهلُ بنُ سعد الساعديُّ، صحابيٌّ مدنيٌّ جليلٌ، تُوفِّي رسولُ الله ﷺ وله من العمرِ خمسَ عشْرَةَ سنةً، وكان ممَّن ختَمه الحجاجُ في عنقه في سنة أربعٍ وسبعين هو وأنسُ بنُ مالكٍ وجابرُ بنُ عبدِ اللهِ في يدِه؛ ليُذلَّهم كيلا يسمَعَ الناسُ من رأيِهم، قال الواقديُّ: تُوفِّي سنةَ إحدى وتسعين عن مائةِ سنةٍ، وهو آخرُ مَن مات في المدينةِ من الصحابة. قال محمدُ بنُ سعدٍ: ليس في هذا خلافٌ. وقد قال البخاريُّ وغيرُه: إنَّه تُوفِّي سنةَ ثمانٍ وثمانين. واللهُ أعلمُ.

* * *

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين

فيها غزا مسلمةُ، وابنُ أخيه عمرُ بنُ الوليدُ بلادَ الروم، ففتَحا حصونًا كثيرةً، وغنما شيئًا كثيرًا، وهربَت منهم الرومُ إلى أقصى بلادهم.

وفيها غزا طارقُ بنُ زيادٍ مولى موسى بنِ نُصيرٍ بلادَ الأندلسِ في اثني عشرَ ألفًا، فخرَج إليه ملكُها أذَرينوقُ في جحافله، وعليه تاجُه ومعه سَريرُ مُلكه، فقاتله طارقٌ، فهزَمه وغنِم ما في معسكرِه، فكان من جملةِ ذلك السريرُ، وتملَّك بلادَ الأندلسِ بكمالها.

قال الذهبيُّ: كان طارقُ بنُ زيادٍ أميرَ طَنجةَ، وهي أقصى بلادِ المغربِ، وكان نائبًا لمولاه موسى بنِ نُصيرٍ، فكتَب إليه صاحبُ الجزيرةِ الخضراءِ يستنجدُ به على عدوِّه، فدخَل طارقٌ إلى جزيرةِ الأندلسِ من زُقاقِ سَبْتةَ، وانتهَز الفرصةَ لكونِ الفرنجِ قد اقتَتَلوا فيما بينَهم، وأمعَن طارقٌ في بلادِ الأندلسِ فافتتَح قرطبةَ، وقتَل ملكَها أذَرينوقَ، وكتَب إلى موسى بنِ نُصيرٍ بالفتحِ، فحسَده موسى على الانفرادِ بهذا الفتحِ، وكتَب إلى الوليدِ يبشِّرُه بالفتحِ وينسبُه إلى نفسه، وكتَب إلى طارقٍ يتوعَّدُه؛ لكونِه دخَل بغيرِ أمرِه، ويأمُرُه أن لا يتجاوزَ مكانَه حتى يلحَقَ به، ثم سار إليه مسرعًا بجيوشه، فدخَل الأندلسَ، ومعه حبيبُ بنُ أبي عبيدةَ الفهريُّ، فأقام سنين يفتَحُ في بلادِ الأندلسِ، ويأخُذُ المُدُنَ والأموالَ، ويقتُلُ الرجالَ، ويأسِرُ النساءَ والأطفالَ، فغنِم شيئًا لا يُحَدُّ، ولا يُوصَفُ ولا يُعَدُّ من الجواهرِ واليَواقيتِ والذهبِ والفضةِ، ومن آنيةِ الذهبِ والفضةِ والأثاثِ، والخُيولِ والبِغالِ، وغيرِ ذلك شيئًا كثيرًا، وفتَح من الأقاليمِ الكبارِ والمدنِ شيئًا كثيرًا. وكان مما فتَح مسلمةُ، وابنُ أخيه عمرُ بنُ الوليدِ من حصونِ بلادِ الرومِ حصنُ سُوسَنَةَ، وبلغا إلى خليجِ القسطَنْطينية.

وفيها فتَح قتيبةُ بنُ مسلمٍ شُومانَ، وكِسَّ، ونَسَفَ، وامتَنع عليه أهلُ فِريابَ فأحرَقَها، وجهَّز أخاه عبدَ الرحمنِ إلى الصُّغْدِ إلى طَرْخونَ خان ملك تلك البلادِ، فصالحَه عبدُ الرحمنِ وأعطاه طَرْخونُ خان أموالًا كثيرةً، وقدِم على أخيه وهو ببُخارَىٰ فرجَع إلى مَرْوَ، ولما صالَح طَرْخونُ عبدَ الرحمنِ ورحَل عنه، اجتمعتِ الصُّغْدُ وقالوا لطرْخونَ: إنَّك قد بُؤْتَ بالذُّلِّ وأدَّيتَ الجزيةَ، وأنت شيخٌ كبيرٌ فلا حاجةَ لنا فيك. ثم عزَلوه وولَّوا عليهم غَوْزَكَ خان أخا طَرْخونَ خان، ثم إنَّهم عصَوا ونقَضوا العهدَ، وكان من أمرِهم ما سيأتي.

وفيها غزا قتيبةُ سِجستانَ يريدُ رُتْبيلَ ملكَ التركِ الأعظمَ، فلما انتهى إلى أول مملكةِ رُتْبيلَ تَلَقَّتْه رسلُه يريدون منه الصلحَ على أموالٍ عظيمةٍ؛ خيولٍ ورقيقٍ ونساءٍ من بناتِ الملوكِ، يُحمَلُ ذلك إليه، فصالَحه.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنةِ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ نائبُ المدينةِ، رحِمه اللهُ.

وتوفِّي فيها من الأعيان:

مالكُ بنُ أوسِ بن الحَدَثان النصريُّ أبو سعيد المدنيُّ، مختلَفٌ في صحبته. وقال بعضُهم: ركب الخيلَ في الجاهلية ورأى أبا بكر. وقال محمدُ بنُ سعدٍ: رأى رسولَ الله ﷺ ولم يحفَظْ منه شيئًا. وأنكَر ذلك ابنُ معينٍ والبخاريُّ وأبو حاتم، وقالوا: لا تصحُّ له صحبةٌ. واللهُ أعلمُ. مات في هذه السنة، وقيل في التي قبْلَها. فاللهُ أعلمُ.

طُوَيسٌ المغنِّي، اسمُه عيسىٰ بنُ عبدِ الله، أبو عبدِ المُنعِم المدنيُّ، مولىٰ بني مخزوم، كان بارعًا في صناعته، وكان طويلاً مضْطَربًا أحولَ العين، وكان مشئومًا؛ لأنَّه ولد يومَ توفِّي رسولُ الله ﷺ، وفطم يومَ توفِّي الصدِّيقُ، واحتلمَ يومَ قُتِل عمرُ، وتزوَّج يومَ قُتِل عثمانُ، وولد له يومَ قُتِل الحسينُ بنُ عليٍّ، وقيل: ولد له يومَ قُتِل عليٌّ. حكاه ابنُ خلِّكانَ وغيرُه. وكانت وفاتُه في هذه السنةِ عن ثنتين وثمانين سنةً بالسُّوَيداء، وهي علىٰ مرحلتين من المدينة.

الأخطلُ، كان شاعرًا مُطْبِقًا، فاق أقرانَه في الشعرِ.

* * *

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين

فيها افتتح مسلمةُ بنُ عبدِ الملك حصونًا كثيرةً من بلادِ الروم؛ منها حصنُ الحديد، وغَزالةُ، وماسةُ، وغيرُ ذلك. وفيها غزا العباسُ بنُ الوليدِ ففتح سَبَسْطِيَة. وفيها غزا مروانُ بنُ الوليدِ الرومَ فبلغ خَنجرة.

وفيها كتب خوارزمُ شاه إلى قتيبةَ يدعُوه إلى الصُّلح، وأن يعطيَه من بلاده مدائنَ، وأن يدفعَ إليه أموالاً ورقيقًا كثيرًا على أن يقاتلَ أخاه، ويُسلِّمَه إليه؛ فإنَّه قد أفسَد في الأرضِ وبغَى على الناسِ وعسَفهم، وكان أخوه هذا لا يسمَعُ بشيءٍ حسَنٍ عندَ أحدٍ إلاَّ بعَث إليه فأخذَه منه، سواءٌ كان مالاً، أو نساءً، أو صبيانًا، أو دوابَّ، أو غيرَه. فأقبَل قتيبةُ - نصَره اللهُ - في الجيوشِ، فسلَّم إليه خوارزمُ شاه ما صالَحه عليه، وبعَث قتيبةُ إلى بلادِ أخي خوارزمَ شاه جيشًا، فقتَلوا منهم خلقًا كثيرًا وأسَروا أخاه ومعه أربعةُ آلافِ أسيرٍ، فدفَع أخاه إليه، وأمَر قتيبةُ بالأُسارَى فضُربت أعناقُهم بحضرته؛ قتَلَ ألفًا بينَ يديه، وألفًا عن يمينِه، وألفًا عن شِمالِه، وألفًا من وراءِ ظهرِه؛ ليُرْهِبَ بذلك الأعداءَ، من الأتراكِ وغيرِهم.

فتح سَمَرْقَنْد

وذلك أنَّ قتيبةَ لمّا فرَغ من هذا كلِّه، وعزَم على الرُّجوعِ إلى بلاده، قال له بعضُ الأُمراء: إنَّ أهلَ الصُّغْدِ قد أمنوك عامَك هذا، فإن رأيتَ أن تعدِلَ إليهم وهم لا يشعُرون، فإنَّك متى فعَلتَ ذلك أخذتَها إن كنتَ تريدُها يومًا من الدهرِ. فقال قتيبةُ لذلك الأميرِ: هل قلتَ هذا لأحدٍ؟ قال: لا. قال: فلئن يسمَعْه منك أحدٌ أضربْ عُنُقَك. ثم بعَث قتيبةُ أخاه عبدَ الرحمنِ بنَ مسلمٍ بينَ يدَيه في عشرين ألفًا فسبَقه إلى سَمَرْقَندَ، ولحقه قتيبةُ في بقيةِ الجيشِ، فلمّا سمِعتِ الأتراكُ بقدومِهم إليهم، انتخَبوا من بينهم كلَّ شديدِ السطوةِ من أبناءِ الملوكِ والأُمراءِ، وأمَروهم أن يسيروا إلى قتيبةَ في الليلِ، فيكبِسوا جيشَ المسلمين. وجاءتِ الأخبارُ إلى قتيبةَ بذلك، فجرَّد أخاه صالحًا في ستِّمائةِ فارسٍ من الأبطالِ الذين لا يُطاقونَ، وقال: خُذوا عليهم الطريقَ. فساروا فوقَفوا لهم في أثناءِ الطريقِ وتفرَّقوا ثلاثَ فِرقٍ، فلمّا اجتازوا بهم في الليلِ - وهم لا يَشعرون بأمرِهم - ثارُوا عليهم فاقْتَتلوا هم وإيّاهم، فلم يُفلِتْ من أولئك الأتراكِ إلاَّ النفرُ اليسيرُ، واحتزُّوا رءوسَهم، وغنموا ما كان معهم من الأسلحةِ المُحلاّةِ بالذهبِ، والأمتعةِ، وقال لهم بعضُ أولئك: تعلَمون أنّكم لم تقتُلوا في مَقامِكم هذا إلاَّ ابنَ ملكٍ، أو بطلاً من الأبطالِ المعدودينَ بمائةِ فارسٍ أو بألفِ فارسٍ. فنَفَلهم قتيبةُ جميعَ ما غنموه منهم من ذهَبٍ وسلاحٍ.

واقترب قتيبةُ من المدينة العُظمىٰ التي بالصُّغْد، وهي سَمَرْقَنْدُ، فنصَب عليها المجانيقَ فرماها بها، وهو مع ذلك يقاتلُهم لا يُقلعُ عنهم، وناصَحه مَن معه من أهلِ بُخارىٰ وخوارزمَ، فقَاتَلوا أهلَ الصُّغْدِ قتالاً شديداً، فأرسَل إليه غَوْزَكُ ملكُ الصُّغْد: إنما تُقاتلُني بإخوتي وأهلِ بيتي، فاخرجْ إليَّ العربَ. فغضب عند ذلك قتيبةُ، وميَّز العربَ مِن العجَمِ وأمَرَ العجَمَ باعتزالهم، وقدَّم الشُّجعانَ من العرب، وأعطاهم جيِّدَ السلاحِ، وانتزَعه من أيدي الجُبَناء، وزحَف بالأبطالِ على المدينة، ورماها بالمجانيقِ، فثَلَم فيها ثُلْمَةً، فسدَّها التركُ بغَرائرِ الدُّخنِ، وقام رجلٌ منهم فوقَها فجعَل يَشْتُمُ قتيبةَ، فرماه رجلٌ من المسلمين بسهمٍ فقلَع عَيْنَه حتىٰ خرَجَت مِن قفاهُ، فلم يلبَثْ أن مات - قبَّحه اللهُ - فأعطَىٰ قتيبةُ الذي رماه عشَرةَ آلافٍ. ثم دخَل الليلُ، فلمّا أصبَحوا رماهم بالمجانيقِ فثَلَم أيضاً ثُلْمَةً وصعِد المسلمون فوقَها، وترامَوا هم وأهلُ البلدِ بالنُّشّابِ، فقالت التركُ لقتيبةَ: ارجعْ عنا يومَك هذا، ونحن نصالُحك غداً. فرجَع عنهم وصالَحوه مِن الغدِ على ألفَيْ ألف ومائتَي ألفٍ يحملونَها إليه في كلِّ عامٍ، وعلىٰ أن يُعطوه في هذه السنة ثلاثين ألفَ رأسٍ من الرقيقِ، ليس فيهم صغيرٌ ولا شيخٌ ولا عيبٌ، وفي روايةٍ: مائةَ ألفٍ مِن رقيقٍ، وعلىٰ أن يأخذَ حليةَ الأصنامِ وما في بيوتِ النيرانِ، وعلىٰ أن يُخْلُوا المدينةَ مِن المقاتلةِ حتىٰ يبني فيها قتيبةُ مسجداً، ويُوضَعَ له فيه منبرٌ يخطُبُ عليه، ويتغدَّىٰ ويخرُجُ، فأجابوه إلىٰ ذلك. فلمّا دخلَها قتيبةُ دخَلها ومعه أربعةُ آلافٍ من الأبطالِ، وذلك بعدَ أن بُني المسجدُ ووُضِع فيه المنبرُ، فصلَّىٰ في المسجدِ، وخطَب وتغدَّىٰ، وأُتي بالأصنامِ التي لهم فسُلِبت بين يديْه، وأُلقيتْ بعضُها فوقَ بعضٍ، حتىٰ صارت كالقصْرِ العظيمِ، ثم أمَر بتحريقِها، وقال المجوسُ: إنَّ فيها أصناماً قديمةً مَن أحرَقها هلَك. وجاء الملكُ غَوْزَكُ، فنهىٰ عن ذلك، وقال لقتيبةَ: إنِّي لك ناصحٌ. فقال: أنا أُحرِقُها بيدي. ثم أخَذ شعلةً مِن نارٍ، ثم قام إليها وهو يكبِّرُ اللهَ عزَّ وجلَّ، وألقىٰ فيها النارَ فاحترقَت، فوجَد مِن بقايا ما كان فيها مِن الذهبِ خمسين ألفَ مثقالٍ مِن ذهبٍ.

وكان مِن جملةِ ما أصاب قتيبةُ في السبي جاريةٌ مِن ولدِ يَزْدَجِرْدَ، فأهداها إلى الحجّاجِ، فأهداها إلى الوليدِ فولدَت له يزيدَ بنَ الوليد. ثم استَدْعىٰ قتيبةُ بأهلِ سَمَرْقَنْدَ فقال لهم: إنِّي لا أُريدُ منكم أكثرَ مما صالَحتُكم عليه، ولكن لابدَّ مِن جندٍ يُقيمونَ عندَكم مِن جهتِنا. فانتقَل عنها ملكُها غَوْزَكُ خان، فتلا قتيبةُ: ﴿ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَا۟ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴾. الآيات [النجم: ٥٠، ٥١]. ثم ارتحَل عنها قتيبةُ إلىٰ بلادِ مَرْوَ، واستخلَف علىٰ سمَرْقَنْدَ أخاه عبدَ الله بنَ مسلمٍ، وقال له: لا تدَعَنَّ مشركاً يدخلُ بابَ سَمَرْقَنْدَ إلاَّ مختومَ اليدِ، ثم لا تدعْه بها إلاَّ بمقدارِ ما تجفُّ طينةُ خَتْمِه، فإن جَفَّت وهو بها فاقتُلْه، ومَن رأيتَه منهم ومعه حديدةٌ أو سكِّينةٌ فاقتُلْه بها، وإذا أغلَقتَ البابَ فوجَدتَ بها أحداً منهم فاقتُلْه.

فقال في ذلك كعبٌ الأشقريُّ ويُقالُ: هي لرجلٍ من جُعْفيٍّ:

كلَّ يومٍ يَحْوِي قتيبةُ نَهبًا ... ويَزيدُ الأموالَ مالاً جديدا
باهليٌّ قد أُلبسَ التاجَ حتى ... شابَ منه مَفارقٌ كنَّ سودا
دوَّخ الصُّغْدَ بالكتائبِ حتى ... تركَ الصُّغْدَ بالعراءِ قُعودا
فوليدٌ يبكي لفقدِ أبيهِ ... وأبٌ موجَعٌ يُبكِّي الوليدا
كلَّما حلَّ بلدةً أو أتاها ... تركَتْ خيلُهُ بها أُخدودا

وفي هذه السنةِ عزَل موسى بنُ نُصيرٍ نائبُ بلادِ المغربِ مولاه طارقًا عن الأندلسِ، وكان قد بعَثه إلى مدينةِ طُلَيطلةَ ففتَحها، فوجَد فيها مائدةَ سليمانَ بنِ داودَ، عليهما السلامُ، وفيها من الذهبِ والجواهرِ شيءٌ كثيرٌ جدًا، فبعَثوا بها إلى الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ، فما وصَلت إليه حتى مات - فيما قيل - فقُدِم بها على سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ، على ما سيأتي بيانُه في مَوضِعِه.

وفيها قحَط أهلُ إفريقيَّةَ، وأجدَبوا جَدْبًا شديدًا، فخرَج بهم موسى بنُ نُصيرٍ يستسقي بهم، فما زال يدعو حتى انتصَف النهارُ، فلمّا أراد أن ينزِلَ عن المنبرِ قيل له: ألاَ تدعو لأميرِ المؤمنين؟ قال: ليس هذا الموضعُ موضعَ ذاك. فسقاهم اللهُ مطرًا غزيرًا.

وفيها ضرَب عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ خُبَيبَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ الزبيرِ خمسين سوطًا بأمرِ الوليدِ له بذلك، وصبَّ فوقَ رأسِه قِربةً من ماءٍ باردٍ في يومِ شاتٍ، وأقامه على بابِ المسجدِ يومَه ذلك فمات، رحِمه اللهُ. فكان عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ بعدَ موتِ خُبيبٍ شديدَ الخوفِ لا يأمَنُ، وكان إذا بُشِّر بشيءٍ من أمرِ الآخرةِ يقولُ: وكيف وخُبيبٌ لي بالطريقِ؟ وفي روايةٍ يقولُ: هذا إذا لم يكنْ خُبيبٌ بالطريقِ. ثم يصيحُ صياحَ المرأةِ الثَّكلَى، وكان إذا أُثْني عليه يقولُ: خُبيبٌ، وما خُبيبٌ! إن نجَوتُ منه فأنا بخيرٍ. وما زال على المدينةِ إلى أن ضرَب خُبيبًا فمات؛ فاستقال، وركِبه الحزنُ والخوفُ من حينئذٍ، وأخَذ في الاجتهادِ في العبادةِ والبكاءِ، وكانت تلك هفوةً منه وزَلّةً، ولكن حصَل له بسببها خيرٌ كثيرٌ؛ من عبادةٍ وبكاءٍ وحزنٍ وخوفٍ وإحسانٍ وعدلٍ وصدَقةٍ وبرٍّ وعتقٍ، وغيرِ ذلك.

وفيها افتتَح محمدُ بنُ القاسمِ - وهو ابنُ عمِّ الحجّاجِ بنِ يوسُفَ - مدينةَ الدَّيْبُلِ، وغيرَها من بلادِ الهندِ، وكان قد ولّاه الحجاجُ غزوَ الهندِ، وعمرُه سبعَ عشْرةَ سنةً، فسار في الجيوشِ فلقُوا الملكَ داهرَ - وهو ملكُ الهندِ - في جمعٍ عظيمٍ، ومعه سبعةٌ وعشرون فيلاً مُنتخَبَةٌ، فاقتتَلوا، فهزمهم اللهُ، وهرَب الملكُ داهرُ، فلمّا كان الليلُ أقبلَ الملكُ ومعه خلقٌ كثيرٌ جدًّا، فأحاطُوا بالمسلمين، فاقتتَلوا قتالاً شديدًا، فقُتِل الملكُ داهرُ وغالبُ من معه، وتبع المسلمون مَن انهزَم من الهنودِ فقتَلوه. ثم سار محمدُ بنُ القاسمِ فافتتَح مدينةَ الكَيْرَجِ، وبرَّها، ورجَع بغنائمَ كثيرةٍ وأموالٍ لا تُحصَى كثرةً، من

الجواهرِ والذهبِ وغيرِ ذلك .

وفيها عزَل الوليدُ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ عن إمْرةِ المدينةِ، وكان سببَ ذلك أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ كتَب إلى الوليدِ يُخبِرُه عن أهلِ العراقِ أنَّهم في ضَيمٍ وضِيقٍ مع الحجاجِ من ظلمِه وغَشْمِه، فسمع بذلك الحجاجُ فكتَب إلى الوليد: إن عمرَ ضعيفٌ عن إمرةِ المدينةِ، وإنَّ جماعةً من أهلِ الشرِّ من أهلِ العراقِ قد لجئوا إلى المدينةِ ومكةَ، وهذا وَهْنٌ وضَعْفٌ في الولايةِ، فاجعَلْ على الحرمين مَن يضبِطُ أمرَهما، فولِّ على المدينةِ عثمانَ بنَ حيَّانَ، وعلى مكةَ خالدَ بنَ عبدِالله القَسريَّ. ففعَل ما أمَره به الحجاجُ، فخرَج عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ من المدينةِ في شوالٍ فنزَل السُّوَيداءَ، وقدِم عثمانُ بنُ حيّانَ المدينةَ للَيلتين بقِيتا من شوالٍ من هذه السنةِ. وحجَّ بالناسِ فيها عبدُ العزيزِ بنُ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيانِ:

أنسُ بنُ مالكِ بنِ النضرِ بنِ ضَمْضَمِ بنِ زيدِ بنِ حَرامِ بنِ جُندَبِ بنِ عامرِ بنِ غَنْمِ بنِ عديِّ بنِ النجّارِ، أبو حمزةَ - ويقالُ: أبو ثُمامةَ - الأنصاريُّ النجّاريُّ، خادمُ رسولِ الله ﷺ وصاحبُه، وأمُّه أمُّ حرامٍ مُلَيكةُ بنتُ ملحانَ بنِ خالدِ بنِ زيدِ بنِ حرامٍ، زوجةُ أبي طلحةَ زيدِ بنِ سهلٍ الأنصاريِّ. روَى عن رسولِ الله ﷺ أحاديثَ جمَّةً، وأخبرَ بعلومٍ مهمةٍ، وروَى عن أبي بكرٍ، وعمرَ، وعثمانَ، وابنِ مسعودٍ، وغيرِهم، وحدَّث عنه خلقٌ من التابعينَ. قال أنسٌ: قدِم رسولُ الله ﷺ المدينةَ وأنا ابنُ عشرِ سنينَ، وتوُفِّي وأنا ابنُ عشرينَ سنةً.

وقال محمدُ بنُ عبدِ الله الأنصاريُّ، عن أبيه، عن ثُمامةَ قال: قيل لأنسٍ: أشهِدْتَ بدرًا؟ فقال: وأين أغيبُ عن بدرٍ، لا أمَّ لك؟ قال الأنصاريُّ: شهِدها يخدُمُ رسولَ الله ﷺ. قال شيخُنا الحافظُ أبو الحجاجِ المزِّيُّ: لم يذكُرْ ذلك أحدٌ من أصحابِ المَغازي. قلتُ: الظاهرُ أنَّه إنَّما شهِد ما بعدَ ذلك من المغازي. واللهُ أعلمُ.

وقد ثبَت أنَّ أمَّه أتتْ به - وفي روايةٍ عمُّه زوجُ أمِّه أبو طلحةَ - إلى رسولِ الله ﷺ فقالت: يا رسولَ الله، هذا أنسٌ خادمٌ لَبيبٌ يخدُمُكَ. فوهَبتْه له فقبِله، وسألتْه أن يدعوَ له، فقال: «**اللهم أكثِرْ مالَه وولدَه، وأدخِلْه الجنةَ**»[1]. وثبَت عنه أنَّه قال: كنَّاني رسولُ الله ﷺ ببَقْلةٍ كنتُ أجتَنِيها[2].

وقد استعملَه أبو بكرٍ، ثم عمرُ على عمالةِ البحرَينِ، وشكَراه في ذلك.

وقد ثبَت عنه أنَّه قال: خدَمتُ النبيَّ ﷺ عَشْرَ سنينَ فما ضرَبني، ولا سبَّني، ولا عبَس في

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٣٤).

(٢) إسناده ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٨٣٠) من طريق جابر الجعفي عن أبي نصر عن أنس بن مالك وقال: لا نعرفه إلا من حديث جابر الجعفي عن أبي نهر قلت محمد وجابر ضعيف.

وجهي، ولا قال لي لشيءٍ: «لِمَ لا فعلْتَ كذا؟»(١) .

وقيل: إنَّ النبيَّ ﷺ دعا له فقال: **«اللهمَّ كثِّرْ مالَه وولدَه، وطَوِّلْ حياتَه»**(٢) . وكان أنسٌ رضي اللهُ عنه كثيرَ الصلاةِ والصيامِ والعبادة. وقد انتقَل بعدَ النبيِّ ﷺ فسكَن البصرةَ، وكان له بها أربعُ دُورٍ، وقد ناله أذًى مِن جهةِ الحجاجِ، وذلك في فتنةِ ابنِ الأشعثِ؛ توهَّم الحجاجُ منه أنَّه داخلٌ في الأمرِ، وأنَّه أفتَىٰ فيه، فختَمه الحجاجُ في عنقِه: هذا عتيقُ الحجاجِ.

وقد شكاه أنسٌ - كما قدَّمنا - إلىٰ عبدِ الملكِ، فكتَب إلىٰ الحجاجِ يعنِّفُه، ففزِع الحجاجُ مِن ذلك وصالَح أنسًا. وقد وفَد أنسٌ علىٰ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ في أيامِ ولايتِه، قيل: في سنةِ ثنتين وتسعين، وهو يبني جامعَ دِمَشْقَ.

قال مكحولٌ: رأيتُ أنسًا يمشي في مسجدِ دِمَشْقَ فقمتُ إليه فسألتُه عن الوُضوءِ مِن الجنازةِ فقال: لا وُضوءَ.

وقال الأوزاعيُّ: حدَّثني إسماعيلُ بنُ عبيدِ اللهِ بنِ أبي المُهاجرِ، قال: قدِم أنسٌ علىٰ الوليدِ، فقال له الوليدُ: ماذا سمِعتَ مِن رسولِ اللهِ ﷺ يذكرُ به الساعةَ؟ فقال: سمِعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: **«أنتم والساعةُ كهاتين»**(٣) . ورَواه عبدُ الرزاقِ بنُ عمرَ، عن إسماعيلَ، قال: قدِم أنسٌ علىٰ الوليد في سنةِ ثنتين وتسعين. فذكَره.

وقال الزهريُّ: دخَلتُ علىٰ أنسِ بنِ مالكٍ بدِمشقَ وهو يبكي فقلتُ: ما يُبكيك؟ قال: لا أعرِفُ ممَّا كان عليه رسولُ اللهِ ﷺ وأصحابُه إلَّا هذه الصلاةَ، وقد صنَعتم فيها ما صنَعتم(٤) . وفي روايةٍ: وهذه الصلاةُ قد ضُيِّعت(٥) . يعني ما كان يفعلُه خلفاءُ بني أُميَّةَ مِن تأخيرِ الصلاةِ إلىٰ آخرِ وقتِها الموسَّعِ؛ كانوا يواظِبونَ علىٰ التأخيرِ إلَّا عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ في أيامِ خلافتِه كما سيأتي.

وقال عبدُ بنُ حميد، عن عبدِ الرزاقِ، عن جعفرِ بنِ سليمانَ، عن ثابتٍ، عن أنسٍ قال: جاءت بي أمُّ سُلَيمٍ إلىٰ رسولِ اللهِ ﷺ وأنا غلامٌ، فقالت: يا رسولَ اللهِ، أنيسٌ فادعُ اللهَ له. فقال: **«اللَّهمَّ أكثِرْ مالَه وولدَه وأدخِلْه الجنةَ»**. قال: فقد رأيتُ اثنتين وأنا أرجو الثالثةَ(٦) . وفي روايةٍ: قال أنسٌ:

---

(١) بنحو من هذه الألفاظ أخرجه أحمد (٣/ ١٩٥) ثنا حجاج ثنا سليمان عن ثابت عن أنس وسليمان بن المغيرة وهو ثقة والإسناد صحيح.

(٢) دعاء النبي ﷺ لأنس ثابت صحيح فقد أخرجه مسلم (٦٦٠) من حديث ثابت عنه قال ... وكان آخر ما دعا لي به أن قال: «اللهم! أكثر ماله وولده وبارك له فيه».

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٢٢٣) ثنا أبو المغيرة عن الأوزاعي به وإسناده صحيح رجاله ثقات.

(٤) أخرجه البخاري برقم (٥٢٩) باب في تضييع الصلاة عن وقتها.

(٥) أخرجه البخاري برقم (٥٣٠) من طريق عثمان بن أبي رواد أخي عبد العزيز عن الزهري به.

(٦) صحيح من غير هذا الوجه: أخرجه عبد بن حميد (١٢٥٣) بهذا الإسناد إلا أن في رواية جعفر بن سليمان عن ثابت كلام فالإسناد ضعيف إذًا.

فوالله إنَّ مالي لكثيرٌ حتى إنَّ نَخْلي وكَرْمي ليُثمرُ في السنة مرَّتين[1] ، وإن ولَدي وولَدَ ولَدي ليتعادُّون على نحوِ المائة . وفي رواية : وإنَّ وَلَدي لِصُلْبي مائةٌ وستةٌ . ولهذا الحديث طرقٌ كثيرةٌ وألفاظٌ منتشرةٌ جداً . وفي رواية : قال أنسٌ : وأخبرَتْني ابنتي أُمَينةُ أنَّه دُفِن لِصُلْبي إلى حينَ مَقْدَم الحجاجِ عشرونَ ومائةٌ[2] . وقد تقصَّى ذلك بطرُقه وأسانيده وأوردَ ألفاظَه الحافظُ ابنُ عساكرَ في ترجمة أنسٍ ، وقد أوردْنا طرفًا من ذلك في كتاب «دلائلِ النبوة» في أواخرِ السيرة[3] ولله الحمدُ .

وقال ثابتٌ لأنسٍ : هل مسَّت يدُك كفَّ رسولِ الله ﷺ؟ قال : نعم . قال : فأعطنيها أقبِّلْها .

وقال محمدُ بنُ سعد ، عن أبي نعيم ، عن يونسَ ابنِ أبي إسحاقَ ، عن المِنهالِ بنِ عمرو ، قال : كان أنسٌ صاحبَ نعلِ رسولِ الله ﷺ وإداوتِه[4] . وقال محمدُ بنُ سعدٍ ، عن مسلم بنِ إبراهيمَ ، عن المثنَّى بنِ سعيدٍ الذَّراعِ ، قال : سمعتُ أنسَ بنَ مالكٍ يقولُ : ما من ليلةٍ إلاَّ وأنا أرى فيها حبيبي ﷺ ثم يبكي[5] .

وقال أبو داودَ : ثنا الحكمُ بنُ عطيةَ ، عن ثابتٍ ، عن أنسٍ ، قال : إنِّي لأرجو أنْ ألقَى رسولَ اللهِ ﷺ فأقولَ : يا رسولَ الله خُوَيدِمُك .

وقال الإمامُ أحمدُ : حدَّثنا يونسُ ، ثنا حربُ بنُ ميمونٍ ، عن النضْرِ بنِ أنسٍ ، عن أنسٍ ، قال : سألتُ رسولَ الله ﷺ أن يشْفَعَ لي يومَ القيامة ، قال : **«أنا فاعلٌ»** . قلتُ : فأين أطلُبُك يومَ القيامةِ يا نبيَّ الله؟ قال : **«اطلُبْني أولَ ما تطلُبُني على الصِّراط»** . قلتُ : فإذا لم ألقَكَ؟ قال : **«فأنا عندَ الميزان»** . قلتُ : فإن لم ألقَكَ عندَ الميزان؟ قال : **«فأنا عندَ الحوض ، لا أُخطِئُ هذه الثلاثَ مواطنَ يومَ القيامة»** . ورواه الترمذيُّ وغيرُه من حديثِ حربِ بنِ ميمونٍ أبي الخطابِ الأنصاريِّ به ، وقال : حسنٌ غريبٌ لا نعرفُه إلاَّ من هذا الوجه[6] .

وقال شعبةُ ، عن ثابت ، قال : قال أبو هريرةَ : ما رأيتُ أحداً أشبَهَ صلاةً برسولِ الله ﷺ من ابنِ أمِّ

= لكن دعاء النبي ﷺ لأنس ثابت «اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته» عند البخاري ومسلم وقد سلف قريباً .

(١) بنحوه أخرجه ابن سعد (٧/ ١٤) من طريقين عنه . (٢) أخرج ذلك البخاري (١٩٨٢) ضمن حديث مطولاً .

(٣) تقدم .

(٤) إسناده حسن أخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٣٧٤) بهذا الإسناد .

(٥) صحيح عن أنس رضي الله عنه : أخرجه ابن سعد (٧/ ١٥) بهذا الإسناد .
وفي الإسناد فائدة وهي إثبات سماع المثنى من أنس ومن المعلوم أنه رآه لكن الرؤية لا تستلزم سماعًا فزادت الفائدة هنا والله أعلم .

(٦) إسناده لا بأس به : هو في مسنده (٣/ ١٧٨) .
وقد خرجته وتكلمت عليه في «الفوائد النيرة في تخريج التذكرة» باب ثلاثة مواطن لا يخطئها النبي ﷺ لعظم الأمر فيها وشدته .

سُلَيم، يعني أنسَ بنَ مالك[١] . وقال أنسُ بنُ سيرينَ: كان أحسنَ الناسِ صلاةً في الحَضَرِ والسَّفرِ.
وقال أنسٌ: يا ثابتُ خذ منّي، فإنّي أخذتُ من رسولِ اللهِ ﷺ، وأخذ رسولُ اللهِ ﷺ عن اللهِ عزَّ وجلَّ، ولستَ تجدُ أوثقَ منّي[٢] .

وقال مُعتمرُ بنُ سليمانَ، عن أبيه، سمعتُ أنسًا يقولُ: ما بقيَ أحدٌ صلّى القبلتَينِ غيري[٣] .

وقال محمدُ بنُ سعد: حدَّثنا عفانُ، حدَّثني شيخٌ لنا يكنّى أبا حُبَابٍ سمعتُ الجُرَيْرِيَّ يقولُ: أحرَمَ أنسٌ من ذاتِ عِرْقٍ، فما سمعناه متكلّمًا إلاّ بذكرِ اللهِ عزَّ وجلَّ حتى أَحَلَّ، فقال لي: يا ابنَ أخي، هكذا الإحرامُ[٤] .

وقال صالحُ بنُ إبراهيمَ بنِ عبدِ الرحمنِ بنِ عوف: دخَلَ علينا أنسٌ يومَ الجُمُعةِ، ونحن في بعضِ أبياتِ أزواجِ النبيِّ ﷺ نتحدَّثُ، فقال: مَهْ. فلمّا أُقيمتِ الصلاةُ قال: إنّي أخافُ أن أكونَ قد أبطَلْتُ جُمُعتي بقَولي لكم: مَهْ.

قال ابنُ أبي الدنيا: ثنا بشّارُ بنُ موسى الخَفّافُ، ثنا جعفرُ بنُ سليمانَ، عن ثابتٍ، قال: كنتُ مع أنسٍ فجاء قَهْرَمانُه فقال: يا أبا حمزةَ، عَطِشَتْ أرضُنا. قال: فقام أنسٌ فتوضّأ، وخرَج إلى البَرّيّةِ، فصلّى ركعتينِ، ثم دعا، فرأيتُ السحابَ يلتئمُ ثم مطَرَتْ حتى مَلأت كلَّ شيءٍ، فلمّا سكَنَ المطرُ، بعَثَ أنسٌ بعضَ أهلِه، فقال: انظُرْ أين بلَغتِ السماءُ. فنظَر فلم تَعْدُ أرضَه إلاّ يسيرًا[٥] .

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا معاذُ بنُ معاذٍ، ثنا ابنُ عونٍ، عن محمدٍ، قال: كان أنسٌ إذا حدَّث عن رسولِ اللهِ ﷺ حديثًا ففرَغ منه قال: أو كما قال رسولُ اللهِ ﷺ[٦] .

وقال الأنصاريُّ، عن ابنِ عونٍ، عن محمدٍ، قال: بعَثَ أميرٌ من الأمراءِ إلى أنسٍ شيئًا من الفَيْءِ، فقال: أخُمُسٌ؟ قال: لا. فلم يقبَلْه.

وقال النضرُ بنُ شدّادٍ، عن أبيه: مرِض أنسٌ، فقيل له: ألا ندعو لك الطبيبَ؟ فقال: الطبيبُ أمرَضني.

---

(١) إسناده منقطع: أخرجه ابن سعد في «طبقاته» (٧/ ١٥) عن عفان بن مسلم عن حماد بن سلمة قال ثنا ثابت أن أبا هريرة به وهذه متابعة أخرى لشعبة في روايته عن ثابت إلا أن الإسناد منقطع قال أبو زرعة ـ فيما نقله عنه العلائي في «جامع التحصيل» ص ١٥١ ـ ثابت البناني عن أبي هريرة مرسل.

(٢) لم يثبت هذا: أخرجه الترمذي (٣٨٣١، ٣٨٣٢) من طريقين عن زيد بن الحباب ثنا ميمون أبو عبد الله حدثنا ثابت عن أنس به وميمون هذا مجهول كما قال الحافظ في «التقريب».

(٣) أخرجه البخاري (٤٤٨٩).

(٤) إسناده منقطع.

(٥) أخرجه ابن أبي الدنيا في «مجابو الدعوة» (٤٤) بهذا الإسناد وضعفه من قبل قول ابن المديني في جعفر: أكثر عن ثابت وكتب مراسيل وفيها أحاديث مناكير عن ثابت.

(٦) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٢٠٥) بهذا الإسناد، وهو إسنادٌ صحيح رجاله ثقات.

وقال حنبلُ بنُ إسحاقَ: ثنا أبو عبد الله الرَّقاشيُّ، ثنا جعفرُ بنُ سليمانَ، ثنا عليُّ بنُ يزيدَ، قال: كنتُ في القصرِ مع الحجاجِ وهو يعرضُ الناسَ ليالِيَ ابنِ الأشعثِ، فجاء أنسُ بنُ مالكٍ، فقال الحجاجُ: هِي يا خبيثُ، جوّالٌ في الفتنِ، مرّةً مع عليٍّ، ومرّةً مع ابنِ الزبيرِ، ومرّةً مع ابنِ الأشعثِ، أمَا والذي نفسُ الحجاجِ بيده لأستأصلنَّك كما تُستأصلُ الصَّمْغَةُ، ولأجرِّدنَّك كما يُجرَّدُ الضبُّ. قال: يقولُ أنسٌ: مَن يَعْني الأميرُ؟ قال: إياكَ أعني، أصمَّ اللهُ سمعَك. قال: فاسترجَع أنسٌ، وشُغِل الحجاجُ فخرَج أنسٌ فتبِعناه إلى الرَّحْبةِ، فقال: لولا أني ذكرتُ ولدي وخِفتُه عليهم لكلَّمتُه بكلامٍ في مقامي هذا لا يستحيِيني بعدَه أبدًا[١].

وقد ذكَر أبو بكرِ ابنُ عيّاشٍ أنَّ أنسًا بعَث إلى عبدِ الملك يشكو إليه الحجاجَ ويقولُ في كتابِه: إنّي خدَمتُ رسولَ الله ﷺ عشْرَ سنين، والله لو أن اليهودَ والنصارىٰ أدركوا رجلاً خدَم نبيَّهم لأكرَموه. وذكر له أذيَّةَ الحجاجِ له، فلمّا قرَأ عبدُ الملك كتابَه حصَل عندَه أمرٌ عظيمٌ، فكتَب إليه يقولُ: ويلَك، لقد خَشِيتُ أن لا يَصلُحَ على يديَّ أحدٌ. وذكَرَ له كلامًا فيه غِلظةٌ ويقولُ فيه: إذا جاءك كتابي فقمْ إلى أنسٍ واعتذِر إليه. فجاء كتابُ عبدِ الملك إلى الحجاجِ بالغِلظةِ في ذلك، فهَمَّ أن ينهَضَ إليه، فأشار إسماعيلُ بنُ عبدِ الله بنِ أبي المُهاجرِ، الذي قدِم بالكتابِ، أن لا يذهبَ إلى أنسٍ، وأشارَ على أنسٍ أن يُبادرَ الحجاجَ بالمُصالحةِ - وكان إسماعيلُ صديقَ الحجّاجِ - فجاء أنسٌ فقام إليه الحجاجُ يتلقّاه، وقال: إنما مَثَلي ومَثَلُك كما قيل: إياكِ أعني واسمَعي يا جارةُ. أرَدتُ أن لا يبقَى لأحدٍ عليَّ مَنطقٌ.

وقال ابنُ قتيبةَ: كتَب عبدُ الملك إلى الحجّاجِ لمّا قال لأنسٍ ما قال: ياابنَ المُسْتَفْرِمةِ بحَبِّ الزَّبيبِ، لقد همَمْتُ أن أركُلَك رَكْلَةً تهوِي بها إلى نارِ جهنَّمَ، قاتَلك اللهُ أُخَيفشَ العينَين، أُقَيْبِلَ الرِّجلين، أسودَ الجاعرتين. ومعنىٰ قولِه: المُسْتَفْرِمة بحبِّ الزبيبِ. أي: تُضيِّقُ فرجَها عندَ الجماعِ به. ومعنىٰ: أركُلُك. أي: أرفُسُك برجلي. وسيأتي بَسْطُ ذلك في ترجمةِ الحجاجِ في سنةِ خمسٍ وتسعين.

وقال أحمدُ بنُ صالحٍ العجْليُّ: لم يُبْتَلَ أحدٌ من الصحابةِ إلا رجُلَين؛ مُعَيقيبٌ، كان به الجُذامُ، وأنسُ بنُ مالكٍ، كان به وَضَحٌ. وقال الحميديُّ، عن سفيانَ بنِ عُيينةَ، عن عمرِو بنِ دينارٍ، عن أبي جعفرٍ، قال: رأيتُ أنسًا يأكُلُ فرأيتُه يلقَمُ لُقَمًا عظامًا، ورأيتُ به وَضَحًا شديدًا.

وقال أبو يعْلَى: حدثنا عبيدُ الله بنُ معاذِ بنِ معاذٍ العَنْبَريُّ، ثنا أبي، ثنا عمرانُ، عن أيوبَ، قال: ضعُف أنسٌ عن الصومِ فصنَع جَفْنَةً من ثَريدٍ ودعا ثلاثين مِسكينًا فأطعَمَهم[٢]. وذكَره البخاريُّ

---

(١) في إسناده علي بن زيد لم أعرفه وأبو عبد الله الرقاشي كذلك لكن ستأتي طرق أخرىٰ بنحو من ذلك، مفادها أن الحجاج أغلظ في القول لأنس، ويحتمل صدور ذلك من الحجاج والله أعلم.

(٢) إسناده منقطع: أخرجه أبو يعلى (٤١٩٤) بهذا الإسناد وهو بين أيوب وأنس، قال أحمد بن حنبل وأبو حاتم: رأىٰ أنس بن مالك ولم يسمع منه انظر «جامع التحصيل» ص (١٤٨) وإنما نبهنا على هذا لئلا يضطر برواية أبي يعلى (٤١٩٣) وفيها يقول أيوب: رأيت أنس...
وانظر مزيد من تخريج الحديث في «تغليق التعليق» (١/ ١٧٧، ١٧٨).

تعليقًا. وقال شعبةُ، عن موسى السنْبُلانيِّ، قلتُ لأنسٍ: أنت آخرُ من بقِي من أصحابِ رسولِ الله ﷺ؟ قال: قد بقِي قومٌ من الأعرابِ، فأمّا من أصحابِه فأنا آخرُ مَن بقِي. وقيل له في مرضِه: ألا ندعو لك طبيبًا؟ فقال: الطبيبُ أمرَضني. وجعلَ يقولُ: لقِّنوني لا إلهَ إلا اللهُ. وهو مُحتضرٌ، فلم يزَلْ يقولُها حتى قُبِض. وكان عندَه عُصَيَّةٌ من رسولِ الله ﷺ فأمَر بها فدُفِنت معه.

قال عمرُ بنُ شبَّةَ وغيرُ واحد: مات وله مائةٌ وسبعُ سنين.

وقال الإمامُ أحمدُ في «مسندِه»: حدَّثنا مُعْتَمرُ بنُ سليمانَ، عن حُميدٍ أنَّ أنسًا عُمِّر مائةَ سنةٍ غيرَ سنةٍ. قال الواقديُّ: وهو آخرُ مَن مات من الصحابةِ بالبصرة. وكذا قال عليُّ بنُ المدينيِّ والفلّاسُ وغيرُ واحدٍ. وقد اختلَف المؤرِّخون في سنةِ وفاتِه، فقيل: سنةَ تسعين. وقيل: إحدى وتسعين. وقيل: ثنتَين وتسعين. وقيل: ثلاثٍ وتسعين. وهذا هو المشهورُ وعليه الجمهورُ، واللهُ أعلمُ.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثني أبو نعيمٍ قال: تُوفِّي أنسُ بنُ مالكٍ وجابرُ بنُ زيدٍ في جمُعةٍ واحدةٍ سنةَ ثلاثٍ وتسعين.

وقال قتادةُ: لمّا مات أنسٌ، قال مُورِّقٌ العِجْليُّ: ذهَب اليومَ نصفُ العلمِ. قيل له: وكيف ذاك يا أبا المعتَمِرِ؟ قال: كان الرجلُ من أهلِ الأهواءِ، إذا خالَفونا في الحديثِ عن رسولِ الله ﷺ، قلنا لهم: تعالَوا إلى مَن سمِعه منه.

عمرُ بنُ عبدِ الله بنِ أبي ربيعةَ بنِ المغيرةِ بنِ عبدِ الله بنِ عمرَ بنِ مخزومٍ، المخزوميُّ، الشاعرُ المشهورُ، يقال: إنَّه وُلِد يومَ تُوفِّي عمرُ بنُ الخطابِ، وخُتِن يومَ مقتلِ عثمانَ، وتزوَّج يومَ مقتلِ عليٍّ. فاللهُ أعلمُ. وكان مشهورًا بالتغزُّلِ المليحِ البليغِ، كان يتغزَّلُ في امرأةٍ يقال لها: الثُّريّا بنتُ عليِّ بنِ عبدِ الله الأمويةُ.

وقد تزوَّجها سهلُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ عوفٍ الزهريُّ، فقال في ذلك عمرُ بنُ أبي ربيعة:

أيُّها المُنكِحُ الثُّريّا سُهَيلًا ... عَمْرَكَ اللهَ كيفَ يلتقيانِ
هي شاميَّةٌ إذا ما استقلَّتْ ... وسهيلٌ إذا استقلَّ يمانِي

ومن مُستجادِ شعرِه ما أورَده القاضي ابنُ خَلِّكانَ:

حيِّ طيفًا من الأحبَّةِ زارا ... بعدَ ما صرَّعَ الكَرَى السُّمّارا
طارقًا في المنامِ تحتَ دُجَى اللَّيـ ... ـلِ ضنينًا بأن يزورَ نهارا
قلتُ ما بالُنا جُفينا وكنّا ... قبلَ ذاكَ الأسماعَ والأبصارا
قال إنّا كما عهِدتَ ولكن ... شغَلَ الحَلْيُ أهلَه أن يُعارا

ثم دخلت سنة أربع وتسعين

فيها غزا العباسُ بنُ الوليدِ أرضَ الرومِ، فقيل: إنه فتَح أنطاليَةَ.

وغزا أخوه عبدُ العزيزِ بنُ الوليدِ فبلَغ غَزالةَ، وبلَغ الوليدُ بنُ هشامٍ المُعَيطِيُّ أرضَ برجِ الحَمامِ، وبلغ يزيدُ بنُ أبي كَبْشةَ أرضَ سوريَّةَ.

وفيها كانت الرجفةُ بالشامِ.

وفيها افتتَح مسلمةُ بنُ عبدِ الملكِ سَنْدَرَةَ مِن أرضِ الرومِ.

وفيها فتَح اللهُ على الإسلامِ فتوحاتٍ عظيمةً في دولةِ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ، على يدَيْ أولادِه وأقربائِه وأمرائِه، حتى عاد الجهادُ شبيهًا بأيامِ عمرَ بنِ الخطابِ، رضِي اللهُ عنه.

وفيها افتتَح القاسمُ بنُ محمدٍ الثقفيُّ أرضَ الهندِ، وغنِم أموالًا لا تُعَدُّ، ولا تُوصَفُ، وقد ورَد في غزوِ الهندِ حديثٌ رَواه الحافظُ ابنُ عساكرَ وغيرُه.

وفيها غزا قتيبةُ بنُ مسلمٍ الشاشَ وفَرْغانةَ حتى بلَغ خُجَنْدةَ، وكاشانَ مدينتَيْ فَرْغانةَ، وذلك بعدَ فراغِه مِن الصُّغْدِ، وفتحِ سَمَرْقَندَ، ثم خاضَ تلك البلادَ، يفتَحُ فيها حتى وصَل إلى كابُلَ، فحاصرَها وافتَتَحها، وقد لقِيَه المشركون في جموعٍ هائلةٍ من التركِ فقاتَلهم قتيبةُ عندَ خُجَنْدَةَ مِرارًا.

كلُّ ذلك يكونُ الظفَرُ له.

قال ابنُ جريرٍ: وقد قال سَحْبانُ وائلٍ يذكُرُ قِتالَهم بخُجَنْدةَ:

فَسَلِ الفوارسَ في خُجَنْـ ... ـدَةَ تحت مُرهفةِ العوالي
هلْ كنتُ أجمَعُهُم إذا ... هُزِموا وأُقدِمُ في قِتالي
أمْ كنتُ أضرِبُ هامةَ الـ ... ـعاتي وأصْبِرُ للنِّزالِ
هذا وأنتَ قريعُ قيـ ... ـسٍ كلِّها ضخمُ النَّوالِ
وفضَلتَ قيسًا في النَّدَى ... وأبوكَ في الحِجَجِ الخوالي
تمّت مروءتُكمْ ونا ... غي عزُّكم غُلبَ الجبالِ
ولقدْ تبينَ عدلُ حُكْـ ... ـمِك فيهمُ في كلِّ مالِ

هكذا ذكَر ابنُ جريرٍ أنَّ هذا مِن شعرِ سَحْبانَ وائلٍ في هذه الغزوةِ. وقد ذكَرنا ما أورَده ابنُ الجَوزيِّ في منتظَمِه؛ أنَّ سحبانَ مات في خلافةِ معاويةَ بنِ أبي سُفيانَ بعدَ الخمسين، فاللهُ أعلَمُ.

مقتلُ سعيدِ بن جُبَيْر، رحمه اللهُ

قال ابنُ جرير: وفي هذه السنة قتَل الحجّاجُ بنُ يوسفَ سعيدَ بنَ جُبيرٍ، وكان سببَ ذلك أنَّ الحجّاجَ كان قدْ جعلَه على نفقاتِ الجندِ حينَ بعثَه مع عبدِ الرحمنِ بنِ محمدِ بنِ الأشعثِ إلى قتالِ رُتْبيلَ، فلمّا خلَعه ابنُ الأشعثِ، خلَعه معه سعيدُ بنُ جُبيرٍ، فلمّا ظفر الحجّاجُ بابنِ الأشعثِ وأصحابِه، هرَب سعيدُ بنُ جُبيرٍ إلى أصبهانَ، فكتَب الحجاجُ إلى نائبِها أن يبعثَه إليه، فلمّا سمع بذلك سعيدٌ هرَب منها، ثم كان يعتمرُ في كلِّ سنةٍ ويَحُجُّ، ثم إنه لجأَ إلى مكةَ، فأقام بها إلى أن وَلِيَها خالدُ بنُ عبدِ اللهِ القَسْريُّ، فأشارَ مَن أشار على سعيدٍ بالهرَبِ منها، فقال سعيدٌ: واللهِ لقد استحيَيتُ من اللهِ، مِمَّ أفِرُّ ولا مفرَّ من قَدَرِه؟!

وتولَّى على المدينةِ عثمانُ بنُ حيّانَ بدلَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فجعَل يبعَثُ مَن بالمدينةِ من أصحابِ ابنِ الأشعثِ من أهلِ العراقِ إلى الحجاجِ في القيودِ، فتعلَّم منه خالدُ بنُ عبد الله القَسْريُّ، فعيَّن مَن عندَه من مكةَ؛ سعيدَ بنَ جُبير، وعطاءَ بنَ أبي رباحٍ، ومجاهدَ بنَ جَبر، وعمرَو بنَ دينارٍ، وطلقَ بنَ حَبيبٍ.

ويقالُ: إنَّ الحجاجَ كتَب إلى الوليدِ يُخبِرُه أنَّ بمكةَ أقوامًا من أهلِ الشقاقِ، فبعَث خالدٌ بهؤلاءِ إليه، ثم عفا عن عطاءٍ، وعمرِو بنِ دينارٍ؛ لأنَّهما من أهلِ مكةَ، وبعَث بأولئك الثلاثةِ؛ فأما طلقٌ فمات في الطريقِ قبلَ أنْ يَصِلَ، وأما مجاهدٌ فحُبِس حتى مات الحجاجُ.

وأما سعيدُ بنُ جُبيرٍ فإنه لمّا وقَف بينَ يدَيِ الحجاجِ، قال له: يا سعيدُ، ألَمْ أُشرِكْكَ في أمانتي؟ ألم أستعمِلْكَ؟ ألم أفعَلْ، ألم أفعَلْ؟ كلُّ ذلك يقولُ: نعم. حتى ظنَّ مَن عندَه أنه سيُخلِي سبيلَه، حتى قال له: فما حمَلكَ على أن خرجتَ عليَّ، وخلَعتَ بيعةَ أميرِ المؤمنين؟ فقال سعيدٌ: إن ابنَ الأشعثِ أخَذ مني البيعةَ على ذلك، وعزَم عليَّ. فغضِب عند ذلك الحجّاجُ غضبًا شديدًا، وانتفَخ حتى سقَط أحدُ طرفَيْ ردائِه عن مَنكِبِه، وقال له: ويحَك، ألَمْ أقدَمْ مكةَ، فقتَلتُ ابنَ الزبيرِ، وأخذتُ بيعةَ أهلِها، وأخذتُ بيعتَك لأميرِ المؤمنين عبدِ الملك؟ قال: بلى. قال: ثم قدمتُ الكوفةَ واليًا على العراقِ فجدَّدتُ لأميرِ المؤمنين البيعةَ فأخذتُ بيعتَك له ثانيةً؟ قال: بلى. قال: فتنكُثُ بيعتَين لأميرِ المؤمنين، وتفي بواحدةٍ للحائكِ ابنِ الحائكِ؟ يا حَرَسيُّ، اضرِبْ عنقَه. قال: فضُرِبتْ عنقُه، فندَر رأسُه، عليه لاطئةٌ صغيرةٌ بيضاءُ.

وقال الواقديُّ: لمّا أُوقِف سعيدُ بنُ جُبيرٍ قدّامَ الحجاجِ، قال: يا شَقِيُّ بنَ كُسيرٍ، أمَا قدمتَ الكوفةَ فجعَلتُك إمامًا؟ قال: بلى. قال: أما ولَّيتُك القضاءَ، فضَجَّ أهلُ الكوفةِ: إنه لا يصلُحُ للقضاءِ إلاَّ عربيٌّ. فجعَلتُ أبا بُردةَ، وأمَرتُه أن لا يقطَعَ أمرًا دونَك؟ قال: بلى. قال: أمَا أعطَيتُك مائةَ ألفٍ تُفرِّقُها على أهلِ الحاجةِ؟ قال: بلى. قال: فما أخرَجك عليَّ؟ قال: بيعةٌ كانت في عُنُقي لابنِ

الأشعث. فغضب الحجاجُ، وقال: أمَا كانت بيعةُ أميرِ المؤمنين في عنُقك من قبلُ؟ ثم قال: أكفَرتَ إذ خرَجتَ عليَّ؟ فقال: ما كفَرتُ منذُ آمَنتُ. فقال: اختَرْ أيَّ قِتلةٍ أقتُلُك. فقال: اختَرْ أنت، فإنَّ القصاصَ أمامَك. فقال الحجاجُ: يا حَرَسِيُّ، اضرِبْ عُنُقَه. وذلك في رمضانَ سنةَ خمسٍ وتسعين، بواسطٍ، وقبرُه ظاهرٌ يُزارُ.

ولمّا قتَله خرَج منه دمٌ كثيرٌ حتى راع الحجاجَ، فدعا طبيبًا، فسأله عن ذلك، فقال: إنَّك قتَلتَه ونفسُه معه، وقلبُه حاضرٌ. وقيل: إن الحجاجَ رُئِي في المنام، فقيل له: ما فعَل اللهُ بك؟ فقال: قتلني بكلِّ رجلٍ قتَلتُه قِتْلةً، وقتَلني بسعيدِ بنِ جُبيرٍ اثنتين وسبعين قِتْلةً. واللهُ أعلمُ.

قال ابنُ جرير: فحدِّثتُ عن أبي غسَّانَ مالكِ بنِ إسماعيلَ، قال: سمعتُ خلَفَ بنَ خليفةَ يذكُرُ عن رجلٍ، قال: لمّا قتَل الحجاجُ سعيدَ بنَ جُبيرٍ فندَر رأسُه، هلَّل ثلاثًا؛ مرةً يفصِحُ بها، وفي الثِّنتَين يقولُ مثلَ ذلك، لا يُفصِحُ بها(١).

وذكَر أبو بكرٍ الباهليُّ قال: سمعتُ أنسَ بنَ أبي شيخٍ يقولُ: لما أُتي الحجاجُ بسعيدِ بنِ جبيرٍ، قال: لعَن اللهُ ابنَ النصرانيةِ - يعني خالدًا القسْريَّ، وكان هو الذي أرسَل به من مكةَ - أمَا كنتُ أعرِفُ مكانَه؟! بلى واللهِ، والبيتَ الذي هو فيه بمكةَ. ثم أقبَل عليه، فقال: يا سعيدُ، ما أخرَجك عليَّ؟ فقال: أصلَح اللهُ الأميرَ، أنا امرؤٌ من المسلمين، يُخطِئُ مرةً ويصيبُ أخرى، فطابتْ نفسُ الحجاجِ وتطلَّق وجهُه، ورجا الحجاجُ أن يتخلَّصَ من أمرِه، ثم عاوَده في شيءٍ، فقال سعيدٌ: إنما كانت بيعةٌ في عُنُقي، فغضِب عندَ ذلك الحجاجُ، وكان ما كان من قتلِه.

وذكَر عتّابُ بنُ بَشيرٍ، عن سالمٍ الأفطسِ، قال: أُتي الحجاجُ بسعيدِ بنِ جُبيرٍ، وهو يريدُ الركوبَ، وقد وضَع إحدىٰ رِجلَيه في الغرْزِ، فقال: واللهِ لا أركَبُ حتى تتبوَّأَ مقعدَك من النارِ، اضرِبوا عنُقَه. فضربت عنقُه. قال: والتبَس الحجّاجُ في عقلِه مكانَه، فجعَل يقولُ: قيودَنا قيودَنا. فظنُّوا أنه يُريدُ القيودَ التي على سعيدٍ، فقطَعوا رجليه من أنصافِ ساقيه، وأخَذوا القيودَ.

وقال محمدُ بنُ حاتمٍ: ثنا عبدُ الملكِ بنُ عبدِ اللهِ، عن هلالِ بنِ خبّابٍ، قال: جيء بسعيدِ بنِ جُبيرٍ إلى الحجاجِ، فقال: أكتَبتَ إلى مصعبِ بنِ الزبيرِ؟ فقال: بل كتَب إليَّ مصعبٌ. قال: واللهِ لأقتُلنَّك. قال: إني إذًا لسعيدٌ، كما سمَّتني أُمِّي. قال: فقتَله، فلم يلبثِ الحجاجُ بعدَه إلا أربعين يومًا، فكان إذا نام يراه في المنامِ يأخُذُ بمجامعِ ثوبِه فيقولُ: يا عدوَّ اللهِ، فيم قتَلتَني؟ فيقولُ الحجاجُ: مالي ولسعيدِ بنِ جُبيرٍ، مالي ولسعيدِ بنِ جُبيرٍ؟!

قال ابنُ خلِّكانَ: كان سعيدُ بنُ جُبيرِ بنِ هشامٍ، الأسديُّ، مولى بني والبةَ كوفيًّا، أحدَ الأعلامِ من التابعين، وكان أسودَ اللونِ، وكان لا يكتُبُ على الفُتْيا، فلما عمِي ابنُ عباسٍ كتَب، فغضِب ابنُ

(١) إسنادٌ منقطع.

عباسٍ من ذلك. وذكَر مقتَلَه بنحوِ ما تقدَّم، وذكَر أنه كان في شعبانَ، وأنَّ الحجاجَ مات بعدَه في رمضانَ، وقيل: بستةِ أشهرٍ.

وذكَر عن الإمام أحمدَ بنِ حنبلٍ أنَّه قال: قُتِل سعيدُ بنُ جُبيرٍ وما على وجهِ الأرضِ أحدٌ إلاَّ وهو محتاجٌ - أو قال: مُفتقرٌ - إلى علمه.

ويقالُ: إنَّ الحجاجَ لم يُسلَّطْ بعدَه على أحدٍ. وسيأتي في ترجمةِ الحجاجِ أيضًا شيءٌ من هذا.

قال ابنُ جريرٍ: وكان يقالُ لهذه السنة: سنةُ الفقهاءِ؛ لأنه مات فيها عامَّةُ فقهاءِ المدينة؛ مات في أولِها عليُّ بنُ الحسينِ زينُ العابدين، ثم عروةُ بنُ الزُّبيرِ، ثم سعيدُ بنُ المسيَّبِ، وأبو بكرِ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ الحارثِ بنِ هشامٍ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ من أهلِ مكةَ.

وقد ذكَرْنا تراجمَ هؤلاءِ في كتابِنا «التكميل»، وسنذكُرُ طرَفًا صالحًا ههنا، إن شاء اللهُ تعالى.

قال ابنُ جريرٍ: واستقضَى الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ في هذه السنةِ على الشامِ سليمانَ بنَ حبيبٍ.

وحجَّ بالناسِ أخوه مَسلمةُ في قولِ بعضِهم.

وقال الواقديُّ: حجَّ بالناسِ فيها عبدُ العزيزِ بنُ الوليدِ، ويقالُ: مَسلمةُ بنُ عبدِ الملك.

وكان على نيابةِ مكةَ خالدُ بنُ عبدِ الله القسريُّ، وعلى المدينةِ عثمانُ بنُ حيَّانَ، وعلى المشرقِ بكمالِه الحجاجُ، وعلى خراسانَ قتيبةُ بنُ مُسلمٍ، وعلى الكوفةِ من جهةِ الحجاجِ زيادُ بنُ جريرٍ، وعلى قضائِها أبو بكرِ بنُ أبي موسى، وعلى إمرةِ البصرةِ من جهةِ الحجاجِ الجرَّاحُ بنُ عبدِ الله الحكَميُّ، وعلى قضائِها عبدُ الرحمنِ بنُ أُذينةَ. واللهُ سبحانَه وتعالى أعلَمُ.

ذكرُ مَن توفي فيها مِن المشاهير والأعيان

سعيدُ بنُ جُبيرِ بنِ هشامٍ الأسديُّ الوالبيُّ مولاهم، أبو محمدٍ، ويقالُ: أبو عبدِ الله. الكوفيُّ المكيُّ، من أكابرِ أصحابِ ابنِ عباسٍ، كان من أئمةِ الإسلامِ في التفسيرِ والفقهِ وأنواعِ العلومِ، وكثرةِ العملِ الصالحِ، رحمه اللهُ، وقد رأى خلقًا من الصحابةِ، وروَى عن جماعةٍ منهم، وعنه خلقٌ من التابعين، وغيرِهم، يقالُ: إنه كان يقرأُ القرآنَ فيما بينَ المغربِ والعشاءِ ختْمةً تامةً، وكان يقعُدُ في الكعبةِ القَعدةَ فيقرأُ فيها الختمةَ، وربَّما قرَأها في ركعةٍ في جوفِ الكعبةِ، وقد قال ابنُ عباسٍ، وقد أتاه أهلُ الكوفةِ يسألُونه: أليس فيكم سعيدُ بنُ جُبيرٍ؟.

وقال سفيانُ الثوريُّ، عن عمرِو بنِ ميمونٍ، عن أبيه، قال: لقد مات سعيدُ بنُ جُبيرٍ، وما على وجهِ الأرضِ أحدٌ إلا وهو مُحتاجٌ إلى علمه.

وكان في جملةِ مَن خرَج مع ابنِ الأشعثِ على الحجاجِ، فلمّا ظفِر الحجاجُ هرَب سعيدٌ إلى أصبهانَ، ثم كان يتردَّدُ في كلِّ سنةٍ إلى مكةَ مرتين؛ مرةً للعمرةِ، ومرةً للحجِّ، وربَّما دخَل الكوفةَ في

بعضِ الأحيان فحدَّث بها، وكان بخُرسانَ يتحرَّنُ؛ لأنه كان لا يسألُه أحدٌ عن شيءٍ من العلم هناك، وكان يقولُ: إنَّ مِمَّا يَهُمُّني ما عندي من العلم، ووددتُ أنَّ الناسَ أخذوه. واستمرَ في هذا الحالِ مختفيًا من الحجاج قريبًا من ثِنتَيْ عشْرةَ سنةً، ثم أرسَله خالدٌ القسْريُّ من مكةَ إلى الحجاجِ، فكان من مُخاطبته له ما ذكَرناه قريبًا.

وقد قال أبو نُعيم في كتابه «حلية الأولياء»: ثنا أبو حامدِ بنُ جَبَلةَ، ثنا محمدُ بنُ إسحاقَ، ثنا محمدُ بنُ أحمدَ بنِ أبي خلَفٍ، ثنا سفيانُ، عن سالمِ بنِ أبي حفصةَ، قال: لمَّا أُتي بسعيدِ بنِ جُبيرٍ إلى الحجاجِ، قال له: أنت شَقيُّ بنُ كُسيرٍ؟ قال: لا، إنما أنا سعيدُ بنُ جُبيرٍ. قال: لأقتُلَنَّكَ. قال: أنا إذًا كما سمَّتني أمِّي. ثم قال: دعُوني أُصلِّ ركعتَين. قال: وجِّهوه إلى قِبلة النصارَىٰ. قال: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]. ثم قال: إني أستعيذُ منكَ بما عاذتْ به مريمُ. قال: وما عاذت به؟ قال: قالتْ: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨]. قال سفيانُ: لم يَقتُلْ بعدَه إلا رجلًا واحدًا.

وقد ذكَرنا صفةَ مقتله إيَّاه، وقد رُويتْ آثارٌ غريبةٌ في صفة مقتَله، أكثرُها لا يصحُّ، وقد عُوقب الحجاجُ بعدَه وعوجل بالعقوبة، فلم يَلبَثْ بعدَه إلاَّ قليلاً ثم أخذه اللهُ أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ-كما سنذكُرُ وفاتَه في السنة الآتيةِ-فقيل: إنَّه مكَث بعدَه خمسةَ عشَرَ يومًا. وقيل: أربعين يومًا. وقيل: ستةَ أشهرٍ. فاللهُ أعلَمُ.

واختلَفوا في عمرِ سعيدِ بنِ جُبيرٍ، رحمه اللهُ، حينَ قُتِل، فقيل: كان عمرُه تسعًا وأربعين سنةً. وقيل: سبعًا وخمسين. فاللهُ أعلَمُ.

قال أبو القاسم اللالكائيُّ: كان مقتلُه في سنةِ خمسٍ وتسعين. وذكَر ابنُ جريرٍ مقتلَه في هذه السنةِ، سنةِ أربعٍ وتسعين. فاللهُ أعلمُ.

سعيدُ بنُ المسيَّب بنِ حَزْنِ بنِ أبي وَهْبِ بنِ عائذِ بنِ عِمْرانَ بنِ مخزومٍ القُرَشيُّ، أبو محمدٍ، المدنيُّ، المخزوميُّ، سيِّدُ التابعين على الإطلاقِ، وُلدَ لسنتَين مضَتا-وقيل: بقِيتا-من خلافة عمرَ بنِ الخطابِ، وقيل: لأربعٍ مضَيْنَ منها. وقولُ الحاكم أبي عبدِ الله: إنَّه أدرَك العشَرةَ. وَهْمٌ منه. واللهُ أعلمُ. ولكنْ أرسَل عنهم كما أرسَل كثيرًا عن النبيِّ ﷺ، وروَىٰ عن عمرَ كثيرًا-فقيل: سمع منه. وقيل: لم يسمَعْ-وعن عثمانَ، وعليٍّ، وسعدٍ، وأبي هريرةَ-وكان زوجَ ابنته، وأعلمَ الناسِ بحديثِه-وروَىٰ عن جماعةٍ من الصحابة آخرين، وحدَّث عنه جماعةٌ من التابعين، وخلقٌ ممَّن سواهم.

قال ابنُ عمرَ: كان سَعيدٌ أحدَ المفتين.

وقال الزهْريُّ: جالستُه سبعَ حِجَجٍ، وأنا لا أظُنُّ عندَ أحدٍ علمًا غيرَه.

وقال محمدُ بنُ إسحاقَ، عن مَكحُولٍ قال: طُفْتُ الأرضَ كلَّها في طلبِ العلمِ، فما لَقِيتُ أعلمَ

من سعيدِ بنِ المسيَّبِ.

وقال الأوزاعيُّ: سُئِلَ الزهريُّ ومكحولٌ: مَن أفقهُ مَن لَقِيتُما؟ قالا: سعيدُ بنُ المسيَّبِ.

وقال قتادةُ: ما رأيتُ أعلمَ بالحلالِ والحرامِ منه. وكان الحسنُ إذا أشكَلَ عليه شيءٌ كتَبَ إلى سعيدِ ابنِ المسيَّبِ. وقال غيرُه: كان يقالُ له: فقيهُ الفقهاءِ.

وقال مالكٌ، عن يحيى بنِ سعيدٍ، عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ: كنتُ أرحَلُ الأيامَ والليالِيَ في طلَبِ الحديثِ الواحدِ.

قال مالكٌ: وبلَغني أنَّ ابنَ عمرَ كان يُرسِلُ إلى سعيدِ بنِ المسيَّبِ يسألُه عن قضايا عمرَ وأحكامِه.

وقال الربيعُ عن الشافعيِّ، أنَّه قال: إرسالُ سعيدِ بنِ المسيَّبِ عندَنا حَسَنٌ.

وقال الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ: هي صِحاحٌ. قال: وسعيدُ بنُ المسيَّبِ أفضلُ التابعينَ.

وقال عليُّ بنُ المدينيِّ: لا أعلَمُ في التابعين أوسعَ علمًا منه، وإذا قال سعيدٌ: مضَتِ السُّنَّةُ فحسْبُكَ به، وهو عندي أجَلُّ التابعينَ.

وقال أحمدُ بنُ عبدِ الله العجْليُّ: كان سعيدٌ رجلًا صالحًا فقيهًا، كان لا يأخُذُ العطاءَ، وكانت له بضاعةٌ؛ أربعُمائةِ دينارٍ، وكان يَتَّجِرُ في الزَّيتِ، وكان أعورَ.

وقال أبو زُرعةَ: مَدَنيٌّ ثقةٌ إمامٌ.

وقال أبو حاتمٍ: ليس في التابعين أنبلُ منه، وهو أثبتُهم في أبي هريرةَ.

وقال الواقديُّ: تُوفِّي في سنةِ الفقهاءِ، وهي سنةُ أربعٍ وتسعين، عن خمسٍ وسبعين سنةً، رحمه اللهُ.

طَلْقُ بنُ حبيبٍ العَنَزيُّ، تابعيٌّ جليلٌ، روَى عن أنسٍ، وابنِ الزبيرِ، وابنِ عبّاسٍ، وعبدِ اللهِ بنِ عمرٍو، وغيرِهم، وعنه حُميدٌ الطَّويلُ، والأعمشُ، وطاوسٌ، وهو مِن أقرانِه، وأثْنَى عليه في قراءته عمرُو بنُ دينارٍ، وقد أثْنَى عليه غيرُ واحدٍ من الأئمةِ، ولكنْ تكلَّموا فيه مِن جهةِ أنَّه كان يقولُ: بالإرْجاءِ.

وقد كان فيمَن خرَج مع ابنِ الأشعثِ، وكان يقولُ: اتَّقوها بالتَّقوىٰ. فقيل له: صِفْ لنا التَّقْوىٰ؟ فقال: التَّقْوىٰ؛ العملُ بطاعةِ اللهِ، علىٰ نورٍ مِن اللهِ؛ رجاءَ رحمةِ اللهِ، والتَّقْوىٰ؛ تَرْكُ مَعاصي اللهِ علىٰ نورٍ من اللهِ؛ مخافةَ عذابِ اللهِ.

وقال أيضًا: إنَّ حقوقَ اللهِ أعظمُ مِن أن يقومَ بها العبادُ، وإنَّ نِعَمَه أكثرُ مِن أن تُحْصَىٰ، ولكن أَصبِحُوا تائبين، وأَمسُوا تائبين. قال مالكٌ: قتَلَه الحجّاجُ، وجماعةً من القرّاءِ؛ منهم سعيدُ بنُ جُبيرٍ.

وقد ذكَر ابنُ جريرٍ - فيما سبَق - أنَّ خالدَ بنَ عبدِ اللهِ القَسْريَّ بعَث مِن مكّةَ ثلاثةً إلى الحجّاجِ؛ وهُمْ مجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جُبيرٍ، وطلقُ بنُ حبيبٍ، فمات طَلقٌ في الطَّريقِ، وحُبِس مجاهدٌ، وكان مِن أمرِ

سعيد ما كان. واللهُ أعلمُ.

عُروةُ بنُ الزبير بن العوَّام، القُرَشيُّ الأسَديُّ، أبو عبد الله المَدَنيُّ، تابعيٌّ جليلٌ، روَىٰ عن أبيه، وعن العبادلة، ومعاوية، والمغيرة، وأبي هريرة، وأمِّه أسماء، وخالته عائشة، وأمِّ سلَمة. وعنه جماعةٌ من التابعين، وخَلْقٌ ممَّن سواهم.

قال محمدُ بنُ سعد: كان عروةُ ثقةً، كثيرَ الحديث، عالمًا، مأمونًا، ثَبْتًا.

وقال العجْليُّ: مدنيٌّ، تابعيٌّ، رجلٌ صالحٌ لم يدخُلْ في شيءٍ من الفتن.

وقال الواقديُّ: كان فقيهًا عالمًا حافظًا ثَبْتًا حُجَّةً عالمًا بالسِّيَر، وهو أوَّلُ مَن صنَّف المغازيَ. وكان من فقهاء المدينة المعدودينَ، ولقد كان أصحابُ رسول الله ﷺ يسألونَه، وكان أرْوَىٰ الناس للشِّعر.

وقال أبو بكر بنُ عبد الرحمن بن الحارث بن هشام: العلمُ لواحدٍ من ثلاثة؛ لذي حَسَبٍ يُزَيِّنُه به أو ذي دينٍ يَسُوسُ به دينَه، أو مُختلطٌ بسلطانٍ يُتحفُه بعلمه قال: ولا أعلمُ أحدًا أشْرَطَ لهذه الخصال الثلاث إلاَّ عروةَ بنَ الزبير، وعمرَ بنَ عبد العزيز.

وكان عروةُ يقرأُ كلَّ يومٍ رُبُعَ القرآن، ويقومُ به في الليل. وكان أيامَ الرُّطَب يَثْلِمُ حائطَه ثم يأذَنُ للناس فيدخُلون فيأكُلون ويحملون، فإذا ذهَب الرُّطَبُ، أعادَه. وقال الزُّهْريُّ: كان عروةُ بحرًا لا يُنْزَفُ، وقال مرَّةً: كان بحرًا لا تَكدِّرُه الدِّلاءُ.

وقال عمرُ بنُ عبد العزيز: ما أحدٌ أعلمَ من عروةَ، وما أعلَمُه يعلَمُ شيئًا أجهَلُه. وقد ذكَره غيرُ واحدٍ في فقهاء المدينة السبعة الذين يُنْتَهَىٰ إلىٰ قولهم. وكان من جملة الفقهاء العشَرة الذين كان عمرُ ابنُ عبد العزيز يرجعُ إلىٰ قولهم في زمن ولايته علىٰ المدينة. وقد ذكَر غيرُ واحدٍ؛ أنَّه وفَد علىٰ الوليد بدمشقَ، فلمّا رجَع أصابَتْه في رجله الأكَلَةُ، فأرادوا قطعَها، فعرَضُوا عليه أن يشرَبَ شيئًا يُغيِّبُ عقلَه حتىٰ لا يحسَّ بالألم ويتمكَّنُوا من قَطْعها، فقال: ما ظَنَنْتُ أنَّ أحدًا يؤمنُ بالله يشرَبُ شيئًا يُغيِّبُ عقلَه حتىٰ لا يعرفَ ربَّه، عز وجلَّ، ولكنْ هَلُمُّوا فاقطَعوها، فقطَعوها من ركبته وهو صامتٌ لا يتكلَّمُ، ولا يُسمَعُ له حسٌّ. ورُوِي أنهم قطَعوها وهو في الصَّلاة فلم يَشْعُرْ؛ لشُغلِه بالصَّلاة. فاللهُ أعلمُ.

ووقَع في هذه الليلة التي قُطعتْ فيها رجلُه ولدٌ له يُسمَّىٰ محمدًا - كان أحبَّ أولاده - من سطحٍ فماتَ، فدخَلوا عليه فَعَزَّوه فيه، فقال: اللهمَّ لك الحمدُ، كانوا سبعةً فأخَذْتَ واحدًا وأبقيتَ ستَّةً، وكنَّ أطرافًا أربعًا فأخَذتَ واحدةً وأبقَيْتَ ثلاثًا، فلئن كُنتَ قد أخَذتَ فلقد أعطَيتَ، ولئن كُنتَ قد ابتَليتَ فلقد عافَيْتَ.

وقيل: إنَّه لمّا رأىٰ رجلَه المقطوعةَ في الطَّست، قال: اللهُ أعلمُ أنِّي ما مشَيْتُ بها إلىٰ معصيةٍ قَطُّ.

قيل: إنَّه وُلد في حياة عمرَ. والصَّحيحُ أنَّه وُلد بعدَ عمرَ في سنة ثلاثٍ وعشرينَ، وكانت وفاتُه في

سنةِ أربعٍ وتسعين على المشهورِ، وقيل: سنةَ تسعينَ. وقيل: سنةَ مائةٍ. وقيل: إحدَىٰ وتسعين. وقيل: سنةَ إحدَىٰ ومائةٍ. وقيل سنةَ اثنتينِ أو ثلاثٍ أو أربعٍ أو خمسٍ وتسعينَ. وقيل: سنةَ تسعٍ وتسعين. واللهُ أعلمُ.

عليُّ بنُ الحسينِ بنِ عليٍّ بنِ أبي طالب، القرشيُّ الهاشميُّ، المشهور بزين العابدينَ، وأمُّه أمُّ ولدٍ اسمُها سَلاَّمةُ، وكان له أخٌ أكبرُ منه يقالُ له: عليٌّ أيضًا. قُتِل مع أبيه. روَىٰ عليٌّ - هذا - الحديثَ عن أبيهِ، وعمِّه الحسنِ بنِ عليٍّ، وجابرٍ، وابنِ عباسٍ، والمِسْورِ بنِ مَخْرَمةَ، وأبي هريرةَ، وصفيةَ، وعائشةَ، وأمِّ سلَمةَ، أمهاتِ المؤمنين.

وعنه جماعةٌ منهم بَنُوه؛ زيدٌ، وعبدُ الله، وعمرُ، وأبو جعفرٍ محمدُ بنُ عليٍّ الباقرُ، وزيدُ بنُ أسلمَ، وطاوسٌ وهو مِن أقرانه، والزُّهريُّ، ويحيىٰ بنُ سعيدٍ الأنصاريُّ، وأبو سلمةَ وهو مِن أقرانه، وخلْقٌ.

قال القاضي ابنُ خلِّكانَ: كانت أمُّه سَلاَّمَةَ، بنتَ يَزْدَجِرْدَ آخرِ ملوكِ الفرسِ.

وذكَر الزمخشَريُّ في «ربيع الأبرار»: أنَّ يَزْدَجِردَ كان له ثلاثُ بناتٍ سُبِينَ في زمنِ عمرَ بنِ الخطَّابِ، فحصَلَتْ واحدةٌ لعبدِ الله بنِ عمرَ فأولَدَها سالمًا، والأُخرىٰ لمحمد بنِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ فأولَدَها القاسمَ، والأُخرىٰ للحسينِ بنِ عليٍّ فأولَدَها عليًّا زينَ العابدين هذا، فكُلُّهم بنو خالةٍ.

قال ابنُ خلِّكان: ولمَّا قتَل قتيبةُ بنُ مسلمٍ فيروزَ بنَ يَزْدَجِردَ بعَث بابنتَيْه إلىٰ الحجّاجِ، فأخَذ إحداهما، وبعَث بالأخرَىٰ إلىٰ الوليدِ بنِ عبد الملك، فأَوْلَدَها الوليدُ يزيدَ الناقصَ.

وذكَر ابنُ قتيبةَ في كتابِ «المعارف»؛ أنَّ زَيْنَ العابدين هذا كانت أمُّه سنديَّةً، يقالُ لها: سَلاَّمةُ، ويقالُ: غَزالةُ.

وكان مع أبيه بكَرْبلاء، فاستُبْقِيَ لصغَرِه، وقيل: لمرَضِه. فإنَّه كان ابنَ ثلاثٍ وعشرين سنةً، وقيل: أكثرَ من ذلك. وقد هَمَّ بقتْله عبيدُ الله بنُ زيادٍ، ثم صرَفه اللهُ عنه. وأشار بعضُ الفجَرةِ علىٰ يزيدَ بنِ معاويةَ بقتله أيضًا، فمنَعه اللهُ تعالىٰ من ذلك، فلله الحمدُ والمنَّة، ثم كان يزيدُ بعدَ ذلك يُكْرِمُه ويُعظِّمُه، ويُجْلِسُه معه، ولا يأكلُ إلاَّ وهو عندَه، ثم بعَثهم إلىٰ المدينةِ مُكرَّمين، وكان عليٌّ بالمدينة مُحترَمًا مُعظَّمًا.

قال الحافظُ ابنُ عساكرَ: ومَسجدُه بدمشقَ - المنسوبُ إليه - معروفٌ.

قلتُ: وهو الذي يقالُ له: مَشهَدُ عليٍّ شرقيَّ جامعِ دمشقَ، وقد استَقْدَمه عبدُ الملك بنُ مرْوانَ مرَّةً أخرَىٰ إلىٰ دمشقَ، فاستَشاره في جَوابِ ملكِ الرومِ عن بعضِ ما كتَب إليه فيه مِن أمرِ السَّكَّةِ وطِرازِ القَراطِيسِ.

قال الزُّهريُّ: ما رأيتُ قرشيًّا أفضلَ منه، وكان مع أبيه يومَ قُتِل ابنَ ثلاثٍ وعشرين سنةً، وهو

مريضٌ، فقال عمرُ بنُ سعدٍ: لا تَعَرَّضُوا لهذا المريضِ.

وقال الواقدي: كان مِن أورعِ الناسِ وأعبدِهم، وأتقاهم للهِ عزَّ وجلَّ، وكان إذا مشى لا يَخطِرُ بيدِه، وكان يعتمُّ بعِمامةٍ بيضاءَ يُرخِيها مِن ورائِه، وكان كنيتَه أبو الحسنِ، وقيل: أبو محمدٍ. وقيل: أبو عبدِ اللهِ.

وقال محمدُ بنُ سعد: كان ثقةً مأمونًا كثيرَ الحديث عاليًا رفيعًا ورعًا. وأمُّه غزالةُ خَلَفَ عليها بعدَ الحسينِ مولاه زُبَيدٌ، فولَدَت له عبدَ اللهِ بنَ زُبَيدٍ، وهو عليٌّ الأصغرُ، فأمَّا عليٌّ الأكبرُ فقُتِل مع أبيه. وكذا قال غيرُ واحدٍ.

وقال سعيدُ بنُ المسيَّب، وزيدُ بنُ أسلمَ، ومالكٌ، وأبو حازم: لم يكُنْ في أهلِ البيت مثلُه.

وقال يحيى بنُ سعيد الأنصاري: سمعتُ عليَّ بنَ الحسينِ - وهو أفضلُ هاشميٍّ أدرَكتُه - يقولُ: يا أيُّها الناسُ، أَحِبُّونا حُبَّ الإسلامِ، فما برِح بنا حُبُّكم حتى صار علينا عارًا. وفي روايةٍ: حتى بَغَّضْتُمونا إلى الناسِ.

وقال الأصمعي: لم يكُنْ للحسينِ عَقِبٌ إلَّا مِن عليِّ بنِ الحسينِ، ولم يكُنْ لعليِّ بنِ الحسينِ نَسْلٌ إلَّا مِن ابنةِ عمِّه الحسنِ، فقال له مَرْوانُ بنُ الحكَمِ: لو اتَّخَذْتَ السراريَّ حتى يكثُرَ أولادُكَ. فقال: ليس لي ما أتَسرَّىٰ به. فأقرَضَه مائةَ ألفٍ، فاشترَىٰ له السَّراريَّ فولَدْنَ له وكثُرَ نسلُه، ثم لمّا مرِضَ مرْوانُ أَوصَىٰ أن لا يُؤخَذَ مِن عليِّ بنِ الحسينِ ما كان أقرَضَه، فجميعُ الحسينيِّين مِن نسلِه، رضِي اللهُ عنه.

وقال أبو بكرِ بنُ أبي شيبةَ: أصحُّ الأسانيدِ كلِّها الزُّهْريُّ عن عليِّ بنِ الحسينِ، عن أبيه، عن جَدِّه. وذكَروا أنَّه احترَق البيتُ الذي هو فيه، وهو قائمٌ يُصلِّي، فلمّا انصرَف، قالوا له: ما لكَ لم تنصرِفْ؟ فقال: إنِّي اشتغَلتُ عن هذه النارِ بالنارِ الأُخرَىٰ. وأنَّه كان إذا توضَّأ يصفَرُّ لونُه، فإذا قام إلى الصلاةِ ارتعَد مِن الفَرَقِ، فقيل له في ذلك فقال: ألا تدرون بينَ يدَيْ مَن أريدُ أن أقومَ، ولِمَن أُناجِي؟ ولمَّا حَجَّ أراد أن يُلبِّيَ فارتعَد وقال: أخشَىٰ أن أقولَ: لبَّيْكَ اللهمَّ لبَّيْكَ، فيقولُ لي: لا لبَّيكَ. فشجَّعوه، وقالوا: لابُدَّ مِن التَّلْبيةِ. فلمّا لبَّىٰ غُشِي عليه حتى سقَط عن الراحلَةِ. وأنَّه كان يُصلِّي في كلِّ يومٍ وليلةٍ ألفَ ركْعةٍ.

وقال طاوسٌ: سمعتُه وهو ساجدٌ عندَ الحِجْرِ يقولُ: عُبَيدُكَ بفنائك، مسكينُك بفنائك، سائلُك بفنائك، فقيرُك بفنائك. قال طاوسٌ: فواللهِ ما دعَوتُ بها في كَرْبٍ قطُّ إلَّا كُشِف عني. وذكَروا أنَّه كان كثيرَ الصَّدَقةِ بالليلِ، وكان يقولُ: صدقةُ الليلِ تُطفِئُ غضَبَ الربِّ، وأنَّه قاسَم اللهَ تعالى مالَه مرَّتَيْن.

وقال محمدُ بنُ إسحاقَ: كان ناسٌ بالمدينةِ يعيشون لا يدرون مِن أين يعيشون ومَن يُعطِيهم، فلمّا

مات عليُّ بنُ الحسينِ فقَدوا ذلك، فعرَفوا أنَّه هو الذي كان يأتيهم في الليلِ بما يأتيهم به. ولمَّا مات وجَدوا في ظهرِه وأكتافِه أثرَ حَمْلِ الجُرُبِ إلى بيوتِ الأراملِ والمساكينِ في الليلِ. وقيل: إنَّه كان يعولُ مائةَ أهلِ بيتٍ بالمدينة، ولا يدرون بذلك حتى ماتَ. ودخَل عليُّ بنُ الحسينِ على محمدِ بنِ أسامةَ بنِ زيدٍ يعودُه فبكَى ابنُ أسامةَ، فقال له: ما يُبكيك؟ قال: عليَّ دَينٌ. قال: وكم هو؟ قال: خمسةَ عشرَ ألفَ دينارٍ - وفي روايةٍ: سبعةَ عشرَ ألفَ دينارٍ - فقال: هي عليَّ.

وقال عليُّ بنُ الحسين: كان أبو بكرٍ، وعمرُ من رسولِ اللهِ ﷺ في حياتِه بمنزلتِهما منه بعدَ وفاته. ونال منه رجلٌ يومًا، فجعَل يتغافلُ عنه - يُريه أنَّه لم يسمَعْه - فقال له الرجلُ: إياكَ أعني. فقال له عليٌّ: وعنك أُغضي. وخرَج يومًا من المسجدِ فسبَّه رجلٌ فابتَدَر الناسُ إليه، فقال: دَعُوه. ثم أقبَل عليه، فقال: ما سُتِر عنك من أمرِنا أكثرُ، ألك حاجةٌ نُعينُك عليها؟ فاستَحيى الرجلُ، فألقَى إليه خَميصةً كانت عليه، وأمَر له بألفِ درهمٍ، فكان الرجلُ بعدَ ذلك يقولُ: أشهَدُ أنَّك من أولادِ الأنبياء.

قالوا: واختصَم عليُّ بنُ الحسينِ وحسَنُ بنُ حسنٍ - وكان بينَهما منافسةٌ - فنال منه حسنُ بنُ حسنٍ وهو ساكتٌ، فلمَّا كان الليلُ ذهَب عليُّ بنُ الحسينِ إلى منزلِه فقال: يا ابنَ عمٍّ إن كنتَ صادقًا يغفِرُ اللهُ لي، وإن كنتَ كاذبًا يَغفِرُ اللهُ لك، والسلامُ عليك. ثم رجَع، فلحِقه فصالَحه، رحِمهما اللهُ. وقيل له: مَن أعظمُ الناسِ خطَرًا؟ فقال: من لم يرْضَ الدنيا لنفسِه خطَرًا. وقال أيضًا: الفِكرةُ مرآةٌ تُري المؤمنَ حسناتِه وسيئاتِه.

وقال: فقْدُ الأحبَّة غُربَةٌ. وكان يقولُ: إنَّ قومًا عبدوا اللهَ تعالى رَهبةً؛ فتلك عبادةُ العبيد، وآخرون عبَدوه رغبةً؛ فتلك عبادةُ التُّجَّارِ، وآخرون عبدُوه محبةً وشكرًا؛ فتلك عبادةُ الأحرارِ الأخيارِ.

وقال لابنه: يا بُنَيَّ لا تصحَبْ فاسقًا؛ فإنَّه يبيعُك بأكلةٍ وأقلَّ منها، يطمَعُ فيها ثم لا ينالُها، ولا بخيلاً؛ فإنَّه يَخذُلُك في ماله، أحوجَ ما تكونُ إليه، ولا كذَّابًا؛ فإنَّه كالسَّرابِ يُقرِّبُ منك البعيدَ، ويُباعدُ عنك القريبَ، ولا أحمقَ؛ فإنَّه يريدُ أن ينفعَك فيضرُّك، ولا قاطعَ رحِمٍ؛ فإنَّه ملعونٌ في كتابِ الله، قال اللهُ تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

وكان عليُّ بنُ الحسينِ إذا دخَل المسجدَ تخطَّى الناسَ حتى يجلسَ في حَلْقةِ زيدِ بنِ أسلمَ، فقال له نافعُ بنُ جُبيرِ بنِ مُطْعِمٍ: غفَر اللهُ لك، أنتَ سيِّدُ الناسِ تأتي تَخَطَّى حتى تجلسَ مع هذا العبدِ الأسود؟ فقال له عليُّ بنُ الحسينِ: إنَّما يجلسُ الرجلُ حيثُ ينتفعُ، وإن العلمَ يُبتغَى ويؤتَى ويُطلَبُ من حيثُ كان.

قال **الأعمشُ**، عن مسعودِ بنِ مالكٍ قال: قال لي عليُّ بنُ الحسين: أتستطيعُ أن تجمعَ بيني وبينَ سعيد بن جبير؟ فقلتُ: ما تصنعُ به؟ قال: أريدُ أن أسألَه عن أشياءَ ينفعُنا اللهُ بها، إنَّه ليس عندَنا ما يرمينا به هؤلاء - وأشار بيده إلى العراق.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا يحيى بنُ آدمَ، ثنا إسرائيلُ، عن أبي إسحاقَ، عن رَزينِ بنِ عُبيدٍ قال: كنتُ عندَ ابنِ عباسٍ، فأتىٰ عليُّ بنُ الحسينِ، فقال ابنُ عباسٍ: مرحبًا بالحبيبِ ابنِ الحبيبِ[١].

وقال أبو بكر، محمدُ بنُ يحيى الصولي: ثنا العَلائيُّ ثنا إبراهيمُ بنُ بشارٍ، عن سفيانَ بنِ عيينةَ، عن أبي الزبيرِ قال: كنّا عندَ جابرِ بنِ عبدِ الله، فدخَل عليه عليُّ بنُ الحسينِ فقال: كنتُ عندَ رسولِ الله ﷺ، فدخَل عليه الحسينُ بنُ عليٍّ، فضَمَّه إليه وقبَّله، وأقعَده إلى جنبِه، ثم قال: «**يولَدُ لابني هذا ابنٌ يقالُ له: عليٌّ. إذا كان يومُ القيامة نادَى منادٍ من بُطْنانِ العرشِ: ليقُمْ سيدُ العابدين. فيقومُ هو**». هذا حديثٌ غريبٌ جدًّا أورَده ابنُ عساكرَ[٢].

وقال الزهري: كان أكثرُ مجالستي مع عليِّ بنِ الحسينِ، وما رأيتُ أفقهَ منه، وكان قليلَ الحديثِ، وكان من أفضلِ أهلِ بيتِه وأحسنِهم طاعةً، وأحبِّهم إلى مروانَ، وابنه عبدِ الملك، وكان يُسَمِّيه: زينَ العابدين.

وقال جويريةُ بنُ أسماءَ: ما أكَل عليُّ بنُ الحسينِ بقرابتِه من رسولِ الله ﷺ درهمًا قطُّ، رحمه اللهُ ورضِي عنه.

وقال محمدُ بنُ سعد: أنبَأ عليُّ بنُ محمدٍ، عن سعيدِ بنِ خالدٍ، عن المَقْبُريِّ قال: بعَث المختارُ إلى عليِّ بنِ الحسينِ بمائةِ ألفٍ، فكرِه أن يقبَلَها، وخاف أن يردَّها، فاحتبَسها عندَه، فلمّا قتِل المختارُ كتَب إلى عبدِ الملكِ بنِ مروانَ: إن المختارَ بعَث إليَّ بمائةِ ألفٍ، فكرِهتُ أن أقبَلَها، وكرِهتُ أن أردَّها، فابعَثْ مَن يقبِضُها. فكتَب إليه عبدُ الملك: يا ابنَ عمٍّ، خذْها، فقد طيَّبتُها لك، فقبِلها[٣].

وقال عليُّ بنُ الحسين: سادةُ الناسِ في الدنيا الأسخياءُ الأتقياءُ، وفي الآخرة أهلُ الدينِ وأهلُ الفضلِ والعلمِ؛ لأنَّ العلماءَ ورثةُ الأنبياء.

وقال أيضًا: إنِّي لأستحي من الله، عزَّ وجلَّ، أن أرَىٰ الأخَ من إخواني، فأسألَ اللهَ له الجنةَ، وأبخَلَ عليه بالدنيا، فإذا كان يومُ القيامة، قيل لي: لو كانتِ الجنةُ بيدِك لكنتَ بها أبخَلَ، وأبخلَ وأبخلَ. وذكَروا أنَّه كان كثيرَ البكاء، فقيل له في ذلك، فقال: إن يعقوبَ، عليه السلامُ، بكَىٰ حتى ابيضَّتْ عَيناه على يوسفَ، ولم يعلَمْ أنَّه مات، وإنِّي رأيتُ بضعةَ عشَرَ من أهلِ بيتي يُذْبَحون في غداةٍ واحدةٍ، أفترَون حزنَهم يذهَبُ من قلبي أبدًا؟!

وقال عبدُ الرزاق: سكَبَتْ جاريةٌ لعليِّ بنِ الحسينِ عليه ماءً ليتوضَّأ، فسقَط الإبريقُ من يدِها على

---

(١) في إسناده من لم أعرفه.

(٢) في إسناده إبراهيم بن بشار ذكر العلماء في ترجمته أنه كان يملي على الناس مالم يقله سفيان فحق للمؤلف أن يستغرب مثل هذا الحديث فراجع ترجمته في كتب الرجال.

(٣) اخرجه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٥/ ١٦٤) بهذا الإسناد وفي إسناده سعيد بن خالد لم أستطع تحديده.

وجهه فشجَّه، فرفَع رأسَه إليها، فقالت الجارية: إنَّ اللهَ، عزَّ وجلَّ، يقولُ: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾.
فقال: قد كظَمتُ غَيظي. قالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾. فقال: قد عفا اللهُ عنك. فقالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. قال: فاذهَبي، أنت حرةٌ.

وقال الزبيرُ بنُ بكار: ثنا عبدُ الله بنُ إبراهيمَ أبو قدامةَ الجُمَحيُّ، عن أبيه، عن جدِّه، عن محمد ابنِ عليٍّ، عن أبيه قال: جلَس إليَّ قومٌ من أهلِ العراق، فذكَروا أبا بكرٍ، وعمرَ فنالوا منهما، ثم ابتدءُوا في عثمانَ، فقلتُ لهم: أخبِروني، أنتم من ﴿الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ﴾. وإلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨]؟ قالوا: لا، لسنا منهم. قلتُ: فأنتمَ من الذين، قال اللهُ، عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾، إلى قوله: ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]؟ قالوا: لا، لسنا منهم. قال: فقلتُ لهم: أمَّا أنتم فقد تبرَّأتُم وأقرَرتُم وشهِدتُم أن تكونوا منهم، وأنا أشهَدُ أنكم لستُم من الفرقة الثالثة الذين قال اللهُ تعالى فيهم: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] قوموا عنِّي، لا باركَ اللهُ فيكم، ولا قرَّب دورَكم، أنتم مستهزئون بالإسلام، ولستُم من أهله.

وجاء رجلٌ فسأله: متى يُبعَثُ عليٌّ؟ فقال: يُبعَثُ والله يومَ القيامة وتهُمه نفسُه.

وقال ابنُ أبي الدُّنيا: حُدِّثتُ عن سعيدِ بنِ سليمانَ، عن عليِّ بنِ هاشمٍ، عن أبي حمزةَ الثُّماليِّ، أن عليَّ بنَ الحسينِ كان إذا خرَج من بيتِه قال: اللهمَّ إنِّي أتصدَّقُ اليومَ - أو أهَبُ عِرضي اليومَ - مَن استحلَّه.

وروى ابنُ أبي الدنيا أن غلامًا سقَط من يده سَفُّودٌ وهو يشوي شيئًا في التَّنُّورِ على رأسِ صبيٍّ لعليِّ بنِ الحسينِ فقتَله، فنهَض عليُّ بنُ الحسينِ مسرعًا، فلمَّا نظَر إليه، قال للغلام: يا بنيَّ، إنَّك لم تتعمَّدْ، أنت حرٌّ. ثم شرَع في جهازِ ابنه.

وقال المدائنيُّ: سمعتُ سفيانَ يقولُ: كان عليُّ بنُ الحسينِ يقولُ: ما يسُرُّني أن لي بنصيبي من الذلِّ حُمْرَ النَّعَم. ورَواه الزبيرُ بنُ بكارٍ من غيرِ وجهٍ عنه.

ومات لرجلٍ ولدٌ مسرفٌ على نفسه فجزع عليه من أجلِ إسرافه فقال له عليُّ بنُ الحسين: إنَّ من وراءِ ابنِك خلالًا ثلاثًا؛ شهادةَ أنْ لا إله إلا اللهُ، وشفاعةَ رسولِ الله، ورحمةَ الله، عزَّ وجلَّ.

وقال المدائنيُّ: قارَف الزهريُّ ذنبًا، فاستوحَش منه، وهام على وجهه، وترَك أهلَه ومالَه، فلمَّا اجتَمع بعليِّ بنِ الحسينِ قال له: يا زُهريُّ، قنوطُك من رحمةِ الله التي وسِعتْ كلَّ شيءٍ أعظمُ من ذنبِك. فقال الزهريُّ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وفي روايةٍ، أنَّه كان أصاب دمًا خطأً، فأمَره عليٌّ بالتوبةِ والاستغفارِ، وأن يبعَثَ الدِّيَةَ إلى أهله. وكان الزهريُّ يقولُ: عليُّ بنُ

الحسينِ أعظمُ الناسِ عليَّ منةً.

وقال سفيانُ بنُ عيينةَ: كان عليُّ بنُ الحسينِ يقولُ: لا يقولُ رجلٌ في رجلٍ مِن الخيرِ ما لا يعلَمُ إلاَّ أوشَكَ أن يقولَ فيه مِن الشرِّ ما لا يعلَمُ، وما اصطحَبَ اثنان على معصيةٍ إلا أوشَكَ أن يفترِقا على غيرِ طاعةِ اللهِ.

وذكَروا: أنَّه زوَّج ابنةً مِن مولًى له، وأعتَق أمَةً فتزوَّجها، فأرسَل إليه عبدُ الملكِ يلومُه في ذلك، فكتَب إليه ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]، وقد أعتَق صفيةَ فتزوَّجها، وزوَّج مولاه زيدَ بنَ حارثةَ مِن ابنةِ عمَّته زينبَ بنتِ جحشٍ. قالوا: وكان يلبَسُ في الشتاءِ خميصةً مِن خزٍّ بخمسين دينارًا، فإذا جاء الصيفُ تصدَّق بها. ويلبَسُ في الصيفِ الثيابَ المرقعةَ ودونَها، ويتلو قولَه تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف: ٣٢].

وقد رُوِي مِن طرقٍ ذكَرها الصوليُّ، والجُريريُّ، وغيرُ واحدٍ، أنَّ هشامَ بنَ عبدِ الملكِ حجَّ في خلافةِ أبيه - أو أخيه الوليدِ - فطاف بالبيتِ، فلمّا أراد أنْ يستلِمَ الحجَرَ لم يتمكّنْ حتى نصِب له منبرٌ فاستلَم وجلَس عليه، وقام أهلُ الشامِ حولَه، فبينما هو كذلك إذْ أقبَل عليُّ بنُ الحسينِ، فلما دنا مِن الحجرِ؛ ليستلمَه تنحَّى عنه النَّاسُ إجلالاً له وهيبةً واحترامًا، وهو في بِزَّةٍ حسَنةٍ، وشكلٍ مَليحٍ، فقال أهلُ الشامِ لهشامٍ: مَن هذا؟ فقال: لا أعرِفُه. لئلاّ يرغَبَ فيه أهلُ الشامِ، فقال الفرزدقُ، وكان حاضرًا: أنا أعرِفُه. فقالوا: ومَن هو؟ فأنشأ الفرزدقُ يقولُ:

هذا الذي تعرِفُ البطحاءُ وطأتَهُ ... والبيتُ يعرِفُه والحِلُّ والحرمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلِّهمُ ... هذا التقيُّ النقي الطاهرُ العلَمُ
إذا رأتْه قريشٌ قال قائلُها ... إلى مكارمِ هذا ينتهي الكرَمُ
يُنمَى إلى ذِروة العزِّ التي قصُرتْ ... عن نَيلِها عَرَبُ الإسلامِ والعجمُ
يكادُ يُمْسكُه عرفانَ راحتِه ... ركنُ الحطيمِ إذا ما جاءَ يستلمُ
يُغضِي حياءً ويُغضَى مِن مهابَتِه ... فما يُكلَّمُ إلا حينَ يبتسِمُ
بكفِّه خَيزُرانٌ ريحُها عبِقٌ ... مِن كفِّ أروعَ في عِرنينه شَمَمُ
مشتقَّةٌ من رسول الله نَبعتُه ... طابَت عناصرُها والخِيمُ والشِّيمُ
ينجابُ نورُ الهدى مِنْ نورِ غُرَّته ... كالشمسِ ينجابُ عن إشراقِها القَتَمُ
حمّالُ أثقالِ أقوامٍ إذا فُدِحوا ... حُلوُ الشمائلِ تحلو عندهُ نَعَمُ
هذا ابنُ فاطمةٍ إن كنتَ جاهلَه ... بجَدِّه أنبياءُ الله قد خُتِموا
اللهُ فضَّله قِدْمًا وشَرَّفَه ... جَرَى بذاك له في لوحِه القلمُ
مَن جدُّه دان فضلُ الأنبياء له ... وفضلُ أمَّتِه دانتْ لها الأممُ
عمَّ البريةَ بالإحسانِ فانقشَعتْ ... عنها الغَيابةُ والإملاقُ والظُلمُ

كلتا يديه غياثٌ عمَّ نفعُهما ... يُستَوكفانِ ولا يعروهما العدَمُ
سهلُ الخليقةِ لا تُخشَى بوادرُه ... يزينُه اثنانِ: حُسْنُ الخُلقِ والكَرَمُ
لا يُخلفُ الوعدَ ميمونٌ نقيبتُه ... رحبُ الفناءِ أريبٌ حين يعتزمُ
منْ معشرٍ حبُّهمْ دينٌ وبغضُهمُ ... كفرٌ وقربُهمُ مَنجًى ومُعتصَمُ
يُستدفَعُ السوءُ والبلوى بحبِّهمُ ... ويُستَربُّ به الإحسانُ والنِّعمُ
مُقدَّمٌ بعدَ ذكرِ اللهِ ذكرُهمُ ... في كلِّ حكمٍ ومختومٌ به الكلِمُ
إنْ عُدَّ أهلُ التُّقى كانوا أئمَّتَهمْ ... أو قيلَ مَن خيرُ أهلِ الأرضِ قيلَ هُمُ
لا يستطيعُ جوادٌ بُعْدَ غايتِهمْ ... ولا يدانيهمُ قومٌ وإن كرُموا
همُ الغيوثُ إذا ما أزمةٌ أزَمتْ ... والأُسْدُ أُسْدُ الشَّرى والبأسُ محتدمُ
يأبى لهم أن يحلَّ الذمُّ ساحتَهم ... خيمٌ كريمٌ وأيدٍ بالندى هُضُمُ
لا يَنقُصُ العُسْرُ بَسْطًا من أكُفِّهمُ ... سيَّانِ ذلك إنْ أثرَوا وإن عَدِموا
أيُّ الخلائقِ ليستْ في رقابِهمُ ... لأوَّليَّةِ هذا أوْ لهُ نِعمُ
فليسَ قولُكَ مَن هذا بضائرِه ... العُرْبُ تعرفُ مَن أنكرتَ والعجَمُ
مَنْ يعرفِ اللهَ يعرفْ أوَّليَّةَ ذا ... فالدِّينُ مِن بيتِ هذا نالَهُ الأمَمُ

قال: فغضب هشامٌ من ذلك، وأمرَ بحبسِ الفرزدقِ بعُسْفَانَ، بين مكةَ والمدينة، فلمّا بلَغ ذلك عليَّ بنَ الحسينِ بعَث إلى الفرزدقِ باثْنَي عشَرَ ألفَ درهم، وأرسَل يعتذرُ إليه أن ليس عندَه اليومَ غيرُها، فردَّها الفرزدقُ، وقال: إنَّما قلتُ ما قلتُ للهِ، عز وجل، ونصرةً للحقِّ، وقيامًا بحقِّ رسولِ الله ﷺ في ذريته، ولستُ أعتاضُ عن ذلك بشيءٍ. فأرسَل إليه عليُّ بنُ الحسين يقولُ: قد علِم اللهُ صدقَ نيتِك في ذلك، وأقسمتُ لَتقبلَنَّها. فقبِلها منه ثم جعَل يهجو هشامًا فكان ممّا قال فيه:

يحبِّسُني بينَ المدينةِ والتي ... إليها قلوبُ الناسِ يهوي منيبُها
يُقلِّبُ رأسًا لم يكنْ رأسَ سيِّدٍ ... وعينين حولاوين بادٍ عيوبُها

وقد رُوِّينا عن عليِّ بنِ الحسين أنَّه كان إذا مرَّت به الجنازةُ يقولُ:

نُراعُ إذا الجنائزُ قابلتْنا ... ونلهو حينَ تمضي ذاهباتِ
كروعةِ ثَلَّةٍ لمُغارِ سَبْعٍ ... فلمّا غابَ عادتْ راتعاتِ

وروى الحافظُ ابنُ عساكرَ من طريقِ محمدِ بنِ عبدِ الله المقرئ، حدَّثني سفيانُ بنُ عيينةَ، عن الزهريِّ، قال: سمعتُ عليَّ بنَ الحسينِ سيدَ العابدين يحاسبُ نفسَه ويناجي ربَّه يقولُ:

يا نفسُ حتَّامَ إلى الدنيا غُرورُك، وإلى عمارتِها ركونُك، أمَا اعتبرتِ بمَن مضَى من أسلافِك، ومَن وارتْه الأرضُ من أُلَّافِك؟ ومَن فُجعتِ به من إخوانِك، ونُقِل إلى البِلى من أقرانِك؟

فهم في بطونِ الأرضِ بعدَ ظهورِها ... محاسنُهم فيها بوالٍ دوائرُ
خلَت دورُهمْ منهمْ وأقْوَتْ عِراصُهمْ ... وساقتْهمُ نحوَ المنايا المقادرُ
وخُلُّوا عن الدنيا وما جمَعوا لها ... وضمَّتهمُ تحتَ الترابِ الحفائرُ

كم تخرَّمتْ أيدي المنونِ مِن قرونٍ بعدَ قرونٍ، وكم غيَّرَتِ الأرضُ ببلائِها، وغيَّبتْ في ثراها مَن عاشرتَ مِن صنوفِ الناسِ وشيَّعتهم إلى الأرماسِ.

وأنتَ على الدنيا مكبٌّ منافِسٌ ... لخُطَّابِها فيها حريصٌ مكاثِرُ
على خطرٍ تُمسِي وتُصبِحُ لاهيًا ... أتدري بماذا لو عقَلتَ تخاطِرُ؟!
وإنّ امرأً يسعَى لدنياه دائبًا ... ويَذهَلُ عن أخراهُ لا شكَّ خاسِرُ

فحتّامَ على الدنيا إقبالُك وبشهواتِها اشتغالُك وقد وخَطك القتيرُ، وأتاك النذيرُ، وأنت عمّا يرادُ بك ساهٍ، وبلَذَّةِ يومِك لاهٍ.

وفي ذِكرِ هَولِ الموتِ والقبرِ والبِلى ... عن اللهوِ واللذَّات للمرءِ زاجِرُ
أبعدَ اقترابِ الأربعين تربُّصٌ ... وشيبِ قَذَالٍ منذرٌ لكَ كاسِرُ
كأنَّك معنيٌّ بما هو صائرٌ ... لنفسِكَ عمْدًا أو عن الرشدِ جائرُ

انظُرْ إلى الأممِ الماضيةِ، والملوكِ الفانيةِ كيف أفنَتهم الأيامُ، ووافاهم الحِمامُ؛ فانمحَت مِن الدنيا آثارُهم، وبقِيَت بها أخبارُهم.

وأضحَوا رميمًا في الترابِ وعُطِّلَت ... مجالسُ منهم أقفَرتْ ومقاصِرُ
وحلُّوا بدارٍ لا تزاوُرَ بينَهم ... وأنَّى لسكّانِ القبورِ تزاوُرُ
فما إن ترَى إلا جُثًى قد ثَوَوْا بها ... مسطَّحةً تَسفِي عليها الأعاصِرُ

كم مِن ذي مَنَعةٍ وسلطانٍ وجنودٍ وأعوانٍ، تمكَّن مِن دنياه، ونال فيها ما تمنّاه، وبنَى فيها القصورَ والدساكِرَ، وجمَع الأعلاقَ والذخائرَ.

فما صرَفتْ كفَّ المنيةِ إذ أتتْ ... مبادرةً تهوِي إليه الذخائرُ
ولا دفَعتْ عنه الحصونُ التي بنَى ... وحفَّ بها أنهارُه والدّساكرُ
ولا قارَعتْ عنه المنيةَ حيلةٌ ... ولا طمِعت في الذَّبِّ عنه العساكرُ

أتاه مِن اللهِ ما لا يُرَدُّ، ونزَل به مِن قضائِه ما لا يُصَدُّ، فتعالى الله الملكُ الجبّارُ، المتكبِّرُ القهّارُ، قاصمُ الجبّارين، ومبيدُ المتكبِّرين.

مليكٌ عزيزٌ لا يُرَدُّ قضاؤُه ... حكيمٌ عليمٌ نافذُ الأمرِ قاهرُ
عَنَا كلُّ ذي عزٍّ لعزةِ وجهِه ... فكلُّ عزيزٍ للمهيمِنِ صاغرُ
لقد خضَعتْ واستسلَمتْ وتضاءَلَتْ ... لعزّةِ ذي العرشِ الملوكُ الجبابرُ

فالبِدارَ البِدارَ، والحِذارَ الحذارَ مِن الدنيا ومكايدِها، وما نصَبَتْ لك مِن مصايدِها، وتحلَّت لك مِن زينتِها، وأظهرَتْ لك مِن بهجتِها.

وفي دون ما عايَنتَ من فَجَعاتها | إلى رفضها داعٍ وبالزهد آمرُ
فَجِدَّ ولا تغفُلْ فعيشُكَ زائلٌ | وأنتَ إلى دارِ الإقامة صائرُ
ولا تطلُبِ الدنيا فإنَّ طلابَها | وإنْ نلتَ منها غُبَّةً لكَ ضائرُ

فهل يحرصُ عليها لبيبٌ، أو يُسَرُّ بها أريبٌ؟ وهو على ثقةٍ مِن فَنائها، وغيرُ طامعٍ في بقائها، أم كيف تنامُ عينا مَن يخشَى البَياتَ، وتسكنُ نفسُ مَن يتوقَّعُ المَماتَ.

ألا لا ولكنَّا نَغُرُّ نفوسَنا | وتشغَلُنا اللَّذَّاتُ عمَّا نحاذرُ
وكيف يَلَذُّ العيشَ مَن هو موقنٌ | بموقفِ عدلٍ يومَ تُبلَى السرائرُ
كأنَّا نرَى أنْ لا نشورَ وأنَّنا | سُدًى ما لنا بعدَ المَماتِ مصائرُ

وما عسَى أن ينالَ صاحبُ الدّنيا مِن لذَّتِها ويتمتَّعَ به مِن بهجتِها، مع صنوفِ عجائبِها، وكثرةِ تعبِه في طلبِها، وما يكابِدُ من أسقامِها وأوصابِها وآلامِها؟!

أما قد ترَى في كلِّ يومٍ وليلةٍ | يروحُ علينا صرفُها ويباكرُ؟
تعاوَرُنا آفاتُها وهمومُها | وكمْ قد ترَى يَبقَى لها المُتعاوِرُ؟
فلا هو مغبوطٌ بدنياه آمنٌ | ولا هوَ عنْ تَطلابِها النفسَ قاصرُ

كم قد غرَّت الدنيا مِن مُخلِدٍ إليها، وصرَعت مِن مكِبٍّ عليها، فلم تُنعِشْه مِن عثْرتِه، ولم تُقِمْه مِن صرْعتِه، ولم تَشْفِه مِن ألمِه، ولم تُبرِه مِن سقَمِه.

بلى أوردَتْه بعدَ عزٍّ ومَنعةٍ | مواردَ سوءٍ ما لهنَّ مصادرُ
فلمَّا رأى أن لا نجاةَ وأنَّه | هو الموتُ لا يُنْجِيه منه التحاذُرُ
تندَّمَ إذْ لم تُغنِ عنه ندامةٌ | عليه وأبكَتْه الذنوبُ الكبائرُ

بكَى على ما سلَف مِن خطاياه، وتحسَّر على ما خلَف مِن دنياه، حين لا ينفَعُه الاستغفارُ، ولا يُنجيه الاعتذارُ، عند هولِ المنيةِ ونزولِ البليةِ.

أحاطتْ به أحزانُهُ وهمومُهُ | وأبلسَ لَمَّا أعجَزتْهُ المعاذِرُ
فليس له من كُربةِ الموتِ فارجٌ | وليس له مما يحاذرُ ناصرُ
وقد جشَأتْ خوفَ المنيةِ نفسُهُ | تُردِّدُها منه اللَّها والحناجرُ

هنالك خفَّ عُوّادُه، وأسلَمه أهلُه وأولادُه، وارتفَعتْ الرنَّةُ بالعَويلِ، وقد أيِسوا مِن العليلِ، فغَمَّضوا بأيديهم عينَيه، ومدّ عندَ خروجِ روحِه رجلَيه.

فكم موجَعٍ يبكي عليه ومُفجَعٍ | ومستنجِدٍ صبرًا وما هو صابرُ

ومسترجعٍ داعٍ له اللهَ مخلصًا ... يعدِّدُ منه خيرَ ما هوَ ذاكر
وكمْ شامت مستبشرٍ بوفاته ... وعمّا قليل كالذي صار صائرُ

فشقَّ جيوبَها نساؤه، ولطَم خدودَها إماؤه، وأعْوَل لفقدِه جيرانُه، وتوجَّع لرزئِه إخوانُه، ثم أقبَلوا على جَهازِه، وشمّروا لإبرازِه.

وظلَّ أحبُّ القومِ كان لقربِه ... يحُثُّ على تجهيزِه ويبادرُ
وشمَّر مَنْ قد أحضَروه لغَسله ... ووجَّه لمّا قام للقبرِ حافرُ
وكُفِّن في ثوبين واجتمَعتْ لَهُ ... مُشيِّعةً إخوانُهُ والعشائرُ

فلو رأيْتَ الأصغرَ مِن أولادِه، وقد غلَب الحزنُ على فؤادِه، وغُشِي مِن الجَزَعِ عليه، وخَضَّبتْ الدموعُ خدَّيه، وهو يندُبُ أباه، ويقول: يا ويلاه.

لعايَنتَ من قبحِ المنيةِ منظرًا ... يُهالُ لَمرآهُ ويَرْتاعُ ناظرُ
أكابرُ أولادٍ يَهِيجُ اكتئابُهمْ ... إذا ما تناساه البنون الأصاغرُ
ورنَّةُ نسوانٍ عليهِ جوازعٍ ... مدامعُهمْ فوقَ الخدود غوازرُ

ثم أُخرِج مِن سَعةِ قصرِه إلى ضِيقِ قبرِه، فلمّا استقرّ في اللحدِ وهَى عليه اللبِنُ، وحثَوا بأيديهم عليه الترابَ، وأكثَروا التلَدُّدَ عليه والانتحابَ، ثم وقَفوا ساعةً عليه، وأيِسوا مِن النظرِ إليه.

فولَّوا عليهِ مُعْوِلين وكلُّهم ... لمثلِ الذي لاقى أخوهُ محاذرُ
كشاءٍ رِتاعٍ آمنينَ بدا لها ... بمُديتِه بادي الذراعينِ حاسرُ
فريعَت ولم ترتَعْ قليلاً وأجفَلتْ ... فلمّا نأى عنها الذي هو جازرُ

عادت إلى مَرْعاها، ونسِيتْ ما في أختِها دهاها، أفبأفعالِ البهائمِ اقتدَينا؟ أم على عادتِها جرَيْنا؟ عُدْ إلى ذكرِ المنقولِ إلى دارِ البِلى والثَّرَى، المدفوعِ إلى هَوْلِ ما ترَى.

ثوَى مفردًا في لحدِه وتوزَّعت ... مواريثَه أرحامُه والأواصرُ
وأحنَوْا على أمواله يقسِمونها ... فلا حامدٌ منهم عليها وشاكرُ
فيا عامرَ الدنيا ويا ساعيًا لها ... ويا آمنًا مِن أنْ تدورَ الدوائرُ

كيف أمِنتَ هذه الحالَة وأنت صائرٌ إليها لا محالَةَ؟! أم كيف تتهنَّأُ لحياتِك وهي مطِيَّتُك إلى مماتِك؟! أم كيف تَسيغُ طعامَك وأنت منتظِرٌ حِمامَك؟!

ولم تتزوَّدْ للرحيلِ وقد دنا ... وأنت على حالٍ وشيكًا مسافرُ
فيا لهفَ نفسي كم أسوِّفُ توبَتي ... وعُمريَ فانٍ والرَّدَى ليَ ناظرُ
وكلُّ الذي أسلَفتُ في الصحفِ مثبَتٌ ... يُجازِي عليه عادلُ الحكمِ قادرُ

فكم ترقَعُ بآخرتِك دنياك وتركَبُ في ذلك هواك أراك ضعيفَ اليقينِ، يا مؤثِرَ الدنيا على الدينِ،

أبهذا أمرك الرحمنُ؟ أم على هذا نزَل القرآنُ؟

تُخَرِّبُ ما يَبقَى وتَعمُرُ فانيًا ... فلا ذاكَ موفورٌ ولا ذاكَ عامرُ
وهل لك إن وافاكَ حتفُك بغتةً ... ولم تكتسبْ خيرًا لدى الله عاذرُ
أترضَى بأنْ تَفنَى الحياةُ وتنقضي ... ودينُك منقوصٌ ومالُكَ وافرُ

وقد اختلَف أهلُ التاريخ في السنة التي تُوفِّي فيها عليُّ بنُ الحُسين، زينُ العابدين؛ فالمشهورُ عن الجمهور أنَّه تُوفِّي في هذه السنة - أعني سنةَ أربع وتسعين - في أوَّلِها عن ثمانٍ وخمسين سنةً، وصُلِّي عليه بالبقيع، ودُفِن به.

قال الفلاَّسُ: مات سعيدُ بنُ المسيَّب، وعليُّ بنُ الحسين، وعُرْوةُ، وأبو بكرِ بنُ عبد الرحمنِ سنةَ أربعٍ وتسعين.

وقال بعضهم: توفِّي ثِنتيْن، أو ثلاثٍ وتسعينَ.

وأغرَبَ المدائنيُّ في قوله: إنَّه تُوفِّي سنةَ تسع وتسعينَ. واللهُ أعلمُ.

وممن تُوفِّي فيها من الأعيان:

أبو بكرِ بنُ عبدِ الرحمنِ بن الحارث بن هشام بن المغيرة بن عبد الله بن عمرَ بن مخزوم القرشيُّ، المدنيُّ، أحدُ الفقهاء السبعة، قيل: اسمُه محمدٌ. وقيل: اسمُه أبو بكر، وكنيتُه أبو عبدِ الرحمنِ. والصحيحُ أنَّ اسمَه وكنيتَه واحدٌ. وله من الأولاد والإخوة كثيرٌ، وهو تابعيٌّ جليلٌ، روَىٰ عن عمّار، وأبي هريرةَ، وأسماءَ بنت أبي بكر، وعائشةَ، وأمِّ سلمةَ، وغيرهم، وعنه جماعةٌ، منهم بنوه؛ سلَمةُ، وعبدُ الله، وعبدُ الملك، وعمرُ، ومولاه سُمَيٌّ، وعامرٌ الشعبيُّ، وعمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، وعمرُو بنُ دينارٍ، ومُجاهدٌ، والزُّهْرِيُّ.

وُلد في خلافة عُمَرَ، وكان يُقالُ له: راهبُ قُريشٍ. لكثرة صلاته، وكان مكفوفًا، وكان يصومُ الدهرَ، وكان من الثقة، والأمانة، والفقه، وصحة الرواية على جانبٍ عظيمٍ.

وكان عبدُ الملك بنُ مَرْوانَ يُكرمُه ويعرِفُ فضلَه، ويقولُ: إنِّي أهُمُّ بالشيء أفعَلُه بأهلِ المدينة؛ لسوء أثرهم عندَنا، فأذكُرُ أبا بكرِ بنَ عبدِ الرحمنِ فأستحْيِي منه، وأترُكُ ذلك الأمرَ من أجله. وله مناقبُ كثيرةٌ.

قال أبو داودَ: وكان قد كُفَّ، وكان إذا سجَد يضَعُ يدَه في طَسْتٍ؛ لعلَّه كان يجدُها. والصحيحُ أنه ماتَ في هذه السنةِ. وقيل: في التي قبلَها. وقيل: في التي بعدَها. واللهُ أعلمُ.

* * *

ثم دخلت سنة خمس وتسعين

فيها غزا العبّاسُ بنُ الوليد بلادَ الروم، وافتتح حصونًا كثيرةً. وفيها افتتح مسلَمةُ بنُ عبدِ الملك مدينةَ البابِ من إرمينيَّةَ، وخرَّبها ثم بنَاها مسلمةُ بعد ذلك بتسعِ سنينَ. وفيها افتتَح محمدُ بنُ القاسمِ الثقفيُّ مدينةَ المُولْتان من أرضِ الهند، وأخَذ منها أموالاً جزيلةً. وفيها قَدِم موسى بنُ نُصَيْرٍ من بلادِ الأندلُسِ إلى إفريقيَّةَ، ومعه الأموالُ على العَجَلِ تُحمَلُ من كثرتها، ومعه ثلاثون ألفَ رأسٍ من السَّبيِ. وفيها غزا قتيبةُ بنُ مسلمٍ بلادَ الشاشِ، ففتَح مُدنًا وأقاليمَ كثيرةً، فلمّا كان هناك جاءه الخبرُ بموت الحجاجِ بنِ يوسفَ فقمَعه ذلك، ورجَع بالناسِ إلى مدينة مروَ، وتمثّل بقول بعضِ الشعراء:

لَعَمْري لَنِعْمَ المرءُ من آلِ جَعْفَرٍ ... بحَوْرَانَ أمسَى أعلَقَتْهُ الحَبَائلُ

فإنْ تَحْيَ لا أملَلْ حَياتي وإن تَمُتْ ... فما في حَياتي بعدَ موتِكَ طائلُ

وفيها كتَب الوليدُ إلى قُتَيْبَةَ بأن يستمرَّ على ما هو عليه من مُناجَزَةِ الأعداءِ، ويَعِدُه على ذلك، ويَجزيه خيرًا، ويُثْني عليه بما صنَع من الجهادِ، وفتحِ البلادِ، وقتالِ أهلِ الكفرِ والعنادِ، وقد كان الحجّاجُ استخلَف على الصلاة ابنَه عبدَ الله، فولَّى الوليدُ الصلاةَ والحربَ بالمصرين - الكوفةِ والبصرةِ - يزيدَ ابنَ أبي كَبْشةَ، وولَّى خَراجَهما يزيدَ بنَ مُسلمٍ، وقيل: إنّ الحجّاجَ كان يستخلِفُهما على ذلك فأقرَّهما الوليدُ. واستمرَّ سائرُ نوّابِ الحجاجِ على ما كانوا عليه، وكانت وفاةُ الحجّاجِ لخمسٍ - وقيل: لثلاثٍ بَقِينَ من رمضانَ. وقيل: مات في شوّالٍ من هذه السنة.

وحجَّ بالناسِ فيها بشرُ بنُ الوليدِ بنِ عبدِ الملك، قاله أبو مَعشَرٍ والواقديُّ.

وفيها قُتِل الوضَّاحيُّ بأرضِ الروم، ومعه ألفٌ من أصحابِه.

وفي هذه السنةِ كان مولدُ أبي جعفرٍ المنصورِ عبدِ الله بنِ محمدِ بنِ عليِّ بنِ عبدِ الله بنِ عبّاسٍ.

وهذه ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي وذكر وفاته

هو الحجاجُ بنُ يوسفَ بنِ الحكم ابنِ أبي عقيلِ بنِ مسعودِ بنِ عامرِ بنِ مُعتِّبِ بنِ مالكِ بنِ كعبِ بنِ عمرِو بنِ سعدِ بنِ عوفِ بنِ ثقيفٍ - وهو قَسِيُّ بنُ مُنَبِّهِ بنِ بكرِ بنِ هَوازنَ - أبو محمدٍ الثقفيُّ، سمع ابنَ عباسٍ وروَى عن أنسٍ، وسَمُرةَ بنِ جندبٍ، وعبدِ الملكِ بنِ مروانَ، وأبي بُرْدةَ ابنِ أبي موسى. وروَى عنه أنسُ بنُ مالكٍ، وثابتٌ البُنانيُّ، وحميدٌ الطويلُ، ومالكُ بنُ دينارٍ، وجَرادُ بن مجالدٍ، وقتيبةُ بنُ مسلمٍ، وسعيدُ ابنُ أبي عَرُوبةَ، قاله ابنُ عساكرَ. قال: وكانت له بدمشقَ آدُرٌ منها دارُ الزاويةِ بقربِ قصرِ ابنِ أبي الحديد، وولاَّه عبدُ الملك الحجازَ فقتَلَ ابنَ الزبيرِ، ثم عزلَه عنها وولاَّه العراقَ، وقدِم دمشقَ وافدًا على عبدِ الملك. ثم روَى من طريقِ المغيرةِ بنِ مسلمٍ، حدثنا سالمُ بنُ قتيبةَ ابنِ مسلمٍ، سمعتُ أبي يقولُ: خطَبَنا الحجاجُ بنُ يوسفَ، فذكَر القبرَ، فما زال يقولُ: إنَّه بيتُ الوَحدةِ، وبيتُ الغربةِ. حتى بكَى وبكَى مَن حولَه، ثم قال: سمعتُ أميرَ المؤمنين عبدَ الملك بنَ مروانَ يقولُ:

سمعتُ مروانَ يقولُ في خطبته: خَطَبنا عثمانُ بنُ عفانَ، فقال في خطبته: ما نظَر رسولُ الله ﷺ إلى قبرٍ أو ذَكَره إلاَّ بكَىٰ. وهذا الحديثُ له شاهدٌ في «سُنَنِ أبي داودَ» وغيرِه[1]. وساقَ من طريقِ أحمدَ بن عبدِ الجبارِ: ثنا سيَّارٌ، عن جعفرٍ، عن مالكِ بنِ دينارٍ قال: دخَلتُ يومًا على الحجاجِ، فقال لي: يا أبا يحيىٰ، ألا أحدِّثُك بحديثٍ حسنٍ عن رسولِ الله ﷺ؟ فقلتُ: بلىٰ. فقال: حدَّثني أبو بُردةَ، عن أبي موسىٰ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن كانتْ له إلى الله حاجةٌ فليدعُ بها في دُبُرِ صلاةٍ مفروضةٍ». وهذا الحديثُ له شاهدٌ عن فَضالةَ بنِ عبيدٍ وغيرِه في السننِ والمسانيدِ[2]، واللهُ أعلمُ.

قال الشافعيُّ: سمعتُ مَن يذكُرُ أنَّ المغيرةَ بنَ شعبةَ دخَل على امرأته وهي تتخلَّلُ - أي تخلِّلُ أسنانَها ليَخرُجَ ما بينَها مِن أذًى - وكان ذلك في أوَّلِ النَّهارِ، فقال: واللهِ لئن كنتِ باكرتِ الغذاءَ إنك لَرَغيبةٌ دَنيَّةٌ، وإنْ كان الذي تخلَّلين من شيءٍ بَقِي في فيكِ من البارحةِ إنكِ لَقَذِرةٌ. فطلَّقها، فقالتْ: واللهِ ما كان شيءٌ ممَّا ذكرتَ، ولكنَّني باكرتُ ما تُباكرُه الحرَّةُ من السِّواكِ، فبقيتْ شَظيَّةٌ في فمي منه فحاولتُها لأخرجَها. فقال المغيرةُ ليوسفَ أبي الحجاجِ: تزوَّجْها فإنَّها لخليقةٌ أنْ تأتيَ برجلٍ يسودُ، فتزوَّجَها يوسفُ أبو الحجاجِ. قال الشافعيُّ: فأُخبِرتُ أنَّ أبا الحجاجِ لمَّا بَنَىٰ بها واقَعَها فنامَ، فقيل له في النومِ: ما أسرَعَ ما ألقحتَ بالمبيرِ.

قال ابنُ خلِّكان: واسمُ أمِّه الفارعةُ بنتُ همامِ بنِ عروةَ بنِ مسعودٍ الثقفيِّ، وكان زوجُها الحارثَ بنَ كَلَدةَ الثقفيَّ طبيبَ العربِ. وذكَر عنه هذه الحكايةَ في السِّواكِ. وذكَر صاحبُ «العقدِ» أنَّ الحجاجَ كان هو وأبوه يُعلِّمان الغلمانَ بالطائفِ، ثم قدِم دمشقَ فكان عندَ رَوحِ بنِ زِنْباعٍ وزيرِ عبدِ الملك، فشكا عبدُ الملك إلى رَوحٍ أنَّ الجيشَ لا ينزِلون لنزوله ولا يرحَلون لرحيله، فقال رَوحٌ: عندي رجلٌ تُولِّيه ذلك. فولَّى عبدُ الملك الحجاجَ أمرَ الجيشِ، فكان لا يتأخرُ أحدٌ في النزولِ والرحيلِ، حتى اجتازَ إلى فسطاطِ رَوْحِ بنِ زِنْباعٍ وهم يأكلونَ، فضرَبهم وطوَّفَ بهم، وأحرَق الفسطاطَ، فشكا روحٌ ذلك إلى عبدِالملك، فقال للحجاجِ: لم صنَعتَ هذا؟ فقال: لم أفعلْه، إنما فعلَه أنتَ؛ فإنَّ يدي يدُك وسوطي سوطُك، وما ضرَّك إذا أعطيتَ رَوحًا فسطاطَين بدَل فسطاطِه، وبدلَ الغلامِ غلامين، ولا تكسِرُني في الذي ولَّيتَني؟ ففعلَ ذلك وتقدَّم الحجاجُ عنده.

قال: وبنَىٰ واسطَ في سنةِ أربعٍ وثمانين، وفرَغ منها في سنةِ ستٍّ وثمانين. وقيل قبلَ ذلك. قال: وفي أيَّامِه نُقِطتِ المصاحفُ. وذكَر في حكايتِه ما يدلُّ على أنَّه كان أولاً يُسمَّىٰ كليبًا، ثم سُمِّي

---

(١) أسنده الحجاج وفيه ما فيه وشاهده الذي أشار إليه المؤلف أخرجه أبو داود (٣٢٣٤) من حديث أبي هريرة وفيه أن النبي ﷺ بكى وأبكى من حوله حينما أتى قبر أمه وهذا مقيد بموقف وأصله بدون ذكر البكاء في «صحيح مسلم» (٩٧٦).
وفي سنن ابن ماجه (٤١٩٥) من حديث محمد بن مالك عن البراء أن النبي ﷺ جلس علي شفير القبر وبكى حتى بل الثرى وقال: «يا إخواني لمثل هذا فأعدوا» وفي سماع محمد بن مالك من البراء مقال طويل وحوله مناقشات ذكرتها في كتابي «الجامع في ذكر رواة المراسيل» و«الفوائد النيرة» (٢٠٥) والراجح أنه لم يسمع منه ولذا قال البوصيري في إسناده مقال والحاصل أن بكاء النبي ﷺ على القبر ثابت لكن لم يظهر لي دليل صحيح الآن أنه كان ما نظر إلى قبر أو ذكره إلا بكى.

(٢) أخرج أحمد (٦/ ١٨) وغيره وانظر «أبو داود» (١٤٨١) بإسناد صحيح من حديث فضالة بن عبيد مرفوعًا «. . . إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه، ثم ليصل علي النبي ﷺ ثم ليدع بما شاء».

الحجاج. وذكر أنَّه وُلِد ولا مخرجَ له حتى فُتِقَ له مخرجٌ، وأنَّه لم يرتضع أيامًا حتى سقوه دمَ جديٍ أيامًا ثم دمَ سالخٍ ولُطِّخَ وجهُه بدمه فارتضع، وكانت فيه شهامةٌ وحبٌّ لسفك الدماء؛ لأنَّه أوَّلُ ما ارتضع ذلك الدم الذي لُطِّخَ به وجهُه.

ويقال: إنَّ أمَّه هي المتمنيةُ لنصرِ بنِ حجاجِ بنِ علاطٍ. وقيل: إنَّها أمُّ أبيه. واللهُ أعلمُ.

وكانت فيه شهامةٌ عظيمةٌ، وفي سيفه رَهَق، وكان كثيرَ قتلِ النفوسِ التي حرَّمها اللهُ بأدنى شبهةٍ، وكان يغضَبُ غضَبَ الملوك، وكان ـ فيما يَزعُمُ ـ يَتشبَّهُ بزيادِ ابنِ أبيه، وكان زيادٌ يَتشبَّهُ بعمرَ بنِ الخطاب، فيما يَزعمُ أيضًا. ولا سواءٌ ولا قريبٌ. وقد ذكَر ابنُ عساكرَ في ترجمةِ سُلَيم بنِ عِتْرٍ التُّجيبيِّ قاضي مصرَ، وكان من كبارِ التابعين، وكان ممَّن شهد خطبةَ عمرَ بنِ الخطابِ بالجابيةِ، وكان مِن الزَّهادةِ والعبادةِ على جانبٍ عظيمٍ، وكان يختِم القرآنَ في كلِّ ليلةٍ ثلاثَ ختماتٍ في الصلاةِ وغيرِها. والمقصودُ أنَّ الحجاجَ كان مع أبيه بمصرَ في جامعها، فاجتاز بهما سُلَيمُ بنُ عِتْرٍ هذا، فنهَض إليه أبو الحجّاجِ فسلَّم عليه، وقال له: إنِّي ذاهبٌ إلى أميرِ المؤمنين، فهل من حاجةٍ لك عندَه؟ قال: نعم، تسألُه أنْ يعزِلَني عن القضاء. فقال: سبحانَ الله! والله لا أعلمُ قاضيًا اليومَ خيرًا منك. ثم رجَع إلى ابنِه الحجَّاجِ، فقال له ابنُه: يا أبه، أتقومُ إلى رجلٍ من تُجيبَ وأنت ثقفيٌّ؟ فقال له: يا بُنيَّ والله إنِّي لأحسَبُ أنَّ الناسَ إنَّما يُرحَمون بهذا وأمثاله. فقال الحجاجُ: والله ما على أميرِ المؤمنين أضرُّ من هذا وأمثاله. فقال: ولم يا بُنيَّ؟ قال: لأنَّ هذا وأمثالَه يجتمعُ الناسُ إليهم فيحدثُونهم عن سيرةِ أبي بكرٍ وعمرَ، فيحقِرُ الناسُ سيرةَ أميرِ المؤمنينَ ولا يرَوْنها شيئًا عندَ سيرتِهما، فيخلَعونَه ويخرُجون عليه ويُبْغِضُونه ولا يرَوْن طاعتَه، والله لو خَلَص إليَّ من الأمرِ شيءٌ لأضربنَّ عنقَ هذا وأمثاله. فقال له أبوه: يا بنيَّ، والله إنِّي لأظنُّ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ خلقَك شقيًّا. وهذا يدلُّ على أنَّ أباه كان ذا وجاهةٍ عندَ الخليفة، وأنَّه كان ذا فِراسةٍ صحيحةٍ؛ فإنَّه تفرَّسَ في ابنِه ما آلَ إليه أمرُه بعدَ ذلك.

قالوا: وكان مولدُ الحجاج في سنة تسع وثلاثين. وقيل: في سنة أربعينَ. وقيل: في سنة إحدى وأربعين. ثم نشَأ شابًّا لبيبًا فصيحًا بليغًا حافظًا للقرآن، قال بعضُ السلف: كان الحجاجُ يقرأُ القرآنَ في كلِّ ليلةٍ. وقال أبو العلاء: ما رأيتُ أفصحَ منه ومن الحسنِ البصريِّ، وكان الحسنُ أفصحَ منه. وقال الدارقطنيُّ: ذكَر سليمانُ بنُ أبي شيخٍ، عن صالحِ بنِ سليمانَ قال: قال عُتبةُ بنُ عمرٍو: ما رأيتُ عقولَ الناسِ إلاَّ قريبًا بعضُها مِن بعضٍ، إلاَّ الحجاجَ وإياسَ بنَ معاويةَ، فإنَّ عقولَهما كانت ترجَحُ على عقولِ الناسِ.

وتقدَّم أن عبدَ الملك لمَّا قُتِل مُصعبُ بنُ الزبيرِ سنةَ ثلاثٍ وسبعينَ بعَث الحجاجَ إلى أخيه عبدِ الله بمكةَ فحاصَره بها، وأقام للناسِ الحجَّ عامَئذٍ، ولم يتمكَّنِ الحجاجُ ومَن معه من الطوافِ بالبيت، ولا تمكَّن ابنُ الزبيرِ ومَن عندَه مِن الوقوفِ بعرفةَ، ولم يزل محاصرَه حتى ظفرَ به في جُمادى سنةَ ثلاثٍ

وسبعين، ثم استنابه عبدُ الملك على مكةَ والمدينة والطائف واليمن، ثم ولّاه عبدُ الملك العراقَ بعدَ موت أخيه بشر، فدخَل الكوفةَ كما ذكَرنا، وقال لهم وفعَل بهم ما تقدَّم إيرادُه مفصلاً، فأقام بينَ ظهرانَيهم عشرينَ سنةً كاملةً. وفتَح فيها فتوحاتٍ كثيرةً هائلةً منتشرةً، حتى وصلتْ خيولُه إلى بلادِ الهند والسند، ففتَح فيها جملةَ مدنٍ وأقاليمَ، ووصلتْ خيولُه أيضًا إلى قَريب بلادِ الصِّين، وجرتْ له فصولٌ قد ذكرناها. ونحن نوردُ هنا أشياءَ أُخرَ مما وقَع له مِن الأمورِ والجراءة والإقدام، والتهوُّرِ في الأمورِ العظام، مما يُمدحُ على مثله، ومما يُذمُّ بقوله وفعله، مما ساقه الحافظُ ابنُ عساكرَ وغيرُه:

فروَى أبو بكر بنُ أبي خَيْثَمةَ، عن يحيى بنِ أيوبَ، عن عبدِ اللهِ بنِ كثير -ابنِ أخي إسماعيلَ بنِ جعفرٍ المدينيِّ- ما معناه أنَّ الحجاجَ بنَ يوسفَ صلَّى مرةً بجنبِ سعيدِ بنِ المسيَّبِ -وذلك قبلَ أنْ يَليَ شيئًا- فجعَلَ يرفعُ قبلَ الإمامِ ويقعُ قبلَه في السُّجود، فلمَّا سلَّم أخَذ سعيدٌ بطرفِ ردائِه -وكان له ذكرٌ يقولُه بعدَ الصلاة- فما زالَ الحجاجُ ينازعُه رداءَه حتى قضَى سعيدٌ ذكْرَه، ثم أقبلَ عليه سعيدٌ فقال له: يا سارقُ يا خائنُ، تصلِّي هذه الصَّلاةَ! لقد هممتُ أنْ أضربَ بهذا النَّعلِ وجهَك. فلم يردَّ عليه، ثم مضَى الحجاجُ إلى الحجِّ، ثم رجَع فعادَ إلى الشام، ثم جاء نائبًا على الحجاز. فلما قُتل ابنُ الزبيرِ كرَّ راجعًا إلى المدينة نائبًا عليها، فلما دخَل المسجدَ إذا مجلسُ سعيدِ بنِ المسيَّب، فقصدَه الحجاجُ، فخشِي الناسُ على سعيدٍ منه، فجاء حتى جلَس بينَ يديه، فقال له: أنت صاحبُ الكلمات؟ فضرَب سعيدٌ صدرَه بيده، وقال: نعم. قال: فجزاك اللهُ مِن معلِّمٍ ومؤدِّبٍ خيرًا، ما صليتُ بعدَك صلاةً إلا وأنا أذكُرُ قولَك. ثم قام فمضَى.

وروَى الرِّيَاشيُّ، عن الأصمعيِّ وأبي زيدٍ، عن معاذِ بنِ العلاءِ -أخي أبي عمرِو بنِ العلاء- قال: لما قتَلَ الحجاجُ ابنَ الزبيرِ ارتجتْ مكةُ بالبكاء، فأمَر بالناسِ فجُمعوا في المسجد، ثم صعد المنبرَ، فقال بعد حمدِ اللهِ والثناءِ عليه: يا أهلَ مكةَ، بلَغني إكبارُكم قتلَ ابنِ الزبيرِ، ألا وإنَّ ابنَ الزبيرِ كان مِن خيارِ هذه الأمة، حتى رغب في الخلافة ونازَع فيها أهلَها، فنزَع طاعةَ الله واستكَنَّ بحرمِ الله، ولو كان شيءٌ مانعَ العُصاة لمنَعَتْ آدمَ حرمةُ الله؛ إنَّ اللهَ خلقَه بيده، ونفَخ فيه مِن رُوحه، وأسجَد له ملائكتَه، وأباحَ له كرامتَه، وأسكَنَه جنَّتَه، فلما أخطأَ أخرجَه مِن الجنة بخطيئته، وآدمُ أكرَمُ على اللهِ مِنَ ابنِ الزبيرِ، والجنةُ أعظَمُ حرمةً مِن الكعبة، اذكروا اللهَ يذكُرْكم.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا إسحاقُ بنُ يوسفَ، ثنا عوفٌ، عن أبي الصديقِ الناجيِّ أنَّ الحجاجَ دخَل على أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ بعدَ ما قُتل ابنُها عبدُ الله، فقال: إنَّ ابنَك ألحدَ في هذا البيت، وإنَّ اللهَ أذاقَه مِن عذابٍ أليم، وفعَل به وفعَل. فقالتْ: كذَبتَ، كان بَرًّا بوالديه، صوَّامًا قوَّامًا، واللهِ لقد أخبَرَنا رسولُ اللهِ ﷺ أنَّه يخرجُ مِن ثقيفٍ كذَّابان؛ الآخرُ منهما شرٌّ مِن الأول، وهو مبيرٌ.

ورواه أبو يَعْلَى، عن وهبِ بنِ بقيةَ، عن خالدٍ، عن عوفٍ، عن أبي الصديقِ. قال: بلَغني أنَّ

الحجاجَ دخَل على أسماءَ. . . . فذكَر مثلَه. وقال أبو يَعْلَى: ثنا زهيرٌ، ثنا جريرٌ، عن يزيدَ ابنِ أبي زيادٍ، عن قيسِ بنِ الأحنفِ، عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ. قالت: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ نهَى عن المُثْلَةِ، وسمعتُه يقولُ: «**يخرُجُ من ثقيف رجلانِ؛ كذَّابٌ ومُبيرٌ**». قالت: فقلتُ للحجاجِ: أمَّا الكذَّابُ فقد رأيناه، **وأمَّا المبيرُ فأنتَ هوَ يا حجاجُ**[1].

وقال عبدُ بنُ حُمَيْدٍ: أنبأ يزيدُ بنُ هارونَ، أنبأ العوَّامُ بنُ حَوْشَبٍ، حدَّثني مَن سمِع أسماءَ بنتَ أبي بكرٍ الصديقِ تقولُ للحجاجِ حينَ دخَل عليها يُعَزِّيها في ابنِها: سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ: «**يخرُجُ من ثقيفٍ رجلانِ؛ مُبيرٌ وكذَّابٌ**». فأمَّا الكذابُ فابنُ أبي عُبَيدٍ - تعني المختارَ - وأما المبيرُ فأنتَ. وتقدَّم في «صَحيح مسلمٍ»[2] مِن وجهٍ آخرَ أورَدناه عندَ مقتلِ ابنِها عبدِ اللهِ، وقد رواه غيرُ أسماءَ عن النبيِّ ﷺ. فقال أبو يعلى: ثنا أحمدُ بنُ عمرَ الوكيعيُّ. ثنا وكيعٌ، حدَّثتْنا أمُّ غُرابٍ، عن امرأةٍ يقال لها: عَقيلةُ. عن سَلامةَ بنتِ الحُرِّ، قالت: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**في ثقيف كذابٌ ومُبيرٌ**»[3]. تفرَّد به أبو يَعْلَى.

وقد روَى الإمامُ أحمدُ، عن وكيعٍ، عن أُمِّ غُرابٍ - واسمُها طلحةُ - عن عَقيلةَ، عن سلامةَ حديثًا آخرَ في «الصلاةِ». وأخرَجه أبو داودَ وابنُ ماجه[4]. ورُوِيَ مِن حديثِ ابنِ عمرَ، فقال أبو يعلى: ثنا أميةُ بنُ بِسطامَ، ثنا يزيدُ بنُ زُرَيعٍ، ثنا إسرائيلُ، ثنا عبدُ اللهِ بنُ عِصْمَةَ، قال: سمِعتُ ابنَ عمرَ، أنبأنا رسولُ اللهِ ﷺ أنَّ في ثقيفٍ مُبيرًا وكذَّابًا[5]. وأخرَجه الترمذيُّ مِن حديثِ شَريكٍ، عن عبدِ اللهِ بنِ عُصْمٍ - ويقالُ: عِصْمةَ - وقال: حسنٌ غريبٌ، لا نعرفُه إلاَّ من حديثِ شريكٍ[6].

وقال الشافعي: أنبأ مسلمُ بنُ خالدٍ، عن ابن جُرَيْجٍ، عن نافعٍ أنَّ ابنَ عمرَ اعتزلَ ليالِيَ قتالِ ابنِ الزبيرِ والحجاجِ بمنًى، فكان يُصَلِّي مع الحجاجِ. وقال الثوريُّ، عن محمدِ بنِ المنكدرِ، عن جابرٍ أنَّه دخَل على الحجاجِ فلم يُسلِّمْ عليه ولم يكنْ يصلِّي وراءَه. وقال إسحاقُ بنُ راهَوَيْه: أنبأ جريرٌ، عن القَعقاعِ بنِ الصلتِ قال: خطَب الحجاجُ، فقال: إنَّ ابنَ الزبيرِ غيَّر كتابَ اللهِ. فقال ابنُ عمرَ: ما سلَّطَه اللهُ على ذلك، ولا أنت معه، ولو شئتُ أن أقولَ: كذبتَ، لفعلتُ. ورُوي عن شَهرِ بنِ حوشبٍ وغيرِه أنَّ الحجاجَ أطالَ الخطبةَ فجعَل ابنُ عمرَ يقولُ: الصلاةَ الصلاةَ، مِرارًا، ثم قامَ فأقامَ الصلاةَ، فقامَ الناسُ، فصلَّى الحجاجُ بالناسِ، فلمّا انصرفَ قال لابنِ عمرَ: ما حمَلكَ على ذلك؟ فقال: إنّما نجيءُ للصلاةِ، فصَلِّ الصلاةَ لوقتِها، ثم بَقْبِقْ ما شئتَ بعدُ مِن بَقْبقةٍ.

وقال الأصمعيُّ: سمعتُ عمِّي يقولُ: بلَغني أنَّ الحجاجَ لَمَّا فرَغ مِن ابنِ الزبيرِ، وقدِم إلى المدينةِ

---

(١) حديث صحيح سيأتي تخريجه فيما بعده. (٢) تقدم.
(٣) إسناده ضعيف هو والإسناد الذي سيأتي عقبه من أجل أم غراب فقد قال الحافظ في «التقريب» لا يعرف حالها.
(٤) انظر ما قبله.
(٥) ما برز من الإسناد لا بأس به وعبد الله بن عصمة فيه كلام وهو حسن الحديث إن شاء الله.
(٦) في إسناده شريك النخعي سيئ الحفظ وهو عند الترمذي (٣٩٤٤) من طريق الفضل بن موسى عن شريك به.

لقي شيخًا خارجًا من المدينة، فسأله عن حال أهل المدينة، فقال: بشرّ حال، قُتل ابنُ حواريّ رسول الله ﷺ. فقال الحجاجُ: ومَن قتله؟ قال: الفاجرُ اللّعينُ الحجاجُ، عليه لعائنُ الله وتهلُكتُه؛ من قليل المراقبة لله. فغضب الحجاجُ غضبًا شديدًا ثم قال: أيُّها الشيخُ، أتعرفُ الحجاجَ إذا رأيتَه؟ قال: نعم، فلا عرَّفه اللهُ خيرًا، ولا وقاه ضُرًّا. فكشَف الحجاجُ عن لثامه وقال: ستعلمُ أيُّها الشيخُ الآنَ إذا سال دمُك الساعةَ. فلمَّا تحقَّق الشيخُ الجدَّ، قال: والله إنَّ هذا لَهُو العجبُ يا حجاجُ، لو كنتَ تعرفُني ما قلتَ هذه المقالةَ، أنا العباسُ ابنُ أبي داودَ، أُصرَعُ كلَّ يومٍ خمسَ مراتٍ. فقال الحجاجُ: انطلقْ، فلا شفَى اللهُ الأبعدَ من جنونه ولا عافاه.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا عبدُ الصمد، ثنا حمادُ بنُ سلمةَ، عن ابن أبي رافعٍ، عن عبد الله بن جعفرٍ أنَّه زوَّج ابنتَه من الحجاج بن يوسفَ، فقال لها: إذا دخَل بك فقولي: لا إلهَ إلا اللهُ الحليمُ الكريمُ، سبحانَ الله ربِّ العرش العظيم، الحمدُ لله ربِّ العالمين. وزعَم أنَّ رسولَ الله ﷺ كان إذا حزَبه أمرٌ قال هذا. قال حمادٌ: فظنَنتُ أنَّه قال: فلم يَصِلْ إليها [1]. قال الشافعيُّ: لمَّا تزوَّج الحجاجُ بنتَ عبد الله بن جعفرٍ، قال خالدُ بنُ يزيدَ بن معاويةَ لعبد الملك بن مروانَ: أتُمكِّنُه من ذلك؟ فقال: وما بأسٌ بذلك؟ قال: أشدُّ البأس والله. قال: وكيف؟ قال: والله يا أميرَ المؤمنين لقد ذهَب ما في صدري على آل الزبير منذُ تزوجتُ رَمْلةَ بنتَ الزبير. قال: فكأنَّه كان نائمًا فأيقَظَه، فكتَب إلى الحجاجَ يعزِمُ عليه في طلاقها فطلَّقها.

وقال سعيدُ ابنُ أبي عَروبةَ: حجَّ الحجاجُ مرةً، فمرَّ بينَ مكةَ والمدينة فأُتي بغدائه فقال لحاجبه: انظرْ مَن يأكلُ معي. فذهَب، فإذا أعرابيٌّ نائمٌ فضرَبه برجله وقال: أجِب الأميرَ. فقام، فلمَّا دخَل على الحجاج قال له: اغسلْ يديك ثم تغدَّ معي. فقال: إنَّه دعاني مَن هو خيرٌ منك. فأجبتُه. قال: ومَن هو؟ قال: اللهُ دعاني إلى الصوم فأجبتُه. قال: في هذا الحرِّ الشديد؟ قال: نعم، صمتُ ليومٍ هو أشدُّ حرًّا منه. قال: فأفطرْ وصُمْ غدًا. قال: إنْ ضمِنتَ لي البقاءَ إلى غدٍ. قال: ليس ذلك إليَّ. قال: فكيفَ تسألُني عاجلاً بآجلٍ لا تقدرُ عليه؟ قال: إنَّ طعامَنا طعامٌ طيبٌ. قال: لَمْ تُطيِّبْه أنت ولا الطباخُ، إنَّما طيَّبَتْه العافيةُ.

فصلٌ

قد ذكَرْنا كيفيةَ دخول الحجاج الكوفةَ في سنة خمسٍ وسبعين وخطبتَه إيَّاهم بغتةً، وتهديدَه ووعيدَه إيَّاهم، وأنَّهم خافوه مخافةً شديدةً، وأنَّه قتَل عُمَيْرَ بنَ ضابئٍ، وكذلك قتَل كُمَيْلَ بنَ زيادٍ صبرًا أيضًا، ثم كان من أمره في قتال ابن الأشعث ما قدَّمنا ذكْرَه؛ مَن ظَفَره به بعد المطاولة والمقاتَلة وتَسلُّطه على مَن كان معه من الرؤساء والأمراء والعُبَّاد والقُرَّاء، حتى كان آخرُ مَن قتَل منهم سعيدَ بنَ

(١) في إسناده ابن أبي رافع لم أهتد إلى معرفته.

جُبَيْرٍ. قال القاضي المُعَافَىٰ بنُ زكريا: ثنا أحمدُ بنُ محمدِ بنِ سعيدٍ الكلبيُّ، ثنا محمدُ بنُ زكريا الغَلَابيُّ، ثنا محمدٌ -يعني ابنَ عُبَيْدِ اللهِ بنِ عباسٍ- عن عطاءٍ -يعني ابنَ مصعبٍ- عن عاصمٍ قال: خطَب الحجاجُ أهلَ العراقِ بعدَ دَيرِ الجماجمِ، فقال: يا أهلَ العراقِ، إنَّ الشيطانَ قد استبطَنَكم فخالَط اللحمَ والدمَ، والعصبَ والمسامعَ، والأطرافَ، ثم أفضَىٰ إلى الأسماخِ والأمخاخِ، والأشباحِ والأرواحِ، ثم ارتفَع فعشَّش، ثم باضَ وفرَّخ، ثم دبَّ ودرَج، فحشاكم نفاقًا وشقاقًا، وأشعَركم خلافًا، اتخَذتُموه دليلًا تتَّبِعُونَه، وقائدًا تُطيعُونه، ومؤامرًا تُشاورونه وتستأمِرونه، فكيف تنفعُكم تجربةٌ أو ينفعُكم بيانٌ؟ ألستمُ أصحابي بالأهوازِ حيثُ رُمْتُم المكرَ وأجمَعتُم على الكفرِ، وظننتُم أنَّ اللهَ يخذُلُ دينَه وخلافتَه؟ وأنا أرميكم بطَرْفي وأنتم تتسلَّلون لِواذًا، وتنهزِمون سِراعًا، يومُ الزاويةِ، وما يومُ الزاويةِ! مما كان من فشلِكم وتنازُعِكم وتخاذُلِكم وبراءةِ اللهِ منكم، ونُكوسِ قلوبِكم؛ إذ ولَّيْتُم كالإبلِ الشاردةِ عن أوطانِها النوازعِ، لا يَسألُ المرءُ عن أخيه، ولا يَلْوِي الشيخُ على بنيه، حين عضَّكم السلاحُ، ونَخَسَتْكم الرماحُ. يومُ دَيرِ الجماجمِ، وما يومُ دَيرِ الجماجمِ! بها كانت المعاركُ والملاحمُ، بضربٍ يُزيلُ الهامَ عن مَقيلِه، ويُذهِلُ الخليلَ عن خليلِه، يا أهلَ العراقِ، يا أهلَ الكَفَراتِ بعدَ الفَجَراتِ، والغَدَراتِ بعدَ الخَتَراتِ، والنزوةِ بعدَ النَّزَواتِ، إنْ بَعَثْناكم إلى ثغورِكم غلَلتُم وخُنتُم، وإن أمِنتُم أرجَفتُم، وإن خِفتُم نافقتُم، لا تذكرون نعمةً، ولا تشكُرون معروفًا، هل استخفَّكم ناكثٌ، أو استغواكم غاوٍ، أو استنقَذَكم عاصٍ، أو استنصَركم ظالمٌ، أو استعضَدكم خالعٌ -إلَّا لبَّيْتُم دعوتَه، وأجبتُم صيحتَه، ونفرتم إليه خفافًا وثقالًا، وفُرسانًا ورجالًا؟ يا أهلَ العراقِ، هل شغَب شاغبٌ، أو نعَب ناعبٌ، أو زَفَر زافرٌ إلَّا كنتُم أتباعَه وأنصارَه؟ يا أهلَ العراقِ، ألم تنفعْكم المواعظُ؟ ألم تزجُرْكم الوقائعُ؟ ألم يُشدِّدِ اللهُ عليكم وطأتَه، ويُذِقْكم حرَّ سيفِه، وأليمَ بأسِه ومَثُلاتِه؟

ثم التفتَ إلى أهلِ الشامِ، فقال: يا أهلَ الشامِ، إنَّما أنا لكم كالظَّليمِ الرامحِ عن فِراخِه يَنفي عنها القذرَ، ويباعدُ عنها الحجرَ، ويُكِنُّها من المطرِ، ويَحميها من الضِّبابِ، ويَحرُسُها من الذِّئابِ، يا أهلَ الشامِ، أنتم الجُنَّةُ والرِّداءُ، وأنتم المُلاءةُ والحِذاءُ، أنتم الأولياءُ والأنصارُ، والشِّعارُ والدِّثارُ، بكم يُذَبُّ عن البيعةِ والحَوْزةِ، وبكم تُرمَىٰ كتائبُ الأعداءِ، ويُهزَمُ مَن عانَد وتولَّىٰ.

قال ابنُ أبي الدنيا: حدَّثني محمدُ بنُ أبي الحسينِ، حدَّثنا عبيدُ اللهِ بنُ محمدٍ التيميُّ، سمعتُ شيخًا من قريشٍ يُكْنَىٰ أبا بكرٍ التيميَّ، قال: كان الحجاجُ يقولُ في خطبتِه -وكان لَسِنًا-: إنَّ اللهَ خلَق آدمَ وذريتَه من الأرضِ، فأمشاهم على ظهرِها، فأكلوا ثمارَها، وشربوا أنهارَها، وهتَكوها بالمساحي والمرورِ، ثم أدالَ اللهُ الأرضَ منهم، فردَّهم إليها، فأكَلتْ لحومَهم كما أكلوا ثمارَها، وشربتْ دماءَهم كما شربوا أنهارَها، وقطَّعتهم في جوفِها، وفرَّقت أوصالَهم كما هتَكوها بالمساحي والمرورِ.

وممَّا رواه غيرُ واحدٍ عن الحجاجِ أنَّه قال في خطبتِه في المواعظِ: أيُّها الرجلُ، وكلُّكم ذلك الرجلُ،

رجلٌ خطَم نفسَه وزمَّها فقادَها بخطامِها إلى طاعة الله، وكفَّها بزمامِها عن معاصي الله، رحم اللهُ امرأً ردَّ نفسَه، امرأً اتَّهم نفسَه، امرأً اتَّخَذ نفسَه عدوَّه، امرأً حاسَب نفسَه قبلَ أن يكونَ الحسابُ إلى غيرِه، امرأً نظَر إلى ميزانه، امرأً نظَر إلى حسابِه، امرأً وزَن عملَه، امرأً فكَّر فيما يقرأُ غدًا في صحيفته ويراه في ميزانه، وكان عندَ قلبِه زاجرًا، وعندَ همِّه آمرًا، امرأً أخَذ بعنانِ عمله كما يأخذُ بعنانِ جَمَلِه، فإن قادَه إلى طاعةِ اللهِ تَبِعَه، وإنْ قادَه إلى معصيةِ اللهِ كفَّ، امرأً عقَل عن الله أمرَه، امرأً فاق واستفاق، وأبغَض المعاصيَ والنفاقَ، وكان إلى ما عندَ اللهِ بالأشواق. فما زال يقولُ امرأً امرأً. حتى بكَى مالكُ بنُ دينارٍ.

وقال المدائنيُّ، عن عَوانةَ بنِ الحكم قال: قال الشعبيُّ: سمعتُ الحجاجَ تكلَّم بكلامٍ ما سبَقه إليه أحدٌ؛ يقولُ: أما بعدُ، فإنَّ اللهَ تعالى كتَب على الدُّنيا الفناءَ، وعلى الآخرةِ البقاء، فلا فناءَ لما كتَب عليه البقاءَ، ولا بقاءَ لما كتَب عليه الفناءَ. فلا يَغُرَّنَّكم شاهدُ الدنيا عن غائبِ الآخرةِ، واقهَروا طولَ الأملِ بقِصَرِ الأجلِ.

وقال المدائنيُّ، عن أبي عبدِ الله الثقفيِّ، عن عمِّه، قال: سمعتُ الحسنَ البصريَّ يقولُ: وقَذَتْني كلمةٌ سمعتُها من الحجاجِ، سمعتُه يقولُ على هذه الأعوادِ: إنَّ امرأً ذهبتْ ساعةٌ من عُمرِه في غيرِ ما خُلِق له لَحَرِيٌّ أنْ تطولَ عليها حسرتُه إلى يوم القيامة.

وقال شَرِيكٌ القاضي، عن عبدِ الملك بنِ عُمَيرٍ قال: قال الحجاجُ يومًا: مَن كان له بلاءٌ أعطيناه على قدرِه. فقام رجلٌ فقال: أعطِني فإنِّي قتلتُ الحسينَ. فقالَ: وكيف قتَلتَه؟ قال: دَسَرتُه بالرمحِ دَسْرًا، وهبَرتُه بالسيفِ هبرًا، وما أشركتُ معي في قتلِه أحدًا. فقال: اذهبْ فوالله لا تجتمعُ أنت وهو في موضعٍ واحدٍ. ولم يُعْطِه شيئًا.

وقال الهيثمُ بنُ عديٍّ: جاء رجلٌ إلى الحجاجِ فقال: إنَّ أخي خرَج مع ابنِ الأشعثِ، فضُرِب على اسمي في الديوانِ، ومُنِعتُ العطاءَ، وقد هُدِمَتْ داري. فقال الحجاجُ: أما سمعتَ قولَ الشاعرِ:

جانيكَ مَن يَجْني عليكَ وقَدْ ... تُعْدِي الصِّحاحَ مَبارِكُ الجُرْبِ
ولَرُبَّ مأخوذٍ بذنبِ قريبِه ... ونجا المُقارِفُ صاحبُ الذنبِ

فقال الرجلُ: أيُّها الأميرُ، إنِّي سمعتُ اللهَ يقولُ غيرَ هذا، وقولُ اللهِ أصدقُ من هذا. قال: وما قال؟ قال: ﴿قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذًا لَّظَالِمُونَ﴾ [يوسف: ٧٨، ٧٩]. قال: يا غلامُ أعِدِ اسمَه في الديوانِ، وابْنِ دارَه، وأعْطِه عطاءَه، ومُرْ مناديًا ينادي: صدَق اللهُ وكذَب الشاعرُ.

وقال الهيثمُ بنُ عديٍّ، عن ابنِ عيَّاشٍ: كتَب عبدُ الملكِ إلى الحجاجِ أنِ ابعثْ إليَّ برأسِ أسلمَ بنِ عبدٍ البكريِّ؛ لما بلغَني عنه. فأحضرَه الحجاجُ، فقال: أيُّها الأميرُ، أنت الشاهدُ، وأميرُ المؤمنين

الغائبُ، وقال اللهُ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦]. وما بلَغه عني فباطلٌ، وإنِّي أعولُ أربعةً وعشرين امرأةً، ما لهنَّ كاسبٌ غيري، وهنَّ بالباب. فأمَر الحجاجُ بإحضارِهنَّ، فلما حضرْنَ جعَلتْ هذه تقولُ: أنا خالتُه. وهذه: أنا عمتُه. وهذه: أنا أختُه، وهذه: أنا ابنتُه. وهذه: أنا زوجتُه. وتقدَّمت إليه جاريةٌ فوقَ الثمانِ ودونَ العَشَرة، فقال لها الحجاجُ: مَن أنتِ؟ فقالتْ: أنا ابنتُه. ثم قالتْ: أصلَح اللهُ الأميرَ. وجثَتْ على ركبتيها، وقالت:

أحجاجُ لم تشهدْ مقامَ بناتِه ... وعمَّاتِه يندُبْنَه الليلَ أجمعا
أحجاجُ كم تقتُلْ به إن قتَلتَه ... ثمانًا وعشرًا واثنتين وأربعا
أحجاجُ مَنْ هذا يقومُ مَقامَه ... علينا فمهلاً أن تَزِدْنا تضعضُعا
أحجاجُ إما أن تجودَ بنعمةٍ ... علينا وإما أن تُقَتِّلَنا معا

قال: فبكَى الحجاجُ، وقال: واللهِ لا أَعنَتُ عليكنَّ ولا زِدتُكنَّ تضعضُعًا. ثم كتَب إلى عبدِ الملك بما قال الرجلُ وبما قالت ابنتُه هذه، فكتَب عبدُ الملك إلى الحجاج يأمرُه بإطلاقه وحسنِ صلته، وبالإحسانِ إلى هذه الجاريةِ وتفقُّدها في كلِّ وقتٍ. وقيل: إن الحجاجَ خطَب يومًا فقال: أيُّها الناسُ، الصبرُ عن محارم الله أيسرُ من الصبرِ على عذابِ الله. فقام إليه رجلٌ، فقال له: وَيْحَك يا حجاجُ، ما أصفقَ وجهَك وأقلَّ حياءَك، تفعلُ ما تفعلُ وتقولُ مثلَ هذا الكلام؟ خِبْتَ وضلَّ سعيُك. فقال للحرسِ: خذوه. فلما فرَغ من خطبته، قال له: ما الذي جرَّأك عليَّ؟ فقال: ويحك يا حجاجُ، أنت تجترئُ على الله ولا أجترئُ أنا عليك! ومَن أنت حتى لا أجترئ عليك وأنت تجترئُ على الله ربِّ العالمين؟ فقال: خلُّوا سبيلَه. فأُطلق.

وقال المدائنيُّ: أُتِيَ الحجاجُ بأسيرَيْن من أصحاب ابنِ الأشعث، فأمَر بقتلهما، فقال أحدُهما: إنَّ لي عندكَ يدًا. قال: وما هي؟ قال: ذكَر ابنُ الأشعث يومًا أمَّك، فرددتُ عليه. فقال: ومَن يشهَدُ لك؟ قال: صاحبي هذا. فسأله، فقال: نعم. فقال: فما منَعك أن تفعَلَ كما فعَل؟ قال: بُغضُك. قال: أطلقوا هذا لصدقه، وهذا لفعله. فأطلَقوهما.

وحكَى الواقديُّ أنَّ الحجّاجَ نادَى في البلدِ: أنَّ مَن خرَج بعدَ العشاءِ الآخرةِ من بيته قُتِل، فأُتِي ليلةً برجلٍ، فقال: ما أخرجَك من بيتك هذه الساعةَ من بعدِ ما سمعتَ المناديَ؟ فقال: أمَا واللهِ إنِّي لا أكذبُ الأميرَ، إنَّ أمِّي مريضةٌ هالكةٌ، وأنا عندَها منذُ ثلاثةِ أيام، فلمّا كان الساعةُ أفاقت، وقالت: يا بُنيَّ إنِّي أعزِمُ عليك بحقِّي عليك إلاَّ ما مضَيتَ إلى أهلك وأولادك، فإنَّهم مغمومون بتخلُّفك عنهم. فخرجتُ من عندها فأخذَني العَسَسُ، وأتَوْا بي إليك. فقال الحجاجُ: ننهاكم وتعصُوننا. ثم أمَر فضُرِبت عنقُه. قال: ثم أُتِي بآخَر، فقال له الحجاجُ: ما أخرَجك هذه الساعةَ؟ فقال: واللهِ ما

أكذبُك، إنَّه كان عندي لرجُلٍ دراهمُ فأقعدَني على بابِه ولزمني، وقال: لا أفارقُك إلاَّ بحقِّي. فلمّا كان هذه الساعةُ دخَل إلى منزلِه وأغلَق بابَه وتركَني على بابِه، فجاءني طائفُك فأخَذَني إليك. فقال الحجّاجُ: اضربوا عنقَه. قال: ثم أُتي بآخَرَ، فقال له: ما أخرجَك هذه الساعةَ؟ فقال: كنتُ أشرَبُ مع قومٍ، فلمّا سكِرتُ خرَجتُ من عندهم وأنا لا أدري، فأخذوني إليك. فقال الحجاجُ لرجُلٍ عندَه: ما أراه إلاَّ صادقًا. ثم قال: خلّوا سبيلَه. فخَلَّوْا سبيلَه.

وذكر محمدُ بنُ زيادِ بنِ الأعرابيِّ فيما بلَغه أنَّه كان رجلٌ من بني حنيفةَ يقال له: جَحْدَرُ بنُ مالكٍ. وكان فاتكًا بأرضِ اليمامةِ، فأرسَل الحجاجُ إلى نائبِها يؤنِّبُه ويلومُه على عدمِ أخذِه، فما زال نائبُها في طلبِه حتى أسَرَه وبعَث به إلى الحجاجِ، فقال له الحجاجُ: ما حمَلك على ما كنتَ تصنَعُه؟ فقال: جراءةُ الجَنانِ، وجفاءُ السلطانِ، وكَلَبُ الزمانِ، ولو اختبَرني الأميرُ لوجَدني من صالحِ الأعوانِ، وبُهَمِ الفُرسانِ، ولوجَدني من أصلحِ رعيتِه؛ وذلك أنِّي ما لقيتُ فارسًا قطُّ إلا كنتُ عليه في نفسي مقتدرًا. فقال له الحجاجُ: إنَّا قاذفوك في حائرٍ فيه أسدٌ عاقرٌ فإنْ قتَلَك كفانا مؤنتَك، وإن قتَلتَه خلَّينا سبيلَك. ثم أودَعه السجنَ مُقيَّدًا مغلولةً يدُه اليمنى إلى عنقِه، وكتب الحجاجُ إلى نائبِه بكَسْكَرَ أن يبعثَ إليه بأسدٍ عظيمٍ ضارٍ، وقد قال جَحْدَرٌ هذا في محبسِه هذا أشعارًا يتحزَّنُ فيها على امرأتِه سُليمى أمِّ عمرٍو، يقولُ في بعضِها:

أليسَ الليلُ يجمعُ أمَّ عمرٍو ... وإيانا فذاكَ بنا تداني
بلى ونرى الهلالَ كما تراهُ ... ويعلوها النهارُ إذا علاني
إذا جاوزتُما نخَلاتِ حَجْرٍ ... وأوديةَ اليمامةِ فانعَياني
وقولا جَحدرٌ أمسى رهينًا ... يحاذرُ وقعَ مصقولٍ يماني

فلما قدِم الأسدُ على الحجاجِ أمرَ به فجُوِّعَ ثلاثةَ أيامٍ، ثم أُبرِزَ إلى حائرٍ - وهو البستانُ - وأمَر بجحدرٍ فأُخرِج في قيودِه ويدُه اليمنى مغلولةٌ بحالِها، وأُعْطِي سيفًا في يدِه اليسرى، وخلَّى بينَه وبينَ الأسدِ، وجلَس الحجاجُ وأصحابُه في منظرةٍ، وأقبَل جحدرٌ نحوَ الأسدِ، وهو يقولُ:

ليثٌ وليثٌ في مجالٍ ضنكْ ... كلاهما ذو أنَفٍ ومَحْكْ
وشدةٍ في نفسِه وفتكْ ... إنْ يكشفِ اللهُ قناعَ الشكْ
فهو أحقُّ منزلٍ بتركْ

فلما نظَر إليه الأسدُ زأَر زأرةً شديدةً، وتمطَّى وأقبلَ نحوَه، فلمَّا صارَ منه على قدرِ رُمحٍ وثَب الأسدُ على جحدرٍ وثْبةً شديدةً، فتلقاه جحدرٌ بالسيفِ، فضربَه ضَربةً حتى خالَط ذبابُ السيفِ لَهَواتِه، فخرَّ الأسدُ كأنَّه خيمةٌ قد صرَعتْها الريحُ، من شدةِ الضربةِ، وسقَط جَحدرٌ من شدةِ وثبةِ الأسدِ؛ وشدةِ موضعِ القيودِ عليه، فكبَّر الحجاجُ وأصحابُه، وأنشأ جَحْدرٌ يقولُ:

يا جُمْلُ إنَّكِ لو رأيتِ كَريهتي ... في يوم هول مُسْدِف وعَجاجِ
وتقدُّمي للَّيثِ أرسُفُ مُوثَقًا ... كَيما أُثاوِرَه عَلى الأحراجِ
شَثْنٌ براثنُه كأنَّ نيوبَهُ ... زُرْقُ المعاول أو شِباه زجاجِ
يسمو بناظرتين تحسَبُ فيهما ... لهبًا أحدُّهما شُعاعُ سِراجِ
وكأنَّما خِيطتْ عليه عباءةٌ ... برقاءُ أو خِرقٌ من الدِّيباجِ
لعلمتِ أنِّي ذو حِفاظٍ ماجدٌ ... من نسلِ أقوامٍ ذوي أبراجِ

ثم التفَتَ إلى الحجاج، فقال:

عَلِمَ النساءُ بأنَّني لا أنْثَني ... إذ لا يَثِقْنَ بغَيرةِ الأزواجِ
وعلمتُ أنِّي إنْ كرهتُ نزالَه ... أنِّي من الحجَّاجِ لستُ بناجِ

فعندَ ذلك خيَّره الحجاجُ إنْ شاءَ أقام عنده، وإن شاء انطلَق إلى بلاده، فاختارَ المُقامَ عندَ الحجاجِ، فأحسَنَ جائزتَه وأعطاه أموالاً.

وقد كان الحجاجُ مع فصاحته وبلاغته يلحَنُ في حروفٍ من القرآن أنكَرها يحيى بنُ يَعْمَرَ؛ منها أنه كان يُبدلُ «إنْ» المكسورةَ بـ«أنْ» المفتوحة، وعكسُه، وكان يقرأُ: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم﴾ [التوبة: ٢٤] فيقرؤها برفع «أحبُّ».

وأنكَر يومًا أن يكونَ الحسينُ من ذرية رسول الله ﷺ؛ لكونه ابنَ بنته، فقال له يحيى بنُ يَعْمَرَ: كذَبتَ. فقال الحجاجُ: لتأْتيَنِّي على ما قلتَ ببينةٍ من كتاب الله أو لأضربَنَّ عنقَك. فقال: قال الله: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ إلى قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ [الأنعام: ٨٤، ٨٥]. فعيسى من ذرية إبراهيمَ، وهو إنَّما يُنسَبُ إلى أمِّه مريمَ، والحسينُ ابنُ بنتِ رسولِ الله ﷺ. فقال الحجاجُ: صدقتَ. ونفاه إلى خُراسانَ.

وقال الأصمعيُّ وغيرُه: كتَب عبدُ الملك إلى الحجاج يسألُه عن أمسِ واليومَ وغدٍ، فقال للرسول: أكان خويلدُ بنُ يزيدَ بنِ معاويةَ عنده؟ قال: نعم. فكتَب الحجاجُ إلى عبدِ الملك: أمّا أمسِ فأجلٌ، وأما اليومَ فعملٌ، وأما غدًا فأملٌ.

وقال ابنُ دُريد، عن أبي حاتمٍ السِّجِسْتانيِّ، عن أبي عُبَيْدةَ معمرِ بنِ المُثنَّى، قال: لما قتَل الحجاجُ ابنَ الأشعث، وصفَتْ له العراقُ وسَّعَ على الناس في العطاء، فكتَب إليه عبدُ الملك: أما بعدُ، فقد بلَغ أميرَ المؤمنين أنَّك تُنفقُ في اليوم ما لا يُنفقه أميرُ المؤمنين في الأسبوع، وتُنفقُ في الأسبوع ما لا يُنفقُه أميرُ المؤمنين في الشهر، ثم قال منشدًا:

عليكَ بتقوى الله في الأمرِ كلِّه ... وكن لوعيدِ الله تخشى وتَضرَعُ
ووفِّرْ خراجَ المسلمين وفيئَهم ... وكنْ لهمُ حصنًا تُجيرُ وتَمنَعُ

فكتَب إليه الحجاجُ:

لعَمْري لقدْ جاءَ الرسولُ بكُتْبِكمْ ... قراطيسَ تُملى ثم تُطوى فتُطبَعُ
كتابٌ أتاني فيه لينٌ وغلظةٌ ... وذُكِّرتُ والذكرى لذي اللُّبِّ تَنفَعُ
وكانت أمورٌ تعتريني كثيرةٌ ... فأرضخُ أو أعتلُّ حينًا فأمنعُ
إذا كنتُ سوطًا من عذابٍ عليهمُ ... ولم يكُ عندي في المنافعِ مطمعُ
أيرضَى بذاكَ الناسُ أو يسخطونه ... أمْ احْمَدُ فيهمْ أم ألامُ فأُقذَعُ
وكانت بلادٌ جئتُها حينَ جئتُها ... بها كلُّ نيرانِ العداوةِ تلمَعُ
فقاسيتُ منها ما علمتَ ولم أزَلْ ... أصارعُ حتى كدْتُ بالموتِ أُصْرَعُ
وكم أرجَفوا منْ رجفةٍ قد سمعتُها ... ولو كان غيري طارَ مما يُروَّعُ
وكنتُ إذا همُّوا بإحدى قَناتِهم ... حَسَرتُ لهم رأسي ولا أتقنَّعُ
فلو لم يذُدْ عني صناديدُ منهمُ ... تَقَسَّمَ أعضائي ذئابٌ وأضبُعُ

قال: فكتَب إليه عبدُ الملكِ أنِ اعمَلْ برأيك. وقال التَّوَّزِيُّ: عن محمدِ بنِ المستوردِ الجُمَحيِّ قال: أُتِي الحجاجُ بسارقٍ، فقال له: لقد كنتَ غنيًّا أن يأتيَك الحكمُ، فيُبْطِلَ عليك عضواً من أعضائك. فقال الرجلُ: إذا قلَّ ذاتُ اليدِ سَخَتِ النفسُ بالمتَالف. قال: صدقتَ، واللهِ لو كان حُسْنُ اعتذارٍ يُبْطِلُ حدًّا لكنتَ له مَوْضِعًا، يا غلامُ، سيفٌ صارمٌ ورجُلٌ قاطعٌ. فقطَع يدَه.

وقال أبو بكرٍ بنُ مجاهد، عن محمدِ بنِ الجَهمِ، عن الفراءِ، قال: تغدَّى الحجاجُ يومًا مع الوليدِ ابنِ عبدِ الملكِ، فلمَّا انقضَى غداؤُهما دعاه الوليدُ إلى شربِ النبيذِ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، الحلالُ ما أحللتَ، ولكني أنهَى عنه أهلَ عملي، وأكرَه أنْ أخالفَ قولَ العبدِ الصالحِ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨].

وقال عُمَرُ بنُ شبَّةَ، عن أشياخه، قال: كتَب عبدُ الملكِ إلى الحجاجِ يعتبُ عليه في إسرافه في صرفِ الأموالِ، وسفكِ الدماءِ، ويقولُ له: إنما المالُ مالُ اللهِ ونحن خُزَّانُه، وسيّانِ منعُ حقٍّ وإعطاءُ باطلٍ. وكتَب في أسفلِ الكتاب:

إذا أنتَ لم تتركْ أموراً كرهتَها ... وتطلبْ رضائي في الذي أنا طالبُهْ
وتخشى الذي يخشاهُ مثلُكَ هاربًا ... إلى اللهِ منهُ ضيَّعَ الدرَّ جالبُهْ
فإنْ ترَ مني غفلةً قُرشيَّةً ... فيا ربَّما قدْ غصَّ بالماءِ شاربُهْ
وإنْ ترَ مني وثبةً أمويةً ... فهذا وهذا كلُّهُ أنا صاحبُهْ
فلا تَعْدُ ما يأتيكَ مني فإنْ تَعُدْ ... تقُمْ فاعلمنْ يومًا عليكَ نوادبُهْ

فلما قرأه الحجاجُ كتَب: أمَّا بعدُ، فقد جاءني كتابُ أميرِ المؤمنين يذكرُ فيه سَرَفي في الأموالِ والدماءِ، فوالله ما بالغتُ في عقوبةِ أهلِ المعصيةِ، ولا قضيتُ حقَّ أهلِ الطاعةِ، فإن كان ذلك سَرَفًا فيَحُدَّ لي أميرُ المؤمنين حدًّا أنتهي إليه ولا أتجاوزُه. وكتَب في أسفلِ الكتابِ:

إذا أنا لم أطلبْ رضاكَ وأتَّقي ... أذاكَ فيومي لا تَوارتْ كواكبُهْ

إذا قارَفَ الحجاجُ فيك خطيئةً ... فقامتْ عليه في الصباحِ نوادبُهْ

أُسالمُ مَنْ سالمتَ من ذي هَوادةٍ ... ومَنْ لم تُسالمْه فإنّي محاربُهْ

إذا أنا لم أُدْنِ الشفيقَ لنصحِهِ ... وأُقْصِ الذي تَسْري إليَّ عقاربُهْ

فمن يتَّقي يومي ويرجو إذًا غدي ... على ما أرى والدهرُ جَمٌّ عجائبُهْ

وعن الشافعيِّ أنَّه قال: قال الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ للغازِ بنِ ربيعةَ أنْ يسألَ الحجاجَ فيما بينَه وبينَه: هل يَجِدُ في نفسه مّما أصابَ من الدماءِ شيئًا؟ فسأله كما أمَره، فقال: واللهِ ما أحبُّ أن لي لُبنانَ أو سَنيرًا ذهبًا أُنفقُه في سبيلِ اللهِ مكانَ ما أبلاني اللهُ من الطاعةِ.

فصلٌ فيما رُوي عنه من الكلماتِ الناقصةِ والجراءةِ البالغةِ

قال أبو داودَ: ثنا محمدُ بنُ العلاءِ، ثنا أبو بكرٍ، عن عاصمٍ قال: سمعتُ الحجاجَ وهو على المنبرِ يقولُ: اتقوا اللهَ ما استطعتُم - ليس فيها مثنويةٌ - واسمعوا وأطيعوا - ليس فيها مثنويةٌ - لأميرِ المؤمنين عبدِ الملكِ، واللهِ لو أمرتُ الناسَ أن يخرُجوا من بابِ المسجدِ فخرَجوا من بابٍ آخرَ لحلَّتْ لي دماؤُهم وأموالُهم، واللهِ لو أخذتُ ربيعةَ بمضرَ لكان ذلك لي من اللهِ حلالاً، وما عَذيري من عبدِ هُذيلٍ يزعمُ أنَّ قرآنَه من عندِ اللهِ، واللهِ ما هي إلا رَجَزٌ من رَجَزِ الأعرابِ ما أنزلَها اللهُ على نبيِّه ﷺ، وعَذيري من هذه الحمراءِ، يزعمُ أحدُهم يرمي بالحجرِ فيقولُ: إلى أن يقَعَ الحجرُ حدَث أمرٌ. فواللهِ لأدعنَّهم كالأمسِ الدابرِ. قال: فذكرتُه للأعمشِ، فقال: وأنا واللهِ سمعتُه منه.

ورواه أبو بكرِ بنُ أبي خَيْثَمَةَ، عن محمدِ بنِ يزيدَ، عن أبي بكرِ بنِ عيَّاشٍ، عن عاصمِ بنِ أبي النَّجودِ والأعمشِ، أنَّهما سمعا الحجاجَ - قبَّحه اللهُ - يقولُ ذلك، وفيه: واللهِ لو أمرتُكم أن تخرُجوا من هذا البابِ، فخرجتُم من هذا البابِ، لحلَّتْ لي دماؤُكم، ولا أجدُ أحدًا يقرأُ على قراءةِ ابنِ أمِّ عَبْدٍ إلا ضربتُ عنقَه، ولأَحُكَّنَّها من المصحفِ، ولو بضِلَعِ خنزيرٍ.

ورواه غيرُ واحدٍ عن أبي بكرِ بنِ عياشٍ بنحوِه. وفي بعضِ الرواياتِ: واللهِ لو أدركتُ عبدَ هُذيلٍ لضربتُ عنقَه. وهذا من جراءةِ الحجاجِ - قبَّحه اللهُ، وإقدامِه على الكلامِ السيِّئِ، والدماءِ الحرامِ، وإنما نقَم على قراءةِ ابنِ مسعودٍ - رضي اللهُ عنه - لكونِه خالَف القراءةَ على المصحفِ الإمامِ الذي جمع

الناسَ عليه عثمانُ، والظاهرُ أنَّ ابنَ مسعودٍ رجَع إلى قولِ عثمانَ ومُوافقيه، واللهُ أعلمُ.

وقال عليُّ بنُ عبدِ اللهِ بنِ مُبَشِّرٍ، عن عباسٍ الدُّوريِّ، عن مسلمِ بنِ إبراهيمَ، ثنا الصلتُ بنُ دينارٍ، سمعتُ الحجاجَ على منبرِ واسطٍ يقولُ: عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ رأسُ المنافقين، لو أدركتُه لأسقيتُ الأرضَ من دمِه. قال: وسمعتُه على منبرِ واسطٍ وتلا هذه الآيةَ ﴿**وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي**﴾ [ص: ٣٥]. قال: واللهِ إنْ كان سليمانُ لحسودًا. وهذه جراءةٌ عظيمةٌ تُفضي به إلى الكفرِ، قبَّحه اللهُ وأخزاه، وأبعدَه وأقصاه.

ومن الطامَّاتِ أيضًا ما رواه أبو داودَ، ثنا إسحاقُ بنُ إسماعيلَ الطالْقانيُّ، ثنا جريرٌ (ح). وحدَّثنا زهيرُ بنُ حربٍ، ثنا جريرٌ، عن المغيرةِ، عن بَزِيعِ بنِ خالدٍ الضبيِّ، قال: سمعتُ الحجاجَ يخطُبُ، فقال في خطبتِه: رسولُ أحدِكم في حاجتِه أكرمُ عليه أم خليفتُه في أهلِه؟ فقلتُ في نفسي: للهِ عليَّ أن لا أصليَ خلفَك صلاةً أبدًا، وإن وجدتُ قومًا يُجاهدونك لأجاهدنَّك معهم. زادَ إسحاقُ في حديثِه: فقاتلَ في الجماجمِ حتى قُتِل. فإن صحَّ هذا عنه فظاهرُه كفرٌ إنْ أرادَ تفضيلَ منصبِ الخلافةِ على الرسالةِ، أو أرادَ أنَّ الخليفةَ من بني أميةَ أفضلُ من الرسولِ.

وقال الأصمعيُّ: ثنا أبو عاصمٍ النبيلُ، ثنا أبو حفصٍ الثقفيُّ، قال: خطَب الحجاجُ يومًا فأقبلَ عن يمينِه فقال: ألا إنَّ الحجاجَ كافرٌ. ثم أطرقَ فقال: إنَّ الحجاجَ كافر. ثم أطرقَ فأقبلَ عن يسارِه فقال: ألا إنَّ الحجاجَ كافرٌ. فعَل ذلك مرارًا، ثم قال: كافرٌ يا أهلَ العراقِ باللاتِ والعُزَّى.

وقال حنبلُ بنُ إسحاقَ: ثنا هارونُ بنُ معروفٍ، ثنا ضَمرةُ، ثنا ابنُ شَوْذَبٍ، عن مالكِ بنِ دينارٍ قال: بينما الحجاجُ يخطُبُنا يومًا إذ قال: الحجاجُ كافرٌ. قلنا: ما له؟ أيُّ شيءٍ يريدُ؟ قال: الحجاجُ كافرٌ بيومِ الأربعاءِ والبغلةِ الشَّهْباءِ. وقال الأصْمعيُّ: قال عبدُ الملكِ يومًا للحجاجِ: إنَّه ما من أحدٍ إلا وهو يعرفُ عيبَ نفسِه، فصِفْ لي عيبَ نفسِك. فقال: اعفِني يا أميرَ المؤمنين. فأبَى، فقال: أنا لَجوجٌ حقودٌ حسودٌ. قال عبدُ الملكِ: ما في الشيطانِ شرٌّ مما ذكرتَ. وفي روايةٍ أنَّه قال: إذًا بينَك وبينَ إبليسَ نسبٌ.

وبالجملةِ: فقد كان الحجاجُ نقمةً على أهلِ العراقِ بما سلَف لهم من الذنوبِ والخروجِ على الأئمةِ، وخذلانِهم لهم، وعصيانِهم، ومخالفتِهم، والافتياتِ عليهم. قال يعقوبُ بنُ سفيانَ: حدَّثنا أبو صالحٍ عبدُ اللهِ بنُ صالحٍ، حدَّثني معاويةُ بنُ صالحٍ، عن شريحِ بنِ عبيدٍ، عن مَن حدَّثه، قال: جاء رجلٌ إلى عمرَ بنِ الخطابِ، رضي اللهُ عنه، فأخبرَه أنَّ أهلَ العراقِ حصَبوا أميرَهم فخرَج غضبانَ، فصلَّى لنا صلاةً، فسَها فيها حتى جعَل الناسُ يقولون: سبحانَ اللهِ سبحانَ اللهِ. فلما سلَّم أقبلَ على الناسِ، فقال: مَن هاهنا من أهلِ الشامِ؟ فقام رجلٌ، ثم قام آخرُ، ثم قمتُ أنا ثالثًا أو رابعًا، فقال: يا أهلَ الشامِ، استعدُّوا لأهلِ العراقِ؛ فإنَّ الشيطانَ قد باضَ فيهم وفرَّخ، اللهم إنَّهم قد لَبَّسوا

عليهم فالبِسْ عليهم، وعجِّلْ عليهم بالغلام الثقفيِّ، يحكمُ فيهم بحكم الجاهلية؛ لا يقبَلُ من محسنهم، ولا يتجاوزُ عن مسيئهم[١] . وقد رويناه في كتاب «مسند عمرَ بن الخطاب»، من طريق أبي عَذْبَةَ الحِمْصيِّ، عن عمرَ مثلَه. وقال عبدُ الرزاق: أخبرنا جعفرُ بنُ سليمانَ، عن مالك بن دينار، عن الحسن، قال: قال عليُّ ابنُ أبي طالب: اللهمَّ كما ائتمنتُهم فخانُوني، ونصحتُ لهم فغشُّوني، فسلِّطْ عليهم فتى ثقيف الذَّيَّالَ الميَّالَ، يأكلُ خَضِرتَها، ويلبَسُ فروتَها، ويَحْكمُ فيها بحكم الجاهلية. قال: يقولُ الحسنُ: وما خُلق الحجاجُ يومئذ[٢] . ورواه معتمرُ بنُ سليمانَ، عن أبيه، عن أيوبَ، عن مالك بن أوس بن الحَدَثان، عن عليٍّ أنه قال: الشابُّ الذَّيَّالُ أميرُ المصرين يلبَسُ فروتَها ويأكلُ خَضِرتَها، ويقتلُ أشرافَ أهلها، يشتدُّ منه الفرَقُ، ويكثُرُ منه الأرَقُ، ويسلِّطُه اللهُ على شيعته.

وقال الحافظُ البيهقيُّ في «دلائل النبوة»: أخبرَنا أبو عبد الله الحافظُ، ثنا أبو العباس محمدُ بنُ أحمدَ المحبوبيُّ، ثنا سعيدُ بنُ مسعود، ثنا يزيدُ بنُ هارونَ، انبا العوامُ بنُ حَوشب، حدَّثني حبيبُ ابنُ أبي ثابت قال: قال عليٌّ لرجل: لا مِتَّ حتى تدركَ فتى ثقيف. قيل له: يا أميرَ المؤمنين، وما فتى ثقيف؟ قال: ليُقالَنَّ له يومَ القيامة: اكفنا زاويةً من زوايا جهنمَ. رجلٌ يملكُ عشرين، أو بضعًا وعشرين سنةً، لا يَدعُ لله معصيةً إلا ارتكبَها، حتى لو لم يَبْقَ إلا معصيةٌ واحدةٌ، وكان بينَه وبينَها بابٌ مغلقٌ لكسَرَه حتى يرتكبَها، يقتُلُ بمَن أطاعه مَن عصاه[٣] .

وقال الطبرانيُّ: حدَّثنا القاسمُ بنُ زكريا، ثنا إسماعيلُ بنُ موسى السُّدِّيُّ، ثنا عليُّ بنُ مُسْهِر، عن الأجلح، عن الشعبيِّ، عن أمِّ حكيم بنت عمرَ بن سنان الجَدَلِيَّة، قالت: استأذَن الأشعثُ بنُ قيس على عليٍّ فردَّه قُنْبرٌ فأدمَى أنفَه، فخرَج عليٌّ فقال: ما لَك وله يا أشعثُ، أما والله لو بعبد ثقيف تمرَّسْتَ لاقشعرَّتْ شعيراتُ استِك. قيل له: يا أميرَ المؤمنين، ومَن عبدُ ثقيف؟ قال: غلامٌ يَليهم لا يُبقي أهلَ بيت من العرب إلاَّ ألبَسهم ذُلاًّ. قيل: كم يملكُ؟ قال: عشرين إنْ بلَغ.

وقال البيهقيُّ: أخبرَنا الحاكمُ، أنبا الحسينُ بنُ الحسن بن أيوبَ، ثنا أبو حاتم الرازيُّ، ثنا عبدُ الله ابنُ يوسفَ التِّنِّيسيُّ، ثنا هشامُ بنُ يحيى الغسَّانيُّ قال: قال عمرُ بنُ عبد العزيز: لو جاءت كلُّ أمَّةٍ بخبيثها، وجئْنا بالحجاج لغلبناهم. وقال أبو بكر بنُ عياش، عن عاصم ابن أبي النَّجُود أنَّه قال: ما بَقِيتْ لله عزَّ وجلَّ حُرْمَةٌ إلا وقد ارتكبَها الحجاجُ.

وقد تقدَّم الحديثُ: «إنَّ في ثقيف كذابًا ومُبِيرًا»[٤] . وقد ذكَرنا شأنَ المختار ابن أبي عبيد، وهو الكذابُ المذكورُ في هذا الحديث، وقد كان يُظْهِرُ الرفضَ أولاً ويُبطِنُ الكفرَ المحضَ، وأما المبيرُ فهو الحجاجُ بنُ يوسفَ هذا، وقد كان ناصبيًّا يُبْغِض عليًّا وشيعتَه في هوى آل مروانَ بني أمية، وكان جبارًا عنيدًا، مقدامًا على سفك الدماء بأدنى شبهة. وقد رُوِي عنه ألفاظٌ بشعةٌ شنيعةٌ ظاهرُها الكفرُ

---

(١) إسناده ضعيف لإبهام رجل فيه.

(٢) إسناده منقطع بين علي والحسن انظر «جامع التحصيل» ص١٦٢

(٣) إسناده ضعيف للانقطاع بين حبيب وعلي وقد قال ابن المديني: حبيب بن أبي ثابت لقي بن عباس وسمع من عائشة ولم يسمع من غيرهما من الصحابة انظر «جامع التحصيل» ص١٥٨.

(٤) صحيح تقدم.

كما قدَّمنا، فإنْ كان قد تابَ منها وأقلَع عنها، وإلاّ فهو باقٍ في عهدتها، ولكن قد يُخشى أنَّها رويتْ عنه بنوعٍ مِن زيادةٍ عليه؛ فإن الشيعةَ كانوا يُبغضونه جدًّا لوجوهٍ، وربَّما حرَّفوا عليه بعضَ الكلمِ، وزادوا فيما يحكُونه عنه بَشاعاتٍ وشَناعاتٍ.

وقد روِّينا عنه، أنَّه كان يتديَّنُ بترْكِ المسْكِرِ، وكان يُكثِرُ تلاوةَ القرآنِ، ويتجنَّبُ المحارمَ، ولم يُشتهَرْ عنه شيءٌ من التلطُّخ بالفروجِ، وإن كان متسرِّعًا في سفكِ الدماءِ. فاللهُ تعالى أعلمُ بالصوابِ وحقائقِ الأمورِ وسرائرِها، وخفيَّاتِ الصدورِ وضمائرِها.

وقال المعافى بنُ زكريا الجريريُّ - المعروفُ بابنِ طَرَارَا - البغداديُّ: ثنا محمدُ بنُ القاسمِ الأنباريُّ، ثنا أبي، ثنا أحمدُ بنُ عبيدٍ، ثنا هشامُ بنُ محمدِ بنِ السائبِ الكلبيُّ، ثنا عَوانةُ بنُ الحكمِ الكلبيُّ، قال: دخَل أنسُ بنُ مالكٍ على الحجّاجِ بنِ يوسفَ، فلمَّا وقَف بينَ يدَيه سلَّم عليه فقال له: إيهٍ إيهٍ يا أُنَيسُ، يومٌ لك مع عليٍّ، ويومٌ لك مع ابنِ الزبيرِ، ويومٌ لك مع ابنِ الأشعثِ، واللهِ لأستأصِلنَّك كما تُستأصَلُ الشأفةُ، ولأدمَغنَّك كما تُدمَغُ الصمغةُ. فقال أنسٌ: إيَّايَ يعني الأميرُ أصلَحه اللهُ؟ قال: إياك، سكَّ اللهُ سمعَك. قال أنسٌ: إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون، واللهِ لولا الصِّبيةُ الصغارُ ما باليتُ أيَّ قِتلةٍ قُتِلتُ، ولا أيَّ ميتةٍ متُّ. ثم خرَج من عندِ الحجاجِ، فكتَب إلى عبدِ الملكِ ابنِ مروانَ يخبِرُه بما قال له الحجَّاجُ، فلمَّا قرأ عبدُ الملكِ كتابَ أنسٍ استَشاط غضبًا، وصفَّق عجبًا، وتعاظَم ذلك مِن الحجاجِ، وكان كتابُ أنسٍ إلى عبدِ الملكِ بنِ مروانَ:

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، إلى عبدِ الملكِ بنِ مروانَ أميرِ المؤمنين من أنسِ بنِ مالكٍ، أما بعدُ؛ فإنَّ الحجاجَ قال لي هُجْرًا، وأسمَعني نُكرًا، ولم أكنْ لذلك أهلاً، فخُذْ لي على يديه، فإنِّي أمُتُّ بخدمتي رسولَ اللهِ ﷺ، وصحبتي إياه، والسلامُ عليك ورحمةُ اللهِ وبركاتُه. فبعَث عبدُ الملكِ إلى إسماعيلَ بنِ عُبيدِ اللهِ ابنِ أبي المهاجرِ - وكان مُصادقًا للحجاجِ - فقال له: دونَك كتابيَّ هذين فخُذْهما، واركبِ البريدَ إلى العراقِ، وابدأْ بأنسِ بنِ مالكٍ صاحبِ رسولِ اللهِ ﷺ، فادفعْ كتابي إليه وأبلغْه مني السلامَ، وقلْ له: يا أبا حمزةَ، قد كتبتُ إلى الحجاجِ الملعونِ كتابًا، إذا قرأَه كان أطوعَ لك مِن أمتِك. وكان كتابُ عبدِ الملكِ إلى أنسِ بنِ مالكٍ:

بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، مِن عبدِ الملكِ بنِ مروانَ إلى أنسِ بنِ مالكٍ خادمِ رسولِ اللهِ ﷺ، أما بعدُ؛ فقد قرأتُ كتابَك وفهمتُ ما ذكرتَ من شكايتِك الحجاجَ، وما سلطتُه عليك ولا أمرتُه بالإساءةِ إليك، فإن عادَ لمثلِها فاكتبْ إليَّ بذلك، أُنزلْ به عقوبتي، وتَحْسُنْ لك معونتي، والسلامُ. فلما قرأَ أنسٌ كتابَه وأُخبِر برسالتِه قال: جزَى اللهُ أميرَ المؤمنين عنِّي خيرًا، وعافاه وكفاه وكافأه بالجنةِ، فهذا كان ظنِّي به والرجاءَ منه. فقال إسماعيلُ بنُ عُبيدِ اللهِ لأنسٍ: يا أبا حمزةَ، إنَّ الحجاجَ عاملُ أميرِ المؤمنين، وليس بك عنه غنًى ولا بأهلِ بيتِك، ولو جعل لك في جامعةٍ ثم دفع إليك لقدَر أن يضرَّ وينفعَ، فقارِبْه ودارِه تَعِشْ معه بخيرٍ وسلامٍ. فقال أنسٌ: أفعلُ إن شاءَ اللهُ. ثم خرَج إسماعيلُ مِن

عنده فدخَل على الحجاج، فلما رآه الحجاجُ قال: مرحبًا برجلٍ أُحِبُّه وكنتُ أُحبُّ لقاءَه. فقال إسماعيلُ: أنا والله كنتُ أُحبُّ لقاءَك في غيرِ ما أتيتُك به فتغيَّرَ لونُ الحجاج، وقال: ما أتيتني به؟ قال: فارقتُ أميرَ المؤمنين وهو أشدُّ الناسِ عليك غضبًا، ومنك بعدًا. قال: فاستوى الحجاجُ جالسًا مرعوبًا، فرمى إليه إسماعيلُ بالطومارِ، فجعَل الحجاجُ ينظرُ فيه مرةً ويعرَقُ، وينظرُ إلى إسماعيلَ أخرى، فلما نقَضه قال: قمْ بنا إلى أبي حمزةَ نعتذرُ إليه ونترضَّاه. فقال له إسماعيلُ: لا تَعْجَلْ. فقال: كيف لا أعجلُ وقد أتيتني بآبدةٍ.

وكان في الطومار: إلى الحجاجِ بنِ يوسفَ: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ، مِن عبدِ الملكِ بنِ مروانَ أميرِ المؤمنين إلى الحجاجِ بنِ يوسفَ، أما بعدُ: فإنَّك عبدٌ طَمَتْ بك الأمورُ فسموتَ فيها، وعدوتَ طورَك، وجاوزتَ قدرَك، وركبتَ داهيةً إدًّا، وأردتَ أن تَبُورَني فإن سوَّغْتُكها مضيتَ قُدُمًا، وإن لم أُسَوِّغْها رجَعتَ القَهْقَرَىٰ، فلعَنك اللهُ عبدًا أخفشَ العينين، منقوصَ الجاعرتين، أنسيتَ مكاسبَ آبائك بالطائفِ، وحفرَهم الآبارَ، ونقلَهم الصخورَ على ظهورِهم في المناهلِ؟ يابنَ المستَفْرِمَةِ بعجمِ الزبيبِ، والله لأغمزنَّك غَمزَ الليثِ الثعلبَ، والصقرِ الأرنبَ، وثَبْتَ على رجُلٍ مِنْ أصحابِ رسولِ الله ﷺ بين أظهرِنا، فلم تقبلْ له إحسانَه، ولم تَجاوَزْ له إساءتَه، جُرْأَةً منك على الربِّ عزَّ وجلَّ، واستخفافًا منك بالعهدِ، والله لو أنَّ اليهودَ والنصارى رأتْ رجلاً خدَم عُزيرَ بنَ عَزْرَا، وعيسى ابنَ مريمَ، لعظَّمتْه وشرَّفتْه وأكرمتْه، فكيف وهذا أنسُ بنُ مالكٍ خادمُ رسولِ الله ﷺ ثمانيَ سنينَ، يطلعُه على سرِّه، ويشاورُه في أمرِه، ثم هو مع هذا بقيةٌ مِن بقايا أصحابِه، فإذا قرأتَ كتابي هذا فكنْ أطوعَ له من خُفِّه ونعله، وإلاَّ أتاك مني سهمٌ مثكلٌ بحتفٍ قاضٍ، ولكلِّ نبإٍ مُسْتَقَرٌ وسوف تعلمون.

وقد تكلَّم ابنُ طَرَارا على ما وقَع في هذا الكتابِ من الغريبِ، وكذلك ابنُ قتيبةَ وغيرُهما من أئمةِ اللغةِ. واللهُ أعلمُ.

وقال الإمامُ أحمدُ: ثنا عبدُ الرحمنِ بنُ مهديٍّ، عن سفيانَ، عن الزبيرِ - يعني ابنَ عديٍّ - قال: شكَوْنا إلى أنسِ بنِ مالكٍ ما نلقَىٰ مِن الحجاجِ، فقال: اصبِروا؛ فإنَّه لا يأتي عليكم عامٌ أو يومٌ إلاَّ الذي بعدَه شرٌّ منه، حتى تلقَوْا ربَّكم عزَّ وجلَّ، سمعتُه مِن نبيِّكم ﷺ(1). وهذا رواه البخاريُّ، عن محمدِ بنِ يوسفَ، عن سفيانَ - وهو الثوريُّ - عن الزبيرِ بنِ عديٍّ، عن أنسٍ، قال: «**لا يأتي عليكم زمانٌ إلا والذي بعدَه شرٌّ منه**»(2) الحديث. **قلتُ**: ومِن الناسِ مَن يروِي هذا الحديثَ بالمعنى فيقولُ: كلُّ عامٍ ترذُلون. وهذا اللفظُ لا أصلَ له، وإنما هو مأخوذٌ مِن معنى هذا الحديثِ، واللهُ أعلمُ.

وقد قال سفيانُ الثوريُّ: عن إسماعيلَ بنِ أبي خالدٍ، عن الشعبيِّ، قال: يأتي على الناسِ زمانٌ

---

(1) **صحيح**: أخرجه أحمد (٣/ ١٣٢) بهذا الإسناد وهو صحيح رجاله ثقات.

(2) أخرجه البخاري (٧٠٦٨) باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه.

يصلُّون فيه على الحَجّاج. وقال أبو نعيم، عن يونُسَ ابنِ أبي إسحاقَ، عن أبي السَّفْرِ، قال: قال الشعبيُّ: والله لئن بقيتم لتَمنَّوُنَّ الحجاجَ. وقال الأصمعيُّ: قيل للحسنِ: إنَّك تقولُ: الآخِرُ شرٌّ من الأول. وهذا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ بعدَ الحجاجِ. فقال الحسنُ: لابدَّ للناسِ من تنفيسات.

وقال ميمونُ بنُ مهرانَ: بعَث الحجاجُ إلى الحسنِ وقد همَّ به، فلمَّا قامَ بين يديه، قال: يا حجاجُ، كم بينَك وبين آدمَ مِن أبٍ؟ قال: كثيرٌ. قال: فأين هم؟ قال: ماتوا. قال: فنكَّس الحجاجُ رأسَه وخرَج الحسنُ. وقال أيوبُ السَّختيانيُّ: إنَّ الحجاجَ أراد قتْلَ الحسنِ مراراً، فعصَمه اللهُ منه. وقد ذُكر له معه مناظرات، على أنَّ الحسنَ لم يكنْ ممن يرىٰ الخروجَ عليه، وكان ينهَى أصحابَ ابنِ الأشعثِ عن ذلك، وإنَّما خرَج معهم مكرَهًا، كما قدَّمنا، وكان الحسنُ يقولُ: إنَّما هو نقمةٌ فلا تقابِلوا نقمةَ اللهِ بالسيفِ، وعليكم بالصبرِ والسكينةِ والتضرعِ. وقال ابنُ دريدٍ، عن الحسنِ بنِ الخضرِ، عن ابنِ عائشةَ، قال: أُتِيَ الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ برجلٍ مِن الخوارجِ، فقيل له: ما تقولُ في أبي بكرٍ وعمرَ؟ فأثنىٰ خيراً، قال: فعثمان؟ فأثنَىٰ خيرًا، حتىٰ قيل له: فما تقولُ في عبدِ الملكِ بنِ مروانَ؟ فقال: الآن جاءتِ المسألةُ، ما أقولُ في رجلٍ الحجاجُ خطيئةٌ مِن خطاياه؟

وقال الأصمعيُّ، عن عليِّ بنِ مسلمٍ الباهليِّ، قال: أُتِيَ الحجاجُ بامرأةٍ مِن الخوارجِ، فجعَل يكلِّمُها وهي لا تنظرُ إليه ولا تردُّ عليه كلامًا، فقال لها بعضُ الشُّرَطِ: يكلمُكِ الأميرُ وأنت معرضةٌ عنه؟ فقالتْ: إنِّي لأستحيي مِن اللهِ أنْ أنظرَ إلى مَن لا ينظرُ اللهُ إليه. فأمَر بها فقُتِلتْ. وقد ذكَرنا في سنةِ أربعٍ وتسعين كيفيةَ مقتلِ الحجاجِ لسعيدِ بنِ جبيرٍ، وما دارَ بينهما مِن الكلامِ والمراجعة.

وقد قال أبو بكرٍ ابنُ أبي خيثمةَ: ثنا أبو ظَفَرٍ، ثنا جعفرُ بنُ سليمانَ، عن بِسطامَ بنِ مسلمٍ، عن قتادةَ، قال: قيل لسعيدِ بنِ جُبَيْرٍ: خرجتَ على الحجاجِ؟ قال: إنِّي واللهِ ما خرجتُ عليه حتىٰ كفَر[1]. ويقال: إنَّه لم يَقْتُلْ بعدَه إلاَّ رجلاً واحدًا اسمُه ماهانُ، وكان قد قتَل قبلَه خلقًا كثيرًا، أكثرُهم ممن خرَج مع ابنِ الأشعثِ.

وقال أبو عيسى الترمذيُّ: ثنا أبو داودَ سليمانُ بنُ سَلْمٍ البَلْخيُّ، ثنا النضرُ بنُ شُمَيْلٍ، عن هشامِ ابنِ حسانَ، قال: أحْصَوْا ما قتَل الحجاجُ صبرًا فبلَغ مائةَ ألفٍ وعشرين ألفًا[2]. قال الأصمعيُّ: ثنا أبو عاصمٍ، عن عبَّادِ بنِ كثيرٍ، عن قَحْذَمٍ، قال: أطلَق سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ في غداةٍ واحدةٍ أحدًا وثمانين ألفَ أسيرٍ، وعرِضتِ السجونُ بعدَ الحجاجِ فوجَدوا فيها ثلاثةً وثلاثين ألفًا، لم يجبْ على أحدٍ منهم قطعٌ ولا صلبٌ، وكان في مَن حُبِس أعرابيٌّ وُجِد يبولُ في أصلِ رَبَضِ مدينةِ واسطٍ، وكان في مَن أُطلق فأنشأَ يقولُ:

إذا نحن جاوَزْنا مدينةَ واسطٍ ... خَرِيْنا وصلَّينا بغيرِ حسابِ

---

(١) ما برز من إسناده رجاله معدلون لا يقل فيهم رجل عن من يحسن حديثه إلا أني ما أعرف شيخ ابن أبي خيثمة.
(٢) إسناده صحيح إلى هشام أخرجه الترمذي (٢٢٢٠) بهذا الإسناد.

وقد كان الحجاجُ مع هذا العنف الشديدِ لا يستخرجُ من خراجِ العراقِ كبيرَ أمرٍ. قال ابنُ أبي الدنيا وإبراهيمُ الحربيُّ: ثنا سليمانُ بنُ أبي شيخٍ، ثنا صالحُ بنُ سليمانَ، قال: قال عمرُ بنُ عبدِ العزيز: لو تخابثَت الأممُ، وجئنا بالحجاجِ لغلَبناهم، وما كان يصلحُ لدنيا ولا لآخرةٍ، لقد ولي العراقَ وهو أوفرُ ما يكونُ في العمارةِ، فأخسَّ به حتى صيَّره إلى أربعينَ ألفَ ألفٍ، ولقد أُدِّيَ إليَّ في عامي هذا ثمانون ألفَ ألفٍ، وإن بقيتُ إلى قابلٍ رجوتُ أنْ يؤدَّىٰ إليَّ ما أُدِّيَ إلى عمرَ بنِ الخطابِ مائةُ ألفِ ألفٍ وعشرةُ آلافِ ألفٍ.

وقال أبو بكرِ بنُ المقرئِ: ثنا أبو عَروبةَ، ثنا عمرُو بنُ عثمانَ، ثنا أبي، سمعتُ جدِّي قال: كتَب عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى عديِّ بنِ أرطاةَ: بلَغني أنَّك تستَنُّ بسنَنِ الحجاجِ فلا تستَنَّ بسنَنِه، فإنَّه كان يصلِّي الصلاةَ لغيرِ وقتِها، ويأخذُ الزكاةَ من غيرِ حقِّها، وكان لما سوىٰ ذلك أضيعَ.

وقال يعقوبُ بنُ سفيانَ: ثنا سعيدُ بنُ أسدٍ، ثنا ضَمرةُ، عن الريَّانِ بنِ مسلمٍ، قال: بعَث عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ بآلِ أبي عقيلٍ - أهلِ بيتِ الحجاجِ - إلى صاحبِ اليمنِ، وكتَب إليه: أمَّا بعدُ، فإنِّي قد بعثتُ بآلِ أبي عقيلٍ، وهم شرُّ بيتٍ في العربِ، ففرِّقْهم في العملِ على قدرِ هوانِهم على اللهِ وعلينا، وعليك السلامُ. وإنما نفاهم.

وقال الأوزاعيُّ: سمعت القاسمَ بنَ مُخَيْمِرَةَ يقولُ: كان الحجاجُ ينقُضُ عُرَىٰ الإسلامِ. وذكَر حكايةً. وقال أبو بكرِ بنُ عياشٍ، عن عاصمٍ: لم يَبْقَ للهِ حرمةٌ إلا ارتكبَها الحجاجُ بنُ يوسفَ. وقال يحيىٰ بنُ عيسىٰ الرمليُّ، عن الأعمشِ: اختلَفوا في الحجاجِ، فسألوا مجاهدًا، فقال: تسألوني عن الشيخِ الكافرِ؟

وروَىٰ ابنُ عساكرَ، عن الشعبيِّ أنَّه قال: الحجاجُ مؤمنٌ بالجبتِ والطاغوتِ، كافرٌ باللهِ العظيمِ. كذا قال واللهُ أعلمُ. وقال الثوريُّ، عن معمرٍ، عن ابنِ طاوسٍ، عن أبيه، قال: عجبًا لإخواننا من أهلِ العراقِ؛ يُسمُّون الحجاجَ مؤمنًا! وقال الثوريُّ، عن ابنِ عونٍ: سمعتُ أبا وائلٍ يُسألُ عن الحجاجِ: أتشهدُ أنَّه من أهلِ النارِ؟ قال: أتأمُروني أن أشهدَ على اللهِ العظيمِ. وقال الثوريُّ، عن منصورٍ، سألتُ إبراهيمَ عن لعنِ الحجاجِ أو بعضِ الجبابرةِ، فقال: أليس اللهُ يقولُ: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨]؟ وبه؛ قال إبراهيم: وكفَى بالرجلِ عمًى أن يعمَى عن أمرِ الحجاجِ. وقال سلامُ بنُ أبي مُطيعٍ: لأنا للحجاجِ أرجَىٰ مني لعمرِو بنِ عبيدٍ؛ لأنَّ الحجاجَ قتَل الناسَ على الدنيا، وعمرُو بنُ عُبَيْدٍ أحدَثَ للناسِ بدعةً، فقتَل الناسُ بعضُهم بعضًا. وقال الزِّبْرِقانُ: سَبَبْتُ الحجاجَ يومًا عندَ أبي وائلٍ، فقال: لا تسبَّه لعلَّه قال يومًا: اللهم ارحمْني. فيرحمَه، إياك ومجالسةَ مَنْ يقولُ: أرأيتَ أرأيتَ. وقال عوفٌ: ذُكِر الحجاجُ عندَ محمدِ بنِ سيرينَ، فقال: مسكينٌ أبو محمدٍ؛ إنْ يعذِّبْه اللهُ عزَّ وجلَّ فبذنبِه، وإنْ يغفرْ له فهنيئًا له، وإن يلقَ اللهَ بقلبٍ سليمٍ، فقد أصاب الذنوبَ مَن هو

خيرٌ منه. فقيل له: ما القلبُ السليمُ؟ قال: أن تعلمَ أنَّ الله حقٌّ، وأنَّ الساعةَ حقٌّ قائمةٌ، وأنَّ اللهَ يبعثُ مَن في القبورِ.

وقال أبو القاسم البغويُّ: ثنا أبو سعيدٍ، ثنا أبو أسامةَ، قال: قال رجلٌ لسفيانَ الثوريِّ: اشهَدْ على الحجاجِ وعلى أبي مسلم أنَّهما في النارِ. قال: لا، إذا أقرَّا بالتوحيد. وقال الرِّياشيُّ: حدَّثنا عبَّاسٌ الأزرقُ، عن السَّريِّ بنِ يحيى، قال: مرَّ الحجاجُ في يوم جُمُعةٍ فسمع استغاثةً، فقال: ما هذا؟ فقيل له: أهلُ السجونِ يقولون: قتَلَنا الحرُّ. فقال: قولوا لهم: اخسئوا فيها ولا تكلّمون. قال: فما عاشَ بعدَ ذلك إلا أقلَّ مِن جُمُعَةٍ. وقال بعضُهم: رأيتُه وهو يأتي الجُمُعةَ وقد كاد يهلكُ مِن العلة. وقال الأصمعيُّ: لما مرض الحجاجُ أرجَفَ الناسُ بموته، فقال في خطبته: إنَّ طائفةً من أهلِ الشقاقِ والنفاقِ نزَغ الشيطانُ بينهم، فقالوا: مات الحجاجُ، ومات الحجاجُ. فمَهْ، وهل يرجو الحجاجُ الخيرَ إلاَّ بعدَ الموتِ؟ والله ما يسُرُّني أنْ لا أموتَ وأنَّ لي الدنيا وما فيها، وما رأيتُ اللهَ رضِي التخليدَ إلا لأهون خلقه عليه إبليسَ، قال اللهُ له: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥]. فأنظرَه إلى يوم الدينِ، ولقد دعا اللهَ العبدُ الصالحُ فقال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي﴾ [ص: ٣٥]. فأعطاه اللهُ ذلك إلا البقاءَ، فما عسى أنْ يكونَ أيُّها الرجلُ، وكلُّكم ذلك الرجلُ، كأنِّي والله بكلِّ حيٍّ منكم ميتًا، وبكلِّ رطبٍ يابسًا، ثم نُقِل في ثيابِ أكفانه إلى ثلاثة أذرعٍ طولاً في ذراعٍ عرضًا، فأكلتِ الأرضُ لحمَه، ومصَّتْ صديدَه، وانصرفَ الحبيبُ من ولدِه يقسِمُ الحبيبَ مِن ماله، إن الذين يعقلون يعقلون ما أقولُ. ثم نزلَ.

وقال إبراهيمُ بنُ هشامِ بنِ يحيى بن يحيى الغسانيُّ، عن أبيه، عن جدِّه، عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ أنَّه قال: ما حسَدتُ الحجاجَ عدوَّ الله على شيءٍ حسدِي إياه على حبِّه القرآنَ وإعطائه أهلَه، وقوله حين حضرَتْه الوفاةُ: اللهمَّ اغفرْ لي فإنَّ الناسَ يزعُمون أنَّك لا تفعلُ. وقال أبو بكرٍ ابنُ أبي الدنيا: حدَّثنا عليُّ بنُ الجعد، حدَّثنا عبدُ العزيزِ بنُ عبدِ الله ابنِ أبي سلمةَ الماجشونُ، عن محمد بنِ المنكدرِ، قال: كان عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يُبغِض الحجاجَ، فنفسَ عليه بكلمةٍ قالها عندَ الموت: اللهمَّ اغفرْ لي؛ فإنَّهم زعَموا أنَّك لا تفعلُ[1]. قال: وحدَّثني بعضُ أهلِ العلمِ، قال: قيل للحسنِ: إنَّ الحجاجَ قال عندَ الموتِ كذا وكذا. قال: أقالها؟ قالوا: نعم. قال: عسى. وقال أبو العباسِ المبرِّدُ، عن الرِّياشيِّ، عن الأصمعيِّ، قال: لما حضرَتِ الحجاجَ الوفاةُ أنشأ يقولُ:

يا ربِّ قد حلَفَ الأعداءُ واجتهَدوا ... بأنَّني رجلٌ من ساكني النارِ

أيحلِفون على عمياءَ ويحَهُمُ ... ما علمُهم بعظيم العفوِ غفَّارِ

قال: فأخبِرَ بذلك الحسنُ، فقال: تالله إن نجا فبِهما. وزاد بعضُهم في ذلك:

إنَّ الموالي إذا شابتْ عبيدُهُمُ ... في رِقِّهم عتَقوهم عِتقَ أبرارِ

---

(١) ما برز من إسناده صحيح.

قد شبتُ في الرقّ فاعتقني من النار　　وأنتَ يا خالقي أولى بذا كرمًا

وقال ابنُ أبي الدنيا: ثنا أحمدُ بنُ عبد الله التيميُّ، قال: لما مات الحجاجُ لم يُعْلَمْ بموته حتى أشرفَتْ جاريةٌ فبكَتْ، فقالت: ألا إنَّ مُطعِمَ الطعامِ ومُفلِّقَ الهامِ، وسيدَ أهلِ الشامِ قد مات، ثم أنشأت تقولُ:

اليومَ يرحَمُنا مَن كان يغبطُنا　　واليومَ يأمنُنا مَن كان يخشانا

وروى عبدُ الرزاق، عن معمرٍ، عن ابنِ طاوسٍ، عن أبيه أنَّه أُخْبِر بموت الحجاج مرارًا، فلما تحقَّق وفاتَه قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥][(١)] . وروى غيرُ واحدٍ أنَّ الحسنَ لمَّا بُشِّرَ بموت الحجاج سجَد شكرًا لله تعالى، وكان مختفيًا فظهَر، وقال: اللهمَّ أمَته فاذهبْ عنا سُنَّتَه.

وقال حمادُ ابنُ أبي سليمانَ: لما أخبَرتُ إبراهيمَ النخعيَّ بموت الحجاج بكَى من الفرح. وقال أبو بكرٍ ابنُ أبي خيثمةَ: ثنا سليمانُ ابنُ أبي شيخٍ، ثنا صالحُ بنُ سليمانَ، قال: قال زيادُ بنُ الربيعِ الحارثيُّ لأهلِ السجنِ: يموتُ الحجاجُ في مرضِه هذا في ليلة كذا وكذا. فلما كانت تلك الليلةُ لم ينمْ أهلُ السجن فرحًا، جلَسُوا ينتظرون حتى سمِعوا الواعيةَ، وذلك ليلةَ سبعٍ وعشرين من شهرِ رمضانَ، وقيل: كان ذلك لخمسٍ بقِين من رمضانَ. وقيل: في شوالٍ من هذه السنة. وكان عمرُه إذ ذاك خمسًا وخمسين سنةً؛ لأنَّ مولدَه كان عامَ الجماعةِ سنةَ أربعين، وقيل: بعدَها بسنةٍ. وقيل: قبلَها بسنةٍ. فاللهُ أعلمُ.

مات بواسطٍ وعُفي قبرُه، وأُجْرِي عليه الماءُ لكيلا يُنبَشَ ويُحرقَ، واللهُ أعلمُ.

وقال الأصمعيُّ: ما كان أعجبَ الحجاجَ، ما ترَك إلاَّ ثلاثَمائة درهمٍ.

وقال الواقديُّ: ثنا عبدُ الله بنُ محمد بنِ عبيدٍ، حدَّثني عبدُ الرحمنِ بنُ عبدِ الله بنِ قُريبٍ، ثنا عمِّي قال: زعَموا أنَّ الحجاجَ مات ولم يتركْ إلاَّ ثلاثَمائة درْهمٍ ومُصْحفًا وسيفًا وسَرْجًا ورحلاً ومائةَ درعٍ موقوفةً[(٢)] . وقال شهابُ بنُ خراشٍ: حدثني عمِّي يزيدُ بنُ حوشبٍ قال: بعَث إليَّ أبو جعفرٍ المنصورُ فقال: حدِّثني بوصيةِ الحجاجِ بنِ يوسفَ. فقلتُ: اعفني يا أميرَ المؤمنين. فقال: حدِّثني بها. فقلتُ: بسمِ الله الرحمنِ الرحيمِ، هذا ما أوصَى به الحجاجُ بنُ يوسفَ، أنه يشهدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه، وأنه لا يعرفُ إلاَّ طاعةَ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ، عليها يحيا، وعليها يموتُ، وعليها يُبعَثُ، وأوصى بتسعمائة درعٍ حديدٍ؛ ستِّمائةٍ منها لمنافقي أهلِ العراقِ يغزون بها، وثلاثمائةٍ للتُّركِ. قال: فرفَع أبو جعفرٍ رأسَه إلى أبي العباسِ الطوسيِّ - وكان قائمًا على رأسه - فقال: هذه والله الشيعةُ لا شيعتُكم.

وقال الأصمعيُّ عن أبيه قال: رأيتُ الحجاجَ في المنامِ فقلتُ: ما فعَل اللهُ بك؟ فقال: قتَلني بكلِّ

---

(١) ما برز من إسناده صحيح.　　(٢) ما برز من إسناده تالف لحال الواقدي فإنه متروك.

قتلة قتلتُ بها إنسانًا، قال: ثم رأيتُه بعدَ الحولِ فقلتُ: يا أبا محمدٍ ما صنَع اللهُ بك؟ فقال: يا ماصَّ بَظْرِ أُمِّه أما سألتَ عن هذا عامَ أوَّلَ؟ وقال القاضي أبو يوسفَ: كنتُ عندَ الرشيدِ فدخَل عليه رجلٌ فقال: يا أميرَ المؤمنين رأيتُ الحجاجَ البارحةَ في النوم، قال: في أيِّ زيٍّ رأيتَه؟ قال: في زيٍّ قبيح. فقلتُ له: ما فعَل اللهُ بك؟ فقال: ما أنت وذاك يا ماصَّ بَظْرِ أمِّه؟ فقال هارونُ: صدقتَ واللهِ، أنت رأيتَ الحجاجَ حقًّا، ما كان أبو محمدٍ لِيَدَعَ صرامتَه حيًّا وميتًا.

وقال حنبلُ بنُ إسحاقَ: ثنا هارونُ بنُ معروفٍ، ثنا ضمرةُ، ثنا ابنُ شوذبٍ، عن أشعثَ الحُدّانيِّ. قال: رأيتُ الحجاجَ في المنامِ في حالةٍ سيئةٍ فقلتُ: يا أبا محمد ما صنع بك ربك؟ قال: ما قتلت أحدًا قتلة إلا قتلني بها، فقلت: ثم مه. قال: ثم أمَر بي إلى النارِ. قلتُ: ثم مهْ. قال: ثم أرجو ما يرجو أهلُ لا إلهَ إلاَّ اللهُ. قال: وكان ابنُ سيرينَ يقولُ: إنِّي لأرجو له. فبلَغ ذلك الحسنَ فقال: أما والله لَيُخلفنَّ اللهُ رجاءَه فيه.

وقال أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ: سمعتُ أبا سليمانَ الدارانيَّ يقولُ: كان الحسنُ البصريُّ لا يجلسُ مجلسًا إلاَّ ذكَر فيه الحجاجَ فدعا عليه، قال: فرآه في منامه فقال له: أنتَ الحجاجُ؟ قال: أنا الحجاجُ. قال: ما فعَل اللهُ بك؟ قال: قُتلتُ بكلِّ قتيلٍ قتلتُه ثم عُزِلتُ مع الموحِّدين. قال: فأمسَكَ الحسنُ بعد ذلك عن شتمه. واللهُ أعلمُ.

وممَّن تُوفِّي في هذه السنة - أعني سنةَ خمسٍ وتسعين -:

إبراهيمُ بنُ يزيدَ النَّخَعيُّ: قال: كنّا إذا حضَرنا جنازةً، أو سمعنا بميِّتٍ عُرِف ذلك فينا أيامًا؛ لأنّا قد عرَفنا أنَّه نزَل به أمرٌ صيَّره إلى الجنَّة، أو إلى النارِ، وإنَّكم في جنائزِكم تتحدَّثون بأحاديثِ دنياكم. وقال: لا يَستقيمُ رأيٌ إلا بروايةٍ، ولا روايةٌ إلا برأيٍ.

قال: إذا رأيتَ الرجلَ يتهاوَنُ بالتكبيرةِ الأولى فاغسلْ يدَيْك من فَلاحه.

وقال: إنِّي لأرىٰ الشيءَ مِمّا يُعابُ فما يمنعُني من عَيبه إلاَّ مخافةُ أنْ أُبتلَى به. وبكَى عند موته، فقيل له: ما يُبكيك؟ فقال: انتظارُ مَلَك الموتِ، ما أدري يبشِّرُني بجنَّةٍ، أو بنارٍ.

الحسنُ بنُ محمدِ ابنِ الحنفيَّة: كنيتُه أبو محمدٍ، كان المقدَّمَ على إخوته في الفضلِ، وكان أعلمَ الناسِ بالاختلافِ والفقه والتفسيرِ، وكان من ظرفاءِ بني هاشمٍ وعقلائهم، ولم يكُنْ له عقبٌ. قال أيوبُ السَّختيانيُّ، وغيرُه: كان أوَّلَ مَن تكلَّم في الإرجاءِ. وكتَب في ذلك رسالةً ثم ندم عليها.

وقال غيرُهم: كان يتوقَّفُ في عثمانَ، وعليٍّ، وطلحةَ، والزبيرِ، فلا يتولاَّهم، ولا يذُمُّهم، فلما بلَغ ذلك أباه محمدَ ابنَ الحنفيةِ ضرَبه فشجَّه، وقال: ويحَك، ألاَ تتولَّى أباك عليًّا؟

وقال أبو عُبيد: تُوفِّي سنةَ خمسٍ وتسعينَ.

وقال خليفةُ: تُوفِّي في أيامِ عُمرَ بنَ عبدِ العزيزِ. واللهُ أعلمُ.

حُمَيْدُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ عَوْفٍ الزُّهريُّ: وأمُّه أمُّ كُلثومٍ بنتُ عُقبةَ بنِ أبي مُعَيْطٍ، وهي أختُ عثمانَ بنِ عفَّانَ لأمِّه، وكانَ حُمَيْدٌ فقيهًا نبيلاً عالمًا، له رواياتٌ كثيرةٌ.

مُطَرِّفُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ: تقدَّمتْ ترجمتُه.

وهؤلاءِ كلُّهم لهم تراجمُ في كتابِنا «التكميلِ».

وفيها كان موتُ الحجَّاجِ بواسطٍ كما تقدَّم ذلك مبسوطًا مُستقصًى، ولله الحمدُ.

وفيها كان مقتلُ سعيدِ بنِ جُبَيْرٍ، في قولِ عليِّ بنِ المدائنيِّ، وجماعةٍ. والمشهورُ أنَّه كان في سنةِ أربعٍ وتسعين، كما ذكَره ابنُ جريرٍ، وغيرُ واحدٍ. واللهُ أعلمُ.

* * *

ثم دخلت سنة ست وتسعين

وفيها فتَح قُتيبةُ بنُ مسلم، رحمه اللهُ تعالى، كاشْغَرَ من أرضِ الصين، وبعَث إلى مَلك الصين رُسُلاً يتهدَّدُه ويتوعَّدُه، ويُقسِمُ بالله لا يرجعُ حتى يطأَ بلادَه، ويخْتِمَ ملوكَهم وأشرافَهم، ويأخُذَ الجزيةَ منهم، أو يدخُلوا في الإسلامِ، فدخَل الرسُلُ على المَلك الأعظمِ فيهم، وهو في مدينةٍ عظيمةٍ - يُقالُ: إنّ عليها تسعين بابًا في سُورِها المحيطِ بها - يُقالُ لها: خانُ بالِق. من أعظم المدنِ، وأكثرِها ريْعًا، ومعاملات وأموالاً، حتى قيل: إنّ بلادَ الهندِ مع اتِّساعها كالشّامةِ في مُلك الصين. والصينُ لا يَحتاجون إلى أن يُسافِروا في مُلك غيرِهم؛ لكثرةِ أموالهم ومتاعِهم، وغيرُهم محتاجٌ إليهم؛ لما عندَهم من المتاعِ والدنيا المتَّسعةِ، وسائر ملوكِ تلك البلادِ تُؤدِّي إلى مَلك الصينِ الخَراجَ؛ لقهْرِه، وكثرةِ جندِه وعُدده.

والمقصودُ أنّ الرسلَ لما دخَلوا على مَلك الصِّين وجَدوا مملكةً عظيمةً وجُندًا كثيرًا، ومدينةً حصينةً ذاتَ أنهارٍ وأسواقٍ وحُسنٍ وبهاءٍ، فدخَلوا عليه في قَلْعةٍ عظيمةٍ حصينةٍ، بقدْرِ مدينةٍ كبيرةٍ، فقال لهم مَلكُ الصين: ما أنتم؟ وكانوا ثلاثَمائة رسولٍ عليهم هُبَيرةُ - فقال المَلكُ لتُرجمانه: قل لهم: ما أنتم وما تُريدون؟ فقالوا: نحنُ رُسُلُ قتيبةَ بنِ مُسلم، وهو يدْعوك إلى الإسلام، فإن لم تفعَلْ فالجزيةُ، فإن لم تفعَلْ فالحربُ. فغضب المَلكُ وأمَر بهم إلى دارٍ، فلمّا كان الغدُ دعاهم فقال لهم: كيف تكونون في عبادةِ إلهكم؟ فصلَّوُا الصلاةَ على عادتِهم، فلمّا ركَعوا وسجَدوا ضحِك منهم، فقال: كيف تكونون في بيوتكم؟ فلبِسوا ثيابَ مِهَنِهم، فأمَرهم بالانصراف. فلما كان من الغدِ أرسَل إليهم، فقال: كيف تدخُلون على مُلوكِكم؟ فلبِسوا الوشْيَ والعمائمَ والمطارفَ، ودخَلوا على المَلك، فقال لهم: ارجعوا. فرجَعوا، فقال المَلكُ لأصحابِه: كيف رأيتُم هؤلاء؟ فقالوا: هذه أشبهُ بهيئةِ الرجال من تلكَ المرَّةِ الأولى، وهم أولئك.

فلمّا كان اليومُ الثالثُ، أرسَلَ إليهم، فقال لهم: كيف تلقَوْن عدُوَّكم؟ فشَدُّوا عليهم سلاحَهم، ولبِسوا المَغافرَ والبَيْضَ، وتقلَّدوا السيوفَ، وتنكَّبوا القِسيَّ، وأخَذوا الرِّماحَ، وركِبوا خيولَهم ومضَوْا، فنظَر إليهم ملكُ الصين فرأى أمثالَ الجبالِ مُقبلةً، فلمّا قَرُبوا منه ركَزوا رماحَهم، ثم أقبَلوا نحوَه مُشَمِّرين، فقيل لهم: ارجعوا - وذلك لمَا دخَل قلوبَ أهلِ الصِّين من الخوفِ منهم - فانصرَفوا فركِبوا خيولَهم، واختلَجوا رِماحَهم، ثم ساقُوا خيولَهم، كأنَّهم يتطارَدُون بها، فقال المَلكُ لأصحابِه: كيف ترَونَهم؟ فقالوا: ما رأَينا مثلَ هؤلاءِ قطُّ.

فلمّا أمسَوْا بعَث إليهم الملكُ؛ أنِ ابعثوا إليَّ زعيمَكم وأفضلَكم. فبعَثوا إليه هُبَيرةَ، فقال له الملكُ حينَ دخَل عليه: قد رأيتُم عظَمَ مُلكي، وليس أحدٌ يمنَعُكم منِّي، وأنتم بمنزلةِ البَيْضةِ في كفِّي، وأنا سائلُك عن أمرٍ فإن لم تصدُقْني قتَلْتُك. فقال: سلْ. فقال المَلكُ: لِمَ صنَعتُم ما صنَعتُم من زِيٍّ أوَّلَ

يوم والثاني والثالث؟ فقال: أمَّا زيُّنا أوَّلَ يوم فهو لباسُنا في أهلنا ونسائنا، وطيبُنا عندَهم، وأمّا ما فعلْنا ثانيَ يوم فهو زيُّنا إذا دخلْنا على ملوكنا، وأمَّا زيُّنا ثالثَ يوم فهو إذا لقينا عدوَّنا. فقال المَلكُ: ما أحسنَ ما دبَّرتُم دَهْرَكم! انصرفُوا إلى صاحبكم - يعني قُتَيْبةَ - وقولُوا له ينصرفُ راجعًا عن بلادي؛ فإنِّي قد عرفتُ حِرْصَه وقلَّةَ أصحابه، وإلاّ بعثْتُ إليكم مَن يُهلكُكم عن آخركم. فقال له هُبيرةَ: تقولُ لقُتَيْبةَ هذا؟ فكيفَ يكونُ قليلَ الأصحاب مَن أوّلُ خيله في بلادك وآخرُها في مَنابت الزيتون؟! وكيف يكونُ حريصًا مَن خلَّف الدنيا قادرًا عليها، وغزاك في بلادك؟! وأمّا تخويفُك إيّانا بالقتل فإنَّا نعلَمُ أنّ لنا أجلاً إذا حضَر فأكرمُها عندَنا القتلُ، فلسْنا نكرَهُه ولا نخافُه. فقال الملكُ: فما الذي يُرْضي صاحبَكم؟ فقال: قد حلَفَ أنَّه لا ينصرفُ حتى يطَأَ أرضَكَ. ويختمَ ملوكَك ويَجْبيَ الجزيةَ من بلادكَ. فقال المَلكُ: أنا أبرُّ يمينَه وأُخرجُه منها؛ أُرسلُ إليه بتراب من أرضي، وأربع غلمان من أبناء الملوك، وأُرسلُ إليه ذهبًا كثيرًا وحريرًا وثيابًا صينيَّةً لا تُقوَّمُ، ولا يَدْري أحدٌ قدرَها، ثم جرَت لهم معه مُقاوَلاتٌ كثيرةٌ، ثم شرَع يتهدَّدُهم فتهدَّدوه، ويتوعَّدُهم فتوعَّدوه، ثم اتَّفَق الحالُ على أنَّه بعَث صحافًا من ذهب متَّسعةً فيها ترابٌ من أرضه ليطَأَه قتيبةُ، وبعَث بجماعة من أولاده وأولاد الملوك ليختمَ رقابَهم، وبعَث بمال جزيل ليبرَّ يمينَ قتيبةَ، وقيل: إنَّه بعَث أربعمائة من أولاده وأولاد الملوك.

فلما انتهى إلى قتيبةَ ما أرسَله مَلكُ الصِّين قَبِل ذلك منه؛ وذلك لأنَّه كان قد انتهى إليه خبرُ موت الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنينَ، فانكسرَتْ همَّتُه لذلك، وقد عزَم قتيبةُ بنُ مسلم الباهليُّ على عدم مبايعة سليمانَ بن عبد الملك، وأراد الدعوةَ إلى نفسه؛ لمَا تحتَ يده من العساكر، ولمَا فتَح من البلاد والأقاليم، فلم يُمْكنْه ذلك، ثم قُتل في آخر هذه السنة، رحمه اللهُ تعالى، فإنَّه يُقالُ: إنه ما كُسرتْ له رايةٌ. وكان من المُجاهدين في سبيل الله، واجتمَع له من العساكر ما لم يجتمعْ لغيره.

وفيها غزَا مَسلَمةُ بنُ عبد الملك الصائفةَ، وغزَا العبّاسُ بنُ الوليد الرومَ، ففتَح طُولسَ والمرزبانين من بلاد الروم.

وفيها تكامَل بناءُ الجامع الأمويِّ بدمشقَ على يد بانيه أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروانَ، جزاه اللهُ عن المسلمين خيرَ الجزاء، وكان أصلُ موضع هذا الجامع قديمًا معبدًا بنَتْه اليونانُ الكُلْدانيُّون الذين كانوا يَعْمُرونَ دمشقَ، وهم الذين وضَعوها، وعمَروها أوّلاً؛ فهم أوّلُ مَن بناها، وقد كانوا يعبُدون الكواكبَ السَّبعةَ المُتَحيِّرَةَ؛ وهي القمرُ في السَّماء الدُّنيا، وعُطاردُ في السَّماء الثانية، والزُّهَرَةُ في السماء الثالثة، والشَّمسُ في الرابعة، والمرِّيخُ في الخامسة، والمُشْترِي في السَّادسة، وزُحَلُ في السابعة. وكانوا قد صوَّروا على كلِّ باب من أبواب دمشقَ هيكلاً لكوكب من هذه الكواكب السَّبعة، وكانت أبوابُ دمشقَ سبعة وضَعُوها قصدًا لذلك، فنصَبوا هياكلَ سبعةً؛ لكلِّ كوكب هيكلٌ، وكان لهم عندَ كلِّ باب من أبواب دمشقَ عيدٌ في السنة، وهؤلاء هم الذين وضَعوا الأرصادَ، وتكلَّموا على

حركاتِ الكواكبِ، واتِّصالاتها ومقارنتها، وبنَوْا دمشقَ، واختاروا لها هذه البُقعةَ إلى جانبِ الماءِ الواردِ من بين هذين الجبلَيْن، وصرَّفوه أنهارًا تجري إلى الأماكنِ المرتفعة والمنخفضة، وسلكوا الماءَ في أفناءِ أبنيةِ الدُّورِ بدمشقَ، فكانتْ دمشقُ في أيامِهم من أحسنِ المُدُنِ، بل هي أحسنُها، لِمَا فيها من التَّصاريفِ العجيبة.

وبنَوْا هذا المعبدَ وهو الجامعُ اليومَ إلى جهةِ القُطْبِ، وكانوا يُصلُّون إلى القُطْبِ الشَّماليِّ، وكانتْ مَحاريبُه تجاهَ الشَّمالِ، وكان بابُ معبدِهم يفتَحُ إلى جهةِ القبلةِ، خلفَ المحرابِ اليومَ، كما شاهَدْنا ذلك عِيانًا، ورأيْنا محاريبَهم إلى جهةِ القُطْبِ، ورأيْنا البابَ، وهو بابٌ حسَنٌ مبنيٌّ بحجارةٍ منقوشةٍ، وعليه كتابٌ بخطِّهم، وعن يمينه ويساره بابانِ صغيرانِ بالنسبةِ إليه، وكان غربيَّ المعبدِ قصرٌ مُنيفٌ جدًّا تحملُه هذه الأعمدةُ التي ببابِ البريدِ، وشرْقيَّ المعبدِ قصرُ جَيْرُونَ الملكِ - الذي كان ملكَهم - وكان هناك دارانِ عظيمتانِ مُعَدَّتانِ لِمَن يتملَّكُ دمشقَ قديمًا منهم.

ويُقالُ: إنَّه كان مع المعبدِ ثلاثُ دُورٍ عظيمةٍ للملوكِ، ويحيطُ بهذه الدُّورِ والمعبدِ سورٌ واحدٌ عالٍ مُنيفٌ، بحجارةٍ كبارٍ منحوتةٍ؛ وهُنَّ دارُ المَطْبَقِ، ودارُ الخَيْلِ، ودارٌ كانت تكونُ مكانَ الخَضراءِ التي بناها مُعاويةُ.

قال الحافظُ ابنُ عساكرَ فيما حكاه عن كُتُبِ بعضِ الأوائلِ: إنَّهم مكثُوا يأخُذون الطَّالعَ لبناءِ دمشقَ وهذه الأماكنِ ثمانيَ عشْرةَ سنةً، وقد حفَرُوا أساسَ الجُدْرانِ حتى وافاهم الوقتُ الذي طلَع فيه الكوكبانِ اللَّذانِ أرادوا أنَّ المسجدَ لا يخرَبُ أبدًا ولا تخلُو منه العبادةُ، وأنَّ هذه الدارَ إذا بُنيَتْ لا تخلُو من أن تكونَ دارَ المُلكِ والسَّلْطَنةِ. قلتُ: أمَّا المَعبَدُ فلم يَخْلُ من العبادةِ. قال كعبُ الأحبارِ: لا يخلُو منها حتى تقومَ السَّاعةُ.

وأمَّا دارُ الملكِ التي هي الخضراءُ فقد جدَّد بناءَها معاويةُ، ثم أُحرِقت في سنةِ إحدى وستِّينَ وأربعمائةٍ - كما سنذكُره - فبادَتْ وصارَتْ مساكنَ ضعفاءِ الناسِ وأراذلِهم في الغالبِ إلى زمانِنا هذا، وباللهِ المستعانُ.

والمقصودُ أنَّ اليونانَ استمَرُّوا على هذه الصِّفةِ التي ذكَرناها بدمشقَ مُددًا طويلةً، تزيدُ على أربعةِ آلافِ سنةٍ، حتى إنَّه يُقالُ: إنَّ أوَّلَ مَن بنَى جُدْرانَ هذا المعبدِ الأربعةَ هودٌ، عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وقد كان هودٌ قبلَ إبراهيمَ الخليلِ بمُدَّةٍ طويلةٍ.

وقد ورَد إبراهيمُ الخليل، عليه السلامُ، دمشقَ ونزَل شماليَّها عندَ بَرْزَةَ، وقاتَل هنالك قومًا من أعدائه فظفِر بهم، ونصَره اللهُ عليهم، وكان مُقامُه لقاتَلتِهم عندَ بَرْزَةَ. فهذا المكانُ المنسوبُ إليه بها منصوصٌ عليه في الكُتُبِ المتقدِّمة يَأثُرُونَه كابرًا عن كابرٍ، وإلى زمانِنا. واللهُ أعلمُ.

وكانت دمشقُ إذْ ذاكَ عامرةً آهلةً بمَن فيها من اليونانِ وكانوا خَلْقًا لا يُحصيهم إلاَّ اللهُ؛ وهم

خُصماءُ الخليلِ، وقد ناظَرَهم الخليلُ في عبادتهم الأصنامَ والكواكبَ وغيرَها في غيرِ موضعٍ، كما قرَّرْنا ذلك في التفسيرِ، وفي قصةِ إبراهيمَ الخليلِ، عليه السلامُ، من كتابِنا هذا «البدايةِ والنهايةِ»، ولله الحمدُ، وبالله المستعانُ.

والمقصودُ أنَّ اليونانَ لم يزالوا يعمُرونَ دمشقَ، ويبنُونَ فيها وفي معاملاتها - من أرضِ حَوْرانَ والبِقاعِ وبعلَبكَّ وغيرِها - البناياتِ الهائلةَ الغريبةَ العجيبةَ، حتى إذا كان بعدَ المسيحِ بمُدَّةٍ نحوٍ من ثلاثمائة سنةٍ تنصَّر أهلُ الشامِ على يدِ الملكِ قُسطَنطينَ بنِ قُسْطنطينَ، الذي بنَى المدينةَ المشهورةَ في بلادِ الرومِ التي تُنسبُ إليه وهي القُسْطَنطِينيَّةُ، وهو الذي وضَع لهم القوانينَ، وقد كان أوَّلاً هو وقومُه وغالبُ أهلِ الأرضِ يونانًا، ووضَعَتْ له بطاركةُ النَّصارَىٰ دينًا مُخترَعًا مُركَّبًا من أصلِ دينِ النَّصرانيَّةِ، ممزوجًا بشيءٍ من عبادةِ الأوثانِ، وصلَّوا به إلى الشَّرقِ، وزادوا في الصِّيامِ، وأحَلُّوا الخنزيرَ، وعلَّموا أولادَهم الأمانةَ الكبيرةَ، فيما يزعُمونَ، وإنَّما هي في الحقيقة خيانةٌ كبيرةٌ، وجنايةٌ كثيرةٌ حَقيرةٌ، وهي مع ذلك في الحَجْمِ صغيرةٌ حَقيرةٌ نَقيرةٌ، وقد تكلَّمْنا على ذلك فيما سلَف وبيَّنّاه.

فبَنَىٰ لهم هذا المَلِكُ، الذي تُنسَبُ إليه الطائفةُ الملكيةُ من النَّصارَىٰ، كنائسَ كثيرةً في دمشقَ وفي غيرِها، حتى يُقالَ: إنَّه بنَى في زمانِه ثِنتيْ عشْرةَ ألفَ كنيسةٍ، وأوقَف عليها أوقافًا دارَّةً، من ذلك كنيسةُ بيتِ لحمٍ، وقُمامةَ بالقُدسِ، بنَتْها أمُّه هَيْلانةُ الفندقانيةُ، وغيرُ ذلك.

والمقصودُ أنَّهم - يَعْني النَّصارىٰ - حوَّلوا بناءَ هذا المعبدِ الذي هو بدمشقَ معظَّمًا عندَ اليونانِ، فجعَلُوه كنيسةً، وبنَوْا له المذابحَ في شرقيِّه، وسمَّوْه كنيسةَ مَرْيُحَنّا. ومنهم مَن يقولُ: كنيسةُ يُوحنَّا. وبنَوْا بدمشقَ كنائسَ كثيرةً غيرَها مستأنفةً.

واستَمرَّ النَّصارَىٰ على دينِهم هذا بدمشقَ وغيرِها نحواً من ثلاثمائة سنةٍ، حتى بعَث اللهُ محمدًا ﷺ، فكان من شأنه، صلواتُ الله وسلامُه عليه، ما ذكَرنا بعضَه في كتابِ السِّيرةِ، من هذا الكتابِ. وقد بعَث صلواتُ الله وسلامُه عليه إلى ملكِ الرومِ في زمانِه - وهو قيصرُ ذلك الوقتِ - واسمُه هِرَقْلُ يدْعوه إلى اللهِ عزَّ وجلَّ، وكان من مراجعتِه ومخاطبتِه إلى أبي سفيانَ صخرِ بنِ حربٍ ما تقدَّم.

ثم بعَث عليه السلامُ أمراءَه الثلاثةَ؛ زيدَ بنَ حارثةَ مولاه، وجعفرَ بنَ أبي طالبٍ، وعبدَ الله بنَ رواحةَ، إلى البلقاءِ من تُخومِ الشَّامِ، فبعَث الرومُ إليهم جيشًا كثيرًا فقتَلُوا هؤلاءِ الأمراءَ وجماعةً ممَّن معهم من الجيشِ، فعزَم النبيُّ ﷺ على قتالِ الرومِ ودخولِ الشَّامِ عامَ تبوكَ، ثم رجَع عليه السلامُ عامَه ذلك لشدَّةِ الحرِّ، وضَعْفِ الحالِ، وضِيقِه على الناسِ.

ثمَّ لمَّا تُوفِّي رسولُ الله ﷺ بعَث الصدِّيقُ الجيوشَ إلى الشَّامِ، وإلى العراقِ - كما تقدَّم تفصيلُ ذلك في كتابِنا هذا، ولله الحمدُ - ففتَح اللهُ على المسلمين الشامَ بكمالِها، ومن ذلك مدينةُ دمشقَ بأعمالِها، وقد بسَطْنا القولَ في ذلك عندَ ذكْرِ فَتْحِها. فلمَّا استقرَّتِ اليدُ الإسلاميةُ عليها، وأنزَل اللهُ رحمتَه

فيها، ساق برَّه إليها، وكتَب أميرُ الحرب إذ ذاك؛ وهو أبو عُبيدةَ ـ وقيل: خالدُ بنُ الوليدِ ـ لأهلِ دمشقَ كتابَ أمانٍ، وأقرُّوا أيديَ النَّصارىٰ علىٰ أربعَ عشْرةَ كنيسةً، وأخذوا منهم نصفَ هذه الكنيسة التي كانوا يسمُّونها كنيسةَ مَرْيُحَنَّا، بحكم أنَّ البلدَ فتَحه خالدٌ من الباب الشرقيِّ بالسيف، وأخذَت النَّصارىٰ الأمانَ من أبي عبيدةَ، وكان علىٰ باب الجابية الصلحُ، فاختلفوا ثم اتَّفَقوا علىٰ أن جعلوا نصفَ البلد صُلحًا ونصفَه عَنْوةً، فأخَذوا نصفَ هذه الكنيسة الشرقيَّ فجعلَه أبو عبيدةَ مسجدًا ـ وكان قد صارتْ إليه إمرةُ الشام؛ لعزلِ عمرَ خالدًا وتوليةِ أبي عبيدةَ ـ وكان أوَّلَ مَن صلَّىٰ في هذا المسجد أبو عبيدةَ، رضي اللهُ عنه، ثم الصحابةُ بعدَه في البُقعة الشرقيَّة منه؛ التي يُقالُ لها: محرابُ الصحابة. ولكنْ لم يكنِ الجدارُ مفتوحًا بمحرابٍ مَحنيٍّ، وإنَّما كانوا يُصلُّون عندَ هذه البُقعة المُباركة، والظاهرُ أنَّ الوليدَ هو الذي فَتَق المحاريبَ في الجدارِ القبليِّ. وقد كره كثيرٌ من السلَف الصلاةَ في مثلِ هذه المحاريب، وجعلوه من البدع المحدَثة، وكان المسلمون والنصارىٰ يدخُلون هذا المعبدَ من بابٍ واحدٍ، وهو بابُ المعبد الأصليُّ الذي كان من جهة القِبلة، مكانَ المحراب الكبير الذي في المَقصورة اليومَ، فينصرفُ النصارىٰ إلىٰ جهة الغرب إلىٰ كنيستهم، ويأخُذُ المسلمون يَمْنَةً إلىٰ مسجدهم، ولا يستطيعُ النصارىٰ أن يجهَروا بقراءة كتابهم، ولا يضربوا بناقوسهم؛ إجلالًا للصَّحابة ومهابةً وخوفًا.

وقد بنَىٰ معاويةُ، رضي اللهُ عنه، في أيام ولايته علىٰ الشام دارَ الإمارة قِبْليَّ المسجد الذي كان للصَّحابة، وبنَىٰ فيها قُبَّةً خضْراءَ، فعُرفت الدارُ بكمالها بها، فسكَنها معاويةُ أربعين سنةً كما قدَّمنا.

ثم لم يزَل الأمرُ علىٰ ما ذكرْنا من أمرِ هذه الكنيسة شَطرين بين المسلمين والنَّصارىٰ، من سنة أربعَ عشْرةَ إلىٰ سنة ستٍّ وثمانين في ذي القَعدة منها، وقد صارت الخلافةُ إلىٰ الوليد بن عبد الملك في شوَّالٍ منها، فعزَم الوليدُ علىٰ أخْذ بقيَّة هذه الكنيسة، وإضافتها إلىٰ ما بأيدي المسلمين منها، وجَعْلِ الجميع مسجدًا واحدًا؛ وذلك لأن بعضَ المسلمين كان يتأذَّىٰ بسماع قراءة النَّصارىٰ الإنجيلَ، ورفْعِ أصواتهم في صلواتهم، فأحبَّ أن يُبعدَهم عن المسلمين، وأن يُضيفَ ذلك المكانَ إلىٰ هذا فيكبُرَ به المسجدُ الجامعُ، فطلَب النَّصارىٰ وسأَل منهم أن يخرُجوا له عن هذا المكان، ويعوِّضَهم إقطاعاتٍ كثيرةً، وعرَضها عليهم، وأن يُقرَّ لهم أربعَ كنائسَ لم تدخُلْ في العهد؛ وهي كنيسةُ مريمَ، وكنيسةُ المُصلَّبة داخلَ الباب الشَّرقيِّ، وكنيسةُ تلِّ الجُبْنِ، وكنيسةُ حُمَيْدِ بن درَّةَ التي بدرب الصَّقيل، فأبَوْا ذلك أشدَّ الإباء، فقال: ائتونا بعهدكم. فأتَوْا بعهدهم الذي بأيديهم من زمن الصحابة، فقُرِئ بحضْرَة الوليد؛ فإذا كنيسةُ تُومَا ـ التي كانت خارجَ باب تُوما عندَ النَّهرِ ـ لم تدخُلْ في العهد، وكانتْ ـ فيما يُقالُ ـ أكبرَ من كنيسة مَرْيُحَنَّا، فقال الوليدُ: أنا أهدمُها وأجعلُها مسجدًا. فقالوا: بل يترُكُها أميرُ المؤمنين وما ذكَر من الكنائس، ونحن نرضَىٰ بأخذِ بقيَّة هذه الكنيسة، فأقرَّهم علىٰ تلك الكنائسِ، وأخَذ منهم بقيَّةَ هذه الكنيسة. هذا قولٌ.

ويُقال: إنَّ الوليدَ لمّا أهمَّه ذلك، وعرَض ما عرَض على النَّصارىٰ فأبَوْا من قَبوله، دخَل عليه بعضُ النَّاسِ فأرشَده إلىٰ أنْ يَقيسَ من بابِ الشرقيِّ ومِن بابِ الجابيةِ، فوجَد منتصفَ ذلك عندَ سُوقِ الرَّيحان تقريبًا؛ فإذا الكنيسةُ المُنازِعُ فيها قد دخَلت في العَنْوة، فأخَذها.

وحُكي عن المُغيرة مَولى الوليد قال: دخَلتُ على الوليدِ فوجَدْتُه مهمومًا، فقلتُ: ما لكَ يا أميرَ المؤمنينَ مهمومًا؟ فقال: إنَّه قد كثُر المُسلمون وقد ضاقَ بهم المسجدُ، فأحضَرتُ النَّصارىٰ وبذَلتُ لهم الأموالَ في بقيَّة هذه الكنيسة؛ لأُضيفَها إلى المسجد فيتَّسعَ على المسلمين فأبَوْا. فقال المغيرةُ: يا أميرَ المؤمنينَ، عندي ما يُزيلُ همَّك. قال: وما هو؟ قلتُ: إنّ الصحابةَ لمّا أخَذوا دمشقَ دخَل خالدُ بنُ الوليدِ من بابِ الشرقيِّ بالسيفِ، فلمَّا سمع أهلُ البلد بذلك فزِعوا إلى أبي عُبيدةَ يطلُبون منه الأمانَ فأمَّنهم، وفَتَحوا له بابَ الجابيةِ، فدخَل منه أبو عُبيدةَ بالصُّلح، فنحنُ نُماسحُهم إلى أيِّ مَوْضعٍ بلَغ السيفُ أخَذْناه، وما كان بالصُّلحِ ترَكْناه بأيديهم، وأرجو أن تدخُلَ الكنيسةُ كلُّها في العَنْوة، فتدخُلَ في المسجد. فقال الوليدُ: فرَّجتَ عنّي، فتولَّ أنت ذلك بنفسِك. فتولَّاه المغيرةُ ومسَح من البابِ الشرقيِّ إلى نحوِ بابِ الجابيةِ إلى سوقِ الرَّيحانِ؛ فوجَد السيفَ لم يزَلْ عمَّالاً حتى جاوزَ القَنْطرةَ الكبيرةَ بأربعةِ أذرُعٍ وكسْرٍ، فدخَلَت الكنيسةُ في المسجدِ. فأرسَل الوليدُ إلى النَّصارىٰ فأخبَرهم، وقال: إنّ هذه الكنيسةَ كلَّها دخَلَتْ في العَنْوَة فهي لنا دونَكم. فقالوا: إنَّك: أوَّلاً دفَعْتَ إلينا الأموالَ، وأقطَعتَنا الإقطاعاتِ فأبَيْنا، فمن إحسانِ أميرِ المؤمنين أن يُصالحَنا فيُبقيَ لنا هذه الكنائسَ الأربعةَ بأيدينا، ونحنُ نترُكُ له بقيَّةَ هذه الكنيسة. فصالَحهم على إبقاءِ هذه الأربعِ كَنائسَ بأيديهم. واللهُ أعلمُ.

وقيل: إنَّه عوَّضَهم منها كنيسةً عندَ حمَّام القاسمِ عند بابِ الفراديسِ، فسمَّوْها مَرْيُحَنَّا باسمِ تلك الكنيسة التي أُخِذَتْ منهم، وأخَذوا شاهدَها فوضَعُوه فوقَ التي أخَذوها بدلَها. فاللهُ أعلمُ.

ثم أمَر الوليدُ بإحضارِ آلاتِ الهدمِ، واجتمَع إليه الأمراءُ والكُبراءُ من رُؤساءِ الناسِ، وجاء إليه أساقفةُ النَّصارىٰ وقساوستُهم، فقالوا: يا أميرَ المؤمنين، إنا نجِدُ في كتُبنا أنّ مَن يَهدِمُ هذه الكنيسةَ يُجَنُّ. فقال: أنا أُحبُّ أنْ أُجَنَّ في الله، عزَّ وجلَّ، وواللهِ لا يَهدِمُ فيها أحدٌ شيئًا قَبلي، ثم صعِد المنارةَ الشرقيَّةَ ذاتَ الأضالعِ المعروفةِ بالسَّاعات، وكانت صومعةً هائلةً، فيها راهبٌ معظَّمٌ عندَهم، فأمَره الوليدُ بالنُّزولِ منها، فأكبَر الراهبُ ذلك، فأخَذ الوليدُ بقَفاهُ، فلم يزَلْ يدفعُه حتى أحْدَره منها، ثم صعِد الوليدُ على أعلى مكانٍ في الكنيسةِ، فوقَ المَذْبَحِ الأكبرِ منها الذي يُسمُّونه الشاهدَ؛ وهو تمثالٌ في أعلى الكنيسة، فقال له الرهْبانُ: احذَرِ الشاهدَ. فقال: أنا أوَّلُ ما أضَعُ فأسي في رأسِ الشاهدِ. ثم كبَّر وضرَبه فهدَمه، وكان على الوليدِ قَباءٌ لونُه أصفرُ سَفَرْجَليٌّ، قد غرَز أَذْيالَه في المِنْطَقَةِ، ثم أخَذ فأسًا في يدِه فضرَب بها في أعلى حَجَرٍ فألقاه، فتبادَر الأمراءُ إلى الهدمِ، وكبَّر

المسلمون ثلاث تكبيراتٍ، وصرَختِ النصارىٰ بالعَويلِ علىٰ دَرَجِ جَيْرُونَ، وكانوا قد اجتمَعوا هنالك، فأمَرَ الوليدُ أميرَ الشُّرْطة وهو أبو ناتلٍ رِيَاحٌ الغسَّانيُّ، أن يضرِبَهم حتىٰ يذهَبوا مِن هُنالك، ففعَل ذلك، فهدَم الوليدُ والأمراءُ جميعَ ما جدَّده النَّصارىٰ في تربيعِ هذا المكانِ؛ مِن المذابحِ والأبنيةِ والحَنايا، حتىٰ بقِي صَرْحةً مُربَّعةً، ثم شرَع في بنائِه بفكرةٍ جيِّدةٍ علىٰ هذه الصفةِ الحسَنةِ الأنيقةِ، التي لم يُشتهَرْ مثلُها قبلَها علىٰ ما سنذكُرُه ونُشيرُ إليه.

وقد استعمَل الوليدُ في بناءِ هذا المسجدِ خَلْقًا كثيرًا مِن الصنّاعِ والمُهندسين والفَعَلةِ، وكان المستحثَّ علىٰ عمارتِه أخوه، ووليُّ عهدِه مِن بعدِه سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ، ويقالُ: إنَّ الوليدَ بعَث إلىٰ ملِكِ الرومِ يطلُبُ منه صُنّاعًا في الرُّخامِ، وغيرِ ذلك؛ ليستعينَ بهم علىٰ عمارةِ هذا المسجدِ علىٰ ما يُريدُ، وأرسَل يتوعَّدُه؛ لَئِن لم يفعَلْ ليغزُوَنَّ بلادَه بالجيوشِ، وليُخرِّبَنَّ كلَّ كنيسةٍ في بلادِه، حتىٰ كنيسةَ القُدسِ، وكنيسةَ الرُّها، وسائرَ آثارِ الرومِ، فبعَث ملكُ الرومِ إليه صُنّاعًا كثيرةً جدًّا؛ مائتي صانعٍ، وكتَب إليه يقولُ: إنْ كان أبوكَ فُهِّم هذا الذي تصنَعُه وتركَه، فإنّه لوصمةٌ عليك، وإنْ لم يكُنْ فُهِّمه وفهِّمتَه أنتَ، فإنّه لوصمةٌ عليه.

فلمّا وصَل ذلك الكتابُ إلىٰ الوليدِ أراد أنْ يُجيبَ عن ذلك، واجتَمع الناسُ عندَه لذلك، وكان فيهم الفرزدقُ الشّاعرُ، فقال: أنا أجيبُه يا أميرَ المؤمنين من كتابِ الله تعالىٰ. قال الوليدُ: وما هو ويحَك؟ فقال: قال اللهُ تعالىٰ: ﴿**فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا**﴾ [الأنبياء: ٧٩]. وسليمانُ هو ابنُ داودَ، ففهَّمه اللهُ ما لم يفهَمْه أبوه. فأعجَب ذلك الوليدَ، فأرسَل به جوابًا إلىٰ مَلِك الرومِ.
وقد قال الفرزدقُ في ذلك:

فرَّقتَ بينَ النَّصارَى في كَنائسِهمْ ... والعابدين معَ الأسحارِ والعَتَمِ
وهمْ جميعًا إذا صَلَّوْا وأوجُهُهُمْ ... شَتَّى إذا سَجَدُوا للهِ والصَّنَمِ
وكيفَ يجتمعُ النّاقوسُ يَضْرِبُهُ ... أهْلُ الصَّليبِ معَ القُرّاءِ لم تَنَمِ
فُهِّمتَ تحويلَها عنهُم كما فَهِما ... إذ يَحْكُمانِ لهُمْ في الحَرْثِ والغَنَمِ
داودُ والمَلكُ المَهْديُّ إذْ جَزَّا ... أولادَها واجتزازُ الصوفِ بالجَلَمِ
فهَّمكَ اللهُ تحويلًا لبَيْعتِهِمْ ... عن مسجدٍ فيه يُتلَى طيِّبُ الكَلِمِ
مَا مِنْ أبٍ حمَلَتْهُ الأرضُ نعلَمُهُ ... خيرٌ بنِينَ ولا خيرٌ منَ الحَكَمِ

قال الحافظُ عبدُ الرحمنِ بنُ إبراهيمَ دُحَيْمٌ الدِّمَشْقيُّ: بنَىٰ الوليدُ ما كان داخِلَ حيطانِ المسجدِ، وزادَ في سَمكِ الحيطانِ.

وقال الحسنُ بنُ يَحْيَى الخُشَنيُّ: إنَّ هودًا، عليه السّلامُ، هو الذي بنَىٰ الحائطَ القِبليَّ مِن مسجدِ دِمشقَ.

وقال غيره: لمّا أراد الوليدُ بناءَ القُبَّةِ التي وسَطَ الرُّوَاقَاتِ ـ وهي قُبَّةُ النَّسْرِ، وهو اسمٌ حادثٌ لها، وكأنَّهم شَبَّهُوها بالنَّسرِ في شكلِه؛ لأنَّ الرُّوَاقَاتِ عَن يمينِها وشمالِها كالأجْنِحة لها ـ حفروا لأركانِها، حتىٰ وصَلوا إلى الماءِ، وشربوا منه ماءً عَذْبًا زُلالاً، ثم إنَّهم وضَعوا فيه جِرارَ الكَرْمِ، وبنَوْا فوقَها بالحجارةِ، فلمّا ارتفَعَت الأركانُ بنَوْا عليها القُبَّةَ فسقَطَتْ، فقال الوليدُ لبعضِ المهندسين: أُريدُ أنْ تبنيَ لي أنت هذه القبَّةَ. فقال: علىٰ أنْ تُعطيَني عهدَ الله وميثاقَه أن لا يبنيَها أحدٌ غيري. ففعَل. فبنَىٰ الأركانَ ثم غلَّفَها بالبَواري، وغاب عنها سنةً كاملةً لا يَدري الوليدُ أين ذهَب، فلمّا كان بعدَ السنة حضَر، فهمَّ به الوليدُ، فأخَذه ومعه رُءوسُ الناسِ، فكشَفَ البَواريَ عن الأركانِ؛ فإذا هي قد هبَطَتْ بعد ارتفاعِها حتىٰ ساوت الأرضَ، فقال له: من هذا أُتيتَ. ثم بنَاها فانعقَدتْ.

وقال بعضُهم: أراد الوليدُ أنْ يجعَلَ بَيْضةَ القُبَّةِ من ذهبٍ خالصٍ؛ ليُعظِّمَ بذلك شأنَ المسجدِ، فقال له المعمارُ: إنَّك لا تقدرُ علىٰ ذلك. فضرَبه خمسين سَوْطًا، وقال له: ويلك، أنا لا أقدرُ علىٰ ذلك، وتزعُمُ أنّي أعجِزُ عنه، وخَراجُ الأرضِ وأموالُها تُجبَىٰ إليَّ؟ قال: نعم، أنا أُبيِّنُ لك ذلك. قال: فبيِّنْ ذلك. قال: اضرِبْ لبنةً واحدةً من الذهبِ، وقِسْ عليها ما تُريدُ هذه القُبَّةُ من ذلك. فأمَر الوليدُ، فأُحضِر من الذهبِ ما سُبِك به لبنةٌ؛ فإذا هي قد دخَلها ألوفٌ من الذهبِ، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنّا نريدُ من هذه كَذا وكَذا ألفَ لبنةٍ، فإنْ كان عندَك ما يكفي من ذلك عمِلناه. فلمّا تحقَّق الوليدُ صحةَ قولِه أطلَق له خمسين ديناراً، ثم عقَدها علىٰ ما أشار به المعمارُ.

ولمّا سقَف الوليدُ الجامعَ جعَلوا سقفَه جَمَلوناتٍ، وباطنَها مُسطَّحًا مُقَرْنَصًا بالذَّهبِ، فقال له بعضُ أهلِه: أتعَبتَ الناسَ بعدَك في تطيينِ أسطحة هذا المسجدِ في كلِّ عامٍ. فأمَر الوليدُ أنْ يُجمَعَ ما في بلادِه من الرصاصِ؛ ليجعَلَه عوضَ الطِّينِ، ويكونَ أخفَّ علىٰ السقوفِ، فجمع من كلِّ ناحيةٍ من الشامِ، وغيرِه من الأقاليمِ، فعازوا، فإذا عندَ امرأةٍ منه قناطيرُ مقنطَرةٌ، فساوَموها فيه، فأبَت أنْ تبيعَه إلاّ بوزنِه فضّةً، فكتَبوا إلى الوليدِ بذلك، فقال: اشترُوه منها، ولو بوزنِه فضةً. فلمّا بذَلوا لها ذلك، قالتْ: أمَا إذا فعَلتُم ذلك فهو صدَقةٌ للهِ يكونُ في سقفِ هذا المسجدِ. فكتَبوا علىٰ ألواحِها بطابعٍ: «لله». ويُقالُ: إنّها كانت إسرائيليةً، وإنَّه كتب علىٰ الألواحِ التي أُخذتْ منها: هذا ما أعطته الإسرائيليَّةُ.

وقال محمدُ بنُ عائذ: سمعتُ المشايخَ يقولون: ما تمَّ بناءُ مسجدِ دمشقَ إلاّ بأداءِ الأمانةِ، لقد كان يَفْضُلُ عندَ الرجلِ من القوَمةِ ـ يعنُون الفعَلَةَ ـ الفأسُ ورأسُ المسمارِ، فيجيءُ حتىٰ يضعَه في الخزانةِ.

وقال بعضُ مشايخِ الدَّماشقة: ليس في الجامعِ من الرُّخامِ شيءٌ إلاّ الرخامتانِ اللّتانِ في المقامِ من عرشِ بِلقيسَ، والباقي كلُّه مَرْمَرٌ. وقال بعضُهم: اشترىٰ الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ العمودَين الأخضرَين اللّذين تحتَ النَّسْرِ، من حربِ بنِ خالدِ بنِ يزيدَ بنِ معاويةَ بألفٍ وخمسمائة دينارٍ.

وقال دُحَيْمٌ، عن الوليدِ بنِ مُسلمٍ، ثنا مَروانُ بنُ جَناحٍ، عن أبيه، قال: كان في مسجدِ دمشقَ اثنا

عشرَ ألفَ مَرْخَمٍ.

وقال أبو قُصَيٍّ، عن دُحَيْمٍ، عن الوليدِ بنِ مسلمٍ، عن عمرِو بنِ مُهاجرٍ الأنصاريِّ: إنهم حسَبوا ما أنفقَه الوليدُ على الكَرْمَةِ التي في قبلةِ المسجدِ؛ فإذا هو سبعون ألفَ دينارٍ.

وقال أبو قُصيٍّ: أنفق في مسجدِ دمشقَ أربعَمائةِ صندوقٍ، في كلِّ صندوقٍ أربعةَ عشرَ ألفَ دينارٍ. **وفي روايةٍ**: في كُلِّ صندوقٍ ثمانيةٌ وعشرون ألفَ دينارٍ. قلت: فعلى الأوَّلِ يكونُ ذلك خمسةَ آلافِ ألفِ دينارٍ، وستَّمائةِ ألفِ دينارٍ، وعلى الثاني يكونُ المصروفُ في عمارةِ الجامعِ الأمويِّ أحدَ عشرَ ألفَ ألفِ دينارٍ، ومائتي ألفِ دينارٍ. واللهُ أعلمُ.

وقال أبو قُصيٍّ: وأتى الحَرَسِيُّ إلى الوليدِ فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ الناسَ يقولونَ: أنفقَ الوليدُ أموالَ بيتِ المالِ في غيرِ حقِّها. فنُودِي في الناسِ: الصَّلاةُ جامعةٌ. فاجتَمع الناسُ فصعد الوليدُ المنبرَ، وقال: إنَّه بلَغَني عنكم أنَّكم قلتُم: أنفقَ الوليدُ بيوتَ الأموالِ في غيرِ حقِّها. ثم قال: يا عمرو بنَ مهاجرٍ، قُمْ فأحضرْ أموالَ بيتِ المالِ. فحُملتْ على البغالِ إلى الجامعِ، وبُسطت الأنطاعُ تحت القُبَّةِ، ثُم أُفرغ عليها المالُ ذهبًا صبيبًا، وفضَّةً خالصةً حتى صارتْ كومًا، حتى كان الرجلُ لا يرى الرجلَ من الجانبِ الآخرِ، وهذا شيءٌ كثيرٌ، ثُم جيء بالقبَّانين فوُزنت الأموالُ؛ فإذا هي تكفي الناسَ ثلاثَ سنين مستقبَلةً - وفي روايةٍ: ستَّ عشْرةَ سنةً مستقبَلةً لو لم يدخُلْ للناسِ شيءٍ بالكُلِّيَةِ - ففرح الناسُ وكبَّروا، وحمِدُوا اللهَ، عزَّ وجلَّ، على ذلك، ثم قال الوليدُ: يا أهلَ دمشقَ، إنَّكم تفخَرون على الناسِ بأربعٍ؛ بهوائكم، ومائكم، وفاكهتِكم، وحمّاماتِكم؛ فأحبَبتُ أنْ أزيدَكم خامسةً، وهي هذا الجامعُ فاحمَدوا اللهَ تعالى. وانصرَفوا شاكرين داعين.

وقال بعضُهم: كان في قبلةِ جامعِ دمشقَ ثلاثُ صفائحَ مُذَهَّبةٍ بلازْوَرْدَ، في كلٍّ منها: بسم الله الرحمنِ الرحيمِ ﴿**اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ**﴾. لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحده لا شريكَ له، ولا نعبُدُ إلاَّ إيَّاه، ربُّنا اللهُ وحدَه، ودينُنا الإسلامُ، ونبيُّنا محمدٌ ﷺ. أمَر ببنيانِ هذا المسجدِ، وهَدْمِ الكنيسةِ التي كانتْ فيه، عبدُ اللهِ أميرُ المؤمنين الوليدُ، في ذي القَعدةِ سنةَ ستٍّ وثمانين. وفي صفيحةٍ أخرى رابعةٍ من تلك الصفائحِ: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ [الفاتحة: ٢-٤] إلى آخرِ السورةِ، ثم النازعاتِ، ثم عبس، ثم ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ**﴾ [التكوير: ١].

قالوا: ثم مُحِيتْ بعدَ مجيءِ المأمونِ إلى دمشقَ. وذكَروا أنَّ أرضَه كانت مفضَّضةً كلَّها، وأنَّ الرخامَ كان في جُدرانِه إلى قاماتٍ، وفوقَ الرخامِ كَرْمةٌ عظيمةٌ من ذهَبٍ، وفوقَ الكَرْمةِ الفصوصُ المذهَّبةُ والخُضْرُ والحُمْرُ والزُّرْقُ والبِيضُ، قد صوَّروا بها سائرَ البلدانِ المشهورةِ؛ الكعبةَ فوقَ

المحرابِ، وسائرَ الأقاليمِ يَمْنةً ويَسْرةً، وصوَّروا ما في البلدانِ من الأشجارِ الحسَنةِ المثمرةِ والمزهرةِ، وغيرِ ذلك، وسقفُه مقرنَصٌ بالذَّهبِ، والسَّلاسلُ المُعلَّقةُ فيه جميعُها من ذهبٍ وفضَّةٍ، وأنوارُ الشُّموعِ في أماكنِه مفرقةٌ.

قال: وكان في محرابِ الصحابةِ بَرنِيَّةٌ؛ حجرٌ من بلَّورٍ -ويقالُ: بل كانت حجرًا من جوهرٍ. وهي الدُّرَّةُ، وكانت تُسمَّى القُليلةَ، وكانت إذا طَفِئتِ القناديلُ تُضيءُ لِمَن هناك بنورِها، فلمَّا كان زمنُ الأمينِ بنِ الرشيدِ -وكان يحبُّ البَلُّورَ، وقيل: الجوهرَ- بعَث إلى سليمانَ والي شرطةِ دمشقَ أن يبعَثَ بها إليه، فسرَقها، وسيَّرها إلى الأمينِ، فلمَّا ولِي المأمونُ ردَّها إلى دمشقَ؛ لِيُشنِّعَ بذلك على الأمينِ.

قال ابنُ عساكرَ: ثم ذهَبتْ بعدَ ذلك فجُعِلَ مكانَها بَرنِيَّةٌ مِن زجاجٍ. قال: وقد رأيتُ تلك البَرْنِيَّةَ ثم انكسَرتْ بعدَ ذلك، فلم يُجعَلْ مكانَها شيءٌ.

قالوا: وكانت الأبوابُ الشارعةُ مِن داخلِ الصَّحْنِ ليس عليها أغلاقٌ، وإنَّما كان عليها الستورُ مُرخاةً، وكذلك الستورُ على سائرِ جُدرانِه إلى حدِّ الكَرْمةِ التي فوقَها الفصوصُ المُذهَّبةُ، ورءوسُ الأعمدةِ مطليَّةٌ بالذهبِ الخالصِ الكثيرِ، وعملوا له شُرُفاتٍ تحيطُ به، وبنَى الوليدُ المنارةَ الشماليةَ التي يقالُ لها: مئذنةُ العروسِ. فأمَّا الشَّرقيةُ والغربيةُ فكانتا فيه قبلَ ذلك بدهورٍ متطاولةٍ، وقد كان في كلِّ زاويةٍ مِن هذا المعبَدِ صومعةٌ شاهقةٌ جدًّا، بنَتْها اليونانُ للرَّصدِ، ثم بعدَ ذلك سقَطَت الشماليتانِ وبقيت القبليتانِ إلى الآنَ، وقد أُحرِق بعضُ الشرقيةِ بعدَ الأربعين وسبعمائةٍ، فنقضتْ وجدِّد بناؤها مِن أموالِ النَّصارَى، حيثُ اتُّهِموا بحريقِها، فقامتْ على أحسنِ الأشكالِ، بيضاءَ بذاتِها وهي، واللهُ أعلمُ، المنارةُ الشرقيةُ التي ينزِلُ عليها عيسى ابنُ مريمَ في آخرِ الزمانِ بعدَ خروجِ الدَّجالِ، كما ثبَت ذلك في «صحيح مسلم»، عن النوَّاسِ بنِ سمعانَ[1].

قلتُ: ثم أُحرِق أعلَى هذه المنارةِ وجدِّدتْ، وكان أعلاها مِن خشبٍ فبنيتْ بحجارةٍ كلُّها في آخرِ السبعين وسبعمائةٍ، فصارتْ كلُّها مبنيةً بالحجارة.

والمقصودُ أنَّ الجامعَ الأمويَّ لمَّا كمَل بناؤُه لم يكُنْ على وجهِ الأرضِ بناءٌ أحسنَ منه، ولا أبهَى ولا أجَلَّ منه، بحيثُ إنَّه إذا نظَر الناظرُ إليه، أو إلى أيِّ جهةٍ منه، أو إلى أيِّ بُقعةٍ، أو مكانٍ منه، تحيَّر فيما ينظُرُ إليه؛ لحُسنِه جميعِه، ولا يَمَلُّ ناظرُه، بل كلَّما أدمَن النظرَ، بانتْ له أُعجوبةٌ ليستْ كالأخرَى.

وكانتْ فيه طلَّسماتٌ مِن أيامِ اليونانِ، فلا يدخُلُ هذه البقعةَ شيءٌ مِن الحشَراتِ بالكليَّةِ، لا مِن الحيَّاتِ، ولا مِن العقاربِ، ولا الخنافسِ، ولا العناكيبِ، ويقالُ: ولا العصافيرُ أيضًا تعشِّشُ فيه، ولا الحَمامُ، ولا شيءٌ ممَّا يتأذَّى به الناسُ.

---

(١) يشير إلى ما أخرجه مسلم (٢٩٣٧) الحديث الطويل في ذكر الدجال وإتيان عيسى بن مريم ﷺ وذكر قصة يأجوج ومأجوج.

وأكثرُ هذه الطِّلَّسْمات أو كلُّها كانتْ مودعَةً في سقفِ الجامع، مِمَّا يلي السُّبُعَ، فأحرقتْ لمّا وقَع فيه الحريقُ، وكان ذلك ليلةَ النصفِ من شعبانَ بعدَ العصرِ، سنةَ إحدَىٰ وستين وأربعمائة، في دولةِ الفاطميِّين، كما سيأتي ذلك في موضعه.

وقد كانتْ بدمشقَ طِلَّسْماتٌ وضَعَتْها اليونانُ، بعضُها باقٍ إلىٰ يومنا هذا. واللهُ أعلمُ.

فمِن ذلك العمودُ الذي في رأسه مثلُ الكرة بسوقِ الشعيرِ عندَ قنطرةِ أمِّ حكيم، وهذا المكانُ يعرَفُ اليومَ بالعلَبيين، ذكَر مشايخُ دمشقَ أنّه من وضْعِ اليونانِ لعُسْرِ بولِ الحيوانِ، فإذا داروا بالحيوانِ حول هذا العمودِ ثلاث دوْراتٍ انطلَق بولُه، وذلك مجرَّبٌ عند اليونان.

وما زال سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ يعمَلُ في تكملة الجامعِ الأمويِّ بعدَ موتِ أخيه مدةَ ولايته، وجدِّدتْ له فيه المقصورةُ، فلمّا وَلِي عمرُ بنُ عبدِ العزيز، عزَم علىٰ أن يجرِّدَ ما فيه من الذَّهبِ، ويقلَعَ السلاسلَ والرُّخامَ والفُسَيفساءَ، ويردَّ ذلك كلَّه إلىٰ بيتِ المالِ، ويُطيِّنَه مكانَ ذلك كلِّه، فشقَّ ذلك علىٰ أهلِ البلدِ، واجتمَع أشرافُهم إليه، وقال خالدُ بنُ عبدِ الله القَسْريُّ: أنا أكلِّمُه لكم. فلمّا اجتمَعوا قال خالدٌ: يا أميرَ المؤمنين، بلَغَنا أنّك تريدُ أن تصنَعَ كذا وكذا. قال: نعم. فقال خالدٌ: ليس ذلك لك يا أميرَ المؤمنين. فقال عمرُ: ولِمَ يا بنَ الكافرة؟ وكانت أمُّه نصرانيَّةً روميَّةً أمَّ ولدٍ - فقال: يا أميرَ المؤمنين، إن كانت كافرةً، فقد ولَدتْ رجلاً مؤمنًا. فقال: صدَقتَ. واستحيَا عمرُ، ثم قال له: فلِمَ قلتَ ذلك؟ قال: يا أميرَ المؤمنين، لأنَّ غالبَ ما فيه من الرُّخام إنَّما حمَله المسلمون من أموالِهم من سائرِ الأقاليمِ، وليس هو لبيتِ المالِ. فأطرَق عمرُ، رحمه اللهُ.

قالوا: واتَّفَق في ذلك الزمانِ قُدومُ جماعةٍ من بلادِ الرومِ رسلاً من عندِ ملكِهم، فلمّا دخَلوا من بابِ البريدِ، وانتَهَوْا إلى البابِ الكبيرِ الذي تحتَ النَّسرِ، ورأَوْا ما بهَر عقولَهم من حُسنِ ذلك الجامعِ الباهرِ، والزخرفةِ التي لم يُسمَعْ بمثلِها صعِق كبيرُهم، وخرَّ مغشيًّا عليه، فحمَلوه إلى منزلِهم، فبقِي أيامًا مدنفًا، فلما تماثَل، سألوه عمّا عرَض له، فقال: ما كنتُ أظنُّ أن يبنيَ المسلمون مثلَ هذا البناء، وكنتُ أعتقِدُ أن مدَّتَهم تكونُ أقصرَ من هذا. فلمّا بلَغ ذلك عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ قال: أوَإنَّ هذا لَغيظُ الكفارِ؟ دعوه.

وسألتِ النصارىٰ في أيامِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ أن يعقِدَ لهم مجلسًا في شأنِ ما كان أخَذه الوليدُ منهم - وكان عمرُ عادلاً، فأراد أن يردَّ عليهم ما كان أخَذه الوليدُ منهم - فأدخله في الجامعِ، ثم حقَّق عمرُ القضيَّةَ، ثم نظَر؛ فإذا الكنائسُ التي هي خارجَ البلدِ لم تدخُلْ في الصلحِ الذي كتَبه لهم الصحابةُ؛ مثلَ كنيسةِ دَيرِ مُرّانَ، وكنيسةِ الرّاهبِ، وكنيسةِ توما، خارجَ بابِ توما، وسائرِ الكنائسِ التي بقُرَىٰ الحواضرِ، فخيَّرهم بينَ ردِّ ما سألوه، وتخريبِ هذه الكنائسِ كلِّها، أو تبقَىٰ تلك

الكنائسُ، ويُطيبوا نفسًا للمسلمين بهذه البقعة، فاتَّفقتْ آراؤهم بعدَ ثلاثة أيام على إبقاء تلك الكنائس، ويكتُبُ لهم كتابَ أمانٍ بها، ويَطيبوا نفسًا بهذه البقعة، فكتَب لهم كتابَ أمانٍ بها.

والمقصودُ أنَّ الجامعَ الأمويَّ كان حينَ تكامَل بناؤُه ليس له في الدنيا نظيرٌ في حسنه وبهجته.

قال الفرزدقُ: أهلُ دمشقَ، في بلدهم قصرٌ من قصورِ الجنة. يعني به الجامعَ الأمويَّ.

وقال أحمدُ بنُ أبي الحواريِّ، عن الوليدِ بنِ مسلمٍ، عن ابنِ ثوبانَ: ما ينبغي أن يكونَ أحدٌ أشدَّ شوقًا إلى الجنةِ من أهلِ دمشقَ؛ لما يرَون من حسنِ مسجدِها.

قالوا: ولما دخَل المهديُّ - أميرُ المؤمنين العباسيُّ - دمشقَ يريدُ زيارةَ بيتِ المقدسِ، نظَر إلى جامعِ دمشقَ، فقال لكاتبِه أبي عبيدِ اللهِ الأشعريِّ: سبَقَنا بنو أمية بثلاثٍ؛ بهذا المسجدِ، لا أعلَمُ على وجهِ الأرضِ مثلَه، وبنُبلِ الموالي، وبعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، لا يكونُ واللهِ فينا مثلُه أبدًا. ثم لما أتى بيتَ المقدسِ، فنظَر إلى الصخرةِ - وكان عبدُ الملكِ بنُ مروانَ هو الذي بناها - قال لكاتبِه: وهذه رابعةٌ.

ولما دخَل المأمونُ دمشقَ، فنظَر إلى جامعِها، وكان معه أخوه المعتصمُ، وقاضيه يحيى بنُ أكثمَ، قال: ما أعجَبُ ما فيه؟ فقال أخوه: هذه الأذهابُ التي فيه. وقال يحيى بنُ أكثمَ: هذا الرخامُ، وهذه العُقَدُ. فقال المأمونُ: إنما أعجَبُ من حُسنِ بُنيانِه على غيرِ مثالٍ متقدِّمٍ. ثم قال المأمونُ لقاسمٍ التَّمارِ: أخبِرْني باسمٍ حسنٍ أسمِّي به جاريتي هذه. فقال: سمِّها مسجدَ دمشقَ؛ فإنَّه أحسنُ شيءٍ.

وقال عبدُ الرحمنِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عبدِ الحكمِ، عن الشافعيِّ قال: عجائبُ الدنيا خمسةٌ؛ أحدُها منارتُكم هذه - يعني منارةَ ذي القرنين التي بإسكندريةَ - والثانيةُ أصحابُ الرقيمِ؛ وهم بالرومِ اثنا عشرَ رجلًا، أو ثلاثةَ عشرَ رجلًا، والثالثةُ مرآةٌ ببابِ الأندلسِ على بابِ مدينتِها، يجلسُ الرجلُ تحتَها، فينظُرُ فيها صاحبَه من مسافةِ مائةِ فرسخٍ، والرابعُ مسجدُ دمشقَ، وما يوصَفُ من الإنفاقِ عليه، والخامسُ الرخامُ والفسيفساءُ؛ فإنَّه لا يُدرى لهما موضعٌ، ويقالُ: إن الرخامَ معجونٌ، والدليلُ على ذلك أنَّه يذوبُ على النارِ.

قال ابنُ عساكرَ: وذكَر إبراهيمُ بنُ أبي الليثِ الكاتبُ - وكان قدِم دمشقَ سنةَ اثنتين وثلاثين وأربعمائة - في رسالةٍ له قال: ثم أمرنا بالانتقالِ إلى البلدِ، فانتقَلْتُ منه إلى بلدٍ تمَّتْ محاسنُه، ووافَق ظاهرَه باطنُه، أزقَّتُه أرِجةٌ، وشوارعُه فَرِجةٌ، فحيثُ ما شئتَ شمَمْتَ طيبًا، وأين سعَيتَ رأيتَ منظرًا عجيبًا، وأفضَيتُ إلى جامعِه، فشاهَدتُ منه ما ليس في استطاعةِ الواصفِ أن يصفَه، ولا الرائي أن يعرِفَه، وجملتُه أنَّه بِكْرُ الدَّهرِ، ونادرةُ الوقتِ، وأعجوبةُ الزمانِ، وغريبةُ الأوقاتِ، ولقد أثبَت اللهُ، عزَّ وجلَّ، به ذكرًا يُدرَسُ وخلَّف به أمرًا لا يخفَى ولا يدرُسُ.

قال ابنُ عساكرَ: وأنشَدني بعضُ أهلِ الأدبِ لبعضِ المحدَّثين في جامعِ دمشقَ، عمَّره اللهُ بذكرِه:

دمشقُ قد شاعَ حسنُ جامعِها ... وما حوتْه رُبَى مرابعِها
بديعةُ الحسنِ في الكمالِ لَما ... يُدْرِكُه الطرفُ مِن بدائعِها
طيِّبةٌ أرضُها مبارَكَةٌ ... باليُمنِ والسعدِ أَخْذُ طالعِها
جامعُها جامِعُ المحاسنِ قد ... فاقَتْ به المدْنَ في جوامعِها
بَنيَّةٌ بالإتقانِ قد وضِعتْ ... لا ضيَّع اللهُ سعيَ واضعِها
تذكَرُ في فضلِه ورفعتِه ... أخبارُ صدْقٍ راقَتْ لسامعِها
قد كان قبلَ الحريقِ مَدهَشةً ... فغيَّرتْه نارٌ بلافعِها
فأذهَبتْ بالحريقِ بهجتَه ... فليس يُرجَى إيابُ راجعِها
إذا تفكَّرتَ في الفصوصِ وما ... فيها تيقَّنتَ حذْقَ راصعِها
أشجارُها لا تزالُ مثمرةً ... لا تذهَبُ الريحُ مِن مدافعِها
كأنَّها مِن زمرُّدٍ غرِستْ ... في أرضِ تبرٍ تغشَى بفاقعِها
فيها ثمارٌ تخالُها يَنَعتْ ... وليس يُخَشَّى فسادُ يانعِها
تُقطَفُ باللَّحظِ لا بجارحةِ الـ ... ـأيدي ولا تُجتَنَى لبائعِها
وتحتَها مِن رخامِه قِطَعٌ ... لا قطَّع اللهُ كفَّ قاطعِها
أحكَم ترخيمَها المرخِّمُ قد ... بانَ عليها إحكامُ صانعِها
وإن تفكَّرتَ في قناطرِه ... وسقفِه بان حذقُ رافعِها
وإن تبيَّنْتَ حُسنَ قُبَّتِه ... تحيَّرَ اللبُّ في أضالعِها
تخترِقُ الريحُ في مخارمِها ... عصفًا فتقوَى على زعازعِها
وأرضُه بالرخامِ قد فرِشتْ ... ينفسِح الطرفُ في مواضعِها
مجالسُ العلمِ فيه مُتقَنةٌ ... ينشرِحُ الصدرُ في مجامعِها
وكلٌّ بابٍ عليه مطهَرةٌ ... قد أمِن الناسُ دفعَ مانعِها
يرتفِقُ الخلَقُ مِن مرافقِها ... ولا يُصَدُّون عن منافعِها
ولا تزالُ المياهُ جاريةٌ ... فيها لما شُقَّ مِن مشارعِها
وسوقُها لا تزالُ آهلةً ... يزدحِمُ الناسُ في شوارعِها
لما يشاءون من فواكِهِها ... وما يريدون من بضائعِها
كَأنَّها جنَّةٌ معجَّلةٌ ... في الأرضِ لولا سُرَى فجائعِها
دامَتْ برغمِ العِدَى مسلَّمةً ... وحاطَها اللهُ مِن قوارِعِها

فصلٌ: فيما رُوي في جامع دمشقَ مِنَ الآثار، وما ورَدَ في فضلِه مِنَ الأخبار عن جماعةٍ مِنَ السادةِ الأخيار

رُوي عن قتادةَ أنَّه قال في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ﴾ قال: هو مسجدُ دمشقَ. ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ قال: هو مسجدُ بيتِ المقدسِ. ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ حيثُ كلَّم اللهُ موسىٰ ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ وهو مكةُ.

ونقَل عثمانُ ابنُ أبي العاتكةِ، عن أهلِ العلمِ، أنَّهم قالوا في قوله تعالىٰ: ﴿وَالتِّينِ﴾ هو مسجدُ دمشقَ. رواه ابنُ عساكرَ.

وقال صفوانُ بنُ صالحٍ، عن عبدِ الخالقِ بنِ زيدِ بنِ واقدٍ، عن أبيه، عن عطيةَ بنِ قيسٍ الكلابيِّ، قال: قال كعبُ الأحبارِ: ليُبنيَنَّ في دمشقَ مسجدٌ يبقىٰ بعدَ خرابِ الدنيا أربعين عامًا[1].

وقال الوليدُ بنُ مسلمٍ، عن عثمانَ ابنِ أبي العاتكَةِ، عن عليِّ بنِ يزيدَ، عن القاسمِ أبي عبدِ الرحمنِ، قال: أوحىٰ اللهُ تعالىٰ إلىٰ جبلِ قاسيُونَ أنْ هَبْ ظلَّكَ وبركتَكَ إلىٰ جبلِ بيتِ المقدسِ. قال: ففعَل. فأوحَىٰ اللهُ إليه: أمَا إذ فعَلتَ فإنِّي سابني لي في حضنك بيتًا أُعبَدُ فيه بعدَ خرابِ الدنيا أربعين عامًا، ولا تذهَبُ الأيامُ والليالي حتىٰ أرُدَّ عليك ظلَّكَ وبركتَكَ. قال: فهو عندَ اللهِ بمنزلةِ المؤمنِ الضعيف المتضرِّع[2].

وقال دُحَيمٌ: حيطانُ المسجدِ الأربعةُ من بناءِ هودٍ، عليه السلامُ، وما كان من الفُسيفساءِ إلىٰ فوقَ فهو من بناءِ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ - يعني أنَّه رَفَع الجدارَ فعَلاَّه من حدِّ الرخامِ والكرمةِ إلىٰ فوقَ. وقال غيرُه: إنما بنَىٰ هودٌ الجدارَ القبليَّ فقط.

وقال أبو بكر أحمدُ بنُ عبدِ الله بنِ الفرجِ، المعروفُ بابنِ البرَامِيِّ، الدِّمشقيُّ: ثنا إبراهيمُ بنُ مروانَ، سمعتُ أحمدَ بنَ إبراهيمَ بنِ مُلاَّسٍ يقولُ: سمعتُ عبدَ الرحمنِ بنَ يحيىٰ بنِ إسماعيلَ بنِ عُبيدِ الله ابنِ أبي المهاجرِ، قال: كان خارجَ بابِ الساعاتِ صخرةٌ يوضَعُ عليها القُربانُ، فما تُقُبِّلَ منه جاءت نارٌ فأكلَتْه، وما لم يُتَقبَّلْ منه بقِي علىٰ حالِه.

قلتُ: وهذه الصخرةُ نُقلتْ إلىٰ داخلِ بابِ الساعاتِ، وهي موجودةٌ إلىٰ الآنَ، وبعضُ العامةِ يزعُمُ أنها الصخرةُ التي وضَع عليها ابنا آدمَ قربانَهما، فتُقُبِّلَ مِن أحدِهما، ولم يُتقبَّلْ مِن الآخرِ. فاللهُ أعلمُ.

وقال هشامُ بنُ عمّارٍ: ثنا الحسنُ بنُ يحيىٰ الخُشَنيُّ أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ، ليلةَ أُسري به، صلَّىٰ في موضعِ مسجدِ دمشقَ. قال ابنُ عساكرَ: وهذا منقطعٌ. قلتُ: ومنكَرٌ جدًّا، ولا يثبُتُ أيضًا لا مِن هذا الوجهِ، ولا مِن غيرِه[3].

وقال أبو بكرٍ البرَامِيُّ: حدَّثنا أبو إسحاقَ إبراهيمُ بنُ عبدِ الملكِ بنِ المغيرةِ المقرئُ، حدَّثني أبي، عن أبيه، أنَّ الوليدَ بنَ عبدِ الملكِ تقدَّم إلىٰ القُوَّامِ ليلةً مِن الليالي فقال: إني أريدُ أن أُصلِّيَ الليلةَ في

(١) في إسناده إلىٰ كعب عبد الخالق بن زيد بن واقد فيه مقال شديد انظر ترجمته من «اللسان» (٤/ ٣٩٥).
(٢) الخبر من الإسرائيليات.

المسجدِ، فلا تتركُوا فيه أحدًا حتى أصلِّيَ الليلةَ. ثم إنَّه أتى بابَ الساعات، فاستفتَح البابَ ففتح له، فإذا رجلٌ قائمٌ بين بابِ الساعات، وبابِ الخضراء الذي يلي المقصورةَ يُصلِّي، وهو أقربُ إلى باب الخضراء منه إلى باب الساعات، فقال للقُوَّام: ألم آمُرْكم أن لا تتركُوا أحدًا الليلةَ يصلِّي في المسجد؟ فقال له بعضُهم: يا أميرَ المؤمنين، هذا الخَضِرُ، عليه السلامُ، يصلِّي كلَّ ليلةٍ في المسجد. في إسنادِ هذه الحكايةِ وصحَّتِها نظرٌ، ولا يثبُتُ بمثلِها وجودُ الخَضِرِ بالكليَّةِ، ولا صلاتُه في هذا المكانِ المذكورِ. واللهُ أعلَمُ.

وقد اشتُهر في الأعصارِ المتأخِّرةِ أن الزاويةَ القِبليَّةَ عند بابِ المئذنةِ الغربيةِ تُسمَّى زاويةَ الخَضِرِ، وما أدرِي ما سببُ ذلك، والذي ثبَت بالتواترِ صلاةُ الصحابةِ فيه، وأولُ مَن صلَّى فيه إمامًا أبو عبيدةَ بنُ الجرَّاح، وهو أميرُ الأمراءِ بالشام، وأحدُ العشرةِ المشهودِ لهم بالجنة، وأمينُ هذه الأمة، وصلَّى فيه خلقٌ من الصحابة، لكنْ قبلَ أن يغيِّرَه الوليدُ إلى هذه الصفة، فأمّا بعدَ أنْ غيَّر إلى هذا الشكلِ فلم يرَه أحدٌ من الصحابةِ كذلكَ إلا أنسُ بنُ مالك؛ فإنَّه ورَد دمشقَ سنةَ ثنتين وتسعين، وهو يبني في هذا الجامع، فصلَّى فيه أنسٌ وراءَ الوليدِ، وأنكَر أنسٌ على الوليدِ تأخيرَ الصلاةِ إلى آخرِ وقتِها، كما قدَّمنا ذلك في ترجمةِ أنسٍ، عندَ ذكرِ وفاته سنةَ ثلاثٍ وتسعين.

وسيصلِّي فيه عيسى ابنُ مريمَ إذا نزَل في آخرِ الزمانِ، إذا خرَج الدَّجّالُ وعمَّت البلوَى به، وانحصَر الناسُ منه بدمشقَ، فينزلُ مسيحُ الهُدَى فيقتُلُ مسيحَ الضلالة، ويكونُ نزولُه على المنارةِ الشرقيةِ بدمشقَ وقتَ صلاةِ الفجرِ، فيأتي وقد أُقيمت الصلاةُ، فيقولُ له إمامُ الناسِ: تقدَّمْ يا رُوحَ الله. فيقولُ: إنَّما أُقيمَتْ لكَ، فيصلِّي عيسى تلكَ الصلاةَ خلفَ رجلٍ من هذه الأُمة. يقالُ: إنَّه المهديُّ. فاللهُ أعلمُ.

ثم يخرُجُ عيسى بالناسِ فيدركُ الدجَّالَ عندَ عَقَبةِ أفيقَ، وقيل: ببابِ لُدٍّ. فيقتُلُه بيده هنالكَ. وقد ذكَرنا ذلك مبسوطًا عندَ قولِه تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ [النساء: ١٥٩]. وفي «الصحيح» عن النبيِّ ﷺ: «والذي نفسي بيده لينزلنَّ فيكم ابنُ مريمَ حَكَمًا مُقسطًا، وإمامًا عادلاً، فيكسرُ الصليبَ، ويقتُلُ الخنزيرَ، ويضعُ الجزيةَ، ولا يَقبَلُ إلا الإسلامَ»(١).

والمقصودُ أنَّ عيسى، عليه السلامُ، ينزلُ، والبلدُ محصَّنٌ من الدجّال، ويكونُ نزولُه على المنارةِ الشرقيةِ بدمشقَ - وهي هذه المنارةُ المبنيةُ في زمانِنا من أموالِ النصارَى؛ حيثُ أحرَقُوها فجدِّدتْ من أموالِهم - ثم يكونُ نزولُ عيسى حتفًا لهم، وهلاكًا ودمارًا عليهم، ينزلُ بين ملَكين واضعًا يدَيْه على مناكبِهما، وعليه مَهرُودتان - وفي رواية: ممصَّرتان - يقطُرُ رأسُه ماءً، كأنَّما خرَج من ديماسٍ، وذلك وقتَ الفجرِ، فينزلُ من المنارةِ وقد أقيمَت الصلاةُ، وهذا إنَّما يكونُ في المسجدِ الأعظم بدمشقَ، وهو هذا الجامعُ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٥) ولكن ليس فيه قوله ولا يقبل إلا الإسلام وانظر كتابي «الفوائد النيرة في تخريج أحاديث التذكرة».

وما وقَع في «صحيح مسلم»[1] مِن روايةِ النوّاسِ بنِ سمْعانَ الكِلابيِّ: «**فينزلُ على المنارة البيضاء شرقيَّ دمشقَ**». كأنّه ـ واللهُ أعلمُ ـ مرويٌّ بالمعنىٰ بحسَبِ ما فهِمه الراوي، وإنَّما هو ينزِلُ علىٰ المنارةِ الشرقيةِ بدمشقَ، وقد أخبِرتُ، ولم أقِفْ عليه إلىٰ الآنَ أنّه كذلك، في بعضِ ألفاظِ هذا الحديثِ، في بعضِ المصنَّفات، واللهُ المسئولُ المأمولُ أن يوفِّقني، فيُوقِفَني علىٰ هذه اللفظة.

وليس في البلدِ منارةٌ تعرَفُ بالشرقيةِ سوىٰ هذه، وهي بيضاءُ بنفسِها، ولا يعرَفُ في بلادِ الشامِ منارةٌ أحسنُ منها، ولا أبهَىٰ ولا أعلىٰ منها، ولله الحمدُ والمنّةُ.

الكلامُ على ما يتعلَّقُ برأس يحيى بن زكريا، عليهما السلامُ

وروىٰ ابنُ عساكرَ، عن زيدِ بنِ واقدٍ، قال: وكَّلني الوليدُ علىٰ العمّالِ في بناءِ جامعِ دمشقَ، فوجَدنا فيه مغارةً، فعرَّفنا الوليدَ ذلك، فلمَّا كان الليلُ وافانا وبينَ يدَيه الشمعُ، فنزَل فإذا هي كنيسةٌ لطيفةٌ، ثلاثةُ أذرُعٍ في ثلاثةِ أذرُعٍ، وإذا فيها صندوقٌ، ففتَح الصندوقَ فإذا فيه سَفَطٌ، وفي السَّفَطِ رأسُ يحيىٰ بنِ زكريا، عليهما السلامُ، مكتوبٌ عليه: هذا رأسُ يحيىٰ بنِ زكريا. فأمَر به الوليدُ فرُدَّ إلىٰ المكانِ، وقال: اجعَلوا العمودَ الذي فوقَه مُغيَّرًا مِن بينِ الأعمدة. فجُعل عليه عمودٌ مُسَفَّطُ الرأسِ.

وفي روايةٍ، عن زيدِ بنِ واقدٍ: أن ذلك الموضعَ كان تحتَ رُكنٍ مِن أركانِ القبَّةِ ـ يعني قبلَ أن تُبنَىٰ ـ قال: وكان علىٰ الرأسِ شعْرٌ وبَشَرٌ.

وقال الوليدُ بنُ مسلمٍ، عن زيدِ بنِ واقدٍ قال: حضَرتُ رأسَ يحيىٰ بنِ زكريا، وقد أُخرِج مِن اللِّيطةِ القبليةِ الشرقيةِ التي عندَ مجلسِ بُجَيْلةَ، فوُضع تحتَ عمودِ السِّبْطِ السَّكاسكِ.

قال الأوزاعيُّ، والوليدُ بنُ مسلمٍ: هو العمودُ الرابعُ المُسَفَّطُ.

وروىٰ أبو بكرٍ ابنُ البرَاميِّ، عن أحمدَ بنِ أنسِ بنِ مالكٍ، عن حبيبٍ المؤذِّنِ، عن أبي زيادٍ، وأبي أميَّةَ الشَّعْبانيَّين، عن سفيانَ الثوريِّ، أنّه قال: صلاةٌ في مسجدِ دمشقَ بثلاثين ألفَ صلاةٍ. وهذا غريبٌ جدًّا[2].

وروىٰ ابنُ عساكرَ، مِن طريقِ أبي مُسْهِرٍ، عن المنذرِ بنِ نافعٍ ـ مولىٰ أمِّ عمرِو بنتِ مروانَ ـ عن أبيه ـ وفي روايةٍ: عن رجلٍ قد سمَّاه ـ أنَّ واثلةَ بنَ الأسقعِ خرَج مِن بابِ المسجدِ الذي يلِي بابَ جَيْرونَ، فلَقِيه كعبُ الأحبارِ، فقال: أين تريدُ؟ قال واثلةُ: أريدُ بيتَ المقدسِ. فقال: تعالَ حتىٰ أُريكَ موضعًا في هذا المسجدِ مَن صلَّىٰ فيه فكأنَّما صلَّىٰ في بيتِ المقدسِ. فذهَب به فأراه ما بينَ البابِ الأصفرِ الذي يخرُجُ منه الوالي إلىٰ الحَنيَّةِ ـ يعني القنطرةَ الغربيةَ ـ فقال: مَن صلَّىٰ فيما بينَ هذين فكأنَّما صلَّىٰ في بيتِ المقدسِ. فقال واثلةُ: إنَّه

---

(١) صحيح: مسلم برقم (٥٩٣٨).

(٢) في إسناده أحمد بن أنس بن مالك لم أعرفه.

لَمجلسي ومجلسُ قومي. قال كعبٌ: هو ذاك. وهذا أيضًا غريبٌ جداً، ومنكَرٌ، ولا يُعتَمَدُ على مثله[١].

وعن الوليد بن مسلم قال: لَمّا أمَر الوليدُ بنُ عبد الملك ببناء مسجد دمشقَ وجَدوا في حائط المسجد القبليِّ لَوحًا من حَجَرٍ فيه كتابٌ نَقْشٌ. فأتَوا به الوليدَ، فبعَثَ إلى الرومِ فلم يستخرجوه، ثم بعَثَ إلى العبرانيين، فلم يستخرجوه، ثم بعثَ إلى مَن كان بدمشقَ من بقيةِ الأشبانِ، فلم يستخرجوه، فدُلَّ على وَهْبِ بنِ مُنَبِّهٍ فبعثَ إليه، فلمَّا قدِم عليه أخبَرَه بموضعِ ذلك اللَّوحِ، فوجَدوه في ذلك الحائطِ - ويقالُ: إن ذلك الحائطَ بناه هودٌ، عليه السلامُ - فلمَّا نظَر إليه وهبٌ حرَّك رأسَه وقرَأه فإذا هو:

بسم الله الرحمنِ الرحيم، ابنَ آدمَ، لو رأيتَ يسيرَ ما بقِي من أجلك، لزهَدتَ في طولِ ما ترجو من أملك، وإنَّما تلْقَى ندمَك لو قد زلَّتْ بك قدمُك، وأسلَمك أهلُك وحَشَمُك، وانصرَف عنك الحبيبُ، وودَّعك القريبُ، ثم صرْتَ تُدعَى فلا تُجيبُ، فلا أنت إلى أهلك عائدٌ، ولا في عملك زائدٌ، فاعمَلْ لنفسك قبلَ يومِ القيامةِ، وقبلَ الحسرةِ والندامة، قبلَ أن يحُلَّ بك أجلُك، وتُنزَعَ منك روحُك، فلا ينفَعُك مالٌ جَمَعتَه، ولا ولدٌ ولَدته، ولا أخٌ تركتَه، ثم تصيرُ إلى برزَخِ الثرَى، ومجاورةِ الموتى، فاغتنمِ الحياةَ قبلَ الموت، والقوةَ قبلَ الضَّعف، والصحةَ قبلَ السَّقَم، قبلَ أن تؤخَذَ بالكَظَم، ويُحالَ بينَك وبينَ العملِ. وكُتِب في زمانِ سليمانَ بنِ داودَ، عليهما السلامُ.

وقال ابنُ عساكرَ: قرَأتُ على أبي محمدٍ السلميِّ، عن عبدِ العزيزِ التميميِّ، أنبأنا تمامٌ الرازيُّ، أنبأنا ابنُ البِرَاميِّ، سمعتُ أبا مروانَ عبدَ الرحيم بنَ عمرَ المازنيَّ، يقولُ: لَمّا كان في أيامِ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ وبنائه المسجدَ احتَفَروا فيه مَوضعًا، فوجَدوا بابًا من حجارةٍ مغلَقًا، فلم يفتَحوه، وأعلَموا به الوليدَ، فخرَج من داره حتى وقَف عليه، وفُتح بينَ يدَيه، فإذا داخلَه مغارةٌ فيها تمثالُ إنسانٍ من حجارةٍ على فرسٍ من حجارةٍ، في يدِ التمثالِ الواحدة الدُّرَّةُ التي كانت في المحراب، ويدُه الأخرى مقبوضةٌ، فأمَر بها فكُسِرتْ، فإذا فيها حبَّتان؛ حبةُ قمحٍ وحبةُ شعيرٍ، فسأل عن ذلك فقيل له: لو ترَكْتَ الكفَّ لم تكسرْها، لم يُسوِّسْ في هذا البلدِ قمحٌ ولا شعيرٌ.

وقال الحافظُ أحمدُ الورّاقُ، وكان قد عُمِّرَ مائةَ سنة: سمعتُ بعضَ الشيوخِ يقولُ: لَمّا دخَل المسلمون دمشقَ، وجَدوا على العمودِ الذي على المِقْسلاَّطِ - على السَّفُّودِ الحديدِ الذي في أعلاه - صنمًا مادًّا يدَه بكفٍّ مُطْبَقَةٍ، فكسَروه، فإذا في يده حبَّةُ قمحٍ، فسألوا عن ذلك، فقيل لهم: هذه الحبةُ القمحِ جعلَها حكماءُ اليونانِ في كفِّ هذا الصنَمِ طِلَّسْمًا، حتى لا يسوِّسَ القمحُ، ولو أقام سنينَ كثيرةً.

قال ابنُ عساكرَ: وقد رأيتُ أنا هذا السَّفُّودَ على قناطرِ كنيسةِ المِقْسلاَّطِ، فلمّا هُدمتِ القناطرُ ذهَب.

---

(١) وإسناده منقطع بين نافع وواثلة رجل مبهم.

قلتُ: كنيسةُ المَصْلاّطِ كانتْ مبنيةً فوقَ القناطرِ التي في السوقِ الكبيرِ، عندَ الصابونيِّين والعطَّارين اليومَ، وعندَها اجتَمَعَتْ جيوشُ الإسلامِ يومَ فتحِ دمشقَ، دخَل أبو عبيدةَ من بابِ الجابيةِ، وخالدٌ من البابِ الشرقيِّ، ويزيدُ بنُ أبي سفيانَ من بابِ الجابيةِ الصغيرِ، كما قدَّمنا، ولله الحمدُ والمنةُ.

وقال عبدُ العزيزِ التميميُّ، عن أبي نصرٍ عبدِ الوهابِ بنِ عبدِ اللهِ المُزَنيِّ: سمعتُ جماعةً من شيوخِ أهلِ دمشقَ يقولون: إنَّ في سقفِ مسجدِ الجامعِ طَلاسمَ عمِلها الحكماءُ في السقفِ مِمَّا يلي الحائطَ القبليَّ، فيها طَلاسمُ للصَّنونياتِ، لا تدخُلُه ولا تعشِّشُ فيه من جهةِ الأوساخِ التي تكونُ منها، ولا يدخُلُه غرابٌ، وطِلَّسْمٌ للفأرِ والحيَّاتِ والعقاربِ - ما أبصَر الناسُ من هذا شيئًا إلا الفأرَ، ويوشِكُ أن يكونَ قد عُدِمَ طِلَّسْمُها - وطِلَّسْمٌ للعنكبوتِ لا ينسِجُ في زَواياه، فيركَبُه الغبارُ والوسَخُ.

قال الحافظُ ابنُ عساكرَ: وسمعت جَدِّي أبا الفضلِ، يحيى بنَ عليٍّ القاضيَ، يذكُرُ أنَّه أدرَك في الجامعِ قبلَ حريقِه طِلَّسماتٍ لسائرِ الحشَراتِ، معلَّقةً في السقفِ فوقَ البطائنِ مِمَّا يلي السُّبْعَ، وأنَّه لم يَكُنْ يوجَدُ في الجامعِ شيءٌ من الحشَراتِ قبلَ الحريقِ، فلمَّا احترَقتِ الطِّلَّسْماتُ وُجِدتْ. وكان حريقُ الجامعِ ليلةَ النصفِ من شعبانَ بعدَ العصرِ سنةَ إحدَى وستين وأربعمائةٍ.

وقد كانتْ بدمشقَ طِلَّسْماتٌ كثيرةٌ، ولم يبقَ منها سوى العمودِ الذي بسوقِ العلبيِّين اليومَ الذي في أعلاه مثلُ الكرةِ العظيمةِ، وهو لعُسْرِ بولِ الدوابِّ، إذا دارُوا بالدَّابَّةِ حولَه ثلاثَ مراتٍ انطلَق.

وقد كان شيخُنا العلامةُ أبو العباسِ ابنُ تيميةَ، رحمه اللهُ، يقولُ: إنَّما هذا قَبْرُ مشركٍ متمردٍ مدفونٍ هنالك يعذَّبُ، فإذا سمعتِ الدابةُ صياحَه فزِعتْ فانطَلق طَبْعُها.

قال: ولهذا يذهَبون بالدوابِّ إلى مقابرِ اليهودِ والنصارى إذا مَغَلَتْ فينطلِقُ طباعُها وتروثُ، وما ذاك إلا لأنَّها تسمَعُ أصواتَهم وهم يعذَّبون. واللهُ أعلمُ.

ذكرُ الساعاتِ التي على بابه

قال القاضي عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ بنِ زَبْرٍ: إنَّما سُمِّي بابُ الجامعِ القبليُّ بابَ الساعاتِ؛ لأنَّه عُمِل هناك بِرْكارُ الساعاتِ؛ يُعلَمُ بها كلُّ ساعةٍ تَمضي من النهارِ، عليها عصافيرُ من نُحاسٍ، وحيَّةٌ من نُحاسٍ، وغرابٌ، فإذا تمَّت الساعةُ خرجَت الحيةُ فصفَّرت العصافيرُ، وصاح الغرابُ، وسقَطت حَصاةٌ في الطَّستِ؛ فيعلَمُ الناسُ أنَّه ذهَب من النهارِ ساعةٌ، وكذلك في سائرِها.

قلتُ: هذا يَحتَملُ أحدَ شيئَين؛ إمَّا أن الساعاتِ كانت في البابِ القبليِّ من الجامعِ، وهو الذي يُسمَّى بابَ الزيادةِ، ولكن قد قيل: إنَّه محدَثٌ بعدَ بناءِ الجامعِ، ولا يَنفي ذلك أن الساعاتِ كانت عندَه في زمنِ القاضي ابنِ زَبْرٍ. وإمَّا أنَّه قد كان في الجانبِ الشرقيِّ من الجامعِ، في حائطِه القبليِّ بابٌ آخرُ في مُحاذاةِ بابِ الزيادةِ، وعنده الساعاتُ، ثم نُقِلت بعدَ هذا كلِّه إلى بابِ الورَّاقين اليومَ؛ وهو بابُ الجامعِ من الشرقِ. واللهُ أعلمُ.

قلت: فأمَّا القبةُ التي في وسطِ صَحْنِ الجامعِ التي فيها الماءُ الجاري، وتقولُ العامةُ لها: قبةُ أبي نواسٍ. فكان بناؤُها في سنةِ تسعٍ وستين وثلاثمائةٍ، أرَّخ ذلك ابنُ عساكرَ عن خطِّ بعضِ الدَّماشقة. وأمَّا القبةُ الغربيةُ العاليةُ التي في صَحْنِ الجامعِ، التي يقالُ لها: قبةُ عائشةَ. فسمعتُ شيخَنا الذهبيَّ يقولُ: إنَّها إنما بُنيت في حدودِ سنةِ ستين ومائةٍ، في أيامِ المهديِّ بنِ المنصورِ العباسيِّ، وجعلوها لحواصلِ الجامعِ وكُتُبِ أوقافِه. وأمَّا القبةُ الشَّرقيةُ التي على بابِ مَشْهَدِ عليٍّ فيقالُ: إنَّها بنيت في زمنِ الحاكمِ العُبَيديِّ في حدودِ سنةِ أربعمائةٍ. وأمَّا الفوَّارةُ التي تحتَ دُرجِ جَيْرونَ، فعملها الشَّريفُ فَخْرُ الدولةِ أبو يَعْلَى حمزةُ بنُ الحسنِ بنِ العباسِ الحُسَينيُّ، وكأنَّه كان ناظرَ الجامعِ، وجرَّ إليها قطعةً من حَجَرٍ كبيرٍ من قصرِ حجّاجٍ، وأجرىٰ فيها الماءَ ليلةَ الجُمُعةِ لسبعِ ليالٍ خَلَوْنَ من ربيعٍ الأوَّلِ سنةَ سبعَ عشْرةَ وأربعمائةٍ، وعُملت حولَها قناطرُ، وعُقِد عليها قبَّةٌ، ثم سقَطت القبةُ بسببِ جِمالٍ تحاكَّت عندَها وازدَحمت، وذلك في صفرٍ سنةَ سبعٍ وخمسين وأربعمائةٍ، فأعيدَت، ثم سقَطت أعمدتُها وما عليها من حريقِ اللَّبَّادين ودارِ الحجارةِ في شوالٍ سنةَ اثنتَين وستين وخمسمائةٍ. ذكَر ذلك كلَّه الحافظُ ابنُ عساكرَ.

قلت: وأمَّا القَصْعةُ التي كانت في الفوّارةِ، فما زالت وسطَها، وقد أدركتُها كذلك، ثم رُفِعت بعدَ ذلك.

وكان بطَهَّارةِ جَيْرونَ قَصْعةٌ أخرىٰ مثلُها، فلم تزَلْ بها، ثم لمَّا انهدَمت اللَّبَّادين بسببِ حريقِ النصارىٰ في سنةِ إحدىٰ وأربعين وسبعمائةٍ، استُؤْنف بناءُ الطَّهَّارةِ على وَجْهٍ آخرَ أحسنَ ممَّا كانت، وذهَبت تلك القَصْعةُ فلم يبقَ لها أثرٌ، ثم عُمِل الشَّاذَرْوانُ الذي هو شرقيَّ فوَّارةِ جَيْرونَ، بعدَ الخمسمائةِ، أظُنُّه سنةَ أربعَ عشْرةَ وخمسمائةٍ. واللهُ أعلمُ.

ذكرُ ابتداءِ أمرِ السُّبُعِ بالجامعِ الأمويِّ

قال أبو بكرٍ ابنُ أبي داودَ: ثنا أبو عامرٍ موسىٰ بنُ عامرٍ المُرِّيُّ، ثنا الوليدُ - هو ابنُ مسلمٍ - قال: قال أبو عمرٍو الأوزاعيُّ، عن حسَّانَ بنِ عطيةَ، قال: الدِّراسةُ مُحدَثةٌ أحدثَها هشامُ بنُ إسماعيلَ المخزوميُّ، في قَدْمتِه على عبدِ الملكِ، فحجَبه عبدُ الملكِ فجلَس بعدَ الصبحِ في مسجدِ دمشقَ، فسمع قراءةً، فقال: ما هذا؟ فأُخبِر أن عبدَ الملكِ يقرأُ في الخضراءِ، فقرأ هشامُ بنُ إسماعيلَ فجعَل عبدُ الملكِ يقرأُ بقراءةِ هشامٍ، فقرأ بقراءتِه مَولًى له، فاستَحسَن ذلك مَن يليه من أهلِ المسجدِ، فقرَءُوا بقراءتِه[1].

وقال هشامُ بنُ عمَّارٍ خطيبُ دمشقَ: ثنا أيوبُ بنُ حسَّانَ، ثنا الأوزاعيُّ، ثنا خالدُ بنُ دهْقانَ، قال: أولُ مَن أحدَث القراءةَ في مسجدِ دمشقَ هشامُ بنُ إسماعيلَ بنِ هشامِ بنِ المغيرةِ المخزوميُّ، وأولُ مَن أحدَث القراءةَ بفِلَسطينَ الوليدُ بنُ عبدِ الرحمنِ الجُرَشيُّ[2].

---

(١) ما برز من إسناده رجاله ثقات إلاموسىٰ بن عامر المري فإنه حسن الحديث.
(٢) ما برز من إسناده فيه أيوب بن حسان فإن كان الواسطي فإنه صدوق حسن الحديث وإلا فلا أعرفه.

قلتُ: هشامُ بنُ إسماعيلَ هذا كان نائبًا على المدينةِ النبويةِ، وهو الذي ضربَ سعيدَ بنَ المسيَّبِ لَمّا امتَنع مِن البيعةِ للوليدِ بنِ عبدِ الملكِ، قبلَ أن يموتَ أبوه، ثم عزَلَه عنها الوليدُ، وولَّى عليها عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ، كما ذكَرنا.

وقد حضَر هذا السُّبْعَ جماعاتٌ مِن ساداتِ السلَفِ مِن التَّابعين بدمشق؛ منهم هشامُ بنُ إسماعيلَ المخزوميُّ، ومولاه رافعٌ، وإسماعيلُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ أبي المهاجرِ - وكان مُكْتِبًا لأولادِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ، وقد ولِي إمرةَ إفريقيةَ لهشامِ بنِ عبدِ الملكِ - وابناه عبدُ الرحمنِ ومروانُ.

وحضَره مِن القضاةِ أبو إدريسَ عائذُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ الخَوْلانيُّ، ونُمَيرُ بنُ أوسٍ الأشعريُّ، ويزيدُ ابنُ أبي مالكٍ الهَمْدانيُّ، وسالمُ بنُ عبدِ اللهِ المُحاربيُّ، ومحمدُ بنُ عبدِ اللهِ بنِ لبيدٍ الأسَديُّ.

ومِن الفقهاءِ والمحدِّثين والحفَّاظِ المقرئين، أبو عبدِ الرحمنِ القاسمُ بنُ عبدِ الرحمنِ مولَى آلِ معاويةَ، ومكحولٌ، وسليمانُ بنُ موسى الأشدقُ، وعبدُ اللهِ بنُ العَلاءِ بنِ زَبْرٍ، وأبو إدريسَ الأصغرُ عبدُ الرحمنِ بنُ عِراكٍ، وعبدُ الرحمنِ بنُ عامرٍ اليَحْصُبيُّ - أخو عبدِ اللهِ بنِ عامرٍ - ويحيى بنُ الحارثِ الذِّماريُّ، وعبدُ الملكِ بنُ النُّعمانِ المُزَنيُّ، وأنسُ بنُ أُنَيسٍ العُذْريُّ، وسليمانُ بنُ بَزيعٍ القارئُ، وسليمانُ بنُ داودَ الخُشَنيُّ، ونمرانُ - أو هَزَّانُ - بنُ حكيمٍ القُرَشيُّ، ومحمدُ بنُ خالدِ بنِ أبي ظَبْيانَ الأزْديُّ، ويزيدُ بنُ عبيدَةَ بنِ أبي المهاجرِ، وعيّاشُ بنُ دينارٍ، وغيرُهم. هكذا أوردَهم ابنُ عساكرَ. قال: وقد روِي عن بعضِهم أنَّه كَرِه اجتماعَهم وأنكَره، ولا وجهَ لإنكارِه.

ثم ساق مِن طريقِ أبي بكرِ بنِ أبي داودَ، ثنا عمرُو بنُ عثمانَ، ثنا الوليدُ - هو ابنُ مسلمٍ - عن عبدِ اللهِ بنِ العلاءِ، قال: سمعتُ الضَّحَّاكَ بنَ عبدِ الرحمنِ بنِ عَرْزَبٍ يُنكِرُ الدراسةَ ويقولُ: ما رأَيتُ ولا سمعتُ، وقد أدركتُ أصحابَ النبيِّ ﷺ.

قال ابنُ عساكرَ: وكان الضحّاكُ بنُ عبدِ الرحمنِ أميرًا على دمشقَ، في خلافةِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ.

فصلٌ

كان ابتداءُ عمارةِ جامعِ دمشقَ في أواخرِ سنةِ ستٍّ وثمانين؛ هُدِمت الكنيسةُ التي كانت موضعَه في ذي القعدةِ منها، فلمّا فرَغوا مِن الهَدْمِ، شرَعوا في البناءِ، وتكامَل في عشرِ سنين، فكان الفراغُ منه في هذه السنةِ - أعني سنةَ ستٍّ وتسعين.

وفيها تُوفِّي بانيه الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ، وقد بقِيتْ فيه بقايا، فكمَّلها أخوه سليمانُ، كما ذكَرنا.

فأما قولُ يعقوبَ بنِ سُفيانَ: سألتُ هشامَ بنَ عَمَّارٍ عن قصَّةِ مسجدِ دمشقَ وهدمِ الكنيسةِ، قال: كان الوليدُ قال للنصارَى مِن أهلِ دمشقَ: ما شئتُم، إنّا أخَذنا كنيسةَ تُوما عَنْوةً وكنيسةَ الداخلةِ صُلحًا، فأنا أهدِمُ كنيسةَ تُوما؟ قال: هشامٌ: وتلكَ أكبرُ مِن هذه الداخلةِ، قال: فرضُوا أن أهدِمَ

كنيسةَ الداخلة، وأُدخلَها في المسجدِ. قال: وكان بابُها قبلةَ المسجدِ اليومَ، وهو المحرابُ الذي يُصلَّى فيه. قال: وهدم الكنيسةَ في أوَّلِ خلافةِ الوليدِ سنةَ ستٍّ وثمانين، ومكثوا في بنائه سبعَ سنين، حتى ماتَ الوليدُ، ولم يُتِمَّ بناءَه، فأتمَّه هشامٌ من بعده. ففيه فوائدُ وفيه غَلَطٌ؛ وهو قولُه: إنهم مكثوا في بنائه سبعَ سنين. والصوابُ عشْرُ سنين، فإنَّه لا خلافَ أنَّ الوليدَ بنَ عبدِ الملكِ تُوفِّي في هذه السنة - أعني سنةَ ستٍّ وتسعين - وقد حكىٰ أبو جعْفرِ بنُ جريرٍ: علىٰ ذلك إجماعُ أهلِ السِّيَرِ. وقولُه: لم يَتِمَّ بناؤه في زمنِ الوليدِ. بل قد تمَّ، ولكنْ بقِيت بقيَّاتٌ مِن الزخرفةِ، فأكملَها أخوه سليمانُ لا هشامٌ، واللهُ سبحانَه وتعالىٰ أعلمُ.

وهذه ترجمةُ الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ بانِي جامعِ دمشقَ، وذكرُ وفاتِه في هذا العامِ

هو الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ بنِ مَرْوانَ بنِ الحكَمِ بنِ أبي العاصِ بنِ أميةَ بنِ عبدِ شمسِ بنِ عبدِ منافٍ، أبو العباسِ الأُمويُّ، بُويع له بالخلافةِ بعدَ أبيه بعهدٍ منه في شوالٍ سنةَ ستٍّ وثمانين، وكان أكبرَ ولدِه، والوليُّ مِن بعدِه، وأمُّه ولادةُ بنتُ العباسِ بنِ جَزْءٍ بنِ الحارثِ بنِ زهيرٍ العَبْسيِّ. وكان مولدُه سنةَ خمسين، وكان أبواه يُترِفانه، فشبَّ بلا أدبٍ، وكان لا يحسنُ العربيةَ، وكان طويلًا أسمرَ، به أثرُ جُدَرِيٍّ، أفطسَ الأنفِ سائلَه، وكان إذا مشىٰ يتوكَّفُ في المِشيةِ - أي يتبختَرُ - وكان جميلًا، وقيل: بل كان دميمًا، قد شاب في مُقدَّمِ لحيتِه، وقد رأىٰ سهلَ بنَ سعدٍ، وسمع أنسَ بنَ مالكٍ؛ لمَّا قدِم عليه سألَه: ماذا سمع في أشراطِ الساعةِ؟ كما تقدَّم في ترجمةِ أنسٍ، وسمع سعيدَ بنَ المسيَّبِ، وحكىٰ عنه الزهريُّ وغيرُه.

وقد رُوِي أن عبدَ الملكِ أراد أن يعهَدَ إليه، ثم توقَّف؛ لأنَّه لا يُحسنُ العربيةَ، فجمَع الوليدُ جماعةً مِن أهلِ النحوِ عندَه فأقاموا عنده سنةً، وقيل: ستةَ أشهرٍ. فخرَجَ يومَ خرَج أجهلَ مما كان، فقال عبدُ الملكِ: قد أُجهِد وأُعذِر.

وقيل: إنَّ أباه عبدَ الملكِ أوصاه عندَ موتِه، فقال له: لا أُلفِيَنَّكَ إذا متُّ، تجلسُ تَعصِرُ عينيكَ وتحِنُّ حنينَ الأمَةِ، ولكن شمِّرْ واتَّزِرْ ودلِّني في حُفرتي وخلِّني وشأني، وادعُ الناسَ إلىٰ البيعةِ؛ فمَن قال برأسه هكذا فقلْ بسيفِك هكذا.

وقال الليثُ: وفي سنة ثمانٍ وسبعين غزا الوليدُ بلادَ الرومِ، وفيها حجَّ بالناسِ أيضًا. وقال غيرُه: غزا في التي قبلَها، وفي التي بعدَها بلادَ مَلَطْيةَ وغيرَها. وكان نقشُ خاتَمِه: أؤمنُ باللهِ مخلصًا. وقيل: كان نقشُه: يا وليدُ إنَّك: ميِّتٌ. ويقال: إنَّ آخِرَ ما تكلَّم به: سبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلهَ إلَّا اللهُ.

وقال إبراهيمُ بنُ أبي عبلةَ: قال لي الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ يومًا: في كمْ تختِمُ القرآنَ؟ قلتُ: في

كذا وكذا. فقال: أميرُ المؤمنين على شُغْلِه يختِمُه في كلِّ ثلاثٍ. وقيل: في كلِّ سبعٍ. قال: وكان يقرأُ في شهرِ رمضانَ سبعَ عشرةَ ختمةً. قال إبراهيمُ، رحمه اللهُ: الوليدُ! وأين مثلُه؟ بنى مسجدَ دمشقَ، وكان يُعطيني قِصَاعَ الفضَّةِ، فأقسِّمُها على قرّاءِ بيتِ المقدسِ.

وروى ابنُ عساكرَ بإسنادٍ رجالُه كلُّهم ثقاتٌ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ يزيدَ بنِ جابرٍ، عن أبيه، قال: خرَج الوليدُ يومًا من البابِ الأصغرِ، فرأى رجلاً عندَ المئذنةِ الشرقيةِ يأكلُ شيئًا، فأتاه فوقَف عليه فإذا هو يأكلُ خبزًا وترابًا، فقال له: ما حمَلَك على هذا؟ قال: القُنوعُ يا أميرَ المؤمنين. فذهَب إلى مجلسه، ثم استدعَى به، فقال: إن لك لشأنًا، فأخبِرْني به وإلاّ ضرَبتُ الذي فيه عيناك. فقال: نعم يا أميرَ المؤمنين، كنتُ رجلاً جمّالاً، فبينما أنا أسيرُ من مرجِ الصُّفَّرِ قاصدًا إلى الكُسْوَةِ، إذ زَرَّتني البولُ فعدَلتُ إلى خَرِبةٍ لأبولَ، فإذا سَرَبٌ فحفَرتُه فإذا مالٌ صبيبٌ، فملأتُ منه غرائري، ثم انطلقتُ أقودُ برواحلي، وإذا بمخلاةٍ معي فيها طعامٌ فألقيتُه منها، وقلتُ: إني سآتي الكُسوةَ، ورجَعتُ إلى الخربةِ، لأملأَ تلك المخلاةَ من ذلك المالِ، فلم أهتَدِ إلى المكانِ بعدَ الجَهْدِ في الطلبِ، فلما أيستُ رجعتُ إلى الرواحلِ فلم أجِدْها ولم أجِدِ الطعامَ، فآليتُ على نفسي أنّي لا آكلُ إلا خبزًا وترابًا. قال: فهل لك عيالٌ؟ قال: نعم. ففرَض له في بيتِ المالِ.

قال ابنُ جابرٍ: وبلَغنا أن تلك الرواحلَ سارت حتى أتَتْ بيتَ المالِ فتسلَّمها خازنُه فوضَعها في بيتِ المالِ.

وقال نُميرُ بنُ عبدِ الله الشَّعْنانيُّ، عن أبيه، قال: قال الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ: لولا أنَّ اللهَ ذكَر قومَ لوطٍ في القرآنِ ما ظنَنتُ أنَّ أحدًا يفعلُ هذا.

قالوا: وكان الوليدُ لحّانًا، كما جاء من غيرِ وجهٍ أنّ الوليدَ خطَب يومًا، فقرأَ في خطبته: ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ﴾ [الحاقة: ٢٧] فضمَّ التاءَ من ﴿لَيْتَهَا﴾، فقال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: يا ليتَها كانت عليك وأراحَنا اللهُ منك. وكان يقولُ: يا أهلُ المدينةِ.

وقال عبدُ الملكِ يومًا لرجلٍ من قريشٍ: إنَّك لَرجلٌ لولا أنَّك تَلحَنُ. فقال: وهذا ابنُك الوليدُ يلحَنُ. فقال: لكنَّ ابني سليمانَ لا يلحَنُ. فقال الرجلُ: وأخي أبو فلانٍ لا يلحَنُ.

قال ابنُ جريرٍ: حدَّثني عمرُ، ثنا عليٌّ ـ يعني ابنَ محمدٍ المدائنيَّ ـ قال: كان الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ عندَ أهلِ الشامِ أفضلَ خلائفِهم، بنَى المساجدَ بدمشقَ، ووضَع المنارَ، وأعطَى الناسَ، وأعطَى المَجْذومين، وقال لهم: لا تسألوا الناسَ، وأعطَى كلَّ مُقعَدٍ خادمًا، وكلَّ ضريرٍ قائدًا، وفتَح في ولايته فتوحاتٍ كثيرةً عظامًا، ففتَح الهندَ والسِّندَ والأندلسَ، وغيرَ ذلك. قال: وكان مع هذا يَمُرُّ بالبقّالِ فيأخُذُ حُزمةَ البقلِ بيدِه، ويقولُ: بكم تبيعُ هذه؟ فيقولُ: بفَلْسٍ، فيقولُ: زِدْ فيها فإنَّك تربَحُ.

وذكَروا أنَّه كان يبرّ حملةَ القرآنِ ويُكرِمُهم ويقضِي عنهم ديونَهم.

قالوا: وكانت همةُ الوليدِ في البناءِ وكان الناسُ كذلك؛ يلقَى الرجلُ الرجلَ، فيقولُ: ماذا بنيتَ؟ ماذا عمَرتَ؟ وكانت همةُ أخيه سليمانَ في النساءِ، فكان الناسُ كذلك؛ يلقى الرجلُ الرجلَ، فيقولُ: كم تزوجتَ؟ ماذا عندكَ مِن السراري؟ وكانت همةُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ في قراءة القرآنِ، والصلاةِ والعبادةِ، فكان الناسُ كذلك؛ يلقَى الرجلُ الرجلَ، فيقولُ: كم وِردُك؟ كم تقرأُ كلَّ يومٍ؟ ماذا صلَّيتَ البارحةَ؟.

وقال الواقديُّ: كان الوليدُ جباراً ذا سطوةٍ شديدةٍ لا يتوقَّفُ إذاغضِب، لجوجًا، كثيرَ الأكلِ والجماعِ، مِطلاقًا، يقالُ: إنَّه تزوَّج ثلاثًا وستين امرأةً غيرَ الإماءِ.

قلتُ: وقد يرادُ بهذا الوليدُ بنُ يزيدَ الفاسقَ لا الوليدُ بنُ عبدِ الملكِ باني الجامعِ، واللهُ أعلمُ.

قلتُ: بنى الوليدُ الجامعَ على الوجهِ الذي ذكَرنا، فلم يكُنْ له في الدنيا نظيرٌ، وبنى صخرة بيت المقدسِ، عقَد عليها القُبَّةَ، وبنى مسجد النبيِّ ﷺ، ووسَّعه حتى دخلت الحجرةُ التي فيها القبرُ فيه، وله آثارٌ حِسانٌ كثيرةٌ جداً، ثم كانت وفاتُه في يومِ السبتِ للنصفِ مِن جُمادَى الآخرةِ مِن هذه السنة. قال ابنُ جرير: وهذا قولُ جميعِ أهلِ السيرِ. وقال عمرُو بنُ عليٍّ الفلاَّسُ وجماعةٌ: كانت وفاتُه يومَ السبتِ للنصفِ مِن ربيعِ الأولِ مِن هذه السنةِ عن ستٍّ، وقيل: ثلاثٍ، وقيل: تسعٍ، وقيل: أربعٍ وأربعينَ سنةً.

وكانت وفاتُه بدَيْرِ مُرَّانَ، فحُمِل على أعناقِ الرجالِ حتى دُفِن بمقابرِ بابِ الصغيرِ، وقيل: بمقابرِ بابِ الفراديسِ. حكاه ابنُ عساكرَ.

وكان الذي صلَّى عليه عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ؛ لأنَّ أخاه سليمانَ كان بالقدس الشريف، وقيل: صلَّى عليه ابنُه عبدُ العزيزِ. وقيل: بل صلَّى عليه أخوه سليمانُ. والصحيحُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، واللهُ أعلمُ.

وهو الذي أنزَله إلى قبرِه، وقال حينَ أنزَله: لتنزِلَنه غيرَ موسَّدٍ ولاممهَّدٍ، قد خلَفتَ الأسبابَ، وفارقتَ الأحبابَ، وسكنتَ الترابَ، وواجهتَ الحسابَ، فقيراً إلى ما تُقدِمُ عليه، غنيًّا عمَّا تُخلِّفُ.

وجاء مِن غيرِ وجهٍ، عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، أنه أخبرَ أنَّه لما وضَع الوليدَ في لحدِه ارتكَض في أكفانِه، وجُمِعت رِجلاه إلى عنُقِه.

وكانت خلافتُه تسعَ سنينَ وثمانيةَ أشهرٍ على المشهورِ، واللهُ أعلمُ.

قال المدائنيُّ: وكان له مِن الولدِ تسعةَ عشرَ ولدًا ذكراً.

وهم: عبدُ العزيزِ، ومحمدٌ، والعباسُ، وإبراهيمُ، وتمَّامٌ، وخالدٌ، وعبدُ الرحمنِ، ومبشرٌ،

ومسرورٌ، وأبو عبيدَة، وصدقةُ، ومنصورٌ، ومروانُ، وعنبسةُ، وعمرُ، وروْحٌ، وبشرٌ، ويزيدُ، ويحيى، فأمُّ عبدِ العزيز ومحمدٍ؛ أمُّ البنينَ بنتُ عمِّه عبدِ العزيزِ بن مروانَ، وأمُّ أبي عبيدةَ فزاريَّةٌ، وسائرُهم من أمهاتِ أولادٍ شتَّى.

قال المدائنيُّ: وقد رثاه جريرٌ، فقال:

يا عينُ جودي بدَمْعٍ هاجَهُ الذِّكَرُ	فما لدمعك بعدَ اليوم مدَّخَرُ
إنَّ الخليفةَ قد وارَت شمائلَه	غبراءُ مُلْحَدَةٌ في جُولِها زَوَرُ
أضحى بنُوه وقد جلَّت مصيبتُهمْ	مثلَ النجومِ هوَى من بينِها القمرُ
كانوا جميعًا فلم يدفعْ منيَّته	عبدُ العزيزِ ولا روحٌ ولا عمرُ

وممَّن هلَك أيامَ الوليد بنِ عبد الملك:

زيادُ بنُ جاريةَ التميميُّ الدمشقيُّ، كانت دارُه غربيَّ قصرِ الثقفيِّين. روىٰ عن حبيبِ بنِ مسلمةَ الفهريِّ في النهيِ عن المسألة لمنْ له ما يغدِّيه ويعشِّيه، وفي النفلِ. ومنهم مَن زعَم أنَّ له صحبةً، والصحيحُ أنه تابعيٌّ. روىٰ عنه عطيةُ بنُ قيسٍ ومكحولٌ ويونسُ بنُ ميسرةَ بنِ حَلْبَس، ومع هذا قال فيه أبو حاتم: شيخٌ مجهولٌ. ووثقه النسائيُّ، وابنُ حبانَ.

روىٰ الحافظ ابنُ عساكرَ أنه دخَل يومَ الجُمعة إلىٰ مسجدِ دمشقَ وقد أُخِّرت الصلاةُ، فقال: واللهِ ما بعَث اللهُ نبيًّا بعدَ محمدٍ ﷺ أمرَكم بهذه الصلاة هذا الوقتَ. قال: فأُخذ فأُدخل الخضراءَ فقُطع رأسُه، وذلك في زمنِ الوليدِ بنِ عبدِ الملك.

عبدُ الله بنُ عمرِو بنِ عثمانَ أبو محمد، كان قاضيَ المدينةِ، وكان شريفًا كثيرَ المعروفِ جوادًا مُمدَّحًا، واللهُ أعلمُ.

خلافة سليمان بن عبد الملك

بويع له بالخلافة بعدَ موتِ أخيه الوليدِ يومَ مات، وكان يومَ السبتِ للنصفِ من جُمادَىٰ الآخرةِ سنةَ ستٍّ وتسعين، وكان سليمانُ بالرملة، وكان وليَّ العهدِ من بعدِ أخيه عن وصيةِ أبيهما عبدِ الملك.

وقد كان الوليدُ قد عزَم قبلَ موته علىٰ خلعِ أخيه سليمانَ، وأن يجعلَ ولايةَ العهدِ من بعده لولده عبدِ العزيزِ بنِ الوليدِ، وقد كان الحجّاجُ طاوَعه علىٰ ذلك، وكذلك قتيبةُ بنُ مسلمٍ وجماعةٌ من أهلِ الشامِ - وقد أنشَد في ذلك جريرٌ وغيرُه من الشعراءِ قصائدَ - فلم ينتظِمْ ذلك له حتىٰ مات، وانعقَدت البيعةُ لسليمانَ، فخَافه قتيبةُ بنُ مسلمٍ وعزَم علىٰ أن لا يُبايعَه، فعزَله سليمانُ وولَّىٰ علىٰ إمرةِ العراقِ ثم خراسانَ يزيدَ بنَ المهلَّبِ؛ فأعاده إلىٰ إمرتها بعد عشرِ سنين، وأمرَه بمعاقبةِ آلِ الحجاجِ بنِ يوسفَ،

وكان الحجاجُ هو الذي عزَل يزيدَ عن خُراسانَ.

ولسبعٍ بقين من رمضانَ من هذه السَّنةِ عزَل سليمانُ عن إمرةِ المدينة عثمانَ بنَ حيّان، وولّى عليها أبا بكرِ بنَ محمدِ بنِ عمرِو بنِ حزمٍ، وكان أحدَ العلماء.

وقد كان قتيبةُ بنُ مسلمٍ حين بلَغه ولايةُ سليمان الخلافةَ كتَب إليه كتابًا يعزِّيه في أخيه، ويهنِّئه بولايته، ويذكُرُ فيه بلاءَه وعناءَه وقتالَه وهيبتَه في صدور الأعداء، وما فتَح اللهُ من البلادِ والمدنِ والأقاليمِ الكبارِ على يديه، وأنَّه له على مثلِ ما كان للوليدِ من قبلِه من الطاعة والنصيحة، إن لم يعزِلْه عن خراسانَ، ونال في هذا الكتاب من يزيدَ بنِ المهلَّبِ، ثم كتَب كتابًا ثانيًا يذكُرُ فيه ما فعَل من القتالِ والفتوحاتِ وهيبتَه في صدورِ الملوكِ والأعاجمِ، ويذُمُّ يزيدَ بنَ المهلَّبِ أيضًا، ويُقسِمُ فيه لئنْ عزَله وولّى يزيدَ ليخلَعنَّ سليمانَ عن الخلافة، وكتَب كتابًا ثالثًا فيه خلْعُ سليمانَ بالكلية، وبعَث بها معَ البريدِ، وقال له: ادفع إليه الكتابَ الأولَ، فإن قرَأه ودفعه إلى يزيدَ بنِ المهلَّبِ فادفَعْ إليه الثانيَ، فإن قرَأه ودفَعه إلى يزيدَ، فادفَعْ إليه الثالثَ، فلما قرَأ سليمانُ الكتابَ الأولَ - واتفق حضورُ يزيدَ عندَ سليمانَ - دفَعه إلى يزيدَ، فقرَأه، فناولَه البريدُ الكتابَ الثانيَ، فقرَأه ودفَعه إلى يزيدَ، فناولَه البريدُ الكتابَ الثالثَ فقرَأه فإذا فيه التصريحُ بعزلِه وخلْعِه، فتغيَّر وجهُه، ثم ختَمه وأمسكه بيده ولم يدفَعْه إلى يزيدَ، وأمر بإنزالِ البريدِ في دارِ الضيافة، فلما كان من الليلِ بعَث إلى البريدِ فأحضَره ودفَع إليه ذهبًا وكتابًا فيه ولايةُ قتيبةَ على خراسانَ، وأرسَل مع ذلك البريدِ بريدًا آخرَ من جهته ليقرِّرَه عليها، فلما وصَلا بلادَ خراسانَ بلَغهما أن قتيبةَ قد خلَع الخليفةَ فدفَع بريدُ سليمانَ الكتابَ الذي معَه إلى بريدِ قتيبةَ، ثم بلَغهما مقتلُ قتيبةَ قبلَ أن يرجعَ بريدُ سليمانَ.

ذكرُ سببِ مقتلِ قتيبةَ بنِ مسلمٍ

وذلك أنَّه جمَع الجندَ والجيوشَ، وعزَم على خلعِ سليمانَ وتركِ طاعته، وذكَر لهم همَّته وفتوحَه وعدلَه فيهم، ودَفْعَه الأموالَ الجزيلةَ إليهم، فلما فرَغ من مقالته، لم يُجِبْه أحدٌ منهم إلى مقالته، فشرع في تأنيبِهم وذمِّهم، قبيلةً قبيلةً، وطائفةً طائفةً، فغضبوا عند ذلك ونفَروا عنه وتفرَّقوا، وعملوا على مخالفته، وسعَوا في قتْلِه، وكان القائمَ بأعباءِ ذلك رجلٌ يقال له: وكيعُ بنُ أبي سُودٍ، فجمَع جموعًا كثيرةً، ثم ناهَضه فلم يزَلْ به حتى قتَله في ذي الحِجَّةِ من هذه السنة، وقتَل معه أحدَ عشرَ رجلًا من إخوته وأبناءِ إخوته، ولم يبقَ منهم سوى ضرارِ بنِ مسلمٍ - وكانت أُمُّه الغراءَ بنتَ ضرارِ بنِ القعقاعِ بنِ معبدِ بنِ سعدِ بنِ زُرارةَ، فحمَتْه أخوالُه - وعمرِو بنِ مسلمٍ، وكان عاملَ الجوزجانِ. وقتل قتيبةُ وعبدُ الرحمنِ وعبدُ اللهِ وعبيدُ اللهِ وصالحٌ وبشارٌ، وهؤلاءِ أبناءُ مسلمٍ، وأربعةٌ من أبنائهم فقتَلهم كلَّهم وكيعُ بنُ سُودٍ.

وقد كان قتيبةُ بنُ مسلمِ بنِ عمرٍو بنِ حُصينِ بنِ ربيعةَ أبو حفصٍ الباهليُّ، مِن ساداتِ الأمراءِ وخيارِهم، وكان مِن القادةِ النجباءِ الكبراءِ، والشجعانِ وذوي الحروبِ والفتوحاتِ السعيدةِ، والآراءِ الحميدةِ، وقد هدَى اللهُ على يديه خلقًا لا يُحصيهم إلا اللهُ، فأسلَموا ودانوا للهِ، عزَّ وجلَّ، وفتَح مِن البلادِ والأقاليمِ الكبارِ والمدنِ العظامِ شيئًا كثيرًا، كما تقدم ذلك مفصَّلًا مبيَّنًا، واللهُ سبحانَه لا يضيِّعُ سعيَه ولا يخيِّبُ تعبَه وجهادَه.

ولكن زلَّ زلةً كان فيها حتفُه، وفعَل فعلةً رَغِم فيها أنفُه، وخلَع الطاعةَ فبادَرتْ إليه المنيةُ، وفارَق الجماعةَ، فمات ميتةً جاهليةً، لكن سبَق له مِن الأعمالِ الصالحةِ ما قد يكفِّرُ اللهُ بها عنه مِن سيئاتِه، ويمحو بها عنه مِن خطيَّاتِه، واللهُ يسامحُه ويعفو عنه، ويتقبَّلُ منه ما كان يكابدُه مِن مُناجزةِ الأعداءِ. وكانَت وفاتُه بفَرْغانةَ مِن أقصى بلادِ خراسانَ، في ذي الحجَّةِ مِن هذه السنةِ، وله مِن العمرِ ثمانٍ وأربعون سنةً، وكان أبوه أبو صالحٍ ممن قتِل مع مصعبِ بنِ الزُّبيرِ، وكانت ولايتُه على خراسانَ عشْرَ سنين، واستفاد وأفاد فيها خيرًا كثيرًا، وقد رثاه عبدُ الرحمنِ بنُ جُمانةَ الباهليُّ فقال:

كأنَّ أبا حفصٍ قتيبةَ لم يسرْ ... بجيشٍ إلى جيشٍ ولم يعْلُ منبرا

ولم تخفقِ الراياتُ والقومُ حولَه ... وقوفٌ ولم يشهدْ له الناسُ عسكرا

دعتْه المنايا فاستجاب لربِّه ... وراحَ إلى الجنَّاتِ عفًّا مُطَهَّرا

فَمَا رُزِئَ الإسلامُ بَعدَ محمدٍ ... بمثلِ أبي حفصٍ فبكِّيهِ عَبْهَرا

قد بالغ هذا الشاعرُ في بيته الأخيرِ، وعبْهَرُ أمُّ ولدٍ له. وقال الطِّرِمّاحُ في هذه الوقعةِ التي قتِل فيها قتيبةُ على يدَي وكيعِ بنِ أبي سُودٍ:

لولا فوارسُ مَذْحجٍ ابنةِ مَذحجٍ ... والأزدِ زُعزِعَ واستُبيحَ العسكرُ

وتقطَّعَت بهمُ البلادُ ولم يَؤُبْ ... منهم إلى أهلِ العراقِ مخبِّرُ

واستُضلعتْ عُقَدُ الجماعةِ وازدرَى ... أمرُ الخليفةِ واستُحِلَّ المنكَرُ

قومٌ همُو قتَلوا قتيبةَ عَنوةً ... والخيلُ جانحةٌ عليها العِثْيَرُ

بالمرجِ مرجِ الصينِ حيث تبيَّنتْ ... مُضَرُ العراقِ مَن الأعزُّ الأكبَرُ

إذ حالَفتْ جزَعًا ربيعةُ كلُّها ... وتفرَّقتْ مضرٌ ومَنْ يَتَمضَّرُ

وتقدَّمتْ أزدُ العراقِ ومَذْحجٌ ... للموتِ يجمَعُها أبوها الأكبرُ

قحطانُ تضربُ رأسَ كلِّ مُدَجَّجٍ ... تحمي بصائرَهُنَّ إذ لا تبصرُ

والأزدُ تعلَمُ أنَّ تحتَ لوائِها ... مُلكًا قُراسيَةً وموتٌ أحمرُ

فبعزِّنا نُصِر النبيُّ محمدٌ ... وبنا تثبَّتَ في دمشقَ المنبرُ

وقد بسَط ابنُ جريرٍ هذه القصةَ بسْطًا كثيرًا وذكَر أشعارًا كثيرةً جدًّا.

وقال القاضي ابنُ خلِّكان: وقال جريرٌ في قتيبةَ بنِ مسلمٍ - رحمَه اللهُ وسامَحه:

ندِمتُم على قتلِ الأغرِّ ابنِ مسلمٍ ... وأنتمْ إذا لاقيتُمُ اللهَ أندَمُ
لقدْ كنتُمُ من غزوِه في غنيمةٍ ... وأنتمْ لمَنْ لاقيتمُ اليومَ مَغْنَمُ
على أنه أفضَى إلى حُورِ جنَّةٍ ... وتُطبِقُ بالبلوى عليكمْ جهنَّمُ

قال: وقد ولِي مِن أولادِه وذريتِه جماعةٌ الإمرةَ في البلدانِ، فمنهم عمرُو بنُ سعيدِ بنِ سلمِ بنِ قتيبةَ بنِ مسلمٍ وكان جوادًا ممدَّحًا، رثاه حين مات أبو عمرٍو أشجعُ بنُ عمرٍو السُّلَميُّ الرقِّيُّ نزيلُ البصرةِ بقولِه:

مضَى ابنُ سعيدٍ حين لم يبقَ مَشرقٌ ... ولا مَغربٌ إلا له فيه مادحُ
وما كنتُ أدري ما فواضلُ كفِّه ... على الناسِ حتى غيَّبتْهُ الصفائحُ
وأصبَح في لحدٍ من الأرضِ ضيِّقٍ ... وكانت به حيًّا تضيقُ الصَّحاصِحُ
سأبكيك ما فاضتْ دموعي فإن تغضْ ... فحسبُكَ منِّي ما تُجِنُّ الجوانحُ
فما أنا مِن رُزْءٍ وإنْ جلَّ جازعٌ ... ولا بسرورٍ بعدَ موتِك فارحُ
كأنْ لم يمُتْ حيٌّ سواكَ ولم يقُمْ ... على أحدٍ إلا عليكَ النوائحُ
لئنْ حسُنَتْ فيكَ المراثي وذكرُها ... لقد حسُنَتْ مِن قبلُ فيكَ المدائحُ

قال ابنُ خلِّكان: وهي مِن أحسنِ المَراثي، وهي في الحماسة. ثم تكلَّم على باهلةَ، وأنَّها قبيلةٌ مَرْذولةٌ عندَ العربِ، قال: وقد رأيتُ في بعضِ المجاميعِ أنَّ الأشعثَ بنَ قيسٍ قال: يا رسولَ الله، أتتكافأُ دماؤنا؟ قال: «**نعم، ولو قتَلْتَ رجلاً من باهلةَ لقتَلْتُك به**». وقيل لبعضِ العربِ: أيَسُرُّك أن تدخُلَ الجنةَ وأنت باهليٌّ؟ قال: بشرطِ أن لا يعلَمَ أهلُ الجنةِ بذلك. وسأل بعضُ الأعرابِ رجلاً: ممَّن أنت؟ فقال: مِن باهلةَ، فجعَل يرثِي له، فقال: وأزيدُك أنِّي لستُ مِن الصَّميمِ وإنَّما أنا مِن مواليهم. فجعَل يقبِّلُ يدَيْه ورجلَيْه، فقال: ولِمَ تفعَلُ هذا؟ فقال: لأنَّ اللهَ تعالى ما ابتلاك بهذه الرزيَّةِ في الدنيا إلا ليعوِّضَك الجنةَ في الآخرةِ.

ثم قال ابنُ جريرٍ: وفي هذه السنةِ توفِّي قُرَّةُ بنُ شَريكٍ القَيسيُّ أميرُ مصرَ مِن جهةِ الوليدِ. وفيها حجَّ بالناسِ أبو بكرِ بنُ محمدِ بنِ عمرِو بنِ حزمٍ، وكان هو الأميرَ على المدينةِ، وعلى مكةَ عبدُ العزيزِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ خالدِ بنِ أَسيدٍ، وعلى حَرْبِ العراقِ وصَلاتِها يزيدُ بنُ المهلَّبِ، وعلى خَراجِها صالحُ ابنُ عبدِ الرحمنِ، وعلى نيابةِ البصرةِ ليزيدَ بنِ المهلَّبِ سفيانُ بنُ عبدِ اللهِ الكنديُّ، وعلى قضائِها عبدُ الرحمنِ بنُ أُذينةَ، وعلى قضاءِ الكوفةِ أبو بكرِ ابنُ أبي موسى، وعلى حربِ خراسانَ وكيعُ ابنُ أبي سُودٍ.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين

وفيها جهَّز سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ الجيوشَ إلى القُسْطَنْطِينِيَةِ. وفيها أمَّر ابنَه داودَ على الصائفة، ففتَح حصنَ المرأة.

قال الواقدي: وفيها غزا مسلمةُ بنُ عبدِ الملك أرضَ الوضَّاحية فافتتَح الحصنَ الذي فتَحه الوضَّاحُ صاحبُ الوضَّاحية.

وفيها غزا مسلمةُ أيضًا بَرْجَمَةَ، ففتَح حصونًا، وبَرْجَمَةَ، وحصنَ الحديدِ وسَرْدَوْسَلَ، وشتَّى بأرضِ الرّوم.

وفيها غزا عمرُ بنُ هُبيرةَ الفَزاريُّ في البحرِ أرضَ الرومِ وشتَّى بها. وفيها قتِل عبدُ العزيزِ بنُ موسى بنِ نُصَيرٍ، وقَدِم برأسه على سليمانَ بنِ عبدِ الملك حبيبُ بنُ أبي عبيدٍ الفهريُّ.

وفيها ولَّى سليمانُ نيابةَ خراسانَ ليزيدَ بنِ المهلَّبِ، مُضافًا إلى ما بيدِه من إمرةِ العراقِ، وكان سببَ ذلك أنَّ وكيعَ بنَ أبي سُودٍ لما قتَل قتيبةَ بنَ مُسلمٍ وذريتَه، بعَث برأسِ قتيبةَ إلى سليمانَ فحظِي عندَه، وكتَب له بإمرةِ خراسانَ، فبعَث يزيدُ بنُ المهلَّبِ عبدَ الرحمنِ بنَ الأهتمِ إلى سليمانَ بنِ عبدِ الملك؛ ليحسِّنَ عندَه أمْرَ يزيدَ بنِ المهلَّبِ في إمرةِ خراسانَ، وينتقصَ عندَه وكيعَ بنَ أبي سُودٍ، فسار ابنُ الأهتمِ - وكان ذا دَهاءٍ ومكرٍ - إلى سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ، فلم يزَلْ به حتى عزَل وكيعًا عن خراسانَ، وولَّى عليها يزيدَ مع إمرةِ العراقِ، وبعَث بعهدِه مع ابنِ الأهتمِ، فسار في سَبعٍ حتى جاء يزيدَ، فأعطاه عهدَ خراسانَ مع العراقِ، وكان يزيدُ وعَده بمائة ألفٍ فلم يفِ له بها، وبعَث يزيدُ ابنَه مَخلَدًا بينَ يدَيه إلى خراسانَ، ومعه كتابُ أميرِ المؤمنين؛ مضمونُه أنَّ قيسًا زعَموا أنَّ قتيبةَ بنَ مسلمٍ لم يكُنْ خلَع الطاعةَ، فإنْ كان وكيعٌ قد تعرَّض له، وثار عليه بسببِ أنَّه خلَع ولم يكنْ خلَع فقيِّدْه، وابعَثْ به إليَّ. فتقدَّم مَخْلَدٌ فأخَذ وكيعًا فعاقَبه، وحبَسه قبلَ أنْ يجيءَ أبوه، فكانت إمرةُ وكيعِ بنِ أبي سُودٍ على خراسانَ تسعةَ أشهرٍ أو عشْرةَ أشهرٍ، ثم قدِم يزيدُ بنُ المهلَّبِ فتسلَّم خراسانَ وأقام بها، واستناب في البلادِ نوّابًا، ذكَرهم ابنُ جريرٍ.

قال: وفيها حجَّ بالناسِ سليمانُ بنُ عبدِ الملك. ونوابُ البلادِ هم المذكورون في التي قبلَها، غيرَ أنَّ خراسانَ عزَل عنها وكيعَ بنَ أبي سُودٍ، ووليَها يزيدُ بنُ المهلَّبِ بنِ أبي صُفْرةَ مع العراقِ.

وممَّن توفِّي فيها من الأعيان:

الحسنُ بنُ الحسنِ بنِ عليٍّ بنِ أبي طالب، أبو محمد القرشيُّ الهاشميُّ. روَى عن أبيه، عن جدِّه مرفوعًا: «**مَن عالَ أهلَ بيتٍ مِن المسلمين يومَهم وليلتَهم غفَر اللهُ له ذنوبَه**»(١). وعن عبدِ اللهِ بنِ

---

(١) **موضوع**: عزاه الألباني في «الضعيفة» لابن عساكر (٤/ ٢١٧/ ١) عن المنذر بن زياد: نا عبد الله بن الحسن ابن علي بن أبي طالب عن أبيه عن جده مرفوعاً وفيه المنذر قال الدارقطني: كان كذابًا. وقال الألباني: «موضوع».

جعفر، عن عليٍّ في دعاء الكرب، وعن زوجته فاطمة بنت الحسين. وعنه ابنُه عبدُ الله وجماعةٌ.
وقد وفَد على عبد الملك بن مروانَ فأكرَمه ونصرَه على الحجاج، وأقرَّه وحدَه على ولاية صدقة عليٍّ.
وقد ترجَمه الحافظُ ابنُ عساكرَ فأحسَن، وذكَر عنه آثارًا تدلُّ على سيادته وعلمه وتسنُّنه، رحمه اللهُ.
وقيل: إنَّ الوليدَ ابنَ عبدِ الملك كتَب إلى عامله بالمدينة: إنَّ الحسنَ بنَ الحسنِ كاتَبَ أهلَ العراق، فإذا جاءك كتابي هذا فاجلِدْه مائةَ ضربةٍ، وقِفْه للناسِ، ولا أُراني إلا قاتلَه. فأرسَل خلفَه فعلَّمه عليُّ بنُ الحسينِ كلماتِ الكرب، فقالها حينَ دخَل عليه فنجَّاه اللهُ منهم، وهي: لا إلهَ إلاَّ اللهُ الحليمُ الكريمُ، لا إلهَ إلا اللهُ العليُّ العظيمُ، لا إلهَ إلاَّ اللهُ ربُّ السمواتِ السبعِ وربُّ الأرضِ ربُّ العرشِ العظيمِ.
توفِّي بالمدينة، وكانت أمُّه خَوْلَةَ بنتَ منظورٍ الفزاريِّ.

وقال يومًا لرجلٍ من الرافضة: واللهِ إنَّ قَتْلَك لَقُربةٌ إلى الله، عزَّ وجلَّ، فقال له الرجلُ: إنك تمزَحُ. فقال: واللهِ ما هذا مني بمزحٍ ولكنه الجِدُّ. وقال له رجلٌ منهم: ألم يقُلْ رسولُ الله ﷺ: «**مَن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه**»[1]؟ فقال: بلَى، ولو أرادَ الخلافةَ لخطَب الناسَ فقال: أيُّها الناسُ، اعلَموا أنَّ هذا وليُّ أمرِكم والقائمُ عليكم من بعدي، فاسمعوا له وأطيعوا، واللهِ لئن كان اللهُ ورسولُه اختار عليًّا لهذا الأمرِ ثم ترَكَه عليٌّ لكان أولَ مَن ترَك أمرَ الله ورسوله.

وقال لهم أيضًا: واللهِ لئن وُلِّينا من الأمرِ شيئًا لنقطِّعَنَّ أيديَكم وأرجلَكم من خلافٍ ثم لا نقبَلُ لكم توبةً، ويلَكم غرَّرتمونا من أنفسنا، ويلَكم لو كانتِ القرابةُ تنفَعُ بلا عملٍ لنفعتْ أباه وأمَّه. فلو كان ما تقولون فينا حقًّا لكان آباؤنا إذ لم يُعلِمونا بذالك قد ظلَمونا وكتَموا عنَّا أفضلَ الأمور، واللهِ إنِّي لأخشَى أن يضاعَفَ للعاصي منّا العذابُ ضِعفين، كما إنِّي لأرجو للمحسنِ منّا أن يكونَ له الأجرُ مرّتين، ويلَكم أحبُّونا إنْ أطعْنا اللهَ، وأبغِضونا إن عصيْنا اللهَ.

موسى بنُ نُصَير أبو عبد الرحمن اللَّخْميُّ، مولاهم، كان مولًى لامرأةٍ منهم، وقيل: كان مولًى لبني أُميةَ. افتتح بلادَ المغرب، وغنِم منها أموالاً لا تُعَدُّ ولا توصفُ، وله بها مَقاماتٌ مشهورةٌ هائلةٌ، ويقالُ: إنَّه كان أعرجَ. ويقالُ: إنَّه وُلِد سنةَ تسعَ عشْرةَ. وأصلُه من عينِ التمرِ، وقيل: إنَّه من إراشةَ من بَلِيٍّ سُبِي أبوه من جبلِ الخليلِ من الشامِ في أيامِ الصِّدِّيق، وكان اسمُ أبيه نصرًا فصغِّر.

روَى عن تميمٍ الداريِّ. وروَى عنه ابنُه عبدُ العزيز، ويزيدُ بنُ مسروقٍ اليَحْصُبيُّ. ووَلِي غزوَ البحرِ لمعاويةَ، فغزا قُبرُصَ، وبنَى هنالك حصونًا كالماغُوصة وحصنِ يانسَ وغيرِ ذلك من الحصونِ التي بناها بقبرصَ، وكان نائبَ معاويةَ عليها بعدَ أن فتَحها معاويةُ في سنةِ سبعٍ وعشرين. وشهِد مرجَ راهطٍ مع الضحاكِ بنِ قيسٍ، فلمَّا قتِل الضحاكُ لجَأ موسى بنُ نُصيرٍ إلى عبدِ العزيزِ بنِ مروانَ، ثم لمّا دخَل مروانُ بلادَ مصرَ كان معه فترَكه عندَ ابنه عبدِ العزيزِ، ثم لما أخَذ عبدُ الملكِ بلادَ العراقِ جعَله وزيرًا عند أخيه بشرِ بنِ مروانَ.

---

(١) حديث صحيح لشواهده التي ذكرها شيخنا في «الصحيح من فضائل الصحابة» ص ١٣٠ وما بعده.

وكان موسى بنُ نُصير هذا ذا رأيٍ وتدبيرٍ وحزمٍ وخبرةٍ بالحرب. قال الفسَويُّ: ولي موسى بنُ نُصير إمرةَ بلادِ إفريقيَّةَ سنَةَ تسعٍ وسبعين، فافتتَح بلادًا كثيرةً. وقد ذكَرْنا أنَّه افتتَح بلادَ الأندلسِ، وهي بلادٌ ذات مدنٍ وقرًى وريفٍ، فسبَى منها ومن غيرِها خلقًا كثيرًا، وغنِم أموالاً جزيلةً، من الذهبِ والجواهرِ النفيسةِ شيئًا لا يُحصَى ولا يُعَدُّ، وأمَّا الآلاتُ والمتاعُ والدوابُّ فشيءٌ لا يُدرَى ما هو، وسبَى من الغلمانِ الحسانِ والنساءِ الحسانِ شيئًا كثيرًا، حتى قيل: إنَّه لم يَسْبِ أحدٌ مثلَه من الأعداءِ، وأسلَم أهلُ المغربِ على يديه، وبثَّ فيهم الدينَ والقرآنَ، وكان إذا سار إلى مكانٍ، تُحملُ الأموالُ معه على العجَلِ لكثرتِها وعَجْزِ الدوابِّ عنها.

وقد كان موسى بنُ نُصيرٍ هذا يفتَحُ في بلادِ المغربِ، وقتيبةُ يفتَحُ في بلادِ المشرقِ، فجزاهما اللهُ خيرًا، فكلاهما فتَح من الأقاليمِ والبلدانِ شيئًا كثيرًا، ولكنَّ موسى بنَ نُصيرٍ حظِي بأشياءَ لم يحظَ بها قتيبةُ، حتى قيل: إنَّه لمَّا فتَح الأندلسَ جاءه رجلٌ فقال: ابعَثْ معي رجالاً حتى أدُلَّك على كَنزٍ عظيمٍ، فبعَث معه رجالاً فأتى بهم إلى مكانٍ، فقال: احفِروا. فحفَرُوا فأفضَى بهم الحفرُ إلى قاعةٍ عظيمةٍ ذاتِ لواوينَ حسَنةٍ، فوجَدوا هناك من اليواقيتِ والجواهرِ والزبرجدِ ما أبهتَهم، وأما الذهبُ فشيءٌ لا يعبَّرُ عنه، ووجَدوا في ذلك الموضعِ الطنافسَ، الطِّنفسةُ منها منسوجةٌ بقُضبانِ الذهبِ، منظومةٌ باللؤلؤِ الغالي المفتخَرِ، والطِّنفسةُ منظومةٌ بالجوهرِ المثمَّنِ، واليواقيتِ التي ليس لها نظيرٌ في شكلِها وحسنِها وصفاتِها. ولقد سمع يومئذٍ منادٍ ينادي لا يرَون شخصَه: أيُّها الناسُ، إنَّه قد فُتح عليكم بابٌ من أبوابِ جهنمَ فخذوا حذرَكم. وقيل: إنَّهم وجدوا في هذا الكنزِ مائدةَ سليمانَ بنِ داودَ التي كان يأكُلُ عليها. وقد جمَع أخبارَه وما جرَى له في حروبه وغزواته رجلٌ من ذريته يقال له: أبو معاويةَ مُعارِكُ بنُ مروانَ بنِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ بنِ موسى بنِ نصيرٍ النُّصيريُّ.

وروَى الحافظُ ابنُ عساكرَ أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ سأل موسى بنَ نُصيرٍ حين قدِم دمشقَ أيامَ الوليدِ عن أعجبِ شيءٍ رآه في البحرِ، فقال: انتهَيْنا مرةً إلى جزيرةٍ فيها ستَّ عشْرةَ جَرَّةً خضراءَ مختومةً عليها بخاتَمِ سليمانَ بنِ داودَ، عليهما السلامُ، فأمَرتُ بأربعةٍ منها فأُخرِجتْ، وأمَرتُ بواحدةٍ منها فنُقِبتْ فإذا شيطانٌ ينفُضُ رأسَه، وهو يقولُ: والذي أكرَمَك بالنُّبوَّةِ لا أعودُ بعدَها أُفسدُ في الأرضِ قال: ثم نَظَر فقال: واللهِ لا أرى بها سليمانَ وملكَه. فانساخ في الأرضِ فذهَب، قال: فأمَرتُ بالثلاثِ البواقي فرُدَّت إلى مكانِها.

وقد استَسقى موسى بنُ نُصيرٍ بالناسِ في سنةِ ثلاثٍ وتسعين حين أقحَطوا بإفريقيَّةَ، فأمَرهم بصيامِ ثلاثةِ أيامٍ قبلَ الاستسقاءِ ثم خرَج بين الناسِ، وميَّز أهلَ الذمَّةِ عن المسلمين، وفرَّق بين البهائمِ وأولادِها، ثم أمَر برفعِ الضجيجِ والبكاءِ، وهو يدعو اللهَ تعالى حتى انتصَف النهارُ، ثم نزَل فقيل له: ألا دعوتَ لأميرِ المؤمنين؟ فقال: هذا موطنٌ لا يُذكَرُ فيه إلا اللهُ. فسقاهم اللهُ، عزَّ وجلَّ، لمَّا قال

ذلك. وقد وفَد موسى بنُ نُصير على الوليدِ بنِ عبدِ الملكِ في آخرِ أيامِه، فدخَل دمشقَ في يومِ جمُعةٍ والوليدُ على المنبر، وقد لبِس موسى ثيابًا حسنةً وهيئةً حسنةً، ومعَه ثلاثونَ من أبناءِ الملوكِ والأشبانِ، وقد ألبَسهم تيجانَ الملوكِ مع ما معهم مِن الخدمِ والحشمِ والأُبَّهةِ العظيمةِ، فلمّا نظَر إليهم الوليدُ وهو يخطُبُ الناسَ على منبرِ جامعِ دمشقَ بُهِتَ إليهم، لِما رأى عليهم مِن الحريرِ والجواهرِ والزينةِ البالغةِ، وجاء موسى بنُ نُصيرٍ فسلَّم على الوليدِ وهو على المنبرِ، وأمَر أولئك فوقَفوا عن يمينِ المنبرِ وشمالِه، فحمِد اللهَ الوليدُ، وشكَره على ما أيَّدَه به ووسَّع مُلكَه، وأطال الدعاءَ والتحميدَ والشكرَ حتى خرَج وقتُ الجمُعةِ، ثم نزَل فصلَّى بالناسِ، ثم استَدعَى بموسى بنِ نُصيرٍ فأحسَن جائزتَه وأعطاه شيئًا كثيرًا، وكان موسى قد قدِم معه بمائدةِ سليمانَ بنِ داودَ، عليهما السلامُ، التي كان يأكُلُ عليها وكانت مِن خليطين؛ ذهبٍ وفضةٍ، وعليها ثلاثةُ أطواقِ لؤلؤٍ وجوهرٍ لم يُرَ مثلُها، وجدها في مدينةِ طُلَيطلةَ مِن بلادِ الأندلسِ مع أموالٍ كثيرةٍ. وقيل: إنّه بعَث ابنَه مروانَ على جيشٍ، فأصاب مِن السبي مائةَ ألفِ رأسٍ، وبعَث ابنَ أخيه في جيشٍ، فأصاب مائةَ ألفِ رأسٍ أيضًا مِن البربرِ، فلمّا جاء كتابُه إلى الوليدِ وذكَر فيه أنّ خُمُسَ الغنائمِ أربعون ألفَ رأسٍ. قال الناسُ: إنّ هذا أحمقُ. مِن أين له أربعون ألفَ رأسٍ خُمُسُ الغنائمِ؟ فبلَغه ذلك فأرسَل أربعين ألفَ رأسٍ وهي خُمُسُ ما غنِم، ولم يُسمع في الإسلامِ بمثلِ سبايا موسى بنِ نصيرٍ أميرِ المغربِ.

وقد جرَت له عجائبُ في فتحِه بلادَ الأندلسِ وقال: لو انقاد الناسُ لي لقدتُهم حتى أفتَحَ بهم مدينةَ روميةَ - وهي المدينةُ العظمى في بلادِ الفرنجِ - ثم ليفتحَنَّها اللهُ على يديَّ إن شاء اللهُ تعالى. ولمّا قدِم على الوليدِ قَدِم معه بثلاثين ألفًا مِن السبيِ غيرَ ما ذكَرْنا، وذلك خُمُسُ ما كان غنِمه في آخرِ غَزاةٍ غزاها ببلادِ المغربِ، وقدِم معه مِن الأموالِ والتحفِ واللآلئِ والجواهرِ ما لا يُحَدُّ ولا يوصَفُ.

ولم يزَلْ مقيمًا بدمشقَ حتى مات الوليدُ وتولَّى سليمانُ، وكان عاتبًا على موسى فحبَسه عندَه، وطالَبه بأموالٍ عظيمةٍ. ولم يَزَلْ في يدِه حتى حجَّ سليمانُ في هذه السنةِ وأخَذه معه فمات بالمدينةِ. وقيل: بوادي القرى. وقد قارب الثمانين، وقيل: توفِّي سنةَ تسعٍ وتسعين. فاللهُ أعلمُ.

* * *

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين

ففي هذه السنة جهَّز سليمانُ بنُ عبدِ الملك - أميرُ المؤمنين - أخاه مَسلمةَ بنَ عبدِ الملك لغزوِ القُسطَنْطينيَّة وراءَ الجيشِ الذين هُم بها، فسار إليها ومعه جيشٌ عظيمٌ، ثم التفَّ عليه ذلك الجيشُ الذين هم هناك، وقد أمَرَ كل رجلٍ من الجيشِ أن يحملَ معه على ظهرِ فَرَسه مُدَّيْن من طعام، فلمّا وصَلَ إليها جمَعوا ذلك، فإذا هو أمثالُ الجبال، فقال لهم مسلمةُ: اتركُوا هذا الطعامَ وكُلوا ممّا تجدونَه في بلادهم، وازرَعوا في أماكنِ الزرعِ واستغِلُّوه، وابنُوا لكم بيوتًا من خشَبٍ، فإنّا لا نرجعُ عن هذه البلدة حتى نفتَحَها إن شاءَ اللهُ. وقد داخَلَ مسلمةَ رجلٌ من النصارَىٰ يقال له: إليُونُ. وواطَأَه في الباطنِ ليأخُذَ له بلادَ الروم فظهَر منه نُصحٌ في بادئِ الأمرِ، ثم إنَّه تُوفِّي مَلِكُ القُسطَنطينيَّةِ، فدخَل إليُونُ في رسالةٍ من مسلمةَ وقد خافتْه الرومُ خوفًا شديدًا، فلمّا دخَل إليهم إليُونُ قالوا له: رُدَّه عنا ونحن نُملِّكُك علينا. فخرَج فأعمَلَ الحيلةَ في الغدرِ والمَكرِ، ولم يزلْ - قبَّحَه اللهُ - حتى أحرَقَ ذلك الطعامَ الذي للمسلمينَ، وذلك لأنَّه قال لمسلمةَ: إنَّهم ماداموا يَرَوْنَ هذا الطعامَ عندَك يظنُّونَ أنَّك تُطاوِلُهم في القتال، فلو أحرَقْتَه لتَحقَّقُوا منك العزْمَ، وسلَّموا لك البلدَ سريعًا، فأمَر مسلمةُ بالطعامِ فأُحرِقَ، ثم انشَمَرَ إليُونُ في السُّفُنِ وأخَذ ما أمكَنه من أمتعةِ الجيشِ في الليلِ، وأصبح وهو بالبلدِ محاربًا للمسلمين، وأظهَرَ العداوةَ الأكيدةَ، وتحصَّن بالبلدِ، واجتمَعت عليه الرومُ، وضاق الحالُ على المسلمين، حتى أكَلوا كلَّ شيءٍ إلاّ الترابَ، فلم يزَلْ ذلك دأبَهم حتى جاءتْهم وفاةُ سليمانَ بنِ عبدِ الملك وتوليةُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، على ما سيأتي، فكَرُّوا راجعينَ إلى الشامِ، وقد جَهَدوا جَهْدًا شديدًا، لكنْ لم يرجعْ مسلمةُ حتى بنَىٰ مسجدًا بالقُسطَنْطينيَّةِ شديدَ البناءِ مُحْكَمًا، رَحْبَ الفناءِ، شاهقًا في السماءِ.

وقال الواقديُّ: لما وَلِي سليمانُ بنُ عبدِ الملك أراد الإقامةَ ببيتِ المقدسِ، ثم أرسلَ العساكرَ إلى القُسطَنْطينيَّة، فأشار عليه موسى بنُ نُصيرٍ بأن يفتَحَ ما دونَها من المدنِ والرساتيقِ والحصُونِ، حتى يبلُغَ المدينةَ، فلا يأتيَها إلاّ وقد هُدمَت حصُونُها ووهَنَت قوتُها، فإذا فعَلْتَ ذلك لم يبقَ بينَك وبينَها مانعٌ، فيُعطوا بأيديهم ويُسلِّموا لك البلدَ، ثم استَشار أخاه مسلمةَ فأشار عليه بأن يدَعَ ما دونَها من البلادِ ويفتَحَها عَنوةً، فمتى ما فُتِحَت فإنَّ باقيَ ما دونَها من البلادِ والحصُونِ بيدِك. فقال سليمانُ: هذا هو الرأيُ. ثم أخَذ في تجهيزِ الجيوشِ من الشامِ والجزيرةِ فجهَّزَ في البرِّ مائةً وعشرينَ ألفًا، وفي البحرِ مائةً وعشرينَ ألفًا من المقاتلة، وأخرَج لهم الأَعْطيةَ، وأنفَق فيهم الأموالَ الكثيرةَ، وأعلَمهم بغزوِ القُسطَنْطينيَّةِ والإقامةِ عليها إلى أن يفتَحُوها، ثم سار سليمانُ من بيتِ المقدسِ فدخَل دمشقَ، وقد اجتَمَعت له العساكرُ فأمَّر عليهم أخاه مسلمةَ، ثم قال: سيروا على بركَةِ اللهِ، وعليكم بتَقْوى اللهِ والصبرِ والتَّناصُحِ والتَّناصُفِ. ثم سار سليمانُ حتى نزَل مَرْجَ دابِقٍ، فاجتَمع إليه الناسُ

أيضًا مِن المُطَّوِّعةِ المحتَسِبينَ أجورَهم على الله، فاجتَمع له جندٌ عظيمٌ لم يُرَ مثلُه، ثم أمَرَ مسلمةَ أن يرحَلَ بالجيوشِ وأخَذ معه إليُونَ الروميَّ المَرْعَشيَّ، ثم ساروا حتى نَزَلوا على القُسطَنْطينيَّة فحاصَرَها إلى أن برِحَ بهم، وعرَض أهلُها الجزيةَ على مسلمةَ، فأبى إلا أن يفتَحَها عَنوةً. قالوا: فابعَثْ إلينا إليُونَ نشاوِرْه. فأرْسَله إليهم، فقالوا له: رُدَّ هذه العساكرَ عنا ونحن نُعطيك ونُمَلِّكُك علينا. فرجَع إلى مسلمةَ، فقال له: قد أجابوا إلى فتحِها غيرَ أنَّهم لا يفتحونَها ما لم تَتَنحَّ عنهم. فقال مسلمةُ: إنِّي أخْشىٰ غَدْرَك، فحلَف له أن يدفَعَ إليه مفاتيحَها وما فيها، فلما تَنَحَّىٰ عنهم أخَذوا في ترميمِ ما تهدَّمَ مِن أسوارِها واستَعَدُّوا للحصارِ. وغدَر إليونُ بالمسلمينَ، قبَّحَه اللهُ.

قال ابنُ جرير: وفي هذه السنة أخَذ سليمانُ بنُ عبدِ الملك العَهْدَ لولَدِه أيوبَ أن يكونَ الخليفةَ من بعدِه، وذلك بعدَ موتِ أخيه مرْوان بن عبدِ الملك بنِ مَرْوانَ، فعَدَل عن ولاية أخيه يزيدَ إلى ولاية ولَدِه أيوبَ، وتربَّص بأخيه الدوائرَ، فماتَ أيوبُ في حياةِ أبيه، فبايَع سليمانُ لابنِ عمِّه عمرَ بن عبدِ العزيز أن يكونَ الخليفةَ مِن بعدِه، ولنِعْمَ ما فعَل. وفيها فُتِحت مدينةُ الصَّقالبة.

قال الواقديُّ: وقد أغارتِ البُرْجانُ على جيشِ مسلمةَ وهو في قِلَّةٍ من الناسِ، في هذه السنة، فبعَث إليه سليمانُ جيشًا فقاتَلوا البرجانَ حتى هزَمَهم اللهُ عزَّ وجل.

وفي هذه السنة غزا يزيدُ بنُ المهلَّب دِهِسْتانَ مِن أرضِ الصينِ فحاصَرها وقاتَل عندَها قتالاً شديدًا، ولم يَزَلْ حتى تسلَّمَها، وقتَل مِن التُّركِ الذين بها أربعةَ آلافٍ صَبْرًا، وأخَذ منها من الأموالِ والأثاث والأمتعةِ ما لا يُحَدُّ ولا يوصَفُ كثرةً وقيمةً وحُسنًا، ثم سار منها إلى جُرجانَ فاستَجاشَ صاحبُها بالدَّيْلَمِ، فقَدِموا لنجْدَته فقاتَلهم يزيدُ بنُ المهلَّبِ وقاتَلوه، فحمَل محمدُ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ أبي سَبْرةَ الجُعْفيُّ - وكان فارسًا شجاعًا باهرًا - على مَلِك الدَّيْلَم فقتَله وهزَمهم اللهُ عزَّ وجلَّ، ولقد بارَز ابنُ أبي سَبْرَةَ هذا يومًا بعضَ فرسانِ الترك، فضربَه التُّركيُّ بالسيف على البَيْضة فنشب فيها، وضربَه ابنُ أبي سَبْرَةَ فقتَله، ثم أقبلَ إلى المسلمينَ وسيفُه يقطُرُ دمًا وسيفُ التركيِّ ناشبٌ في خَوْذَته، فنظَر إليه يزيدُ ابنُ المهلَّبِ، فقال: ما رأيتُ منْظرًا أحسنَ من هذا، مَن هذا الرجلُ؟ قالوا: ابنُ أبي سَبْرةَ. فقال: نِعْمَ الرجلُ لولا انهماكُه في الشرابِ. ثم صمَّمَ يزيدُ بنُ المهلَّبِ على محاصَرةِ جُرجانَ، ومازال يُضيِّقُ على صاحبِها حتى صالَحه على سبعمائة ألفِ درهمٍ وأربعمائة ألف دينارٍ، ومائتي ألف ثوبٍ، وأربعمائة حمارٍ مُوقَرةٍ زعفرانًا، وأربعمائة رجلٍ، على رأسِ كلِّ رجلٍ تُرْسٌ، على التُّرسِ طَيْلَسانٌ وجَامٌ من فضةٍ وسَرَقَةٌ من حريرٍ.

وهذه المدينةُ كان سعيدُ بنُ العاصِ قد افتَتَحَها صُلْحًا على أن يُؤَدُّوا الخراجَ في كلِّ سنة، فكانوا يحمِلونَ في كلِّ سنةٍ مائةَ ألفٍ، وفي سنةٍ مائتَيْ ألفٍ، وفي بعضِ السنين ثلاثمائة ألفٍ، ويمنَعون ذلك في بعضِ السنين، ثم امتَنَعوا جملةً وكفَروا، فغَزاهم يزيدُ بنُ المهلَّبِ وردَّها صُلْحًا على ما كانت

عليه في زَمَنِ سعيدِ بنِ العاصِ. قالوا: وأصاب يزيدُ بنُ المهلَّبِ مِن جُرْجانَ أموالاً كثيرةً جداً، فكان مِن جملتِها تاجٌ فيه جواهرُ نفيسةٌ، فقال: أتَرَوْنَ أحداً يزهَدُ في هذا؟ قالوا: لا. فدعا بمحمدِ بنِ واسعٍ - وكان في الجيشِ مغازياً - فعرَض عليه أخْذَ التاجِ، فقال: لا حاجةَ لي فيه. فقال: أقسَمْتُ عليك لتأخُذَنَّه. فأخذَه وخرج به مِن عندِه، فأمَر يزيدُ رجلاً أن يتْبَعَه فينظُرَ ماذا يَصنَع بالتاجِ؟ فمرَّ بسائلٍ، فطلَب منه شيئاً، فأعطاه التاجَ بكمالِه وانصرَف، فبعَث يزيدُ إلى ذلك السائلِ، فأخذَ منه التاجَ وعوَّضه عنه مالاً كثيراً.

وقال عليُّ بنُ محمدٍ المدائنيُّ: قال أبو بكرٍ الهُذَليُّ: كان شهرُ بنُ حَوْشَبٍ على خزائنِ يزيدَ بنِ المهلَّبِ فرفَعوا إليه أنه أخَذَ خريطةً فيها مائةُ دينارٍ، فسأَله عنها فقال: نعم. وأحضَرها، فقال له يزيدُ: هي لك. ثم استدْعى الذي وشَىٰ به فشتَمه، فقال في ذلك القُطاميُّ الكلبيُّ - ويُقالُ: إنَّها لسِنانِ بنِ مكمَّلٍ النُّميريِّ:

لقد باعَ شَهْرٌ دينَهُ بخريطةٍ ... فمن يأمَنُ القُرَّاءَ بعدَكَ يا شهرُ

أخذْتَ به شيئاً طفيفاً وبعتَهُ ... مِن ابنِ جَوَنْبوذَانَ هذا هو الغدرُ

وقال مُرَّةُ النَّخَعيُّ:

يا ابنَ المُهلَّبِ ما أردْتَ إلى امرئٍ ... لولاكَ كانَ كصالحِ القُرَّاءِ

قال ابنُ جريرٍ: ويقالُ: إنَّ يزيدَ بنَ المهلَّبِ كان في غَزْوةِ جُرْجانَ في مائةِ ألفٍ وعشرينَ ألفاً، منهم ستُّون ألفاً مِن جيشِ الشّامِ أثابَهم اللهُ، وقد تمهَّدتْ تلك البلادُ بفتحِ جُرْجانَ وسلَكَتِ الطرقُ، وكانت قبلَ ذلك مَخُوفةً جداً، ثم عزَم يزيدُ على المسيرِ إلى طَبَرِسْتانَ، وقدم بينَ يدَيْه سريةٌ هي أربعةُ آلافٍ مِن سُراةِ الناسِ، فلمّا التقَوْا اقتَتَلوا قتالاً شديداً، وقُتِل مِن المسلمينَ في المعركةِ أربعةُ آلافٍ فإنّا للهِ وإنّا إليه راجعُونَ. ثم عزَم يزيدُ على فتحِ البلادِ لا مَحالةَ، ومازَال حتى صالَحه صاحبُها - وهو الإصْبَهبَذُ - بمالٍ كثيرٍ؛ سبعمائةِ ألفٍ في كلِّ عامٍ، وغيرِ ذلك مِن المتاعِ والرقيقِ.

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

عبيدُ الله بنُ عبدِ الله بن عُتْبةَ، كان إماماً حُجَّةً، وكان مُؤدِّبَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، وله رواياتٌ كثيرةٌ عن جماعةٍ مِن الصحابةِ.

أبو الحَفْصِ النَّخَعيُّ.

عبدُ الله بنُ محمدِ ابنِ الحنَفيَّةِ. وقد ذكَرْنا تراجمَهم في «التَّكْميلِ». واللهُ سبحانَه وتعالى أعلَمُ.

* * *

ثم دخلت سنة تسع وتسعين

فيها كانت وفاةُ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ، أميرِ المؤمنينَ، يومَ الجمُعةِ لعَشْرٍ مَضَيْنَ - وقيل: بقِينَ - من صَفَرٍ منها، عن خَمْسٍ وأربعينَ سنةً. وقيل: عن ثلاثٍ وأربعينَ. وقيل: إنَّه لم يجاوزِ الأربعينَ. وكانت خلافتُه سنتَيْنِ وثمانيةَ أشهرٍ، وزعَم أبو أحمدَ الحاكمُ أنَّه توفِّي يومَ الجمُعةِ لثلاثَ عشرةَ بقِيَتْ مِن رمضانَ منها، وأنَّه استكْمَل في خلافتِه ثلاثَ سنينَ وثلاثةَ أشهُرٍ وخمسةَ أيامٍ، وله مِن العمْرِ تسعٌ وثلاثونَ سنةً. والصحيحُ قولُ الجمهورِ، وهو القولُ الأوَّلُ. واللهُ أعلَمُ.

وهو سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ بنِ مرْوانَ بنِ الحكَمِ بنِ أبي العاصِ بنِ أُمَيَّةَ بنِ عبدِ شمسٍ، القرَشيُّ الأُمَويُّ، أبو أيوبَ.

كان مولدُه بالمدينةِ في بَنِي جَزِيلةَ، ونشأ بالشامِ عندَ أبيه، وروَى الحديثَ عن أبيه، عن جدِّه، عن عائشةَ أمِّ المؤمنين في قصَّةِ الإفْكِ، رَواه ابنُ عساكرَ، من طريقِ ابنه عبدِ الواحدِ بنِ سليمانَ عنه. وروَى عن عبدِ الرحمنِ بنِ هُنَيْدةَ أنَّه صحِب عبدَ اللهِ بنَ عمرَ إلى الغابةِ، قال: فسكَتُّ، فقال لي ابنُ عمرَ: ما لَكَ؟ فقلتُ: كنتُ أتَمنَّى، فهل تَتمنَّى يا أبا عبدِ الرحمنِ؟ فقال: لو أن لي أُحُدًا هذا ذهبًا أَعلَمُ عدَدَه وأُخرِجُ زكاتَه ما كَرِهتُ ذلك، أو قال: ما خَشِيتُ أن يَضُرَّني. رَواه محمدُ بنُ يحيى الذُّهْليُّ، عن أبي صالحٍ، عن اللَّيثِ، عن عبدِ الرحمنِ بنِ خالدِ بنِ مسافرٍ، عن الزُّهْريِّ عنه.

قال الحافظُ ابنُ عساكرَ: وكانت دارُه بدمشقَ موضعَ ميضأةِ جَيْرونَ الآنَ في تلك الساحةِ جميعِها، وبنَى دارًا كبيرةً ممّا يلي بابَ الصغيرِ - موضعَ الدربِ المعروفِ بدربِ مُحرِزٍ - وجعَلها دارَ الإمارةِ، وعمِل فيها قُبَّةً صفراءَ تَشْبِيهًا بالقُبَّةِ الخضراءِ. قال: وكان فصيحًا مُؤْثِرًا للعدْلِ مُحبًّا للغزْوِ، وقد أنفَذ الجيشَ لحصارِ القُسطَنْطينيَّةِ حتى صالَحوهم على بناءِ الجامعِ بها.

وقد روَى أبو بكرٍ الصُّوليُّ، أن عبدَ الملكِ جَمَع بنِيه الوليدَ وسليمانَ ومسلمةَ بينَ يدَيه، فاستقرأَهم القرآنَ فأجادُوا القراءةَ، ثم استنشَدَهم الشِّعْرَ فأجادوا، غيرَ أنَّهم لم يُكمِلُوا أو يُحكِمُوا شعرَ الأعشَى، فلامَهم على ذلك، ثم قال: لِيُنشِدْني كلُّ رجلٍ منكم أرَقَّ بيتٍ قالتْه العربُ ولا يُفحِشْ، هاتِ يا وليدُ. فقال الوليدُ:

ما مَركبٌ وركوبُ الخيلِ يُعجِبُني ... كمَركَبٍ بينَ دُمْلُوجٍ وخَلْخالِ

فقال عبدُ الملكِ: وهل يكونُ من الشِّعرِ أرْفَثَ من هذا؟ هاتِ يا سليمانُ. فقال:

حبَّذا رَجْعُها يدَيْها إليها ... في يَدَيْ دِرْعِها تَحُلُّ الإزارا

فقال: لم تُصِبْ، هاتِ يا مسلمةُ، فأنشَدَه قولَ امرئِ القيسِ:

وما ذرَفتْ عَيْناكِ إلَّا لتَضْرِبي ... بسَهْمَيْكِ في أعشارِ قلبٍ مُقَتَّلِ

فقال: كذَب امرؤُ القيسِ ولم يُصِبْ، إذا ذرَفتْ عيناها بالوَجْدِ فما بَقِي إلاّ اللقاءُ، وإنَّما يَنْبغِي للعاشقِ أن يقْتَضِيَ منها الجفاءَ ويكْسُوَها المودَّةَ. ثم قال: أنا مُؤجِّلُكم في هذا البيت ثلاثةَ أيام، فمَن أتاني به فله حُكْمُه ـ أي مهما طلَب أعطيتُه ـ فنهَضوا من عنده، فبينَما سليمانُ في مَوْكبٍ إذا هو بأعْرابيٍّ يسوقُ إبلَه وهو يقولُ:

لو حُزَّ بالسَّيفِ رأسي في مودَّتِها ... لمالَ يَهْوي سريعًا نحوَها رأسي

فأمَر سليمانُ بالأعْرابيِّ فاعتُقِلَ، ثم جاء إلى أبيه فقال: قد جئتُكَ بما سألتَ. فقال: هات. فأنشَده البيتَ، فقال: أحسنْت، وأنَّى لك هذا؟ فأخبَره خبرَ الأعرابيِّ، فقال: سَلْ حاجتَك ولا تَنْسَ صاحبَك. فقال: يا أميرَ المؤمنينَ، إنَّك قد عَهِدتَ بالأمرِ من بعدِك للوليدِ، وإنِّي أُحبُّ أن أكونَ وليَّ العَهْدِ من بعده. فأجابَه إلى ذلك، وبعثَه على الحجِّ في سنةِ إحدَى وثمانينَ، وأطلَق له مائةَ ألفِ درهمٍ، فأعطاها سليمانُ لذلك الأعرابيِّ الذي قال ذلك البيتَ من الشِّعرِ، فلمّا مات أبوه سنةَ ستٍّ وثمانينَ، وصارت الخلافةُ إلى أخيه الوليد، كان بينَ يديه كالوزيرِ والمُشيرِ، وكان هو المُستَحِثَّ على عِمارةِ جامعِ دمشقَ، فلمّا تُوفِّي أخوه الوليدُ يومَ السبتِ للنصفِ من جُمادَى الآخرةِ سنةَ ستٍّ وتسْعينَ، وكان سليمانُ بالرَّمْلةِ، فلمّا أقبَل تَلقّاه الأمراءُ ووجوهُ الناسِ، وقيل: إنَّهم ساروا إليه إلى بيتِ المقدسِ فبايَعوه هناك. وعزَم على الإقامةِ بالقُدْسِ، وأتَته الوفودُ إلى بيتِ المقْدسِ، فلم يرَوْا وِفادةً، فكان يجلسُ في قُبَّةٍ في صَحْنِ المسجدِ ممّا يلي الصخرةَ من جهةِ الشَّمالِ، وتجلِسُ أكابرُ الناسِ على الكراسي، وتُقَسَّمُ فيهم الأموالُ، ثم عزَم على المجيءِ إلى دمشقَ، فدخَلها وكمَّل عمارةَ الجامعِ.

وفي أيامِه جُدِّدَت المقصُورةُ، واتخَذ ابنَ عمِّه عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ مُستشارًا ووَزيرًا، وقال له: إنَّا قد وُلِّينا ما ترَى، وليس لنا علمٌ بتَدبيرِه، فما رأيتَ من مصلحةِ العامَّةِ فمُرْ به فليُكْتَبْ. وكان من ذلك عَزْلُ نوّابِ الحجّاجِ، وإخراجُ أهلِ السُّجونِ منها، وإطلاقُ الأُسَراءِ، وبَذْلُ الأعطيةِ بالعراقِ، وردُّ الصلاةِ إلى ميقاتِها الأوَّلِ، بعدَما كان مَن كان قبلَه يُؤخِّرونَها إلى آخرِ وقتِها، مع أمورٍ حسَنةٍ كان يَسمَعُها من عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، رحمَهما اللهُ.

وأمَر بغَزوِ القُسطَنطينيَّةِ، فبعث إليها من أهلِ الشامِ والجزيرةِ والمَوْصلِ في البَرِّ نحوًا من مائةِ ألفٍ وعشرينَ ألفَ مقاتلٍ، وبعَث من أهلِ مصْرَ وإفريقيَّةَ ألفَ مَرْكَبٍ في البحْرِ، عليهم عمرُ بنُ هُبَيْرةَ، وعلى جماعةِ الناسِ كلِّهم أخُوه مسلمةُ بنُ عبدِ الملكِ، ومعه ابنُه داودُ بنُ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ في جماعةٍ من أهلِ بيتِه، وذلك كلُّه عن مشورةِ موسى بنِ نُصَيْرٍ، حينَ قدم عليه من بلادِ المغربِ. والصحيحُ أنَّه قدم في أيامِ أخيه الوليدِ. واللهُ أعلمُ.

قال ابنُ أبي الدنيا: حدَّثني محمدُ بنُ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ الكوفيُّ، عن جابرِ بنِ عونٍ الأسديِّ، قال: أولُ كلامٍ تكلَّم به سليمانُ بنُ عبدِ الملكِ حينَ وَلِي الخلافةَ أن قال:

الحمدُ لله الذي ما شاءَ صنَع، وما شاءَ رفَع، وما شاءَ وضَع، ومَن شاءَ أعطَى، ومَن شاء منَع، إن الدنيا دارُ غُرورٍ، ومنزلُ باطلٍ، وزينةُ تقلُّبٍ، تُضحكُ باكيًا، وتُبْكي ضاحكًا، وتُخيفُ آمنًا، وتُؤمِّنُ خائفًا، تُفقرُ مُثْريَها، وتُثري فقيرَها، ميَّالةٌ لاعبةٌ بأهلها. يا عبادَ الله، اتَّخذوا كتابَ الله إمامًا، وارضَوا به حكَمًا، واجعَلوه لكم قائدًا، فإنَّه ناسخٌ لِما قبلَه، ولن ينسَخَه كتابٌ بعدَه. اعلَموا عبادَ الله أن هذا القرآنَ يجلو كيدَ الشيطانِ وضغائنَه كما يجلو ضوءُ الصبحِ إذا تنفَّس إدبارَ الليلِ إذا عَسْعَس.

وقال يحيى بنُ معين، عن حجَّاجِ بنِ محمدٍ، عن أبي معشرٍ، عن محمدِ بنِ قيسٍ قال: سمعتُ سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ يقولُ في خطبته: فضلُ القرآنِ على سائرِ الكلامِ كفضلِ الله على خلقه.

وقال حمادُ بنُ زيد، عن يزيدَ بنِ حازمٍ، قال: كان سليمانُ بنُ عبدِ الملك يخطُبُنا كلَّ جُمُعةٍ لا يدَعُ أن يقولَ في خطبته: وإنَّما أهلُ الدنيا على رحيلٍ، لم تمضِ بهم نيةٌ، ولم تطمَئِنَّ لهم دارٌ حتى يأتيَ أمرُ وعدِ الله وهم على ذلك، كذلك لا يدومُ نعيمُها، ولا تؤمَنُ فجائعُها، ولا يُتَّقَى من شرِّ أهلِها، ثم يتلو: ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٠٥-٢٠٧].

وروَى الأصمعيُّ، أنَّ نَقْشَ خاتَمِه: آمنتُ بالله مخلصًا.

وقال أبو مُسْهِر، عن أبي مسلمٍ سلمةَ بنِ العَيَّارِ الفَزاريِّ قال: قال محمدُ بنُ سيرينَ: يرحَمُ اللهُ سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ، افتتَح خلافتَه بخيرٍ، وختَمها بخيرٍ؛ افتتَحها بإحْيائه الصلاةَ لمواقيتِها، وختَمها باستخلافه عمرَ بنَ عبدِ العزيز.

وقد أجمَع علماءُ السِّيَرِ والتواريخ أنَّه حجَّ بالناسِ في سنةِ سبعٍ وتسعين وهو خليفةٌ.

قال الهيثمُ بنُ عديٍّ: قال الشعبيُّ: حجَّ سليمانُ بنُ عبدِ الملك، فلمَّا رأَى الناسَ بالموسمِ، قال لعمرَ بنِ عبدِ العزيز: ألا ترَى هذا الخلقَ الذي لا يحصِي عددَهم إلَّا اللهُ، ولا يسَعُ رزقَهم غيرُه. فقال: يا أميرَ المؤمنين، هؤلاء رعيَّتُك اليومَ، وهم غدًا خصماؤك. فبكَى سليمانُ بكاءً شديدًا، ثم قال: بالله أستعينُ.

وقال ابنُ أبي الدنيا: ثنا إسحاقُ بنُ إسماعيلَ، ثنا جريرٌ، عن عطاءِ بنِ السائبِ، قال: كان عمرُ ابنُ عبدِ العزيزِ في سفرٍ مع سليمانَ بنِ عبدِ الملك، فأصابَتْهمُ السماءُ برَعدٍ وبرقٍ وظُلمةٍ وريحٍ شديدةٍ، حتى فزعوا لذلك، وجعَل عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يضحَكُ، فقال له سليمانُ: ما أضحَكَك يا عمرُ؟ أمَا ترَى ما نحن فيه؟ فقال له: يا أميرَ المؤمنين، هذه آثارُ رحمتِه، فيه شدائدُ ما ترَى، فكيف بآثارِ سَخَطِه وغضَبِه؟!

ومن كلامه الحسنِ، رحمه اللهُ، قولُه: الصمتُ منامُ العقلِ والنطقُ يقظتُه، ولا يتمُّ هذا إلا بهذا.

ودخَل عليه رجلٌ فكلَّمه، فأعجَبه منطقُه، ثم فتَّشَه فلم يحمَدْ عقلَه، قال: فضْلُ منطقِ الرجل على عقله خُدْعةٌ، وفضْلُ عقله على منطقه هُجْنةٌ، وخيرُ ذلك ما أشبَهَ بعضُه بعضًا. وقال: العاقلُ أحرصُ على إقامة لسانه منه على طلب معاشه. وقال أيضًا: إن مَن تكلَّم فأحسنَ قادرٌ على أن يسكُتَ فيحسنَ، وليس كلُّ مَن سكَت فأحسَن قادرًا على أن يتكلَّمَ فيحسنَ.

ومن شعره يتسلَّى عن صديقٍ له مات:

وهَوَّن وَجدي في شَراحيلَ أنَّني ... متى شئتُ لاقيتُ امرأً مات صاحبُه

ومن شعره أيضًا:

ومن شيمَتي أن لا أفارقَ صاحبي ... وإن مَلَّني إلا سألتُ له رُشْدا

وإن دامَ لي بالوُدِّ دمتُ ولم أكُنْ ... كآخَرَ لا يرعَى ذِمامًا ولا عَهْدا

وسمع سليمانُ ليلةً صوتَ غناءٍ في معسكرِه، فلم يزَلْ يفحَصُ حتى أُتِيَ بهم، فقال سليمانُ: إن الفرسَ ليَصهَلُ فتستودقُ له الرَّمَكةُ، وإن الجملَ ليخطرُ فتضبَعُ له الناقةُ، وإن التَّيسَ لينَبُّ، فكشَرتْ له العَنْزُ، وإن الرجلَ ليتغنَّى فتشتاق له المرأةُ، ثم أمَر بهم ليَخْصوهم. فيقالُ: إن عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ قال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّها مُثْلةٌ. فترَكهم.

وفي روايةٍ: أنَّه خصَى أحدَهم، ثم سأل عن أصلِ الغناء فقيل: إنَّه بالمدينة. فكتَب إلى عامله بها وهو أبو بكر بنُ محمدِ بنِ عمرِو بنِ حزمٍ يأمُرُه أن يَخصيَ من عندَه من المغنِّين المخنَّثين.

وقال الشافعيُّ: دخَل أعرابيٌّ على سليمانَ، فدَعاه إلى أكْلِ الفالوذَجِ، وقال له: إنَّ أكْلها يَزيدُ في الدِّماغِ. فقال الأعرابيُّ: لو كان هذا صحيحًا، لكان ينبغي أن يكونَ رأسُ أميرِ المؤمنين مثلَ رأسِ البغلِ.

وذكَروا أن سليمانَ كان نهمًا في الأكْلِ، وقد نقَلوا عنه أشياءَ في ذلك غريبةً؛ فمِن ذلك أنَّه اصطَبح في بعضِ الأيامِ بأربعين دجاجةً مشويةً، وأربعٍ وثمانين كُلْوَةً بشحمِها، وثمانين جَرْدَقةً، ثم أكَل مع الناسِ على العادةِ في السِّماطِ العامِّ.

ودخَل ذاتَ يومٍ بستانًا له قد أمَر قيِّمَه أن يحبِسَ ثمارَه، وقطفَتْ له ومعه أصحابُه، فأكَل القومُ، واستمرَّ هو يأكُلُ أكلًا ذريعًا من تلك الفواكه، ثم استدعَى بشاةٍ مشويةٍ فأكَلها، ثم أقبَل على الفاكهةِ، ثم أُتِيَ بدَجاجتَين فأكَلهما، ثم عاد إلى الفاكهةِ، ثم أُتِيَ بقَعْبٍ يقعُدُ فيه الرجلُ مملوءًا بسَويقٍ وسمنٍ وسكرٍ، فأكَله، ثم عاد إلى دارِ الخلافةِ، وأُتِيَ بالسِّماطِ، فما فقَد من أكله شيئًا.

وقد رُوِيَ، أنه عرضَتْ له حُمَّى أدَّتْه إلى الموتِ. وقد قيل: إن سببَ مرضِه كان من أكْلِ أربعمائةِ بيضةٍ، وسلَّتَين من تينٍ. فاللهُ أعلمُ.

وذكَر الفضلُ بنُ المُهلَّبِ وغيرُه، أنَّه لبِس في يومِ جُمُعةٍ حُلَّةً صفراءَ، ثم نزَعها ولبِس بدلَها حُلَّةً

خضراءَ، واعتمَّ بعمامةٍ خضراءَ، وجلس على فراشٍ أخضرَ، وقد بُسط ما حولَه بالخضرة، ثم نظَر في المرآة فأعجَبه حسنُه، وشمَّر عن ذراعَيه وقال: أنا الخليفةُ الشابُّ.

وقيل: إنَّه كان ينظُرُ في المرآة من فَرْقه إلى قدمه ويقولُ: أنا الملكُ الشابُّ.

وفي روايةٍ أنَّه كان ينظُرُ فيها ويقولُ: كان محمدٌ نبيًّا ﷺ، وكان أبو بكرٍ صدِّيقًا، وكان عمرُ فاروقًا، وكان عثمانُ حَيِيًّا، وكان عليٌّ شجاعًا، وكان معاويةُ حليمًا، وكان يزيدُ صبورًا، وكان عبدُ الملكِ سائسًا، وكان الوليدُ جبّارًا، وأنا الملكُ الشّابُّ.

قالوا: فما دارَ عليه شهرٌ - وفي رواية: جُمُعةٌ - حتى مات.

قالوا: ولمَّا حُمَّ شرع يتوضَّأُ، فدَعا بجاريةٍ، فصبَّتْ عليه ماءَ الوضوءِ، ثم أنشدَتْه:

أنتَ نعمَ المتاعُ لو كنتَ تبقَى ... غيرَ أنْ لا بقاءَ للإنسانِ
ليس فيما علمتُه فيكَ عيبٌ ... كان في الناسِ غيرَ أنَّك فانِ

قالوا: فصاح بها وقال: عزَّتْني في نفسي. وصرَفَها، ثم أمَر خالَه الوليد بنَ القَعْقاع العَنْسيَّ أن يصُبَّ عليه وقال:

قرِّبْ وضوءَك يا وليدُ فإنَّما ... هذي الحياةُ تَعِلَّةٌ ومتاعُ

فقال الوليدُ:

فاعمَلْ لنفسكَ في حياتكَ صالحًا ... فالدهرُ فيه فُرْقةٌ وجِماعُ

ويروى أن الجاريةَ لمَّا جاءتْه بالطَّست، جعلَتْ تضطَرِبُ من الحمَّى، فقال: أين فلانةُ؟ فقالتْ: محمومةٌ. قال: ففلانةُ؟ قالتْ: محمومةٌ. وكان بمَرْج دابقٍ من أرضِ قِنَّسْرينَ، فأمَر خالَه فوضَّأه، ثم خرَج يصلِّي بالناسِ، فأخَذَته بُحَّةٌ في الخطبةِ، ثم نزَل وقد أصابَتْه حُمَّى، فاستَمرَّ فيها حتى مات في الجمعة المقبلة.

ويقالُ: إنَّه أصابَه ذاتُ الجَنْب، فمات بها، رحمه اللهُ.

وكان قد أقسَم أنَّه لا يبرَحُ دابقًا حتى يرجعَ إليه الخبرُ بفتْح القسطنطينيةِ، أو يموتَ قبلَ ذلك، فمات قبلَ ذلك، رحمه اللهُ، وأكرم مثواه.

قالوا: وجعَل يلهَجُ في مرضه ويقولُ:

إنَّ بَنيَّ صِبْيَةٌ صِغارُ ... أفلَح مَن كان له كِبارُ

فيقولُ له عمرُ بنُ عبدِ العزيز: قد أفلحَ المؤمنون يا أمير المؤمنين. ثم يقولُ:

إن بَنيَّ صِبْيةٌ صَيفيُّون ... أفلَح مَن كان له شَتَويُّون

ويروى أن هذا آخرُ ما تكلَّم به، والصحيحُ أن آخرَ ما تكلَّم به أن قال: أسألُك منقلبًا كريمًا. ثم قضَى.

وروى ابنُ جرير، عن رجاء بن حيوةَ - وكان وزيرَ صدقٍ لبَني أمية - قال: استشارَني سليمانُ بنُ عبدِ الملك وهو مريضٌ أن يولّيَ ابنًا له صغيرًا لم يبلُغ الحُلُمَ، فقلتُ: إن مِمَّا يحفَظُ الخليفةَ في قبرِه أن يولّيَ على المسلمين من بعده الرجلَ الصالحَ، ثم شاوَرَني في ولاية ابنه داودَ، فقلتُ له: إنَّه غائبٌ عنك بالقسطنطينية، ولا تدْري أحيٌّ هو أمْ ميِّتٌ؟ فقال: فمَن ترىٰ؟ فقلتُ: رأيُك يا أميرَ المؤمنين. قال: كيف ترىٰ في عمرَ بنِ عبد العزيز؟ فقلتُ: أعلَمُه والله خيِّرًا فاضلاً مسلمًا. فقال: هو والله علىٰ ذلك، ولكنْ أتخوَّفُ إخوَتي لا يرضَون بذلك. فأشار رجاءٌ أن يجعَلَ يزيدَ بنَ عبدِ الملك وليَّ العهدِ من بعد عمرَ بنِ عبد العزيز؛ ليُرضيَ بذلك بني مروانَ، فكتَب:

بسمِ الله الرحمنِ الرحيم، هذا كتابٌ من عبدِ الله سليمانَ أميرَ المؤمنين لعمرَ بنِ عبدِ العزيز، إنِّي قد ولَّيتُك الخلافةَ من بعدي، ومن بعده يزيدَ بنَ عبدِ الملك، فاسمَعوا له وأطيعوا، واتَّقوا اللهَ ولا تختَلفوا فيُطمَعَ فيكم.

وختَم الكتابَ وأرسَل إلىٰ كعب بنِ حامدٍ العَبْسيِّ صاحبِ الشُّرطة، فقال له: اجمَعْ أهلَ بيتي، فمُرْهم فلْيُبايعوا علىٰ ما في هذا الكتابِ مختومًا، فمَن أبىٰ منهم فاضربْ عنقَه. فاجتَمعوا ودخَل رجالٌ منهم، فسلَّموا علىٰ أمير المؤمنين، فقال لهم: هذا الكتابُ عهدي إليكم، فاسمَعوا له وأطيعوا وبايِعوا مَن ولَّيتُ فيه. فبايَعوا رجلاً رجلاً.

قال رجاءٌ: فلمَّا تفرَّقوا جاءني عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ فقال: أنشُدُك اللهَ وحُرْمَتي ومَودَّتي إلاَّ أعلَمتَني إن كان كتب لي ذلك حتىٰ أستَعْفيَه الآنَ قبلَ أن يأتيَ حالٌ لا أقدر فيها علىٰ ما أقدرُ عليه الساعةَ! فقلتُ: والله لا أخبرُك حرفًا واحدًا. قال: ولَقِيني هشامُ بنُ عبدِ الملك فقال: يا رجاءُ، إن لي بك حُرمةً ومودةً قديمةً، فأخبرْني هذا الأمرَ، فإن كان إليَّ علمتُ، وإن كان إلىٰ غيري تكلَّمتُ، فما مثلي قُصِّرَ به. فقلتُ: والله لا أخبرُك حرفًا واحدًا ممَّا أسرَّ إليَّ.

قال رجاءٌ: ودخَلتُ علىٰ سليمانَ، فإذا هو يموتُ، فجعَلتُ إذا أخذَتْه السَّكْرَةُ من سَكَرات الموت أحرِّفُه إلىٰ القبلة، فإذا أفاق يقولُ: لم يأنِ لذلك بعدُ يا رجاءُ. ففعَلتُ ذلك مرَّتين، فلمّا كانت الثالثةُ قال: من الآنَ يا رجاءُ إن كنت تريدُ شيئًا، أشهَدُ أن لا إلهَ إلا اللهُ وأشهَدُ أن محمدًا عبدُه ورسولُه. قال: فحرَّفْتُه إلىٰ القبلة ومات، فغطَّيتُه بقطيفةٍ خضراءَ، وأغلَقتُ البابَ عليه، وأرسَلتُ إلىٰ كعبِ بنِ حامدٍ، فجمَع الناسَ في مسجد دابقٍ، فقلتُ: بايِعوا لمَن في هذا الكتاب. فقالوا: قد بايَعْنا. فقلتُ: بايعوا ثانيةً. ففعَلوا، ثم قلتُ: قومُوا إلىٰ صاحبِكم فقد مات. وقرأتُ الكتابَ عليهم، فلمّا انتهَيتُ إلىٰ ذكرِ عمرَ بنِ عبدِ العزيز، تغيَّرت وجُوه بني مروانَ، فلمَّا قرأتُ: وإن يزيدَ بنَ عبدِ الملك من بعده، تراجَعوا بعضَ الشيء، ونادىٰ هشامٌ: لا نبايعُه أبدًا. فقلتُ: أضربُ والله عنقَك، قمْ فبايعْ. ونهَض الناسُ إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ وهو في مؤخرِ المسجدِ، فلمَّا تحقَّقَ ذلك قال: إنَّا لله وإنَّا إليه

راجعون. ولم تحمِلْه رجلاه حتىٰ أخذوا بضَبْعيه، فأصعَدوه علىٰ المنبرِ، فسكَت حينًا، فقال رجاءُ بنُ حيوةَ: ألاَ تقومُون إلىٰ أميرِ المؤمنين فتُبايعوه! فنهَض القومُ فبايَعوه، ثم قام إليه هشامٌ فصعد المنبرَ ليبايعَ وهو يقولُ: إنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون. فقال عمرُ: نعم! إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، الذي صِرْتُ أنا وأنت نتنازَعُ هذا الأمرَ. ثم قام فخطَب الناسَ خطبةً بليغةً وبايَعوه، فكان ممَّا قال في خطبته: أيُّها الناسُ لستُ بمبتدعٍ ولكنِّي متَّبعٌ، وإن مَن حولَكم مِن الأمصارِ والمدنِ إن هم أطاعوا كما أطَعتُم فأنا واليكم، وإن هم أبَوا فلستُ لكم بوالٍ.

ثم نزَل، فشرَعوا في جهازِ سليمانَ.

قـال الأوزاعي: فلم يفرُغوا منه حتىٰ دخَل وقتُ المغربِ، فصلَّىٰ عمرُ بالناسِ صلاةَ المغربِ، ثم صلَّىٰ علىٰ سليمانَ، ودفن بعدَ المغربِ، فلمَّا انصرَف عمرُ أُتي بمراكبِ الخلافة فلم يركَبْها، وركب دابتَه، ثم سار مع الناسِ حتىٰ أتَوا دمشقَ، فمالُوا به نحوَ دارِ الخلافة فقال: لا أنزِلُ إلاَّ في منزلي حتىٰ تفرُغَ دارُ أبي أيوبَ، فاستُحْسنَ ذلك منه، ثم استَدعَىٰ بالكاتبِ، فجعَل يُمْلي عليه نسخةَ الكتابِ الذي يبايعُ عليه الأمصارَ، قال رجاءٌ: فما رأيتُ أفصحَ منه.

قال محمـدُ بنُ إسحاقَ: وكانتْ وفاةُ سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ بدابقٍ مِن أرضِ قِنَّسْرينَ يومَ الجُمُعةِ لعشرِ ليالٍ خلَتْ مِن صفرٍ سنة تسع وتسعين، علىٰ رأسِ سنتين وتسعةِ أشهرٍ وعشرين يومًا من متوفَّىٰ الوليدِ. وكذا قال الجمهورُ في تاريخِ وفاته، ومنهم مَن يقولُ: لعشرٍ بقِين مِن صفرٍ. وقالوا: كانتْ ولايتُه سنتين وثمانيةَ أشهرٍ، زادَ بعضُهم إلاَّ خمسةَ أيامٍ. واللهُ أعلمُ.

وقولُ الحاكمِ أبي أحمدَ: إنَّه توفِّي يومَ الجُمُعة لثلاثَ عشْرَةَ بقِيتْ من رمضانَ سنةَ تسعٍ وتسعين، وكانت خلافتُه ثلاثَ سنينَ وثلاثةَ أشهرٍ وخمسةَ أيامٍ، وتوفِّي وهو ابنُ تسعٍ وثلاثين سنةً. فقد حكَاه ابنُ عساكرَ، وهو غريبٌ جـدًّا، وقد خالَفه الجمهورُ في كلٍّ ما قاله، وعندَهم أنَّه جاوَز الأربعين، فقيل: بثلاثٍ. وقيل: بخمسٍ. واللهُ أعلمُ.

قـالوا: وكان طويلاً جميلاً أبيضَ نحيفًا، حسنَ الوجهِ، مقرونَ الحاجبين، وكان فصيحًا بليغًا يحسِنُ العربيةَ، ويرجِعُ إلىٰ دينٍ وخيرٍ ومحبةٍ للحقِّ وأهلِه، واتِّباعِ القرآنِ والسنةِ، وإظهارِ الشرائعِ الإسلاميةِ، رحمه اللهُ.

وقد كان، رحمه اللهُ، آلَىٰ علىٰ نفسِه حينَ خرَج مِن دمشقَ إلىٰ مرجِ دابقٍ - ودابقٌ قريبةٌ مِن بلادِ حلبَ - وقد جهَّزتِ الجيوشُ إلىٰ مدينةِ الرومِ العظمَىٰ المسماةِ بالقسطنطينيةِ، أن لا يرجعَ إلىٰ دمشقَ حتىٰ تفتَحَ أو يموتَ، فمات هنالك كما ذكَرنا، فحصَل له بهذه النيةِ أجرُ الرِّباطِ في سبيلِ اللهِ، فهو، إن شاء اللهُ، ممَّن يجرَىٰ له ثوابُه إلىٰ يومِ القيامةِ، رحمه اللهُ.

وقد ذكَر الحافظُ ابنُ عساكرَ في ترجمةِ شَراحيلَ بنِ عبيدةَ بنِ قيسٍ العُقَيليِّ ما مضمونُه؛ أنَّ مسلمةَ

ابنَ عبدِ الملك لمّا ضيَّق بمحاصرته على أهلِ القسطنطينية، وتتبَّع المسالكَ، واستحوذ على أكثرِ ما هنالك من الممالك، كتَب إليونُ ملكُ الرومِ إلى ملكِ البُرْجَانِ يستنصرُه على مسلمةَ، ويقولُ له: إنَّ هؤلاء القومَ ليس لهم همَّةٌ إلا في الدعوةِ إلى دينهم، الأقربُ منهم فالأقربُ، وإنَّهم متى فرَغوا منِّي خلَصوا إليك، فمهما كنتَ صانعًا حينئذٍ فاصنَعْه الآنَ. فعندَ ذلك شرَع، لعَنه اللهُ، في المكرِ والخديعة، فكتَب إلى مسلمةَ يقولُ له: إن إليونَ كتَب إليَّ يستنصرُني عليك، وأنا معك فمُرْني بما شئتَ. فكتَب إليه مسلمةُ: إنِّي لا أريدُ منك رجالاً ولا عددًا، ولكنْ أرسِلْ إليَّ بالميرةِ، فقد قلَّ ما عندَنا من الأزواد.

فكتَب إليه: إنِّي قد أرسَلتُ إليك بسوقٍ عظيمةٍ إلى مكانِ كذا وكذا، فأرسِلْ مَن يتسلَّمُها ويشتري منها.

فأذِن مسلمةُ لمَن شاء من الجيشِ أن يذهَبَ إلى هنالك فيشتريَ له ما يحتاجُ إليه، فذهَب خلقٌ كثيرٌ فوجَدوا هنالك سوقًا هائلةً، فيها من أنواعِ البضائعِ والأمتعةِ والأطعمة، فأقبَلوا يشتَرون، واشتَغلوا بذلك، ولا يشعُرون بما أرصَد لهم الخبيثُ من الكمائنِ بينَ تلك الجبالِ التي هنالك، فخرَجوا عليهم بغتةً، فقتَلوا خلقًا كثيرًا من المسلمين وأسرَوا آخَرين، وما رجَع إلى مسلمةَ إلا القليلُ منهم، فإنَّا للهِ وإنَّا إليه راجعون.

فكتَب مسلمةُ بذلك إلى أخيه سليمانَ يخبِرُه بما وقَع من ذلك، فأرسَل جيشًا كثيفًا صحبةَ شَراحيلَ ابنِ عبيدةَ هذا، وأمرَهم أن يعبُروا خليجَ القسطنطينية أولاً فيقاتِلوا ملكَ البُرْجانِ، ثم يعودوا إلى مسلمةَ، فذهَبوا إلى بلادِ البُرْجانِ، وقطَعوا إليهم تلك الخُلجانَ، فاقتَتَلوا معهم قتالاً شديدًا، فهزَمهم المسلمون بإذنِ الله، وقتَلوا منهم مقتلةً عظيمةً، وسبَوا وأسَرُوا خلقًا كثيرًا، وخلَّصوا أسرى المسلمين، ثم تحيَّزوا إلى مسلمةَ، فكانوا عندَه حتى استقدَم الجميعَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ؛ خوفًا عليهم من غائلةِ الرومِ وبلادِهم، ومن ضيقِ العيشِ، وقد كان لهم قبلَ ذلك هنالك مدةٌ طويلةٌ. أثابَهم اللهُ تعالى.

خلافة عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ رضي اللهُ عنه

قد تقدَّم أنه بُويع له بالخلافةِ يومَ الجمعةِ لعشرٍ مضَينَ -وقيل: بقِينَ- من صفرٍ من هذه السَّنَةِ -أعني سنةَ تسعٍ وتسعين- يومَ مات سليمانُ بنُ عبدِ الملك، عن عهدٍ منه إليه من غيرِ علمٍ من عمرَ -كما قدَّمنا- وقد ظهَرت عليه مخايلُ الورَعِ والدِّينِ والتقشُّفِ والصِّيانةِ والنَّزاهة -من أوَّلِ حركةٍ بدتْ منه؛ حيثُ أعرَض عن ركوبِ مراكبِ الخلافة، وهي الخيولُ الحسانُ الجيادُ المُعَدَّةُ لها- والاحتِزاءُ بمركوبِه الذي كان يركَبُه، وسُكنى منزلِه رغبةً عن منزلِ الخلافة. ويقال: إنَّه خطَب النَّاسَ فقال في خُطبته: أيُّها الناسُ، إنَّ لي نفسًا توَّاقةً لا تُعطَى شيئًا إلا تاقَتْ إلى ما هو أعلَى منه، وإنِّي لمَّا أُعطيتُ الخلافةَ تاقتْ

نفسي إلىٰ ما هو أعلىٰ منها، وهو الجنةُ؛ فأعينُوني عليها يرحَمْكم اللهُ. وستأتي ترجمتُه عندَ وفاتِه إن شاء اللهُ تعالىٰ.

وكان مما بادَر إليه عمرُ في هذه السنة أن بعَث إلىٰ مسلمةَ بنِ عبدِ الملكِ ومَن معه من المسلمين، وهم بأرضِ الرومِ محاصِروا القسطنطينية، وقد اشتدَّ عليهم الحالُ وضاق عليهم المجالُ؛ لأنهم عسكرٌ كثيرٌ، فكتَب إليهم يأمُرُهم بالرجوعِ إلىٰ الشام إلىٰ منازلِهم، وبعَث إليهم بطعامٍ كثيرٍ وخيولٍ كثيرةٍ عتاقٍ، يقالُ: خمسُمائةِ فرسٍ. ففرِح الناسُ بذلك.

وفي هذه السنة أغارت التركُ علىٰ أَذْرَبِيجانَ فقتَلوا خلقًا كثيرًا من المسلمين، فوجَّه إليهم عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ حاتمَ بنَ النعمانَ الباهليَّ فقتَل أولئك الأتراكَ، ولم يُفلتْ منهم إلا اليسيرُ، وبعَث منهم أُسارَىٰ إلىٰ عمرَ وهو بخُناصِرةَ. وقد كان المؤذِّنونَ يُذكِّرونَه بعدَ أذانِهم باقترابِ الوقتِ وضيقِه لئلا يؤخِّرَها، كما كان يُؤخِّرُها مَن كان قبلَه لكثرةِ الأشغالِ، وكان ذلك عن أمرِه لهم بذلك. فاللهُ أعلمُ.

فروَىٰ ابنُ عساكرَ في ترجمةِ حَريزِ بنِ عثمانَ الرَّحَبيِّ الحمصيِّ، قال: رأيتُ مؤذِّني عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ يسلِّمون عليه في الصَّلاةِ: السَّلامُ عليك أميرَ المؤمنين ورحمةُ الله وبركاتُه، حيَّ علىٰ الصَّلاةِ حيَّ علىٰ الفلاحِ، الصَّلاةُ قد قاربَتْ.

وفي هذه السنة عزَل عمرُ يزيدَ بنَ المُهلَّبِ عن إمرةِ العراقِ وبعَث عَديَّ بنَ أرطاةَ الفَزاريَّ علىٰ إمرةِ البصرةِ، فاستقضَىٰ عليها الحسنَ البصريَّ، فاستعفاه، فأعفاه واستقضَىٰ مكانَه إياسَ بنَ معاويةَ الذَّكيَّ المشهور، وبعَث علىٰ إمرةِ الكوفةِ وأرضِها عبدَ الحميدِ بنَ عبدِ الرحمنِ بنِ زيدِ بنِ الخطابِ، وضمَّ إليه أبا الزنادِ كاتبًا بينَ يديه، واستقضَىٰ عليها عامرًا الشعبيَّ. قال الواقديُّ: فلم يزَلْ قاضيًا عليها مدَّةَ خلافةِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ.

وجعَل علىٰ إمرةِ خُراسانَ الجرَّاحَ بن عبدِ اللهِ الحَكَميَّ، وكان نائبَ مكةَ عبدُ العزيزِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ خالدِ بنِ أسيدٍ، وعلىٰ إمرةِ المدينةِ أبو بكرِ بنُ محمدِ بنِ عمرِو بنِ حزمٍ، وهو الذي حجَّ بالناسِ في هذه السنةِ. وعزل عن إمرةِ مصرَ عبدَ الملكِ بنَ رفاعةَ وولَّىٰ عليها أيوبَ بن شُرَحبيلَ، وجَعل الفُتيا إلىٰ جعفرِ بنِ ربيعةَ، ويزيدَ بنِ أبي حبيبٍ، وعبيدِ اللهِ بنِ أبي جعفرٍ، فهؤلاء هم الذين كانوا يُفتُون الناسَ، واستعمَل علىٰ إفريقيَّةَ وبلادِ المغربِ إسماعيلَ بنَ عبدِ اللهِ المخزوميَّ، وكان حسنَ السِّيرةِ، وأسلَم في ولايتِه علىٰ بلادِ المغربِ خلق كثيرٌ من البربرِ. واللهُ سبحانَه وتعالىٰ أعلمُ.

وممن تُوفِّي فيها من الأعيان:

الحسنُ بنُ محمدٍ ابنِ الحنفيةِ، تابعيٌّ جليلٌ، يقالُ: إنَّه أوَّلُ من تكلَّم في الإرجاءِ، وقد تقدَّم أنَّ أبا عبيدٍ قال: تُوفِّي في سنةِ خمسٍ وتسعينَ. وذكَر خليفةُ أنَّه تُوفِّي في خلافةِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، وذكَر شيخُنا الذهبيُّ في «الأعلام» أنه توفِّي في هذا العام.

وفيها توفي سليمانُ بنُ عبد الملك بن مَرْوانَ كما تقدم.

عبدُ الله بنُ مُحيريز بن جُنَادةَ بن وَهْب القرشيُّ الجُمَحيُّ المكيُّ، نزيلُ بيتِ المقدسِ، تابعيٌّ جليلٌ، روَىٰ عن زوجِ أمِّه أبي محذورةَ المؤذنِ، وعُبادةَ بنِ الصَّامتِ، وأبي سعيدٍ، ومعاويةَ، وغيرِهم. وعنه خالدُ بنُ مَعدانَ، ومكحولٌ، وحسانُ بنُ عطيةَ، والزُّهريُّ، وآخرون. وقد وثَّقه غيرُ واحدٍ، وأثنَىٰ عليه جماعةٌ من الأئمَّة، حتىٰ قال رجاءُ بنُ حيوةَ: إن يفخَرْ علينا أهلُ المدينة بعابدهم ابن عمرَ، فإنا نفخَرُ عليهم بعابدنا عبدالله بن مُحيريز. وقال بعضُ ولده: كان يختِمُ القرآنَ كلَّ جمعة، وكان يفرَشُ له الفراشُ فلا ينامُ عليه. قالوا: وكان صموتًا معتزلاً للفتن. وكان لا يترُكُ الأمرَ بالمعروف والنَّهيَ عن المنكرِ، ولا يذكُرُ شيئًا من خصاله المحمودة، ورأىٰ علىٰ بعضِ الأمراء حُلَّةً من حرير فأنكَرَ عليه، فقال: إنما ألبَسُها من أجلِ هؤلاء-وأشار إلىٰ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ أميرِ المؤمنين- فقال له ابنُ مُحيريز: لا تعدلْ بخوفك من الله خوفَ أحد من الناس.

وقال الأوزاعيُّ: مَن كان مُقتديًا فليقتد بمثله، فإنَّ اللهَ لا يُضِلُّ أُمَّةً فيها مثلُه. وقال بعضُهم: تُوفِّي أيامَ الوليد. وقال خليفةُ بنُ خياط: تُوفِّي أيامَ عمرَ بنِ عبدِ العزيز. وذكَر الذهبيُّ في «الأعلام» أنَّه توفِّي في هذا العام. واللهُ سبحانَه أعلمُ.

محمودُ بنُ لَبيد بن عُقبةَ أبو نُعيم الأنصاريُّ الأشهَليُّ المَدَنيُّ، وُلد في حياةِ النبيِّ ﷺ، وروَىٰ عنه أحاديثَ، لكنْ حكمُها الإرسالُ.

وقال البخاريُّ: له صحبةٌ. وقال ابنُ عبدِ البرِّ: هو أسَنُّ من محمودِ بنِ الرَّبيع. قيل: إنَّه توفِّي في سنة ستٍّ-وقيل: سبعٍ-وتسعين.

وذكَر الذهبيُّ في «الأعلام» أنَّه توفِّي في هذا العام، أعني سنةَ تسعٍ وتسعين. واللهُ أعلَمُ باليقين.

نافعُ بنُ جُبير بنِ مُطعم بن عديِّ بن نوفل القرشيُّ النَّوْفليُّ المدَنيُّ، روَىٰ عن أبيه، وعثمانَ، وعليٍّ، والعباسِ، وأبي هريرةَ، وعائشةَ، وغيرِهم، وروَىٰ عنه جماعةٌ من التابعين وغيرِهم، وكان ثقةً عابدًا يحُجُّ ماشيًا، ومركوبُه يقادُ معه.

قال غيرُ واحد: توفِّي سنةَ تسعٍ وتسعين بالمدينة. واللهُ أعلمُ.

كُرَيبُ بنُ مُسْلم مولىٰ ابن عباسٍ، روَىٰ عن جماعةٍ من الصحابةِ وغيرِهم، وكان عندَه حِمْلُ كتبٍ، وكان من الثقات المشهورين بالخير والديانة.

محمدُ بنُ جُبير بنِ مُطعم كان من علماءِ قريشٍ وأشرافِها، وله رواياتٌ كثيرةٌ، تُوفِّي في المدينة، ودُفِن في البَقيع.

محمودُ بنُ الربيع الأنصاريُّ، أبو محمد، له رواياتٌ كثيرةٌ، وكان يعقِلُ مَجَّةً مجَّها النبيُّ ﷺ في وجْهِه، وعمرُه أربعُ سنينَ، تُوفِّي وعمرُه ثلاثٌ وتسعون سنةً بالمدينة.

مُسْلمُ بنُ يَسار، أبو عبد الله البصريُّ، الفقيهُ الزاهدُ، له رواياتٌ، كان لا يُفضَّلُ عليه أحدٌ في زمانه، وكان عابدًا ورعًا زاهدًا كثيرَ الصلاة، كثيرَ الخشوع. وقيل: إنَّه وقَع في داره حريقٌ فأطفئوه، وهو في الصلاة لم يَشعُرْ به، وله مناقبُ كثيرةٌ، رحمه اللهُ. قلتُ: وانهدَمتْ مرَّةً ناحيةٌ من المسجد ففزع أهلُ السوق لهدَّتها، وإنَّه لفي المسجد في صلاته فما التفَتَ.

وقال ابنُه: رأيتُه ساجدًا، وهو يقولُ: متى ألقاك وأنت عنِّي راضٍ؟ ثم يذهَبُ في الدعاء، ثم يقولُ: متى ألقاكَ وأنت عنِّي راضٍ؟ وكان إذا كان في غيرِ صلاةٍ كأنَّه في الصَّلاة، وقد تقدَّمتْ ترجَمتُه.

حَنَشُ بنُ عبد الله بن عمرو الصَّنعانيُّ، كان والِيَ إفريقيَّةَ، وبلادِ المغرب، وبإفريقيَّةَ تُوفِّيَ غازيًا، وله رواياتٌ كثيرةٌ عن جماعةٍ من الصحابة.

خارجةُ بنُ زيد بن الضَّحَّاك الأنصاريُّ المدنيُّ الفقيهُ، كان يُفتي بالمدينة، وكان من فقهائها المعدودينَ، كان عالمًا بالفرائض وتقسيم المواريث، وهو أحدُ الفقهاء السَّبعة الذين مدارُ الفتوى على قولِهم.

* * *

سنة مائة من الهجرة النبوية

قال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا عليُّ بنُ حفصٍ، أنبَا ورقاءُ، عن منصورٍ، عن المِنْهالِ بنِ عمرٍ، عن نُعيمِ ابنِ دِجاجةَ، قال: دخَل أبو مسعودٍ على عليٍّ، فقال: أنت القائلُ: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يأتي على الناسِ مائةُ عامٍ وعلى الأرضِ نفسٌ منفوسةٌ»؟ إنما قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يأتي على الناسِ مائةُ عامٍ وعلى الأرضِ نفسٌ منفوسةٌ ممَّن هو حيٌّ». وإن رخاءَ هذه الأمة بعدَ المائة[1]. تفرَّد به أحمدُ.

وفي روايةٍ لابنه عبدِ الله أنَّ عليًّا قال له: يا فرُّوخُ، أنت القائلُ: لا يأتي على الناسِ مائةُ سنةٍ وعلى الأرضِ عينٌ تَطرِفُ؟ أخطأَت استُكَ الحفرةَ، إنما قال رسولُ اللهِ ﷺ: «لا يأتي على الناسِ مائةُ سنةٍ، وعلى الأرضِ عينٌ تَطرِفُ ممَّن هو اليومَ حيٌّ». وإنما رخاءُ هذه الأمةِ وفرَجُها بعدَ المائة[2]. تفرَّد به.

وهكذا جاء في «الصحيحين» عن ابنِ عمر[3]: فوَهَل الناسُ في مقالةِ رسولِ اللهِ ﷺ تلك، وإنما أراد انخرامَ قَرْنِه.

وفيها خرَجتْ خارجةٌ من الحروريَّةِ بالعراقِ، فبعَث أميرُ المؤمنين عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى عبدِ الحميدِ نائبِ الكوفةِ، يأمُرُه بأن يدعُوَهم إلى الحقِّ، ويتلطَّفَ بهم، ولا يقاتلَهم حتى يُفسدوا في الأرضِ، فلمَّا فعَلوا ذلك بعَث إليهم جيشًا فكَسَرهم الحروريَّةُ، فبعَث عمرُ إليه يلومُه على جيشِه، وأرسَل عمرُ ابنَ عمِّه مَسلمةَ بنَ عبدِ الملكِ من الجزيرةِ إلى حربِهم، فأظفَره اللهُ بهم، وقد أرسَل عمرُ إلى كبيرِ الخوارجِ -وكان يقالُ له: بِسطامُ- يقولُ له: ما أخرَجك عليَّ؟ فإن كنتَ خرَجتَ غضَبًا للهِ، فأنا أحقُّ بذلك منك، ولستَ أولَى بذلك منِّي، وهلُمَّ أناظِرْك؛ فإن رأيتَ حقًّا اتَّبعتَه، وإن أبدَيتَ حقًّا نظرْنا فيه.

فبعَث طائفةً من أصحابِه إليه، فاختارَ منهم عمرُ رجلَين فسألَهما: ماذا تنقِمون؟ فقالا: جعْلَك يزيدَ بنَ عبدِ الملكِ من بعدِكَ. فقال: إنِّي لم أجعَلْه أبدًا، وإنما جعَله غيري. قالا: فكيف ترضَى به أمينًا للأمَّةِ من بعدِكَ؟ فقال: أنظِرْني ثلاثةً. فيقال: إنَّ بني أميةَ دسَّتْ إليه سُمًّا، فقتَلوه؛ خشيةَ أن يخرُجَ الأمرُ من أيديهم، ويمنَعهم الأموالَ. واللهُ أعلمُ.

وفي هذه السنةِ غزَا عمرُ بنُ الوليدِ بنِ هشامٍ المُعَيْطيُّ، وعمرُو بنُ قيسٍ الكنديُّ -من أهلِ حِمصَ-

---

(١) حديث صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٩٣) بهذا الإسناد وأصله في الصحيح من رواية ابن عمر وسيأتي

(٢) حديث صحيح: وأخرجه بهذا التمام أحمد (١/ ٤٠) من طريقين عن زهير بن حرب وسفيان بن وكيع بن الجراح قالا ثنا جرير عن منصور عن المنهال بن عمرو بالإسناد السالف.

(٣) قد أخرجه البخاري (١١٦) ومسلم (٢٥٣٧) من حديث ابن عمر ولفظه «أرأيتكم ليلتكم هذه؟ فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد» هذا لفظ مسلم.

الصائفةَ.

وفيها ولّى عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ عمرَ بنَ هبيرةَ نيابةَ الجزيرةِ، فسار إليها.

وفيها حُمِل يزيدُ بنُ المُهلَّبِ إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ مِن العراقِ؛ أرسلَه عديُّ بنُ أرطاةَ نائبُ البصرةِ - وقد كان أظهرَ الامتناعَ - مع موسى بنِ وجيهٍ، وكان عمرُ يُبغِضُ يزيدَ بنَ المُهلَّبِ وأهلَ بيتِه، ويقولُ: هؤلاءِ جبابرةٌ ولا أُحبُّ مثلَهم.

فلمَّا دخَل على عمرَ طالَبه بما قِبلَه مِن الأموالِ التي كان قد كتَب إلى سليمانَ أنَّها حاصلةٌ عندَه، فقال: إنما كتبتُ بذلك لأُرهبَ الأعداءَ بذلك، ولم يكُنْ بيني وبينَ سليمانَ شيءٌ، وقد عرَفتَ مكانتي عندَه. فقال له عمرُ: لا أسمَعُ منك هذا، ولستُ أُطلِقُك حتى تؤدِّيَ أموالَ المسلمين. وأمَر بسَجنِه.

وكان عمرُ قد بعَث على إمرةِ خُراسانَ الجرَّاحَ بنَ عبدِ اللهِ الحَكَميَّ عوضَه، وقدِم ولدُ يزيدَ بنِ المُهلَّبِ - مَخلَدُ بنُ يزيدَ - فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد مَنَّ على هذه الأمةِ بولايتِك عليها، فلا نكونَنَّ أشقى الناسِ بك، فعلامَ تحبِسُ هذا الشيخَ وأنا أقومُ بما تصالِحُني عنه؟ فقال عمرُ: لا أُصالِحُك عنه إلا أن تقومَ بجميعِ ما يُطلَبُ منه. فقال: يا أميرَ المؤمنين، إن كانت لك بيِّنةٌ عليه بما تقولُ، وإلا فاقبَلْ يمينَه أو فصالِحْني عنه. فقال: لا آخُذُ منه إلا جميعَ ما عندَه. فخرَج مَخلَدُ بنُ يزيدَ مِن عندِ عمرَ، فلم يلبَثْ أن مات مَخلَدٌ، فكان عمرُ يقولُ: هو خيرٌ مِن أبيه.

ثم إنَّ عمرَ أمَر بأن يلبَسَ يزيدُ بنُ المهلَّبِ جُبَّةً مِن صوفٍ، ويركَبَ على بعيرٍ، ويذهَبوا به إلى جزيرةِ دَهْلَكَ التي كان يُنفَى إليها الفسَّاقُ، فشفَعوا فيه، فردَّه إلى السجنِ، فلم يزَلْ به حتى مرِض عمرُ مرضَه الذي مات فيه، فهَرب مِن السجنِ، وهو مريضٌ، وعلِم أنَّه يموتُ في مرضِه ذلك، وبذلك كتَب إليه، كما سيأتي، وأظُنُّه كان عالمًا أن عمرَ قد سُقِي سُمًّا.

وفي هذه السَّنةِ، في رمضانَ منها، عزَل عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ الجرَّاحَ بنَ عبدِ اللهِ الحَكَميَّ عن إمرةِ خراسانَ، بعد سنةٍ وخمسةِ أشهرٍ؛ وإنما عزَله لأنه كان يأخُذُ الجزيةَ ممَّن أسلَم مِن الكفَّارِ، ويقولُ: أنتم إنَّما تُسلِمون فِرارًا منها. فامتنَعوا مِن الإسلامِ، وثبَتوا على دينِهم، وأدَّوا الجزيةَ.

فكتَب إليه عمرُ: إنَّ اللهَ إنما بعَث محمدًا ﷺ داعيًا، ولم يبعَثْه جابيًا، وعزَله وولَّى بدلَه عبدَ الرحمنِ بنَ نُعيمٍ القشيريَّ على الحربِ، وعبدَ الرحمنِ بنَ عبدِ اللهِ على الخراجِ.

وفيها كتَب عمرُ إلى عُمَّالِه يأمُرُهم بالخيرِ وينهاهُم عن الشَّرِّ، ويبيِّنُ لهم الحقَّ، ويوضِّحُه لهم، ويعظُهم فيما بينَه وبينَهم، ويخوِّفُهم بأسَ اللهِ وانتقامَه، فكانَ فيما كتَب إلى عبدِ الرحمنِ بنِ نُعيمٍ القشيريِّ:

أمَّا بعدُ، فكُنْ عبدًا للهِ، ناصحًا للهِ في عبادِه، ولا تأخُذْكَ في اللهِ لومةُ لائمٍ، فإنَّ اللهَ أولَى بكَ

من الناس، وحقُّه عليك أعظمُ، ولا تُولِيَنَّ شيئًا من أمور المسلمين إلا المعروفَ بالنَّصيحة لهم، والتوفير عليهم، وأداء الأمانة فيما استُرعِيَ، وإياكَ أن يكونَ مَيْلُكَ مَيْلاً إلى غير الحقِّ؛ فإنَّ اللهَ لا تخفَى عليه خافيةٌ، ولا تذهَبَنَّ عن الله مذهبًا؛ فإنَّه لا ملجأَ من الله إلاَّ إليه. وكتَب مثلَ ذلك مواعظَ كثيرةً إلى العمال.

وقال البخاريُّ في «صحيحه»: وكتَب عمرُ إلى عَديِّ بنِ عديٍّ: إن للإيمانِ فرائضَ وشرائعَ وحدودًا وسُنَنًا، مَن استكمَلها استكمَل الإيمانَ، ومَن لم يستكملْها لم يستكمِلِ الإيمانَ، فإن أعِشْ فسأُبَيِّنُها لكم حتى تعمَلوا بها، وإن أمُتْ فما أنا على صُحْبَتِكم بحريصٍ[1].

وفي هذه السنة كان بُدُوُّ دعوةِ بني العباس

وذلك أنَّ محمدَ بنَ عليِّ بنِ عبدِ الله بنِ عباسٍ - وكان مقيمًا بأرضِ الشَّراة - بعَث من جهته رجلاً يقالُ له: ميسرةُ. إلى العراق، وأرسَل طائفةً أُخرَىٰ وهم؛ محمدُ بنُ خُنَيْسٍ، وأبو عكرمةَ السرَّاجُ - وهو أبو محمدٍ الصادقُ - وحيَّانُ العطارُ - خالُ إبراهيمَ بنِ سلمةَ - إلى خُراسانَ، وعليها يومئذٍ الجرَّاحُ ابنُ عبدِ الله الحَكَميُّ قبلَ أن يُعزَلَ في رمضانَ، وأمَرهم بالدعاء إليه، وإلى أهلِ بيته، فلقُوا مَن لقُوا ثم انصرَفوا بكتُبِ مَن استجابَ لهم إلى ميسرةَ، الذي بالعراق، فبعَث بها إلى محمدِ بنِ عليٍّ ففَرِح بها، واستبشَر به، وسرَّه، وكان مبادئَ أمرٍ قد كتَب اللهُ إتمامَه، وأولَ رأيٍ قد أحكَم اللهُ إبرامَه، وذلك أنَّ دولةَ بني أُمَيَّةَ كان قد بان عليها مخايلُ الوَهْنِ والضعفِ، ولا سيَّما بعدَ موتِ عمرَ بنِ عبدِالعزيز، كما سيأتي بيانُه. وقد اختارَ أبو محمدٍ الصادقُ لمحمدِ بنِ عليٍّ اثنَي عشَر نقيبًا، وهم؛ سليمانُ بنُ كثيرٍ الخزاعيُّ، ولاهزُ بنُ قُرَيظٍ التَّميميُّ، وقَحْطَبَةُ بنُ شَبيبٍ الطائيُّ، وموسىٰ بنُ كعبٍ التميميُّ، وخالدُ بنُ إبراهيمَ أبو داودَ من بني عمرِو بنِ شيبانَ بنِ ذُهْلٍ، والقاسمُ بنُ مجاشعٍ التَّميميُّ، وعمرانُ ابنُ إسماعيلَ أبو النجمِ - مولًى لآلِ أبي مُعَيْطٍ - ومالكُ بنُ الهيثمِ الخُزاعيُّ، وطلحةُ ابنُ زُرَيْقٍ الخُزاعيُّ، وعمرُو بنُ أعْيَنَ أبو حمزةَ - مولًى لخزاعةَ - وشِبْلُ بنُ طَهْمانَ أبو عليٍّ الهَرَويُّ - مولًى لبني حنيفةَ - وعيسىٰ بنُ أَعْيَنَ مولًى خزاعةَ أيضًا. واختار منهم سبعين رجُلاً أيضًا. وكتَب إليهم محمدُ بنُ عليٍّ كتابًا يكونُ لهم مثالاً وسيرةً يقتَدُونَ بها ويسيرونَ بها.

وقد حجَّ بالناسِ في هذه السنة أبو بكرِ بنُ محمدِ بنِ عمرِو بنِ حزمٍ، نائبُ المدينة. والنُّوَّابُ على الأمصارِ هم المذكورون في التي قبلَها، سوىٰ مَن ذكَرْنا ممَّن عُزِلَ وتولَّى غيرُه. واللهُ أعلمُ.

ولم يَحُجَّ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ في أيامِ خلافته لشغله بالأمورِ، ولكنَّه كان يُبرِدُ البريدَ إلى المدينة، فيقولُ له: سلِّم على رسولِ الله ﷺ عنِّي. وسيأتي بإسناده إن شاءَ اللهُ.

---

(١) وهذا في «صحيح البخاري» في صدر كتاب «الإيمان» (١/ ٤٣) ط الإيمان

وممَّن تُوفِّي فيها من الأعيان:

سالمُ بنُ أبي الجعد الأشجعيُّ، مولاهم الكوفيُّ، أخو زيادٍ، وعبدِ الله، وعبيدِ الله، وعمرانَ ومسلم، وهو تابعيٌّ جليلٌ، روىٰ عن ثوبانَ، وجابرٍ، وعبدِ اللهِ بنِ عمرَ، وعبدِ اللهِ بنِ عمروٍ، والنعمانِ بنِ بشيرٍ، وغيرِهم، وعنه قتادةُ، والأعمشُ، وآخَرونَ، وكان ثقةً نبيلاً جليلاً، تُوفِّي في هذه السنة علىٰ المشهورِ.

أبو أُمامةَ ابنُ سَهلِ بن حُنَيف، الأنصاريُّ الأوسيُّ المدنيُّ، وُلِد في حياةِ النبيِّ ﷺ ورآه، وحدَّث عن أبيه، وعمرَ، وعثمانَ، وزيدِ بنِ ثابتٍ، ومعاويةَ، وابنِ عباسٍ. وعنه الزهريُّ، وأبو حازمٍ، وجماعةٌ، قال الزهريُّ: كان مِن علِيةِ الأنصارِ وعلمائهم، ومِن أبناءِ الذين شهدوا بدراً. وقال يوسفُ بنُ الماجشونِ، عن عُتبةَ بنِ مسلمٍ، قال: آخرُ خَرجةٍ خرجَها عثمانُ بنُ عفانَ، رضي اللهُ عنه، إلىٰ الجمُعة، حصَبَه الناسُ وحالوا بينه وبينَ الصلاةِ، فصلَّىٰ بالناسِ يومئذٍ أبو أُمامةَ ابنُ سَهلِ بنِ حُنيفٍ. قالوا: تُوفِّي سنةَ مائةٍ. واللهُ أعلمُ.

أبو الزَّاهريَّةِ حُدَيْرُ بنُ كُرَيب الحِمْصيُّ، تابعيٌّ جليلٌ، سمع أبا أُمامةَ؛ صُدَيَّ بنَ عَجْلانَ، وعبدَالله بنَ بُسْرٍ، ويقالُ: إنَّه أدركَ أبا الدرداءِ. والصحيحُ أنَّ روايتَه عنه، وعن حذيفةَ مُرسَلةٌ، وقد حدَّث عنه جماعةٌ مِن أهلِ بلدِه، وقد وثَّقه ابنُ مَعينٍ، وغيرُه. ومِن أغربِ ما رُوِي عنه قولُ قُتَيبةَ: ثنا شهابُ بنُ خِراشٍ عن حميدِ ابنِ أبي الزاهريَّةِ، قال: أغفَيتُ في صخرةِ بيتِ المقدسِ، فجاءت السَّدَنَةُ، فأغلَقوا عليَّ البابَ، فما انتبَهتُ إلاَّ بتَسبيحِ الملائكةِ، فوثَبتُ مَذْعُوراً، فإذا الملائكةُ صفوفٌ؛ فدخَلتُ معَهم في الصفِّ. قال أبو عبيدٍ، وغيرُه: مات سنةَ مائةٍ.

أبو الطُّفَيلِ عامرُ بنُ واثلةَ بنِ عبد الله بن عمرو اللَّيْثيُّ الكنانيُّ، صحابيٌّ، وهو آخرُ مَن رأىٰ النبيَّ ﷺ وفاةً بالإجماعِ، روىٰ عن النبيِّ ﷺ، أنَّه رآه يَستلِمُ الرُّكْنَ بمِحْجَنِه[1] ، وذكَر صفةَ النبيِّ ﷺ، وروىٰ عن أبي بكرٍ، وعمرَ، وعليٍّ، ومعاذٍ، وابنِ مسعودٍ، وحدَّث عنه الزهريُّ، وقتادةُ، وعمرُو بنُ دينارٍ، وأبو الزبيرِ، وجماعةٌ مِن التابعينَ. وكان مِن أنصارِ عليٍّ ابنِ أبي طالبٍ، شهِد معه حروبَه كلَّها، لكنْ نقَم بعضُهم عليه كونَه كان معَ المختارِ ابنِ أبي عبيدٍ، ويقالُ: إنَّه كان حاملَ رايتِه. وقد رُوِي أنَّه دخَل علىٰ معاويةَ، فقال له: ما أبقَىٰ لك الدهرُ مِن ثُكْلِك عليًّا؟ فقال: ثُكْلَ العجوزِ المِقْلاتِ والشيخِ الرَّقُوبِ. قال: كيف حبُّك له؟ قال: حبَّ أُمِّ موسىٰ لموسىٰ، وإلىٰ اللهِ أشكو التقصيرَ. قيل: إنه أدرَك مِن حياةِ النبيِّ ﷺ ثمانَ سنينَ، ومات سنةَ مائةٍ. وقيل: سنةَ سبعٍ ومائةٍ. وقيل: سنةَ عَشْرٍ ومائةٍ. فاللهُ أعلمُ. قال مسلمُ بنُ الحجَّاجِ: وهو آخرُ مَن مات مِن الصحابةِ مُطلَقًا، وماتَ سنةَ مائةٍ.

---

(١) تقدم.

أبو عثمانَ النَّهْديُّ، واسمُه عبدُ الرحمنِ بنُ مَلٍّ البصريُّ، أدرَك الجاهليةَ وحجَّ في زمنِ الجاهليةِ مرَّتين، وأسلَم في حياةِ النبيِّ ﷺ ولم يرَه، وأدَّىٰ في زمانِه الزكاةَ ثلاثَ سنينَ إلىٰ عمالِ النبيِّ ﷺ؛ ومثلُ هذا يسمِّيه أئمةُ الحديثِ مُخَضْرَمًا، وهاجَر إلىٰ المدينةِ في زمانِ عمرَ بنِ الخطابِ، فسمع منه، ومن عليٍّ وابنِ مسعودٍ، وخَلْقٍ من الصحابةِ، وصحِب سَلْمَانَ الفارسيَّ ثْنَتَيْ عَشْرةَ سنةً حتىٰ دفَنَه، وروَىٰ عنه جماعةٌ من التابعين وغيرِهم، منهم أيوبُ، وحميدٌ الطويلُ، وسليمانُ بنُ طرخانَ التَّيْميُّ.
وقال عاصمٌ الأحولُ: سمعتُه يقولُ: أدركتُ في الجاهليةِ يَغُوثَ؛ صنمًا من رَصاصٍ يُحمَلُ علىٰ جَمَلٍ أَجْرَدَ، فإذا بلَغ واديًا برك فيه، فيقولون: قد رَضِي ربُّكم لكم هذا الواديَ، فينزِلُون فيه. قال: وسمعتُه وقد قيل له: أدركتَ النبيَّ ﷺ؟ فقال: نعم، أسلَمت علىٰ عهده، وأدَّيتُ إليه الزكاةَ ثلاثَ مراتٍ، ولم ألقَهُ، وشهدتُ اليرموكَ، والقادسيَّةَ، وجلولاءَ، ونَهاوَنْدَ، وتُسْتَرَ، وأذْرَبِيجانَ، ورُسْتَمَ. وقال غيرُه: كان البشيرَ إلىٰ عمرَ في فتحِ نَهاوَنْدَ. قالوا: وكان أبو عثمانَ صوَّامًا قوَّامًا؛ يسرُدُ الصومَ، ويَقومُ الليلَ لا يتركُه، وكان يُصَلِّي حتىٰ يُغشَىٰ عليه. وحجَّ ستين مرةً ما بينَ حَجةٍ وعُمرةٍ. قال سليمانُ التَّيْميُّ: إنِّي لأَحسَبُه لا يصيبُ ذنبًا؛ لأنَّه كان ليلَه قائمًا ونهارَه صائمًا. وقال بعضُهم: سَمِعْتُ أبا عثمانَ النهديَّ يقولُ: أتَتْ عليَّ ثلاثون ومائةُ سنةٍ، وما مِنِّي شيءٌ إلا وقد أنكَرتُه خَلا أملي فإني أجدُه كما هو. وقال ثابتٌ البُنانيُّ، عن أبي عثمانَ، قال: إنِّي لأَعْلَمُ حينَ يذكُرني اللهُ عزَّ وجلَّ. قال: فنقولُ له: من أين تعلَم ذلك؟ فيقولُ: قال اللهُ تعالىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. فإذا ذكَرتُ اللهَ ذَكَرني. قال: وكنَّا إذا دعَونا اللهَ قال: واللهِ لقد استجابَ اللهُ لنا، قال اللهُ تعالىٰ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. قالوا: وعاشَ مائةً وثلاثين سنةً. وقيل: وأربعين سنةً. قاله هشيمٌ وغيرُه. قال المدائنيُّ وغيرُه: تُوفِّي سنةَ مائةٍ. وقال الفلاَّسُ: تُوفِّي سنةَ خمسٍ وتسعين. والصحيحُ سنةَ مائةٍ. واللهُ أعلمُ.

وفيها تُوفِّي عبدُ الملكِ بنُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، وكان يَفْضُلُ علىٰ والدِه في العبادةِ والانقطاعِ عن الناسِ، وله كلماتٌ حِسانٌ مع أبيه ووَعْظِه إيَّاه.

* * *

ثم دخلت سنة إحدى ومائة

فيها كان هرَبُ يزيدَ بنِ المُهلَّبِ مِن السجنِ حينَ بلَغه مرضُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فواعَد غلمانَه يلقَونَه بالخيلِ في بعضِ الأماكنِ، وقيل: بإبلٍ له. ثم نزَل مِن مَحبِسه، ومعه جماعةٌ وامرأتُه عاتكةُ بنتُ الفراتِ العامريةُ، فلما جاءه غلمانُه ركِب رواحلَه وسار، وكتَب إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ: إنّي واللهِ ما خرَجتُ مِن سجنِك إلا حينَ بلَغني مرضُك، ولو رجَوتُ حياتَك ما خرَجتُ، ولكنّي خشيتُ من يزيدَ بنِ عبدِ الملكِ؛ فإنه يتوعَّدُني بالقتلِ. وكان يزيدُ بنُ عبدِ الملكِ يقولُ: لئنْ ولِيتُ لأقطعَنَّ مِن يزيدَ بنِ المهلَّبِ طائفةً. وذلك أنَّه لما وُلِّي العراقَ عاقَب أصهارَه، آلَ أبي عقيلٍ، وهم بيتُ الحجاجِ بنِ يوسفَ الثقفيِّ، وكان يزيدُ بنُ عبدِ الملكِ مزوَّجًا ببنتِ محمدِ بنِ يوسفَ أخي الحجاجِ، وله منها ابنُه الوليدُ بنُ يزيدَ الفاسقُ المقتولُ، كما سيأتي. ولما بلَغ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ أنَّ يزيدَ بنَ المهلَّبِ هرَب مِن السجنِ، قال: اللهمَّ إن كان يريدُ بهذه الأمةِ سوءًا فاكْفِهم شرَّه، وارْدُدْ كيدَه في نحرِه.

ثمَّ لم يزَلِ المرضُ يتزايدُ بعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ حتى مات، وهو بخُناصِرَةَ، مِن دَيرِ سَمعانَ بينَ حَماةَ، وحَلَبَ، في يومِ الجمُعةِ. وقيل: في يومِ الأربعاءِ لخمسٍ بقِين مِن رجبٍ مِن هذه السنةِ -أعني سنةَ إحدى ومائةٍ- عن تسعٍ وثلاثينَ سنةً وأشهرٍ. وقيل: إنه جاوَز الأربعينَ بأشهرٍ. فاللهُ أعلمُ.

وكانت خلافتُه، فيما ذكَر غيرُ واحدٍ سنتين وخمسةَ أشهرٍ وأربعةَ أيامٍ، وكان حَكَمًا مُقسِطًا، وإمامًا عادلًا ورِعًا دَيِّنًا، لا تأخُذُه في اللهِ لومةُ لائمٍ، رحِمَه اللهُ تعالى.

وهذه ترجمةُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ الأُمَويِّ الإمامِ المشهورِ، رحمه اللهُ وأكرَم مثواه

هو عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ بنِ مروانَ بنِ الحكمِ بنِ أبي العاصِ بنِ أُميَّةَ بنِ عبدِ شمسِ بنِ عبدِ منافٍ، أبو حفصٍ القرشيُّ الأُمَويُّ أميرُ المؤمنين، وأُمُّه أمُّ عاصمٍ ليلى بنتُ عاصمِ بنِ عمرَ بنِ الخطابِ، ويقال له: أشجُّ بني مروانَ. وكان يُقالُ: الأشجُّ والناقصُ أعدلا بني مروانَ. فهذا هو الأشجُّ، وسيأتي ذكرُ الناقصِ.

كان عمرُ تابعيًّا جليلًا، روَى عن أنسِ بنِ مالكٍ، والسائبِ بنِ يزيدَ، ويوسفَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ سلامٍ، ويوسفُ صحابيٌّ صغيرٌ. وروى عن خلقٍ مِن التابعينَ. وعنه جماعةٌ مِن التابعين، وغيرِهم. قال الإمامُ أحمدُ بنُ حنبلٍ: لا أرَى قولَ أحدٍ مِن التابعين حُجَّةً إلا قولَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ.

بُويع له بالخلافةِ بعدَ ابنِ عمِّه سليمانَ بنِ عبدِ الملكِ عن عهدٍ منه له بذلك، كما تقدَّم، ويقالُ: كان مولدُه في سنةِ إحدى وستين -وهي السنةُ التي قُتِل فيها الحسينُ بنُ عليٍّ، رضي اللهُ عنهما- بمصرَ. قاله غيرُ واحدٍ. وقال محمدُ بنُ سعدٍ: وُلِد سنةَ ثلاثٍ وستين. وقيل: سنةَ تسعٍ وخمسينَ. فاللهُ أعلمُ.

وكان له جماعةٌ مِن الإخوةِ، ولكنِ الذين هم مِن أبويه؛ أبو بكرٍ، وعاصمٌ، ومحمدٌ، وقال

أبو بكرِ بنُ أبي خيثمةَ عن يحيىٰ بنِ معينٍ عن يحيىٰ بنِ بُكيرٍ، عن الليثِ، قال: بلَغني أنَّ عمرانَ بنَ عبدِ الرحمنِ بنِ شُرَحْبيلِ بنِ حسَنةَ كان يحدِّثُ أن رجلاً رَأَىٰ في المنامِ ليلةَ وُلِد عمرُ بنُ عبد العزيزِ - أو ليلةَ وَلِيَ الخلافةَ، شكَّ أبو بكرٍ - أنَّ مناديًا بينَ السماءِ والأرضِ ينادِي: أتاكم اللِّينُ، والدِّينُ، وإظهارُ العملِ الصالحِ في المصلِّين. فقلتُ: ومَنْ هو؟ فنزَل فكتَب في الأرضِ عمر. وقال آدمُ بنُ أبي إياسٍ: ثنا ضَمرةُ، ثنا أبو عليٍّ ثروانُ مولَىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، قال: دخَل عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلىٰ اصطبلِ أبيه وهو غلامٌ فضرَبه فرسٌ، فشَجَّه، فجعَل أبوه يمسَحُ عنه الدَّمَ، ويقولُ: إنْ كنتَ أشجَّ بني أميَّةَ إنَّك إذًا لسعيدٌ. رواه الحافظُ ابنُ عساكرَ من طريقِ هارونَ بنِ معروفٍ، عن ضَمْرَةَ. وقال نُعَيْمُ بنُ حمادٍ: ثنا ضِمامُ بنُ إسماعيلَ، عن أبي قَبيلٍ أنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ بكَىٰ، وهو غلامٌ صغيرٌ، فبلغ ذلك أمَّه فأرسَلتْ إليه، فقالتْ: ما يُبكيكَ؟ قال: ذكرتُ الموتَ. فبكتْ أُمُّه. وكان قد جمَع القرآنَ وهو غلامٌ صغيرٌ، وقال الضحاكُ بنُ عثمانَ الحِزاميُّ: كان أبوه قد جعَله عند صالحِ بنِ كيسانَ يؤدِّبه، فلمَّا حجَّ أبوه اجتازَ به في المدينةِ، فسأَله عنه، فقال: ما خَبَرتُ أحدًا اللهُ أعظمُ في صدرِه مِن هذا الغلامِ.

وروَىٰ يعقوبُ بنُ سفيانَ أن عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ تأخَّر عن الصَّلاةِ مع الجماعةِ يومًا، فقال صالحُ بنُ كيسانَ: ما شغَلك؟ فقال: كانت مُرجِّلتي تُسكِّنُ شَعْري. فقال له: أقدَّمتَ ذلك على الصلاة؟ وكتَب إلىٰ أبيه، وهو علىٰ مصرَ يُعلِمُه بذلك، فبعَث أبوه رسولاً فلم يُكلِّمْه حتىٰ حلَق رأسَه. وكان عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يختلِفُ إلىٰ عبيدِ اللهِ بنِ عبدِ اللهِ يسمَعُ منه، فبلَغ عبيد الله أنَّ عمرَ ينتقِصُ عليًّا، فلمَّا أتاه عمرُ أعرَض عبيدُ الله عنه، وقام يصلِّي، فجلَس عمرُ ينتظِرُه، فلمَّا سلَّم أقبَل علىٰ عمرَ مُغضَبًا، وقال له: متىٰ بلَغَك أنَّ اللهَ سخِط علىٰ أهلِ بدرٍ بعدَ أنْ رضِيَ عنهم؟ قال: ففهِمها عمرُ، وقال: معذرةً إلىٰ اللهِ ثم إليك، واللهِ لا أعودُ. قال: فما سُمِع بعدَ ذلك يذكُرُ عليًّا إلاَّ بخيرٍ.

وقال أبو بكرِ بنُ أبي خيثمةَ: ثنا أبي، ثنا المفَضَّلُ بنُ عبدِ اللهِ، عن داودَ بنِ أبي هندٍ، قال: دخَل علينا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ مِن هذا البابِ - يعني بابًا مِن أبوابِ مسجدِ النبيِّ ﷺ - فقال رجلٌ مِن القومِ: بعَث إلينا الفاسقُ بابنِه هذا يتعلَّمُ الفرائضَ والسُّنَنَ، ويزعُمُ أنَّه لن يموتَ حتىٰ يكونَ خليفةً، ويسيرَ بسيرةِ عمرَ بنِ الخطابِ. قال داودُ: فواللهِ ما مات حتىٰ رأَينا ذلك فيه.

وقال الزبيرُ بنُ بكارٍ: حدَّثني العتبيُّ، قال: إنَّ أوَّلَ ما استُبِينَ مِن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ حرصُه علىٰ العلمِ، ورغبتُه في الأدبِ. قال: إنَّ أباه وَلِيَ مصرَ وهو حديثُ السنِّ يُشَكُّ في بلوغِه، فأراد إخراجَه معه، فقال: يا أبه، أوَ غيرُ ذلك لعلَّه يكونُ أنْفَعَ لي ولك؟ تُرحِّلُني إلىٰ المدينةِ فأقعُدَ إلىٰ فقهاءِ أهلِها، وأتأدَّبَ بآدابِهم. فوجَّهه إلىٰ المدينةِ، فقعَد مع مشايخِ قريشٍ، وتجنَّبَ شبابَهم، وما زال ذلك دأبَه حتىٰ اشتُهِر ذكرُه، فلمَّا مات أبوه أخَذَه عمُّه أميرُ المؤمنين عبدُ الملكِ بنُ مروانَ فخلَطه بولدِه، وقدَّمه

علىٰ كثيرٍ منهم، وزوَّجه بابنته فاطمةَ، وهي التي يقولُ فيها الشاعرُ:

بنتُ الخليفةِ والخليفةُ جَدُّها   أختُ الخلائفِ والخليفةُ زوجُها

قال: ولا نعرفُ امرأةً بهذه الصِّفَةِ إلىٰ يومِنا هذا سواها.

قال العتبيُّ: ولم يكنْ حاسدُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ينقِمُ عليه شيئًا سوىٰ متابعته في النعمةِ، والاختيالِ في المِشيَةِ. وقد قال الأحنفُ بنُ قيسٍ: الكاملُ مَن عُدَّتْ هفَواتُه، ولا تُعَدُّ إلاَّ مِن قِلَّةٍ.

ودخَل يومًا علىٰ عمِّه عبدِ الملكِ، وهو يتجانَفُ في مِشيَتِه، فقال له: يا عمرُ ما لك تمشي غيرَ مشيتِك؟ قال: إنَّ فِيَّ جُرحًا، فقال: وأين هو من جسدِك؟ قال: بين الرَّانِفةِ والصَّفَنِ - يعني بين طرفِ الأَلْيَةِ وجلدةِ الخُصيةِ - فقال عبدُ الملكِ لرَوحِ بنِ زِنباعٍ: باللهِ لو رجلٌ مِن قومِك سُئِل عن هذا ما أجاب هذا الجوابَ.

قالوا: ولَمَّا مات عمُّه عبدُ الملكِ حزِنَ عليه، ولبِسَ المُسُوحَ تحت ثيابِه سبعين يومًا. ولَمَّا ولِي الوليدُ عامَلَه بما كان أبوه يعامِلُه به، وولَّاه المدينةَ، ومكةَ، والطائفَ من سنةِ ستٍّ وثمانين إلىٰ سنةِ ثلاثٍ وتسعين، وأقامَ للناسِ الحجَّ سنةَ تسعٍ وثمانين، وسنةَ تسعين، وحجَّ بالناسِ الوليدُ سنةَ إحدىٰ وتسعين، ثم حجَّ بالناسِ عمر سنةَ ثنتين وثلاثٍ وتسعين.

وبنَىٰ في مدَّةِ ولايته هذه مسجدَ النبيِّ ﷺ، ووسَّعه عن أمرِ الوليدِ له بذلك، فدخَل فيه قبرُ النبيِّ ﷺ، وقد كان في هذه المدَّةِ مِن أحسنِ الناسِ معاشرةً، وأعدلِهم سيرةً؛ كان إذا وقَع أمرٌ مُشكِلٌ جمَع فقهاءَ المدينةِ عليه، وقد عيَّن عشْرةً منهم، وكان لا يقطَعُ أمرًا بدونِهم أو مَن حضَر منهم، وهم: عروةُ، وعبيدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ عتبةَ، وأبو بكرِ بنُ عبدِ الرحمنِ بنِ الحارثِ بنِ هشامٍ، وأبو بكرِ بنُ سليمانَ ابنِ أبي حَثْمةَ، وسليمانُ بنُ يسارٍ، والقاسمُ بنُ محمدٍ، وسالمُ بنُ عبدِ اللهِ، وعبدُ اللهِ بنُ عامرِ بنِ ربيعةَ، وخارجةُ بنُ زيدِ بنِ ثابتٍ.

وكان لا يخرُجُ عن قولِ سعيدِ بنِ المسيَّبِ، وقد كان سعيدُ بنُ المسيَّبِ لا يأتي أحدًا من الخلفاءِ، وكان يأتي إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، وهو بالمدينةِ. قال ابنُ وهبٍ، عن عبدِ الجبارِ الأيليِّ، عن إبراهيمَ ابنِ أبي عبلةَ: قدمتُ المدينةَ وبها ابنُ المسيَّبِ، وغيرُه، وقد ندَبهم عمرُ يومَئذٍ رأيًا.

وقال ابنُ وهبٍ: حدَّثني الليثُ، حدَّثني قادمٌ البربريُّ أنه ذاكَر ربيعةَ بنَ أبي عبدِ الرحمنِ شيئًا من قضايا عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ إذ كان بالمدينةِ، فقال له ربيعةُ: كأنَّك تقولُ: أخطَأَ. والذي نفسي بيدِه ما أخطَأَ قطُّ. وثبَت من غيرِ وجهٍ عن أنسِ بنِ مالكٍ، قال: ما صلَّيتُ وراءَ إمامٍ أشبهَ صلاةً برسولِ اللهِ ﷺ من هذا الفتىٰ - يعني عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ حين كان علىٰ المدينةِ.

قالوا: وكان يتمُّ الركوعَ والسجودَ، ويخفِّفُ القيامَ والقعودَ، وفي روايةٍ صحيحةٍ: أنَّه كان يُسبِّحُ في الركوعِ والسجودِ عشْرًا عشْرًا. وقال ابنُ وهبٍ: حدَّثني الليثُ، عن أبي النضرِ المدينيِّ، قال:

لقيتُ سليمانَ بنَ يسارٍ خارجًا من عند عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فقلتُ له: من عندِ عمرَ خرجتَ؟ قال: نعم. قلتُ: تُعلِّمونه؟ قال: نعم، فقلتُ: هو والله أعلمُكم. وقال مجاهدٌ: أتيناه نعلِّمُه فما برحنا حتى تعلَّمنا منه. وقال ميمونُ بنُ مهرانَ: كانت العلماءُ عندَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ تلامذةً. وفي روايةٍ؛ قال ميمونٌ: كان عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ معلِّمَ العلماء. وقال الليثُ: حدَّثني رجلٌ كان قد صحب ابنَ عمرَ وابنَ عباسٍ، وكان عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يستعملُه على الجزيرة، قال: ما التمَسنا علمَ شيءٍ إلا وجَدنا عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ أعلمَ الناسِ بأصله وفرعه، وما كان العلماءُ عندَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ إلا تلامذةً.

وقال عبدُ الله بنُ طاوس: رأيتُ أبي تواقَفَ هو وعمرُ بنُ عبدِ العزيزِ من بعدِ صلاةِ العشاءِ حتى أصبَحنا، فلمَّا افترَقَا، قلتُ: يا أبه، مَن هذا الرجلُ؟ قال: هذا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، وهو من صالحي هذا البيت، يعني بني أُميَّةَ. وقال عبدُ الله بنُ كثيرٍ: قلتُ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ: ما كان بدْءُ إنابتِكَ؟ قال: أرَدتُ ضربَ غلامٍ لي، فقال لي: اذكُرْ ليلةً صبيحتُها يومُ القيامةِ.

وقال الإمامُ مالكٌ: لمَّا عزل عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ عن المدينة - يعني في سنة ثلاثٍ وتسعين - وخرَج منها التفَت إليها وبكَى، وقال لمولاه: يا مزاحمُ، نخشى أن نكونَ ممَّن نفَتِ المدينةُ. يعني أنَّ المدينةَ تنفي خبثَها كما ينفي الكيرُ خبثَ الحديدِ، وتنصَعُ طيبَها.

قلتُ: خرَج من المدينةِ، فنزَل بمكانٍ قريبٍ منها يقالُ له: السويداءُ. حينًا، ثم قدِم دمشقَ على بني عمِّه.

قال محمدُ بنُ إسحاقَ، عن إسماعيلَ ابنِ أبي حكيمٍ، قال: سمعتُ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ، يقولُ: خرَجتُ من المدينة وما من رجلٍ أعلمَ منِّي، فلمَّا قدمتُ الشامَ نسيتُ.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا عفَّانُ، ثنا حمادُ بنُ زيدٍ، عن معمرٍ، عن الزهريِّ، قال: سهرتُ مع عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ذاتَ ليلةٍ فحدَّثْتُه، فقال: كلُّ ما حدَّثتَ فقد سمعتُه، ولكن حفظتَ ونسيتُ.

وقال ابنُ وهبٍ، عن الليثِ، عن عقيلٍ، عن الزهريِّ، قال: قال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ: بعَث إليَّ الوليدُ ذاتَ ساعةٍ منَ الظهيرة، فدخَلتُ عليه فإذا هو عابسٌ، فأشار إليَّ أن اجلسْ، فجلَستُ بينَ يدَيه، فقال: ما تقولُ فيمَن يسُبُّ الخلفاءَ، أيُقتَلُ؟ فسكَتُّ، ثم عاد، فسكَتُّ، ثم عاد، فقلتُ: أَقَتَل يا أميرَ المؤمنين؟ قال: لا، ولكن سَبَّ. فقلتُ: ينكَّلُ به، فغضب وانصرَف إلى أهله، وقال لي ابنُ الريانِ السيافُ: اذهَبْ. قال: فخرَجتُ من عنده، ما تهُبُّ ريحٌ إلاَّ وأنا أظُنُّ أنَّه رسولٌ يردُّني إليه[1].

وقال عثمانُ بنُ زُفَرَ: أقبَل سليمانُ بنُ عبدِ الملك، وهو أميرُ المؤمنين، ومعه عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ على معسكَرِ سليمانَ، وفيه تلك الخيولُ والجمالُ والبغالُ والأثقالُ والرجالُ، فقال سليمانُ: ما تقولُ يا عمرُ في هذا؟ فقال: أرَىٰ دنيا يأكُلُ بعضُها بعضًا، وأنت المسئولُ عن ذلك كلِّه. فلمَّا اقترَبوا من المعسكرِ، إذا غرابٌ قد أخَذ لقمةً في فِيه من فسطاطِ سليمانَ وهو طائرٌ بها، ونعَب نَعبةً، فقال له سليمانُ: ما تقولُ في هذا يا

(١) ما برز من الإسناد صحيح إلى عمر بن عبد العزيز.

عمرُ؟ فقال: لا أدري. فقال: ما ظنُّك أنَّه يقولُ؟ قال: كأنَّه يقولُ: من أين جاءتْ؟ وأين يُذهَبُ بها؟ فقال له سليمانُ: ما أعجبَكَ؟ فقال: عمرُ: أعجَبُ منِّي مَن عرَفَ اللهَ فعصاه، ومَن عرَفَ الشيطانَ فأطاعه.

وتقدَّم أنَّه لما وقَفَ سليمانُ وعمرُ بعرفةَ، وجعَلَ سليمانُ يعجَبُ من كثرةِ الناسِ، فقال له عمرُ: هؤلاءِ رعيَّتُك اليومَ، وأنت مسئولٌ عنهم غدًا. وفي روايةٍ: وهم خصماؤُك يومَ القيامةِ. فبكَىٰ سليمانُ، وقال: باللهِ أستعينُ. وتقدَّم أنَّهم لمَّا أصابهم في بعضِ الأسفارِ رعدٌ شديدٌ وبرقٌ وظلمةٌ شديدةٌ، فجعَلَ عمرُ يضحكُ من ذلك، فقال له سليمانُ: أتضحَكُ ونحن فيما ترَىٰ؟ فقال: نعم، هذه آثارُ رحمتِه، ونحن في هذه الحالِ، فكيف بآثارِ غضبِه وعقابِه؟

وذكَرَ الإمامُ مالكٌ أن سليمانَ وعمرَ تقاولا مرةً، فقال له سليمانُ في جملةِ الكلامِ: كذَبتَ. فقال: تقولُ لي: كذَبتَ؟ واللهِ ما كذَبتُ منذُ عرَفتُ أن الكذبَ يضُرُّ أهلَه، ثم هجَرَه عمرُ وعزَم على الرحيلِ إلىٰ مصرَ، فلم يمكِّنه سليمانُ، ثم بعَث إليه فصالَحَه، وقال له: ما عرَض لي أمرٌ يهُمُّني إلا خطَرتَ علىٰ بالي. وقد ذكَرنا أنَّه لما حضَرَت سليمانَ بنَ عبدِ الملكِ الوفاةُ، أوصَىٰ بالأمرِ من بعدِه إلىٰ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فانتظَم الأمرُ علىٰ ذلك، ولله الحمدُ.

فصلٌ

قال أبو داودَ الطيالسيُّ: حدَّثنا عبدُ العزيزِ بنُ عبدِ اللهِ ابنِ أبي سلَمةَ الماجشونُ، ثنا عبدُ اللهِ بنُ دينارٍ، قال: قال ابنُ عمرَ: يا عجبًا! يزعُمُ الناسُ أنَّ الدنيا لا تنقضي حتىٰ يليَ رجلٌ من آلِ عمرَ يعمَلُ بمثلِ عملِ عمرَ. قال: فكانوا يرونه بلالَ بنَ عبدِ اللهِ بنِ عمرَ. قال: وكان بوجهِه أثرٌ، فلم يكُنْ هو، وإذا هو عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، وأمُّه ابنةُ عاصمِ بنِ عمرَ بنِ الخطابِ[1].

وقال البيهقيُّ: أنبأ الحاكمُ، أنا أبو حامدٍ أحمدُ بنُ عليٍّ المقري، ثنا أبو عيسىٰ الترمذيُّ، ثنا أحمدُ ابنُ إبراهيمَ، ثنا عفَّانُ بنُ مسلمٍ، ثنا عثمانُ بنُ عبدِ الحميدِ بنِ لاحقٍ، عن جويريةَ بنِ أسماءَ، عن نافعٍ، قال: بلَغَنا أن عمرَ بنَ الخطابِ، قال: إن من ولدِي رجلاً بوجهِه شَيْنٌ يَلِي، فيملأُ الأرضَ عدلاً[2].

قال نافعٌ من قبَلِه: ولا أحسبُه إلاَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ.

ورَواه مباركُ بنُ فَضالةَ، عن عبيدِ اللهِ، عن نافعٍ، قال: كان ابنُ عمرَ يقولُ: ليت شعري، مَن هذا الذي من ولدِ عمرَ في وجهِه علامةٌ يملأُ الأرضَ عدلاً؟ وقال وُهيبُ بنُ الوردِ: بينَما أنا نائمٌ، رأيتُ كأنَّ رجلاً دخَلَ من بابِ بني شيبةَ، وهو يقولُ: يا أيُّها الناسُ، ولِّي عليكم كتابُ اللهِ. فقلتُ: مَن؟ فأشار إلىٰ ظَهرِه، فإذا مكتوبٌ عليه: ع م ر. قال: فجاءتْ بيعةُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ. وقال بقيَّةُ،

(١) ما يبرز من إسناده صحيح إلىٰ ابن عمر.

(٢) ما برز من إسناده منقطع فإن نافعًا لم يسمع من عثمان فكيف يسمع من عمر؟ انظر «جامع التحصيل» ص ٢٩٠ وله طريق آخر سيورده المؤلف عن ابن عمر ولكن فيه مبارك بن فضالة وهو مدلس.

عن عيسى بن أبي رَزين، حدَّثني الخزاعيُّ، عن عمرَ بن عبدِ العزيزِ أنَّه رأى رسولَ الله ﷺ في روضةٍ خضراءَ، فقال له: «إنَّك ستَلي أمرَ أمَّتي فزَعْ عن الدَّم، فإنَّ اسمَك في الناسِ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، واسمُك عندَ الله جابرٌ»[1].

وقال أبو بكرِ بنُ المقري: ثنا أبو عَروبةَ الحسينُ بنُ محمدِ بنِ مودودٍ الحرَّانيُّ، ثنا أيوبُ بنُ محمدٍ الوزَّانُ، ثنا ضَمْرَةُ بنُ ربيعةَ، ثنا السَّريُّ بنُ يحيى، عن رباحِ بنِ عبيدةَ، قال: خرجَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى الصلاةِ، وشيخٌ متوكِّئٌ على يدِه، فقلتُ في نفسي: إنَّ هذا الشيخَ جافٍ، فلمَّا صلَّى ودخَل لحقتُه، فقلتُ: أصلَح اللهُ الأميرَ، مَن الشيخُ الذي كان متكئًا على يدك؟ فقال: يا رباحُ رأيتَه؟ قلتُ: نعم. قال: ما أحسَبُك يا رباحُ إلا رجلاً صالحًا، ذاك أخي الخَضِرُ، أتاني فأعلَمني أنِّي سألي أمرَ هذه الأمَّةِ، وأنِّي سأعدلُ فيها.

وقال يعقوبُ بنُ سفيانَ: حدَّثنا أبو عميرٍ، ثنا ضمرةُ، عن عليِّ ابنِ أبي حَمَلَةَ، عن أبي الأعْيَسِ، قال: كنتُ جالسًا مع خالدِ بنِ يزيدَ بنِ معاويةَ، فجاء شابٌّ عليه مُقَطَّعاتٌ، فأخذ بيدِ خالدٍ، فقال: هل علينا من عينٍ؟ فقال أبو الأعْيَسِ: فقلتُ: عليكُما من اللهِ عينٌ بصيرةٌ وأذنٌ سميعةٌ، قال: فترَقْرَقتْ عينا الفتى. فأرسَل يدَه من يدِ خالدٍ وولَّى، فقلتُ: مَن هذا؟ قال: هذا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، ابنُ أخي أميرِ المؤمنين، ولَئن طالتْ بك حياةٌ لترَيَنَّه إمامَ هدًى. قلتُ: قد كان عندَ خالدِ بنِ يزيدَ بنِ معاويةَ شيءٌ جيِّدٌ من أخبارِ الأوائلِ وأقوالِهم.

وقد ذكَرنا في ترجمةِ سليمانَ بنِ عبدِ الملك أنَّه لمَّا حضَرتْه الوفاةُ عزَم أن يكتبَ العهدَ باسمِ أحدِ أولادِه، فما زال به وزيرُه الصَّادقُ رجاءُ بنُ حيوةَ حتى صرفَه عن ذلك، وأشار عليه أن يجعَلَ الأمرَ من بعدِه لأصلحِ النَّاسِ لهم، فألهمَ اللهُ الخليفةَ رشدَه، فعيَّن لها ابنَ عمِّه عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ فجوَّد رأيَه رجاءُ بنُ حيوةَ وصوَّبه، فكتَب سليمانُ العهدَ في صحيفةٍ، وختَمها، ولم يشعُرْ بذلك عمرُ، ولا أحدٌ من بني مَروانَ سوى سليمانَ ورجاءٍ، ثم أمَر صاحبَ الشرطةِ بإحضارِ الأمراءِ، ورءوسِ الناسِ من بني مروانَ وغيرِهم، فبايَعوا سليمانَ على ما في الصحيفةِ المختومةِ، ثم انصرَفوا، ثم لمَّا مات الخليفةُ استَدعاهم رجاءُ بنُ حيوةَ، فبايَعوا ثانيةً، قبلَ أن يعلَموا موتَ الخليفةِ، ثم فتَحها فقرَأها عليهم، فإذا فيها البيعةُ لعمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فأخَذوه فأجلَسوه على المنبرِ وبايَعوه، فانعقَدتْ له البيعةُ.

وقد اختَلف العلماءُ في مثلِ هذا الصَّنيعِ في الرَّجلِ يوصي الوصيةَ في كتابٍ ويُشهِدُ على ما فيه من غيرِ أن يُقرأَ على الشُّهودِ، ثم يشهَدون على ما فيه فينفُذُ، فسوَّغ ذلك جماعاتٌ من أهلِ العلمِ؛ قال القاضي أبو الفرجِ المعافَى بنُ زكريا الجريريُّ: أجاز ذلك وأمضاه وأنفَذ الحُكمَ به جمهورُ أهلِ الحجازِ.

---

(1) في إسناده بقية بن الوليد وهو مدلس يدلس تدليس التسوية.

ورُوِي ذلك عن سالمِ بنِ عبدِ اللهِ، وهو مذهبُ مالكٍ، ومحمدِ بنِ مسلمةَ المخزوميِّ، ومكحولٍ، ونُميرِ بنِ أوسٍ، وزرعةَ بنِ إبراهيمَ، والأوزاعيِّ، وسعيدِ بنِ عبدِ العزيزِ، ومَن وافقهم مِن فقهاءِ الشَّامِ.

وحكَى نحوَ ذلك خالدُ بنُ يزيدَ ابنِ أبي مالكٍ، عن أبيه وقضاةِ جندِه، وهو قولُ الليثِ بنِ سعدٍ في مَن وافقَه مِن فقهاءِ أهلِ مصرَ والمغربِ، وهو قولُ فقهاءِ أهلِ البصرةِ وقضاتِهم.

ورُوِي عن قتادةَ، وعن سوَّارِ بنِ عبدِ اللهِ، وعبيدِ اللهِ بنِ الحسينِ، ومُعاذِ ابنِ مُعاذٍ العنبريِّ في مَن سلَك سبيلَهم، وأخَذ بهذا عددٌ كثيرٌ مِن أصحابِ الحديثِ، منهم؛ أبو عبيدٍ، وإسحاقُ بنُ راهويه.

قلتُ: وقد اعتنَى به البخاريُّ في «صحيحه».

قال المعافَى: وأبَى ذلك جماعةٌ مِن فقهاءِ العراقِ، منهم؛ إبراهيمُ، وحمَّادٌ، والحسنُ، وهو مذهبُ الشَّافعيِّ، وأبي ثورٍ. قال: وهو قولُ شيخِنا أبي جعفرٍ، وكان بعضُ أصحابِ الشافعيِّ بالعراقِ يذهَبُ إلى القولِ الأوَّلِ. قال الجريريُّ: وإلى القولِ الأولِ نذهَبُ.

وتقدَّم أن عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ لمَّا رجَع مِن جنازةِ سليمانَ أُتِيَ بمراكبِ الخلافةِ ليركَبَها، فامتَنع مِن ذلك، وأنشَأ يقولُ:

فلولا التُّقَى ثم النُّهَى خشيةَ الرَّدَى ... لعاصيتُ في حُبِّ الصِّبا كلَّ زاجرِ
قضَى ما قضَى فيما مضَى ثم لا تُرَى ... له صبوةٌ أخرَى الليالي الغوابرِ

ثم قال: ما شاء اللهُ لا قوةَ إلا باللهِ، قدِّموا إليَّ بغلتي. ثم أمَر ببيعِ تلك المراكبِ الخليفيةِ في مَن يزيدُ، وكانت مِن الخيولِ الجيادِ المثمَّنةِ، فباعَها، وجعَل أثمانَها في بيتِ المالِ.

قالوا: فلما رجَع مِنَ الجنازةِ، وقد بايَعه الناسُ، واستقرَّتْ الخلافةُ باسمِه، انقلَب وهو مغتَمٌّ مهمومٌ، فقال له مولاه: ما لك هكذا مغتمًّا مهمومًا، وليس هذا بوقتِ هذا؟ فقال: ويحك! وما لي لا أغتمُّ، وليس أحدٌ مِن أهلِ المشارقِ والمغاربِ مِن هذه الأمةِ إلا وهو يطالبُني بحقِّه؛ أن أؤدِّيَه إليه، كتَب إليَّ في ذلك أو لم يكتُبْ، طلَبه منِّي أو لم يطلُبْ. قالوا: ثم إنَّه خيَّر امرأتَه فاطمةَ بينَ أن تُقيمَ معه على أنَّه لا فراغَ له إليها، وبينَ أن تلحَقَ بأهلِها، فبكَتْ وبكَى جواريها لبكائِها، فسُمِعتْ ضجةٌ في دارِه، ثم اختارتْ مقامَها معه على كلِّ حالٍ، رحِمها اللهُ. وقال له رجلٌ: تفرَّغْ لنا يا أميرَ المؤمنين. فأنشَأ يقولُ:

قد جاءَ شغلٌ شاغلٌ ... وعدَلتُ عن طرقِ السَّلامهْ
ذهَب الفراغُ فلا فرا ... غَ لنا إلى يومِ القيامهْ

وقال الزبيرُ بنُ بكارٍ: حدَّثني محمدُ بنُ سلامٍ، عن سلاَّمِ بنِ سُلَيمٍ، قال: لمَّا ولِي عمرُ بنُ عبدِالعزيزِ صعِد المنبرَ، وكان أوَّلَ خطبةٍ خطَبها حمِد اللهَ، وأثنَى عليه، ثم قال: أيُّها الناسُ، مَن صحِبنا

فليَصحبْنا بخمس، وإلا فليُفارقْنا؛ يرفعُ إلينا حاجةَ مَنْ لا يستطيعُ رفعَها، ويعينُنا على الخيرِ بجهدِه، ويدلُّنا من الخيرِ على مالا نهتَدي إليه، ولا يغتابَنَّ عندَنا الرعيةَ، ولا يَعرِضنَّ فيما لا يَعنيه. فانقشَع عنه الشعراءُ والخطباءُ، وثبَت معه الفقهاءُ والزهادُ، وقالوا: ما يسعُنا أن نفارقَ هذا الرجلَ حتى يخالفَ فعلُه قولَه.

وقال سفيانُ بنُ عيينةَ: لما ولي عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ بعَث إلى محمدِ بنِ كعبٍ ورجاءِ بنِ حيوةَ وسالمِ بنِ عبدِ الله، فقال لهم: قد ترون ما ابتُليتُ به وما قد نزَل بي، فما عندَكم؟ فقال محمدُ بنُ كعب: اجعلِ الشيخَ أبًا، والشابَّ أخًا، والصغيرَ ولدًا، فبَرَّ أباك، وصِلْ أخاك، وتَعطَّفْ على ولدك. وقال رجاءٌ: ارضَ للناسِ ما ترضَى لنفسك، وما كرهتَ أن يُؤتَى إليك فلا تأته إليهم، واعلمْ أنَّك أوَّلُ خليفةٍ تموتُ. وقال سالمٌ: اجعلِ الأمرَ يومًا واحدًا صُمْ فيه عن شهواتِ الدنيا، واجعلْ آخرَ فطرِك فيه الموتَ، فكأنْ قد. فقال عمر: لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله.

وقال غيرُه: خطَب عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يومًا الناسَ فقال، وقد خنَقَتْه العَبْرةُ: أيُّها الناسُ، أصلحوا آخرتَكم تصلُحْ لكم دنياكُم، وأصلحوا سرائرَكم تصلُحْ لكم علانيتُكم، واللهِ إنَّ عبدًا ليس بينَه وبينَ آدمَ أبٌ، إلا قد مات، إنه لمُعْرَقٌ له في الموت. وقال في بعضِ خطبِه: كم من عامرٍ مؤنَّقٍ عمَّا قليلٍ يخرَبُ، وكم من مقيمٍ مغتبطٍ عمَّا قليلٍ يظعَنُ، فأحسنوا، رحِمكم اللهُ، من الدُّنيا الرحلةَ بأحسنِ ما بحضرتِكم من النقلةِ، بينما ابنُ آدمَ في الدنيا ينافسُ فيها قريرَ العينِ قانعًا، إذ دعاه اللهُ بقدَرِه، ورماه بيومِ حتفِه، فسلَبه آثارَه ودنياه، وصيَّرَ لقومٍ آخرين مصانعَه ومغناه، إنَّ الدنيا لا تسرُّ بقدرِ ما تضرُّ، تسرُّ قليلاً، وتُحزِنُ طويلاً.

وقال إسماعيلُ بنُ عياش، عن عمرِو بنِ مُهاجرٍ، قال: لَمَّا استُخلف عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ قام في الناسِ، فحمِد اللهَ وأثنَى عليه، ثم قال: أيُّها الناسُ، إنَّه لا كتابَ بعدَ القرآنِ، ولا نبيَّ بعدَ محمدٍ، عليه السلامُ، وإنِّي لستُ بقاضٍ ولكنِّي منفِّذٌ، وإنِّي لستُ بمبتدعٍ ولكنِّي متبعٌ، إنَّ الرجلَ الهاربَ من الإمامِ الظَّالمِ ليس بظالمٍ، ألا إنَّ الإمامَ الظَّالمَ هو العاصي، ألا لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الخالقِ عزَّ وجلَّ. وفي روايةٍ أنَّه قال فيها: وإنِّي لستُ بخيرٍ من أحدٍ منكم ولكنِّي أثقَلُكم حملاً، ألا لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الله، ألا هل أسمَعتُ؟

وقال أحمدُ بنُ مروانَ: ثنا أحمدُ بنُ يحيى الحلوانيُّ، ثنا محمدُ بنُ عبيدٍ، ثنا إسحاقُ بنُ سليمانَ، عن شعيبِ بنِ صفوانَ، حدَّثني ابنٌ لسعيدِ بنِ العاصِ، قال: كان آخرَ خطبةٍ خطَبها عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، حمد اللهَ وأثنى عليه، ثم قال: أمَّا بعدُ فإنَّكم لم تُخلَقوا عبثًا، ولن تُتْرَكوا سدًى، وإنَّ لكم مَعادًا ينزِلُ اللهُ فيه للحكمِ فيكم والفصلِ بينكم، فخاب وخسِر مَن خرَج من رحمةِ الله، وحُرِم جنةً عرضُها السمواتُ والأرضُ، ألم تعلَموا أنَّه لا يأمَنُ غدًا إلاَّ مَن حذِر اليومَ الآخرَ وخافَه، وباع

نافدًا بباقٍ، وقليلاً بكثيرٍ، وخوفًا بأمانٍ؟ ألا ترَون أنّكم في أسلاب الهالكينَ، وستكونُ من بعدكُم للباقينَ، كذلك حتى نُرَدَّ إلى خيرِ الوارثينَ؟ ثم إنّكم في كلِّ يومٍ تُشيّعون غاديًا ورائحًا إلى الله، قد قضَى نَحْبَه حتى تُغيِّبوه في صَدعٍ من الأرضِ، في بطنِ صَدعٍ غيرَ مُوسَّدٍ ولا مُمَهَّدٍ، قد فارَق الأحبابَ، وباشَر الترابَ، وواجَه الحسابَ، فهو مُرتهَنٌ بعمله، غنيٌّ عمَّا ترَك، فقيرٌ إلى ما قدَّم، فاتَّقوا اللهَ، قبلَ انقضاءِ مراقبتِه ونزولِ الموتِ بكم؛ أما إنِّي أقولُ هذا. ثم وضَع طرفَ ردائه على وجهِه فبكَى وأبكَى مَن حولَه. وفي روايةٍ: وايمُ الله إنِّي لأقولُ قولي هذا، وما أعلَمُ عندَ أحدٍ منكم من الذنوبِ أكثرَ مما أعلَمُ من نفسي، ولكنها سننٌ من الله عادلةٌ؛ أمَر فيها بطاعته، ونهَى فيها عن معصيته. واستغفَر اللهَ، ووضَع كمَّه على وجهِه فبكَى حتى بلَّ لحيتَه، فما عاد لمجلسه حتى مات رحمه اللهُ.

وروَى أبو بكرِ بنُ أبي الدنيا، عن عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ أنَّه رأَى رسولَ الله ﷺ في النومِ، وهو يقولُ: «ادنُ يا عمرُ». قال: فدنوتُ حتى خشيتُ أن أصيبَه، فقال: «إذا وُلِّيتَ فاعمَلْ نحوًا من عملِ هذينِ». وإذا كهلانِ قد اكتنَفاه، فقلتُ: ومَن هذان؟ قال: «هذا أبو بكرٍ، وهذا عمرُ». ورُوِّينا أنه قال لسالمِ بنِ عبدِ الله بنِ عمرَ: اكتُبْ ليَ سيرةَ عمرَ حتى أعمَلَ بها، فقال له سالمٌ: إنَّك: لا تستطيعُ ذلك. قال: ولِمَ؟ قال: إنَّك إنْ عملتَ بها كنتَ أفضلَ من عمرَ؛ لأنَّه كان يجدُ على الخيرِ أعوانًا، وأنت لا تجدُ مَن يعينُك على الخيرِ.

وقد رُوِي أنَّه كان نقشُ خاتَمه: لا إلهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له. وفي روايةٍ: آمنتُ بالله وفي روايةٍ: الوفاءُ عزيزٌ. وقد جمَع يومًا رءُوسَ الناسِ فخطَبهم، فقال: إنَّ فَدَكَ كانت بيدِ رسولِ الله ﷺ يضعُها حيث أراه اللهُ، ثم وليَها أبو بكرٍ، وعمرُ كذلك. قال الأصمعيُّ: وما أدري ما قال في عثمانَ. قال: ثم إنَّ مروانَ أقْطَعها فحصَل لي منها نصيبٌ، ووهبَني الوليدُ وسليمانُ نصيبَهما، ولم يكن من مالي شيءٌ أردَّ عليَّ منها، وقد رَددتُها في بيتِ المالِ على ما كانتْ عليه في زمانِ رسولِ الله ﷺ. قال: فيئس الناسُ عندَ ذلك من المظالمِ، ثم أخَذ أموالَ جماعةٍ من بني أميةَ فردَّها إلى بيتِ المالِ، وسمَّاها أموالَ المظالمِ، فاستشفعُوا إليه بالنَّاسِ، وتوسَّلوا إليه بعمَّتِه فاطمةَ بنتِ مروانَ فلم ينجَعْ فيه ولم يرُدَّه عن الحقِّ شيٌ، وقال لهم: والله لتدعُنِّي، وإلا ذهَبتُ إلى مكةَ فنزَلتُ عن هذا الأمرِ لأحقِّ الناسِ به. وقال: والله لو أقمتُ فيكم خمسين عامًا ما أقمتُ فيكم ما أريدُ من العدلِ، وإنِّي لأريدُ الأمرَ فما أنفذُه إلا مع طمَعٍ من الدُّنيا حتى تسكُنَ قلوبُهم.

وقال الإمامُ أحمدُ، عن عبدِ الرَّزاقِ، عن أبيه، عن وهبِ بنِ مُنَبِّهٍ، أنَّه قال: إنْ كان في هذه الأُمَّة مهديٌّ فهو عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ. ونحوَ هذا قال قتادةُ، وسعيدُ بنُ المسيَّبِ، وغيرُ واحدٍ. وقال طاوسٌ: هو مهديٌّ وليس به، إنَّه لم يستكمِل العدلَ كلَّه، إذا كان المهديُّ تِيبَ على المسيءِ من

إساءته، وزيدَ المحسنُ في إحسانه، سمحٌ بالمال، شديدٌ على العمّال، رحيمٌ بالمساكين. وقال مالكٌ، عن عبد الرحمن بن حرملة، عن سعيد بن المسيَّب أنَّه قال: الخلفاءُ، أبو بكر والعُمران. فقيل له: أبو بكر وعمرُ قد عرفناهما، فمَن عمرُ الآخر؟ قال: يوشكُ إن عشتَ أن تعرفه. يريدُ عمرَ بنَ عبد العزيز. وفي رواية أخرى عنه أنه قال: هو أشجُّ بني مروانَ. وقال عبادٌ السَّماكُ - وكان يجالسُ سفيانَ الثوريَّ -: سمعتُ الثوريَّ يقولُ: الخلفاءُ خمسةٌ؛ أبو بكر، وعمرُ، وعثمانُ، وعليٌّ، وعمرُ ابنُ عبد العزيز. وهكذا رُوي عن أبي بكر بن عيَّاش، والشافعيِّ، وغير واحد. وأجمع العلماءُ قاطبةً على أنَّه من أئمة العدل، وأحدُ الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين. وذكره غيرُ واحد في الأئمة الاثنَيْ عشرَ، الذين جاءَ فيهم الحديثُ الصحيحُ: **«لا يزالُ أمرُ هذه الأمة مستقيمًا حتى يكون فيهم اثنا عشرَ خليفة كلُّهم من قريش»**.

وقد اجتهد رحمه اللهُ في مدَّة ولايته - مع قصَرِها - حتى ردَّ المظالمَ، وصرَف إلى كلِّ ذي حقٍّ حقه، وكان مناديه في كلِّ يوم ينادي: أين الغارمون؟ أين الناكحون؟ أين المساكينُ؟ أين اليتامى؟ حتى أغنَى كلاً من هؤلاء. وقد اختلف العلماءُ أيُّهما أفضلُ هو أو معاويةُ بنُ أبي سفيانَ؟ ففضَّل بعضهم عمر لسيرته ومَعْدلته وزهده وعبادته، وفضَّل آخرونَ معاويةَ لسابقته وصحبته، حتى قال بعضُهم: لَيومٌ شهِدَه معاويةُ مِن رسول الله ﷺ خيرٌ من عمرَ بن عبد العزيز، وأيامه، وأهلِ بيته.

وذكر الحافظ ابنُ عساكر في «تاريخه» أنَّ عمرَ بنَ عبد العزيز كان يعجبُه جاريةٌ من جواري زوجته فاطمةَ بنت عبد الملك، فكان يسألُها إيَّاها؛ إمَّا بيعًا أو هبةً، فكانت تأبى عليه ذلك، فلمَّا ولي الخلافةَ ألبَستْها وطيَّبَتْها وأهدَتْها إليه ووهَبتها له، فلمَّا أخلَتها به أعرَض عنها، فتعرَّضَت له فصدَف عنها، فقالت له: يا سيدي، فأين ما كان يظهرُ لي من محبَّتك إيَّاي؟ فقال: والله إنَّ محبَّتَك لباقيةٌ كما هي، ولكن لا حاجةَ لي في النساء، فقد جاءني أمرٌ شغَلني عنك، وعن غيرك. ثم سألَها عن أصلها، ومن أين جلَبوها، فقالت: يا أميرَ المؤمنين إنَّ أبي أصاب جنايةً ببلاد المغرب، فصادَره موسى بنُ نصير فأُخذْت في الجناية، وبُعث بي إلى الوليد فوهَبني الوليدُ لأخته فاطمةَ زوجتك، فأهدَتني إليك. فقال عمرُ: إنَّا لله وإنَّا إليه راجعون، كدْنا والله نفتضحُ ونهلكُ، ثمَّ أمر بردِّها مكرَّمةً إلى بلادها وأهلِها.

وقالت زوجتُه فاطمةُ: دخَلتُ يومًا عليه وهو جالسٌ في مصلاه واضعًا خدَّه على يده، ودموعُه تسيلُ على خدَّيه، فقلتُ: ما لك؟ فقال: ويحك يا فاطمةُ، إنِّي قد ولِّيتُ من أمر هذه الأمة ما ولِّيتُ، فتفكَّرتُ في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود، واليتيم المكسور، والأرملة الوحيدة، والمظلوم المقهور، والغريب، والأسير، والشيخ الكبير، وذي العيال الكثير والمال القليل، وأشباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعلمتُ أنَّ ربِّي عزَّ وجلَّ سيسألُني عنهم يومَ القيامة، وأنَّ خَصمي دونَهم محمدٌ ﷺ، فخشيتُ أنْ لا يثبُتَ لي حُجةٌ عندَ خصومته، فرحِمتُ نفسي

فبكيتُ. وقال ميمونُ بنُ مهرانَ: ولأني عمر بنُ عبدِ العزيزِ عمالةً، ثم قال لي: إذا جاءَك كتابٌ منِّي على غيرِ الحقِّ فاضربْ به الأرضَ. وكتَب إلىٰ بعضِ عمّاله: إذا دعَتك قدرتُك على الناسِ إلىٰ ظلمِهم، فاذكُرْ قدرةَ الله عليك، ونفادَ ما تأتي إليهم، وبقاءَ ما يأتون إليك. وقال عبدُ الرحمنِ بنُ مهديٍّ، عن جريرِ بنِ حازمٍ، عن عيسىٰ بنِ عاصمٍ، قال: كتَب عمر بنُ عبدِ العزيزِ إلىٰ عديِّ بنِ عديٍّ: إنَّ للإسلامِ سُنَنًا وشرائعَ وفرائضَ، فمَن استكملها استكمَل الإيمانَ، ومَن لم يستكملْها لم يستكملِ الإيمانَ، فإنْ أعِشْ أُبيِّنْها لكم لتعملوا بها، وإن أمُتْ فوالله ما أنا على صحبتِكم بحريصٍ. وذكَره البخاريُّ في «صحيحه» تعليقًا مجزومًا به.

وذكَر الصُّوليُّ أنَّ عمرَ كتَب إلىٰ بعضِ عمّاله: عليكَ بتقوىٰ الله فإنَّها هي التي لا يُقبَلُ غيرُها، ولا يُرحمُ إلا أهلُها، ولا يُثابُ إلا عليها، وإنَّ الواعظينَ بها كثيرٌ، والعاملين بها قليلٌ. **وقال أيضًا:** من علِم أنَّ كلامَه من عمله أقلَّ منه إلا فيما ينفعُه، ومَنْ أكثَر ذكر الموت اجتزأَ من الدنيا باليسيرِ. وقال أيضًا: مَن لم يعُدَّ كلامَه من عملِه كثُرت خطاياه، ومَن عبَد الله بغيرِ علمٍ كان ما يُفسدُه أكثرَ مما يصلِحُه. وكلَّمه رجلٌ يومًا حتىٰ أغضَبه فهمَّ به عمرُ ثم أمسَك نفسَه، ثم قال للرجلِ: أردتَ أنْ يَستفزَّني الشيطانُ بعزةِ السُّلطانِ فأنالَ منك ما تنالُه منِّي غدًا! قمْ عافاك اللهُ، لا حاجةَ لنا في مقاولتِك. وكان يقولُ: إنَّ أحبَّ الأمورِ إلىٰ الله القصدُ في الجِدِّ، والعفوُ في المقدرةِ، والرفقُ في الولايةِ، وما رفَق عبدٌ بعبدٍ في الدُّنيا إلا رفَق اللهُ به يومَ القيامة.

وخرَج ابنٌ له وهو صغيرٌ يلعَبُ مع الغلمانِ فشجَّه صبيٌّ منهم، فاحتملوا الصبيَّ الذي شجَّ ابنَه وجاءُوا به إلىٰ عمرَ، فسمع الجَلَبةَ فخرَج إليهم، فإذا مُرَيْئةٌ تقولُ: إنَّه ابني، وإنه يتيمٌ. فقال لها عمرُ: ألَه عطاءٌ في الديوان؟ قالت: لا، قال: فاكتبوه في الذُّرية. فقالت زوجتُه فاطمةُ: فعَل اللهُ به وفعَل، إن لم يشجَّ ابنَك ثانيةً. فقال: ويحَك، إنكم أفزَعتُموه.

وقال مالكُ بنُ دينار: يقولون: مالكٌ زاهدٌ. أيُّ زهدٍ عندي! إنما الزاهدُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، أتته الدنيا فاغرةً فاها فتركَها. قالوا: ولم يكنْ له سوىٰ قميصٍ واحدٍ فكان إذا غسَلوه جلَس في المنزلِ حتىٰ ييبَسَ. وقد وقَف مرَّةً على راهبٍ، فقال له: ويحَكَ عظْني. فقال له: عليكَ بقولِ الشاعرِ:

تجرَّدْ مِنَ الدنيا فإنَّك إنَّما ... خرَجتَ إلى الدنيا وأنتَ مُجرَّدُ

قالوا: فكان يُعجبُه ويكرِّرُه وعمِل به حقَّ العملِ.

قالوا: ودخَل على امرأتِه يومًا فسألها أن تُقرِضَه درهمًا أو فلوسًا يَشتري له بها عنبًا، فلم يجدْ عندَها شيئًا، فقالتْ له: أنت أميرُ المؤمنينَ وليس في خزانتِك ما تشتري به عنبًا؟! فقال: هذا أيسرُ من معالجةِ الأغلالِ والأنكالِ غدًا في نارِ جهنَّمَ.

قالوا: كان سراجُ بيتِه على ثلاثِ قصَباتٍ في رأسِهنَّ طينٌ. قالوا: وبعَث يومًا غلامَه ليشويَ له

لحمةً فجاءَه بها سريعًا مشويَّةً، فقال: أينَ شويَتَها؟ قال: في المَطْبخ. فقال: في مَطْبخ المسلمينَ؟ قال: نعم. فقال: كُلْها فإنِّي لم أُرزقْها، هي رزقُك. وسخَّنوا له ماءً في المطبخ العامِّ فردَّ بدلَ ذلك بدرهمٍ حطبًا. وقالت زوجتُه: ما جامَع ولا احتلَم وهو خليفةٌ.

قالوا: وبلَغ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ عن أبي سلاَّمٍ الأسودِ أنه يُحدِّثُ عن ثوبانَ في الحوضِ، فبعَث إليه فأحضَره على البريدِ، وقال له كالمتوجِّع: ما أردْنا المشقَّةَ عليكَ يا أبا سلاَّمٍ، ولكن أردت أن تُشافهَني بالحديث مشافهةً. فقال: سمِعتُ ثوبانَ، يقولُ: قال رسولُ الله ﷺ: «**حوضي ما بينَ عَدَنَ إلى عمَّانَ البلقاء، ماؤُه أشدُّ بياضًا من اللَّبن، وأحلى من العسلِ، أكاويبه عددُ نجوم السماء، مَن شرب منه شَربةً لم يظمَأ بعدَها أبدًا، وأوَّلُ الناس ورودًا عليه فقراءُ المهاجرينَ، الشُّعْثُ رؤسًا، الدُّنسُ ثيابًا، الذين لا ينكحون المتنعِّمات، ولا تُفتَحُ لهم السُّدَدُ**»[1]. فقال عمرُ: لكنِّي نكَحتُ المتنعِّمات، فاطمةَ بنتَ عبدِ الملك، وفُتحتْ لي السُّدَدُ فلا جرَم لا أغسلُ رأسي حتى يشعَثَ، ولا ألقي ثوبي حتى يتَّسخَ.

قالوا: وكان له سراجٌ يكتُبُ عليه حوائجَه، وسراجٌ لبيتِ المال يكتُبُ عليه مصالحَ المسلمين، لا يكتُبُ على ضوئِه لنفسه حرفًا. وكان يقرأُ في المصحف كلَّ يومٍ أوَّلَ النَّهارِ، ولا يُطيلُ القراءةَ، وكان له ثلاثُمائة شُرطيٍّ، وثلاثُمائة حرسيٍّ، وأهدَى له رجلٌ من أهلِ بيته تفَّاحًا فاشتَمَّه ثم ردَّه مع الرسول، وقال له: قُلْ له: قد بلغَتْ محلَّها. فقال له رجلٌ: يا أميرَ المؤمنين، إنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقبَلُ الهديةَ، وهذا رجلٌ من أهلِ بيتِكَ. فقال: إن الهدية كانت لرسولِ الله ﷺ هديةٌ، فأمَّا نحن فهي لنا رشوةٌ.

قالوا: وكان يُوسِّعُ على عمَّاله في النفقة؛ يعطي الرجلَ منهم في الشهرِ مائةَ دينارٍ، ومائتي دينارٍ، وكان يتأوَّلُ أنهم إذا كانوا في كفايةٍ تفرَّغوا لأشغالِ المسلمين، فقالوا له: لو أنفقْتَ على عيالك كما تنفقُ على عمَّالك؟ فقال: لا أمنَعُهم حقًّا لهم، ولا أعطيهم حقَّ غيرِهم. وكان أهلُه قد بقُوا في جهدٍ عظيمٍ فاعتذَر بأنَّ معهم سلفًا كثيرًا من قبلِ ذلك، وقال يومًا لرجلٍ من ولدِ عليٍّ: إنِّي لأستحي من الله أن تقفَ ببابي ولا يؤذَنَ لك. وقال لآخَرَ منهم: إنِّي لأستحي من الله وأرغَبُ بك أن أدنِّسَك بالدنيا لمَا أكرَمكم اللهُ به. وقال أيضًا: كنَّا نحن وبنو عمِّنا بنو هاشمٍ، مرَّةً لنا ومرَّةً علينا، نلجأ إليهم ويلجَئون إلينا، حتى طلَعت شمسُ الرسالة فأكسَدت كلَّ نافقٍ، وأخرَست كلَّ منافقٍ، وأسكَتت كلَّ ناطقٍ.

وقال أحمدُ بنُ مروانَ: ثنا أبو بكرٍ أخو خطابٍ، ثنا خالدُ بنُ خداشٍ، ثنا حمادُ بنُ زيدٍ، عن موسى بنِ أعْينَ الرَّاعي - وكان يرعَى الغنَمَ لمحمدِ ابنِ أبي عُيينةَ - قال: كانت الغنمُ والأُسدُ والوحشُ ترعَى في خلافةِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ في موضعٍ واحدٍ، فعرَض لشاةٍ منها ذئبٌ، فقلتُ: إنا لله، ما

(١) إسناده ضعيف بهذا التمام كما بينته في «الفوائد النيرة في تخريج التذكرة» (٧٠١) والذي صح منه مختصراً أخرجه مسلم (٢٣٠١) وخرجته في «الفوائد» (٦٩٢).

أرى الرجلَ الصالحَ إلا قد هلَك. قال: فحسَبناه فوجَدناه قد هلَك في تلك الليلةِ. ورواه غيرُه عن حمادٍ، فقال: كان يرعَى الشاةَ بكَرْمَانَ، فذكَر نحوَه. وله شاهدٌ من وجهٍ آخرَ.

ومن دعائه: اللهمَّ، إنَّ رجالاً أطاعوك فيما أمَرتَهم، وانتهَوا عما نهَيتَهم، اللهمَّ، وإنَّ توفيقَك إيَّاهم كان قبلَ طاعتِهم إياكَ، فوَفِّقْني. ومنه: اللهمَّ، إنَّ عمرَ ليس بأهلٍ أن تنالَه رحمتُك، ولكنَّ رحمتَك أهلٌ أن تنالَ عمرَ.

وقال له رجلٌ: أبقاكَ اللهُ ما كان البقاءُ خيرًا لك. فقال: هذا شيءٌ قد فُرِغ منه، ولكن قُلْ: أحياكَ اللهُ حياةً طيبةً، وتوَفَّاكَ مع الأبرارِ. وقال له رجلٌ: كيف أصبحتَ يا أميرَ المؤمنين؟ فقال: أصبحتُ بطيئًا بطينًا، متلوِّثًا بالخطايا، أتمنَّى على اللهِ، عزَّ وجلَّ.

ودخَل عليه رجلٌ، فقال: يا أميرَ المؤمنينَ، إنَّ مَن كان قبلَك كانت الخلافةُ لهم زَيْنٌ، وأنت زَينُ الخلافةِ، وإنما مثلُك يا أميرَ المؤمنين، كما قال الشاعرُ:

وإذا الدُّرُّ زانَ حُسنَ وجوهٍ ... كانَ للدرِّ حُسنُ وجهِكَ زَيْنَا

قال: فأعرَض عنه عمرُ. وقال رجاءُ بنُ حَيْوَةَ: سمَرتُ عندَ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ ذاتَ ليلةٍ فعَشِيَ السراجُ فقلتُ: ألا أنبِّهُ هذا الغلامَ يصلِحُه؟ فقال: لا، دعْه ينامُ. فقلتُ: أفلا أقومُ أُصلِحُه؟ فقال: لا، ليس من مروءةِ الرجلِ استخدامُ ضيفِه. ثم قام بنفسِه فأصلَحه، وصبَّ فيه زيتًا، ثم جاء وقال: قمتُ وأنا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ، وجئتُ وأنا عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ. وقال: أكثِروا ذكرَ النِّعمِ فإنَّ ذكرَها شكرُها. وقال: إنه ليمنَعُني من كثرةِ الكلامِ مخافةُ المباهاةِ. وبلَغه أنَّ رجلاً من أصحابِه تُوفِّي، فجاء إلى أهلِه ليعزِّيَهم فيه، فصرَخوا في وجهِه بالبكاءِ عليه، فقال: مَهْ، إن صاحبَكم لم يكُنْ يرزُقُكم، وإن الذي يرزُقُكم حيٌّ لا يموتُ، وإنَّ صاحبَكم هذا، لم يسُدَّ شيئًا من حُفَرِكم، وإنما سدَّ حفرةَ نفسِه، وإنَّ لكلِّ امرئٍ منكم حفرةً لابدَّ والله أن يسُدَّها، إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لَمَّا خلق الدنيا حكَم عليها بالخرابِ، وعلى أهلِها بالفناءِ، وما امتلأتْ دارٌ حَبرةً إلا امتلأتْ عَبرةً، ولا اجتمَعوا إلا تفرَّقوا، حتى يكونَ اللهُ هو الذي يرثُ الأرضَ ومَن عليها، فمَن كان منكم باكيًا فليبكِ على نفسِه، فإنَّ الذي صار إليه صاحبُكم، كلُّكم يصيرُ إليه غدًا.

وقال ميمونُ بنُ مهرانَ: خرَجتُ معَ عمرَ إلى القبورِ، فقال لي: يا أبا أيوبَ، هذه قبورُ آبائي بني أميةَ، كأنَّهم لم يشاركوا أهلَ الدنيا في لذَّتِهم وعيشِهم، أما تراهم صَرعَى قد خلَتْ فيهم المَثُلاتُ، واستحكَم فيهم البلاءُ؟ ثم بكَى حتى غُشِي عليه، ثم أفاق، فقال: انطلقوا بنا فوالله لا أعلمُ أحدًا أنعَمَ ممَّن صار إلى هذه القبورِ، وقد أمِن من عذابِ اللهِ.

وقال غيرُه: خرَج عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ في جنازةٍ، فلمّا دُفِنتْ قال لأصحابِه: قِفوا حتى آتيَ قبورَ

الأحبة. فأتاهم فجعل يبكي ويدعو، إذ هتف به التُّرابُ، فقال: يا عمرُ ألا تسألني ما فعلتُ في الأحبة؟ قال قلتُ: وما فعلتَ بهم؟ قال: مزَّقتُ الأكفانَ، وأكلتُ اللحومَ، وشدختُ المقلتين، وأكلتُ الحدقتين، ونزعتُ الكفَّين من الساعدين، والساعدين من العضدين، والعضدين من المنكبين، والمنكبين من الصُّلب، والقدمين من الساقين، والساقين من الفخذين، والفخذين من الورك، والوركَ من الصُّلب وعمرُ يبكي. فلمَّا أراد أن يذهبَ قال له: يا عمرُ، ألا أدُلُّكَ على أكفانٍ لا تبلَى؟ قال: وما هي؟ قال: تقوى الله، والعملُ الصالحُ.

وقال مرَّةً لرجل من جلسائه: لقد أرقتُ الليلةَ مفكراً. قال: وفيمَ يا أميرَ المؤمنين؟ قال: في القبر وساكنه، إنَّك لو رأيتَ الميتَ بعدَ ثالثةٍ في قبره، لاستوحشتَ من قُربه بعد طول الأنس منك بناحيته، ولرأيتَ بيتًا تجولُ فيه الهوامُ. ويجري فيه الصديدُ. وتخترقُه الديدانُ، مع تغيُّر الرِّيح، وبلَى الأكفان بعدَ حسنِ الهيئة، وطيبِ الريح، ونقاءِ الثوب. قال: ثم شهق شهقةً خرَّ مَغشيًّا عليه.

وقال مقاتلُ بنُ حيانَ: صلَّيتُ وراءَ عمرَ بنِ عبد العزيز فقرأ: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]. فجعل يكرِّرُها وما يستطيعُ أن يُجاوزَها. وقالت امرأتُه فاطمةُ: ما رأيتُ أحدًا أكثرَ صلاةً وصيامًا منه، ولا أحدًا أشدَّ فَرَقًا من ربِّه منه، كان يصلِّي العشاء ثم يجلسُ يبكي حتى تغلبَه عينُه، ثم ينتبه فلا يزالُ يبكي حتى تغلبَه عينُه. قالت: ولقد كان يكونُ معي في الفراشِ فيذكرُ الشيءَ من أمرِ الآخرة؛ فينتفضُ كما ينتفضُ العصفورُ في الماء، ويجلسُ يبكي، فأطرحُ عليه اللحافَ رحمةً له، وأنا أقولُ: يا ليتَ كان بيننَا وبينَ الخلافة بُعدَ المشرقين، فوالله ما رأينا سروراً منذ دخلنا فيها.

وقال عليُّ بنُ زيد: ما رأيتُ رجلين كأنَّ النارَ لم تُخلَقْ إلا لهما مثلَ الحسنِ، وعمرَ بن عبد العزيز. وقال بعضُهم: رأيتُه يبكي حتَّى بكَى دمًا. قالوا: وكان إذا أوَى إلى فراشه قرأ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآية [الأعراف: ٥٤]. ويقرأُ: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧]. ونحوَ هذه الآيات، وكان يجتمعُ كلَّ ليلة إليه أصحابُه من الفقهاء فلا يذكرُون إلا الموتَ والآخرةَ، ثم يبكُون حتى كأنَّ بينهم جنازةً.

وقال أبو بكر الصوليُّ، عن المبرد: كان عمرُ بنُ عبد العزيز يتمثَّلُ بقول الشاعر:

فما تزوَّدَ ممَّا كانَ يجمعُهُ ... سوى حنوط غداةَ البينِ في خِرَقِ
وغيرَ نفحةِ أعوادٍ تُشبُّ له ... وقلَّ ذلكَ من زادٍ لمنطلقِ
بأيِّما بلدٍ كانتْ منيَّتُهُ ... إن لا يسِرْ طائعًا في قصدِها يُسَقِ

ونظَر عمرُ بنُ عبد العزيز، وهو في جنازةٍ، إلى قوم قد تلثَّموا من الغبارِ والشمسِ، وانحازوا إلى الظلِّ، فبكَى وأنشدَ:

من كان حين تصيبُ الشمسُ جبهتَه أو الغبارُ يخافُ الشَّينَ والشعَثا
ويألفُ الظلَّ كي تبقى بشاشتُه فسوفَ يسكُنُ يومًا راغمًا جدَثا
في قعرِ مُظلِمةٍ غبراءَ مُوحشةٍ يطيلُ في قعرِها تحتَ الثَّرى لُبثا
تجهَّزي بجهازٍ تبلُغينَ بهِ يا نفسُ قبلَ الرَّدَى لم تُخلقي عبَثا

وقال المفضَّلُ بنُ غسَّانَ الغلاَّبيُّ: كان عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ لا يجفُّ فوه من هذا البيت:

ولا خيرَ في عيشِ امرئٍ لم يكُنْ له مِنَ اللهِ في دارِ القرارِ نصيبُ

وزاد غيرُه معه بيتًا حسنًا، وهو قولُه:

فإن تُعجبِ الدنيا أُناسًا فإنَّها متاعٌ قليلٌ والزوالُ قريبُ

ومن شعرِه الذي أنشدَه ابنُ الجوزيِّ:

أنا مَيْتٌ وعزَّ مَن لا يموتُ قد تيقَّنتُ أنَّني سأموتُ
ليسَ مُلكٌ يُزيلُه الموتُ مُلكًا إنَّما المُلكُ مُلكُ مَن لا يموتُ

وقال عبدُ الله بنُ المبارك: كان عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يقولُ:

تُسَرُّ بما يَبْلَى وتَفرَحُ بالمُنَى كما اغترَّ باللذاتِ في النومِ حالمُ
نهارُك يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ وليلُك نومٌ والرَّدَى لكَ لازمُ
وسعيُكَ فيما سوفَ تكرَهُ غِبَّهُ كذلكَ في الدُّنيا تعيشُ البهائمُ

وقال محمدُ بنُ كثير: قال عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ يلومُ نفسَه ويعاتبُها:

أيقظانُ أنتَ اليومَ أم أنتَ نائمُ وكيفَ يُطيقُ النومَ حيرانُ هائمُ
فلو كنتَ يقظانَ الغداةَ لحرَّقتْ مدامعَ عينيكَ الدموعُ السواجمُ
نهارُك يا مغرورُ سهوٌ وغفلةٌ وليلُك نومٌ والرَّدَى لك لازمُ
بل أصبحتَ في النومِ الطويلِ وقد دنَتْ إليك أمورٌ مُفظعاتٌ عظائمُ
وشغلُك فيما سوفَ تكرَهُ غِبَّهُ كذلكَ في الدنيا تعيشُ البهائمُ

ورَوى ابنُ أبي الدنيا بسنده عن فاطمةَ بنت عبد الملك، قالت: انتبَه عمرُ ذاتَ ليلةٍ، وهو يقولُ: لقد رأيتُ رؤيا معجبَةً. فقلتُ: أخبِرْني بها. فقَالَ: حتى نُصبحَ. فلمَّا صلَّى الصبحَ بالمسلمين دخَل فسألتُه عنها، فقال: رأيتُ كأنِّي دُفِعتُ إلى أرضٍ خضراءَ واسعةٍ كأنَّها بساطٌ أخضرُ، وإذا فيها قصرٌ كأنَّه الفضَّةُ، فخرَج منه خارجٌ فنادَىٰ: أين محمدُ بنُ عبدِ الله؟ أين رسولُ الله ﷺ؟ إذ أقبَل رسولُ الله ﷺ حتى دخَل ذلك القصرَ، ثم خرَج آخَرُ فنادَىٰ: أين أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ؟ فأقبَل فدخَلَ، ثم خرَج آخرُ فنادَىٰ: أين عمرُ بنُ الخطَّابِ؟ فأقبلَ فدخَل، ثم خرَج آخرُ فنادَىٰ: أين عثمانُ بنُ عفَّانَ؟

فأقبلَ فدخَل، ثم خرَج آخرُ فنادَىٰ: أين عليُّ ابنُ أبي طالب؟ فأقبَلَ فدخَل، ثم خرَج آخرُ فنادَىٰ: أين عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ؟ فقمتُ فدخَلْتُ فجَلَسْتُ إلىٰ جانبِ أبي عمرَ بنِ الخطَّابِ، وهو عن يسارِ رسولِ الله ﷺ، وأبو بكرٍ عن يمينِه، وبينَه وبينَ رسولِ الله ﷺ رجلٌ، فقُلْتُ لأبي: مَن هذا؟ قال: هذا عيسىٰ ابنُ مريمَ. ثم سمعتُ هاتفًا يهتِفُ، بيني وبينَه نورٌ لا أَراه، وهو يقولُ: يا عمرُ بنَ عبدِ العزيزِ، تَمَسَّكْ بما أنتَ عليه، واثبُتْ علىٰ ما أنتَ عليه. قال: ثم كأنَّه أذن لي في الخُرُوجِ فخرَجتُ، فالتفَتُّ فإذا عثمانُ بنُ عفَّانَ وهو خارجٌ مِن القصرِ، وهو يقولُ: الحمدُ للهِ الذي نصَرني ربِّي، وإذا عليٌّ في إثْرِه، وهو يقولُ: الحمدُ للهِ الذي غفَر لي ربِّي.

فصلٌ

وقد ذكَرْنا في «دلائلِ النبوةِ» الحديثَ الذي رواه أبو داودَ في سُنَنِه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ اللهَ يبعَث لهذه الأمَّة على رأسِ كلِّ مائة سنة من يُجدِّدُ لها أمْرَ دينها**»(١). فقال جماعةٌ مِن أهلِ العلمِ منهم أحمدُ بنُ حنبلٍ - فيما ذكَره ابنُ الجوزيِّ وغيرُه -: إنَّ عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ كان علىٰ رأسِ المائةِ الأُولىٰ. وقال آخَرون: هو مِن جملةِ مَن جدَّد الله به أمرَ الدينِ علىٰ رأسِ المائةِ الأولىٰ، وإن كان هو أَوْلىٰ مَن

(١) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٣٢٩١) من طريق ابن وهب عن سعيد ابن أبي أيوب عن شراحيل بن يزيد المعافري عن أبي علقمة عن أبي هريرة - فيما أعلم - عن رسول الله ﷺ كذا بالشك في الرفع.
وثَمَّ علة أخرىٰ أشار إليها أبو داود فقال: «رواه عبد الرحمن بن شريح الاسكندراني لم يجز به شراحيل»(١)
قلت: هذا لا يُعَل به الحديث أما الشك في قوله فيما أعلم عن رسول الله ﷺ فليس بشك في حقيقة الأمر وقد جُعل وصله معلومًا له.
وأما رواية عبد الرحمن بن شريح الذي رواه ولم يجز به شراحيل.
فلا تقل رواية سعيد ابن أبي أيوب عن رواية عبد الرحمن لأن سعيد إن لم يكن أقوىٰ من عبد الرحمن وهو الظاهر فليس أقل رتبة منه ومعه زيادة علم واجبٌ قبولها ولذلك قال السخاوي في «المقاصد» ص (٢٠٣): « وسعيد الذي رفعه أولىٰ بالقبول لأمرين: أحدهما: أنه لم يختلف في توثيقه» بخلاف عبد الرحمن فقد قال فيه ابن سعد: «منكر الحديث» (٢) والثاني: أنه معه زيادة علم علىٰ من قطعه وقوله فيما أعلم ليس بشك في وصله بل قد جعل وصله معلومًا له، وقد اعتمد الأئمة هذا الحديث.
وأخرج الحديث الطبراني في «الأوسط» (٦٥٢٣) ثنا محمد بن رزيق بن جامع قال: حدثنا عمرو بن سواد السرحي قال حدثنا ابن وهب قال: أخبرني سعيد ابن أبي أيوب عن شراحيل بن زيد المعافري عن أبي طلحة عن أبي هريرة ورجاله ثقات إلا شيخ الطبراني فلم أعرفه.
وأظن أبا طلحة هذا تصحيف أبي علقمة وإلا فلا أعرفه وقال الطبراني عقبه: «لا يروىٰ عن رسول الله ﷺ إلا بهذا الإسناد تفرد به ابن وهب» قلت: فإن كان تصحيف فالإسناد رجاله ثقات: ثم رأيت السخاوي في «المقاصد» ص (٢٠٣) قال: أخرجه الطبراني في «الأوسط» كالأول - يعني - كرواية أبي داود وسنده صحيح ورجاله كلهم ثقات وكذا صححه الحاكم في «مستدركه» وقد أشار أحمد إلىٰ صحة الحديث كما في « السير» (١٠/ ٤٦)(٣).

(١) وراجع ما ذكره صاحب «عون المعبود» (١١/ ٣٨٥) وما بعدها بشأن الحديث.
(٢) وقدتعقب الحافظ ابن سعد في تضعيفه له،
(٣) ونقل محقق السير عن ابن حجر في «توالي التأسيس» ص (٤٨) تقويته.

دخل في ذلك وأحقَّ؛ لإمامته، وعموم ولايته، واجتهاده وقيامه في تنفيذ الحقِّ، فقد كانت سيرتُه شبيهة بسيرة عمرَ بنِ الخطَّاب، وكان كثيرًا ما يتشبَّه به. وقد جمع الشَّيخُ أبو الفرج ابنُ الجوزيِّ سيرةَ العُمرين؛ عمرَ بنِ الخطاب، وعمرَ بنِ عبدِ العزيز، وقد أفرَدْنا سيرةَ عمرَ بنِ الخطَّاب في مجلدٍ على حدَةٍ، ومسندَه في مجلَّدٍ ضخمٍ، وأما سيرةُ عمرَ بنِ عبدِ العزيز فقد ذكَرنا منها طرفًا صالحًا هنا، يُستدلُّ به على ما لم نذكُرْه.

وقد كان عمرُ رحمه اللهُ يُعطي مَن انقطَع إلى المسجدِ الجامع، من بلده وغيرها، للفقه ونشرِ العلمِ، وتلاوة القرآن، في كلِّ عامٍ من بيت المالِ مائةَ دينارٍ، وكان يكتُبُ إلى عماله أن يأخذوا الناسَ بالسُّنَّة، ويقولُ: إن لم تُصلِحْهم السُّنَّةُ فلا أصلَحهم اللهُ. وكتَب إلى سائرِ البلادِ أن لا يركَبَ ذميٌّ من اليهودِ والنصارى وغيرهم على سَرْجٍ، ولا يلبَسَ قَبَاءً ولا طيلسانًا ولا السراويلَ ولا يمشيَنَّ أحدٌ منهم إلا بزُنَّارٍ من جلدٍ، وهو مقرونُ الناصيةِ، ومن وُجِد منهم في منزلِه سلاحٌ أُخذَ منه. وكتَب أيضًا أن لا يُستعمَلَ على الأعمالِ إلا أهلُ القرآنِ، فإنْ لم يكنْ عندَهم خيرٌ فغيرُهم أولى أن لا يكونَ عندَه خيرٌ. وكان يكتُبُ إلى عماله: اجتنبوا الأشغالَ عند حضورِ الصلواتِ، فإنَّ مَن أضاعَها فهو لِمَا سواها من شرائعِ الإسلامِ أشدُّ تضييعًا. وقد كان يكتُبُ الموعظةَ إلى العاملِ من عماله فينخلعُ بها قلبُه، وربما عزَل بعضُهم نفسَه عن العمالةِ من شدَّةِ ما تقعُ موعظتُه منه، وذلك أنَّ الموعظةَ إذا خرَجت من قلبِ الواعظِ دخلتْ قلبَ الموعوظ. وقد صرَّح كثيرٌ من الأئمة بأنَّ كلَّ مَن استعمَله عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ ثقةٌ، وقد كتب إليه الحسنُ البصريُّ بمواعظَ حِسانٍ ولو تقصَّينا ذلك لطال هذا الفصلُ، ولكن قد ذكرنا ما فيه إشارةٌ إلى ذلك. وكتَب إلى بعضِ عماله: أما بعدُ، فإنِّي أذكِّرُك ليلةً تَمخَّضُ بالساعةِ فصباحُها القيامةُ، فيا لها من ليلةٍ ويا لَه مِن صباحٍ، وكان يومًا على الكافرين عسيرًا. وكتَب إلى آخرَ: أذكِّرُك طولَ سهرِ أهلِ النارِ في النارِ مع خلودِ الأبدِ، وإياك أن يُنصرَفَ بك من عندِ اللهِ فيكونَ آخرَ العهدِ بك، وانقطاعَ الرجاءِ منك. قالوا: فخلَع هذا العاملُ نفسَه من العمالةِ، وقدم على عمرَ، فقال له: ما لك؟ فقال: خلَعتَ قلبي بكتابِك يا أميرَ المؤمنين، والله لا أعودُ إلى ولايةٍ أبدًا.

فصلٌ

وقد ردَّ جميعَ المظالمِ كما قدَّمنا، حتى إنَّه ردَّ فَصَّ خاتَمٍ كان في يدِه؛ قال: أعطانيه الوليدُ مِن غيرِ حقِّه. وخرَج مِن جميعِ ما كان فيه مِن النَّعيمِ في الملبَسِ والمأكلِ والمتاعِ، حتى إنَّه ترَك التمتُّعَ بزوجته الحسناءِ، فاطمةَ بنتِ عبدِ الملك، يقالُ: كانت من أحسنِ النساء. ويقالُ: إنَّه ردَّ جهازَها وما كان من أموالِها إلى بيتِ المالِ. واللهُ أعلمُ. وقد كان دَخْلُه في كلِّ سنةٍ قبلَ أن يليَ الخلافةَ أربعين ألفَ دينارٍ، فترَك ذلك كلَّه حتى لم يبقَ له دَخْلٌ سوى أربعمائة دينارٍ في كلِّ سنةٍ، وكان حاصلُه في خلافته ثلاثمائةِ درهمٍ، وكان له مِن الأولادِ جماعةٌ، وكان ابنُه عبدُ الملكِ أجلَّهم، فمات في حياته في زمنِ

خلافته، حتى يقالَ: إنَّه كان خيرًا من أبيه. فلما مات لم يظهرْ عليه حزنٌ، وقال: أمرٌ رَضيَه اللهُ فلا أكرهُه. وكان قبلَ الخلافة يُؤتَى بالقميصِ الرفيعِ اللّيِّن جدًّا، فيقولُ: ما أحسنَه لولا خشونةٌ فيه. فلمَّا ولِي الخلافةَ كان بعدَ ذلك يلبَسُ القميص الغليظَ المرقوعَ ولا يغسلُه حتى يتسخَ جدًّا، ويقولُ: ما أحسنَه لولا لينُه. وكان يلبَسُ الفروةَ الغليظةَ، وكان سراجُه على ثلاث قصباتٍ في رأسهنَّ طينٌ، ولم يبنِ شيئًا في أيامِ خلافته. وكان يخدُم نفسَه بنفسه، وقال: ما تركتُ شيئًا من الدنيا إلا عوَّضَني اللهُ ما هو خيرٌ منه. وكان يأكُلُ الغليظَ من الطعام أيضًا، ولا يُبالي بشيء من النَّعيم، ولا يُتْبِعُه نفسَه ولا يودُّه، حتى قال أبو سليمانَ الدارانيُّ: كان عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ أزهدَ من أُوَيسٍ القرنيِّ؛ لأن عمرَ ملَك الدنيا بحذافيرِها وزهد فيها، ولا ندري حالَ أويسٍ لو ملَك ما ملَكَه عمر كيف يكونُ؟ ليس مَن جرَّب كمنْ لم يجرِّبْ. وتقدَّم قولُ مالك بنِ دينار: الناسُ يقولون: مالكٌ زاهدٌ. إنما الزاهدُ عمرُ بنُ عبدِ العزيزِ؛ أتته الدنيا فاغرةً فاها فردَّها. وقال عبدُ الله بنُ دينار: لم يكنْ عمرُ يرتزقُ من بيت المال شيئًا. وذكروا أنَّه أمَر جاريةً تروِّحه حتى ينامَ فروَّحته، فنامت هي، فأخَذ المروحةَ من يدها وجعَل يروِّحُها، ويقولُ: أصابكِ من الحرِّ ما أصابني. وقال له رجلٌ: جزاكَ اللهُ عن الإسلام خيرًا. فقال: بل جزَى اللهُ الإسلامَ عنِّي خيرًا. ويقالُ: إنه كان يلبَسُ تحت ثيابِه مِسْحًا غليظًا من شعرٍ، ويضَعُ في رقبتِه غُلاًّ إذا قام يصلِّي من الليلِ، ثم إذا أصبَح وضعَه في مكانٍ وختَم عليه فلا يشعُرُ به أحدٌ، وكانوا يظُنُّونه مالاً أو جوهرًا من حرصِه عليه، فلما مات فتَحوا ذلك المكانَ فإذا فيه غُلٌّ ومِسْحٌ.

وكان يبكي حتى بكَى الدمَ مع الدموعِ، ويقالُ: إنَّه بكَى فوقَ سطحٍ حتى سالَ دمعُه من الميزاب. وكان يأكلُ من العدسِ ليرقَّ قلبُه وتغزُرَ دمعتُه، وكان إذا ذكَر الموتَ اضطرَبتْ أوصالُه، وقرأ رجلٌ عندَه: ﴿وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ﴾ الآية [الفرقان: ١٣]. فبكَى بكاءً شديدًا ثم قام فدخل منزلَه وتفرَّق الناسُ عنه، وكان يُكثِرُ أن يقولَ: اللهمَّ سلِّمْ سلِّمْ. وكان يقولُ: اللهمَّ أصلِحْ مَن كان في صلاحِه صلاحٌ لأمةِ محمدٍ ﷺ، وأهلِكْ مَن كان في هلاكِه صلاحُ أمةِ محمدٍ ﷺ. وقال: أفضلُ العبادة أداءُ الفرائضِ، واجتنابُ المحارمِ. وقال: لو أنَّ المرء لا يأمرُ بالمعروفِ ولا ينهى عنِ المنكرِ حتى يُحْكِمَ أمرَ نفسِه لذهَب الأمرُ بالمعروفِ والنهيُ عنِ المنكرِ، ولقلَّ الواعظون والساعون لله بالنصيحة. وقال: الدنيا عدوةُ أولياء الله، وأعداءِ الله، أما الأولياءُ فغمَّتهم، وأما الأعداءُ فَغَرَّتهم. وقال: قد أفلَح من عُصِم من المِراءِ والغضبِ والطمعِ. وقال لرجلٍ: من سيِّدُ قومِك؟ قال: أنا. قال: لو كنتَ كذلك لم تقُلْه. وقال: أزهدُ الناسِ في الدنيا عليُّ بنُ أبي طالبٍ. وقال: لقد بُورِك لعبدٍ في حاجةٍ أكثرَ فيها منَ الدعاء، أُعطِي أو مُنِع. وقال: قيِّدوا العلمَ بالكتابِ. وقال لرجلٍ: علِّمْ ولدَك الفقهَ الأكبرَ: القناعةَ وكفَّ الأذَى. وتكلَّم رجلٌ عندَه فأحسنَ، فقال: هذا هو السِّحرُ الحلالُ. وقصَّتُه مع أبي حازم مطوَّلة حين رآه خليفةً وقد شحَب وجهُه من التقشُّفِ، وتغيَّر حالُه، فقال له:

ألم يكن ثوبُك نقيًّا؟ ووجهُك وضيًّا؟ وطعامُك شهيًّا؟ ومركبُك وطيًّا؟ فقال له: ألم تُخبرني عن أبي هريرةَ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ من ورائكم عقبةً كئوداً لا يجوزُها إلا كلُّ ضامرٍ مهزول**»؟ ثم بكىٰ حتىٰ غُشِيَ عليه، ثم أفاق فذكرَ أنَّه رأىٰ في غشيته تلك أنَّ القيامةَ قد قامتْ، وقد استُدعِيَ بكلٍّ من الخلفاء الأربعة، فأُمر بهم إلىٰ الجنة، ثم ذكرَ مَن بينه وبينهم فلم يدرِ ما صُنع بهم، ثم دُعيَ هو فأُمر به إلىٰ الجنة، فلما انفصل لقيَه سائلٌ فسأله عمَّا كان من أمره فأخبرَه، ثم قال للسائل: فمَن أنت؟ قال: أنا الحجَّاجُ بنُ يوسفَ، قتَلَني ربي بكلِّ قتلةٍ قتلةً، ثم ها أنا أنتظرُ ما ينتظرُه الموحدون. وفضائلُه ومآثرُه كثيرةٌ جداً، وفيما ذكرنا كفايةٌ، ولله الحمدُ والمنَّةُ وهو حسبُنا ونعمَ الوكيلُ.

ذكرُ سببِ وفاتِه رحمه اللهُ

كان سببُها السلَّ، وقيل: سببُها أن مَولًىٰ له سمَّه في طعامٍ، أو شرابٍ، وأُعطي علىٰ ذلك ألفَ دينارٍ. فحصَل له بسبب ذلك مرضٌ، فأُخبِر أنَّه مسمومٌ، فقال: لقد علمتُ يومَ سُقيتُ السُّمَّ. ثم استدعَىٰ مولاه الذي سقاه، فقال له: ويْحَك، ما حمَلك علىٰ ما صنَعتَ؟ فقال: ألفُ دينارٍ أُعطيتُها. فقال: هاتِها. فأحضرَها فوضعَها في بيتِ المال، ثم قال له: اذهَبْ حيثُ لا يراك أحدٌ فتهلكَ.

ثم قيل لعمرَ: تداركْ نفسك. فقال: والله لو أنَّ شفائي أنْ أمسحَ شحمةَ أُذُني، أو أُوتىٰ بطيبٍ فأَشُمَّه ما فعلتُ. فقيل له: هؤلاء بَنُوك ـ وكانوا اثنَيْ عشرَ ـ ألاَ تُوصي لهم بشيء فإنَّهم فقراءُ؟ فقال: ﴿**إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**﴾ [الأعراف: ١٩٦]. والله لا أُعطيهم حقَّ أحدٍ، وهم بينَ رجُلين إمَّا صالحٌ فاللهُ يتولَّىٰ الصالحينَ، وإمَّا غيرُ صالحٍ فما كنتُ لأُعينَه علىٰ فسقه ـ وفي رواية: فلا أُبالي في أيِّ وادٍ هلَك. وفي رواية: أفأدَعُ له ما يستعينُ به علىٰ معصية الله، فأكونَ شريكَه فيما يعملُ بعدَ الموت؟ ما كنتُ لأفعلَ ـ ثم استدعَىٰ بأولاده فودَّعهم وعزّاهم بهذا، وأوْصاهم بهذا الكلام، ثم قال: انصرفوا عصمَكمُ اللهُ، وأحسَن الخلافةَ عليكم. قال: فلقد رأينا بعضَ أولادِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ يحملُ علىٰ ثمانين فرَسًا في سبيلِ الله، وكان بعضُ أولادِ سليمانَ بنِ عبد الملك ـ مع كثرة ما تركَ لهم من الأموال ـ يتعاطَىٰ ويسألُ من أولادِ عمرَ بن عبدِ العزيز؛ لأنَّ عمرَ وكَل ولدَه إلىٰ الله عزَّ وجلَّ، وسليمانُ وغيرُه إنَّما يَكِلون أولادَهم إلىٰ ما يدَعون لهم من الأموال الفانية، فيضيعون وتذهَبُ أموالُهم في شهوات أولادهم.

وقال يعقوبُ بنُ سفيانَ: ثنا أبو النعمان، ثنا حمَّادُ بنُ زيدٍ، عن أيوبَ، قال: قيلَ لعمرَ بنِ عبدِ العزيز: يا أميرَ المؤمنين، لو أتيتَ المدينةَ، فإن قضَىٰ اللهُ موتًا دفنتَ في القبرِ الرابع مع رسول الله ﷺ، وأبي بكرٍ، وعمرَ. فقال: والله لأن يُعذِّبَني اللهُ بكلِّ عذابٍ، إلاَّ النارَ ـ فإنَّه لا صبرَ لي عليها ـ أحبُّ إليَّ من أن يعلَمَ اللهُ من قلبي أنِّي لذلك الموضع أهلٌ.

قالوا: وكان مرضُه بدَيرِ سمعانَ من قُرىٰ حمصَ، وكانت مدةُ مرضِه عشرين يومًا.

ولَمَّا احتُضر قال: أجلسوني. فأجلَسوه، فقال: إلَهي، أنا الذي أمرتَني فقصَّرتُ، ونهَيتَني فعصَيتُ - ثلاثًا - ولكنْ لا إله إلاَّ اللهُ. ثم رفَع رأسه فأحَدَّ النظرَ، فقالوا: إنَّك لتنظُرُ نظرًا شديدًا يا أميرَ المؤمنين. فقال: إنِّي لأرىٰ حضَرةً ما هم بإنسٍ ولا جانٍّ. ثم قُبِض من ساعته. وفي رواية أنَّه قال لأهله: اخرُجوا عنِّي. فخرَجوا وجلَس على الباب مسْلَمةُ بنُ عبد الملك، وأختُه فاطمةُ، فسمعوه يقولُ: مرحبًا بهذه الوجوه التي ليست بوجوه إنسٍ ولا جانٍّ، ثم قرأ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]. ثم هدأ الصوتُ، فدَخَلوا عليه فوجَدوه قد غمِّض، وسوِّي إلىٰ القبلة، وقبِض.

وقال أبو بكر بنُ أبي شيبةَ: ثنا عبدُ الملك بنُ عبد العزيز، عن الدَّراوَرْديِّ، عن عبد العزيز بن أبي سلَمةَ، أن عمرَ بنَ عبد العزيز لَمَّا وضع عندَ قبره هبَّتْ ريحٌ شديدةٌ، فسقَطتْ صحيفةٌ بأحسن كتابٍ فقرَءوها فإذا فيها: بسم الله الرَّحمنِ الرحيم، براءةٌ من الله لعمرَ بنِ عبد العزيز من النار، فأدخَلوها بينَ أكفانه، ودفَنوها معه. وروي نحوُ هذا من وجهٍ آخرَ.

وروىٰ ابنُ عساكرَ في ترجمة عبد الصمد بن إسماعيلَ بسنده، عن عمير بن الحُبَاب السُّلَميِّ، قال: أسرتُ أنا وثمانيةٌ في زمان بني أميَّةَ، فأمَر ملكُ الروم بضرب رقابنا، فقتِل أصحابي، وشفَع فيَّ بطْريقٌ من بطارقة الملك، فأطلَقني له، فأخَذني إلىٰ منزله، وإذا له ابنةٌ مثلُ الشمس، فعرَضها عليَّ، وعلىٰ أن يُقاسمَني نعمتَه، وأدخُلَ معه في دينه، فأبيتُ، وخلَتْ بي ابنتُه فعرَضتْ نفسَها عليَّ فامتنَعتُ، فقالت: ما يمنَعُك من ذلك؟ فقلتُ: يمنَعُني ديني، فلا أتركُ ديني لامرأةٍ ولا لشيء. فقالت: تريدُ الذَّهابَ إلىٰ بلادك؟ قلتُ: نعم. فقالت: سِرْ علىٰ هذا النَّجم بالليل، واكمُنْ بالنَّهار؛ فإنَّه يُلقيك إلىٰ بلادك. قال: فسرتُ كذلك. قال: فبينَا أنا في اليوم الرابع مُكمِنٌ، وإذا بخَيلٍ مُقبلةٍ فخشيتُ أن تكونَ في طلَبي؛ فإذا أنا بأصحابي الذين قتِلوا، ومعهم آخَرون علىٰ دوابَّ شُهْبٍ، فقالوا: عُميرٌ؟ فقلتُ: عُميرٌ، فقلتُ: أوَليس قد قتِلتُم؟ قالوا: بلىٰ، ولكنَّ اللهَ، عزَّ وجلَّ، نشَر الشهداءَ وأذِن لهم أن يشهدوا جنازةَ عمرَ بنِ عبد العزيز. قال: ثم قال لي بعضُهم: ناوِلْني يدَك يا عُميرُ، فأردَفني، فسِرْنا يسيرًا، ثم قذَف بي قَذْفةً وقَعْتُ قُرْبَ منزلي بالجزيرة، من غير أن يكونَ لحِقَني شرٌّ.

وقال رجاءُ بنُ حيْوةَ: كان عمرُ بنُ عبد العزيز قد أوصَىٰ إليَّ أن أغسِّلَه وأكفِّنَه، وأدفنَه فإذا حلَلتُ عُقدةَ الكفَنِ، أنْ أنظُرَ في وجهه، قال: فلمَّا فعلتُ ذلك إذا وجهُه كالقراطيس بياضًا، وكان قد أخبَرني أنَّه دَفَن ثلاثةً من الخلفاء فيَحُلُّ عن وجوههم فإذا هي مسودَّةٌ.

وروىٰ ابنُ عساكرَ في ترجمة يوسفَ بنِ ماهكٍ قال: بينَما نحن نسوِّي الترابَ علىٰ قبر عمرَ بنِ عبد العزيز، إذ سقَط علينا من السماء كتابٌ فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، أمانٌ من الله لعمرَ بنِ

عبدِ العزيزِ مِن النارِ. ساقه مِن طريقِ إبراهيمَ بنِ بشّارٍ، عن عبَّادِ بنِ عمرٍو، عن محمدِ بنِ يزيدَ البصريِّ، عن يوسفَ بنِ ماهكٍ فذكَره، وفيه غرابةٌ شديدةٌ. واللهُ أعلمُ. وقد رئيتْ له مناماتٌ صالحةٌ، وتأسَّف عليه الخاصةُ والعامةُ، لا سيَّما العلماءُ والزهادُ والعُبَّادُ. ورثاه الشعراءُ؛ فمِن ذلك ما أنشَده أبو عمرٍو الشَّيْبانيُّ لكُثيِّرِ عزَّةَ يرثي عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ:

عمَّت صنائعُه فعمَّ هلاكُه ... فالناسُ فيه كلُّهم مأجُورُ
والناسُ مأتمُهم عليه واحدٌ ... في كُلِّ دارٍ رنَّةٌ وزفيرُ
يُثْني عليكَ لسانُ مَن لم تُولِه ... خيرًا لأنكَ بالثَّناءِ جديرُ
ردَّتْ صنائعُه عليه حياتَه ... فكأنَّه مِن نَشْرِها منشورُ

وقال جريرٌ يرثي عمرَ بنَ عبدِ العزيزِ، رحمه اللهُ تعالى:

ينعَى النعاةُ أميرَ المؤمنينَ لنا ... يا خيرَ مَن حجَّ بيتَ اللهِ واعتَمرا
حمِّلتَ أمرًا عظيمًا فاصطبرتَ به ... وقمتَ فيه بأمرِ اللهِ يا عُمَرا
الشمسُ كاسفةٌ ليستْ بطالعةٍ ... تبكي عليك نجومَ الليلِ والقَمرا

وقال مُحاربُ بنُ دثارٍ رحمه اللهُ يرثي عمرَ بنَ عبدِالعزيزِ، رحمه اللهُ تعالى:

لو أعظَمَ الموتُ خلقًا أن يواقعَه ... لعَدله لم يُصبْكَ الموتُ يا عمرُ
كم مِن شريعةِ عدلٍ قد نعَشتَ لهمْ ... كادتْ تموتُ وأخرَى منك تُنتظَرُ
يا لهفَ نفسي ولهفَ الواجدينَ معي ... على العُدولِ التي تَغْتالُها الحفَرُ
ثلاثةٌ ما رأتْ عيني لهم شبَهًا ... تضُمُّ أعظُمَهمْ في المسجدِ الحُفَرُ
وأنتَ تتبَعُهمْ لم تألُ مجتهدًا ... سُقيًا لها سنَنٌ بالحقِّ تفتقِرُ
لو كنتُ أملكُ والأقدارُ غالبةٌ ... تأتي رَواحًا وتبيانًا وتبتَكِرُ
صرفتُ عَن عمرَ الخيراتِ مصرَعَهُ ... بدَيرِ سمعانَ لكنْ يغلِبُ القدَرُ

قالوا: وكانت وفاتُه بدَيرِ سمعانَ مِن أرضِ حِمصَ، يومَ الخميسِ، وقيل: الجمُعةِ لخمسٍ مضَين. وقيل: بقِين مِن رجبٍ. وقيل: لعشْرٍ بقِين من رجبٍ سنةَ إحدىْ. وقيل: ثنتين ومائةٍ. واللهُ أعلمُ.

وقال الهيثمُ بنُ عديٍّ: توفِّي في جُمادَىْ سنةَ ثنتين ومائةٍ. وصلىْ عليه ابنُ عمِّه مسلمةُ بنُ عبدِ الملكِ. وقيل: صلَّى عليه يزيدُ بنُ عبدِ الملكِ. وقيل: ابنُه عبدُ العزيزِ بنُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ. وكان عمرُه يومَ مات تسعًا وثلاثين سنةً وأشهُرًا، وقيل: إنه جاوز الأربعين بأشهرٍ. وقيل: بسنةٍ. وقيل: بأكثرَ. وقيل: إنه عاش ثلاثًا وثلاثين سنةً. وقيل: ستًّا وثلاثين. وقيل: سبعًا وثلاثين. وقيل: ثمانٍ وثلاثين سنةً. وقيل: ما بينَ الثلاثين إلى الأربعين ولم يبلُغْها.

وقال أحمدُ عن عبدِ الرزاقِ عن معمرٍ: مات عمرُ على رأسِ خمسٍ وأربعين سنةً. قال ابنُ

عساكرَ: وهذا وهمٌ، والصحيحُ الأوَّلُ، يعني تسعًا وثلاثين سنةً وأشهرًا. وكانت خلافتُه سنتين وخمسةَ أشهرٍ وأربعةَ أيامٍ. وقيل: وأربعةَ عشرَ يومًا. وقيل: سنتان ونصفٌ.

وكان رحمه اللهُ أسمرَ دقيقَ الوجهِ حسنَه، نحيفَ الجسمِ حسَنَ اللحيةِ، غائرَ العينين، بجبهتِه أثرُ شَجَّةٍ، وكان قد شاب وخضَب، رحمه اللهُ، واللهُ سبحانه أعلمُ.

خلافة يزيدَ بن عبد الملك

بويع له بعهدٍ من أخيه سليمانَ بنِ عبدِ الملك، أن يكونَ وليَّ العهدِ من بعدِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فلمّا توفِّي عمرُ في رجبٍ من هذه السنةِ -أعني سنةَ إحدىٰ ومائةٍ- بايعَه الناسُ البيعةَ العامَّةَ، وعمرُه إذ ذاك تسعٌ وعشرون سنةً، فعزَل في رمضانَ منها عن إمرةِ المدينة أبا بكرِ بنَ محمدِ بنِ عمرِو بنِ حزمٍ، وولَّىٰ عليها عبدَ الرحمنِ بنَ الضَّحَّاك بنِ قيسٍ، فجرَت بينَه وبينَ أبي بكرِ بنِ حزمٍ، منافساتٌ وضغائنُ، حتىٰ آلَ الأمرُ إلىٰ أن استدرَك عليه حكومةً فحدَّه حدَّين فيها.

وفيها كانت وقعةٌ بينَ الخوارجِ، وهم أصحابُ بِسطامُ الخارجيِّ، وبينَ جندِ الكوفةِ، وكانتِ الخوارجُ جماعةً قليلةً، وكان جيشُ الكوفةِ نحوًا من عشَرةِ آلافِ فارسٍ، فكادتِ الخوارجُ أن تكسِرَهم، فتذامَروا فيما بينَهم، فطَحنوا الخوارجَ طحنًا عظيمًا، وقتَلوهم عن آخرِهم، فلم يُبْقُوا منهم ثائرًا.

وفيها خرَج يزيدُ بنُ المهلَّبِ، فخلَع يزيدَ بنَ عبدِ الملك، واستحوَذ علىٰ البصرةِ، وذلك بعدَ محاصرةٍ طويلةٍ وقتالٍ طويلٍ، فلمَّا ظهَر عليها بسَط العدلَ في أهلِها، وبذَل الأموالَ، وحبَس عاملَها عديَّ بنَ أرطاةَ؛ لأنه كان قد حبَس آلَ المهلَّبِ الذين كانوا بالبصرةِ، حينَ هرَب يزيدُ بنُ المهلبِ من محبسِ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، كما ذكَرنا، ولمّا ظهَر علىٰ قصرِ الإمارةِ أُتِيَ بعديِّ بنِ أرطاةَ، فدخَل عليه وهو يضحَكُ، فقال له يزيدُ بنُ المهلَّب: إنِّي لأتعجَّبُ من ضحكِك؛ لأنَّك هرَبتَ من القتالِ كما تهرُبُ النساءُ، وإنَّك جئتَني وأنت تُتَلُّ كما يُتَلُّ العبدُ. فقال عديٌّ: إنِّي لأضحَكُ؛ لأن بقائي بقاءٌ لك، وإنَّ من ورائي طالبًا لا يترُكُني. قال: ومَن هو؟ قال: جنودُ بني أميةَ بالشامِ لا يترُكُونك، فتدارَكْ نفسَك قبلَ أن يرميَ إليك البحرُ بأمواجِه فتطلُبَ الإقالةَ فلا تقالُ. فردَّ عليه يزيدُ جوابَ ما قال، ثم سجَنه كما سجَن أهلَه.

واستقرَّ أمرُ يزيدَ بنِ المهلَّبِ بالبصرةِ، وبعَث نوّابَه في النواحي والجهاتِ، واستناب في الأهوازِ، وأرسَل أخاه مدركَ بنَ المهلَّبِ علىٰ نيابةِ خراسانَ، ومعه جماعةٌ من المقاتلةِ، فلمَّا بلَغ خبرُه الخليفةَ يزيدَ بنَ عبدالملك جهَّز ابنَ أخيه العباسَ بنَ الوليدِ بنِ عبدِ الملك في أربعةِ آلافٍ، مقدِّمةً بينَ يدَيْ عمِّه مسلمةَ بنِ عبدِ الملك، وهو في جنودِ الشامِ، قاصدين البصرةَ لقتالِه، ولمَّا بلَغ يزيدَ بنَ المهلَّبِ مخرَجُ الجيوشِ قاصدةً إليه، خرَج من البصرةِ، واستَناب عليها أخاه مروانَ بنَ المهلَّبِ، وجاء حتىٰ نزَل

واسطًا، واستشار مَن معه مِن الأمراءِ في ماذا يعتمدُه؟ فاختلفوا عليه في الرأيِ، فأشار عليه بعضُهم بأن يسيرَ إلى الأهوازِ ليتحصَّنَ في رءوسِ الجبالِ، فقال: إنما تريدون أن تجعلوني طائرًا في رأسِ جبلٍ؟ وأشار عليه رجالُ أهلِ العراقِ أن يسيرَ إلى الجزيرةِ فينزلَها، ويتحصَّنَ بأجودِ حصنٍ فيها، ويبعثَ عليه رجالَ أهلِ العراقِ، ويجتمعُ عليه أهلُ الجزيرةِ، فيقاتلَ بهم أهلَ الشامِ.

وانسلَختْ هذه السنةُ وهو نازلٌ بواسطٍ، وجيشُ الشامِ قاصدُه.

وحجَّ بالناسِ في هذه السنة عبدُ الرحمنِ بنُ الضحاكِ بنِ قيسٍ أميرُ المدينة. وعلى مكةَ عبدُ العزيزِ ابنُ عبدِ اللهِ بنِ خالدِ بنِ أَسيدٍ، وعلى الكوفة عبدُ الحميدِ بنُ عبدِ الرحمنِ بن زيدِ بنِ الخطابِ، وعلى قضائِها عامرٌ الشعبيُّ، وعلى البصرةِ يزيدُ بنُ المهلَّبِ، قد استحوذ عليها وخلَع أميرَ المؤمنين يزيدَ بنَ عبدِ الملكِ.

وفيها توفِّي مع عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، **ربعيُّ بنُ حراشٍ، ومسلمُ بنُ يسارٍ.**

وأبو صالحٍ السمَّانُ، وكان عابدًا صادقًا ثَبْتًا، وقد ترجَمناه في كتابِنا «التكميلِ». واللهُ سبحانَه أعلمُ.

* * *

ثم دخلت سنة ثنتين ومائة

ففيها كان اجتماعُ مسلمةَ بنِ عبدِ الملكِ مع يزيدَ بنِ المهلَّبِ، وذلك أن يزيدَ بنَ المهلَّبِ ركب من واسطٍ، واستخلف عليها ابنَه معاويةَ، وسار هو في جيشٍ، وبينَ يدَيه أخوه عبدُ الملك بنُ المهلَّبِ، حتى بلَغ مكانًا يقالُ له: العَقْرُ. وانتهَى إليه مسلمةُ بنُ عبدِ الملكِ في جنودٍ لا قِبلَ ليزيدَ بها، وقد التقت المقدِّمتان أولاً، فاقْتتَلوا قتالاً شديدًا، فهزَم أهلُ البصرةِ أهلَ الشامِ، ثم تذامَر أهلُ الشامِ، فحملَوا على أهلِ البصرةِ فكشَفوهم، فهزموهم، وقتَلوا منهم جماعةً من الشجعانِ، منهم المنتوفُ، وكان شجاعًا مشهورًا، وكان من موالي بكرِ بنِ وائلٍ: فقال في ذلك الفرزدقُ:

تُبكِّي على المنتوفِ بكرُ بنُ وائلٍ ... وتنهى عن ابنَيْ مِسْمَعٍ مَنْ بَكاهما

فأجابه الجَعْدُ بنُ درهمٍ مولى الثوريِّين من هَمْدانَ، وهذا الرجلُ هو أوّلُ الجهميةِ، وهو الذي ذبَحه خالدُ بنُ عبدِ الله القسريُّ يومَ عيدِ الأضحى، فقال الجعدُ:

نُبكِّي على المَنتوفِ في نصرِ قومِه ... ولسنا نُبكِّي الشائدَين أباهما

أراد فناءَ الحيِّ بكرِ بنِ وائلٍ ... فعِزُّ تميمٍ لو أُصيبَ فناهُما

فلا لقِيَا رَوحًا من اللهِ ساعةً ... ولا رَقَأتْ عينا شَجيٍّ بَكَاهما

أفي الغشِّ نبكي إنْ بكَينا عليهما ... وقد لقِيا بالغشِّ فينا رَدَاهما

ولمّا اقترَب مسلمةُ، وابنُ أخيه العباسُ بنُ الوليدِ من جيشِ يزيدَ بنِ المهلَّبِ، خطَب يزيدُ بنُ المهلَّبِ الناسَ، وحرَّضهم على القتالِ - يعني على قتالِ أهلِ الشامِ - وكان مع يزيدَ نحوٌ من مائةِ ألفٍ وعشرين ألفًا قد بايَعوه على السمعِ والطاعةِ، وعلى كتابِ اللهِ وسنَّةِ رسولِه ﷺ، وعلى أن لا تطأَ الجنودُ بلادَهم، وعلى أن لا تعادَ عليهم سيرةُ الفاسقِ الحجاجِ، ومَن بايَعنا على ذلك قبِلنا منه، ومَن خالفَنا قاتَلْناه.

وكان الحسنُ البصريُّ في هذه الأيامِ يحرِّضُ الناسَ على الكفِّ، وتركِ الدخولِ في الفتنةِ، وينهاهم أشدَّ النهيِ، وذلك لما وقَع من الشرِّ الطويلِ العريضِ في أيامِ ابنِ الأشعثِ، وما قتِل بسببِ ذلكَ من النفوسِ العديدةِ، وجعَل الحسنُ يخطُبُ الناسَ، ويعظُهم في ذلك، ويحرِّضُهم على الكفِّ، فبلَغ ذلك نائبَ البصرةِ مروانَ بن المهلَّبِ، فقام في الناسِ خطيبًا فأمَرهم بالجدِّ والجهادِ والنفيرِ إلى القتالِ، ثم قال: ولقد بلَغني أن هذا الشيخَ الضالَّ المُرائيَ - ولم يسمِّه - يثبِّطُ الناسَ عنّا، أمَا واللهِ ليكُفَّنَ عن ذلك، أو لأفعَلنَّ ولأفعَلنَّ، وتوعَّد الحسنَ، فلما بلَغ الحسن قولُه، قال: أما واللهِ ما أكرَهُ أن يُكرمَني اللهُ بهوانه. فسلَّمه اللهُ منه حتى زالت دولتُهم، وذلك أنَّ الجيوشَ لَمّا تواجَهتْ تبارَزَ الناسُ قليلاً، ولم تنشَبِ الحربُ شديدًا، فلم يثبُتْ أهلُ العراقِ حتى فرّوا سريعًا، وبلَغهم أنَّ الجسرَ الذي جاءوا عليه قد حرِق فانهزموا، فقال يزيدُ بنُ المهلَّبِ: ما بالُ الناسِ؟ ولم يكنْ من الأمرِ ما يُفَرُّ

من مثله، فقيل له: إنه بلَغهم أن الجسرَ قد حرق. فقال: قبَّحهم اللهُ.

ثم رام أنْ يردَّ المنهزمين فلم يُمكنْه ذلك، فثبَت في عصابةٍ من أصحابِه، وجعَل بعضُهم يتسلَّلون منه حتى بقِي في شرذمةٍ منهم قليلةٍ، وهو مع ذلك يسيرُ قُدُمًا لا يمُرُّ بخيلٍ إلاَّ هزَمهم، وأهلُ الشامِ ينحازون عنه يمينًا وشمالاً، وقد قُتل قبله أخوه حبيبُ بنُ المهلَّبِ، فازداد حَنَقًا وغضَبًا، وهو على فرسٍ له أشهَبَ، ثم قصَد نحوَ مسلَمةَ بنِ عبدِ الملك لا يريدُ غيرَه، فلمَّا واجَهه حمَلتْ عليه خيولُ الشامِ فقتَلوه، وقَتلوا معه أخاه محمدَ بنَ المهلَّبِ، وقتَلوا السَّمَيْدَعَ، وكان من الشُّجعانِ، وكان الذي قتَل يزيدَ بنَ المهلَّبِ رجلٌ يقالُ له: القَحْلُ بنُ عيَّاشٍ. فقتِل إلى جانبِ يزيدَ بنِ المهلَّبِ، وجاءوا برأسِ يزيدَ بنِ المهلبِ إلى مسلَمةَ بنِ عبدِ الملك، فأرسَله مع خالدِ بنِ الوليدِ بنِ عقبةَ ابنِ أبي مُعَيطٍ إلى أخيه أميرِ المؤمنين يزيدَ بنِ عبدِ الملك، واستحْوَذ مسلَمةُ على ما في معسكرِ يزيدَ بنِ المهلَّبِ، وأسَر منهم نحواً من ثلاثمائةٍ، فبعَث بهم إلى الكوفةِ، وبعَث إلى أخيه فيهم، فجاء كتابُ يزيدَ أميرِ المؤمنين بقتلِهم، وسار مسلمةُ فنزَل الحيرةَ.

ولمَّا انتهت هزيمةُ يزيدَ بنِ المهلَّبِ إلى ابنه معاويةَ، وهو بواسطٍ، عمَد إلى نحوٍ من ثلاثين أسيرًا في يدِه فقتَلهم؛ منهم عديُّ بنُ أرطاةَ، رحمه اللهُ، وابنُه، ومالكٌ، وعبدُ الملك ابنا مِسْمَعٍ، وجماعةٌ من الأشرافِ، ثم أقبَل حتى أتى البصرةَ، ومعه الخزائنُ من الأموالِ، وجاء عمُّه المفضَّلُ بنُ المهَلَّبِ، فاجتمَع آلُ المهلَّبِ بالبصرةِ، فأعدُّوا السفنَ، وتجهَّزوا أتمَّ الجهازِ، واستعدوا للهرَبِ، فساروا بعيالِهم وأثقالِهم، فلم يزالوا سائرين، حتى أتَوْا جبالَ كَرْمانَ فنزَلوها، واجتمَع عليهم جماعةٌ ممَّن فلَّ ممَّن كان مع يزيدَ بنِ المهلَّبِ، وقد أمَّروا عليهم المفضَّلَ بنَ المهلَّبِ، فأرسَل مسلمةُ بنُ عبدِ الملك جيشًا عليهم هلالُ بنُ أحوزَ المازنيُّ في طلبِ آلِ المهلَّبِ، ويقالُ: إنَّهم أمَّروا عليهم رجلاً يقال له: مدركُ ابنُ ضَبٍّ الكلبيُّ. فلحقهم بجبالِ كَرْمانَ فاقتَتَلوا هنالك قتالاً شديدًا، فقتِل جماعةٌ من أصحابِ المفضَّلِ، وأسِر جماعةٌ من أشرافِهم، وانهزَم بقيتُهم، ثم لحقوا المفضَّلَ فقتَلوه، وحمِل رأسُه إلى مسلمةَ بنِ عبدِ الملك، وأقبَل جماعةٌ من أصحابِ يزيدَ بنِ المهلَّبِ، فأخَذوا لهم أمانًا من أميرِ الشامِ؛ منهم مالكُ بنُ إبراهيمَ بنِ الأشترِ النَّخَعيُّ، ثم أرسَلوا بالأثقالِ والأموالِ والنساءِ والذُّرِّيَّةِ فوردَت على مسلمة بنِ عبدِ الملك، ومعهم رأسُ المفَضّلِ، ورأس عبدِ الملك ابنَي المهلَّبِ، فبعَث مسلمةُ بالرُّءوسِ، وتسعةٍ من الصبيانِ الأحداثِ الحسانِ إلى أخيه يزيدَ، فأمَر بضربِ أعناقِ أولئك، ونصبت رءوسُهم بدمشقَ ثم أرسَلها إلى حلبَ فنصبت بها، وحلَف مسلَمةُ بنُ عبدِ الملك ليبيعنَّ ذراريَّ آلِ المهلَّبِ، فاشتراهم بعضُ الأمراءِ إبرارًا لقَسَمِه بمائةِ ألفٍ، فاعتَقهم وخلَّى سبيلَهم، ولم يأخُذْ مسلَمةُ من ذلك الأميرِ شيئًا.

وقد رثا الشعراءُ يزيدَ بنَ المهلَّبِ بقصائدَ ذكَرها ابنُ جريرٍ.

ولاية مسلمة على بلاد العراق وخراسان

وذلك أنَّه لمَّا فرَغ من حرب آل المهلَّب كتَب إليه أخوه يزيدُ بنُ عبد الملك بولاية الكوفة والبصرة وخراسانَ في هذه السنة، فاستناب على الكوفة وعلى البصرة، وبعَث على خراسان ختَنَه - زوجَ ابنته - سعيدَ بنَ عبد العزيز بن الحارث بن الحكم بن أبي العاص، الملقَّب بخُذَينة، فسار إليها فحرَّض أهلَها على الصبر والشجاعة، وعاقَب عمالاً ممَّن كان ينوبُ ليزيدَ بن المهلَّب، وأخَذ منهم أموالاً جزيلةً، ومات بعضهم تحتَ العقوبة.

ذكر وقعة جرت بين الترك والمسلمين

وذلك أنَّ خاقانَ الملكَ الأعظمَ ملكَ الترك، بعَث جيشًا إلى الصُّغد لقتال المسلمين، عليهم رجلٌ منهم يقالُ له: كُورصُولُ. فأقبلَ حتى نزَل على قصر الباهليِّ فحصَره وفيه خلقٌ من المسلمين، فصالَحهم نائبُ سمرقندَ - وهو عثمانُ بنُ عبد الله بن مطرِّف - على أربعين ألفًا، ودفَع إليهم سبعَةَ عشَرَ دهقانًا رهائنَ عندَهم، ثم ندَب عثمانُ الناسَ فانتدَب رجلٌ يقال له: المسيَّبُ بنُ بشر الرياحيُّ في أربعة آلاف. فساروا نحوَ الترك، فلمّا كان ببعض الطريق خطَب الناسَ، فحثَّهم على القتال، وأخبَرهم أنَّه ذاهبٌ إلى الأعداء لطلب الشهادة، فرجَع عنه أكثرُ من ألف، ثم لم يزَلْ في كلِّ منزلٍ يخطُبُهم، ويرجع عنه بعضُهم، حتى بقي في سبعمائة مقاتلٍ، فسار بهم حتى غالَق جيشَ الأتراك، وهم محاصِرو ذلك القصر، وقد عزَم المسلمون الذين هم فيه على قتل نسائهم وذبح أولادهم أمامَهم، ثم ينزلون فيقاتلون حتى يُقتَلوا عن آخرهم، فبعَث إليهم المسيَّبُ يثبِّتُهم يومَهم ذلك، فثبَتوا ومكَث المسيَّبُ حتى إذا كان وقتُ السحَر كبَّر، وكبَّر أصحابُه، وقد جعَلوا شعارَهم يا محمدُ، ثم حمَلوا على الترك حملةً صادقةً، فقتَلوا منهم خلقًا كثيرًا، وعقَروا دوابَّ كثيرةً، ونهضَ إليهم التركُ، فقاتَلوهم قتالاً شديدًا، حتى فرَّ أكثر المسلمين، وضربتْ دابَّةُ المسيَّب في عَجُزها فترجَّل عنها، وترجَّل معه الشجعانُ، فقاتَلوا، وهم كذلك قتالاً عظيمًا، والتفَّت الجماعةُ بالمسيَّب، وصبَروا حتى فتَح اللهُ عليهم، وفرَّ المشركون بين أيديهم هاربين لا يلْوُون على شيء، وقد كان الأتراكُ في غاية الكثرة، فنادَى منادي المسيَّب: أن لا تتبَعوا أحدًا منهم، وعليكم بالقصر وأهله. فاحتمَلوهم وحازوا ما في معسكر أولئك الأتراك من الأموال والأشياء النفيسة، وانصرَفوا راجعين سالمين بمَن معهم من المسلمين الذين كانوا محصورين، وجاءت التركُ من الغد إلى القصر فلم يجدوا به داعيًا ولا مجيبًا، فقالوا فيما بينَهم: هؤلاء الذين لقُونا بالأمس لم يكونوا إنسًا، إنَّما كانوا جنًّا. ثم غزا سعيدٌ الملقَّبُ خُذَينةُ أميرُ خراسانَ بلادَ الصُّغْد؛ وذلك لأنَّهم أعانوا الكفارَ على المسلمين في هذه الغزوة التي ذكرناها، فسار إليهم فقاتَلهم قتالاً شديدًا حتى نصرَه اللهُ عليهم، وولَّوا مدبرين، وأخَذ منهم أموالاً جزيلةً، وقبَض ما وجَد لهم من الأموال والحواصل.

وفيها عزَل أميرُ المؤمنين يزيدُ بنُ عبدِ الملك أخاه مسلمةَ عن إمرة العراق وخراسانَ وذلك لأنَّه كان يصرفُ أموالَ الغنيمة فيما يريدُ ولم يصرفْ إلى أخيه يزيدَ شيئًا في هذه المدَّة، وطمع في أخيه فعزَله عنها، وولَّى عليها بدلَه عمرَ بنَ هُبيرةَ على العراق وخراسانَ.

وحجَّ بالناسِ فيها أميرُ المدينة عبدُ الرحمنِ بنُ الضحاكِ بنُ قيسٍ.

وفيها توفِّي عديُّ بنُ أرطاةَ الفَزاريُّ، نائبُ عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ على البصرةِ، وهو الذي قبَض على يزيدَ بنِ المهلبِ، وبعَث به مقيَّدًا إلى عمرَ بنِ عبدِ العزيزِ، فلمَّا قدم عليه أمَر بسجنِه، فلمّا مرِض عمرُ هرب مِن السجنِ، فلما توفِّي عمرُ ظهَر يزيدُ بنُ المهلبِ، ونصَب راياتٍ سودًا، وطلب البصرةَ وملكَها، وجرَت له فصولٌ قد ذكَرها ابنُ جريرٍ، ثم إنَّ معاويةَ بنَ يزيدَ بنِ المهلبِ لمَّا بلَغه قتلُ أبيه أخرَج عديَّ بنَ أرطاةَ هذا مِن الحبسِ وقتَله، وقتَل معه جماعةً نحوَ ثلاثين إنسانًا.

يزيدُ بنُ المهلَّب، كان مِن الشجعانِ المشهورين، وله فتوحاتٌ كثيرةٌ، وكان جوادًا مُمَدَّحًا، له أخبارٌ في الكرمِ والشجاعةِ، وآخرُ أمرِه أنَّه قتِل، وقتِل مِن إخوتِه وأولادِه جماعةٌ، وأخِذت أموالُه ونساؤه وأولادُه، وزال ما كان فيه، وقد كانوا نحوَ ثمانينَ نفسًا آلَ المهلَّبِ بنِ أبي صفرة، وقد جمَعوا شيئًا كثيرًا مِن الأموالِ والجواهرِ، فما أفادَهم ذلك شيئًا بل سُلِبوا ذلك جميعَه.

قال: وممَّن توفِّي فيها من الأعيان والسادة:

الضحَّاكُ بنُ مُزاحمٍ الهلاليُّ أبو القاسم. ويقالُ: أبو محمدٍ. الخراسانيُّ، كان يكون ببَلْخَ وسمرقندَ ونَيسابورَ، وهو تابعيٌّ جليلٌ، روَى عن أنسٍ، وابنِ عباسٍ وابنِ عمرَ، وأبي هريرةَ، وجماعةٍ مِن التابعين، وقيل: إنَّه لم يصحَّ له سماعٌ مِن الصحابةِ حتى ولا مِن ابنِ عباسٍ، وإن كان قد روِي عنه أنَّه جاوَره سبعَ سنين.

وكان الضحاك إمامًا في التفسيرِ، قال الثوريُّ: خُذوا التفسيرَ عن أربعةٍ؛ مجاهدٍ، وعكرمةَ، وسعيدِ بنِ جُبيرٍ والضحاك. وقال الإمامُ أحمدُ: هو ثقةٌ مأمونٌ. وقال ابنُ معينٍ، وأبو زُرعةَ: وهو ثقةٌ. وأنكَر شعبةُ سماعَه مِن ابنِ عباسٍ، وقال: إنَّما أخَذ عن سعيدٍ عنه. وقال ابنُ سعيدٍ القطَّانُ: كان ضعيفًا. وذكَره ابنُ حبانَ في «الثقات»، وقال: لم يشافِهْ أحدًا مِن الصحابةِ، ومَن قال: إنَّه لقِي ابنَ عباس فقد وهِم.

وحمَلت به أمُّه سنتين، ووضعته وله أسنانٌ، وكان يعلِّمُ الصبيانَ حِسبَةً، وقيل: إنَّه كان في مكتبِه ثلاثةُ آلافِ صبيٍّ، وكان يركَبُ حمارًا، ويدورُ مِن العَلياءِ عليهم، وقيل: إنَّه مات سنةَ خمسٍ. وقيل: سنةَ ستٍّ ومائة. وقد بلَغ الثمانين. واللهُ أعلمُ.

أبو المتوكلِ عليُّ بنُ داودَ النَّاجيُّ، تابعيٌّ جليلٌ، ثقةٌ، رفيعُ القدرِ.

* * *

فهرست الجزء التاسع